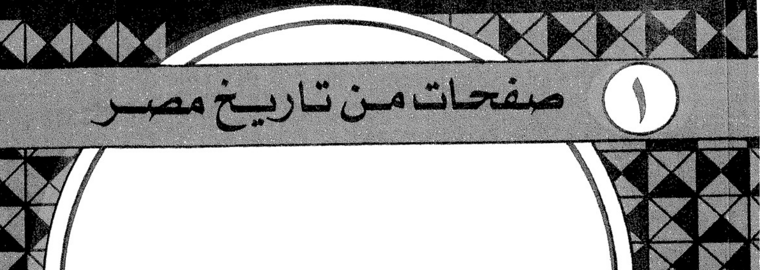


فتح العرب لمصر

تأليف

الدكتور ألفرد ج. بتلر

عرّبه

محمد فريد أبو حديد بك



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة


فتح العرب لمصر

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صفحات من تاريخ مصر

(١)

فتح العرب لمصر



تأليف

الدكتور الفرد

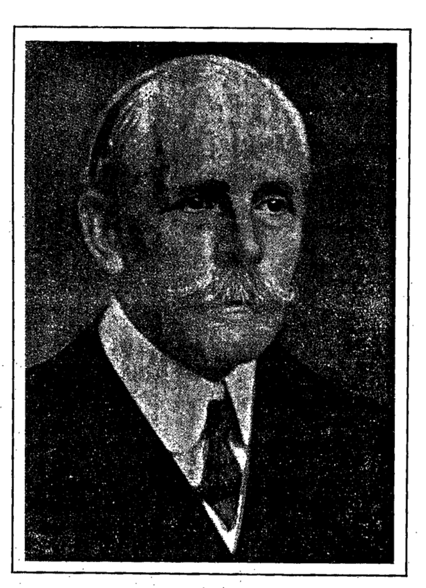
عربه

محمد فريد أبو حديد بك

مكتبة مدبولي

القاهرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المؤلف

الدكتور ألفرد ج . بتلر

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدمة المعرب
(الطبعة الأولى)

ألف الدكتور « ألفرد .ج . بتلر » هذا الكتاب منذ ثلاثين عاماً ، وعرفته منذ عشرين، فكان من الكتب التي خلفت في نفسي أثراً كبيراً ، يمتزج فيه الإعجاب والتقدير بالرغبة في أن تتملك اللغة العربية بحثاً قيماً مثله ، والأسف على أن يخلو تراثنا الأدبي من كتاب نظيره . وأي شيء أعجب من أن تكون لغتنا هي العربية ، وأن يكون الفتح العربي حداً فاصلاً في تاريخنا يفتح صفحة جديدة في حياتنا ، ثم مع هذا لا نجد وصفاً عربياً لذلك الفتح يمكن أن يعتمد على دقته ، ويوثق بتحريه . فكانت النفس تتطلع إلى ضم كتاب الدكتور بتلر إلى ثروتنا الأدبية ، غير أنه كان يقعدها التفكير في مشقة ذلك العمل، ومظنة العجز عن إنجازه ، وقلة الثقة بالقدرة على نشره . ثم أتيح لي أن أحقق ذلك الحلم بأن ناطت بي « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ترجمة ذلك الكتاب إذ إختارته من بين الكتب القيمة التي تسعى أبداً في إظهارها ونشرها، فوجدت في تكليفها سرور الساعي إلى تحقيق أمنية طالما تاقت نفسي إليها ، وأرى أن هذا مكان لائق لكلمة أقولها عن تلك اللجنة المباركة التي ما سعت إلى أن يعرف أحد عملها وهي دائبة لا تفتر عن العمل في خدمة العلم والأدب ، وما قصدت قط أن تظهر للملأ فضلها ، وهي ماضية قدماً في جهادها في ميدان التثقيف والتنوير ، لم تقف خدماتها عند حد سياسي ولا عند وطن، بل كانت خدمتها للناطقين بالعربية أجمعين ، بادئة بالكنانة المحروسة ، مصرنا المحبوبة . ولو كنت من غير أعضاء لجنة التأليف لوجدت مجال القول بعد فسيحاً ، ولكن حسبي ذلك القول .

وبعد ، فقد كان من حق هذا الكتاب أن ينقل إلى العربية منذ ظهر فإنه يسد ثلمة في تاريخ العرب ما كان ينبغي لها أن توجد ، وما كان أجدر بأن ينقله إلى العربية مصري إذ أن الكتاب يتعلق بتاريخ مصر .

غير أن الذي عاقني عن ترجمته قد عاق أمثالي عنها ، ولم يكن أحد ليستطيع مثل ذلك العمل الكبير في مصر إلا إذا شدت أزره هيئة علمية قوية . ولكن الخير إذا جاء متأخراً فليس ذلك بناقص من قدره . ولعل تأخر ظهوره في العربية إلى يومنا هذا كان عن قدر وحكمة ، فإن للكتاب معنى كان لا يظهر في الماضي ظهوره اليوم ، فهو اليوم في إبانة وأوانه، والأحوال ملائمة له، ومجرى الأهواء مستعد لقبوله وتلقيه . ذلك بأن مؤلف الكتاب رجل باحث لم يقصد من تأليف كتابه إلا بيان الحقيقة ناصعة ، فلم يكن ممن يذهبون في التأليف إلى غرض من دعاية دينية أو سياسية ، ولا ممن يتسترون بالعلم من أجل غرض يخفيه ، أو شهوة يسترها ، بل كان نزيهاً في بحثه ، قاصداً في قوله إلى اللباب . ومثل هذا البحث لا يدركه القراء حق إدراكه، ولا يقدره الناس حق قدره، إلا إذا كان الجوّ المحيط بهم جوّ بحث وراء الحق ، ودرس لإجلائه ، والإبانة عنه . ونحمد الله إذ قد بدت في مصر هذه الأيام حركة جدية نحو البحث والدرس ، ولسنا نشك في أن هذا الكتاب ممتزج بها ، سائر في مسيرها ، جار في مجراها .

غير أن الأمر غير قاصر على ذلك ، فإن الوقت الحالي أسعد الأوقات لظهور هذا الكتاب من ناحية أخرى ولعلها أجل شأناً وأبلغ خطراً :

ذلك بأن العرب لما دخلوا مصر كانوا فئة قليلة ، وجعلوا يتخذون لهم في مصر نظاماً ينتزعونه مما سبق من نظم الحكم في البلاد ، وجعل عددهم يتزايد ممن دخل في الإسلام من أهل البلاد طوعاً أو كرهاً ، فإذا مصر بعد قرن فيها عدد كبير من المسلمين، وبعد أن كانوا فئة قليلة حاكمة أصبحوا فئة كبيرة تشترك وأهل البلاد في أعمال الحياة . فنشأ بين أهل مصر ما ينشأ بين الجيران المختلفي المشارب من المنافسات والمنازعات ، وزادت تلك المنافسات على

مر الزمن حتى كانت أحياناً تتخذ شكل ثورة من أهل البلاد المسيحيين ، وكان ردّ ذلك قاسياً من جانب الحكومة القائمة التي ما كانت لتدع الثورة ينـدلع لهيبهـا من غير أن تقضي عليها . ثم مضى الـوقت وكان عـدد المسلمين يتزايـد وعدد المسيحيين يتضـاءل، وتغيرت الـدول وتبدّلت نـظرتهـا إلى واجبهـا في الحكم وداخل المسيحيين ما يداخل الأقلية عادة من الإنطواء على نفسها .

كانت مصر قبل الإسلام أمة واحدة يحكمها الروم ، واحتفظت بقوميتهـا وحاطتها بمذهب ديني مستقل حافظت عليه أشدّ المحافظة، وما كانت محافظتهـا على مـذهبهـا الـديني إلا صـورة من صــور الحـرص على بقــاء شخصيتهـا ودوام إستقلالها . فلما جاء الإسلام أصبح أهل مصر بعد بضع قرون قسمين كل منهما منفصل عن الآخر رغم تجاورهما ، وصار فيها شعبان متنافسان يحمل أحدهما لواء الكثرة والسيادة ، ويحمل الآخر سلاح الراغب عن الإمتزاج والفناء .

وقـد نكـون على حق إذا نحن قلنـا إن الأمـر بقي على تلك الحـال إلى العصور الحديثة . غير أن ذلك الإنفصال طور متوسط في حياة الشعوب ، وما كان لشعب أن يبقى على ذلك إلى الأبد ، فإن سنـة الطبيعـة أن يمتزج سكـان القطر الواحد ، ويشتركـوا في المصالـح ، ويشعروا بـأنهم أهل وطن واحـد ، تجمعهم الحيـاة نفسهـا ، وتقـرب بينهم أواصـر الجـوار والإشتـراك في سـرآء الـظروف وضرائهـا . على أن بلوغ ذلك لا يكـون إلا إذا مهدت لـه الـظروف وعملت على إحداثه الأحداث . والأحداث لا تخلق ، وإن سعى الناس إليها، بل إن الناس ينساقون فيهـا ، وقد يؤثـرون فيها بعض الأثـر أثناء إنـدفاعهم في تيارها القوي . وقد تهيأت الظروف إلى ذلـك الإمتزاج منـذ عهد قـريب ، فقد يمكن أن نقول ـ وفي قولنا كل ما يدعو إلى الوثوق ـ إن سنة ١٩١٩ كانت حدّاً فاصلاً بين عهد قديم وعهد حديث ، بين عهد لم يكن الشعب المصري يحس أنه شعب مرتبط مشترك ، وعهد آخر يشعر فيه المصريون جميعاً أنهم أهل بلاد واحدة . وها نحن اليوم نشهد جيـلاً جديـداً من المصريين آخـذاً في الإمتزاج والإشتراك على أساس وطنية صادقة ، ووحدة لا تفصم عـراها . فلو ظهـر هذا الكتاب من نحو عشرين سنة لما قدّره أهل مصر قدره ، ولما تبينوا فيه روح مؤلفه

العادل ، ولما أدركوا ما في صدره من سعة ، وما في عقله من رجحان، وأما اليوم فإنهم لا شك يقدّرونه ويدركون ما فيه من عدالة ونفوذ رأي . فمؤلف الكتاب معجب بالعربي ، ومعجب بالقبطي ، فهو يذكر حوادث التاريخ ذكر القاضي الناقد، لا يعبأ أين تميل به الحجة ، لأنه لا يقصد إلى نصر فئة ولا الدعاية لشعب، بل يذكر ما كان في الماضي، ويوضح ما فيه من المسائل من غير أن تكون في نفسه مرارة ، أو يكون في حكمه زيغ . فهو إن رأى الحجة مع العرب أبان عنها بياناً شافياً ، وإن رأى الحجة مع القبط كشف عنها كشفاً صريحاً، وفي نفسه سرور الباحث عن الحقيقة إذا وفق إلى كشفها ، إذ ليس في قلبه ما يسخطه على تلك الحقيقة إذا هي تبدّت في جانب دون جانب . فالمصريون في هذه الأيام يستطيعون أن ينظروا إلى الماضي نظرة إلى تاريخ جرت حوادثه جرياناً طبيعياً ، ساقتها إليه الظروف التي كان لا بدّ من أن تسوقها إليه . ويستطيعون إذا رأوا ما يؤلم في ذلك الماضي أن يتخذوا منه عبرة من غير أن تثور حفيظتهم ، إذ أن الأخ لا تبعده عن أخيه ذكريات ما كان بين الجدود من إحن أو منافسات . فلنا أن نعتقد أن قيمة هذا الكتاب تبدو على حقيقتها اليوم ، وما كانت لتظهر من قبل مثل ظهورها هذا إذ كانت تتنازع القلوب عوامل الحياة نفسها فتغلب على حكمها .

كان للمؤلف فضل التعرّض لبعض مفتريات التاريخ ، وكانت شائعة بين الناس يأخذونها تلقفاً بغير تمحيص . وطالما كانت تلك المفتريات عضداً لمن أراد البغي على المصريين ، إذ يسوقها حجة عليهم . وكان المظهر التاريخي الذي يبدو عليها يخدع القارىء عن حقائقها .

وإليك مثلين لتوضيح ذلك ، فقد تناول المؤلف في أول بحثه مسألة طالما ردّدها المؤرّخون وهي إتهام المصريين القبط بأنهم كانوا دائماً يرحبون بالغزاة الأجانب ، فرحبوا أوّلاً بالفرس، ورحبوا ثانياً بالعرب ، يريدون بذلك أن يتخلصوا من نير ليضعوا نيراً آخر على رقابهم . وقد أظهر المؤلف في حادث من هذين الحادثين كذب ما آدّعاه المغرضون من المؤرخين ، وخلص إلى أن القبط

إنما كانوا أمة شاعرة بوجودها، متماسكة فيما بينها مستمسكة بمذهبها الديني ، وقد اتخذت ذلك المذهب الديني رمزاً لاستقلالها ، فضحت في سبيله بكل شيء ، وكانت ـ وهي تفعل ذلك ـ تحافظ على إستقلالها وشخصيتها من أن تندمج في أمة أخرى . أظهر المؤلف أن تلك الأمة التي حافظت تلك المحافظة المرّة على شخصيتها، لم تكن لترضى بأن تفتح ذراعيها لكل سيد جديد ، وتقف معه في وجه السيد القديم ، بل كان كل ما فعلته أن بقيت مكانها لا تحرك ساكناً برغبتها ، تاركة ميدان النضال بين المتنافسين ، إذ لم يكن لها مصلحة في الدفاع عن سيد أذاقها مر العذاب في محاولته القضاء على إستقلالها . وهكذا أظهر المؤلف أمة القبط في ثوب العزة والأنفة ورمى عنها ما كان المؤرّخون قد ألقوه ظلماً عليها من التهم الشنيعة بإظهارها في مظهر الدناءة والذلة .

ولكن هذه الروح العادلة التي حدت بالمؤلف إلى نصرة الحق في جانب أمة القبط ، حدت به كذلك إلى نصرة الحق في جانب أمة العرب ، فلم يحاول أن يخفي من فضائلها شيئاً . أو يعكر من صفو سيرتها في مدّة فتح مصر ، بل كان عادلاً في وصف الأفراد والمجموع ، نرى إعجابه بقائد القوم عمرو بن العاص، كما نرى إعجابه بروح البساطة والطهارة التي كان عليها غزاة العرب إذ ذاك . ثم نراه تعرض لمسألة خاض فيها المؤرخون المتأخرون ووجدوا فيها سبيلاً للطعن في سيرة العرب ، وهي إحراق مكتبة الإسكندرية ، فأبان هناك عن الحق راجعاً إلى أسانيد التاريخ ، حتى أظهر أن العرب عندما غزوا الإسكندرية لم يجدوا هناك مكتبة كبرى ، إذ كانت مكاتب تلك المدينة قد ضاعت ودمرت من قبل غزوتهم بزمن طويل .

وبعد، فإن هذا الكتاب له قيمة خاصة لسبب آخر فوق ما سبق لنا بيانه ، وذلك أن تواريخ العرب وفتوحهم لم يتناولها إلى الآن كاتب حصر همه في ميدان محدود وبحث فيه بحثاً مستفيضاً ، كما فعل مؤلف هذا الكتاب . فنجد كثيراً من الكتب تصف سيرة العرب إجمالاً، وتتعرض إلى فتح مصر في قول موجز لا يزيد على عشرات من الصفحات ، وأكثر هؤلاء المؤرّخين إنما يرجعون إلى ما كتبه العرب في دواوين أخبارهم . غير أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا لا يتناول

إلا فتح العرب لمصر ، وهو في أكثر من خمسمائة صفحة ، وقد رجع مؤلفه إلى أسانيد القبط والأرمن والسوريان واللاتين وغيرهم ، كما رجع إلى مؤلفات العرب ، فكانت نظرته من غير جانب واحد ، ولهذا نراه أقرب إلى التمحيص ، وأحرى بأن يكون قد أصاب القصد .

والحق أن تاريخ الفتح في أشدّ الحاجة إلى ذلك التمحيص ، فكم به من مسائل غامضة يجب على المؤرّخ أن يجلو غموضها ، نضرب لذلك مثلاً شخصية المقوقس ، فإنا نسمع ذلك الاسم يتردد في كتب التاريخ عند ذكر رسالة الرسول ﷺ إلى حاكم مصر، ونجده مذكوراً في أثناء الفتح عند ذكر المفاوضة بين العرب والروم ، ونجده كذلك مذكوراً عند تسليم الإسكندرية ، وقد سماه بعضهم جورج أو جريج بن مينا ، وسماه بعضهم ابن قرقب أو قرقب ، وجعله بعضهم من أهل مصر ، وقال آخرون إنه يوناني وهو بين كل ذلك يلوح في وسط ظلمة من الشكوك لا يكاد الإنسان يعتقد أنه شخص طبيعي وجد حقيقة في تلك الأحداث . غير أن المؤلف ما زال يقارن ويناقش ويفحص حتى خرج إلى أن المقوقس لم يكن سوى قيرس البطريرك الملكاني بالإسكندرية ، الذي جمعت له ولاية الدين والدنيا معاً في أيام هرقل وخلفائه ، على أن المؤلف قد إستدرك الأمر فأظهر أن ذلك الاسم قد أطلقه العرب على سبيل التعميم على الذي كان بطريرك الروم قبل قيرس ، كما أطلقوه على بنيامين بطريرك القبط الذي كان طريداً وعاد بعد أن استقر العرب في مصر . وقد كان يخالفه في هذا الرأي كتاب أكبرهم الأستاذ ستانلي لين بول ، غير أن ذلك الأستاذ لم يسعه بعد أن اطلع على ما كتبه المؤلف في بحوثه المختلفة عن شخصية المقوقس إلا أن يذعن للحق ، فكتب إليه في يوم عيد ميلاده يقول : (وإني جاعل هديتي في عيد ميلادك شهادتي بالرجوع عن رأيي في معارضتك في شخصية المقوقس ، إذ ثبت لديّ أنه لم يكن قيرس) .

وقد رأينا أن نورد أبحاث المؤلف في هذا الشأن تفصيلاً ، فأضفنا إلى الكتاب ذيلاً جديداً ضمناه ما كتبه المؤلف عن المقوقس في رسالة أصدرها بعد إصداره هذا الكتاب وهي : (معاهدة مصر في الطبرى) .

وقد عانينا كثيراً في أثناء ترجمة هذا الكتاب إذ أن المؤلف يقتبس فقرات كثيرة عن كتاب العرب ، وبعض تلك الفقرات نصوص لا بد للمترجم أن يرجع إلى أصولها في اللغة العربية ، وقد وفقنا ولله الحمد إلى الوصول لتلك النصوص في أغلب الأحوال ، ولكن عجزنا عن بعضها بغير تقصير منا ، ولنضرب لذلك قطعة منقولة عن هشام بن الكلبى وهي عبارة عن مناظرة لعمرو بن العاص في حضرة معاوية[1]، فقد بحثنا في كل ما استطعنا الوصول إليه من كتب التاريخ والأدب فلم نجد ذلك النص ، ثم سألنا كثيراً من المتأدبين في مصر فلم يهتدوا إليه ، وأرسلنا في طلب ذلك إلى المؤلف نفسه ولكن طول العهد قد أنساه من أين أتى بذلك النص فأرسل يعتذر وله العذر قائلاً (لعلي أخذت ذلك النص من بعض مقتطفاتي من مكاتب باريس ومدريد) . فاضطررنا أمام هذا أن نترجم النص الإنجليزي بقدر ما استطعنا من التقريب إلى أسلوب عصر معاوية وعمرو .

وقد وردت في الكتاب مقتطفات كثيرة عن اللغتين اليونانية واللاتينية ولم يكن لنا حظ العلم بهاتين اللغتين فاستعنا ببعض من لهم إلمام بهما ، فأما النصوص اليونانية فقد ترجمها لنا صديقنا المسيو كلونارس ، وأما النصوص اللاتينية فقد ساعدنا صديقنا المستر وير المدرّس بمدرسة الأمير فاروق بأن أرسلها إلى صديق معروف بالتفوّق في تلك اللغة وهو (القاضي بربكهيد) فترجمها . فلهم جميعاً عميق الشكر على خدمتهم الجليلة . وكان لا بد لنا مع هذا من إثبات الأصل ، فأما النصوص اللاتينية فقد كان من السهل إيرادها في هوامش الكتاب ، وأما النصوص اليونانية فقد تعذر علينا ذلك فوضعنا علامة نجمة في موضع النص مع كتابة رقم مسلسل بجوار النجمة ثم ألحقت كل النصوص اليونانية في آخر الكتاب مسلسلة بأرقامها ، ليطلع عليها من شاء .

محمد فريد أبو حديد

---

(١) وقد وفقنا بعد ذلك بالمصادفة إلى العثور على النص الأصلي لتلك المناظرة وأثبتناها في هذه الطبعة الثانية .

مقدمة المؤلف

لعلنا لسنا في حاجة إلى الاعتذار عن تأليف هذا الكتاب فيما يمس الغرض منه فإنما الغرض منه أن نبني تاريخاً واسع المدى مفصل الأخبار لفتح العرب مصر . ولم يسبق لأحد أن كتب مثل هذا التاريخ اللهم إلا رسائل متفرّقة ألمّ كاتبوها ببعض هذا الأمر إلماماً . أمثال (جبون) ومن جاء بعده . وتلك الرسائل ما هي إلا بعض أبواب أو فصول موجزة داخلة ضمن مؤلفات مكتوبة عن دولة الروم أو عن دولة العرب . وفي الحق أنه لَمِمَّا يسترعي النظر ألا يكون في أية لغة من اللغات بحث مفصل له قيمة يصف تاريخ ذلك الفتح . وقد كان ذلك من سببين اثنين . أولهما قلة ما لدينا من الأخبار التي يمكن أن يعتمد عليها الباحث العادي . وثانيهما ذلك الخلاف الواسع بين الرواة والمصادر سواء منها المشهور وغير المشهور وسواء منها الشرقي والغربي .

وعلى ذلك فقد لف هذا الموضوع ظلام دامس فكان الوالج فيه مقدماً على تيه حالك من الخلاف والتناقض . وقد يلوح قولنا هذا كان فيه مبالغة ومغالاة ، ولكنه الحق لا شك فيه ويعززه رأي كاتب معروف وهو المستر (E. W. Brooks) إذ يقول : « وقل أن نجد حادثاً هاماً من حوادث التاريخ قد خفيت أخباره واختلف في رواياتها كما هو حال تاريخ فتح الإسكندرية . حقاً إن تاريخ غزو العرب للدولة الرومانية كله تاريخ مظلم غامض ؛ ولكن تاريخ مصر أشدّه ظلمة وحلوكة »[1] .

---

(١) (Byzantinische Zeitschrift. 1895) صفحة ٤٣٥ .

وقد أقدمنا على تأليف هذا الكتاب وقصدنا منه ـ على الأقل فيما اختططنا لأنفسنا ـ أن نجلو بعض تلك الظلمة التي تلف الأمر لفاً ، وأن ندخل إلى الموضوع نتائج البحث الجديد وأن ننتفع بما صار في متناول اليد من الأخبار الجديدة ، وأن نقرن ما جاء في كتب مؤرّخي الشرق بعضه إلى بعض ثم نعالجه بالفحص والتمحيص حتى نقيم تاريخ هذا العصر على أساس علمي . ولم يخف عليَّ ما في عملي من تقصير عن الخطة التي رسمتها له ، بل إني عالم به حق العلم فقد أخفقت طريقتي في بعض الحالات ولم أفلح فيما قصدت منها فكنت في ذلك عند قول (Maeterlinck) كمن يضع عدسة منظاره المكبر على سكون وظلمة » . غير أني أقر أن إخفاقي كان في حالات أخرى راجعاً إلى عجز فيّ أنا لضعف علمي باللغة العربية ، ومشقة السير في عملي في فترات قصيرة من أوقات الفراغ ، وهو عمل يتطلب إستقرار الذهن والبحث الدقيق المتواصل . على أنني أرجو أن عملي هذا سوف يبعث على زيادة البحث ويحفز إلى المضي في الدرس . والحق أنني ألفيت نفسي مضطراً إلى مخالفة جل ما آستقرت عليه الآراء في موضوع الفتح العربي فإنك تجد سيرة الفتح حتى فيما كتبه أحدث المؤرّخين وأقربهم عهداً لا تزيد في مجملها عما يلي :

أنه قبل غزوة العرب ودخولهم فعلاً في البلاد كانت مصر قد وضعت عليها الجزية مدة ثلاث سنين أو تزيد ، وضعها عليها قيرس (المقوقس) ، ثم منع منويل تلك الجزية فجاء العرب يغزون البلاد من أجل ذلك ، وأن المقوقس كان من القبط وانضم إلى العرب وأن القبط عامة رحبوا بالغزاة ورأوا فيهم الخلاص وأسدوا إليهم كل مساعدة ، وأن الإسكندرية فتحت عنوة بعد حصار طويل مليء بالحوادث العجيبة والمخاطرات المثيرة .

مثل هذه السيرة هي التي أثبتها هؤلاء المؤرّخون . ولعل القارىء يظن أننا نغالي ونبالغ إذ نقول إن تلك القصة لا حقيقة لها من بدئها إلى ختامها ، ولكنا لا نرى رأياً غير هذا . وإنا إذا بحثنا الأمر وفحصنا هذه العبارات جميعاً وعرفنا منشأها وأساسها لاح لنا أنها تقوم على أساس من الحقيقة أو من شبه الحقيقة

ولا شيء أدعى للنظر ولا أروح للنفس من أن نفحص تلك الحقائق ، ونرى كيف حوّرت وحرفت حتى أمكن أن تلفق منها قصة تاريخية كاذبة وإن شئت قلت خرافة . وقد لا يُعجب القارىء أننا أطلنا في الهوامش والحواشي في بعض المواضع . وجوابنا على ذلك أننا قد رأينا واجبنا أن نثبت المراجع التي رجعنا إليها والأسباب التي حملتنا على الذهاب مذهبنا الذي سلكناه . ورأينا الإفاضة والإطالة أولى بنا في مثل هذا الموضوع وحيالنا ميدان فسيح مليء بالأخبار المتناقضة والخلافات العظيمة . فأطلنا وأفضنا وما كان ينبغي لنا ذلك لو كنا نعالج أمراً أقل رقعة وأضيق ميداناً . وكذلك قد أطلنا في ملحقات الكتاب ولكن لقد كان من أوجب الواجبات أن نقيم لأنفسنا بناء لتاريخ ذلك العصر ونتخذ نظاماً لتسلسل تواريخه وضبطها . فمثلاً لم يكن من الممكن أن نكتب تاريخ الفتح إلا إذا جلونا حقيقة المقوقس . ولم يكن لنا كذلك بد من رسم خطة تامة لتسلسل التواريخ فيه . فلم يكن بالمجزىء أن نثبت ما نستخلصه من النتائج وهي في كثير من الأحيان طريفة لم يسبق إليها أحد بغير أن نبين الدعائم التي أقمناها عليها . ولقد كانت تلك الدعائم كثيرة الشعب والوجوه سواء كان ذلك فيما يخص شخص المقوقس أو تواريخ الفتح الفارسي أو تواريخ الفتح العربي .

وأما موضوع الكتاب فقد بدا لنا أن كتابة تاريخ الفتح العربي لمصر يجب ألا يعالج على أنه حادث منقطع العلاقة بسائر حوادث التاريخ ، بل إنه حادث لا يظهر خطره ولا تتضح حقيقته إلا إذا قرن بالأحداث التاريخية الكبرى التي ساقت دولتي الروم والفرس القديمتين إلى الإصطدام بالدولة العربية الناشئة . وقد رأينا أن حكم هرقل علم ظاهر من أعلام التاريخ يليق لأن نجعله مبتدأ تاريخنا . ومن لطائف الإتفاق أنه يبدأ على حوادث ذات شأن عظيم وقعت في مصر وكانت لا تزال مجهولة خافية . فقد حدث في أثناء ذلك الحكم أن تمزق ملك فارس وأن بعث (النبي) محمد وقام برسالته ونشر دينه ، وأن أفلت حكم بيت المقدس والشام من أيدي القياصرة ، وملك كسرى بلاد مصر، كما أننا نطلع منه على الأسباب السياسية والدينية التي مهدت السبيل لإنتصار سيف

الإسلام وصولة القرآن . على أننا في الوقت عينه لم نَنْسَ أن نلقي نظرة على مجرى الحوادث التي كانت تحدث فيما وراء حدود مصر ، في إلمامة قصيرة حتى تكون تلك الحوادث الخارجية ثانوية تابعة لا تغطي الغرض الأول من الكتاب .

ولا غنى لنا عن التعرّض بالقول للمراجع التي رجعنا إليها في تاريخ هذا العصر الذي اخترناه . فنذكر أوّلاً من التواريخ القصيرة التي كتبها أهل الغرب في العصور القريبة (His. of the Saracens) وهو تاريخ عجيب ألفه (أوكلي) وتكاد شهرته بين الناس تعدل شهرة كتاب جبون وهو (.Rom. Empire) ثم نذكر كتاب (شارب) وهو (EG. under The Romans) ، ولكنه ليس بالمؤلف الكبير القيمة . ونجد أخباراً طريفة وبحثاً حديثاً في الطبعة التي أخرجها الأستاذ (بوري) من كتاب تاريخ (جبون) وفي الكتاب الذي ألفه الأستاذ نفسه وهو -La) ter Rom. Empire) ونجد مثل هذه الفوائد في كتاب المستر (ملن) وهو .EG) under Rom. Rule) وكتاب الأستاذ ستانلي لين بول.وهو .EG. in The Mid) Ages) ورسالته عن القاهرة في سلسلة الرسائل المسماة Mediaeval) Towns) . وكتاب ڤيل (Geschichte der Chalifen) مرجع قيم، بل هو لا غنى عنه على أنه قد تقادم عليه العهد ، وكتاب (فون رانكه) (Weltgeschichte) يحوي نبذة عن الفتح ومقالاً عن عمرو في مصر ، وفيها يردّد الكاتب الأخبار المتداولة، ولعلنا نستطيع تلخيص رأي (فون رانكه) في كلماته التي قالها هو وهي «وكان فتح مصر ناشئاً من خيانة خائن قبطي خرج من قومه واستظل بألوية العرب» وذلك لعمري رأي لا تقوم له اليوم قائمة في ميدان البحث. وأما المؤلفات الفرنسية الكبرى فلا بد لنا أن نذكر منها كتاب (ليبو) طبعة (سان مارتان) وهو (Histoire du Bas Empire) وهو كتاب لم يزد عليه المتأخرون إلا قليلاً أو لم يزيدوا عليه شيئاً . وأما كتاب سيديو (Histoire Generale des Arabes) فقد جاءت فيه نبذة عن الفتح ولا يكاد الإنسان يجد بها جملة واحدة دقيقة . ومثل ذلك (ديهل) نفسه فإنه كتب في كتابه القيم (Afrique Bizantine) ما يأتي :
« وقد انحاز القبط إلى جانب المغيرين بغير أن يقاوموا مقاومة تذكر وكانوا

بانشقاقهم هذا سبباً في نصرة المسلمين » (صفحة ٥٥٣) . وأما كتاب (رينودو) (His. Patr. Alex.) فمؤلف جليل فيه درس عميق وبحث مستفيض وله قيمة لا ثلمة فيها في الموضوع الذي يعالجه وقد كان (كاترمير) مؤلفاً اشتهر بسعة علمه ودقة حكمه ومؤلفاته لا تزال على قيمتها العظيمة لم تفقد شيئاً يذكر في نظر الباحثين في تاريخ مصر على أن مؤلفات أهل الغرب لا يجوز الإعتماد عليها وحدها حتى وإن كانت خيراً مما هي وأتم . فإن من أراد أن يبحث بحثاً جديداً من هذا النوع وجب عليه أن يعتمد على المراجع الأصلية . أما تلك المراجع فاليوناني منها مخيب للظن والأمل، فمنها كتاب تيو فانز وقد كتبه المؤلف في سنة ٨١٣ ولكنه أساء كل الإساءة في فهم أخبار الفتح العربي . فتاريخه المجمل المقتضب يخلط بين الفتح الأول والفتح الثاني للإسكندرية مع أنه لا يذكر أحد الفتحين . وهو يخترع معاهدة عقدت مع العرب قبل دخولهم لمصر غازين . وليس في كتابه تناسب ولا تناسق.وهو السبب في كثير من التاريخ المختلط المكذوب . ومن كتاب اليونان (نيقفوروس) وهو خير من السابق شيئاً ما ، ولكن كتابه لسوء الحظ ليس به شيء من أخبار ما بين سنتي ٦٤١ ـ ٦٦٨ وما بقي بعد ذلك لا يزيد على أنه « ثبت بأسماء القوّاد المنهزمين » ، وهذان الكاتبان كلاهما يورد نتفاً مفردة غير متصلة ويختلف أحدهما عن الآخر ويذكر كلاهما من تواريخ السنين ما لا يستطاع قبوله .

وأما حنا مسكوس وبطارقة بيت المقدس زكرياس وصفرونيوس فقد كانوا كتاباً دينيين في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ونستطيع أن نلمح في ما كتبوه بعض إشارات إلى حوادث سبقت الفتح . وقد ترك (ليو نتيوس) النيابولي في قبرص ترجمة لحياة « حنا الرحوم » بطريق الإسكندرية وفيها فائدة لتاريخ مدّة الفتح الفارسي ، وقد نشرها جلزر نشرة بديعة متقنة . وأما كتاب (Chron. Paschale) أو (Alexandrium) فأغلب الظن أنه كتب في أوائل القرن السابع في مصر ولكنه لا يبلغ عهد الفتح ، في حين إن الكتاب اللاتيني (Chhronicon Orientale) الذي ألفه (Echellensis) مؤرخ في سنة ١٢٣٨ بعد الميلاد .

وأما المراجع الأرمنية فإنها تكاد تكون في نظرنا لا فائدة فيها لتاريخ الفتح مع أنها تذكر بالتفصيل العظيم حروب الدولة الرومانية مع الفرس وتصف ضياع الشام . فالأسقف سبيوس له كتاب ظهر باللغة الروسية وقد حرره المستر (كونيبير) مع ترجمة إنجليزية ولكنه لم يطبع بعد ، وفيه أخبار توضح ذلك العصر ولكن ليس فيها ما يتعلق بمصر أو ما أقل ما يتعلق بمصر فيها . وميخائيل السوري يظهر أنه ينقل عن تيوفانز ، وقد نشر كتابه (لانجلوا) . وأما النسخة التي حررها (شابوت) فإنها لم تتم بعد ، وكتاب (اليشع النصيبي) توجد منه نسخة مخطوطة في المتحف البريطاني ولكن جزءاً منه خاصاً بالفتح العربي قد نشر في (بتجن) .

فلنأت الآن إلى الكُتّاب المصريين . ويجب أن نجعل أوّلهم وعلى رأسهم حنا النقيوسي وهو أسقف قبطي كتب في مصر في أواخر القرن السابع ولعله ولد حوالي زمن الفتح . وكتابه عبارة عن مؤلف في تاريخ العالم ، وقد كتب جزء منه في الأصل باللغة القبطية وجزء آخر باليونانية ، ويظهر أنه قد نقل إلى العربية في زمن متقدّم جداً وعلى أساس النسخة العربية وجدت ترجمة أثيوبية وهي النسخة الوحيدة الباقية من ديوان حنا وقد ترجمها زوتنبرج وحررها . وأخبار هذا الكتاب ذات قيمة عظمى إذا كان نصها واضحاً غير غامض ولم يتطرّق إليه الفساد . ولكن ذلك الكتاب لا يذكر به شيء لسوء الحظ ما بين تولية هرقل وبلوغ العرب حصن بابليون، وعلى ذلك فكل مدّة الفتح الفارسي وعودة مصر إلى الروم قد ضاعت منه . وكذلك قد اختلطت أخبار آخر مدّة الفتح العربي اختلاطاً عظيماً إذ هي مقلوبة رأساً على عقب لا يستطاع إقامتها ولا يكاد النقد يعيد إليها سياقها . على أنه قد ثبتت منه بعض حقائق من الأمهات الكبرى ولا بد لنا من اعتبارها معالم ثابتة لا تدافع ولا يختلف في صحتها مع أنها تخالف ما جاء في الأخبار العربية المتأخرة عنها . فهي على ذلك أسس متينة لمن أراد أن يبحث في تاريخ هذا العصر . والحق أنه لم يكن في الإمكان أن يكتب تاريخ الفتح العربي لمصر لولا عثرت البعثة البريطانية إلى بلاد الحبشة على نسخة مخطوطة من كتاب حنا . وإنا لنرجو أن يعثر يوماً ما على نسخة قبطية أو

عربية من كتاب حنا النقيوسي تكون سابقة للنسخة الأثيوبية التي وجدت[1] . ولقد وجد الدكتور (شفر) في متحف برلين قطعة من ست صفحات مكتوبة بلغة الصعيد وهي كما قال المستر (كروم) تتفق إتفاقاً يسترعي النظر مع ما جاء في ديوان حنا . وقد ترجم (زوتنبرج) كتاب حنا ونشره نشرة فيها عيوب في بعض نواحي الترجمة وفي حسبان التواريخ ولا يزال أهل البحث على شوق في إنتظار ظهور الترجمة الإنجليزية التي اضطلع بها الدكتور (شارلز) .

وأما المخطوطات القبطية المتقدّمة فلا يعرف منها إلا النذر اليسير مما لا علاقة له بموضوعنا ، وقد عنى المسيو أميلنو بنشر قطع من الوثائق البودلية وبها قطعة من حياة بنيامين (وهو بحث منشور في الجريدة الأسيوية لسنة ١٨٨٨ تحت عنوان « Fragments Coptes Pour servir à l'Histoire de la Conquête de l'Egypte » . وقد نشر العلامة نفسه بحثاً عن حياة صمويل القلموني في (Monuments pour servir a l'Histoire de l'Egypte Chret. aux Ve - VIIe siècles) . وقد نشرت نسخة أثيوبية من حياة صمويل نفسه وهي (Vido do Appa Samuel do Mosteiro do Kalamon) نشرها (F. M. E. E. Pereira) . وهو الذي نشر كذلك عن اللغة الأثيوبية رسالة (Vida do Appa Daniel) ونحن مدينون للمسيو أميلنو كذلك برسالة في ترجمة حياة (بيزنتيوس)، وأخرى في حياة البطريق إسحق وكلاهما عن وثائق قبطية كتبت في القرن السابع وبها نبذ ذات شأن عظيم . ولا شك أن الترجمة العربية لحياة شنوده قائمة على أصل قبطي ، وقد نشرها كذلك المسيو أميلنو . ولكن القيمة التاريخية لهذه الوثائق القبطية ليست عظيمة المقدار فقد كان هم من كتبوها ذكر

---

(١) يعترف المسيو أميلنو في مؤلفه « Vie du Patr. Copte Isaac » (هامش صفحة ٢٤) أنه يعرف وجود نسخة عربية من ديوان حنا ، ولما سألناه عن موضع تلك الوثيقة لم يزد على أن قال : « إنها في أعماق إقليم من أقاليم مصر » وهو جواب لا يجلو ولا يوضح أمراً ، وقد جاء في كتابه ذاك في صفحة ٢٦ نقد عجيب انتقص فيه المؤلف من مقدار حنا ومن تاريخه وهو نقد لا نوافق عليه ، كما أنا لا نوافق المسيو أميلنو على نظام تواريخه لذلك العصر .

الأمور الخاصة بالكنيسة ، وكلما كانت تلك الأمور خارقة للمألوف كانت عنايتهم بها أعظم . وأما أمور الدنيا وحركاتها التي حولهم فقد كانت قلوبهم منصرفة عنها تكاد تكون مقفلة من قبلها . ولا حاجة بنا إلى الأسف على أن هؤلاء الكتاب كانوا يستطيعون أن يدوّنوا لنا الأخبار الكثيرة ، ولكنهم لم يفعلوا فلا يذكرون من تاريخ عصرهم وحوادثه إلا بعض نتف متفرّقة يذكرونها عرضاً ، ويلمحون إليها تلميحاً .

وإنه لأشد لأسفنا أن حنا النقيوسي وسائر كتاب القبط في القرن السابع تفصلهم حقبة طويلة من الزمن عن الكتاب العرب وهي نحو قرنين . وإنا لنأمل بعض الأمل أن نرأب تلك الثلمة إذا ما تم درس أوراق البردى الكثيرة التي كشفت في الفيوم وسواها. وإن ما تمَّ منها للآن على أيدي الدكتورين (غرنفل) و (هنت) وعلى يدي المستر كروم ليس له كبير جدوى في تاريخ العرب غير أن أوراق البردى العربية التي ينشرها الأستاذ (كراباسك) لا بدَّ ترسل نوراً يجلو ذلك التاريخ . ولنا على هذا دليل مما نشره في ثبت بيّن فيه نماذج من تلك الأوراق وعرضه في معرض ڤينا ، وقد كان بينها خطابات من عمال اشتركوا في ميدان الفتح وأورد حنا النقيوسي ذكر أسماءهم كما أورد أسماءهم مؤرّخو العرب .

ولسنا نطمع أن نأتي ببيان مستقص لكل مؤرّخي العرب ، وحسبنا أن نأتي هنا بكلمة عن كل من كبارهم فلعل في ذلك فائدة(*) . فقد كان من أوّل مؤرّخي العرب وأعظمهم قدراً الواقدي (٧٤٧ ـ ٨٢٣ للميلاد) . وقد ضاع كتابه ولم يبق

(*) وإنك تجد ما تشاء من المعلومات فوق ذلك في رسائل المستر (E. W. Brooks) وهي :
(١) « في تواريخ فتح العرب لمصر » ، وقد نشرت في (Byzantinische Zeitschrift) لسنة ١٨٩٥ . (٢) « العرب في آسيا الصغرى » وقد نشرت في (Journal of Hellenic Studies) الجزء ١٨ سنة ١٨٩٨ . (٣) البيزنطيون والعرب في أوائل العصر العباسي ونشرت في (Fng. His. Seview) عدد أكتوبر سنة ١٩٠٠ وانظر كذلك مقالة المستر (Guest) في الكتاب الذين نقل عنهم المقريزي وقد نشرت في جريدة الجمعية الملكية الأسيوية عدد يناير سنة ١٩٠٢ .

منه إلا المقتبسات الكثيرة والإشارات العدّة التي بقيت في كتب المؤرّخين الآخرين . وأما تلك الكتب التي تحمل اسمه مثل كتاب « فتوح مصر » فإنها تنسب إليه خطأ ولكنها في العادة تذكر منسوبة إلى اسمه تسهيلاً في القول بدل أن يقال إنها تأليف « المدّعي بأنه الواقدي » .

البلاذري (٨٠٦ ـ ٩٢) ـ تعلم في بغداد ثم تردّد على أبواب الخلفاء وكتب حوالي سنة ٨٦٨ كتابه « فتوح البلدان » وهو كتاب في ذكر الحروب والغزوات مرتبة بحسب الأقطار والأقاليم . وهذا الكتاب إذا لم يكن أوّل الكتب عهداً وأغزرها مادة فهو بغير شك حجة من أعظم المراجع قيمة . ويتضح منه أنه قد كان منذ القرن التاسع خلاف عظيم في الآراء عن تفاصيل فتح مصر . واسمه مشتق من « حب البلاذر » وهو مادة مخدّرة وقد كان موته ناشئاً من أخذه جرعة منه زائدة عن طاقته . والعلامة (Weil) لا يعرف البلاذري .

ابن عبد الحكم (المتوفى بالفسطاط سنة ٨٧٠) ـ مؤلفه موجود في نسخة وحيدة مخطوطة لم تنشر بعد وهي في باريس ولكن قد أعدّت العدّة لنشرها وإن الباحثين في الأمور الشرقية ليتطلعون إلى ذلك تائقين وقد نقل كثير من الأخبار عن ذلك المؤلف نقلها المؤرّخون المتأخرون من العرب كما نقل عنه (ڤيل) و (كاترمير) ويختلط في كتاب ابن عبد الحكم كثير من قصص الخيال بأخبار التاريخ ولكن لو نشرت منه نسخة منقودة لكانت ذات شأن عظيم .

وثمت الكثير من أوائل من كتبوا في وصف البلدان باللغة العربية وقد نجد في كتبهم كثيراً من الأخبار التاريخية التي لها قيمة عظمى وقد نجد نصوص أكثرهم في كتاب (دي غويه) (Bibliotheca Geographica Arabica) ، ونذكر من هؤلاء الأصطخري (ولعله ممن كتب في القرن التاسع) وأبا القاسم بن حوقل (وكتب حوالي سنة ٩٦٠ للميلاد) وشمس الدين المقدسي وابن رستاه وابن الفقيه (وكتبا حوالي سنة ٩٠٠ للميلاد) وابن واضح أو اليعقوبي (المتوفى سنة ٨٧٤ للميلاد) وهو حجة عظيم القدر غير أن ڤيل لا يعرف عنه شيئاً والمسعودي

(وكتب حوالي سنة ٩٦٠ للميلاد) وهو كاتب دقيق الملاحظة وما كتبه ذو قيمة كبرى في وصف آثار الإسكندرية .

ابن قتيبة (٨٢٨ ـ ٨٩ للميلاد) ـ خلف « كتاب المعارف » وهو عبارة عن قاموس تاريخي لتراجم حياة الأعلام وقد قال عنه (فوستنفلد) « إنه أقدم الكتب التاريخية المحضة التي بقيت إلى الآن من مؤلفات العرب » ولكن الظاهر أنه أخذ أخباره من الرواية الشفوية وحدها بغير أن يرجع إلى المدوّنات وقد أكثر النقل عنه متأخرو المؤلفين العرب غير أنه لم يأت في أخباره عادة إلا بالقليل وأسلوبه غير مفصل ولا مستفيض وذلك أمر غير عجيب بل هو المتوقع منه .

والآن فلننتقل إلى ذكر علم من أشهر الكتاب ومن أجلهم قدراً في أكثر ما كتب وهو الطبري (٨٣٩ ـ ٩٢٣ للميلاد) . وقد ولد في بلاد طبرستان واسمه مشتق منها وتلقى كثيراً من العلم ثم ضرب في البلاد فذهب إلى العراق والشام ومصر ودرس القرآن والحديث والفقه والتاريخ ، ثم عاد إلى بغداد وأقام بها واشتغل بالتدريس والكتابة ، وأخباره في العادة دقيقة ويعني بها عناية كبرى ويفصل فيها تفصيلاً وافياً ، ولكن من أكبر ما يدعو للأسف أن كتابه ناقص نقصاً عظيماً في أخبار فتح مصر فإن روايته في ذلك قلة شديدة وزيادة على قلتها قد دخلها خلط كبير في كل ما يتعلق بوصف البلدان وتواريخ الحوادث وذلك يدعو إلى كثير من التضليل . على أننا نرى أنه من الجائز أن يكون العيب في ذلك عيب النسّاخ وليس عيب المؤلف إذ قد يكون النساخ قد اختصروا الأصل ولم تكن لهم خبرة تسددهم في إختيار ما يجب اختياره وإغفال ما يجمل بهم إغفاله من الأخبار والروايات التي أوردها المؤلف بعضها إلى جانب بعض في ديوانه . ولعل ذلك يوضح لنا العلّة في أمر عجيب في ذلك الكتاب إذ جاء فيه ما قد يفيد أن فتح الإسكندرية قبل فتح منفيس أو مصر .

والمؤرخ المسيحي سعيد بن بطريق معروف معرفة عظيمة باسم آخر أكثر شيوعاً ، وهو (أوتيكيوس) ، وعلى ذلك فلسنا في حاجة إلى الإطالة في ذكره فقد ولد في الفسطاط في سنة ٨٧٦ وتوفي سنة ٩٦٠ للميلاد ، وكان عالماً ممتازاً

في الطب والدين والتاريخ وصار بطريق الملكانية من سنة ٩٣٣ واستمرّ عليها إلى وفاته وينتهي ديوانه في سنة ٩٣٨ ، وقد نسج به تاريخاً سائغ المقرأ غير أنه لم يكن تاريخاً نقدياً ، وقد جمع في نسجه كل ما وجده دونه من خيوط الأخبار في المؤلفات ، وعلى ذلك قد حفظ أخباراً كثيرة ذات شأن كبير وديوانه فيه غلطة ثابتة في التاريخ مقدارها ثمان سنوات سوى ما فيه فوق ذلك من الأخطاء ومخالفة المتفق عليه .

ودوننا كاتب مسيحي آخر وهو الأسقف القبطي للأشمونين نعني ساويرس (ابن المقفع) ، وكتب تاريخ حياة البطارقة وهو كتاب لم ينشر ولا يعرف عنه إلا القليل ، اللهم سوى ما أخذ عنه رينودو في كتابه . وتوجد ثلاث نسخ مخطوطة من هذا الكتاب : إحداها في المتحف البريطاني وهي مما تخلف من نحو القرن الخامس عشر . والثانية في المكتبة الأهلية (بباريس) وهي من نحو القرن الرابع عشر . والثالثة وهي قبل هاتين بمدّة طويلة ولعلها من نحو القرن الثاني عشر وهي في حيازة مرقس بك سميكه (مرقص باشا سميكه) في القاهرة . وكتاب ساويرس عظيم الفائدة فيما يتعلق بتاريخ الكنيسة ، غير أنه ليس فيه كبير غناء فيما سوى ذلك من أخبار الدنيا . وقد كان يعيش في القرن العاشر ولكن لم يتحقق تاريخ وفاته الصحيح . والنسخة الخطية التي في باريس بها مقدّمة من كتابة محبوب بن منصور وهو شماس كان بالإسكندرية في النصف الأخير من القرن الحادي عشر ، وقد كان يحرّر في كتاب « تاريخ حياة البطارقة » . وقد قال ساويرس في مقدّمته التي كتبها بنفسه إنه كان يلجأ إلى بعض القبط ليترجموا له الوثائق القبطية واليونانية إلى اللغة العربية إذ أن اللغتين المذكورتين كانتا عند ذلك غير معروفتين لأكثر المسيحيين . وهذا عظيم الدلالة إذ يظهر الحال من الاضمحلال التي هوت إليها لغة القبط ولغة اليونان ، كما أنه يظهر جهل ساويرس بهاتين اللغتين . والحق أن ذلك الدليل على جهل اللغة القبطية عجيب مدهش حتى ليلوح لنا أنه لا يكاد يصدّق (انظر ثبت الكتب المخطوطة في باريس طبعة دي سلان صفحة ٨٣) .

فلنمض الآن من التاريخ الكنسي الذي كتبه ساويرس المصري إلى الرسالة التي كتبها الماوردي عن الأحكام السياسية وكان الماوردي من بغداد (٩٧٥ - ١٠٥٨) ، وقد بلغ أعلى شأو في ميدان الفقه والقضاء والسياسة ، وكان ممتازاً بسعة علمة ودقة حكمه كما كان ممتازاً باستقامته واستقلاله وعزة نفسه وكتابه في « الأحكام السلطانية » مؤلف نفيس فيه قوة في البيان وعمق في البحث ، وهو عمدتنا فيما عن نظام الضرائب في الإسلام كما أنه عمدتنا في كثير غير ذلك من مسائل الشريعة والعرف .

وإذا نحن استثنينا هذا الكتاب لم نجد إلا فراغاً منذ القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر حتى نأتي إلى عصر كتاب الإدريسي في الجغرافيا . وكان الإدريسي من أهل الأسفار، ولما بلغ من العمر ستين عاماً نَزل ضيفاً كريماً على بلاط الملك روجر الثاني في صقلية . وكتاب الإدريسي يحوي طائفة من الأخبار القيمة . وأتى بعده بفترة قصيرة كتاب ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٢) ثم كتاب أبي صالح وكان يعيش في العصر نفسه وكتب حوالي سنة ١٢٠٠ ، ولعله ولد قبل مولد ابن الأثير ببضع سنين . ثم يلي ذلك كتاب ابن خلكان « وفيات الأعيان » . وكان ابن الأثير من أهل ما بين النهرين وكان أكثر درسه للعلم في الموصل وبغداد وقضى معظم حياته في الدرس والأدب ، ولكنا لا نستطيع أن نجعله في الميدان الذي نحن فيه إلا في مرتبة دون مرتبة كبار المؤرخين ، ولعله نقل أخبار الفتح عن كتاب الطبري وما جاء فيه من ذلك لا يزيد الأمر إلا تحييراً . ومن أعجب الأمور أن كتابه الذي يسميه « الديوان الكامل » تزيد قيمته بعد أن نخرج من فترة الفتح حتى إنه ليخيل إلينا أن القضاء جرى بأن يلقي أخبار الفتح في مجاهل النسيان . وأما ابن خلكان فقد كان صديقاً لابن الأثير وخلف كتاباً في تراجم الأعيان ، وقد نقلنا عنه كثيراً من الأخبار وتوجد نسخة قيّمة من ذلك الكتاب في اللغة الفرنسية نشرها (Mac Guckin de Slane) . وكتاب أبي صالح « تاريخ الكنائس والديارات » معروف اليوم والفضل في ذلك يرجع إلى نسخة المستر (B. T. Evetts) التي طبعت في أكسفورد .

وأما تاريخ مصر القصير الذي ألفه عبد اللطيف البغدادي فقد كان معروفاً من زمن طويل والفضل في ذلك راجع إلى نشرة (ويت) مع ترجمتها اللاتينية : وقد ولد عبد اللطيف في بغداد في سنة ١١٦١ ورأى كثيراً من الحروب مع الصليبيين في أيام السلطان صلاح الدين مع أنه لم يكن من الجند ـ على أنه سافر في بلاد الشرق الأدنى وأقام مدّة طويلة في مصر وكان قصده من زيارتها في أوّل الأمر أن يسمع حكمة « الميمونيين »[١] . وقد اشتهر بالعلم شهرة واسعة لما كان عليه من معرفة بالطب والفلسفة والتاريخ ولكن خدمته للتاريخ ينقص منها ما في أخباره من قصر واختصار ومن الإستطراد في كتابته وتنقله من أمر إلى آخر .

ياقوت (١١٧٨ ـ ١٢٢٨) ـ هو كاتب شائق وأكثر ما كتبه موثوق به ، وقد ولد في بلاد الدولة الرومانية ثم بيع رقيقاً في بغداد لتاجر فكان يبعث في التجارة إلى بلاد الخليج الفارسي ثم ترك مولاه لخلاف شجر بينهما وأخذ في تحصيل العلم وكان يرتزق في أثناء ذلك من نسخ الكتب . ثم صالح مولاه قبل سنة ١٢٠٠ ، وعاد إلى الإشتغال بالتجارة وسافر من أجل ذلك إلى جزيرة (كيس) ، ولكنه عندما عاد من سفره وجد أن مولاه قد توفي فاشتغل ببيع الكتب والتأليف والسفر وحوالي سنة ١٢١٣ زار مدينة (تبريز) وبلاد الشام ومصر وبعد ذلك بسنتين سار إلى الشرق من دمشق حتى إذا بلغ مرو ألفي بها مكتبة مليئة بالكتب ، وهناك بدأ كتابه « معجم البلدان » وانتهى من كتابته في سنة ١٢٢٤ ، ولكنه اضطر إلى الرجوع لزيارة الإسكندرية ولم يبدأ في نقل كتابه إلا في سنة ١٢٢٧ في حلب ومات وهو يشتغل في ذلك العمل في السنة التالية . وإنما لمما يؤسف له أنه لم يستطع أن يعيد النظر على كتابه وهو كتاب لا يزال ذا قيمة عظمى في التاريخ والجغرافيا .

وأما ديوان المكين أو ابن العميد أي كتاب تاريخ المسلمين فهو مجموعة من نتف وأخبار قصيرة مرتبة بحسب تاريخ السنين . والكتاب معروف إذ نشر

---

(١) لا شك أنه يقصد الفاطميين (المعرب) .

نصه مع ترجمة لاتينية في سنة ١٦٢٥ نشره (Erpenius) وقد نقل (جبون) عنه كثيراً كما نقل عنه كثيرون غيره ، ولم يكن (لجبون) من المراجع العربية إلا هذا الكتاب مع بضع كتب أخرى قليلة . وقد قال رينودو فيه رأياً غير مشهور إذ قال[١] :

« Qui cinum sequuntur si Arabice nesciant, non ipsm sed interpretem sequi deprehenduntur, qui ut in multis saepe falsus est, ita circa annorum Arabicorum cum Rommanis comparationem saepissime» (His. Pat. Alex. P. 172).

وكذلك قال فيما يتعلق بالتواريخ[٢] :

« Infinitis exemplis constat hallucinari eaepissime Elmacinm.

والظاهر أن المكين كما قال رينودو جعل ديوانه أو جزءاً كبيراً منه على أساس ساويرس. وهذه الحقيقة توضح بعض السبب في قلة تحرّيه ودقته . وقد ولد المكين حوالي سنة ١٢٠٥ ولكن تاريخه ينتهي إلى ما قبل عصره بنحو قرن ، وقد كان مسيحياً مصرياً ، ولكن مؤلفه يجب أن يعدّ بين المؤلفات الصغيرة القيمة في نظر الباحث في تاريخ مصر .

أبو الفرج (١٢٢٦ - ١٢٨٦) - ويسمى كذلك ابن العبري نظراً لأنه من أصل إسرائيلي ، وقد ولد في ملطية بأرمينيا وهو معروف بكتابه تاريخ الدول الذي نشره « بو كوك » مع ترجمة لاتينية وهذا التاريخ مكتوب باللغة العربية ، وقد اختصره أبو الفرج نفسه من كتاب أكبر كتبه باللغة السريانية وقد جاء فيه أوّل ذكر مفصل لإحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم ، ولكنه لا يزيد شيئاً على ما نعرف

---

(١) ومعنى هذه النبذة : « إن الذين يأخذون عن المكين بغير أن يكونوا ملمين باللغة العربية لا ينقلون إلا عن طريق مترجم يكون في أغلب الأحوال مخطئاً خطأ عظيماً حتى أنه كثيراً ما يقارن بين تواريخ سني التقويم العربي وبين أخرى من سني التقويم الروماني » .

(٢) ومعنى هذه النبذة « وثمت أمثلة لا عدّ لها تدل على أن المكين كان في أكثر الأحيان يخلط ويضل » .

من أخبار الفتح العـربي . وكتابـه « تاريـخ الكنائس » بـاللغة السـريانيـة يتعلق بالكنيسة السورية أكثر مما يتعلق بكنيسة الإسكندرية ولكن به بعض أخبار قيمة تتعلق بعصرنا الذي نعالجه ، وكان أبو الفرج مسيحياً يعقوبيـاً وصار أسقفـاً ثم صار بطريقاً لطائفته .

وللنـووي معجم في التراجم فيـه كثير من الأخبـار التي لا تتعلق بعصـر خاص ، ولكنا لا نجد به كثيراً مما له علاقة لازمة بالفتح العربي . وقد ولد في قرية (نوا) بقرب دمشق في سنة ١٢٣٢ وصرف حياته في الدرس والتعليم ، ثم مات من الإعياء والجهد ولا يزال قبره محفوظاً وله في نفوس الناس مقام كبير إذ يعدّونه ولياً من أولياء الله .

وأما القزويني المتوفى سنة ١٢٨٣ فقد خلف كتاباً في آثار البلاد وهو يشبه أن يكون دليلاً لوصف الآثار القديمة وقد وجدناه ذا فائدة في المسائل المتعلقة بالآثار . وكتاب أبي الفداء في وصف البلدان لا يسعنا أن نغفله فهو قيم لذاته ، وقد زادت قيمته لما أضاف إليه (رينو) في طبعته الفائقة التي جاءت في مقدّمتها مقالة ذات فـائدة عـظمى وصفت فيها المـوارد العامـة لعلم وصف البلدان في العربية .

وقد كان أبو الفداء علمـاً من الأعلام سليـل الأسرة التي أنجبت صـلاح الدين الأيوبي ودرج في سننها من سبل الفروسية فكان يهيم بمعمعان الحـرب منذ نعومة أظفاره على أن ناحيته العقلية كانت نامية زاكية وصار في آخـر عمره سلطاناً لحماة فـوق ما كـان عليه من سعـة العلم والتبريـز في الأدب فكان بـابه مقصـداً للأعـلام في كل ضـرب من الفنون والآداب ، وكـان مولـده في سنـة ١٢٧٣ ، وكانت وفاته في سنة ١٣٣١ .

ولعلنـا لا نكون تجـاوزنا الحـدود ونحن في صدد قـولنا هـذا في وصف البلدان إذا نحن عـرضنـا لكتـاب أميلنـو (Geographie de l'Eg. à l'Epopue Copte) فهو كتاب عظيم النفع يـرجع إليـه لمعـرفـة أسماء البلدان في العصـر القبطي والعربي . وكذلك يجدر بنا ذكـر مقال المستـر « لسترانـج » في مؤلفي

كتب وصف البلدان من العرب وذلك في مقدّمة كتابه (Palestine under The Moslems.) .

ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٥) ـ يذكرنا اسمه بانتشار الدولة الإسلامية على بلاد المغرب فقد كان مولده في تونس ولكن أسرته كانت قد انتقلت من زمن طويل إلى بلاد الأندلس وأقامت بها ثم تركت أشبيلية وأقامت في سبته قبل ميلاده بنحو قرن . وقدحصّل ابن خلدون العلم في تونس أولاً ثم في تلمسان ثم لحق بسلطان غرناطة وقام بنفسه على عقد المعاهدة مع (الدون بدرو) القاسي ملك قشطالة ، وقد استطاع سلطان غرناطة بتلك المعاهدة أن يعود إلى قصبة ملكه ، وتاريخ ابن خلدون بحالته التي بقي عليها إلى اليوم مختلط تحيط به ظلمة حيث يصف أخبار فتح مصر على أنا نجد به نبذاً ذات قيمة عظمى ظهر صدقها الناصع ظهوراً جلياً .

المقريزي (١٣٦٥ ـ ١٤٤١) ـ نجد فيه مؤلفاً مصرياً إذ ولد بالقاهرة وكتابه « الخطط والآثار » أثر نفيس من آثار العمل المتصل في جمع الأخبار وقد كان كاتباً مكثراً عظيم الإكثار وكان مطلعاً على عدد عظيم من المؤلفات غير أن معظمها قد ضاع ودرست معالمه فهو من جهة مقدار ما كتب أعظم مراجعنا وأكبرهم شأناً على أنه قد رجع فيما رجع إليه إلى بعض مؤلفين ليسوا ذوي ثقة عظمى ومنهم من لا يتضح معنى قوله ومنهم من يشك في روايته . وعلى ذلك فإنه مع شدّة غيرته في كتابته وعنائه في عمله لا نستطيع أن نصفه بالدقة والتحرّي ولا بأنه استطاع أن يحسن بناء ما وجد دونه من الأخبار .

ابن حجر العسقلاني (١٣٧٢ ـ ١٤٤٨) ـ نحن مدينون له بكتابه في التراجم الذي أفادنا في ترجمة حياة « عمرو وسواه من القوّاد في مدّة الفتح » وكان مولده في عسقلان كما يدل عليه اسمه ثم سافر كثيراً في بلاد الشام وبلاد العرب ومصر وحج إلى بيت الله إذ كان عمره عشر سنين واشتغل بالتجارة ثم بالأدب ومات وقد طعن في السن في مدينة القاهرة .

أبو المحاسن (١٤٠٩ ـ ١٤٦٩) ـ كان أبوه مملوكاً للسلطان برقوق وولاه

على حلب ثم على دمشق ، ولكن المؤرّخ نفسه ولد في القاهرة وتعلم بها وكان المقريزي أحد الأساتذة الذين تلقى عنهم العلم . وقد جمع كتابه في تاريخ مصر على طريقة هي أشبه شيء بطريقة المقريزي أي أنه كان يروي مختلف الروايات عن الحادث الواحد بغير أن يعلق عليها أو ينقدها أو يرجح بعضها على بعض وإن فعل كان ذلك نقداً يسيراً .

السيوطي (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥) ـ هو آخر من نذكر هنا من المؤرّخين . وكتابه « حسن المحاضرة » مبني في كثير من نواحيه على كتاب المقريزي فهو ينقل عنه قطعاً بأكملها نقلاً لفظياً . وكان السيوطي من أهل القاهرة مع أن أسرته كانت في الأصل من أرومة فارسية وحلت في أسيوط منذ ثلاثة قرون قبل مولده . وكان أبوه قاضياً في القاهرة وعلم بالشيخانية وخطب في مسجد ابن طولون . وقد بدأ السيوطي يكتب منذ صغره وكان يفخر بأن مؤلفاته معروفة في أسيا الصغرى والشام وبلاد العرب وشمال أفريقيا وبلاد الحبشة ذاتها . ولكن غروره وتفيهقه جعلاه مكروهاً عند الناس فعزل عن أعماله المختلفة في التدريس أو اعتزل العمل بها من تلقاء نفسه ثم انتحى ناحية في جزيرة الروضة ومات بها . وكتابه في التاريخ يدل على إنحطاط حتى إذا قورن بكتب سلفه الأقربين . ولكن من الحق أن نقول عنه كما نقول عن سلفه إن اختيارهم للروايات كان يحوي أخباراً لها قيمة وخطر قد أغفل ذكرها سواهم من أصحاب المصنفات الأخرى أو مما ردوه ولم يروا إثباته .

على أننا لا بدّ أن نذكر مؤلفاً آخر ذا شأن عظيم ولم يكن من مؤلفي التاريخ بل من الكتاب في وصف البلدان والآثار ولم يكشف مؤلفه إلا سنة ١٨٩١ نعني به ابن دقماق . ويظهر أنه مصري وأن وفاته كانت سنة ١٤٠٦ وقد نشر الدكتور (فولرز) نص كتابه مع مقدّمة اعترف فيها وحق له ذلك بما كان عليه المؤلف من سعة العلم التي تستلفت النظر . والقصد الأوّل للكتاب يدل عليه عنوانه فهو وصف لبلاد مصر . وكثير من الحقائق التي حفظها ابن دقماق في كتابه لم يسبقه إلى ذكرها أحد وهي شائقة من أروع ما كتب ولا سيما ما كان منها في وصف آثار الفسطاط والإسكندرية . ولنضرب لذلك مثلاً فإنه يذكر أن الباب

الأصلي للحصن الروماني الذي كان تحت كنيسة المعلقة كـان في عام ١٤٠٠ مستعملاً لمرور الناس ولعلنا نرجو أن يـوفق الدكتـور (فولـرز) إلى نشر تـرجمة لذلك الكتاب العجيب .

هذه إذن أمهات الكتب الشرقية التي استمددنا منها تاريخنا هذا وليس منها واحد يذكر أخبار الفتح واضحة متصلة ، بل نرى واجبنا أن نقول إنه ليس منها ما يذكر تلك الأخبار دقيقة ، ولا يكاد الإنسان يتصـورّ مقدار مـا فيها من خلط في التواريخ والحوادث والأشخاص . ولعل القارىء يستطيع من مطالعة المـلاحق التي ألحقناها في آخر الكتاب أن يتبين شيئاً من مقدار مـا هنالـك من خلط في التاريخ ومقدار ما عـانيناه من المشقـة في ابتداع طـريقة لضبط تـواريخ الفتح الفارسي والفتح العربي . فالظاهر أن مؤرّخي العرب لا يعرفون شيئاً عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم ، فهم يخلطونه ببعض أصاغر القوّاد . وهم كذلك يخلطون بين قيرس وبنيامين وبين فتـح قـطر مصـر وفتـح مـدينـة مصـر وفتـح الإسكندرية . وأما معاهدة بابليون فهم يخلطونها بمعاهدة الإسكندرية[1] وكذلك لا يميزون بين فتح الإسكندرية الأول الذي كان صلحاً وبين فتحها الثاني الذي كان عنوة في مدّة ثورة منويل . والحق أننا لا ندعي أننا قد جلونا هذه الظلمات فإنا لم نعمل سوى أن حاولنا تبيين أكبر مواطن الخلط والـوصول إلى الحقـائق التي غطى عليها تناقض الأخبار . وقد حاولنا كذلـك أن نكتب بغير تحيّـز إلى جانب القبط أو العرب . فبدأنا درس هذا التاريخ وكان الإعتقاد السائد أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم ، غير أننا اضطررنا إلى أن نعتقد أن التاريخ قد ظلم القبط في ذلك ظلماً فاحشاً . وكذلك بدأنا درسنا على الإعتقاد الشائع أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية غير أنّنا اضطررنا إلى أن نرى أن التاريخ قد ظلم العرب في ذلك ظلماً فاحشاً كذلك . وقد رحبنا بالرأيين الجديـدين معاً إذ كنـا ممن يحملون لكلا الشعبين العربي والقبطي أكبر الإعجاب . على أننا لا يحملنا

---

(١) قد عاد المؤلف عن هذا الرأي في رسالته التي ذكرناها في الملحق السابع وهي « معاهدة مصر في الطبري » (المعرّب) .

ذلك على الإنحياز لأحدهم فما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق . غير أننا نرجو أن يهتم العرب والقبط جميعاً بسعينا هذا الذي سعينا إليه في تمييز الحق وتصفيته من الباطل وفي جلاء عصر شديد الظلمة من عصور تاريخ مصر .

وكنا في كتابة الألفاظ العربية نسير على النظام المتبع في نشرة مطبعة (كلارندرن) لكتاب أبي صالح وهو النظام الذي أقرّه كثير من العلماء الإنجليز باستعمالهم إياه . على أننا لم نجد من الضروري أن ننقل وفق هذا النظام ما دخل إلى اللغة الإنجليزية من الألفاظ العربية وصقله الاستعمال مثل محمد (Mohammed) وعمر (Omar) ومكة (Mecca) والقاهرة (Cairo) وكنا نحذف أداة التعريف كما فعل من قبلنا المستر (Le Strange) في بحثه « بغداد » ولقد كان من العسير في بعض الأوقات أن نختار صورة للفظ من صور له متعدّدة بين يونانية وقبطية وعربية ، فمثلاً آثرنا استعمال لفظ (Nikiou) وهو يوناني قبطي إذ كان هو المستعمل عند الفتح وفضلناه على لفظ نقيوس وهو الصورة العربية لاسم تلك المدينة إذ أن تلك الصورة تكاد تكون ميتة اليوم . ولكنا عند ذكر الفيوم رأينا من اللازم استعمال ذلك اللفظ المألوف وفضلناه على الصورة القبطية لذلك الاسم وهي (بيوم) أو الصورة اليونانية الرومانية (إقليم أرسنويه) . وهذا الإختلاف كان في أكثر الأحوال مقصوداً على ذلك ولو كان خطأ ويجب ألا يضاف إلى بيان الأخطاء الغير المقصودة أو وجوه النقص في الكتاب .

ولا بد لنا أن نشكر الدكتور المبجل (ر. هـ. شارلز) إذ أعارنا ترجمته لكتاب حنا النقيوسي ، والمستر (ف. ك. كونيبير) إذ أعارنا ترجمة إنجليزية لكتاب سبيوس ، وللمستر (ب. ت. افتس) أن أعاننا بترجمة نبذ كثيرة من الكتب العربية ، والمستر (و. ا. كروم) ، والمستر (ا. و. بروكس) ، والأستاذ (فولرز) ، الأستاذ في (يينا) لما قدموه لنا من الإقتراحات ووجوه النقد . ولا بد لنا أن نذكر مع الشكر والعرفان من ساعدونا أثناء زيارتنا القريبة لمصر ، ونخص منهم فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية إذ قدم لنا بعض قطع إختارها أو كتبها خاصة بالفتح ، ومرقص بك سميكة إذ ساعدنا بأن راجع

معنا نسخة من تاريخ ساويرس ، كما قدم لنا كثيراً من الأيادي في وجوه مختلفة لم يدخر فيها وسعاً ، وجناب ماكس هارتز بك إذ قدم لنا كثيراً من البيانات عن الحصن الروماني حصن بابليون ، وعن سوى هذا من أمور خاصة بالفن والآثار ، والكبتن ليونز (R. E.) بنظارة الأشغال العامة ، والمنسنيور (ب. كازانوفا) مدير المعهد الفرنسي ، والمستر (أ. أ. فلوير) رئيس مصلحة التلغرافات إذ قدّموا لنا كثيراً من المساعدات فيما يخص أسماء المواضع وخطط البلاد عموماً . وفوق كل ذلك أبادر بأخلص الإعتراف بفضل صديقي المبجل المفضل (العميد بوتشر) بالقاهرة إذ أتاح لي فرصة زيارة القاهرة مرة ثانية من أجل هذا الكتاب وقد كان لا يفتر عن أن يغمرني بعطفه وتشجيعه وهو يتابع خطواتي في هذا العمل ويضيء لي السبيل فيه .

أكسفورد ، في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٢

ألفرد ج. بتلر

الفصل الأوّل

خروج هرقل

ملخص لحكم أباطرة الروم من حكم (جستنيان) إلى حكم (موريق) ـ الدولة الرومانية مدة حكم (فوكاس) ـ حال مصر ـ خروج (البنطابوليس) بقيادة هرقل ـ خطة الحرب ـ القصة المشهورة لتلك الحوادث برواية (جبون) وتفنيدها ـ كتاب (حنا النقيوسى) أسقف (نقيوس) من قرى مصر .

استهل القرن السابع والدولة الرومانية تلوح كأنها تنحدر من حال الاضمحلال إلى حال الذهاب والفناء ، وقد كانت تلك الدولة قبل ذلك بستين عاماً قد أبلغها سلطان جستنيان إلى بلاد القوقاز وبلاد العرب شرقاً وإلى أعمدة هرقل[1] غرباً . وقد كان لذلك العاهل شخصية قوية ملكت على الناس عقولهم حتى لكان يخيل إليهم ـ كما قال القائل ـ « إن العالم كله أضيق من أن يسعه »[2] .

وقد كان مجده وأبهة ملكه مساويين لقوّنه وسلطانه ، وكان حزمه عدلاً لمجده ـ حيناً من الدهر على الأقل . وكان فوزه في ميادين العلوم والفنون فوزاً باهراً حتى أنه ليبز إنتصاره في ميادين الحروب . فإن عملية الجليلين اللذين يقترنان باسمه لا يزال باقياً منهما قانونه ومجموعة أحكامه يسايران الأيام مشهوداً

---

(١) أعمدة هرقل يقصد بها مضيق البحر الأبيض المعروف الآن بمضيق جبل طارق (المعرب) .

(٢) عن الأستاذ (Bury) نقله من كتاب (Procopius) في كتاب (History of The Later Roman Empire) (الجزء الأول صفحة ٤٧٠ ـ ١) .

لهما أنهما عمدتان في فقه القانون ، في حين أن كنيسة (أيا صوفيا) لا تزال على مر الأيام ماثلة يشهد لها الدهر أنها أبدع أثر وأجل مثل في طراز البناء البيزنطي .

على أن خطر الإضمحلال كان ماثلاً حتى في أيام (جستنيان) فقد توالت النوازل على الدولة حتى خشي عليها ، فمن فساد خلقي إلى آخر سياسي . وزادت عليها نكبات طبيعية فاجتاح الوباء بلاد الشرق كلها بادئاً من مدينة (الفرما) ثم ما زال يعصف ببلاد مصر جائساً خلالها إلى أن بلغ بلاد (لوبيا) ، وأنشب مخالبه في فلسطين وما يليها من بلاد فارس إلى القسطنطينية . وأعقب الوباء الزلزال فدمر من المدن ما قد يعدل ما أصاب أهل الدولة من « الموت الأسود » . فكانت آخر أيام ذلك العاهل القانوني تغشاها سحابة دكناء من الهم وتوقع البلاء . وما كادت أيام حكم خلفه (جستن) تقترب من نهايتها حتى كانت حكومة الدولة تتصدّع . وقد كانت أيام ذلك الحكم قصيرة ولا روح فيها وانتهى العاهل منها بالجنون . فلما جاء بعده (تيبريوس) سنة ٥٧٨ أمل الناس أن يكون أسعد طالعاً من سلفه . وقد كان يرجى منه على الأقل أن يسعى ليصدّ تيار الإضمحلال . ولكن الأجل لم يمهله حتى يظهر قدره فخلف لمن جاء بعده وهو (موريق) خزائن خاوية وشعباً متذمراً ودولة غير متماسكة .

وما كان لمثل ذلك الكرب أن ينفرج إلا على يدي رجل له أعظم عقل ولا يخطىء له رأي . ولم يكن (موريق) بذلك الرجل مع أنه كان يقصد خيراً . فقد أفسد عليه خططه وخيب سياسته عيب طالما أفسد أحسن الخطط والآراء عند تنفيذها ، ألا وهو قلة الإعتداد بتغير الظروف والأحوال سفهاً وجهلاً . فأدخل على جيشه بدعاً يريد بها إصلاح شأنه وكان ذا دراية بفنون الحرب وخططه ـ وما أحسن ما كتبه في ذلك الشأن ـ غير أن ذلك لم يحفظ كتائبه من الهزيمة . ثم إنه عمد إلى الاقتصاد وأخذ نفسه بذلك أخذاً شديداً لكي يصلح من حال الدولة المالية فخاب سعيه فيما قصد إليه ولم يفد إلا أن أملَّ شعبه وأبعده عنه كرهاً فثار به ورمى بالتاج مزدرياً إلى جندي جاهل مشوّه الخلقة وهو (فوكاس) .

وكانت الدولة عند ذلك كأنها سائرة إلى الدمار لا يُنجّيها منه شيء. فكان

حكم (فوكاس) حكماً ظالماً قائماً على جيش فاسد تدعمه عصبة فاسدة من الأشراف ، حكماً تتناقص هيبته وقوته كلما بعدت عن قصبته ميلاً فميلاً . وسلط على أنحاء الدولة سوط عذاب من الحكم السيء حتى لأصبحت وأقل بلادها عذاباً تلك الأقاليم التي تستعر فيها الحرب مع الفرس أو مع همج الشمال .

وفي الحق لم يكن في بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى حالاً من مصر . فقد سعى (جستنيان) جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة (الأرثوذكسي) فيدخلهم في ذلك المذهب. ولكن امرأته «ثيودرا» عملت من جانب آخر فأفسدت بعض سعيه إذ كانت تعطف على مذهب هؤلاء الأقباط عطفاً ظاهراً[1] . على أن ذلك العطف ما عتم أن قضى عليه الإمبراطور « جستن » وعفى أثره . ومن ثم عاد الكفاح الشديد الذي ثار قديماً بين طائفتي (الملكانيين) و (المونوفيسيين)[2] وصار أشدّ سعيراً . ولم يكن عند قبط مصر همٌّ أكبر منه يملأ قلوبهم ويملك عليهم آمالهم . فلم يكن عجباً على ذلك أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين في مدينة الإسكندرية نفسها ، وأن تمتلىء أرض الصعيد بعصابات اللصوص وقطاع الطرق[3] ويغزوا أكنافها البدو وأهل النوبة ، بل لم يكن عجباً أن تضطرب الأحوال في مصر السفلى فتصبح ميداناً للشغب تثور بها فتن بين الطوائف توشك أن تكون حرباً أهلية[4] . ولم يكن عجباً أن يكون هذا في بلاد أصبح الحكام فيها لا همّ لهم إلا أن يجمعوا المال لخزائن الملك البيزنطي وحاشيته وأن تكون لمذهبهم الديني اليد العليا بين أهل

---

(١) أنظر كتاب الأستاذ « Bury » « History of The Later Roman Empire» (الجزء الثاني صفحة ٩٠٨) وفيه يقتبس الأستاذ من ترجمة « R. Payne Smith » لكتاب « حنا الايفيسوسي » عن السريانية قصة عجيبة عن تحويل (النوباديين) عن دينهم وهم قوم كانوا يعيشون في الأرض الواقعة إلى شرق نهر النيل في صعيد مصر .

(٢) اليعاقبة وهم عامة أهل مصر .

(٣) انظر كتاب (حنا مسكوس) « Pratum Spirituale » والملحق الذي كتبه به (Migne) وكتاب (Patr. Gr.) الباب ١٤٣ .

(٤) عن كتاب حنا (النقيوسي) ترجمة زوتنبرج (صفحة ٢٥٩ وما بعدها) .

البلاد . فصار الحكم على أيـديهم أداة لا تؤدِّي إلا إلى الظلم ونشـر الشقاء . فالحق هو أن بلاد مصر إذ ذاك كانت جميعها تضطرم بنار الثورة ورغبة الخروج لا يغطيها إلا غطاء شفيف من الرماد .

بدأ حكم (فوكاس) في نوفمبر سنة ٦٠٢ وفي ذلك اليوم لبس التـاج في حفل عظيم حسب الرسوم المعروفة ، ألبسه إياه البطريق (قرياقوس) في كنيسة القدّيس حنا بالقسطنطينية . ودخـل المدينـة من الباب الـذهبي فسار فيهـا بين صفوف من العمد الجليلة وفي الطرق الكبرى يحيط الناس بموكبه يهللون له في سرور كبير . غير أنه ما أتت سنة ٦٠٩ حتى كانت بلاد الدولة كلها هائجة تتهيأ للثورة . ثم بدأت الثورة في « بنطابوليس » والروايـة المشهورة لتلك الحـوادث هي أن (كـريسبوس) صهـر (فوكـاس) ـ زوج ابنته ـ استـوجب أن غضب عليـه الملك غضباً هائلاً وذلك بأن أقام تمثاله وتمثال عروسه في ميدان السباق . فلما أن فسد بذلك ما بينه وبين الملك شرع كريسبوس يدبر لحميه ثورة ودعا هرقل حاكم إفريقية لينفذ ما دبره . أما الحقيقة فهي أن هرقل كان يدبـر أمر ثـورة لم يكن فيها صادراً عن أمـر (كريسبـوس) . وقد ذكـر الحقيقة (قيـدرينوس) ذكـراً صريحاً لا شك فيه . ولم يكن (كريسبوس) صهر الإمبراطور بالرجل الذي يقدر أن ينهض بادئاً بأمر . فلما سمع بما ثار من الإضطراب في (بنطابوليس) قويت نفسه فأنفذ سراً إلى الثائرين كتباً يحثهم فيها على ما هم فيه ويعدهم بالمساعدة إذا ما استطاع (هرقل) أن يسير إلى القسطنطينية . وقد كان (هرقل) قد تقدم في السن فلم يكن قادراً على مثل هذه المجازفة[1] فما كانت سنه بأقل من خمسة وستين عاماً . إلا أنه رأى دونه ابنه وسميّه (هـرقل) وكـان عند ذلـك في مقتبل العمر ، ورأى صديقه (نيقتاس) وكان نائبه ووكيله الأكبر ، فما أسرع أن وجـد فيهما الأداة الصالحة لإنفاذ خطته .

وقد أساء كثير من الناس فهم خطة الحرب فذكر (جبون) ـ وهو حجة فيما

(١) كان (هرقل) قائد الجيوش الرومانية في حرب (موريق) مع الفرس .

يقول ـ رواية تافهة خلع عليها قوّة بذكره إياها وهي أن هرقل ونيقتاس إتفقا على أن يسير أحدهما بحراً والآخر براً قاصدين إلى العاصمة ، فمن سبق إليها كان جزاؤه أن يفوز بالتاج[1] . ولا تنس أنهما إبتدآ من (قيرين)[2] فإذا هما قد إبتدآ ومع كل منهما قوّة من الجيش مساوية لما مع الآخر لم تكن قسمة عادلة وكان سباقهما سباقاً لم يكن قبله أكثر منه ظلماً وحيفاً . فإن هرقل لم يكن عليه إلا أن يجوز البحر الأبيض ثم يساحل بلاد اليونان ومقدونيا ثم يقذف بعد ذلك بجيشه على العاصمة ، في حين أن (نيقتاس) كان عليه ـ على ما جاء في تلك الرواية ـ أن يسير إلى مصر فينتزعها من يد (فوكاس) ومن ثم كان عليه أن يسير سيراً طويلاً منهكاً إلى فلسطين وسوريا وقليقيا وآسيا الصغرى . فهب أنه في مثل تلك الحال فاز فوزاً مبيناً في عدّة مواقع باهرة ، وهب أن كل مقاومة له خبت نيرانها وانطفأ لهيبها ، هب كل ذلك تجد أنه ما كان مع ذلك ليستطيع أن يتابع سيره في السباق لنيل الجائزة لفوات الوقت عنه إذا لم يكن لشيء سواه . ولهذا نرى أن الأمر لم يكن كما جاء في تلك الرواية . وإننا لو صدقنا وجود فكرة مسابقة بين متنافسين يكون التاج فيها لمن سبق ـ وهذا ما نستبعده ونشك فيه كل الشك ـ نقول لو صدقنا ذلك لكان خط السير أبسط مما تزعم الرواية وأقرب إلى أن يكون السباق معه عادلاً على سواء . إنه لا شك في أن إقليم (بنطابوليس) لم يكن فيه ما يكفي لما يقوم بحاجة جيش عظيم ، فما بالنا بما يكفي جيشين . ولم يكن على قائد كل فرقة من الفرقتين أن يكتفي بالذهاب إلى (بيزنطة) ، بل كان لزاماً عليه أن يرفع علم الثورة حيث يسير وأن يجمع المؤن والأمداد ، ثم يجتمع كل منهما بأخيه حتى يضربا العاصمة ضربة تتصدع لها . فاستقر الرأي على إنفاذ هذه الخطة بأن يذهب (هرقل) بحراً وأن يسير (نيقتاس) في البر ـ لا شك في هذا ـ

---

(١) ويأخذ Diehl نفسه بهذه الرواية ـ أنظر كتابه (L'Afrique Bizantine) صفحة ٥٢٠ .

(٢) يقول بعض المؤرخين إن هرقل ابتدأ من (قرطاجة) . ولكن يمكن أن يفهم من (حنا النقيوسي) أن هرقل الصغير سار من (قيرين) وأن هرقل الكبير سار في جيش إلى قرطاجة بعد سفر ابنه بمدة من الزمن فأخذ المدينة ومن ثم جعل مقامه فيها .

ولكن الذي جهله (جبون) ومؤرخو اليونان ولم يقدروا على الفطنة إليه هو أن الغرض الذي رمى إليه (هرقل) هو مدينة (سلانيك) وكان القصد الذي رمى إليه (نيقتاس) هو مدينة (الإسكندرية) وأن نجاح الخطة المشتركة كان متوقفاً على إنضمام هاتين المدينتين للثوار أو خضوعهما لهم .

إنه لا يكاد يكون شك في أن هرقل كانت له صلات وثيقة بأهل (سلانيك) أو بحزب منهم ، وأن (نيقتاس) كان يتوقع أن يلقى في مصر ترحيباً وتسهيلاً وأنه إن لقي مقاومة فلن تكون إلا مقاومة يسيرة . على أن توقعه لم يصدق وخدعه حسبانه إذ صمد له عدو شديد المراس لم يكن يتوقعه فوقف في سبيله . وإني أرى من الواجب على أن أؤكد مرة أخرى ـ مفنِّداً لقول جبون ـ أن (نيقتاس) لم يكن له إلا قصد واحد وهو فتح مصر ، وأن مصر كانت من خطة العمل مع (هرقل) بموضع القطب تدور عليه رحاها ، وأنها كانت العقبة لا عقبة سواها بينه وبين القسطنطينية . فإذا هو فتحها ملك بذلك الفتح أرضاً يستطيع أن يجند منها الجنود ، وتمكن من « مزرعة النيل » تخرج له القمح والخيرات ، ووضع يده على ميناء الإسكندرية وما فيها من السفين . فإذا تم له ذلك كان من أشد الحمق أن يقتحم بجيشه الشام وآسيا بدل أن يذهب عامداً نحو الدردنيل فيلتحق بجيوش هرقل . وعلى ذلك فقد كانت الخطة كما يلي :

كان على هرقل أن يبحر بسفنه إلى (سلانيك) ، وأن يعد هناك أسطولاً قوياً وجيشاً جراراً . في حين أن (نيقتاس) كان عليه أن يملك الإسكندرية ـ وهي المدينة الثانية في الدولة جمعاء ـ فإذا هو ملكها قطع عن القسطنطينية ما كان يبعث إليها من قمحها ووضع يده على موضع يستطيع فيه أن يجهز سرية بحرية يرمي بها (فوكاس) . فإذا لم يتهيأ له ذلك أمكنه على الأقل أن يقطع عن (فوكاس) كل إمداد من ذلك القطر[1] .

---

(١) كان المؤرخ الأرمني (سبيوس) يعيش في هذا الوقت أو قريباً منه وهو يقدر عمل هرقل تقديراً عادلاً إذ يقول : « ثم ثار القائد هرقل بجيشه وكان في إقليم الإسكندرية خارجاً على (فوكاس) . وجعل نفسه ملكاً واستولى على إقليم مصر » وهذه كلمة صغيرة ولكن =

وهذه الحادثة لا يذكرها مشاهير مؤرخي بيزنطة إلا عرضاً في بضعة أسطر ولا يكاد أحدهم يدرك مكان مصر وخطورة محلها من هذه الثورة . ولكن قد انبعث نور جديد على تاريخ مصر منذ كشف كتاب حنا النقيوسي ـ أو بقول أدق ـ منذ نقلت إلى لغة أوروبية ترجمة لنسخة مخطوطة باللغة الأثيوبية من « ديوان أخبار حنا أسقف نقيوس » . وكانت (نقيوس) إذ ذاك مدينة عظيمة من مدن مصر السفلى . وكان حنا نفسه يعيش في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد ، وكان لا بد قد إتصل بكثير من الشيوخ المعمرين الذين شهدوا الحوادث التي أدّت إلى سقوط (فوكاس) أو بمن يكون عندهم ذكر منها . فديوان أخباره على ذلك له خطر كبير . ويسترعي النظر فيه دقة روايته وتحرّيه الحقيقة إلا في مواضع شوّهت فيها النسخة المخطوطة تشويهاً . وذلك مع أن هذا الديوان نقل من لغته الأصلية (القبطية) إلى لغة أخرى (الأثيوبية) . حقاً إن فيه بعض أغلاط وفيه مواضع لا يتفق ما يذكره فيها مع سائر الحوادث ، ولكن يعوض ذلك ويكفر عنه أن الكتاب يكشف من الحقائق شيئاً كثيراً كان مجهولاً . فالحق أن ذلك الديوان يبعث من لدنه نوراً جديداً عجيباً يوضح تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتاريخ بطارقة الإسكندرية وتاريخ مصر عامة ، في ذلك العصر الذي قل أن يوجد عصر مثله في خطره ومكانه على أنه عصر قد أهمل أمره إهمالاً لا تبرره قلة ما ورد عنه ونقص ما تخلف من آثاره . وفوق كل هذا فديوان حنا يكمل من نواح عدة ما جاء في الروايات الأخرى من نقص ويصحح ما يشوبها من خطأ مثل روايات (تيوفانز) و (قدرينوس) و (نيقفوروس) .

= المؤرخ يجعل فيها النجاح متوقفاً على فتح مصر ، وذلك ما يجب أن يفهمه من يريد أن يدرك الأمر على حقيقته .

الفصل الثاني

النضال من أجل مصر

السير إلى مصر ـ « ليونتيوس » حاكم مريوط يشترك في المؤامرة ـ الإقليم الواقع بين « بنطا بوليس » ومصر ـ خصبه وسكانه ـ « فوكاس » يخشى على الإسكندرية ـ « نيقتاس » يسير من الغرب وينتصر في وقعة على مقربة من المدينة ـ الترحيب به ـ (بونوسوس) قائد (فوكاس) يسرع من الشام ـ (نقيوس) تسلم له ـ يصل بجيشه إلى الإسكندرية ـ صد الهجوم البحري الذي يقوده (بول).

نعلم من ديوان الأسقف المصري أنه قد كان ثمة بعض قتال في إقليم البنطابوليس نفسه ، فقد جمع هرقل هناك جيشاً من ثلاثة آلاف جندي منفقاً في سبيل ذلك أموالاً عظيمة . واجتمع لديه فوق ذلك جيش مما يسميه ذلك المؤرخ « الهمج » وكانوا بلا شك من البربر . وقد جعل هؤلاء تحت قيادة « بونا كيس » وهو تحريف في اللغة الأثيوبية لاسم يوناني . فانتصر بفضل هذا الجيش نصراً لم يكلفه كبير عناء على قواد الدولة وهم (مارديوس) و(اكليزياريوس) و(ايزيدور) ، واستطاع بوقعة واحدة أن يقضي على قوة فوكاس في ذلك الجزء من أفريقيا . وفي الوقت نفسه أرسل (كيسيل) حاكم طرابلس كتيبة لعلها ذهبت إلى جنوب بنطابوليس . وعلى كل حال فإن نيقتاس بدأ السير عند ذلك نحو الإسكندرية مساحلاً . ثم لحق به في بعض المواضع (كيسيل) و(بونا كيس) ، ولم يكن ثمة ريب في أنه سينزل على الرحب في كل مكان حتى يبلغ أكناف القطر المصري . ذلك بأن (ليونتيوس) حاكم مريوط ـ وهو الإقليم المصري في غرب الإسكندرية ـ كان قد استماله القوم فوعدهم بجند كثير .

ويعرف الناس أن مثل هذا السير إذا حدث اليوم حدث في صحراء مجدبة لا يكاد الماء يوجد بها . ولكن قامت أدلة كثيرة على أنه قد كان في القرن السابع في ذلك الإقليم كثير من المدن العامرة وبساتين من النخيل وأرض واسعة ذات خصوبة . وهو إقليم لا يعرف فيه الآن ، وإن شئت قلت إن الناس لا يتصوّرون منه إلا أنه فيافٍ من صخور ومن رمال محرقة . وهذا الأمر له خطر وشأن كبير عند الرواد وعند من يهمهم الدرس والعلم ، ولهذا نستميح القارىء عذراً إذا نحن قلنا فيه كلمات قليلة :

ذكر بطليموس أن إقليم (قيرين) ينتهي عند الجانب الشرقي إلى مدينة (دارنيس) ، ومن ثم يبدأ إقليم (مرمريكا) . ومنذ قلنا إن (نيقتاس) قد سار إلى الشرق فإنه لا بد قد مر ببلاد كثيرة منها مدينة (أكسيلس) و (بالوفيوس) و (بطراقس) و (انتيبرجوس) ورأس (قطينيوم) ، وكل هذه كانت في إقليم (مرمريكا) . وكان أول إقليم (لوبيا) عند مدينة (بانورموس) ، وكانت به مدائن كثيرة منها (قطابتموس) و (سيلنوس) و (بريطونيوم)[1] وهي (أمونيا) بحسب تسمية (سترابو) لها . وكانت (بريطونيوم) قصبة الإقليم وفيها مقر الحاكم ويلوح أن ذلك الاسم ما زال باقياً في الاسم العربي (البرطون) . وكان ما يلي ذلك من الشرق في الإقليم ذاته مدينة (هرميا) ويليها (لوكاسيس) ، وكان أول إقليم (مريوط) في منتصف المسافة بين (لوكاسيس) ، و (كيموفيكوس) ، وكانت أكبر مدائن هذا الإقليم مدينة (بلينطين) في (تينيا) ومدينة (تابوسيريس الكبرى) وحصن (الكرسونيسوس) ومدينة (مارية) وهي مريوط .

وترد في كتب (بطليموس) و (سترابو) أسماء مدائن أخرى . ومن المحقق أن إقليم مصر في القرن الأول كان ينتهي حيث يبدأ إقليم (قيرين) ، وأنه لم يكن يفصل بين الإقليمين مفازة أرض لا يمكن السير فيها . وقد طرأ على إقليم (لوبيا) فيما بعد شيء من الفساد والخراب حتى أتى القرن السادس فأصبح

---

(١) كان من مدينة (بريطونيوم) أول سير الإسكندر الأكبر ضارباً في الصحراء في رحلته المعروفة إلى معبد (آمون) .

(جستنيان) يعوض الحاكم عن فقر إقليمه بضم إقليم (مريوط) إلى حكمه . على أن الطريق بين بنطابوليس والإسكندرية بقي مع ذلك محفوظاً، ومراحله محددة وليس به من قطوع تذكر ولا من عائق يعوق السير به . بل وما زال الطريق متصلاً قائماً إلى اليوم الذي نصفه في هذا الكتاب ، وهذا أمر ثابت قام عليه الدليل القاطع . ذلك لأنا نعلم أن الجيش الفارسي سار في أوائل القرن السابع بعد فتح مصر ليفتح بنطابوليس وكان سيره في البر ، ثم عاد بعد أن فاز فوزاً مبيناً في غزوته تلك . ويقول (جبون) إن تلك الغزوة قضت قضاء تاماً على المحلات اليونانية في مدينة (قيرين) . فلنذكر أن ذلك لم يكن إلا بعد سنوات تسع من غزوة (نيقتاس) . ولكن (جبون) قد أخطأ الصواب كل الخطأ إذ زعم أن جيوش (كسرى) جرت على ذلك الإقليم ذيل الخراب والعفاء . فالحق أن تلك الجيوش أحدثت بالإقليم ضرراً عظيماً ولكنه لم يكن تخريباً قضى عليه ولا تدميراً لا قيام بعده . بل إن الأمر كان على خلاف ذلك ، فإن عمرو بن العاص العربي عندما فتح الإسكندرية بعد نحو ثلاثين سنة من ذلك الحادث إتجه نظره بالطبع إلى إقليم بنطابوليس وسار نحوه فاتحاً (برقة) و (قيرين) . وليس في وصف تلك الفتوح ما يدل على أن ذلك المسير كان عملاً حربياً خطيراً ولا أن العرب تغلبوا فيه على صعاب طبيعية .

إنه ليس شيء أبعد عن الحق من أن يقول قائل إن الطريق إلى غرب مصر كان يشق فيافي قاحلة . فلدينا من الأدلة ما يذكر صريحاً أن كل أرض الساحل الواقعة إلى غرب مصر بقيت آهلة يزكو بها الزرع حتى مضت قرون ثلاثة بعد الفتح العربي. ويذكر المؤرخ العربي (المقريزي) أن مدينة (لوبية) قاعدة لإقليم يقع بين الإسكندرية و (مراقية) ، وذكره لهذين الاسمين على هذه الصورة يدل على أن الاسمين القديمين « لوبيا » و « مرمريقا » قد بقيا في اللغة العربية لم يكد يعتريهما تغيير . وقال المقريزي في موضع آخر إن إقليم بنطابوليس يبدأ بعد مدينتي « لوبية » و « مراقية » . وجاء في كتابي « القضاعي » و « المسعودي » ما يتفق مع هذا الدليل . وكان في إقليم (لوبية) أربع وعشرون مدينة ما عدا القرى

الصغيرة . وقال المقريزي في وصف (مراقية) ـ نقلاً عن ترجمة (كاترمير)[١] :

« مدينة مراقية كورة من كور مصر وهي آخر أراضي مصر ، وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس (بنطابوليس) وهي برقة ، وبعدها عن مدينة سنترية نحو من بريدين (وقدر ذلك أربعة وعشرون ميلاً) ، وكانت قطراً كبيراً به نخل كثير ومزارع وبه عيون جارية ، وبها إلى اليوم بقية وثمرها جيد إلى الغاية وزرعها إذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح مائة سنبلة وأقل ما تنبت تسعون سنبلة ، وكذلك الأرز بها جيد زاك ، وبها إلى اليوم بساتين متعددة . وكانت مراقية في القديم من الزمان يسكنها البربر الذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين فنزلها منهم خلائق ومنها تفرقت البربر فنزلْت زناتة ومغلية وصريسة الجبال ، ونزلت لواتة أرض برقة . . . إلخ . فلما كان في شوال سنة أربعة وثلثمائة من سني الهجرة المحمدية (٩١٦ ميلادية) جلا أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من صاحب برقة ولم تزل في اختلال إلى أن تلاشت في زمننا وبها بعد ذلك بقية جيدة »[٢] .

والكلمات الأخيرة كما هو ظاهر تقصد المدينة وليس الإقليم وهي ذات دلالة كبرى لأنها تصف ما بقي من آثار المدينة حتى سنة ١٤٠٠ للميلاد . وإنا لذاكرون هنا أمراً على سبيل الاستطراف وذلك أن خرائط الملاحة لأهل البندقية كانت فيها حوالي سنة ١٥٠٠ سلسلة غير منقطعة من الأسماء على هذا الجزء من ساحل البحر الأبيض المتوسط . ولكن المقريزي يحدثنا حديثاً آخر عن مريوط فيقول إنها كانت قديماً تزدحم بها البيوت والحدائق وكانت أرض الإقليم كله حدائق منثورة إلى حدود برقة غرباً . وكانت مريوط في أيامه مدينة تابعة لإقليم

---

(١) آثرنا أن ننقل الأصل من المقريزي ولو أن به شيئاً من الزيادة عن الأصل الإنجليزي المترجم عن ترجمة « كاترمير » ، فإن المقصود هو الإستشهاد بالمعنى الذي في الأصل العربي . والنص في صفحة ٢٩٥ ـ ٢٩٦ الجزء الأول طبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ . (المعرب) .

(٢) انظر « Mem. Geog. et Hist » الباب الأول صفحة (٣٧٤ ـ ٥) .

الإسكندرية وإليها كانت ترسل ما تثمره حدائقها من الفاكهة الكثيرة . ويقول (شميوليون) إنها كانت عاصمة لمصر السفلى في أيام الإمبراطورية المصرية القديمة ثم اضمحل أمرها شيئاً فشيئاً . وكانت في أيام (فرجيل) و (سترابو) كما يشهدان بذلك معروفة بجودة خمرها على الأقل . وتقع أطلالها اليوم على أثني عشر ميلاً إلى غرب الإسكندرية ، ولكنها لا تكاد تكون معروفة لأحد . على أن الأرض التي تحت الرمال من الغرين ، وهذا يعززها ما كان يعرف عنها قديماً من الخصب .

فمن الجلي إذن أنه قد كانت قبل فتح العرب لمصر سلسلة متصلة من المدائن وأرض فسيحة من مزارع أولها عند الإسكندرية إلى أن تبلغ (قيرين) . ولذلك فإن مسير (نيقتاس) بجيشه هناك لم يكن به من الشدة ما يستوجب مهارة كبرى في القيادة ولا جلداً عظيماً على تحمل المشاق . وأغلب الظن أن ما يوصف به الطريق في الوقت الحاضر من الوعورة فيه كثير من المبالغة ، فإن الحجاج المسلمين يسلكون ذلك الطريق من مراكش وتونس وطرابلس سائرين على أقدامهم بقرب الساحل . وتكثر آثار الإغريق والرومان في تلك البلاد ولكن أهلها اليوم من أشد الناس تعصباً . فالبدوي المتنقل هناك يمنع تلك الأرض أن تطأها قدم الباحث المتنقل . ولهذا بقيت يجهلها التاريخ وعلم الآثار القديمة أكثر مما يجهل البقاع القاصية في قلب الصحراء ، مع أن سواحلها يحف بها البحر الأبيض المتوسط وتكاد تكون على مدى البصر من بلاد إيطاليا واليونان . وهذا بالطبع راجع إلى سببين معاً : إلى حكم الترك وإلى شدة البدوي في عقيدته ، وهما سببان إجتمعا فكانا كافيين لأن يجعلا التنقل هناك متعذراً يكاد يكون مستحيلاً[1] . فلو أتيح لتلك البلاد أن تكون يوماً تحت حكم دولة متمدِنّة لأصبحت ميداناً فسيحاً للبحث والتنقيب . وقد يكون من الممكن أن تسترجع

---

(١) لم نحاول أن نقلل من شدة لهجة المؤلف هنا حرصاً على أمانة النقل وأنه يسرنا أن لهجته في كل كتابته لا تخرج عن الإعتدال العلمي إلا في مواضع معدودة لا تكاد تذكر . (المعرب) .

شيئاً من خصبها القديم ورخائها الماضي إذا ما أقيمت بها الأعمال الهندسية الملائمة لها .

وبعد فإنا قد خرجنا عما كنا بصدده من القول وطال بنا الحديث في سواه ، لأن ذلك يساعدنا على أن ندرك حقيقة سير (نيقتاس) بجيشه في تلك الأراضي ، ومنه نستطيع أن نعرف أنه لم يلق في طريقه إلا قليلاً من المشاق . على أنه لا شك قضى في سيره زمناً طويلاً ، وكانت المؤامرات أثناء هذا يتلو بعضها بعضاً بين أحزاب يكيد بعضها لبعض في عاصمة القطر المصري . فقد إشترك رجلان في مؤامرة ليقتلا (فوكاس) ويجعلا التاج بعده لهرقل ، وكان أحد هذين الرجلين (تيودور) بن (ميناس) الذي كان حاكم الإسكندرية تحت حكم الإمبراطور (موريق) وكان الثاني (تنكرا) - ويظن زوتنبرج خطأ أنه قد يكون (كريسبوس) . وكان بطريق الإسكندرية الملكاني الذي أقامه (فوكاس) لا علم له بهذه المؤامرة . ولكن (جنا) حاكم الإقليم وقائد الحامية ورجلاً آخر اسمه (تيودور) كان مراقب الأموال العامة نقلاً إلى البطريق نبأها . ثم اشتركوا ثلاثتهم في إرسال خطاب ينذرون به (فوكاس) بالخطر .

وكان الإمبراطور يعرف حق العلم ما كان عليه المصريون من تقلب الأحوال وقلة الثبات[1] ولهذا كان يريد أن يستميلهم ، فأرسل إليهم منذ حين عدداً كبيراً من الأسود والفهود لتعرض على الناس ، ثم أرسل مع ذلك عدداً من القيود وآلات التعذيب تصحبها خلع سنية وأموال لكي توزع على أصحابه وأعدائه لكل ما يستحقه . فلما جاءه كتاب البطريق تظاهر بأنه لا يعبأ بما كان يتهدده من خطر ، ولكنه لم يتردد في عزمه ، ولم يهن في عمله ، فقد كان عالماً بالحاجة الشديدة لأن تبقى مصر في يده مهما تكلف في سبيل ذلك. فدعا حاكم (بيزنطة) واستوثق منه بيمين محرجة على أن يبقى على ولائه ، ثم أرسله مع إمداد عظيم إلى الإسكندرية وإلى المسالح الكبرى مثل (منوف) و (أثريب) في

(١) يقصد الكاتب طبعا مصريي تلك الأيام التي كانت فيها أخلاق المصريين على ما يصف .

مصر السفلى . وأرسل في الوقت عينه أوامر مستعجلة إلى (بنوسوس) في سورية يدعوه أن يسير بكل ما يستطيع حشده من الجنود إلى مصر ، وكان (بنوسوس) عند ذلك في (أنطاكية) وقد أرسل إليها ولقب « أمير الشرق » لكي يقضي على ثورة لليهود إذ وَثبوا على المسيحيين ، وكانت ثورتهم أقرب إلى أن تكون دينية من أن تكون سياسية ، وإن كنا لا نستطيع في أكثر الأحوال أن نميز بين خيوط الدين وخيوط السياسة في نسيج حوادث ذلك العصر . وقد قام (بنوسوس) بعمله ذلك قياماً لك أن تصفه بما شئت ، فإما قلت خير قيام وإما قلت شره . فقد أنفذ عمله بأن قتل الناس جملة بين من شنق أو أغرق أو أحرق وبين من عذب أو رمى للوحوش الكاسرة ، واستحق بذلك أن يقترن اسمه باللعن والخوف . وفي الحق أنه كان رجلاً ممن يثلج قلب (فوكاس) ويقرّ عينه ، كان « ضبعاً مفترساً » يعرّس في القتل . فلما أن جاءته رسالة (فوكاس) تلقاها بقلب ملؤه السرور .

كان (نيقتاس) في هذه الأثناء يقترب من الإسكندرية من الجانب الغربي ، وسلمت له مدينة (كبسين) ـ وربما كانت هي حصن « كرسونيسوس » ، فأعتق حاميتها وأخرج من كان في السجون من الحزب الثائر ثم استمر بهم في سيره . وأرسل دعاة يسبقونه داعين إلى الثورة فيما حول (ترعة الثعبان) ـ وسميت بذلك لتعرج سيرها ـ وكانت على مسافة قريبة من المدينة . ولكنه رأى أن الجيوش الإمبراطورية راصدة له تسد عليه الطريق ، وكانت منيعة في العدد والعدة ، فدعا (نيقتاس) قائدها أن يسلم قائلاً : « تنح عن طريقنا ثم اصبر على حيادك حتى تضع الحرب أوزارها . فإن كانت الدائرة علينا لم يضرك ذلك ، وإذا كانت الدبرة لنا فإنا جاعلوك حاكم مصر . ولكن على كل حال قد إنتهى حكم فوكاس » . فأجابه القائد جواباً قصيراً إذ قال : « سنقاتلكم حتى نقتل في سبيل فوكاس » ، ثم ابتدأت الواقعة . وأكبر الظن أن ذلك القائد هو حاكم بيزنطة الذي أقسم أن يحمي الإمبراطور ، وكان أصدق في حربه من سائر جنوده وأثبت جناناً . ولكن (نيقتاس) انتصر نصراً مبيناً وقتل القائد الإمبراطوري وجعل رأسه على سنان رمح ورفع مع الأعلام المنتصرة ودخل الجيش الظافر من (باب القمر) إلى المدينة فلم يلق فيها بعد ذلك كيداً . وهرب (حنا) حاكم البلد

و (تيودور) مراقب الأموال العامة فاحتميا بكنيسة (القديس تيودور) في الجانب الشرقي من المدينة ، في حين هرب البطريق الملكاني إلى كنيسة (القديس اثناسيوس) وكانت على مقربة من شاطىء البحر . ولا يذكر لنا (حنا) أسقف (نقيوس) شيئاً عما آل إليه أمر البطريق ، ولكننا نعرف من غيره من الرواة أنه هلك .

اجتمع القسوس والعامة عند ذلك وأجمعوا رأيهم على مقت (بونوسوس) ومن كان معه من الوحوش المفترسة ، ورحبوا جميعاً بقائد (هرقل) . ثم رفعوا رأس القائد المقتول على باب المدينة ووضعوا أيديهم على قصر الحاكم وأبنية الحكومة ، كما استولوا على خزائن القمح والأموال العامة . ثم أخذوا كنوز (فوكاس) وملكوا جزيرة (فاروس) وحصنها وكل ما هنالك من السفن . ولم يكن العمل الأخير بأقل أعمالهم خطراً ، فإن جزيرة (فاروس) كما قال (قيصر) من قبل ذلك بزمن طويل حين رآها وعرف خطرها ، كانت مفتاحاً من مفتاحي مصر ، وكانت (ألفرما) هي المفتاح الآخر . ولما ملك (نيقتاس) عاصمة القطر أرسل (بونا كيس) لينشر علم الثورة في مصر السفلى . وقد كان عمله هيناً فإن المصريين في كل مكان كانوا يكرهون حكم (بيزنطة) ، فدخلت المدائن واحدة بعد أخرى تحت لواء جيش الخلاص ، وفتحت (نقيوس) أبوابها وفيها مطرانها (تيودور) ، وقام حزب الثورة في (منوف) فنهب دار الحاكم (أرستوما كوس) ودور من كان هناك من كبار الرومانيين ، وأصبح جل المدائن وجل حكام الأقاليم مع أعداء (فوكاس) ، وعاد (بونا كيس) إلى العاصمة بعد حملة موفقة منصورة . على أن الأمر كان على غير ذلك في (سنبتس) أو سمنود إذ ثبت (بول) عمدة المدينة إلى جنب لوائه ، وكان صديقه (كسماس) مريضاً أقعده الشلل ، ولكنه كان يتقد شجاعة وأنفة ، فكان يحمل في المدينة ليبث حماسته في قلوب الحامية . وكذلك كان الحال في (أثريب)[1] إذ رفض الحاكم

---

(١) لا تزال سمنود مدينة معروفة على الفرع الشرقي للنيل في نحو نصف المسافة بين دمياط ومفترق الفرعين . وكانت أثريب على الفرع نفسه وظلت مدينة عظيمة إلى القرن الرابع =

. . . .

= وموضعها اليوم على مقربة من المكان الذي يعبر فيه الطريق الحديدي نهر النيل عند « بنها العسل » . وكانت تخرج من أثريب ترعة تذهب إلى منوف ومنها تسير إلى الشمال الغربي إلى (نقيوس) . وكانت على الفرع الغربي (البلبيتي) . وقد أخطأ (دنفيل) في تعيين موضعي (منوف) و (نقيوس) ، ولكن (كاترمير) كتب بحثاً شائقاً عميقاً برهن فيه برهاناً ساطعاً على أن (نقيوس) هي قرية (بشاتي) فقد كان لها اسمان أحدهما قبطي والآخر يوناني . ودلل على أنها كانت على النيل ، وقد برهن ديوان (حنا النقيوسي) على صِدق ما ذهب إليه (كارترمير) وهو كتاب لم يره ، كما برهنت على صدق قوله نسخة خطية من كتاب (ساويرس الأشموييني) فإنه نص على أن الاسمين يطلقان على بلد واحد وذلك في كتابه عن حياة البطريق (أندرونيكوس) . ونضيف إلى ذلك أن الاسمين (مقيوس) و (أبشادي) موجودان في اللغة العربية .

والنهر أو الترعة التي تمر بمنوف اسمها اليوم (بحر الفرعونية) وهو اسم يدل على قدم الترعة . وعند ملتقى هذه بفرع النيل الغربي توجد جزيرة اسمها (تبشير) أو هو موضع اسمه (تبشير) وأمامه جزيرة . وعلى نحو ستة أميال في شمال (تبشير) توجد قرية لا تزال يطلق عليها الاسم القبطي (الشادي) أو (أبشادي) ويظهر أن الاسم القديم لم يبق علماً على موضعه القديم ، بل إنه نقل إلى موضع آخر فإن القرية الحالية التي اسمها (أبشادي) ليس فيها شيء يدل على قدمها وقد حدث مثل ذلك في كثير من الحالات . وقد كان الاسم القديم يطلق في الأصل على كل الأقليم وهو (جزيرة نقيوس) ثم بقي علماً على قرية صغيرة لا أهمية لها . وقد بينت (المسز بوتشر) في كتابها (قصة الكنيسة المصرية) أن موضع نقيوس هو (زاوية رزين) في الوقت الحالي . فإن هناك أطلالاً من البقايا وأرضاً فدافد بها قطع عظيمة من أعمدة من الجرانيت وغير ذلك مما يدل على قرية مصرية منقرضة . ولكن (زاوية رزين) واقعة في موقع لا يتفق وصفه الجغرافي مع الحقيقة فإنها في الجنوب الشرقي من منوف على مقربة من (الطرانة) وهي بعيدة عن الترعة القديمة التي كانت تصل منوف بالنيل . وأما الموضع الذي يسميه (كاترمير) (تبشير) فاسمه اليوم على الخريطة (سبسير) أو (شبشير) ولعلنا نجد في الاسم الأخير صدى من التسمية القديمة القبطية (بشاتي) ، وإنه لمما يؤسف له أن (شبشير) و (زاوية رزين) قد أهملهما علماء الآثار إهمالاً تاماً شأنهم في كثير من مواضع المدائن القديمة بمصر السفلى . ولست أتردد في أن أنتصر لكاترمير فيما ذهب إليه من قوله في (شبشير) وأضيف هنا أنني استعملت اسم (نيكيو) متبعاً في ذلك التسمية القبطية لا التسمية اليونانية (نيكيون) ولا التسمية العربية (نقيوس) فقد كانت (نيكيو) محلة =

(مرقيان) أن يدخل في زمرة الثائرين ، وكان صديقاً آخر من أصدقاء (بول) . فكأن الحرب كانت لا تزال جذعة .

وكان (بونوسوس) قد بلغ في سيره مدينة قيصرية عندما أتاه نبأ سقوط الإسكندرية ، فحفزه ذلك النبأ إلى أن يكون عمله أشد قسوة ، ثم وضع جنوده في السفن من ذلك الثغر واتجه نحو الجنوب مسرعاً ؛ وهناك إما أن يكون قد أنزل فرسانه على حدود مصر وإما أن تكون فصيلة من الفرسان لقيته آتية من فلسطين . وكانت خطته أن يذهب إلى (أثريب) ليمنع سقوطها في يد عدوه . فقسم أسطوله إلى قسمين لكي يصل إلى تحقيق غرضه ، فأما أحدهما فإنه سار في الفرع الأكبر الشرقي للنيل ، وأما الثاني فقد سار في الفرع (البلوزي) ، وجاءت الفرسان معقبة في أثره من البر . وكان في أثريب عدا الحاكم (مرقيان) سيدة ذات بأس اسمها (كرستدورا) وكانت تنصر جانب الإمبراطور يدفعها دافع إنتقام شخصي . وجاء إليها (بول) و (كسماس) من منوف ليشتركوا جميعاً في الرأي ويدبروا أمر الحرب . وقد أرسل مطران (نقيوس) ومراقب الأموال (ميناس) يطلبان إلى (مرقيان) و (كرستدورا) أن يرميا تماثيل (فوكاس) ويذعنا لأمر هرقل وكان ذلك عندما سمعا بقدوم (بنوسوس) وبلوغه البرزخ الشرقي مع جنوده . ثم جاءت الأنباء بعد ذلك أنه أخذ مدينة (ألفرما) . وكان من قواد هرقل في جيش عند (أثريب) اثنان وهما (بلاتو) و (تيودور) ، والحق أنه يخيل إلينا ألاّ نهاية لعدد الأشخاص الذين اسمهم (تيودور) ، فكانا يرقبان زحف (بنوسوس) فزعين خائفين وأرسلا إلى (بوناكس) على عجل رسالة يطلبان فيها المعونة . فما أبطأ (بوناكس) في أن يسير على الفرع الغربي للنيل (الفرع البولبيتي) حتى بلغ (نقيوس) وهناك علم أن (بونوسوس) وصل إلى (أثريب) . وترك (بنوسوس) تلك المدينة وراءه وسار على الترعة التي تخرج من النهر ذاهبة إلى الغرب نحو

= رومانية وهي مذكورة في « ثبت البلاد الأنطونيني » .

ملاحظة للمعرب ـ ولكنا آثرنا استعمال الاسم العربي وحده دائماً وهو (نقيوس) ولعل هذا أمر طبيعي لكتاب ينقل إلى اللغة العربية .

منوف . وسار معه (مرقيان) و (كسماس) والمرأة التي لا يفل حدها ولا تكل همتها (كرستدورا) .

سار (بول) عندئذ بمن معه ليلحق بجيش (بونوسوس) . وما كاد الجيشان الإمبراطوريان يجتمعان حتى جاء (بوناكس) وحل تجاههم . واستحر بعد ذلك القتال واستعر وكان فيه القضاء ، فإن جيوش الثوار لم يبق منها فل ، بل هزمت هزيمة تامة فقذف بجزء منها في الترعة وقتل منها من قتل وأسر من أسر ووضعوا في القيود ، وأخذ (بوناكس) نفسه أسيراً ثم قتل صبراً . ولقي قائد آخر اسمه (ليونتيوس) عين ما لقيه (بوناكس) ، وأما (بلاتو) و (تيودور) فقد استطاعا الهرب واعتصما بدير قريب من المكان . ولم يكن في (نقيوس) قوة على مقاومة جيش (بونوسوس) المنتصر مع أنها كانت ذات حصون ، وعلى ذلك خرج المطران (تيودور) ومراقب الأموال (ميناس) ومعهما الإنجيل والصلبان في موكب وقور سائرين إلى القائد المنتصر نازلين على حكمه راجين عفوه . وكان خيراً لهما أن يلقيا بأنفسهما من أعلى أسوار مدينتهما ، فقد أودع (ميناس) السجن وغرم ٣٠٠٠ قطعة من الذهب ثم أذيق العذاب بأن جلد جلداً طويلاً ، ثم أطلق سراحه فلم يبق إلا قليلاً ومات من الجهد . وأما (تيودور) فقد أخذه (بنوسوس) معه إلى (نقيوس) وقد دخلها عندئذ بجيشه ، فرأى عند باب المدينة تماثيل فوكاس وهي محطمة على الأرض ، وقد شهد (مرقيان) و (كرستدورا) أن ذلك إنما من فعل المطران (تيودور) فأمر بأن يضرب عنق ذلك المسكين . وأعقب ذلك قتل القائدين (بلاتو) و (تيودور) وثلاثة من أعيان منوف وهم (إيسيدور) و (حنا) و (جوليان) وكانوا جميعاً قد هربوا فالتجأوا إلى دير فأسلمهم رهبانه خاضعين . وأما عامة الأسرى فقد نفى (بونوسوس) منهم من كانوا في خدمة الإمبراطور (موريق) وقتل سائرهم ممن كانوا قد دخلوا الجيش وحملوا السلاح تحت لواء (فوكاس) .

ارتدت موجة النصر عند ذلك ، وأوشكت أن تذهب إلى جانب الإمبراطور الحاكم ، وصار (بونوسوس) بمثابة سيد مصر السفلى . وأسرعت جيوش الثوار

من كـل صوب نحـو الإسكندريـة تسلك الترع الكثيـرة التي تخترق أرض تلك الجهات ، لأنهم كانوا يخشون الحرب ولا يأمنون أن يسلموا . وكان من أسهل الأمور على (بونوسوس) أن يسير من (نقيوس) في الفـرع الغربي من النيـل ثم يهبط في الترعة المؤدية إلى الإسكندرية .

كان (نيقتاس) في الإسكندرية على إستعداد كامل للقاء عدوه ، وقد حشد في المدينة جيشاً كبيراً بعضه من جند منظمة وبعضه من أحابيش فيهم البحري والمدني ، يعززهم الحزب الأخضر[1] في المدينة . وكانت دور الصناعة دائبة على عمل السلاح والحديد ، ووضعت الجنود على الأسوار ومعهم آلات الدفاع القـوية . ويلوح أن (بنـوسوس) أرسـل (بول) لكي يـأتي المدينـة من الجنوب بأسطول من السفن ، ولعل ذلك كان عند الموضع الذي تدخل فيه التـرعة إلى المـدينة من بـابين عظيمين من الحجـر بنـاهمـا (طـاطيـان) وحصنهـا في أيـام الإمبراطور (فالنس) . فلما جاء أسطول (بول) حتى صار على مـدى الرمي من آلات الدفاع بالمدينـة قذفت عليـه الحجارة الضخمـة قذفـاً مريعـاً فوقعت بين السفن تحطم منها ، فلم يستطع (بول) أن يقترب من الأسوار وأمر سفنه بالرجوع خوف أن تغرق أو تتحطم . فانظر ما بلغته مجانيق الإسكندرية من القوة في ذلك الوقت .

---

(١) كان مما يدعو إلى التفرقة في مدن الدولة الرومانية في آخر عهدها وجود حزبين أحدهما الأزرق والآخر الأخضر . وكـان كل منهمـا يكيد لـلآخر حيث استـطاع حتى في ميادين السبـاق . وقد وصف المؤرخـون ذلـك بتـوسع فليـرجـع إليهم ولنـذكـر منهم المؤرخ الإنجليزي (جبون) . (المعرب) .

الفصل الثالث

خيبة بنوسوس

طريق سير (بونوسوس) ـ يهاجم الإسكندرية ـ صده وهزيمته ـ ما فعله (بول) ـ محاولة قتل (نيقتاس) ـ إستعادة (نقيوس) ـ (بونوسوس) يطرد من مصر وتفتح البلاد باسم هرقل ـ حالة الأحزاب الدينية في مصر .

يظهر أن (بونوسوس) وإن كان قد جعل سيره بحذاء ترعة كليو باترة وهي أكبر الترع التي تخرج من الفرع البلبيتي ذاهبة نحو الإسكندرية ، قد اتخذ سبيل البر على الأقل في المرحلة الأخيرة من مسيره . وقد نزل أول منزل له في (ميفاموميس) ثم نزل في (دمكاروني) بحسب رواية الأسقف المصري . ولسنا نجد وصفاً لهذين الموضعين في كتاب (زوتنبرج) حتى إنهما ليحيران من يسمع بهما أوّل الأمر . غير أنه ورد في سياق ذلك الكتاب أن (ميفاموميس) هي (شبرا) في وقتنا هذا . وهذه لا بد أن تكون (شبرا) القريبة من دمنهور . ويذكر (شمبليون) مدينة اسمها (موممفيس)[1] ويقول إنها على سبع فراسخ من دمنهور إلى جهة الغرب ، ويسمى المدينة الأخيرة (تيمنهور) بحسب ما كانت معروفة به عند المصريين القدماء . وعلى ذلك فلسنا نتردّد في أن نقول إن (ميفاموميس) هي بعينها (موممفيس) وإن موضعها بقرب دمنهور . ولكن (شمبوليون) لا يمكن أن يكون على حق في قوله إنها هي عينها (بانوف خت) التي سماها العرب (منوف السفلى) والتي يقول ذلك العالم الفرنسي إنها على مسافة واحد وعشرين ميلاً من (دمنهور) وهي مسافة يستحيل تصوّرها .

(١) ويذكر سترابو أيضاً إقليم موممفيس .

أما (دمكاروني) فلا يستطيع الإنسان أن يذكر اسماً شبيهاً في كتاب آخر ، ولكنا إذا علمنا أن (دم) أو (تم) كان حرفاً يوضع في أول أسماء البلاد في اللغة المصرية القديمة ومعناه (مدينة) ـ إذا ذكرنا ذلك لم يكن ثم موضع للشك في نظرنا أن (دمكاروني) هي الاسم القبطي لمدينة (كيريوم) أو (كريون)[1] . وهذا التفسير يتفق كل الإتفاق مع وصف ذلك الإقليم فإنّ (كريون) كانت واقعة إلى الغرب على الترعة التي كان (بنوسوس) يسير عليها ، وذلك يتفق مع ما ورد في الكتاب . وهي فوق ذلك في نحو منتصف المسافة بين الإسكندرية ودمنهور ، إذ هي على نحو ثمانية وثلاثين كيلو متراً من الإسكندرية ، وعلى نحو واحد وثلاثين كيلو متراً من دمنهور .

سار (بنوسوس) من (كريون) ولم يلق كيداً إلى أن بلغ الجانب الشرقي من العاصمة وهناك وقف بجيشه على مرأى من أسوار المدينة ، وعقد النية على أن يهاجمها في غده وهو يوم الأحد . وإنه لمما نتوق إليه لو استطعناه أن نعرف الوسائل التي كان يطمع أن يصدع بها الأسوار العالية والحصون المنيعة التي كانت تحرس تلك المدينة الكبرى[2] .

غير أن أهل الإسكندرية لم يكونوا في حال يستطيعون معها صبراً على الحصار . فيقال إن قديساً من أهل صعيد مصر اسمه (تيوفيلوس) (الواثق بالله) أو (صاحب الإعتراف) كان يعيش على رأس عمود . ويلوح أنه تلقى فوق ذلك العمود الحكمة والكياسة . فنصح (نيقتاس) أن يخرج ويناجز أعداءه القتال . فخرج بجنوده ووقف بهم داخل (باب أون) وكان الطريق الأكبر الذي يشق المدينة طولاً طريقاً واسعاً فسيحاً ، فكان فيه ما يتسع لحشد الجيش . أما اسم « باب أون » فلا يفسره « زوتنبرج » ولا يجد الناظر إليه لأوّل مرة أي شبه بينه

---

(١) من الغريب أن هذا التفسير لم يرد في (أميلينو) فإنه عند كلامه على هذه الفقرة في كتابه (Geog. Copte) يزعم أن ذلك المكان قرية خارج الإسكندرية ـ وكأنها من أرباضها .

(٢) يجدر بنا أن نذكر هنا أن الإسكندرية كان يطلق عليها في كل ما كتب في ذلك العصر اسم (المدينة الكبرى) وكانت القسطنطينية يطلق عليها تمييزاً لها اسم (المدينة الملكية) .

وبين علم معروف من أعلام الإسكندرية . ولكنا نجد في موضع آخر من الكتاب أن اسم « أون » مرادف « لعين شمس » واسم « عين شمس » هو الاسم العربي للمدينة المشهورة (بهليوبوليس) . وكان الاسم المصري القديم لهليوبوليس هو « أون » . (فباب أون) على ذلك هو الباب المتجه نحو مدينة (هليوبوليس) ويمكن فوق ذلك أن يقال إنه هو بعينه الباب المعروف « بباب الشمس » ، وهو في نهاية الطرف الشرقي لذلك الطريق الواسع الذي كان يشق الإسكندرية من الشرق إلى الغرب ، كما أن (باب القمر) كان عند نهاية الطرف الغربي منه . وكان يقطع ذلك الطريق عند مفترق واسع طريق آخر يتجه بين الشمال والجنوب . ولنا أن نقول هنا إن كثرة ورود الأسماء المصرية كما هو ظاهر من استعمال اسم (أون) هنا وفي أسماء وردت في مواضع أخرى يدل دلالة على أن (حنا النقيوسي) كتب هذا الجزء من ديوانه الأصلي باللغة القبطية .

والآن فلنعد إلى ما كنا فيه . فإن الجيوش الإمبراطورية أتاها الأمر عند ذلك أن تزحف على المدينة يقودها قائد فارس . فتقدموا ولكنهم قبل أن يقتربوا من المدينة أرسلت عليهم النيران المحرقة من مجانيق عظيمة كانت تزمجر فوق الأسوار والآطام ، وأصابت إحدى تلك المقذوفات القائد فكسرت فكه وأردته عن فرسه صريعاً لم تمهله . وأصابت أخرى قائداً ثانياً فقتلته . فتردّد الزاحفون وقد أوقعت هذه المجانيق فيهم الرعب والإضطراب . وعند ذلك أمر (نيقتاس) جيشه بالخروج من المدينة ، ففتح (باب الشمس) وخرج الجيش منه فوقف صفاً وحمل على العدوّ حملة صادقة ثلم بها صفوفه ، واستمر القتال ثم انجلى عن شطر جيش (بونوسوس) شطرين ووقعت على أثر ذلك الهزيمة . ولما رأى (نيقتاس) أن أكثر المنهزمين يسرعون نحو الشمال سار بجماعة من رديفه وهم من جنود السودان ، وخرج من باب آخر قريب من كنيسة (مار مرقص) في الجهة الشمالية من المدينة تجاه البحر وعند نهاية السور من الشمال الشرقي . فما لبث أن سبق المنهزمين الفارين وأخذ عليهم السبيل فردهم من حيث جاءوا فكانوا في رجوعهم بين مستهدف تحت الأسوار تحصده القذائف من حجارة وسهام ، وبين جانح نحو البساتين يلجأ إلى حوائطها ذات الأشواك فيحصر هناك ويقتل . وأما

من هربوا من جيش (بونوسوس) نحو اليسار أي إلى الجنوب فقد وجدوا أنفسهم حيال ترعة تقطع عليهم سبيلهم . وكانت سيوف العدوّ تلمع من ورائهم وهم يتبعونهم ، فأخذ الخوف بقلوبهم وأذهل ألبابهم فصاروا يخبط بعضهم بعضاً خبطاً بالسلاح وقد أعمى الهول أبصارهم .

وهكذا تمزق جيش (بونوسوس) كل ممزق . وكان بين القتلى (مرقيان) حاكم (أثريب) و (ليونتيوس) و (فالنس) وكثير من الأعيان . وكان للواقعة من الأثر ما جعل الحزب الأزرق نفسه يتخلى عن (فوكاس) . ولكن (بونوسوس) نجا بنفسه وارتد إلى قلعة (كريون) وكريون مدينة سيأتي ذكرها بعد ثلاثين عاماً عند مسير العرب بقيادة عمرو إلى الإسكندرية ، وكانت واقعة على كلتا ضفتي الترعة الآتية من النيل إلى العاصمة ، ويصفها (ابن حوقل) بأنها كانت في أيامه مدينة جميلة تحيط بها الحدائق ، وهي لا تزال باقية إلى اليوم ولكنها قرية صغيرة . ولسنا ندري أي عمل قام به (بول) وأسطوله في أثناء هذا القتال . فلعله كان يناجز جانباً من جيش العدو في الجنوب الغربي من المدينة ، إذ لم يكن قريباً هو وأسطوله من محل القتال ، ولم يساعد في حرب البر ولم تكن له يد في حماية الفارين .

فلما سمع (بول) بعد ذلك بتلك الهزيمة القاضية سولت له نفسه أن يسلم ويلتحق بأصحاب (نيقتاس) . ولكنه مع ذلك ثبت في جانب حزبه واستطاع أن يتقهقر بوسيلة من الوسائل إلى مدينة (كريون) حيث لحق بالقائد (بونوسوس) . ولا بد لنا أن نقر بالإعجاب على كره منا بما كان لهذا القائد (بونوسوس) من قوة الجنان وسعة الحيلة . فإنه لم يدر في خلده ساعة أن يخرج هارباً من النضال ، بل سار مسرعاً في الترعة إلى أن بلغ فرع النيل الغربي ، ثم سار في النهر صعداً إلى (نقيوس) وكان جنوده لا يزالون يحمونها . فجمع هناك أسطوله وأصلح من شأنه واستطاع أن يسيطر على النهر بعد أن مر عدداً كبيراً من سفن الإسكندرية . وإذ كان غير قادر على لقاء (نيقتاس) مرّة أخرى، اتخذ سبيله في ترعة أخرى (ولعلها ترعة الروجاشات) سائراً نحو مريوط . ثم سلك ترعة الثعبان التي في غرب الإسكندرية قاصداً إلى مريوط يريد أن يستولي عليها ويجعلها قاعدة له

يجهز منها السرايا إلى الإسكندرية . ولكن (نيقتاس) بلغه خبر هذه النية فأمر أن تهدم القنطرة التي عند (دفاشير) بقرب مريوط وبذلك سد مجرى الترعة وحال دون إتمام ما أراد عدوه .

فثارت ثورة (بونوسوس) عندما علم بهذه الضربة وعزم على أن يدع الحرب الصريحة وأن يقتل (نيقتاس) غيلة . فأوعز إلى أحد جنوده أن يذهب إليه كأنه رسول جاء ليفاوضه في أمر التسليم وشروطه ، وقال له : « خذ معك خنجراً صغيراً واجعله تحت ردائك فإذا ما اقتربت من (نيقتاس) فضعه فيه واخرق به قلبه حتى تتركه قتيلاً . ولعلك تقدر أن تنجو في أثناء الإضطراب الذي يعقب ذلك، فإذا أنت لم تستطع النجاة فقد مُتَّ شهيداً في سبيل حماية الإمبراطورية، وسأجعل ولدك جميعاً في قصر الملك أتعهدهم بنفسي وأجري عليهم الأرزاق مدى حياتهم » . وذلك كان تدبير (بونوسوس) ولكنه فشا إذ أذاعه خائن . فإن رجلاً ممن كان معه اسمه (حنا) أرسل كتاباً ينذر فيه (نيقتاس) ويحذره حتى إذا ما جاء الفاتك إليه أحاط به الحراس وفتشوه فوجدوا معه الخنجر مخبوءاً فضربوا به عنقه .

فلما خاب (بونوسوس) في كيده سار في البر إلى (دفاشير) وشفى غله بأن أحدث في أهلها مقتلة عظيمة . وجاء (نيقتاس) يسعى للقائه غير أن (بونوسوس) كان يعلم أنه من الحمق أن يخاطر بمناجزته القتال بمن معه وهم فلول ضعيفة . فعاد أدراجه على ذلك وعبر نهر النيل والتجأ إلى (نقيوس) ليتحصن فيها مرة أخرى . وأما (نيقتاس) فإنه لم يتبعه إلى العدوة الأخرى ، بل بقي في غرب النهر وسار إلى مريوط فأخذ المدينة والإقليم ووضع فيهما جنداً كثيراً . وكان شديد القلق لما لقيه من استماتة عدوه وشجاعته وسرعة حركته التي كان يفسد بها عليه خططه . ولهذا كان يقدم الحزم في مقابلة حركات عدوه الجريء ، فلم يعبر النهر ذاهباً نحو منوف إلا بعد أن خلص له كل ما وراءه وثبت قدمه على الجانب الغربي من النيل . وكان في منوف حصن حصين ، وهو من أكبر ما أقامه (تراجان) ، وكان في طاقته أن يبقى على المقاومة ما شاء لو دافع عنه من فيه دفاعاً قوياً . ولكن الناس كانوا من غير شك يميلون إلى حزب الثوار وكان جنود

الإمبراطورية تخبو شجاعتهم برغم شجاعة قائدهم وجراءة احتياله في الحرب . ففر عدد كبير من جند الحامية وأخذ الحصن عنوة بعد قتال ضعيف.

فلما تم (لنيقتاس) ملك ضفتي النيل وما حولهما من البلاد سار قاصداً مدينة (نقيوس) وقد ضيق عليها من كل جانب . فبلغ الأمر بالقائد (بونوسوس) أن وهنت عزيمته ففرّ تحت جنح الليل ، ولعله انسل من الجيش المحاصر وسار إلى الشرق نحو (أثريب) أو لعله هوى مع النهر إلى الشمال ثم ضرب نحو مدينة (صان) سالكاً إليها إحدى الترع الكثيرة التي هناك . وعلى كلا الحالين استطاع أن يبلغ (الفرما) سالماً ومن ثم ركب البحر إلى فلسطين ومنها سار في طريقه إلى القسطنطينية تشيعه لعنات الناس إلى أن لحق بسيده (فوكاس) . وكان فتح (منوف) و (نقيوس) إيذاناً للمدن الأخرى ولسائر القوّاد أن يسلموا ، وأسر (بول) حاكم (سمنود) وصديقه المقعد الجرىء (كسماس) ولكن الفاتح المنتصر عفا عنهما عفواً صريحاً ، ثم قبض (نيقتاس) على زعماء الحزب الأخضر وأنذرهم وأوعدهم إذا لم يسيروا بالحسنى ، وذلك لأنه رآهم قد اتخذوا نصره على عدوه ذريعة للإعتداء على الحزب الأزرق ولقتل الأنفس ونهب الأموال ، فتصالح الحزبان وعهد لحكام جديدين على المدائن كلها واستقر الأمر وعاد سلطان القانون وصار هرقل سيد القطر المصري .

لقد كانت الحرب قتال المستميت وطالت بها مدة الزمن وتقلبت بها الأمور تقلباً عجيباً تارة يبسم فيها الحظ وتارة يعبس . فقد رأينا البلاد في سباتها وهي جاهمة كارهة ، فإذا هي تهب على صوت الصور من جيوش (هرقل) . ثم فتح (نيقتاس) الإسكندرية بغير قتال يذكر ورأينا الثورة تنتصر في مصر ، ثم رأينا (بونوسوس) وهو يهوي كأنه نمر انقض على رأس مصر السفلى ، فاكتسح كل ما دونه حتى بلغ أسوار الإسكندرية وصدم حصونها صدمة لم تغن شيئاً فارتد وهو كليم حسير عاجز عن المضي في النضال إلا مناجزة هينة بين حين وحين . وبقي على ذلك مدة تخمد فيها شجاعته وحماسته المتقدة . فلما لم يبق له ما يستطيع به المقاومة مكر بأعدائه الذين أحاطوا به ، فهرب منهم تحت جنح الليل ولم

يمكنهم من نيل ثأرهم منه . وإنها لصورة بديعة زاهية الألوان تدل كل ناحية منها على حقيقة ما تصوره ، وقد بقيت كلها مجهولة لا يعرف عنها التاريخ شيئاً حتى كشف عنها تاريخ (حنا) أسقف (نقيوس) .

ولسنا نجد في كتب مؤرخي بيزنطة كلمة واحدة تقص علينا شيئاً من أنباء هذه الحرب العجيبة التي ثارت ثورتها بمصر ، اللهم إلا أن (ديوان بسكال) يذكر في حوادث سنة ٦٠٩ للميلاد « ثورة إفريقيا والإسكندرية » . ونجد في كتاب (جبون) ـ وهو يعرف كل ما كتبه هؤلاء المؤرخون معرفة لا نقص فيها ـ خلاصة استخلصها من مطالعة ما كتبوا عن الثورة فيقول : « احتشدت جيوش أفريقيا ، وجندها فتيان مقدامان (هرقل ونيقتاس) واتفقا على أن أحدهما يسافر بالأسطول من (قرطاجنة) إلى (القسطنطينية) ، وأن يسير الآخر بجيشه عن طريق مصر وآسيا ، وأن يكون الرداء الإمبراطوري الجائزة لمن يجد منهما وينجح . فتسرب شيء قليل من أخبار ذلك العزم إلى (فوكاس) ، فأخذ زوج الفتى (هرقل) وأمه رهينتين كي يبقى (هرقل) على ولائه . ولكن (كريسبوس) وكان ماكراً غدّاراً هون أمر ذلك الخطر البعيد عند الإمبراطور ، وأهمل أمر الدفاع أو توانى فيه ، واستنام الطاغية وتراخى حتى ألقت السفن الأفريقية رواسيها في خليج هلسبونت »[1] . ولا يرد ذكر لحوادث مصر وما كان لها من الأثر في مصير الثورة ، بل لقد جاء في كتاب (جبون) بعد بضع صفحات من الباب نفسه وصف لدخول الفرس في مصر في أيام كسرى سنة ٦١٦ للميلاد ، وفيه يقول عن مصر صراحة « إنها الإقليم الأوحد من أقاليم الدولة لم تعتره غزوة من خارجه ولا حرب في داخله منذ أيام دقلديانوس » . وهذه عبارة يعجب لها الإنسان ، لأن (جبون) ينقض جزءاً منها في وصفه القصير المبين لأقباط مصر في الباب الثاني . فالحق أن الإنسان كلما أمعن في درس ذلك العصر تبين له وزاد عنده وضوحاً أن مصر كانت فيه أكثر بلاد الدولة هياجاً ، وأيقن أن أمورها كانت في اضطراب يكاد يكون مطرداً منذ انعقد مجلس (خلقيدونية) ، وما أكثر الأدلة على

---

(١) هو الدردنيل .

ذلك الإضطراب في ثنايا كتاب (حنا النقيوسي) وفي كتب أخرى مثل (تاريخ بطارقة الإسكندرية) الشهير الذي ألفه (رينودو) . وهذه الكتب تصف إضطراب مصر بغير تعرض للقصة التي نحن بصددها قصة هرقل بذاتها .

وليس هذا موضع البحث في حوادث تاريخ مصر في القرنين الأخيرين من حكم الرومان ، كما أنه ليس موضع البحث في المراجع التي يرجع إليها في ذلك التاريخ . ويقيننا أنه إذا جاء الوقت الذي يكتب فيه تاريخ هذا العهد كتابة وافية ظهر أن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف في الجنس واختلاف في الدين ، وكان اختلاف الدين أشد أثراً فيه من أختلاف الجنس . كانت علة العلل في ذلك الوقف تلك العداوة بين (الملكانية) و (المونوفيسية)[1] وكانت الطائفة الأولى كما يدل عليه اسمها حزب

(١) لم يكن المنوفيسيون فيما بينهم وحدة بل كانوا أحزاباً يشهد بذلك ما كان من الخلاف بين (تيودوسيوس) الرجل العالم و (جايان) القبطي ونضالهما على ولاية البطرقة اليعقوبية في أوائل القرن السادس . وكان كل الرهبان مع (جايان) وقد بزه (تيودوسيوس) فقام بالصلاة في كنيسة (مار مرقص) وقلد الولاية قبله ، ولكن الناس ثاروا عليه وأنزلوه عن عرشه ، فما كاد (جايان) يلي البطرقة حتى تدخلت (تيودورا) في الأمر فأرسلت (نارسيس) ليخلعه ويعيد (تيودوسيوس) وأعقبت ذلك ثورة بين الناس ونشب قتال في شوارع الإسكندرية أريقت فيه الدماء واشترك فيه الناس جميعاً حتى النساء ، فكن يرمين بالآجر من أعلى المنازل على رءوس الجنود الغرباء الذين يتقاتلون في الطرق . وقد ثارت الحرب الأهلية في أيام (جستن) الأول بين حزب كان يعتقد أن جسم المسيح فان يفسد وآخر يعتقد أن جسمه باق لا يفنى ولا يفسد . ولما قلد (جستنيان) (زويلوس) ولاية الدين ثار الناس وغلبوا جنود الروم فلجأ إلى أن جعل (أبو ليناريوس) والياً للمدينة وبطريقاً في آن واحد ، فنشأت عن ذلك مذبحة أمر بها المطران من محرابه وهو في سلاحه وعدة حربه فجرت الدماء من المصلين من القبط ، وقد أنفذ (جستنيان) أمراً يريد به الإصلاح في مصر ولكنه كان أمر سيد مستبد إلى رعية من عبيد ، ويفهم من سياق كتاب (حنا النقيوسي) أن حزب (جايان) كان لا يزال موجوداً في وقت كتابة ذلك الكتاب . ولكن القبط تركوا تدريجاً عقيدة جايان في أن جسد المسيح لا يفنى ولا يفسد وغلب على اعتقادهم رأي (تيودوسيوس) في أن جسمه كجسم البشر . وقد اقتبس (لوكيان) توقيع خطاب كتبه (خيل) وهو البطريق السادس والأربعون وتوقيعه هو « خيل =

مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاط ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهي إزدواج طبيعة المسيح . على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط (المنوفيسيين) أهل مصر كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها في قوم يعقلون بله ممن يؤمنون بالإنجيل . فالحق أن روح التعصب الشديدة التي ثارت بمن مزقوا جسم (هيباشيا) قطعاً في المحراب كانت لا تزالِ كامنة في القلوب لم تتغير ، غير أنها بعد أن كانت تدفع إلى التنكيل بفتاة جميلة يعزى إليها ذنب الوثنية صارت تثور بفرقتين كل منهما تدعى أنها ابنة المسيح وترمي الأخرى بأنها من نسل الشيطان . وفوق هذا قد كان يزيد الأمر شراً ما كان بين الحزبين الأخضر والأزرق من نضال ، إذ كانت عداوة هذين الحزبين في مصر عداوة حقيقية بلغت أشد ما بلغته عداوتهما في أي جهة من جهات الدولة الرومانية . ولم تكن تلك العداوة ناشئة عن خلاف الدين غير أن الخلاف الديني كان يزيدها ضراماً .

حسبنا هذا القول لندل به على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر من قلة السلام في داخلها . أما ما يزعم الزاعمون من أنها كانت بمنجاة من غزوات الأجانب وإغاراتهم فيكفي لإظهار خطئه أن نذكر إغارة الفرس في أيام الإمبراطور (أنستاسيوس) حين أحرقت كل أرباض الإسكندرية كما يشهد بذلك (سعيد بن بطريق) وهو كاتب مصري المولد . وهو يذكر أن القتال ظل قائماً بين المصريين وغزاة الفرس في مواقع يتلو بعضها بعضاً ، وأن البلاد عصفت بها مخالب الخراب فلم تكد تنجو من السيف حتى أصابتها مجاعة دفعت بالناس إلى الثورة . وماذا عسانا أن نذكر عن عسف الإضطهاد وعن المذابح وما سال فيها من الدماء وتشجيع الحكام لذلك حتى (جستنيان) نفسه ؟ وماذا عسانا أن

= بمشيئة الله مطران الإسكندرية وطائفة التيودوسيين » وهذا يكون في القرن الثامن للميلاد وتوقيعات الكتب القبطية في القرن السابع كانت على هذه الصورة عينها ، ويقول (ساويرس) إن القبط هم (التيودوسيون) .

نـذكر من الثـورات الصغيرة مثـل تمـرد (ارستمـاخـوس) في أيـامالإمبـراطـور (مـوريق) ، ومن خروج اللصـوص في عصابـات منظمـة ، ومن غارات البـدو وقبائل السودان وما يصحبها من انزعاج دائم ، إذ كانت تلك القبائل إذ ذاك كما هي اليوم خطراً يهدد حدود البلاد . فلئن كانت الحرب في كثير من الأحيان غير ثائرة في البلاد في الحقيقة فإن شبحها المخيف كان يتراءى لها أبداً ويرفعه الآل على آفاقها .

فمن الواضح إذن كما ترى أن أسباباً كثيرة أدّت إلى أن تكون تلك البلاد دائمة الإضطراب . وكانت الأحزاب بها كثيرة عنيفة الخلاف . فكـان لأي غاز عقـد العزم على غـزوهـا أن يعتمـد على أحـد تلك الأحـزاب التي بهـا . أما (نيقتاس) فقد أعانه أن (فوكاس) كان كريهاً عند النـاس كراهـة لا شك فيهـا . ذلك لأن جرائمه قد زادت على الطاقة حتى في نظر الرومانيين أنفسهم . وكان القبط يرونه طاغية فتاكاً ، وكان فوق ذلك قطب سلطة أجنبية وعقيدة مكروهة[1] كـان وجودهـا بينهم ينغص عليهم حياتهم ويجعـل عيشهم مراً . على أنـه من الجائز أن (نيقتاس) أحس أن بقاءه بمصر لازم حتى بعد خروج (بونوسوس) منها لكي يدعمَ سلطانه ويوطده . ومن سـوء الحظ أن تواريـخ تلك الفترة ليس من السهل إدراكها فإن (حنا النقيوسي) على ما يظهر يزعم أن مدة الحرب قبل هزيمة (بونوسوسَ) عند الإسكندرية قد وقعت في السنة السابعة من حكم (فوكاس) أي قبل تمام سنة ٦٠٩ ، فتكون الواقعة ذاتها إذن قد حدثت في شهر نوفمبر من تلك السنة[2] وقد تكون سائر الحوادث قد استغرقت بضعـة أسابيـع أخرى ، ومعنى هذا أن (نيقتاس) قد تم له مُلك مصر في ربيع سنة ٦١٠ . ومن العجيب أن أمراً واحداً لا يرد له ذكر في ديوان أسقف (نقيوس) ، وذلـك هو القسط الـذي كان

(١) يقول في الأصل (accursed) ومعناها (ملعونة) .

(٢) وهذا يوافق ما يروى من أن (حنا الرحوم) قد اختير بطريقاً سنة ٦٠٩ في مكان (تيودور) الذي قتل في ثورة (نيقتاس) (انظر كتاب لوكيان) (Or. Christ.) الجزء الثاني صفحة ٤٤٤ .

لحصن (بابليون) في النضال ، وهو ذلك القوي بقرب (ممفيس) . فقد كان في القوة ثاني الحصون بمصر لا تفوقه إلا الإسكندرية . ولا شك أنه قد كانت فيه قوة مسلحة من جنود الإمبراطورية ، وقد كان في وقت غزو العرب أول ما قصد إليه القائد العربي ، وكان فتحه فصل الخطاب في إنتصار الهلال . وكل هذا واضح جلي يصفه ديوان ذلك المؤرخ حتى لا يسع الإنسان إلا أن يفهم من ذلك الإغفال أن الحصن قد سلم إلى (نيقتاس) بغير حرب . فإذا صح هذا وإذا صح أن الحرب قد وضعت أوزارها قبيل ربيع سنة ٦١٠ كان من الجلي أن (نيقتاس) لم يكن يخطر له ببال أن يسارع نحو (القسطنطينية) ، ولو فعل لاستطاع أن يصل إلى العاصمة البيزنطية ويخلع (فوكاس) قبل زحف هرقل بستة أشهر ، لأنه لا محل للشك في أنه كان يستطيع أن يجهز في مصر أسطولاً كافياً لغرضه هذا . حقاً إن المؤرخ (قيدرينوس) يقول إن وقعة (بونوسوس) بأهل إنطاكية ومذبحته لهم كانت في سنة ٦١٠ . ولو صح هذا لكانت الحرب المصرية كلها في خلال تلك السنة . ولكن هذا التاريخ لا يتفق مع سائر ما جاء في كتاب (قيدرينوس) وهو أيضاً لا يتفق مع (ديوان بسكال) وكذلك يختلف اختلافاً لا مجال فيه للتوفيق مع النسخة الأثيوبية المخطوطة من ديوان حنا التي عندنا . وتواريخ ذلك الديوان - ديوان حنا - على وجه الإجمال موثوق بصحتها ثقة كبيرة . وعلى ذلك فإنا نرجح أن التاريخ السابق هو الصحيح ، ويصح لنا أن نجزم بأن (نيقتاس) بعد أن أتم الغرض الذي كان موفداً إليه بأن حاز النصر على ضفاف النيل قنع بالبقاء في تلك البلاد حتى يقوم هرقل بزحفه ، وعمل على أن يجمع جيوش الدولة التي في مصر ويستميلها إلى جانبه ، ثم أن يجمع في يده أزمة موارد البلاد العظيمة من قمح وسفن ، وكانت القسطنطينية تعتمد عليها اعتماداً عظيماً .

الفصل الرابع

ولاية هرقل

رحلة هرقل ـ إقامته الطويلة في سلانيك ـ يسير بالبحر إلى القسطنطينية ـ القتال في العاصمة وموت (بونوسوس) ـ المناجزة بالبحر ـ الكنوز الإمبراطورية ترمى في البحر ـ أسر (فوكاس) ومقابلته لهرقل ـ حكم الموت وإنفاذه عليه إنفاذاً فظيعاً ـ تتويج هرقل ـ نظرة فيما سبق .

لنصف الآن ما كان من أمر هرقل في هذه الأثناء : إننا لا نعرف إلا اليسير من وصف رحلته في البحر ولا يزيد (حنا النقيوسي) من العلم شيئاً كثيراً على ما يذكره مؤرّخو (بيزنطة) من الوصف الضئيل ، فإنهم جميعاً مثله يقصرون وصفهم على ما حدث في نهاية الأمر في القسطنطينية . غير أنه من الواضح أن سيره كان بطيئاً وأنه بدأ سيره كما بدأ (نيقتاس) في قلة من السفن إذا نظرنا إلى عظم ما كان مقدماً عليه ، وأنه كان على سفنه جنود من الروم وجنود من إفريقية ، وأنه كان عليه أن يجمع السفن في أثناء سيره ويجهز أسطولاً وجيشاً يكفيان لما كان مقبلاً على اقتحامه من قتال (فوكاس) . وقد لقي ترحاباً في الجزائر وفي مدائن الساحل التي مر بها وجاءت إليه المتطوعة تترى تنضوي تحت لوائه ولا سيما من رجال الحزب الأخضر[1] . وليس ثمة من يذكر أن جيوشه لقيت مقاومة غير أنه

---

(١) يلوح أن بعض الشك يعتري ما قام به الحزبان الأخضر والأزرق . فقد كان الأزرق في أول الأمر مع (فوكاس) وكان الأخضر عليه . ولكنه نفر عنه حتى قلوب أصحاب الحزب الأزرق نفسه . وقد جاء في ديوان (حنا النقيوسي) ما يدل إجمالاً على أن الذي نصر هرقل إنما كان الحزب الأخضر سواء أكان ذلك في مصر أم في (تراقية) وقسطنطينية .

ولا شك لم يخطر بباله أن يقصد إلى القسطنطينية بمن سار معه من جند قليل . فإنه لما سافر من إفريقية سار على سواحل بلاد اليونان أو من خلال جزائرها حتى بلغ (سلانيك) فجعلها مقرّاً لأعماله، وأقام بها مدّة طويلة لا تقل عن عام وهو يجهز أسطولاً وجيشاً ويوثق عرى المودّة بينه وبين الكارهين لفوكاس في العاصمة وزعيمهم (كريسبوس) ، وكانت سلانيك في ذاك الوقت كما هو معروف مدينة حصينة منيعة ، وكانت إحدى مدائن قليلة في مقدونية قاومت جموع الهون وسواهم من الهمج الذين كانوا يجتاحون البلاد إذ ذاك[1] . فالحق أنها كانت باباً من أبواب الإمبراطورية الشرقية تشرف على الطريق الآتية من قرطاجنة وصقلية وغرب البحر الأبيض المتوسط إلى القسطنطينية . ففيها إذن أقام هرقل بغير قتال كما يلوح وكان مقامه فيها عزيزاً ، حتى إن أحد المؤرّخين وهو (سعيد بن بطريق) ظن على ما يلوح أنه من أهل المدينة . ولكن يجب أن نذكر أن كل ما جاء في كتاب (سعيد بن بطريق) من ذكر حوادث هذه الثورة كان أبتر وفيه خلط كثير في التاريخ ، وقد كان ولا شك مخطئاً في هذا الزعم .

ولسنا نرى من هرقل في مدّة الأشهر الكثيرة التي قضاها في (سلانيك) إلا سعياً واحداً وهو أن يكمل خطته ويجمع الأمداد ويذلل الصعاب . ولسنا ندري ما كانت الصعاب التي قامت في سبيله في ذلك العصر الذي لا نجد شيئاً من ذكر حوادثه في دواوين الأخبار . وأكبر ظننا أنه قد أبدى فيه مثلما أبداه فيما بعد في حرب الفرس ، فأعجب العالم وأدهشه من همة لا يعتريها كلال مقرونة إلى

---

(١) تجد وصفاً بديعاً لمدينة سلانيك في كتاب : « Joannis Comeniatae de Excidio Thes-salonicensi Narratio » ويمكن الإطلاع عليه في كتاب . « Combeficius »
« Historiae Bizantinae Scriptores Post Theophanem » باريس سنة ١٨٦٥ صفحة ٣٢٠ وما بعدها .

فنجد فيه وصفاً شائقاً لموقع المدينة وذكراً مفصلاً لما كان فيها من أسوار وحصون ومرافىء. ويدلنا ما كان بها من طرق عظيمة وبناء شامخ وتجارة واسعة رائجة وثروة وغنى ـ يدلنا كل ذلك على ما كان للمدينة من كبير الشأن في نظر هرقل ، وقد كتبه الكاتب حوالي سنة ٩٠٠ للميلاد .

حزم وبصر بالأمور . على أنه لم يفرغ من تجهيز أمره إلا في سبتمبر سنة ٦١٠ وعند ذلك أقلع الأسطول الذي جمعه وأعد ما يحتاج إليه من المؤونة والعدة ، ولم ينس أن يحمل معه آثار الأبرار من القديسين في السفن التي في الصدر ورفع علم الصليب على رءوس سارياتها وجعل فوق سفينته دمية ذات حرمة خاصة « دمية لم تنحتها أيدي البشر » جعلها عند مقدم السفينة . وانتشرت أنباء الأسطول ومجيئه إلى الدردنيل إنتشار النار في الهشيم حتى بلغت العاصمة ، وما كادت حتى جهرت جماعة كبيرة من الشيوخ وأهل الدولة بالدخول في طاعة (هرقل) وكان معهم (تيودور) المجيد . ولكن يلوح أن (كريسبوس) بقي قابعاً لا يحرك ساكناً في أول الأمر . ويقول (حنا النقيوسي) إن رعاع المدينة وغوغاءها ثارت على الإمبراطور وشرعت تصب عليه صنوف السباب .

والظاهر أن (فوكاس) لم يكن على استعداد طيب للقاء هذه الجائحة التي ظلت تعصف بآفاقه هذه المدة كلها . فلما جاءته أنباء ثورة مصر أولاً كان في مرفأ الميناء عدد كبير من السفن تحمل القمح من الإسكندرية فأخذها وأسر من فيها من الرجال وسجنهم في حصن مشرف على مرفأ (الهبدومون) فأقاموا هناك ما شاء الله . فلما عاد (بونوسوس) من غزوته بالفشل ولم يقدر على استرجاع مصر لم يعاود الإمبراطور سعياً يذكر في سبيل الدفاع . فكان أول ما أنذر (فوكاس) إنذاراً مزعجاً صوت هؤلاء السجناء من أهل الإسكندرية وقد هللوا إذ رأوا سفن هرقل مقبلة . وكان الإمبراطور عند ذاك في قصر (الهبدومون)[1] على مقربة من الحصن فلم يكد يسمع ذلك حتى وثب إلى جواده وأسرع به إلى قصر اسمه (قصر المَلك الأكبر) داخل أسوار المدينة . وقد وقع ذلك في يوم سبت

---

(١) كان قصر (الهبدومون) وحصنه على ساحل البحر على نحو ثلاثة أميال إلى الغرب من الباب الذهبي أحد أبواب القسطنطينية . وهذا مأخوذ عن الأستاذ (Van Millingen) في كتابه الحجة المسمى (Bizantine Constantinople) في الصفحات التي بين ٣١٦ و ٣٤١ (المطبوع في لندن سنة ١٨٩٩) والحادثة التي نذكرها في كتابنا يشير إليها الكاتب في الصفحة المرقومة ٣٢٤ من كتابه .

على رواية (ديوان بسكال) ولا بد أن يكون ذلك هو اليوم الثالث من شهر أكتوبر . وفي اليوم التالي بعث (بونوسوس) في جيش ومعه المركبات الحربية الملكية للقاء من ينزل إلى البر من جنود (هرقل) . ولكن فرقة المركبات ثارت ووثبت بقائدها لأن (كريسبوس) كان قد استمال جنودها إلى حزبه . فهرب القائد إلى المدينة والغيظ يأكل قلبه ، فلما بلغها دفعه غيظه إلى جناية فظيعة وذلك أنه جعل يقذف بالنيران على أحياء المدينة التي حول القصر المعروف (بقيصريون) فلم يقدر على إحراقه ولكنه استطاع أن يقاوم الذين لحقوا به من ورائه من غوغاء المدينة وأفسد عليهم سعيهم ، فلم يخلصوا إليه وهرب في زورق إلى مرسى في الميناء اسمه (ميناء جوليان) . غير أن أعداءه لحقوا به هناك وضيقوا عليه الخناق فحاول أن يقاومهم مقاومة عنيفة ، غير أن ذلك لم يجده شيئاً إذ كان أعداؤه جموعاً كثيرة . فلما لم يقدر على شيء ورأى الخطر منه أقرب من وريده قذف بنفسه في الماء فغاص به ، وما إن طفا مرة حتى علاه سيف شق رأسه وذهب بذهابه روح مارد ثائر فغاب عن أرض طالما أفسد فيها ، وأخرجت جثته من الماء فجرها الناس إلى (سوق الثيران) فأحرقوها يجللها العار وتشيعها اللعنات .

وهذه القصة قصة (بونوسوس) وموته قد جمعناها من ديوان (قيدرينوس) وكتاب (حنا النقيوسي) و (ديوان بسكال) . ومن العجيب أنهم يتفقون جميعاً فيما يوردونه ولا يختلفون اختلافاً حقيقياً إلا قليلاً ، فقد تختلف رواياتهم ولكن اختلافها ناشىء من نقص شيء أو زيادة آخر وليس فيما بينها تناقض في ذكر الحوادث . وفوق هذا فإن مواضع الإتفاق بينهم في كثير من الأحيان واضحة تسترعي النظر ، وهم إنما يتفقون في الجوهر لا في تفصيل الوصف ، وهذا يدل على أنهم كتبوا ما كتبوه وكل منهم وحده مستقل عن الآخرين وفي هذا ما يبعثنا على الإطمئنان إلى رواياتهم والإعتماد عليها . وليس ثمة ما يبعث على الظن أنهم رجعوا جميعاً إلى مرجع واحد نقلوا عنه .

ومنذ علم الإمبراطور بما أصاب (بونوسوس) عرف أن ساعته قد دنت ، ولم يكن في نيته أن يخلع عن نفسه التاج في حين لم يكن يتوقع الرحمة إذا هو

سلم لأعدائه . فكان أمله الوحيد في أن يقاتل إلى أن يحكم السيف حكمه . غير أن تسلل خير جنوده عنه لم يدع له أملاً إلا قليلاً ، فلم يبق له إلا ولاء الحزب الأزرق ، وإن شئت فقل لم يبق له إلا تلك العداوة الشديدة التي كان يحملها الحزب الأزرق لأعدائه أصحاب الحزب الأخضر ، وما داخلهم من الحنق عندما رأوا نجاح الفئة المعادية لهم . وعلى ذلك جهز (فوكاس) أسطولاً واختار رجاله من الحزب الأزرق وجعله في ميناء (أيا صوفيا) واستعد لقتال هرقل . وإنا ناقلون هنا قصة يرويها (حنا النقيوسي) ولا نعرف أن مؤرخاً آخر ذكرها ، وذلك أن (فوكاس) وخازن أمواله (ليونتيوس) السوري عندما علما أن حياتهما أصبحت بعد قتل (بونوسوس) في أشد الخطر من غوغاء المدينة أخذا كل ما في خزائن الدولة من الأموال وقذفا بها في البحر . فضاع بذلك في لحظة واحدة كل ما كان للإمبراطور (موريق) من الثروة وما جمعه (فوكاس) من الذهب والجواهر بغصب أموال من قتل من ضحاياه وما كنزه (بونوسوس) من أموال وتحف وأوانٍ نفيسة حصلها بالظلم البالغ والغصب المتعدد . قال المطران « وهكذا كان (فوكاس) سبباً في وقوع الفاقة والعوز بالدولة الرومانية الشرقية » .

وكانت هذه الفعلة شفاء للغل ورياً للحقد وهي جديرة بخلق (فوكاس) . والظاهر أنها وقعت في اللحظة التي لاح فيها نصر هرقل في الوقعة البحرية ، ولا بد أن تلك الكنوز كانت محمولة في سفينة الإمبراطور خوفاً عليها أن تؤخذ نهباً في أثناء القتال . فلما وقعت الهزيمة ألقي بها في اليم جميعاً . وما كان من شك في نهاية الأمر وعلى من تكون الدبرة مهما كان من شدة القتال ، فهزمت سفن الإمبراطور وقذف بها إلى الشاطىء أو استولى عليها العدو ، وفر من استطاع من الجند فاستأمن في كنيسة (أيا صوفيا) . وأما (فوكاس) فالظاهر أنه عاد يصحبه (ليونتيوس) إلى (قصر الملك الأكبر) فلحق به (فوتيوس) أو هو (فوتنيوس) و (بروبس) فضربا التاج عن رأسه فتردى عنه ثم وضع هو في القيود والسلاسل وجيء به يُجرُّ جرّاً على جانب المرفأ وقد تمزقت ثيابه كل ممزق . وعرض هناك على جنود الجيش والأسطول المنتصرين ثم اقتادوه بين التهليل إلى حضرة الفاتح المنتصر في كنيسة (الرسول توماس) وصيحات اللعن الصاخبة تصدع أذنيه.

ومن الجائز أن (هرقل) اختار هذه الكنيسة ليصلي فيها شكراً لله على ما أولاه ولم يختر كنيسة (أيا صوفيا) إذ كان بها عدد عظيم ممن فر من الحزب المقهور ، ولهذا لم تكن تتسع لجمع كبير فوق ذلك أو لحفل ديني . ولسنا في حاجة إلى أن نكلف خيالنا شططاً ليصور لنا كل ما جرى بين (فوكاس) و (هرقل) . وحسبنا أن نتصور كنيسة فخمة تزدحم برجال الدولة من قواد وشيوخ وجنود ، ويقوم من رجال الدين مثلوا في ثيابهم السنية حول المحراب وقد وضعت عليه آنية الذهب ، ومن حولهم يدوي المكان بأصداء النشيد نشيد الشكر لله ، ثم يدخل (فوكاس) مكبلاً بالقيود .

لبث الإمبراطور المخلوع برهة أمام تابعه المنتصر وقد وصفهما (قيدرينوس) وصفاً مشهوراً ، فهرقل فتى في زهرة العمر إذ كان في نحو الخامسة والثلاثين وهو من بيت نبيل وكان ربعة لا هو بالقصير ولا بالطويل متين البناء عريض الصدر له قوام قوي مفتول . وكان شعره أشقر وكذلك لحيته . وكان وجهه ناصعاً منيراً له عينان لونهما صافي الزرقة وتعلوه وسامة بديعة . فكان ظاهره ينم عن رجل صادق صريح عليه وقار وهيبة ، قوي في جسمه وعقله تبدو على وجهه سيماء الشجاعة والحزم والقدرة ، ولعله كانت تبدو عليه كذلك صفة أخرى ذكرها (سعيد بن بطريق) ألا وهي أنه لا يعبأ بما يرتكب في سبيل إتمام قصده . أما (فوكاس) فكان في مثل قامته ولكن هذا كل ما كان بينهما من الشبه . فقد كانت صورته كريهة مما بها من العاهات ، وكان لا لحية له ، يعترض وجهه ندب جرح قبيح غائر فيه ، وكان ذلك الندب يحمر أو يربد كلما ملكته سورة وثارتِ ثائرته . وكان حاجباه بارزين يقترنان في جبهة خفيضة من فوقها جمة من شعر أحمر ومن دونها عينان تومضان وميضاً وحشياً . وكان بذيء اللسان ، مدمناً للخمر مقبلاً على المعاصي قاسي القلب لا يتحرك قلبه بشفقة إذا ما عذب أو سفك الدماء . هذه صورة ذلك الجندي الذي سلط على الدولة الشرقية سوط عذاب ثماني حجج ، ثم جاء عند ذلك ليحاسب على ما جنت يداه . فتلى عليه كتاب ذنوبه وكشفت منه جزيمة بعد أخرى وقال هرقل : « أهذا سبيل حكمك » ؟ فكان رده : « وهل أنت من يحكم خيراً من هذا ؟ » .

وحكم عليه بالقتل وأنفذ فيه وارتكبت في قتله مثلة فظيعة ، ولعمري إن تلك المثلة لم تكن من عيب في (هرقل) أو قسوة في خلقه ، بل كانت من عيب في العصر كله وما كان معروفاً فيه من العادات . على أنها لم تكن أفظع مما كان مباحاً في قانون بلادنا[1] من تقطيع الأوصال وقطع الجسم أرباعاً . قطعت أعضاء (فوكاس) ، فقطعت يداه أولاً ثم بترت ذراعاه وتلا ذلك تشويه آخر ، ثم قطع رأسه بعد ذلك ووضع على قضيب وعرض في أكبر طرق المدينة . أما سائر جسمه فقد سحب على الأرض إلى ميدان سباق الخيل ثم إلى سوق الثيران وأحرق في الموضع الذي كان فيه رماد (بونوسوس) ولما يكد يبرد . وأحرق عدا ذلك علم الحزب الأزرق (وليس الأخضر كما زعم جبون) وجيء بتمثال (فوكاس) فحملوه في ميدان السباق في موكب استهزاء ، يحمله جماعة يلبسون الثياب البيضاء الكهنوتية وفي أيديهم الشموع موقدة حتى رموه في النار . وقد قال قائل : « قد أحرقوا (فوكاس) و (ليونتيوس) و (بونوسوس) وذروا رمادهم في الهواء إذ كان الناس كلهم يكرهونهم » .

وألبس هرقل التاج ، كما يقول (حنا النقيوسي) وما كان راغباً فيه وذلك في الكنيسة عينها كنيسة (القديس توماس) ، وساد بعد أن أدى الصلاة ذاهباً إلى القصر ، وجاء أعيان المدينة يؤدون له الولاء . ويقول (قيدرينوس) إن تتويجه إنما حدث في كنيسة (القديس اسطفن) وهي متصلة بالقصر ، في حين أن (ديوان بسكال) يذكر أن تتويجه حدث بين حادثة إحراق (فوكاس) وبين إحراق تمثاله، ولا يذكر مكاناً لذلك وهذا فيه من الخلط ما فيه. ومن العجيب أن ديوان (حنا النقيوسي) يؤيد قصة تردد (هرقل) في قبول التاج ، وأن (ديوان بسكال) وسائر مؤرخي بيزنطة يؤكدون وقوع ذلك التردد . على أنه لم يلبث أن زالت وساوسه وأعلنت ولايته للأمر إمبراطوراً للدولة في اليوم الخامس من شهر أكتوبر سنة ٦١٠ وأصبحت عروسه المخطوبة (فابيا) إمبراطورة للدولة وصار اسمها (أودوقيا) .

---

(١) يقصد بلاد الإنجليز طبعاً . (المعرب) .

والظاهر أن (نيقتاس) لم يعمل على أن يتصل بهرقل عند القسطنطينية على خلاف ما جاء في ديوان حنا ، مما يدل سياقه على أن (نيقتاس) كان في العاصمة عندما خلع (فوكاس) . ولا بد أن يكون الصواب ما ذهب إليه (زوتنبرج) من أن ذكر اسم (نيقتاس) في هذا الوضع إنما كان نتيجة سهو وقع فيه الكاتب أو الناسخ وأن الصواب هو (كريسبوس) . ولو كان (نيقتاس) ترك مصر حقيقة ولحق بهرقل فاشترك معه وتم له ما ابتغى لما خفي الأمر على أحد ولما جاء ذكره عرضاً في غموض وإبهام . على أنني لا يسعني إلا أن أخالف (جبون) حيث يقول « كانت رحلة هرقل سهلة موفقة وأما سير (نيقتاس) فقد كان شاقاً عسيراً ولم يتم حتى كان النضال قد انتهى فخضع للقضاء الذي حبا صديقه ولم يظهر أقل تألم مما كان » .

وما هذا القول إلا قلبٌ للحقيقة كما بيَّنَّا ، فإن مسير نيقتاس هو الذي كان سهلاً موفقاً على وجه الإجمال ، وقد بلغ مقصده الذي رمى إليه منذ ملك مصر على رغم ما اعترض سبيله من الأخطار وما لقي من العوائق بوقوف (بونوسوس) في وجهه . وقد وقع كل ذلك قبل أن يستطيع هرقل أن يزحف من (سلانيك) على العاصمة بزمن طويل . فمما سبق نرى من العدل أن نقول إن هرقل لاقى عقبات ومصائب في رحلته وكان عليه أن يقهرها ولكن ليس في أيدينا من وصفها شيء ولا نستطيع أن ندركها أو نعرف حقيقتها .

الفصل الخامس

مصر في حكم الإمبراطور الجديد

يبقى نيقتاس على حكم الإسكندرية ـ سياسته ـ نقص في تاريخ مصر ـ إعتمادنا على تراجم البطارقة ـ (حنا الرحوم) والمجاعة الكبرى ـ سفن القمح التي تملكها الكنيسة ـ ولاية بطارقة القبط .

أرسل الإمبراطور إلى نيقتاس يثبته في حكم الإسكندرية وإن شئت قلت إنه جعله نائباً عن الملك في مصر[1] . وأصبح أصحاب (فوكاس) بين قتيل قضي عليه أو طريد مبعد أو مرتد ترك الجانب الخاسر وهجره . فكان هم (نيقتاس) أن يعيد للحكم المدني الروماني نظامه وأن يعيد للجيش الروماني كيانه ، وكان هذان آلتي الدولة الرومانية تحتفظ بهما بملك مصر . وكان الحكم المدني والجيش كلاهما في يد السادة الحاكمين ليس فيهم أحد من أقباط مصر أهل البلاد . فكان ذلك الحكم من هذا الوجه أشبه شيء بحكم الإنجليز في الهند ، على أنه يختلف عنه اختلافاً عظيماً كان سبباً في القضاء عليه . وذلك أن حكومة مصر لم يكن لها إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهة للرعية ، أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة ، أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم . فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا

---

(١) تجد وصفاً لا بأس به عن (نيقتاس) في كتاب هـ . جلزر . الموسوم « Leontios Von Neapolis Leben des Heiligen Johannes » صفحة ١٢٩ .

يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم . وكانت في يد الحكام عاصمة البلاد الإغريقية كما كانت في يدهم العاصمة المصرية القديمة منفيس وحصنها العظيم حصن بابليون الروماني على الشاطىء الشرقي من النيل . وكذلك كانوا يملكون مدائن عدة حصينة يلي بعضها بعضاً بين أسوان في الجنوب والفرما في الشمال . وكان جند الحكومة وجباة ضرائبها ينتشرون من تلك المدائن يظهرون هيبة السلطان ويجمعون الأموال ، على حين كان تجار الروم واليهود يحلون حيث شاءوا تحميهم جنود الربط ينافسون الأقباط في التجارة منافسة شديدة .

وكانت الإسكندرية من أشق بلدان العالم حكماً لأنها كانت تجمع أخلاطاً من الناس من إغريق بيزنطة وآخرين ولدوا بمصر وقبطٍ وسوريين ويهود وعرب وغرباء من جميع البلاد . ولكن يلوح أن نيقتاس قد كسب إجلال أهل الإسكندرية وإن لم يكسب حبهم مع ما عرف عنهم من التقلب وحب الخروج . وكان من أول ما أمر به أن رفع عنهم جباية المال ثلاث سنوات ، فكانت تلك يداً مازهم بها زادتهم تقديراً له بعدما رأوا من غنائه في الحرب . وليس ثمة شك الآن في أنه بقي مقيماً في الإسكندرية[1] . حقاً إنا نسمع بأنه كان في بيت المقدس قبل زحف الفرس عليها ويقولون إنه أنقذ بعض الآثار المقدسة - الحربة والأسفنجة - من أن تدركها يد الفرس ، ولكنه عاد إلى الإسكندرية بعد ذلك كما سنرى . فالحقيقة هي بلا شك أن هرقل أمره أن يسير إلى الشام لعله

---

(١) هذا ظاهر من كتاب (ليونتيوس) ومن مراجع أخرى ، ولكن يلوح أن حكم (نيقتاس) في الإسكندرية لم يكن معلوماً حتى لمثل الأستاذ Bury فهو يأخذ عن (جبون) كما يظهر - ويقول إن (نيقتاس) كان لا يزال يميل إلى أن يسير بجيوشه المسكينة في البر إلى القسطنطينية سالكاً ذلك السبيل كله خلال مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى . ويقول إن نيقتاس « لم يصل إلى القسطنطينية إلا حوالي أبريل سنة ٦١٢ . ولسنا ندري ماذا عاق سيره ولعله تأخر في الشام ليحارب الفرس » « نقلاً من كتابه « Hist. of the Later Rom. Emp. » الجزء الثاني صفحة ٢١٦ ، هامش ٢ » .
وقصة هذا السباق البري إلى القسطنطينية لا تزيد على أنها قصة خيالية . فقد كان قصد نيقتاس مصر وقد بقي فيها ليحكمها بعد أن فتحها باسم هرقل .

يدفع عنها الفرس ولم يكن عنده علم بمقدار ما أتوا به من الجيوش الجرارة . فلم يستطع نيقتاس إلا أن يسرع عائداً إلى مصر .

ولكن من سوء الحظ أن تاريخ مصر في هذه الفترة عسير إدراكه فإن ديوان (حنا النقيوسي) لا يذكر عنها شيئاً وقد كان عليه جل اعتمادنا إلى ذلك الوقت ، فإن بالنسخة التي ننقل عنها نقصاً كبيراً إذ تغفل ثلاثين عاماً من ذلك الوقت ، وكأن يداً أثيمة قد عمدت إلى ذلك الكتاب فأودت بكل ما فيه ذكر لحكم هرقل . غير أننا نجد ذكر كثير من حوادث بعض أنحاء الدولة في بعض مؤلفات الأرمن[1] أو كتب سواهم من أهل الشرق التي كتبت في هذا العصر . ولكن ما أشبه هؤلاء بمؤرخي بيزنطة في أنهم لا يذكرون إلا النزر اليسير عن مصر . على أننا نستطيع أن نلمح خلال الظلام سير الحوادث الكبرى التي عصفت بسلطان الدولة البيزنطية في مصر في أواخر حياة ذلك الإمبراطور .

فإذا نحن أردنا أن نعرف تاريخ مصر في مدة الأعوام الثلاثين التي بين ولاية هرقل وبين الفتح العربي فلا مناص لنا من أن نلجأ على الأكثر إلى ما كتبه رجال الكنيسة أو ما كتبه رجال لهم ميول دينية قوية تجعلهم غير أمناء في رواياتهم . فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة . فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب واختلف بعضها عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانة ، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين الذي يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح ، بل كان الدين في نظرهم هو الإعتقاد المجرد في أصول معينة . وكان الناس لا يكادون يحسون شيئاً اسمه حب الوطن ، وما كانت عداواتهم عند اختلاف الجنس والوطن لتثور ويتقد لهيبها على الأكثر إلا إذا اختلف معها المذهب الديني . فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات ، وكانوا يخاطرون بحياتهم

---

(١) نجد ثبتاً بأسماء المؤرخين من الأرمن في « الجريدة الأسيوية » في المجموعة السادسة من عام ١٨١٦ المجلد السابع ص ١٠٩ .

في سبيل أمور لا قيمة لها وفي سبيل فروق في أصول الدين وفي فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ويشق إدراكها . فحق على مصر المسيحية قول الشاعر (جوفنال) إذ يصف ما كان بين قومه من النزاع والشقاق على أيهما أفضل في العبادة عبادة التماسيح أم عبادة القطط ، إذ قال : « كان كل مكان يكره الآلهة التي يعبدها جيرانه ويعتقد أن الآلهة الحقيقية هي التي يعبدها هو »(١) . لقد تغير الزمان ولكن الناس هم هم لم تتغير طباعهم . ومنذ كانت الأحزاب ومناظراتها قائمة على ما كان في الدين من شيع وفرق كان جل آثار العصر وما تخلف من كتبه تراجم لحياة القديسين والبطارقة ، وقلما نجد فيها ذكراً لأهل الحرب أو السياسة ، وعلى هذه الآثار نعتمد في معرفة تاريخ مصر في ذلك العهد .

كان في مصر في ذلك العصر ما كان فيها منذ مجلس (خلقيدونية) في سنة ٤٥١ وذلك أن كلا فرقتي المسيحية بمصر كان لها بطريقها وكانت أمورها الدينية مستقلة . ولكن هذا لم يذهب بشيء من شدة الخلاف الثائر بين الأحزاب ولم يقلل من متاعبه . نقول هنا للمرة الثانية إن الحزبين بمصر كانا يعرفان بإسمين مشهورين : أولهما حزب اليعاقبة وهم القبط ، والثاني حزب الملكانية(٢) وهم حزب الملك . وكان اليعاقبة على مذهب (المونوفيسيين) وأكثرهم وإن لم يكونوا جميعاً من الجنس المصري(٣) على حين كان الملكانيون يتبعون المذهب الذي أقره مجلس (خلقدونية) وكان أكثرهم من أصل إغريقي أو أوروبي . ونجد

---

(١) Numina vicinorum.

Odit uterque locus, cum solos credat habendos.

Esse does quos ipse colit.

(٢) وهذا الاسم مأخوذ من أصل (ملك) وهو أصل (مشترك) في اللغات السامية كلها ويغلب على الظن أن لفظ (الملكانية) المستعمل في مصر مأخوذ عن السوريانية . وعلى ذلك فليس ثم من خلط في استعماله قبل أن يفتح العرب مصر .

(٣) ويدلنا على ما كان للقبط من الشأن حتى في الإسكندرية ما جاء في كتاب (بروكوبيوس) (المطبوع في أثينا سنة ١٨٩٦ صفحة ٢٢) فإنه لما اختار (جستنيان) المطران =

إجماعاً من المؤرخين وفيهم (ساويرس الأشمونيني) على أنه ما ولى إمبراطور إلا سار على سنة القضاء إلى مذهب اليعاقبة في مصر قضاء لا هـوادة ولا رحمة . وكان اليعاقبة لا يرضون إلا بأن يمحوا كل أثر من آثار مذهب (خلقيدونية) .

وقد سبق ذكر مقتل البطريق الملكاني (تيودور) عند فتح (نيقتاس) للإسكندرية سنة ٦٠٩ ، فقد[1] كانت ثورة (هرقل) ثورة على السلطان الإمبراطوري في القسطنطينية ، وكان القبط باشتراكهم فيها يؤملون بلا شك أن يجدوا في الحكم الجديد سيراً أرفق بهم مما كانوا يجدونه من عسف (فوكاس) . والحق أنهم لم يشعروا بخيبة بالغة في أول الأمر ، فإن البطريق القبطي (أنستاسيوس) بقي على كرسيه ست سنوات بعد خمس قضاها في مدة الثورة حتى توفي في ٢٢ كيهك (أي ١٨ ديسمبر) من سنة ٦١٦ للميلاد[2] .

= (بولص) للإسكندرية جعل له الأمر على الحاكم (رودون) وظن ذلك يؤدي إلى طاعة أعيان المدينة لمجلس (خلقيدونية)، وكان أول ما أتاه (بولص) أن أمر بقتل الشماس (بسوس) وهو قبطي كان يكتب بالقبطية وكان أكبر عائق في سبيل سياسة الإمبراطور . ومات (بسوس) وهو يعذب فثار الناس غاضبين ولم يجد جستنيان وسيلة لتهدئتهم إلا أن عزل (رودون) ثم أمر بقتله في القسطنطينية ولم يغنه دفاعه عن نفسه بإظهار ثلاث عشرة رسالة أتته من الإمبراطور يأمره فيها بأن يطيع أمر (البطريق) .
وجاء بعد (رودون) حاكم آخر اسمه (ليبرّيوس) فصلب رجلاً اسمه (أرسنيوس) كان أكبر عامل على قتل (بسوس) وبهذا تم الأنتقام للقس القبطي ، ويقول (لكيان) إن (رودون) هو الذي أمر بقتل (بسوس) ولكن ميله إلى الحزب الملكاني واضح وضوح شهادة (بروكوبيوس) على البطريق بولص .

(١) وقد أخطأ (شارب) في زعمه أن (تيودور) كان مطراناً (مدة السنوات الثلاث الأولى من حكم هرقل . انظر « History of Eg. under The Romans » صفحة ٢٤٠ . على أنه جاء في ديوان بسكال أن في هذه السنة (سنة ٦٠٩) قتل بطريق الإسكندرية (قتلة أعداؤه)*[2] وربما كان يقصد القبط وفي السنة نفسها نصب (زكرياس) بطريقاً على بيت المقدس .

(٢) يظهر أن هذا التاريخ أقربها للصواب . على أن ضبط التاريخ هنا كما هو في سائر المواضع من أشق الأمور . ويقول (أبو البركة) إن (أنستاسيوس) توفي سنة ٦٠٤ وجاء=

واستطاع الأقباط عند ذلك أن يبنوا في الإسكندرية بعض الكنائس أو يعيدوا بناء أخرى مثل كنيسة (القديس ميخائيل) وكنيسة (القديس انجيلوس) والقديسين (كزماس) و(دميان) ، هذا عدا أديرة عدة . وكان (أنستاسيوس) ينصب القسوس ويعتمد المطارنة ، ولكن لا ننس مع ذلك أن الملكانيين كانوا لا يزالون محتفظين بسلطانهم في العاصمة ولهم أكبر الكنائس فيها .

وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن هرقل كان حريصاً كل الحرص على أن يستميل قلوب أقباط مصر . وكان (نيقتاس) في الوقت عينه يرى لزاماً عليه أن يجزيهم على ما قدموه من خدمة ، فإذا كانت حكومة بيزنطة قد أقامت بطريقاً ملكانياً بدلاً من (تيودور) القتيل فإنها اختارته رجلاً أوصى به (نيقتاس) إيصاء خاصاً[1] وكانت حياته الماضية وخلقه بحيث جعلاه موضع إعجاب اليعاقبة حتى بجلوه في حياته وعظموه بعد مماته إذ اتخذوه أحد القديسين الذين تخلد

= في (الديوان الشرقي) أن وفاته كانت سنة ٦١١ بعد ولاية اثني عشر عاماً ومائة وتسعين يوماً . وجاء في كتاب (أكلنسس) أن ذلك كان بين سنة ٦٠٧ وسنة ٦١٩ ، ولعل هذا أقرب للحقيقة من سواه ـ لكننا من جهة أخرى نرى (الديوان الشرقي) وهو يورد في صراحة أن قدوم بطريق (أنطاكية) اليعقوبي على (أنستاسيوس) كان في السنة التي خرب فيها الفرس بيت المقدس أي سنة ٦١٥ ومن جهة أخرى نرى (ساويرس) يورد أن غزوة الفرس لمصر (وقد كانت سنة ٦١٦) حدثت بعد موت (أنستاسيوس) وهاتان الروايتان يمكن التوفيق بينهما باتخاذ التاريخ الذي اتخذناه في كتابنا وذلك أن نجعل وفاة (أنستاسيوس) في ديسمبر سنة ٦١٦ وإن كان (الديوان الشرقي) ينقض رواية نفسه بأن يجعل موت (أنستاسيوس) في سنة ٦١١ (أنظر ملحق الكتاب المرقوم بحرف (ب) وفيه كلام أكثر تفصيلاً عن مسألة ضبط التواريخ) .

(٣) عن كتاب (ساويرس) الذي نقل عنه (لكيان) في كتابه (.Chron Or) (الجزء الثاني صفحة ٤٤٤ (ويذكر (الديوان الشرقي) فوق ذلك أن (أنستاسيوس) لم تقتصر همته على أن بني كنائس جديدة بل إنه أرجع إلى القبط كثيراً مما كان قد استولى عليه الملكانيون من كنائسهم وما كان يستطيع هذا لولا أن عضده (نقتاس) وآزره الإمبراطور .

(١) أنظر كتاب (جلزر) « Leontios Von Neapolis » (الجزء الثاني صفحة نمرة ٢١٠) =

أسماؤهم في التقويم القبطي . ومن العجيب أن (نيقتاس) جاء بعد ذلك فساعد مساعدة كبرى في التوفيق بين (المونوفيسيين) من أهل الشام وبين الكنيسة القبطية . وهذا يدل على أنه كان يميل للأقباط ويعطف عليهم وأنه لم يكتفِ بأن يسلك معهم مسلك الإعتدال والتسامح .

وكان المطران الأكبر الملكاني الذي عين حديثاً هو (حنا الرحوم) أو هو المحسن . وقد أطلق عليه ذلك اللقب لما كان يأتيه من أعمال البر والإحسان[1] ، ولكن كرمه لم يكن فوضى فإنه بعث من حوله ليجوسوا خلال المدينة فيأتوه بخبر « سادته ومساعديه » . فلما سألوه عما يعنيه بقوله أجاب قائلاً (أقصد من تسمونهم أنتم « الفقراء والمساكين » وأسميهم أنا « السادة والمساعدين » ، لأنهم في الحق يساعدوننا ويمنحوننا ملكوت السموات) . وعلى هذا كتبوا له صحيفة بأسماء الفقراء فأجرى عليهم كل يوم رزقاً وبلغ عددهم ٧٥٠٠ . فلما رأى (نيقتاس) أن البطريق تجري يده بالعطاء جريان البحر نفس عليه ذلك وجاءه يوماً فقال : « إن الدولة محتاجة أشد الحاجة إلى المال ، وإن ما عندك من المال يأتي إليك عن رضا لا يؤذي أحداً ، فأبعث بما عندك إلى بيت مال الدولة » . فقال له البطريق : « إن ما نقدمه لملك السموات يجب ألا نبذله لملك في الأرض ، ولست بمعطيك شيئاً عن رضا . ولكن خزانة الله تحت سريري هذا وأنت وما تختار لنفسك». فدعا (نيقتاس) بحراسه وأمرهم أن يأخذوا المال من تحته . وفيما كانوا خارجين رأوا قوماً يحملون في أيديهم أواني صغيرة كتب عليها « أحسن العسل » وأخرى كتب

= قطعة من حياة حنا الرحوم تأليف (حنا مسكوس) و (صفر ونيوس) .

(١) جاء في (جبون) وهو قول عجيب فيه ظلم عجيب « كان إحسان (حنا الرحوم) الذي لا حد له صادراً عن أحد بواعث ثلاثة : فأما أن يكون عن جهل وخرف في العقيدة وإما أن يكون عن حب للبر وإما أن يكون عن سياسة يرمي إليها » ويظهر أنه يظن أن في أيام حنا أعطيت كنائس الإسكندرية للكاثوليك واضطهد مذهب المونوفيسيين ، وهذه عبارة تبعد عن أن تصدق على هذا العصر بعداً أكبر من أي عصر آخر .

عليها «عسل لم يدخن»، فسألهم (نيقتاس) أن يعطوه واحدة منها لطعامه، فهمس القوم في أذن البطريق أن فيها ذهباً، فأرسل حنا آنية منها إلى (نيقتاس) مع رسول ، وأرسل إليه ألا يفتحها إلا في حضوره . ثم قال إن كل الأواني التي رآها وهو خارج لم تكن إلا مملوءة بالمال. فلم يسع (نيقتاس) مع هذا إلا أن ذهب إلى البطريق ورد إليه كل ما أخذ منه من المال وكذلك رد الآنية . ثم بعث إليه بمال آخر من عنده[1] .

ومثل هذه القصص تظهر على الأقل ما كان لرئيس الدين بالإسكندرية من سلطان وما كان لديه من موارد المال . وإنه لمن المستطرف أن نعلم كذلك أن الكنيسة كانت تملك أسطولاً من السفن التجارية . وقيل إن إحدى تلك السفن ساقتها الريح عن طريقها وكان عليها عشرون ألف مد[2] من القمح فبلغت السفينة سواحل بريطانيا وكان بها قحط شديد ثم عادت تحمل من هناك القصدير فباعه الربان في (بنطابولس) . وجاء في موضع آخر أن جمعاً من السفن يبلغ ثلاث عشرة سفينة عدّاً تحمل كل منها عشرة آلاف مُدّ من القمح ، ذهب كل ما فيها ضياعاً في البحر الأدرياوي في أثناء عاصفة وكانت كلها ملكاً للكنيسة وكان فيها عدا القمح حمولة أخرى من الفضة والمنسوجات الدقيقة وسوى ذلك من ثمين المتاع[3] . ولا يمكن أن يشك أحد في أن الكنيسة كان لها قسط من تجارة

---

(١) جاءت هذه الأخبار في كتاب (ليونتيوس) ونجد رواية أخرى وهي مما يحتمل وقوعه جداً وفيها يقال إن (نيقتاس) طلب المال بأمر من هرقل وكان في حاجة إليه ليصلح به الجيش (أنظر كتاب ليبو) « Hist. du Bas Emp » طبعة سان مارتان الجزء الحادي عشر في صفحتي ٥٢ ـ ٥٣) .

(٢) نحو كيل (لوبية) أو هو أقرب إلى خمس الأردب .

(٣) لعل الكنيسة حصلت على ميزات خاصة في التجارة منذ منع حاكم الإسكندرية هيفايستوس في أيام جستنيان ما كان معتاداً تقسيمه بين العامة (وقدره ألفاً ألف مد) وكانت تلك عادة منذ أيام دقلديانوس . وقد بعث ذلك الحاكم إلى الإمبراطور يعيب عادة توزيع القمح ويصفها بالظلم وبأنها ليست من الحكمة (أنظر كتاب بروكوبيوس صفحة ٢١٩ طبعة أثينا ١٨٩٦) .

القمح العظيمة التي كانت رائجة بين الإسكندرية والقسطنطينية . وكان جستنيان قد أعاد لها نظامها ورواجها[1] . وكان للكنيسة فوق ربح هذه التجارة وفوق ما كان الناس يهبون لها طائعين مختارين ، أوقاف من أرض الزراعة تؤثر أموالاً عظيمة . فليس من العجيب إذن أن نرى (حنا الرحوم) يدهش الناس بإنفاقه . وكان (أندرونيكوس) الذي صار بطريقاً للقبط بعد (أنستاسيوس) وأدرك عهد (حنا الرحوم) مدّة أشهر لا يقل عنه شهرة بثرائه وكثرة إحسانه .

بقيت مصر وفيها بطريقان للمذهبين مدة وكانت خطة هرقل في مبدأ أمره أن يوفق بين هذين المذهبين العظيمين اللذين اقتسما أتباع الدين المسيحي في مصر . ولكن لم يستطع رئيس الدين القبطي أن يبقى في العاصمة ، فقد كانت العداوة بين الشيعتين وإن خمدت ، تتقد في خفاء ويندلع منها اللهب إذا ما هبت عليها أضعف ريح من الفتنة . ورأت الحكومة أن من الحكمة التفريق بين رئيسي الدين حتى لا يبقى المتنافسان معاً في العاصمة[2] . فإن (أنستاسيوس) مثلاً عندما جاء إليه بطريق أنطاكية كان مقيماً في دير (الهانطون) وهو دير شهير

(١) كانت خزائن القمح عند مرسي (فيالى) بالإسكندرية عرضة للسطو والنهب كلما ثارت فتنة في طريق من الطرق ، فلما جاء (جستنيان) حصن الخزائن التي تأتي إليها السفن من النيل بأن بنى حولها سوراً وكذلك كانت سفن القمح قبل عهده تبقى مدة عند مدخل الدردنيل تنتظر ريح الجنوب تدفعها في سبيلها فعالج (جستنيان) هذا العائق بأن بنى بناء عظيماً ترسو عنده السفن وتنزل أحمالها وتفرغ ما بها في الحال ثم تعود إلى مصر في حين تحمل جماعة أخرى من السفن ذلك القمح إلى القسطنطينية إذا ما اعتدلت الريح لسيرها .
انظر كتاب (بروكوبيوس) في موضوع « ما بناه جستنيان » طبعة (Pal. Pil. Text Society) الجزء الثاني صفحة ١٥٢ .

(٢) من العدل أن نذكر أن المقريزي يروي أن (أنستاسيوس) « جعل مقامه في الإسكندرية » ولعل المقصود من هذا أنه كان مقيماً بقرب الإسكندرية وهذا مسلم به لا خلاف فيه ، ولكن رواية المقريزي عن هذا العصر مضطربة ولا يمكن الإعتماد عليها (أنظر ترجمة مالان من ٦٧ - ٦٩) .

على الساحل على نحو تسعة أميال إلى غرب الإسكندرية [1] ، ومن ثم خرج في

(١) ورد ذكر اسم هذا الدير في اللغة القبطية مرة πιεnατοn (أنظر كتاب زويجه « Cat. Cod. Copt. » صفحة ٨٩ وصفحة ٩٣ وورد مرة أخرى πgenατοn (أنظر الكتاب عينه صفحة ٣٣٧) وورد مرة ثالثة πιgenατοn (أنظر كتاب أميلينو Geag. de l'Eg. a l'epoque صفحة ٥٣١) والاسم في اليونانية هو (إنّاتون)*[٣] أو (إناتون)*[٤] ومعناه التاسع (أنظر كتاب Cotelerius « Mon, Ecc. Gr » صفحة ٤٦٠ وصفحة ٥٢٠) و (كتاب حنا مسكوس Pratum Spirituale) وهذا الاسم يترجم في اللاتينية باسم (Ennatum) والمقريزي العربي يذكر ديراً اسمه (الزجاج) مع دير (أناتون) أو (الهانطون) ويقول إنه مكرس باسم (مار جرجس) ويروي أن البطريق فيما مضى كان عليه بعد إنتخابه في كنيسة المعلقة في حصن بابليون الرومي أن يذهب إلى دير الزجاج ولكن هذه العادة نبذت فيما بعد ، وهذا يدل بلا شك على ما كان لدير (أناتون) من الشأن عند الأقباط وقد زاد شأنه في تاريخ القرنين السادس والسابع وكانت جثة (ساويرس) بطريق أنطاكية محفوظة هناك كما جاء في تقويم الكنيسة . وقد قاموا في ذلك الدير بمراجعة الترجمة السريانية للإنجيل كما حدث فيه إتحاد كنيسة مصر وكنيسة أنطاكية في ذلك الوقت . ويذكر أبو صالح هذا الدير (راجع كتاب الكنائس والديارات في مصر) طبعة (إفتس وبتلر صفحة ٢٢٩ وهامشها) واسمه في ذلك الكتاب (هونا نادون) ويستخاص (جولدشميت) و (بريرا) أن (أناتون) هو (الزجاج) وأنا مدين لما كتباه في هذا الموضوع . ويقولان إنه على تسعة أميال إلى غرب الإسكندرية وأنه كان مكرساً باسم (مار جرجس) ويلوح لي أنه من الواضح أن ذلك الاسم مأخوذ من رقم البريد على الطريق ، فقد كان ذلك المتّبع في مصر مثل ما كان متبعاً في قسطنطينية ، فمثلاً كان الحصن الشهير أو القصر يسمى (الهبدومون) ومعناه السابع . أما نسبته إلى (مار جرجس) فأكثر غموضاً فيظهر اسمه (سلاما)*[٥] في كتاب حنا مسكوس وكان غير الدير الذي ذكره (ساويرس) وهو دير (قيرنوس) . ولكن هذا الاسم يجب أن يكون دير (قيريوس) أو دير (قبريوس) ولكن الحقيقة بلا شك هي أن هذا الدير مثل سائر الأديرة الكبرى كان فيه عدة كنائس داخل أسواره . وكانت هذه الكنائس ينسب كل منها إلى قديس خاص وهذا قد يسبب شيئاً من الخلط . وكان في الجنوب الغربي من الإسكندرية مما يلي مريوط دير آخر اسمه (بميتون)*[٦] (ومعناه الخامس) . ونقرأ عن دير آخر اسمه (أجنو كيكاتون) (ومعناه المائة والثمانية) . (انظر مجلة « Or. chret. » سنة ١٩٠١ الجزء الأول ص ٦٥ هامش ١)

موكب مهيب للقاء ضيفه[1] . وكذلك لم يذهب إلى الإسكندرية ، بل أرسل يطلب قسوسه منها وعقد في الدير مجمعاً أسفر عن رجوع الإتفاق والإتصال بكنيسة أنطاكية .

ولكن أندرونيكوس خليفة (أنستاسيوس) شذ عن هذه السنة ، سنة ترك الإقامة بالإسكندرية ، فقد كان عند إنتخابه شماساً في كنيسة (انجليون)[2] بالإسكندرية فبقي هناك مقيماً في صومعته المتصلة بالكنيسة مدّة ولايته وكانت ست سنوات . والسبب في أنه لم يبعد عن الإسكندرية هو أنه كان من أسرة عريقة وكان له قوم من أقاربه بين حكام المدينة يمنعونه ويعتّز بهم . ولسنا ندري كيف كانت العلاقة بين البطريقين ، على أن (حنا الرحوم) مات بعد أشهر قليلة من ولاية (أندرونيكوس) رئاسة الدين في القبط . ولسنا نعرف على وجه التأكيد ما إذا كان جورج[3] الذي وليَ بعد حنا بطرقة الملكانية قد أقام في الإسكندرية أم لم يقم ، وعلى ذلك فأغلب الظن أن العلاقة بين الاثنين لم تكن ذات شأن عند ذلك .

وليس من المجدي أن نأسف لأن أمثال هذه الأخبار المفصلة عن الكنيسة

---

(١) جاء في كتاب السيدة ا . ل بوتشر (Thestory of The Church in Eg.) أن بطريق أنطاكية جاء إلى مصر لائذاً عند غزوة الفرس ولكن الحقيقة أنه جاء إلى مصر ليجتمع مع البطريق القبطي بشأن أمور متصلة بالكنيسة وكان أكبرها أمر إتحاد الكنيستين وقد جاء في الوقت نفسه عدد كبير من الناس منهم قسوس من أهل الشام مع مطارنتهم ومنهم قوم من غير رجال الدين من مختلف الطبقات لاجئين إلى الإسكندرية من غزو الفرس (أنظر كتاب جلزر Leontios von Neapolis) الجزء الثاني صفحة ١١٢ .

(٢) ليس من الواضح هل اسم الكنيسة (Angelion) أو (Euangelion) وكلا الاسمين موجود ولكن لعل اسم (Angelion) هو أخف الاثنين وأيسَرَهُما .

(٣) لا نعرف شيئاً أو لا نعرف إلا القليل عن (جورج) هذا سوى أنه كتب ترجمة لحياة (القديس حنا كريسوستوم) ويقول (تيوفانس) إن مدة ولايته أربع عشرة سنة ، ولكنه ينقض ما قال إذ يقول ـ ولعل قوله هذا هو الحق ـ إنه مات سنة ٦٣٠ بعد ولاية عشر سنوات . أما سعيد بن بطريق فيجعل رئاسة الدين شاغرة مدة سبع سنوات بين حنا وجورج ، ولعل هذا هو السبب في اختلاط الأمر على (تيوفانس) .

والتي لا تلذ كثيراً للقارىء هي جل ما بقي من تاريخ مصر في السنوات الخمس أو الست التي جاءت بعد ثورة هرقل . ولكن قد آن لنا أن نخرج من هذه الترهات إلى السبيل الواضح فنرى ما كانت تتجاوب به الأنحاء الشرقية من الدولة من جليل الحوادث التي بلغ صداها جوانب النيل . وكان قد جرى القضاء بأن تزعزع قوّة الرومانيين في مصر وتصدّع جدرانها ، فتمهد بذلك السبيل إلى الفتح العربي . ولكن النضال الذي كان بين إمبراطورية الرومان ودولة الفرس كان شائعاً في ميدان فسيح ، وإذا أردنا أن نعرف أثره في مصير مصر كان علينا أن نسير وراء حوادثه وتقلبات أحواله ولو كان ذلك إلماماً غير مفصل .

الفصل السادس

فتح الفرس للشام

ولاية كسرى ملك الفرس ـ موت موريق وانقطاع المودة بين فارس والامبراطورية ـ فتح الفرس للشام ـ اليهود والنصارى ـ أخذ بيت المقدس وأسر البطريق (زكرياس) ـ توافد اللاجئين إلى مصر ـ أعمال (حنا الرحوم) في سبيل المساعدة ـ إعادة بناء الكنائس في بيت المقدس ـ عقد كسرى للمجمع المسيحي ـ بعثة (حنا الرحوم) إلى بيت المقدس .

خرج الثائر الغاصب (بهرام) على كسرى حفيد (أنوشروان) ملك الفرس العظيم بعد ولايته بأيام قلائل، وطرده من بلاده فهرب مع خاليه وعبروا دجلة وقطعوا أطناب القنطرة التي اجتازوا عليها حتى لا يلحق بهم أحد من ورائهم[1] . ثم سار كسرى إلى (قرقيسيا) على نهر الفرات ينوي أن يؤدّي الصلاة في مشهد من مشاهد النصارى، يسأل الله أن يُخلِّصه من أعدائه . ومن ثم يقال إنه ضرب في الأرض خائر العزيمة ، كسيف البال، لا يدري أيحتمي بالهون أم بالروم. فرمى أعنة فرسه على غاربه وجعل الحكم للقضاء[2] ، فحمله فرسه إلى حدود الروم ، فنزل ضيفاً على القوم الذين ظلت بلاده في حرب مستعرة معهم نحو سبعة قرون .

---

(١) عن « Journal Asiatique » الحلقة السادسة سنة ١٨٦٦ صفحة ١٩٢ ؛ وكان خالاه هما (بندويه) و (بستام) وقد قتلهما ابن أختهما حسب العادة الشرقية المتبعة عند رجوعه إلى العرش .

(٢) أنظر تاريخ « Tarikh Regum Persiae » (لناشره و . شيكارد صفحة ١٥٤) .

فلقيه الإمبراطور (موريق) مرحباً مؤهلاً، أو بعبارة أدق لقيه نائب عنه عند (هيرابوليس) . ويقال إن الامبراطور نفسه أرسل إليه هدية لا يقدّر لها ثمن من الجوهر، وأنه زوّجه ابنته (مارية)[1] ، وأكبر من كل هذا أنه نصره وأرسل (نارسيس) بجيش جرار ليعيد إليه ملكه من (بهرام) . وحدث اللقاء عند نهر الزاب في إقليم (بلرات) وكانت موقعة شديدة القتال، وكان فيها فصل الخطاب. فإن جيش بهرام كان أقل عدداً من جيش الروم فتمزق شر ممزق، مع أن قائده قاتل بما كان معروفاً عنه من الشجاعة والبصر بأمور الحرب. وهرب بهرام إلى بلخ فأدركه بها أتباع الملك وقتلوه[2] ، وبذلك عاد كسرى إلى عرش فارس بمساعدة الروم ، واختار لحرسه الخاص كتيبة من الروم عددها ألف جندي، وبذلك حل السلام وثيقاً بين الدولتين حتى لقد قيل إن كسرى تنصّر، ويستدلون بما قدّمه من النفائس قرباناً لمشهد (مارسرجيس) وما كتبه من الرسائل إلى بطريق أنطاكية على أنه كان[3] يؤثر مذهب اليعاقبة.

---

(١) هكذا يقول (ابن بطريق) و (مكين) في حين أن غيرهما من المؤرخين يقولون إنها كانت من أصل رومي فحسب . ولعل (جبون) يحسبها (شيرين) ولكن القصة الفارسية (قصة حب خسرو وشيرين) تفرق بينها وبين مارية . (أنظر ترجمة السير س . أوسلي للقصة في « المجموعة الشرقية » الجزء الأول صفحة ٢٢٤) . على أن شيرين أيضاً كانت مسيحية ويقول (سيبيوس) ـ ويسميها ملكة الملكات ـ إنها بنت كنيسة على مقربة من القصر الملكي . ذلك عداً أديرة أخرى . وقد زخرفت الكنيسة بالذهب والفضة وجعلت فيها القسوس والشمامسة وأجرت عليهم الأرزاق وأوقفت على وظائفهم وكسوتهم جانباً من الأموال العامة .

(٢) وقد جاء في رواية أنه مات مسموماً من سم قدمته له ملكة خاقان التتار وكانت من أقارب كسرى (أنظر كتاب السير ج. ملكولم « Hist of Persia » الجزء الأول صفحة ١٥٥) .

(٣) يذكر أبو الفرج نص الخطابات التي ترددت بين كسرى وبهرام ويقول إنه بعد هزيمة بهرام بنى الملك (هيكلين للنصارى) وجعل أحدهما باسم (السيدة العذراء) والآخر باسم (مارسرجيس) الشهيد (أنظر طبعة بوكوك صفحة ٩٦ ـ ٩٨) وقد جاء ذكر القربان في كتاب (أفاجريوس) وهو يقول إن كسرى وهب الكنيسة صليباً للمواكب وكأساً للخمر الرباني مع صحفته وصليباً للمذبح ومجمرة للبخور وكلها من الذهب الصافي مع ستارة =

ولا شك أن نشأته وعلاقاته بالدولة المسيحية وزواجه كان لها أثر كبير في تخفيف وطأة العداوة القديمة الموروثة بين ديانة المجوس وديانة المسيح. ولكن الروم طلبوا المكافأة على مساعدتهم بأن تضم إليهم أرض فسيحة جعلت ملكهم يبلغ شواطىء نهر الرس . فكانت هذه الخسارة سبباً في إيلام كسرى وقومه ، كما كان ميل كسرى إلى المسيحية، وهي دين غريب ، مؤلماً لكهنته. فلا شك مع هذا أن يكون قد بادر إلى العدول عن ميوله وإصلاح خطئه. فاضطر بتأثير عوامل قوية بعضها ديني وبعضها سياسي إلى أن يقطع صلته وينقض عهده مع الدولة البيزنطية، فصرف حرسه الرومي وتغير على (نارسيس)

= مطرزة على النمط الهوني ومرصعة بالذهب ، ويقول (تيوفيلا كت) إن كسرى نذر في وقت بؤسه أن يهب صليباً عظيماً من الذهب المرصع بالدر والفيروز إلى (مارسرجيس) وهو قديس كانت تجله الناس حتى القبائل البدوية ، ويذكر المؤلف نفسه ما سبق ذكره من الهدايا التي قدمها كسرى مرة ثانية عندما ظهر أن سيرا أو (شيرين) حملت ولداً . ويقال إن أنو شروان العظيم مع إضطهاده للمسيحيين كان على صلة حسنة مع (أورانيوس) وهو فيلسوف مسيحي نسطوري معروف عند الناس بما كان ينشر من علم أرسطاليس (أنظر كتاب « Ecc. History » تأليف (Mosheim) الطبعة الحادية عشرة صفحة ٢١٨ طبعة لندن . و . تج سنة ١٨٨٠) . ولكن مؤلف هذه القصة لا يمكن أن يكون قد قرأ أو صدق ما كتبه (أجاتياس) وكان في وقت (أورانيوس) ويصفه بأنه كان قليل العلم ميالاً للخلاف والمناظرة يكثر من إضاعة الوقت في مكاتب القسطنطينية ويقول أجاتياس إن (أنو شروان) لم يكن بالعالم بل كان جندياً باسلاً ولم يكن (أورانيوس) سوى طفيلي مدمن للشراب في بلاطه . (انظر Hist. Lib 2 ap. Migne, Pat. Gr. T.88) ويذكر زكريا الميتليني أخباراً كبيرة الدلالة في شأن ما كان يلقاه المسيحيون من الإكرام في بلاط الملك الفارسي وما كان للأطباء المسيحيين من الفضل لا سيما في حمل الملك على بناء مستشفى وإجراء المال عليه . ولم يكن هذا معروفاً في بلاد الفرس من قبل (أنظر ترجمة هملتون وبروكس صفحة ٣٣١) . (وانظر أيضاً ما سيأتي ذكره في صفحة ٤٩ الهامش الأول وصفحة ٩١ الهامش الأول) ، ولا تزال في الهند إلى اليوم فكرة موروثة ثابتة مؤداها أن أحد أبناء (أنو شروان) واسمه مشزاد كان مسيحياً وكان الأستاذ العظيم (م . عماد الدين لالوز) الذي خرج من الدين الإسلامي ومات سنة ١٩٠٠ يقول إنه من نسل مشزاد هذا (عن مجلة Ch. Miss. Intelligencer) ديسمبر سنة ١٩٠٠ صفحة ٩١٣.

وكـــان على رأس الجيش في (دارا). فـأراد (مـــوريق) أن يستـل غيظ الملك ويسترضيه فبعث (جرمانوس)[1] ليحل محل (نارسيس).

واتفق في ذلك الوقت أن وثب فوكاس، ذلك الرجل المشوّه الفظيـع بعد أن تم له الأمر في بيزنطة، فقتل الامبراطور موريق مـع كل ولده ذكوراً وإناثـاً. ولم يكن كسرى ليطلب عذراً بعد هذا لتبرير غضبه وإثارة الحرب علانية. ولئن كان لا يزال فيه شيء من التردد فقد زال عنه عندما بلغه أمر (نارسيس) وأنه خرج ثائراً في (أذاسـا)، وقسم الدولـة الرومـانية إلى شـطرين محتربين[2]. على أن نارسيس دفعته ثقة حمقاء مرة إلى أن يذهب إلى العاصمة ليزور بعض أصحابه فيها، فقبض عليه فوكاس وأحرقه في ميدان سباق الخيل، ولكن ذلك كان بعد أن انتهى الأمر وسبق السيف العذل. فلمـا جاء (ليليـوس) رسول فـوكاس إلى جرمانوس في (دارا) بعثه هـذا معززاً مكـرماً إلى البـلاط الفارسي، وكـان معه رسـائل وهـدايا إلى الملك كسـرى، ولكن الملك أودع الرسـول السجن وسار بجيشه إلى أرمينيا.

---

(١) يحسن بنا هنا أن نرجع إلى الصفحات الأخيرة من كتاب (تيوفيلا كت) فإن ذلك الكتاب ينتهي عند نقض العهد بين الفرس والروم وقد كان من أهل مصر ولكنا لا نجد فيه شيئاً يمكن الإعتماد عليه ، فلا يذكر بلاده إلا مرتين ولم يذكرها إلا ليقص قصصاً خرافية مبالغاً فيهـا لا معنى لها . وأولى تلك القصص قصـة شبح عجيب خـرج من النيل. وهي قصة يذكرها أيضاً (حنا النقيوسي) ـ ومـا أعجب هذا ـ مـع تغير طفيف (صفحـة ٥٣٣) . وثانية تلك القصص قصة وقوع تمـاثيل مـوريق في الإسكندريـة في ليلة مقتله . ويقول (تيوفيلا كت) إن صديقاً له شهد هذا الأمر بعينه وكان وقاداً رأى ذلك وهو عائد من حفلة عرس بعد مضي أكثر الليل . ولا يصعب علينـا معرفـة العلل الطبيعيـة التي تفسر هـذا الأمر .

(٢) يظهر من كتاب شيكارد (Tarikh Reg. persiae صفحة ١٥٥) أن هذه الثـورة كانت في وقت استيلاء (فوكاس) على العرش ، ولعلها نشأت من تلك الحـادثة . ويقـول (حنا النقيوسي) إن كسرى حاول أن يقتل (نارسيس) بالسم هو وجيشه وخيوله . ولكن ليس من الواضح كيف كان هذا لينفعه لو فعله (صفحة ٥٢٨ ـ ٥٢٩) .

وليس من قصد هـذا الكتاب أن نصف القتـال الذي كـان بين فوكـاس وكسرى، فإنه لم يكن في عصرنا الذي نصفه وليس له من صلة بتاريخ مصر ، اللهم إلا بما كان له من الآثار العامة ، ولسنا نجد شيئاً نزيده على ما كتب من قبل . وعلى ذلك فحسبنا أن نذكر أن ملك الفرس بعد أن فتح أرمينيا ، وكثيراً ما كانت ميداناً للنضال بين الدول ، قسم جيشه إلى قسمين ، فأرسل قسماً منه إلى الجنوب لفتح الشام ، وأرسل الآخر إلى الغرب ليخترق قلب آسيا الصغـرى ، يقصد بذلك أن يصل إلى القسطنطينية . وليس توارد الحوادث بالأمر الواضـح ولكنا لا يعنينا منها إلا ما كان من أمر الجيش الذي ذهب إلى الجنوب . وقد كان سيره بطيئاً حتى إن فتح أنطاكية لم يتم إلا وقد صار (هرقل) ملكاً للدولة . وبعد فلو صح أن الباعث لكسرى على خوض الحرب إنما هو الإنتقام من فـوكاس ، لكان موت هذا الطاغية مختتم النضال. ولكن الملك العظيم قد عرف في حربه ضعف عـدوه وزاده النجـاح رغبــة في المضي في سبيله ، ولم يكن سبيله إلاّ إخضاع الدولة الرومانية لحكمه . ولم يكن ذلك مجرد خيال بعيد التحقيق ، فقد كانت جيوشه أكثر عدداً وأتم عدة وأبدع نظاماً من جيوش عدوه ، وكان قواده لا أكفاء لهم في جيش الروم بعد أن مات (بونوسوس) و (نارسيس) وكانت خزائنه عامرة بالمال والشعب من ورائه يداً واحدة ، في حين كان أهل الدولة الرومانية شيعاً وفرقاً وخزائنها تكاد تكون خاوية .

ومع ذلك فقد كانت بلاد الشام وعرة المسالك ، وكان حصار المدن أمراً شاقاً ، وكان الجيش يقضي قسطاً كبيراً من السنة بلا عمل في معسكر الشتاء ، فلم يقدر خوريام[1] قائد الفرس على أن يسير إلى بيت المقدس بعد الإستيلاء

---

(١) راجـع كتـاب (ابن بـطريق) وتعليق مبني عليـه في كتـاب (Patr Gr.) الجـزء الثـالـث المجموعة ١٠٨٢ وفيها يأتي ذكر (شراوزية) . ويأتي اسمه في كتاب (تيوفانس) على صورتين وهما (سرفرازاس)*[8] و (سرفنازاس)*[9] واسمه في ديوان بسكال (سرفروس)*[10] وكذلك يأتي اسمه (شـراوزيه) و (شهـربرز) وهـذا تحريف الاسم الفـارسي (شهر - ورز) ومعناه (الخنزير البري للملك) والخنزير البري رمز للقوة الباسلة فكانت صورتـه لذلك ماثلة على خاتم فارس القديمة وكذلك عفى خاتم أرمينية . وقد كان (شهر - ورز) =

على (دمشق) و (قيصرية) إلا في السنة الخامسة من حكم هرقل . وأرسل ذلك القائد على ما يلوح رسلاً من مقره في قيصرية إلى بيت المقدس يدعوها إلى التسليم للملك الأعظم ، وقد حدث ذلك فأسلم اليهود المدينة إلى قواد الفرس بعد أن غلبوا المسيحيين من أهل المدينة على أمرهم[1] . وما هي إلا

= كما هو معلوم لقباً يلقب به تكريماً ولم يكن اسماً له . وهذا القائد عينه غصب عرش الفرس فيما بعد واستقر عليه مدة قصيرة ويعرف بلقب آخر ، ففي كتب الأرمن نجد اسمه (أرزمن) و (رزمن) و (رومزان) أو (رميكزان) وفي كتب الإغريق نجد اسمه (رسميزاس) أو (روميزانس) ونجده في صورته الصحيحة (رزميوزان) في كتاب (موسى الكاغنكتوتي) ونجده (رومیازان)*[11] في كتاب (تيوفانس) . وكان اسمه غير هذه الألقاب كلها فهو (خوريام) . أنظر (Journal Asiatique) الحلقة السادسة سنة ١٨٦٦ صفحة ١٩٧ . على أن اسم (خوريام) لا يرد في كتب مؤرخي الفرس وقد حدثني المستر (بلاطس) أن اسم هذا الملك في كتب تاريخ الفرس هو (كراز) وهو الخنزير أو (شهربرز) أو (شهريار) .

(١) جاء ذكر العداوة القطيعة التي يحملها اليهود للمسيحيين في كتاب (قيلدرينوس) وهو يروي أن في السنة الأخيرة من حكم (فوكاس) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية فأرسل إليهم (فوكاس) قائده (بونوسوس) فأنزل بهم إنتقاماً وبيلاً تحدوه قسوة تقشعر من وصفها الأبدان (أنظر ما سبق ذكره في الفصل الثاني صفحة ٦١) . ولا شك أن يهود أنطاكية ساعدوا الفرس في السنة التي تلي ذلك . وكذلك فعلوا في بيت المقدس (أنظر « Corp. Hist. Bizant. Script » الجزء السابع صفحة ٧٠٨) . وانظر المقريزي « ترجمة ملان » صفحة ٦٨ . ولما جاء شاهين أو (ساين) في سنة ٦١٠ إلى قيصرية في إقليم (قبادوقية) نزح المسيحيون هاربين ولكن اليهود استسلموا وخضعوا للفرس ، ويتفق مع ذلك ما جاء في (سبيوس) من الأدلة وهو يذكر الأمر ذكراً صريحاً فيقول : « خضعت كل بلاد فلسطين في ذلك الوقت لحكم ملك الفرس خضوعاً طائعاً . وثار الباقون من أبناء العبرانيين بالمسيحيين ودفعهم حقدهم الموروث إلى أن ينكلوا بالمؤمنين تنكيلاً عظيماً ثم لحقوا بالفرس ونبتت بينهم مودة وثيقة » . وإذا شئنا أن نجد فوق هذا براهين أخرى على كراهة اليهود للمسيحيين كراهة لا هوادة فيها فلنرجع إلى كتاب (زكريا المتليني) ففيه وصف لما أتاه ملوك الحميريين في بلاد العرب من المنكرات في رعاياهم المسيحيين وكان هؤلاء الملوك يهوداً (أنظر ترجمة هملتون ويروكس صفحة ٢٠٠ وما بعدها) .

شهور قليلة بعد ذلك حتى وثب المسيحيون بالفرس فقتلوا قادتهم وملكوا الأمر على الجنود المرابطة وأغلقوا أبواب المدينة ، وعند ذلك جاء (شاه ـ ورز) وحاصرهم ثم ساعده اليهود على هدم الأسوار فاستطاع جنوده أن يدخلوا المدينة في اليوم التاسع عشر من مجيئه . وكان دخولهم من نقب أحدثوه في الأسوار ، وأخذوا المدينة[1] عنوة ، وأعقب ذلك مشاهد مروعة من التقتيل والنهب والتدمير ، وكانت الضحايا عظيمة ، وأقرب ما قيل فيها إلى الإفهام قول (سبيوس) و (توماس الأرظروني) إذ قالا إن عدد القتلى بلغ ٥٧,٠٠٠ وعدد الأسرى ٣٥,٠٠٠ ؛ على أن مؤرخي بيزنطة يقولون إن عدد من هلكوا كان ٩٠,٠٠٠ وهو تقدير غير دقيق[2] ، فقول كتاب الأرمن أقرب إلى الحقيقة . على أنه من الثابت أن القتلى كان بينهم آلاف كثيرة من الرهبان والقديسين والراهبات . وبعد أن قضى الفرس في المدينة واحداً وعشرين يوماً في القتل والنهب خرجوا من المدينة وأوقدوا فيها النيران فخربت بذلك أو جردت مما بها كنيسة القبر المقدس وسواها من البيع العظمى التي بناها قسطنطين[3] . أما الصليب المقدس وكان قد دفن في الأرض بغطائه الذهبي ذي الجواهر[4] فأخرج منها وقد عرف مكانه بالتعذيب[5] وأخذ هو وشيء لا حصر له من الآنية المقدس من الذهب والفضة وجعل كله غنيمة . وأسر عدد عظيم من الناس كان

---

(١) جاء هذا الخبر في كتاب (سبيوس) ونظن أنه هو الذي أورده وحده دون كل المؤلفين .

(٢) يتفق في إيراد هذا العدد المؤرخون (تيوفانيس) و (قيدرينوس) و (زوناراس) ونجده كذلك في كتاب « Tarikh Regum Persiae » صفحة ١٥٥ وهو عدد يتفق مع ما أورده (سبيوس) إذا أضفنا عدد من قتل إلى من أسر ولكن جاء في نسخة مخطوطة من كتاب (سبيوس) أن عدد القتلى ١٧,٠٠٠ .

(٣) إذا أردت أن ترى وصفاً لهذه الأبنية البديعة فانظر كتاب (Pal. Pil. Text Society) الجزء الأول وانظر قصائد (غزل صفرونيوس) في كتاب (ميني) (Part. Gr.) الجزء الأول صفحة ٨٧ (٣) .

(٤) تاريخ الفرس لملكولم الجزء الأول صفحة ١٥٧ .

(٥) دفن الصليب في حديقة وزرعت عليه الخضر .

من بينهم البطريق (زكرياس). فأما صندوق الصليب المقدس والبطريق فأرسلا هديتين إلى مارية زوج كسرى ، وأما سائر الأسرى فإذا نحن صدقنا ما رواه (فيدرينوس) فقد اشترى اليهود كثيراً منهم ليمتعوا أنفسهم بتقتيلهم . وقد قال كاتب (ديوان بسكال) وفي قوله رنة الأسى : « إن كل هذا لم يحدث في سنة ولا في شهر بل في بضعة أيام » وكان تاريخ هذا على سبيل البت في شهر مايو سنة ٦١٥[١] .

من هذا نعرف أن المدينة المقدسة قد نزلت بها كوارث السيف والنار ومن لم يدركه القتل والأسر من أهلها هرب لائذاً إلى الجنوب في القرى المسيحية

(١) يقول (تيوفانيس) إن السنة الخامسة من حكم هرقل هي ٦١٠٦ للخليقة وهذه السنة من الخليقة هي سنة ٦١٥ للهجرة ويدل على هذا أن سنة ٦١١٣ للخليقة هي السنة التي قام فيها هرقل بغزوته وهي سنة هجرة النبي محمد (أي سنة ٦٢٢) (ويقول سبيوس إنها سنة ٢٥ لحكم كسرى ، والنصف الأخير من تلك السنة يقع في النصف الأول من عام ٦١٥ . وأما تاريخ اليوم فقد اختلط الأمر فيه على كتاب الأرمن فيقول (توما الأرظروني) إن فتح المدينة كان بعد الفصح بعشرة أيام في الثامن والعشرين من (مرجاتس) ويقول (دولورييه) في كتاب «Chron. Armen» صفحة ٢٢ - ٣ إن التاريخين لا يتفقان فإنه في سنة ٦١٤ وهي السنة التي يقول (دولورييه) إن بيت المقدس فتح فيها قد وقع عيد الفصح في ٣١ مارس فيكون بعد ذلك بعشرة أيام اليوم العاشر من إبريل . في حين أن الثامن والعشرين من (مرجاتس) هو يوم ٢٦ مايو ويتفق ما جاء في كتاب سبيوس مع ما جاء في كتاب (توما الأرظروني) ولكنه يجعل اليوم العاشر بعد عيد الفصح يقع في ٢٧ (مرجاتس) ويقول المستر (Conybeare) إن ذلك يوافق اليوم العشرين من مايو ولكن عيد الفصح من عام ٦١٥ يقع في يوم ٢٠ أبريل ، فإذا فرضنا أن عدد ١٠ في النسخة الخطية هو تحريف ٣٠ كان لدينا إتفاق على يوم ٢٠ مايو . وفوق ذلك قد جاء في (ديوان بسكال) أن فتح المدينة كان قرب شهر يونيه وهذا فيه الفصل في الخلاف الواقع بين مؤرخي الأرمن ، ولكن يجب أن نلاحظ أن (ديوان بسكال) يجعل فتح المدينة في السنة الرابعة من حكم هرقل وعلى ذلك فإن (فيدرينوس) و (ساويرس) يتفقان معه على أن تاريخ فتحها سنة ٦١٤ ، وليس من السهل علينا ألا نأخذ بتاريخ (ديوان بسكال) ولكنا في هذا الموضع مضطرون إلى عدم الأخذ به لرجحان الأدلة ضده .

من بلاد العرب[1] . وكانت تلك القرى جماعات وادعة فعكر صفوها ما بلغها من صدى الدعوة الجديدة دعوة نبي الإسلام . ولعل ذلك الحادث من إنتصار الفرس أهل الأوثان في بيت المقدس هو الذي نزلت بمناسبته الآية الشهيرة « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين »[2] ولكن الملجأ الأكبر للهاربين المشتتين من المسيحيين كان القطر المصري ولا سيما الإسكندرية وكان عدد سكانها قد تزايد بمن كان يرد إليها من اللاجئين الذين كانوا لا ينقطع سيلهم منذ ابتدأت غزوة الفرس في بلاد الشام .

وقد كان كرم (حنا الرحوم) وما عنده من المال لا يكفيان لسد الحاجة الشديدة التي عمت البلد قبل أن يأتي إليها وفود اللاجئين من بيت المقدس ، فما بالك بالحال وقد جاءت إليها تلك الوفود . ثم زاد البلاء اشتداداً إذ كان فيض النيل في ذلك الصيف فيضاً ضعيفاً مخطراً ، وكانت عقباه مجاعة[3] جرت على البلاد كلها ذيل الخراب . على أن الهبات كانت لا ينقطع مددها عن الكنيسة ، وقلما جاء قاصداً إلى (حنا الرحوم) إلا وجد عنده تحقيق أمله « كما تلجأ السفينة إلى المرفأ الذي لا موج فيه » . فكان ذلك البطريق الطاهر يطعم الطعام للفقراء ، وفوق ذلك بنى الملاجىء والمستشفيات للمرضى والجرحى ولم ترضَ نفسه أن يعنف الأغنياء إذا هم بلغت بهم ضعة النفس أن يستفيدوا من إحسانه . ولكن هذا البذل لا يمكن أن يدوم . فلما اشتد القحط وجد حنا خزائنه قد أخذت تخوي . وفيما كان في شدة من أمره أصابته فتنة شديدة ، وذلك أن أحد الناس أتى إليه وكان قد تزوج مرتين ، ولهذا كان غير صالح أن يدخل بين رجال الدين[4] . وقد أتى إليه بمقدار عظيم من المال وشيء كثير من

---

(١) نجد وصف هذه الطوائف في كتاب (ريت) ، (Chris. in Arabia)

(٢) نقلناها نحن من سورة الروم ولكن المؤلف أخذها من النص الإنجليزي لترجمة القرآن وبه حواش من (Sale) . (المعرب) .

(٣) ليونتيوس في كتاب ميني (Pat. Gr.) الجزء ٩٣ مجموعة ١٦٢٥ .

(٤) أنظر كتاب المسز ا . ل . بوتشر (Story of The Church in Eg.) الجزء الأول صفحة ٣٤٥ .

القمح مهراً لكي يبيح له الدخول في زمرة رجال الدين ، وكان حنا لم يبق لديه إلا كيلان من القمح في خزائنه ، فتردد في أمره ولكنه لم يتردد طويلاً ثم أبى أن يقبل الهبة . فجوزي على ذلك بأن أتته بعد قليل أنباء بأن سفينتين من سفن الكنيسة تحملان مقداراً كبيراً من القمح آتيتان عند رأس فاروس مقبلتين من صقلية ، وما عتمتا أن صارتا في المرفأ .

ولكن بر البطريق لم يكن مقصوراً على مصر ولم يكن معناه إطعام الجائعين وحدهم ، فإنه ما كادت المدينة المقدسة تنهب وتدمر حتى أتى راهب اسمه (مودستوس) ، كان قد نجا من القتل ، فقطع أرض فلسطين ذاهباً إلى مصر في طلب المعونة على إعادة بناء الكنائس المخربة . وقد نجح في سعيه وعاد إلى بيت المقدس ومعه مقدار كبير من المال ، فوجد أن اليهود قد خسروا حباء الفرس وتعضيدهم ، وكان الفرس قد بذلوهما في أول الأمر ثمناً لما قدموه من المساعدة ، وصار المسيحيون بعد ذلك في مكان الحظوة عند الفرس . فجعل (مودستوس) على رئاسة جماعة المسيحيين في الحكم الدنيوي والديني ، وأبيح له أن يعيد بناء الكنائس . وأرسل كسرى ـ كما جاء في (سبيوس) ـ أوامر خاصة يأمر بالإحسان إلى الأسرى ، وأن يعيدوهم إلى حيث يستقرون ، وأن يرجعوا بناء بيوت الدولة ثم أجاز طرد اليهود فتسابق الناس إلى إنفاذ أمره .

ويذكر لنا المؤرخ نفسه نص خطاب أرسله (مودستوس) إلى (كومتاس) (رئيس الدين في أرمينيا) بعد أن تم العمل في الكنائس ، وفيه يقول « لقد جعل الله أعداءنا أصدقاء وأنزل الرحمة والرضوان في قلوب غزاتنا، على حين أن اليهود الذين اجترأوا على معاداة هذه الأماكن الشريفة وإحراقها قد شردهم الله من البلد المقدس ، وقدر عليهم ألا ينزلوا به ولا يروه ، وقد أرجعت فيه بيوت العبادة إلى سابق عزها ومجدها » . ثم جاء فيه بعد ذلك « لقد عادت كل كنائس بيت المقدس إلى سابق سيرتها تصلي فيها القسوس ويسود السلام على مدينة الله وما حولها » .

وليس بأقلّ غرابة من هذا ما رواه الكاتب نفسه عن مجمع عقدة المسيحيون وأوحى به كسرى ، ولا تزال هذه القصة محفوظة بين طيات خطاب كان أرسله الجاثليق الأرمني ومطارنته رداً على رسالة جاءتهم من قسطنطين خليفة هرقل . وقد جاء في هذا الخطاب أن الملك الأعظم أمر مطارنة الشرق وأشور أن يجتمعوا في بلاطه وقال لهم « لقد سمعت أن في المسيحيين فرقتين تلعن إحداهما الأخرى ، فمن يدرينا أيهما على الحق ؟ فليأتوا جميعاً إلى مجلس واحد فليأخذوا بالحق وليذروا الباطل » . وقد جعل الطبيب الأكبر للملك ورجلاً آخر اسمه (سمباط البجرتوني) عميدين لهذا الإجتماع وكان بين مَن جاءوا إليه من الخواص (زكرياس) بطريق بيت المقدس كما جاء سواه من « رجال حكماء كانوا فيمن أخذ أسيراً من الإسكندرية » وكان ذلك المجمع أولاً كثير الصخب والإضطراب ، فاضطر الملك أن يخرج منه أتباع كل الفرق التي لا تدين للمذاهب التي أقرها أحد المجامع السابقة ، وهي مجمع (نيقة) و (القسطنطينية) و (أفيسوس) و (خلقيدونية) . ثم أمر الملك المجتمعين من رجال الدين أن يفحصوا ما تقرر في هذه المجامع وأن يرسلوا إليه بما يرون في ذلك ، فجاءت إلى الملك كتب عدة يبسط فيها أصحابها مختلف الآراء ، وجعل هو يفكر فيها ويزنها في عقله ، ثم جعل يسائل فيها (زكرياس) وأهل الدين الإسكندريين ، وكانوا يقسمون له أن يقولوا الصدق . فأجمعوا على أن الدين الحق هو ما أقرته مجامع (نيقة) و (القسطنطينية) و (أفيسوس) ، وتبرأوا من مجمع (خلقيدونية) ، وعلى ذلك حكمهم (للمنوفيسيين) . ومذ سمع الملك هذا أمر أن يبحث في خزائنه ومكاتبه عن الصحيفة التي كان مذهب (نيقة) مدوناً بها فوجدوها ورأوا أنها وفق عقيدة الأرمن ، فأمر كسرى « أن يؤمن المسيحيون في دولته جميعاً بما آمن به الأرمن » . وكان ممن رضي عن ذلك « الملكة شيرين التي تحب الله ، وسمباط الباسل ، وكبير أطباء الملك » . وختمت الصحيفة التي كتب فيها المذهب الصحيح كما أقره المجلس بخاتم الملك الأعظم وجعلت في (ديوان السجلات) بالدولة .

وليس لدينا ما هو أكبر دلالة على ما كان عليه كسرى في معاملته

للمسيحيين من هذه الرواية التي بقيت محفوظة للتاريخ في ثنايا خطاب المطارنة الأرمن ، وإنا لنلمح الصدق في لهجة الخطاب ، وليس بنا ما يدعو إلى الشك في صحته . وكانت كتابته حوالي سنة ٦٣٨ أي بعد نحو عشرين سنة من المجمع الذي جاء ذكره فيه ، ذلك المجمع الذي انعقد عقده بعد زمن قصير من فتح الفرس بيت المقدس . وهذا الخطاب يصور لنا الملك الأعظم في صورة غير التي ألف الناس رؤيتها ، فلم يكن الملك الوثني المتعصب يضطهد أصحاب الصليب ويقاتلهم ، بل كان على غير ذلك يبيح للمسيحيين حقهم في اعتقادهم ، ويبدي غيرة وإقبالاً عجيبين على فهم عقائدهم ، ويعجب أشد العجب من خلافهم وتطاحنهم وتنابذهم وهو ما لا يتفق مع روح دينهم ، ويظهر الحرص على إزالة ما بينهم من الشقاق والخلاف . ولا ندري أكان ذلك من حدب على ما فيه صلاح أمرهم أم كان الباعث عليه حرصاً على الكياسة في تصريف أمور الدولة . فكان يجلس معهم وهم يتناظرون ويسائلهم فيما هم فيه ويتدبر ما يجيبونه به . فلما أن استقر رأيه على قرار وحكم حكمه قيل إنه توعد بعض المطارنة أن يضرب أعناقهم ويهدم بيعهم إذا هم عصوا ما أمر به . على أن القصة تدل في مجملها على هوادة ورفق يقربان من العطف على المسيحية ، وهو ميل بدا منه من قبل عندما أمر أن يعيد المشردين من المسيحيين إلى بيت المقدس والإذن لهم بإعادة بناء ما تهدم من معابدهم . وقد جاء في كتاب (حنا النقيوسي)[1] أن أبا (هرمزداس) وهو (أنوشروان) الكبير بقي مدة يضمر الإيمان بالدين المسيحي ثم عمده أحد المطارنة . ولسنا ندري ما مبلغ هذا من الحق ، ولكن أثر نساء الملوك من المسيحيات وأثر الأطباء والفلاسفة في بلاط هؤلاء الملوك ، جعل في قلوبهم عطفاً على المسيحية وجعلهم يعرفون عنها من العلم شيئاً كثيراً[2] . وفي الحق إن عجبنا من أن الفرس كانوا في حكمهم على مثل هذا الرفق لا يحيدون عنه في معاملة الكنيسة المسيحية أشد من عجبنا من

---

(١) صفحة ٥٢٦ .

(٢) أنظر ما سبق لنا قوله في صفحة ٩٦ هامش ٣ ونقول إنه قد جاء في الطبري (لناشره دي =

سورة البطش التي كانت توقع بتلك الكنيسة في بعض الأحايين .

وخلاصة القول إن (حنا الرحوم) مطران الإسكندرية بذل في سبيل إعادة الكنائس في بيت المقدس إلى سابق عهدها ما يقال إنه بلغ ألف عدل من القمح والخضر وألف بغل وألف سفينة من السمك وألف خابية من الخمر وألف رطل من الحديد وألف صانع[1] . وقد كتب حنا إلى (مودستوس) في خطاب له : « أعتذر إليك أني لا أستطيع أن أرسل شيئاً جديراً بكنائس المسيح . وما كان أحب إلى أن أجيء فأعمل بيدي في بناء كنيسة القيامة »[2] . ويروي عنه أيضاً أنه بعث مرة عيراً تحمل من الذهب والقمح والثياب وما إلى ذلك مع رجل اسمه (كريسيبوس) وقد تكون هذه رواية أخرى للقصة السابقة عينها . ويروي أنه أرسل (تيودور) مطران (أماتوس في قبرص) و (جريجوري) مطران العريش (رينوقولورا)[3] و (أنستاسيوس) رئيس دير الجبل الأكبر دير (القديس

= غويه الجزء الأول صفحة ١٠٠٠) أن كسرى بعد أن ولي الملك بمدة يسيرة أمر المسيحيين في بلاده أن يعيدوا كنائسهم وأن ينصروا المجوس إذا استطاعوا مدعياً (أن أنو شروان) أمر بمثل ذلك من قبل بناء على عقد اصطلح مع قيصر عليه . ويقول اليعقوبي (لناشره هوتما الجزء الأول صفحة ١٩٤) إن كسرى عندما انتصر في أول أمره وأرسل أنباء ذلك إلى (موريق) أرسل إليه الأمبراطور ثوباً به زخرف من الصلبان فلبسه وقد أخذ عليه الناس ذلك . ثم أمر بإعظام المسيحيين وأقامهم في أعلى المناصب وقال إنه قد صالح ملك الروم على عقد لم يسبق لملك أن يعقد مثله .

(١) سعيد بن بطريق في كتاب ميني « Pat. Gr. » (الجزء ١١١ المجموعة ١٠٨٢ وما بعدها) ولا شك أن ابن بطريق مخطىء في زعمه أن هذه الحوادث وقعت قبل السنة السادسة من حكم (فوكاس) فإنها في حكم هرقل كما جاء في (قيدرينوس) و (تيوفانس) وجاء ما يقرب من ذلك في كتاب (ليونيتوس) عن عطاء حنا وأضاف إليه ألف قطعة من الذهب وذكر « سلوكا من السمك » بدل قوله السمك المملح في القدور .

(٢) قد وصف زكريا فتح الفرس ونجد وصفه مذكوراً في كتاب ميني (الجزء ٨٦ المجموعة ٣٢١٩ وما يليها) وقد نقلت عنه ، وكان زكرياس بطريقاً لبيت المقدس من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٦٢٨ أو سنة ٦٢٩ وأسره الفرس .

(٣) كانت (رينوقولورا) مدينة على حدود مصر من جهة فلسطين ويقول ديودور الصقلي إن =

أنطون)[1] وأرسل معهم مالاً كثيراً وتقدم إليهم أن يفدوا به من استطاعوا فداءه من الأسرى . وكان هذا في النصف الثاني من سنة ٦١٥ .

= اسمها مشتق من قصة ، وذلك أنه كان في مصر ملك اسمه (أرتيسانـز) وكان يتخـذها منفى للمجرمين الذين كانت تقطع أنوفهم أو تجدع ، وقد سميت المدينة في مدة العرب بالعريش ، أنظر (مذكرات كاترمير الجـزء الأول صفحة ٥٣) « Rec. de l'Eg » الجـزء الثاني صفحة ١٠ و ١١ و ٢٠ وأما (شمبوليون) فإنه لا يقبل هذا الاشتقاق الذي جاء به ديودور ، وقد كان جدع الأنوف عقاباً معروفاً في القانون اليوناني الروماني في ذلك الوقت (انظر كتاب جبون لناشره بوري الجزء الخامس صفحة ٥٢٩) ويقول (سبيوس) : إن هـرقل أوقــع تلك العقوبـة بمن اشترك في مؤامـرة (أثالاريـك) بعد رجـوعـه من بيت المقدس .

(١) قد يكون الدير المقصود هنا هو الدير المعروف على ساحل البحر الأحمر ، كما يدل على ذلك وصفه ، وقد يكون ديراً آخر بالاسم نفسه في جبل بقرب قفط ، وهي مـدينة على النيل بقرب قنا (انظر كتاب أبي صالح « كنائس مصـر ودياراتهـا » صفحة ١٥٩ ـ ١٦٢ وصفحة ٢٨٠) وقد ذكر شارب هذا الدير (دير القديس أنطونيوس) في كتابه « Hist. of Eg. » (الجزء الثاني صفحة ٣٦٨) ويقول إنه في العاصمة ولكن يلوح لنا أن هذا زعم لا أساس له .

الفصل السابع

فتح الفرس لمصر

إتحاد كنيسة مصر القبطية وكنيسة الشام ـ سير الفرس إلى مصر ـ فتح حصن (بابليون) و (نقيوس) وحصار الإسكندرية ـ هرب (نيقتاس) و (حنا الرحوم) ـ موت حنا ـ خيانة طالب ومما لأته على فتح المدينة وهو بطرس البحريني ـ موت (أندرونيكوس) ـ حال القبط مع الفاتحين ـ تفنيد المزاعم السائرة بين الناس ـ قصة (ببزنتيوس) ومعاملة القبط ـ معاملة الاسكندرية ـ حصن الفرس .

في الوقت الذي كانت فيه العير التي أرسلها حنا الرحوم تقطع الصحراء آتية من مصر إلى بيت المقدس في أول خريف سنة ٦١٥ ، أتى إلى (أنستاسيوس) بطريق القبط ضيف نزل عليه وهو (أنستاسيوس) بطريق أنطاكية ، وكان قد اعتزل عند غزوة الفرس . وكان لقاؤهما كما ذكرنا آنفاً في دير (الهانطون) على الساحل إلى غرب الإسكندرية . ولعل بطريق أنطاكية كان يصحبه مطران أو اثنان من مطارنة الشام وكان قد حل في الدير من قبل مطارنة آخرون أمثال (توما الهركلي) و (بولص التّلوي) وكانوا دائبين في عملهم العظيم ألا وهو مراجعة ترجمة الإنجيل السوريانية ومقابلتها على النص اليوناني ، وكان سواهم في مصر مثيرون جاءوا إليها لائذين ، فإنه « قد هرب كل من استطاع الهروب إذ كان الفرس يفسدون في الشام خوفاً أن يدركهم شرهم ، وكان فيهم ناس علمانيون من كل الطبقات وقسوس من جميع الدرجات

ومعهم مطارنتهم ، جاءوا كلهم إلى الإسكندرية يحتمون بها »[1] . فكان على ذلك من المحتمل أن تصدق الأقوال الشائعة عن وجود خمسة من المطارنة مع البطريقين عند إجتماعهما . وقد كان من أثر هذا الإجتماع إتحاد الكنيستين الشامية والقبطية . ولم يبق (أنستاسيوس) في مصر إلا شهراً واحداً ، ثم عاد إلى الشام وشهد فيها أول عهد التسامح العجيب الذي كان على ما يظهر يحل سريعاً في إثر غزاة الفرس عقب القتال الأول العنيف الذي كانت الدماء تسيل فيه غزاراً ، إذ كان الفرس في حربهم غلاظ القلوب ما دام السيف في أيديهم ، وكانت غلظتهم وحشية لا يبررها عقل ولا تدعو إليها حاجة ، حتى كان يخيل إلى الناس أن جندهم لا يمل من سفك الدم . فإذا ما ساد السلام وعاد الأمن صار حكمهم عادلاً وديعاً على غير توقع . كانوا على ذلك في بلاد العرب وفي الشام وفلسطين ، وكانوا على ذلك أيضاً في مصر كما تشهد حوادثها بعد حين .

استغرق فتح الشام سنين ستة ، وكان فتح بيت المقدس آخر ما كان عليهم القيام به هناك ، لم يبق بعده إلا قليل من الأمور . فلما اقترب خريف سنة ٦١٦ كان الاستعداد قد تم لغزو مصر . ويظهر أن القائد لم يكن (خوريام) وهو (شاه ـ ورز) ، بل كان قائداً آخر اسمه (شاهين)[2] . سار شاهين على

(١) كتاب جلزر (Leontios Von Neapolis) الجزء الثاني صفحة ١١٢ .

(٢) جاء في (الديوان الشرقي) والمقريزي أن كسرى نفسه هو الذي غزا مصر ، ولكن لعل هذا القول لم تتحر فيه الدقة . وجاء في قصة أخرى أن اسم القائد (ساين) أو (سايس) وهو شاهين ، ولعل هذا هو الحق وأنه لم يكن (خوريام) كما جاء في قول سعيد بن بطريق . وليس في التاريخ ما يدل على أن كسرى ترك قصره ومتاعه وذهب إلى مشقات القتال في حرب مصر أو الشام ، ومن الطبيعي أن يقال إن خوريام سار من فلسطين إلى مصر ، ولكن الطبري عمدة في مثل هذه الأمور وهو يقول إن (روميوزان) وهو (خوريام) كان القائد الذي فتح بيت المقدس وإن قائداً آخر اسمه شاهين أمر بالسير إلى مصر وبلاد النوبة وأرسل مفاتيح الإسكندرية إلى كسرى ، وأن قائداً ثالثاً وهو (فرّوهان) أرسل إلى القسطنطينية. ويدل على أن شاهين كان هو القائد ما جاء في أوراق البردى الفارسية في مجموعة (رينر) ، انظر كتاب (قراباسك) « Fuhrer durch die Ausstellung » صفحة ١١٣ .

محجة الحرب وطريقها الواضح ، وهي الطريق التي سار فيها قمبيزو (أنطيوخس أبيفانس) والإسكندر الأكبر ، والتي كان مقدّراً عليها أن تشهد سير عمرو بعد سنوات قليلة وهو يقود جيوش العرب .

كان أول تلك الطريق عند العريش (رينو قولورا) وكانت تتبع ساحل البحر إلى الفرما ومنها إلى ممفيس ، ثم تبلغ مفترق الفرعين عند رأس مصر السفلى . ومن (ممفيس) كانت تصل إلى (نقيوس) متبعة فرع النيل الغربي ، ومن هناك تسير إلى الإسكندرية . ولم يكن لدى أهل وادي النيل رغبة في قتال شديد ولا قدرة عليه ولهذا لا نجد ذكراً لوقعة ذات شأن ولا لسعي شديد في سبيل الدفاع عن البلاد .

ويصف مؤرّخو اليونان كل هذه الحرب في كلمة قصيرة ، إذ يقولون : « جاء الفرس فأخذوا مصر كلها والإسكندرية وليبيا إلى حدود أثيوبيا ، ثم عادوا ومعهم عدد عظيم من الأسرى وغنائم جليلة المقدار »[١] . ويزيد المؤرّخون المصريون على تلك القصة شيئاً يسيراً لا يشفي غلة ، على أننا نعرف منهم أنه قد فتحت الفرما بغير كبير عناء ، وأن الفرس خربوا من كنائسها الكثيرة وأديرتها[٢] . ولا يرد ذكر لإخضاع حصن بابليون بقرب ممفيس ولنا أن نقول إنه كان غير محصن ولم تكن فيه حاميات من الجنود تدفع عنه ـ ولو أن الفرس كانوا بلا شك أهل السبق والتبريز في فنون الحصار وحروبه ـ وكذلك نعرف منهم أن جيش الفرس سار في البر بعد فتح (ممفيس) يساعده أسطول عظيم في نهر النيل وسار متبعاً الشاطىء الشرقي من الفرع الأكبر الغربي ، ومر بمدينة (نقيوس) في طريقه إلى الإسكندرية[٣] .

---

(١) تيوفانس وقيدرنيوس .

(٢) أبو صالح صفحة ١٦٨ ونسخة خطية لساويرس في المتحف البريطاني صفحة ١٠١ وقد أشير إلى ذلك في هامش تلك الصفحة .

(٣) قد جاء أن فتح بابليون وفتح (نقيوس) كان قبل فتح الإسكندرية فيما ذكر الراهب القبرصي حنا وكان في حجه في بلاد مصر وكلماته هي : « وكنت في الإسكندرية عندما =

وأما فتح الإسكندرية فقد بقي وصف شائق له[1] . يقول كاتبه إن تلك المدينة العظمى « بناها الإسكندر كما أوصاه أستاذه أرسطو فجعل لها سوراً وأجرى وراء الأسوار مياه النيل وجعل لها أبواباً قوية » ، وقد ظل الحصار زمناً ولم يستطع الفرس أن يدخلوا ذلك المعقل المنيع مع ما كانوا عليه من بصر بأمور الحصار . والحق أن حصونها كانت قوية لا يكاد عدوّ يجد فيها مطمعاً وكان ذلك الحصار في عام ٦١٧ أي بعد آخر غزوة غزاها الفرس مصر بنحو ١١٧ عاماً . وقد استطاع الفرس في تلك الغزوة السابقة أن يفتحوا مصر السفلى وغمر أتيّهم أرضها جميعاً ، ولكنه ارتد عاجزاً عند أسوار الإسكندرية[2] . وقد قامت هذه الأسوار نفسها منذ ثمان حجج ماثلة بين يدي جيوش (بونوسوس) فارتدت عنها تلك الكتائب المستميتة وهي خاسئة كأنما هي أمواج البحر ترتطم بصخور الساحل . وقد أراد الله أن تقوم تلك الأسوار مرة أخرى بعد ربع قرن وهي راسية قوية تحاد جيوش العرب حتى استطالت بها مدّة الحصار . فمن الواضح على ذلك أن تلك الأسوار كانت في الوقت الذي نصفه هنا لا تزال على عهدها خطأ عظيماً من الحصون والآطام ذات بأس ومنعة . ولو أتيح لها جند عاهدوا أنفسهم على الدفاع يداً واحدة لكان في استطاعتها أن تثبت حتى يكل المحاصرون وتنفد قوّتهم ولاستطاع جندها عند ذلك أن يسحقوهم وقد أنهكت قواهم ، أو أن يرغموهم على رفع الحصار وترك المدينة ، ولا سيما وقد كان البحر من ورائها تأتي منه الأمداد تترى إليها ، إذ كان الروم لا يزالون سادة البحر إلى ذلك الحين .

= دخل الفرس إلى مصر وامتد ملكهم إلى نقيوس وبابليون في مدة احتلالهم لمصر »*[12] وهو يصف « الضجة والإضطراب من غزوة الفرس »*[13] في الإسكندرية إذ هو عائد إلى بلاده وقد اقتبس جلزر ذلك في كتابه « Leontios Von Neapolis » صفحة ١٥٢ .

(١) انظر الديوان الشامي (نشرة جويدي وترجمة ت . نولدكه) . وقد اقتبس منه جلزر .

(٢) حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد في أيام الإمبراطور (أنستاسيوس) إذ أحرق الفرس ضواحي الإسكندرية ولكنهم لم يستطيعوا شيئاً فوق هذا .

ولكن أنى لها ذلك وقد بعد عهدها بإجتماع الشمل وتوحيد الكلمة وصار أهلها أخلاطاً مضطربة من قبط وروم وسوريين ويهود ، وجماعة من طلاب العلم ، وآخرين من اللاجئين أتوا إليها من كل أنحاء الدولة . فكان القبط والسوريون يكرهون الروم وكان اليهود يمقتون أتباع المسيح مقتاً لا يسله من قلوبهم الخطر الداهم عليهم جميعاً ، وكانوا جميعاً لا يدركون أن الواجب عليهم أن يجتمعوا من كل جنس أو طبقة أو مذهب يربطهم رباط الإشتراك في الوطن وهو الوسيلة لا وسيلة غيرها إلى ضم شملهم . ما كانوا ليدركوا معنى لهذا بل كانوا يسخرون منه ، فلم يكن عجيباً مع هذا أن نرى الخيانة تعمل على وقوع المدينة في يد أعدائها .

وكان الفرس في أثناء مدة الحصار يوقعون بما حول المدينة من الريف ولا سيما بما فيه من الأديرة ، يشفون بذلك ما في نفوسهم من الغيظ لفشلهم . وقد جاء في الأخبار أنه كان بأرباض الإسكندرية نحو ستمائة من الأديرة لها آطام على شكل أبراج الحمام[1] ، وكان الرهبان آمنين وراء هذه الحصون واثقين

---

(١) كتاب (ساويرس الأشمونيني) عن نسخة خطية في المتحف البريطاني صفحة ١٠٠ ونسخة في باريس صفحة ٨٧ وتوجد أمثال هذه الآطام في أديرة وادي النطرون إلى الآن ، ولقد كان بجوار الإسكندرية عدد عظيم من الأديرة وذلك لا شك فيه ، وقد جاء في ورقة قبطية قديمة ترجمها (أميلينو) في كتابه (Hist. des mon. de la Basse Eg.) صفحة ٣٤ أن (مقاريوس) يقول إنه قضى ثلاث سنوات في الأديرة التي حول الإسكندرية بين قوم عظام امتلأت قلوبهم بجميع الفضائل يبلغ عددهم الألفين . وكان هذا في القرن الرابع وقد زاد عددهم زيادة عظمى في القرن السابع ، ونجد في سنة ٤٨٥ مثلاً في كتاب (ديوان زكريا المتليني) أنه بعد إعلان الإمبراطور (زينو) لأمره اجتمع ٣٠,٠٠٠ راهب وعشرة مطارنة في كنيسة (الشهيد القديس أوفيميا) خارج أسوار الإسكندرية وهناك عولوا على ألا يدخلوا المدينة خوفاً من اضطراب أهلها ، فأوفدوا المطران (تيودور) في سبعة من المطارنة و ٢٠٠ (أرشمندريت) ليمثلوا بين يدي البطريق بطرس في الكنيسة الكبرى ويخاطبوه فيما يريدون . وهذا الخبر يدل على أن ما جاء في كتاب (ساويرس) له أساس كبير من الحقيقة .

بمناعتها ، فلم يلتفتوا إلى إتخاذ الحيطة وإعداد الأمر لسلامتهم بل دفعهم الإطمئنان إلى الجرأة على معاداة عدوهم جهراً . ولكن جاءت إليهم كتيبة من الغرب[1] حيث كان معسكر الفرس وأحاطت بأسوارهم ، وما أسرع أن دكت حصونها الضعيفة الساذجة . ثم قتل الفرس من فيها من الرجال لم يكد يفلت منهم أحد إلا النزر اليسير ممن دخلوا الجحور والثنايا ، ونهب ما في الأديرة جميعه من مال ومتاع ، وهدمت الكنائس والأبنية أو أحرقت وأصبحت خاوية على عروشها ، وظلت كذلك أطلاله ماثلة إلى زمن طويل بعد فتح العرب مصر .

ولكن ذلك العدو أخذ فيما أخذ من الغنائم الثمينة كنوزاً علمية كانت تملأ مخانب الأديرة . ولسنا نعلم علم اليقين ماذا كان من أمرها ، ولكن لا شك في أن كل تلك المكاتب لم تهلك ، بل بقي بعضها . وأكبر ما حدث أن الدير الكبير دير (الهانطون) لم يصل إليه أذى لبعده عن الإسكندرية ، وأغلب الظن أن ما كان فيه من الكتب والمنسوخات لم يمسه سوء . ويدلنا على أن الدير نجا من الخراب أن البطريق (سيمون) سنة ٦٩٤ للميلاد نشأ منه ثم دفن فيه[2] وكان سيمون هذا سوري المولد معروفاً بضلاعته من علم الفقه المسيحي . ومن هذا نرى أن ذلك الدير بقي على صلته بسوريا وأنه احتفظ بما عرف عنه من شهرة بالعلم ويتردد ذكره في صفحات التاريخ بعد هذه الأيام . وكذلك أفلت من الدمار دير آخر وهو دير (قبريوس) وهو إلى الشمال الشرقي من الإسكندرية على ساحل البحر[3] . ومن هذا نرى أن تخريب الفرس حول المدينة العظمى

---

(١) قد أخذت هذا من (ساويرس) وإن قوله يفيد أحد أمرين إما أن معظم الأديرة كانت إلى الجهة الشرقية من المدينة وهذا لا يتفق مع ما نجده في الكتب الأخرى ، وإما أن جيوش الفرس قد أحاطت بالإسكندرية وهاجمتها من الغرب أو الجنوب الغربي .

(٢) راجع كتاب (فون جوتشمت) (Kleine Schriften) الجزء الثاني صفحة ٥٠١ والدير الذي يسميه (ساويرس) دير الزجاج هو دير (الهانطون) عينه وقد بينا هذا .

(٣) يقول (ساويرس) صراحة في أول ترجمة حياة (بنيامين) إن هذا الدير نجا من تخريب الفرس ويقول (تيوناس) رئيس ذلك الدير في أثناء القصة إنه قد مضى عليه عند ذلك =

كان في حدود ضيقة الرقعة لم يتعدها ، وهو أمر غريب سببه أن الفرس كانوا أثناء الحصار بين أمرين : إما أنهم كانوا في شغل من حصارهم ، وإما أنهم كانوا أقصر همة من أن يبعثوا البعوث بضعة أميال في الصحاري الرملية ليضيقوا على تلك البيوت المنعزلة ومن فيها من الرهبان ، ولا بد أن الأديرة التي دمروها ونهبوها ـ وكانت عدتها كبيرة ـ كانت كلها على مرأى من معسكرهم أو تكاد تكون على مرأى منه .

ولا بد لنا هنا أن نخالف (ساويرس) في رواية رواها عن فتح الإسكندرية ، فقد روى أنه عندما أتت أنباء هدم الأديرة وقتل رهبانها إلى الإسكندرية إستولى الرعب على أهلها ففتحوا أبواب المدينة . وكان (سلار) الفرس أي قائدهم قد رأى فيما يرى النائم أن عظيماً ظهر له ووعده أن يسلم المدينة إلى الفرس ثم تقدم إليه أن يأخذ أهل المدينة بشدة لا لين فيها وألا يغادر من أهلها أحداً ينجو من النكال ، وذلك لأنهم كانوا جميعاً من أهل الكفر والنفاق . فأمر (السلار) أو هو (شاهين) أن يخرج كل من في المدينة من الرجال ذوي القوة ممن كانوا بين الثامنة عشرة من العمر والخمسين ، مظهراً أنه قد أعد لكل منهم قطعتين من الذهب ، فلما خرجوا إليه جميعاً في صعيد واحد أمر بأسمائهم أن تكتب ثم أمر جنده أن يفتكوا بهم ويقتلوهم وكانوا نحو ثمانين ألفاً .

هذه روايته ولا يصدقها عقل . ولندع ما جاء فيها من ذكر الرؤيا وما فيها من تحريض للفرس على جماعة مخالفة من المسيحيين، وإن كنا نستطيع من سياق

= (في عام ٦٢٢) خمسون عاماً في الدير ، وذلك الرجل هو خلاف (تيوناس) وكيل (الهانطون) الذي كتب إليه (صفرونيوس) حوالي سنة ٦٠٥ قصيدة لا تزال باقية . انظر كتاب ميني « Pat. Gr, » الجزء ٨٧ . وجاء في النسخة الخطية التي بالقاهرة من كتاب (ساويرس) أن اسم هذا الدير (قبريوس) في حين أن النسخة الخطية التي في لندن تسميه (قيرنوس) ولا نظن تلك التسمية الأخيرة صحيحة .

القصة أن نرى ميل الكاتب (ساويرس) لمذهب المونوفيسيين وما كان يختلج في قلبه من السرور إذ يفكر في مذبحة تحل بأهل المدينة العظمى وهم من أتباع المذهب الملكاني . ولكن من ناحية أخرى كان الرهبان الذين هلكوا من (المونوفيسيين) وهم القبط . ولذلك كان كل ما كتبه (ساويرس) تظهر منه كراهة شديدة للفرس ومقت لهم . فهذه القصة على ذلك لا يمكن أن نتوسع في دلالتها فنقول إنها تدل على إتفاق أياً كان نوعه بين القبط والفرس . وعلى أي حال فإن الفرس وإن كانوا قساة كانت شريعة الحرب عندهم لا تبيح لهم أن يقتلوا أهل مدينة سلمت إليهم بغير قتال[1] . ولا شك أنه من المضحك ما جاء في تلك القصة من ذكر الوعد الذي وعده القائد بإعطاء المال ، وكذلك كتابة أسماء ثمانين ألفاً من الأسماء تمهيداً للقتل . هذا إذا سلمنا أن أبواب المدينة كان من الممكن أن تفتح بغير عهد يستأمن للناس على حياتهم . إذن فلندع (ساويرس) وروايته ولنرجع إلى الديوان (السوري) ففيه رواية أخرى لفتح المدينة أقرب لأن يسيغها العقل .

نعلم أن الترعة التي كانت تأتي بالماء العذب إلى الإسكندرية وتحمل إليها الأقوات كانت تسير في إلتواء بإزاء السور الجنوبي ، ثم تذهب فجأة إلى الشمال فتدخل إلى المدينة وتشقها حتى تصل إلى البحر ، وكان على كل من منفذيها باب قوى الحصون عليه آلات شديدة من آلات الحرب . فإذا وقع للمدينة حصار قل نقل الأشياء على الترعة إلى ما وراء المدينة أو إمتنع ، وذلك لأنها تكون عندئذ تحت سلطان العدوّ ، أو على الأقل ما كان منها بعيداً عن مرمى المجانيق التي مع المدافعين في الحصون . ولو اتفق وجود شيء في الترعة عند ذلك من السفن التي تحمل الغلال أو سوى ذلك من الزوارق لاستولى عليه المحاصرون . ولكن الباب الذي كان يلي البحر كان مفتوحاً أبداً لكي تدخل منه السفن الآتية بتجارتها من البحر ، ولتدخل منه زوارق صيد السمك الكثيرة التي تأتي كل يوم إلى أسواق المدينة بما تحمل ، وكان ذلك

(١) هذا واضح كل الوضوح من تاريخ (سبيوس) .

الباب على طرف المرفأ وفيه سفن الحرب الرومانية لا يدافعها مدافع ، ولهذا كانت حراسته من غير شك مهملة بعض الإهمال .

فوجد الخائن في هذا الباب فرصته ، إذ تسلل خفية إلى ما وراء الأسوار وذهب إلى فسطاط قائد الفرس فأفضى إليه بخطة يستطيع بها أن يفتح المدينة . فاستحسن القائد رأيه وأتبعه ، فجاء الفرس بعدّة من سفن الصيد وجعلوا فيها الجند في لباس صيادي السمك ، وخرجت بهم السفن في ظلام الليل إلى البحر . فلما كان وقت السحر جاءت تلك السفن الصغيرة حتى صارت عند الباب الشمالي ، ونطق من فيها بشعار القوم فلم يعترض أحد سبيلهم ، ودخلت السفن حتى بلغت القنطرة التي فوق الترعة ، وهي التي يتصل بها الطريق الأعظم في المدينة ، وعند ذلك أخذ القوم سيوفهم وكان الظلام لا يزال سادلاً ستره ، ثم نزلوا إلى البر وساروا في الطريق الأعظم إلى الغرب بغير أن يحدثوا ضجة حتى بلغوا (باب القمر) ، ولم يفطن إليهم أحد بفضل تنكرهم . فلما أن صاروا هناك هبطوا على الحراس فجأة فأخذوهم على غرة وقتلوهم ، وكان كل ذلك في وقت قصير ، فاستطاعوا أن يفتحوا الأبواب الضخمة قبل أن ينذر القوم بهم ، فلما طلع النهار مشرقاً على قصور الإسكندرية ومعابدها كانت جموع (شاهين) تتدفق إليها رافعة ألوية النصر هاتفة باسم كسرى من رءوس الأسوار .

وجاء في (الديوان السورى) بعد ذلك أن من استطاع النجاة من الناس هرب ، وأن خزائن الكنيسة وأموال عظماء الدولة ، كانوا قد جعلوها في السفن حرصاً عليها ، وحذراً من أجلها ، قد هبت ريح عاصفة دفعت السفن بها إلى الساحل على مقربة من عسكر الفرس ، أي إلى غرب المدينة[1] ، فأخذ الفرس

(١) وكانت تسمى على ذلك (كنز الريح) ولكن هذه القصة قد جاءت في كتاب للمؤرخ العربي (ابن قتيبة) (القرن التاسع) عن السفينة التي أودع فيها هرقل آنيته الثمينة وجواهره عندما عزم على ترك القسطنطينية والهجرة إلى قرطاجنة ، فقال إن تلك السفينة ساقتها الرياح إلى الإسكندرية فوقعت في يد الفرس (كتاب المعارف نشره فوستنفلد صفحة ٣٢٩) .

ما بالسفن من الذهب والفضة والجوهر وأرسلوه مع مفاتيح المدينة إلى كسرى . ومن العجيب ألا يرد بالديوان السوري ذكر للمقتلة العظيمة التي ذكرها (ساويرس) . ولكن من أبعد الأشياء أن يكون هذا المؤرّخ المصري مخطئاً كل الخطأ وهو الذي كان يقيم في مصر ويعرف أخبارها . وإن مقتلة كهذه التي يذكرها المؤرخ المصري تتفق كل الإتفاق مع ما اعتاده الفرس في حربهم إذا ما فتحت مدينة عنوة ، لم تسلم عن رضا ولم يستأمن لأهلها بعهد ولا عقد .

على أنه من الظاهر أن المدينة كانت تتوقع أن ينزل بها ما نزل إذ أنذرها به منذر ، ألا وهو اليأس . فقد أخذ من جندها عدد كبير ليدافع عن بلاد أخرى من الدولة أو ليدافع عن بيزنطة ذاتها ، إذ كان الفرس يفتحون أرضاً بعد أرض من بلاد الدولة « ويطأونها كما يطأ الثوار أرض البيدر »[١] فكان هذا سبباً في إضعاف المدافعين عنها إضعافاً جعل المدينة في خطر داهم ، وفوق ذلك كان القمح لا يصل إليها من ريف مصر . حقاً إن أهل الإسكندرية كانوا يطعمون جزءاً صغيراً من القمح الوارد إليها ، ولكن تجارة القمح العظيمة كانت تصدر عن الإسكندرية إلى كل جوانب البحر الأبيض المتوسط ، فكانت التجارة كلها تتدفق إلى خارج المدينة ، فلما انقطع المورد لم يكن من الممكن أن تنقلب الحال ويصبح وارداً ما كان بالأمس صادراً . فلما استطال الزمن على ذلك الحال وقل ما كان في الخزائن بغير أن يأتي مدد من (هرقل) ، كان لا بدّ أن تشتدّ الحاجة بالناس ويوقنوا أنهم لا بد أن يسلموا عندما يفتك بهم الجوع . إذا عرفنا هذا لم يكن بعد عجيباً أن يهرب (نيقتاس) حاكم القطر وهو من نعرف فيه الشجاعة في الحرب والقوّة في العمل والولاء والإخلاص لدولته . وقد هرب (نيقتاس) في سفينة إلى القسطنطينية يصحبه (حنا الرحوم) ، وذلك « عندما كانت الإسكندرية على وشك التسليم للكفرة الفارسيين »[٢] فبلغت السفينة بهما إلى (رودس) ثم مرض البطريق ، ولما أحس بدنوّ أجله سافر إلى قبرص فنزل

---

(١) هذه كلمات (ساويرس) .

(٢) هذه هي الكلمات ذات المعنى التي قالها (ليونتيوس)*(١٤) .

بها ثم مات بعد قليل في الموضع الذي ولد فيه وهو (أماتوس) وذلك في ١١ نوفمبر سنة ٦١٧[١] .

إذن لابد لنا أن نقر أن أهل الإسكندرية كانوا قد ضاع أملهم في النجاة ، وكل ما فعله بطرس طالب العلم الغريب الذي دل على عورتهم هو أنه أسرع بهم إلى القضاء المحتوم الذي كان لا بد نازلاً بمدينتهم ، وأغلب الظن أن ذلك القضاء لم يتقدم إلا زمناً قصيراً . ولسنا نعرف عن ذلك الخائن إلا أنه أتى من إقليم البحرين الواقع في الشمال الشرقي من بلاد العرب ، ولسنا نستطيع الوثوق من دينه أكان مسيحياً أم يهودياً أم وثنياً ، ولسنا ندري أكان له باعث على خيانته لتلك المدينة العظيمة، التي كانت مقر العلم وآوته إلى أحضانها، سوى خوفه الدنيء على حياته وسعيه لتخليصها مهما بذل في سبيل ذلك . ولكنا نعرف أن البحرين كانت تحت حكم فارس ، وأن أهلها كانوا كما وصفهم العارفون خليطاً أكثره من الفرس واليهود[٢] ، وبقيت كذلك إلى ما بعد العصر الذي نصفه الآن . وعلى هذا فإنه من الممكن أن ذلك الطالب قد ذهب إلى خيانته متستراً بستار الإخلاص لدولته . وقد جاء في القصة أن بطرس هذا قرأ يوماً في ديوان سجلات المدينة كتاباً جاء في آخره « إذا ما عصفت الحوادث بالإسكندرية من

---

(١) أنظر كتاب (لبو) « Hist. du Bas Emp. » (الجزء التاسع صفحة ٥٣) ولكن يجب أن نلاحظ أن قصة حنا جعلت في هذا الكتاب بعد فتح الفرس لمصر وعلى ذلك فتاريخها خطأ ، ويظهر أن القبط قد جعلوا (حنا الرحوم) فيما بعد شهيداً كما جعلوه قديساً وهذا رأي (بريدنباخ) وقد زار مصر في القرن الخامس عشر وجيء به إلى موضع في الإسكندرية قيل له إنه موضع استشهاده . انظر كتابه (Descriptio, Terrae Sanctae) صفحة ١٢٢ (الجزء ١٤٨٦)، ولا شك أن منشأ هذه القصة وهم وقع فيه الناس ، فإن حنا مات في ١٢ نوفمبر وهو تاريخ ذكرى موته في الكنيسة الشرقية في حين أن ١١ نوفمبر يوم ذكرى وفاة (ميناس) انظر كتاب جو تشميت (Kleine Schrifte) الجزء الثاني . وتوجد ترجمة قصيدة للبطريق كتبها القس (هـ . ت . ف . دكورث) واسمها (حنا المحسن) .(طبعة بلاكول في أكسفورد سنة ١٩٠١) ويقول : إن جسد حنا الآن في الكنيسة الكبرى في برسبرج.

(٢) أنظر كتاب (دي غويه) (Memoires des Carmathes du Bahrain) (صفحة ٧) .

الباب الغربي الذي من قبل البحر فقد آن أوان سقوطها » ولا شك أن هذه النبوءة قد وضعت بعد هذا الحادث ، ولو أنها تصدق على فتح (نيقتاس) للمدينة في سنة ٦٠٩ ، ولكنها على أي حال لا تكشف لنا عن الباعث الذي دفع الخائن إلى عمله ولا عن ديانته ، بل الذي يمكن أن نعرفه منها هو أن بطرس كان يعرف أنه كان ينفذ قضاء محتوماً على المدينة عندما ذهب إلى الفرس وبايعهم على أن يدلهم على عورتها .

ولعل مفاتيح الإسكندرية قد بعثت إلى كسرى في أول سنة ٦١٨ . أما أهلها فقد قتل منهم كثيرون عند أول فتح المدينة ، ولكن الفرس أبقوا على عدد كبير منهم أخذ بعضهم سبياً وأرسل إلى بلاد الفرس[١] ، وبقي البعض الآخر لم يمسه سوء . وكان بين الذين نجوا بغير أذى البطريق (أندرونيكوس) وقد لقي من الرفق على ما يلوح ، مثل ما لقي (مودستوس) في بيت المقدس ، وكان ذلك عن أمر ملك الفرس نفسه . ولكن أثر المصائب التي شهدها تحل بقومه والخراب الذي نزل بهم في جميع أنحاء أرض مصر لم يزل في قلبه يملؤه حزناً وأسى حتى قضى على حياته[٢] .

قد رأينا أنه قد أبيح للبطريق أندرونيكوس أن يبقى في الإسكندرية مدة ولايته للدين ، وذلك لأنه كانت له عترة ذات بأس ، وكان ابن عمه كبير (مجلس الإسكندرية) عندما وُلِيَ الأمر . وهذا الخبر كبير الدلالة إذ نعلم منه أن بعض القبط كانوا يبلغون المراتب العالية في الدولة حتى في أيام هرقل ، ونعلم منه أيضاً أن الفرس عندما استقر بهم الأمر في البلاد بعد الفتح استخدموا كبار رجال الدولة السابقة التي أزالوها وحلوا محلها ، وسنرى بعد حين أن

(١) يذكر أسرى الإسكندرية خاصة فيمن أطلق سراحه بعد فتح هرقل مدينة دستجرد .

(٢) ترجمة حياة (أندرونيكوس) التي كتبها (ساويرس الأشمونيني) ما هي إلاّ ذكر للمصائب التي أنزلها الفرس عن فتحهم وقد ختمها بقوله : « فقضى البطريق (أندرونيكوس) ست سنوات في ولايته البطرقة لاقى فيها ما لاقى من فظاعة الفرس وشهد فيها هذه الأمور الشنيعة وقاساها بنفسه وتحملها ثم ذهب إلى مقره بعد ذلك » .

العرب ساروا على السنة ذاتها غير حائدين عنها شيئاً . وليس في الإستطاعة من سبيل غير ذلك كلما غزا جيش أجنبي بلاداً لها مدنية تسبق مدنيته ، ويرى واجباً عليه أن يدبر أمورها وهي منظمة تنظيماً حسناً في أوضاع جليلة ذات شعب وفروع . ولا نزاع في أن القبط قد اشتركوا في هذا الأمر وما كان لهم أن يرفضوا ذلك الإشتراك ، إذا أن الرفض حمق لا مبرر له . ولكن ذلك الإشتراك شيء وما يعزوه إليهم الكتاب المحدثون عادة شيء آخر ، فإنهم يعزون إليهم أنهم رحبوا بالفرس ورأوا فيهم رسل الخلاص[1] ، فإن هذه التهمة لا مبرر لها وهي فوق ذلك قلب للحقيقة ومسخ لها .

يجب أن نذكر أن الفرس جاءوا إلى مصر وأيديهم لا تزال ملطخة بما اقترفوه من النهب والقتل زمناً طويلاً ، وكان أكثر ضحاياهم من المسيحيين الذين

---

(١) يظهر أن هذه العبارة مأخوذة من كتاب (شارب) إذ يقول . « مما لا شك فيه أن الجنود التي فتح بها كسرى مصر وملكها بهم كان بعضهم من أهل الشام وبعضهم من العرب وكان هؤلاء يمتون إلى الفلاح المصري بصلات الدم والود ، وهذا هو السبب في ميل البلاد كلها إلى التسليم بعد هزيمة الروم ، ولكن هذا السبب عينه هو الذي أضعف الفرس وسبب لهم خسارة ما فتحوه سريعاً وذلك عندما تمرَّد عليهم العرب» History of Eg. ») الفصل ٢١ صفحة ٣٧) وقد اتبع المستر (ملن) كتاب شارب فذهب إلى تأكيد الأمرين مع فارق واحد فقال : « فملك حكام مصر الجديدون تلك البلاد بغير منازع ، ولا غرابة في ذلك ، إذ كان جيش الفرس مستمداً من الشام وبلاد العرب فلم يلقوا مشقة في حكم مصر ، ولعل الأغنياء في مصر كان بينهم كثير من العرب فرحبوا بأقربائهم في حين أن أسوأ ما حل بالفلاحين هو سادتهم . فلما ثار العرب عندما دعاهم محمد إلى دينه فقد الفرس أكبر عدة لهم في الجيش وسنحت للروم فرصة استرجاع مصر » Eg. under » Rom. Rule » (صفحة ١١٤) فالعبارتان (١) أن أهل مصر رحبوا بالفرس و (٢) أن فتح هرقل لمصر كان سببه خذلان العرب للفرس بدخولهم في الإسلام لا مبرر لهما في نظرنا . فالعبارة الأولى وهم لا حقيقة له والثانية لا يفصلها عن الوهم إلا شيء قليل . وإنه لمما يؤسف له أن يأخذ (ملن) في كتابه القيم بعبارات شارب الغامضة المجملة ، وقد فعلت مسز بوتشر مثل ذلك في كتابها (Story of The Church of Eg.) الجزء الأول صفحة ٣٤٧ .

اتحدوا مع القبط ، وبعيد أن يعطف الفرس في مصر على مثل من قتلوا في الشام ، في حين أن دفاع الإسكندرية ومقاومتها لهم ذلك الزمن الطويل لا بد أن يكون قد أثار حقدهم ولا سيما وقد كان فيها أولئك اللاجئون الذين أتوا إليها من بيت المقدس . فلا شك إذن أن المقتلة كانت لا تمييز فيها لأحد على آخر . غير أن المقريزي[1] يقول إن اليهود اتفقوا مع الفرس كما فعلوا من قبل في فلسطين ، وقد جاء في كتابه أن كسرى وجنوده جاءوا إلى مصر فقتلوا طائفة كبيرة من المسيحيين وأسروا عدداً عظيماً منهم وساعدهم اليهود على إهلاك المسيحيين وتخريب كنائسهم[2] . ونص هذه الرواية مثل سائر النصوص مضطرب بعض الإضطراب، ولما كانت لا تفرق بين حرب الشام وحرب مصر كان لنا أن نقول إن المقصود منها مساعدة اليهود في بيت المقدس وحدها ، على أنه قد كان في مصر عدد كبير من اليهود . وكان لهم حي في الإسكندرية ، ومن الجائز أن يكون اليهود قد انتهزوا في مصر فرصة جديدة ليساعدوا أعداء الصليب . ولكنا نستبعد أن يكون القبط قد أظهروا شيئاً من المودّة للكفار الذين كانت أيديهم ملطخة بدماء إخوانهم في الدين في (أنطاكية) و (بيت المقدس) ، ولعل بطرس البحريني كان يهودياً ولعله كان أداة خطة مكر بها اليهود للكيد لأعدائهم . فإذا كان الأمر كذلك كان عمله في الخيانة أقل دناءة وخسة وكان من السهل على الأفهام إدراكه .

---

(١) لعل المؤلف يشير إلى ما جاء في كتاب الخطط للمقريزي صفحة ٣٩٢ من الجزء الرابع . طبعة المليجي بالقاهرة وهي :

« وفي أيام فوقا (يقصد فوكاس) ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر في طلبهم فقتلوا منهم أمة كبيرة وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل إلخ » ولا يخفى أن قول المقريزي يشير إلى ما فعله اليهود بالشام أكثر من إشارته إلى فعلهم بمصر . (المعرب) .

(٢) ترجمة ملان صفحة ٦٨ .

ولكنا لسنا في حاجة إلى القياس والتخمين لكي نظهر براءة القبط مما عزي إليهم ، فإنه لا شك في أن أكثر من هلك من الرهبان فيما حول الإسكندرية كانوا من القبط . ولو لم يكن لدينا من الأدلة إلا هذه الحقيقة لكانت كافية لدحض إفتراء المفترين على القبط بأنهم رحبوا بالفرس . ولكن ليست هذه الحقيقة كل ما لدينا ، فإنا نعلم أنه بعد فتح الإسكندرية سار قائد جيوش كسرى بجنده صعداً إلى الجنوب بحذاء النيل لكي يفتح الصعيد ، وكانت معاملته للقبط واحدة في كل مكان واحدة : يحل الموت والخراب حيث حل ويقول ساويرس إنه لما بلغ مدينة (بشاتى) وهي (نقيوس)[1] وشي إليه عدوّ من أعداء القبط بالرهبان الذين كانوا يعيشون في مغاور الجبال قائلاً إن عندهم مالاً كثيراً وإنهم أهل فساد وظلم ، ثم قال له إن كثيرين منهم كانوا مجتمعين عند ذلك في الحصن[2] . فأثرت فيه هذه الوشاية فحاصر المكان في الليل بجنوده ولما أصبح الصباح اقتحموه وأوقعوا بمن فيه من المسيحيين فقتلوهم ولم ينج منهم أحد .

ولا شك أن الرهبان الذين قتلوا في ذلك المكان أيضاً كانوا من القبط . وقد حدث في الصعيد مثل ما حدث في (نقيوس) . ولدينا في هذا الموضع رواية رواها من هو أصدق من (ساويرس) وأقرب منه عهداً بتلك الحوادث ، وتكاد كتابته تكون في نفس ذلك العهد الذي يقص علينا نبأه . فقد كان بمدينة

(١) أنظر كتاب (كاترمير) « Mem. Geog. et Hist. » (الجزء الأول صفحة ٧٢٠ وما بعدها) وهو يبرهن على أن (نقيوس) هي بعينها (بشاتي) والظاهر أنه لا يعلم بهذه النبذة من كتاب (ساويرس) وهي التي يقول فيها صراحة : « ومدينة (نقيوس) وهي التي تسمى أيضاً (أبشادي) » وهو يستعمل ذلك الاسم على صورته العربية ولكن كلمة (كاترمير) جديرة بأن تقرأ . وقد بينا أن موضع (نقيوس) عند قرية (شبشير) في الوقت الحالي وليس عند (أبشادي) فإنها ليس بها آثار قديمة .

(٢) كان الحصن بلا شك يشبه حصن (بابليون) في أنه كان يشتمل على كنائس عدة ، فقد كانت المدينة مقر (أبرشية) كبرى ، وكان الإجتماع الذي ذكره (ساويرس) عبارة عن مجمع من أجل أعمال تخص الكنيسة أو من أجل عيد عظيم .

قفط بالصعيد في وقت غزو الفرس مصر مطران لتلك الأبرشية اسمه (بيزنتيوس) ومن حسن الحظ قد بقيت ترجمة حياته وترجمها عن القبطية (المسيو اميلينو)[1] . وهذه القصة فيها عدّة أمور تسترعي النظر ، ولهذا لا حاجة بنا إلى الاعتذار عن إيرادها هنا مع شيء من التفصيل .

معلوم أنه كان من المعتاد في كل عام أن ينشر بطريق الإسكندرية كتاباً على الناس يبين فيه يوم عيد الفصح . وأن في المتحف البريطاني قطعة من أحد هذه الكتب وهو حسن الخط مكتوب بحروف مستديرة ومؤرخ حوالي سنة ٥٧٧ . ويكثر وجود أمثال هذا الكتاب أو قطع منها . ونجد في ترجمة (بيزنتيوس) أنه في عهد غزو الفرس أو قريباً من ذلك جاء كتاب البطريق المعتاد ، فكتب (بيزنتيوس) موعظة بعث بها إلى أبرشيته كلها وقال فيها « لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب ، وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا »[2] . وكان قد بلغه نبأ عبدة النار ونزولهم بالديار ، وأزعجه ما سمع من قسوتهم . ولم يكن يريد البقاء حيث هو ليكون شهيداً فآثر الهرب ، فلما أعد عدّته لذلك وتصدّق على الفقراء بما يملك ، ذهب إلى جبل (جيمي) بقرب المدينة وكان معه تلميذه المخلص حنا . وكان هذا قبل أن يطلع العدوّ على الصعيد ، فلم يكن هروبه في لحظة فزع تملكه على غرة ، بل كان تدبير رجل عالم بأنه إن بقي مكانه لم يكن نصيبه سوى الموت . ولم تخامره فكرة الخضوع للفرس والإحتماء بهم ، ولم يخطر بباله أن يخطب ودهم ، فعمله هذا لا يتفق في شيء مع قول من قال إن القبط رحبوا بالفرس .

ولما هرب (بيزنتيوس) وتلميذه حنا إلى الجبل أخذا معهما مقداراً كبيراً من الخبز وماء النيل ، ولما نفذ منهما الماء لقيا مشقة عظيمة لأنهما لم يجرآ على الإقتراب من النيل حتى ذهب (بيزنتيوس) تحت جنح الليل وهو حذر يترقب

---

(١) أنظر كتاب (Etude sur le Christianisme en Eg. Septième Siècle) (طبعة باريس سنة ١٨٨٧) وهذا اسمه كذلك (Vie d'un Evèque de Keft au Septièmc Siècle) .

(٢) كتاب أميلينو (السابق الذكر) (صفحة ٣) .

وجاء بالماء . وما زالا في ذلك المخبأ زمناً طويـلاً يصليان إلى الله نهـاراً وليلاً ويدعوانه أن ينجي قومهما من أسر تلك الأمم الظالمـة ، ويفك عنهم غلهـا ، وكان كل ذلك قبل أن يأخذ الفرس مدينـة (قفط) فلما أدركـوها وصـارت في يدهم هرب (بيزنتيوس) موغلاً في الصحراء نحو ثـلاثة أميـال أخرى ، فـوجد الرفيقان هناك باباً مفتوحاً في عرض الجبل ، فدخـلاه وكان يفضي إلى حجـرة مساحتها سبعون قدمـاً مربعـاً وكان علوهـا يناسب سعتهـا وكلها نقـر في صخر الجبل ، تدعمها ست دعائم أو أعمدة ، وكانت هـذه مدفنـاً به عـدد عظيم من الجثث المحنطة مضطجعة ضجعتها مطمئنّة في توابيتها .

فعزم (بيزنتيوس) على أن يقيم هناك وحده وأمر تلميذه حنا أن يذهب عنه على أن يغدو عليه مرة كل أسبوع بكيل من الدقيق ومقدار من الماء . فلما أزمع حنا السير وجد قطعة من الرق ملفوفة ، فنـاولها للمـطران فلما قـرأها وجـد بها أسماء من كانوا في ذلك المدفن من الموتى . والإعتقاد الشائع أن هذه الصحيفة كانت كتابتها بلغة مصر القديمة (الهيروغليفيـة)[١] ، ومن ثم يقولـون إن تلك الكتابة كانت لا تزال معروفة إلى القرن السابع على الأقل . ولكن شيئاً من ذلك لا يأتي ذكره في الترجمة القبطية (التي نحن بصددها) . وعلى كل حال قد جاء في القصة بعد ذلك أنه لما عاد حنا إلى المغارة سمع مولاه يتكلم ، فأصغى إليه فألقاه يحدّث إحدى الجثث وقد خرجت من تابوتها ترجو منه الشفاعة ، قائلة إنها كانت هي وذووها جميعاً من اليونـانيين الذين كـانوا يعبـدون الأوثـان . وهذه القصة على ما بها من خرافة تدل على أن التحنيط كان لا يزال متبعاً إلى القرن الثاني أو الثالث كما يدل عليه ذكر أكفانها وأنهـا كانت من « الحـرير الخـالص الذي تلبسه الملوك » وكما يدل عليه تحنيط الأصابع مفردة . ولعلنا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن الصحيفة كانت كتابتها بالحروف اليونانية[٢] .

---

(١) عن أميلينو وسواه . والظاهر أن الدكتور (وليس بدج) يرى الرأي نفسه .

(٢) لا يسعنا أن نتخلص من فكرة عندنا وهي أن الخبر الذي جاء فيه أن (بيزنتيوس) استطاع قراءة النقوش إنما أورد برهاناً على معجزة أخرى من معجزاته . هذا إذا سلمنا بأنها كانت نقوشاً هيروغليفية .

نرجع الآن إلى قصتنا فإن الجثة بعد أن أتمت كلامها عادت إلى تابوتها ، والذي يؤسف له أنه لا يرد بعد ذلك ذكر للفرس وما فعلوه بعد أخذ (قفط) ولا كم من الزمن أقاموا في الصعيد . وقد عاد (بيزنتيوس) آخر الأمر إلى شعبه ، ولما مات دفن في الكنيسة في قرية (بسنتي) بعد أن قاموا الليل على جنازته بالصلاة المسنونة . وقد أوصى وهو على فراش موته بكل ما عنده من الكتب إلى صديقه (موسى) ، وهو الذي خلفه مطراناً على الأبرشية ، وكتب ترجمة حياته . وجلي أن كلا المطرانين كان على شيء من العلم ، ولكنهما كانا مثل سائر أمثالهما من كتاب القبط لا ينصرفان إلا إلى قصص تافهة خرافية تذكر ما كان على أيدي القديسين من الكرامات العجيبة . فلا يحلو لهم إلا ذكر المعجزات وخوارق المألوف ، ولا يذكرون حادثة حقيقية إلا عرضاً أو سهواً وإن كانت مما يرتج له العالم من حوادث وقعت تحت أنظارهم ، وهم يعلمون أنها حوادث يتوقف عليها مصير بلادهم .

على أننا نستطيع أن نستخلص أمرين من تلك القصة : الأول أن الفرس بلغوا في فتوحهم أبعد أطراف وادي النيل حتى أسوان . والثاني أن المصريين القبط لم يرحبوا بهم أو يروا فيهم الخلاص ، بل كانوا يرونهم بعين الجزع والمقت ، وحق لهم أن يفعلوا ذلك .

وكانت كتابة قصة (بيزنتيوس) في القرن السابع . وإليك صحيفة أخرى في المعنى ذاته تاريخها بعد تاريخ القصة الآنفة ولكنها في القرن نفسه ، وهي تصف ما قاساه القبط من الفرس وصفاً أدق وأكثر وضوحاً . وهذه الصحيفة هي ترجمة حياة ظهرت حديثاً[1] للولي القبطي المعروف (الأنباشنوده)[2] وقد أورد

(١) بالنسبة لوقت طبع الكتاب سنة ١٩٠٢ . (المعرب) .

(٢) كتاب (أميلينو) « Monuments pour servir à l'histoire de l'Eg. Chretienne » (طبعة باريس سنة ١٨٨٨) ، وقد أخذ النص العربي عن نسخة مخطوطة في مصر وكل تلك النسخ مأخوذة عن أصل قبطي كتب سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٩٠ ، وقد مات (شنوده) في اليوم الثاني من يوليه سنة ٤٥١ . وقد كتبت تلك النبوءات على لسانه بعد حدوث تلك الحوادث المذكورة ولكنها كانت عند ذلك لا تزال ماثلة في الأذهان .

فيها الكاتب ذكر الغزو الفارسي وجعله في صورة نبوءة ، ولكنه كتبهـا ولا يزال في الأحياء جماعـة من الشيوخ أدركـوا الحوادث التي يـذكرهـا ، وها هي ذي الكلمة « سيأتي الفرس إلى مصر يسفكون فيها الدماء ويسلبون أموال المصريين ويسبـون أبناءهم يبيعـونهم بـالـذهب، فـإنهم قـومٌ ظـالمـون معتـدون. وستنـزل المصائب على أيديهم بمصر ، يغصبون الكنائس ما بها من آنية مقدسة ويشربون الخمـر في المحـراب لا يبـالـون ، ويهتكـون أعـراض النسـاء على مـرأى من رجـالهن . وسيبلغ الشر أعـظمه والشقـاء قصاراه ، وسيهلك ثلث من يبقى من الناس في بؤس وعذاب وسيبقى الفرس في مصر حيناً من الدهـر ثم يخرجـون منها » .

ولسنا نطمع في دليل أوضح من هذا ولا أبلغ دلالة ، فهو يهدم كل ما زعم (شارب) إذ زعم أن القبط فرحوا بالفرس ، كما أنه يهدم مـا ذهب إليه من أن سبب ذلك الفرح الموهوم هو صلة نسب وقرابة زعم أنها كـانت بين المصريين وجنود الفرس . وإليك ما قاله (ساويرس) مجملاً وصفه لقائد الفرس ، قال : « قد اقترف ذلك (السلار) كثيراً من الظلم والقسوة لأنه كان لا يعرف الله وإن الوقت ليضيق عن ذكر كل ما ارتكبه » . وقد ظل التاريخ صامتاً لا يذكر شيئاً عن غزو الفرس لمصر حتى عرفت كلمة (ساويرس) الأخيرة التي اقتبسنـاها ، ثم ظهرت بعد ذلك الصحيفتان اللتان تخلفتا عن ذلك العصر نفسه أو قريبـاً منه ، وعند ذلك تجلت الحقيقة . غير أن صمت التاريخ إتخذ أساساً بنيت عليه قصة قوامها الظن والحدس ، فيها حط من شأن القبط لا مبرر له . فلنشهد الآن انهيار ذلك البناء .

بقي الفرس سادة البلاد عشر سنين أو اثنتي عشـرة سنة ، ولعلهم قضـوا ثـلاث سنـوات[1] يمهـدون لسلطانهم في طـول البـلاد وعـرضهـا في مصـر

(١) أنظر كتاب أبي الفرج نشرة (بوكوك) ص ٩٩ وقد ذكر لفظ « ثلاث سنوات » وإن عظم المسافات التي كان على الجيش الفاتح أن يقطعها تبرر مثل هذه المدة . وتحدث عادة أخطاء لمن يقرأ كتب المؤلفين الذين يجملون ذكر الحوادث فيذكرون ما وقع منها في عدة =

و (بنطابولس) ولكن لا يرد ذكر لمقاومة عنيفة أو لقتال استطالت به المدة ، اللهم إلا عند الإسكندرية . وكان طول هذه المدة هو أكبر علة لإضطراب ترتيب الحوادث في هذه الفترة وقلة الضبط في تواريخها . وكان الفرس في أثناء القتال يظهرون قسوة عنيفة . فلما أن خبت سورتهم واستقر أمرهم صار حكمهم أبعد شيء عن أن يكون ظالماً . فلما أن أخرج جند الروم أو من بقي منهم من وادي النيل وفروا في البحر استقر القبط على شيء من الإطمئنان ، وخضعوا مرة أخرى لسيد جديد بعد زوال سلطان السيد القديم عنهم ، وقد كان هذا شأن تاريخهم السياسي من أقدم الأزمان أن تتبدل عليهم السادة وتتعاقب .

وما هو إلا أن عاد السلم حتى أمنت الكنيسة المصرية واستطاعت أن تداوي بعض ما أصابها من الجروح بعد ما عانته من السلب والتخريب ، وبعد أن كادت آثارها تمحى في بعض المواضع . على أن (أندرونيكوس) لم يقم بشيء في سبيل إعادة بناء الأديرة المخربة . وأغلب الظن أن الفرس فرضوا على الكنائس جزية تؤديها ، أو لعلهم على الأقل استصفوا ما كان للكنائس الملكانية الطريدة من أوقاف وأرزاق ، وأما الأبنية الأهلية فقد لقيت من الفرس رفقاً لم يرفقوا مثله في مكان آخر ، فقد قدمنا أنهم كانوا في الشام يمنون على المدائن والناس في أثناء الحرب كلها إذا هم سلموا إليهم أماناً . وأما إذا كانت مقاومة فقد كانت عادتهم أن ينهبوا ما فتحوه عنوة ، فيسلبوا منه كل ما استطاعوا حمله من تحف أو كنوز ، ثم كانوا فوق ذلك يهدمون البناء نفسه كي يأخذوا ما فيه من العمد البديعة والإطارات الجميلة والمرمر الثمين ويرسلوه إلى الملك الأعظم

= أشهر أو سنين في جملة واحدة وتاريخ واحد . فهنا مثلاً نرى أن فتح الفرس قد إستغرق على أغلب الظن من عام ٦١٦ إلى عام ٦١٨ أو ٦١٩ ، فبعض المؤرخين يذكر سنة ابتدائِهِ وبعضهم يذكر سنة انتهائِهِ ، فالخلاف بينهم إذن في الظاهر . ولكنه مع ذلك ضلل النقاد الذين لم ينعموا النظر أو الذين لهم تصور قاصر ، فإذا حدث خلاف في مدة بقاء الفرس في مصر أمكن تفسيره بمثل هذا التفسير فقد قيل إن الفرس أقاموا في مصر عشر سنوات ، وقيل اثنتي عشرة سنة وقد يكون القولان صحيحين .

يحلى به قصراً من قصوره . وأما مصر فقد حماها بعدها الشاسع من مثل هذا التخريب الشنيع ، لأن الروم كانوا لا يزالون سادة البحار ، وكان بمصر السفلى عدد لا حصر له من الترع لا قناطر عليها ، وكان بين مصر والشام شقة واسعة من صحراء ذات رمال ، فكان حمل ما ثقل من الأشياء من قطر إلى آخر أمراً عسيراً فوق الطاقة . وكذلك نعرف أدلة تدل صراحة على أن الأبنية العامة الشامخة بالإسكندرية لم يصبها أذى من الفرس في أكثر الأحوال ، على خلاف ما حدث للأديرة التي في ظاهر أسوار المدينة . وفي الحق أن أثر هؤلاء الغزاة في البناء كان أعظم من أثرهم في التدمير في تلك العاصمة ، إذ بنوا بها قصراً عظيماً بقي معروفاً إلى زمن بعيد بعد ذلك باسم قصر الفرس[1] ، وأكبر ظننا أن أخبار تدميرهم وتخريبهم للمواضع الأخرى مبالغ فيها ، فمثلاً يقول (جبون) إنهم محوا من الوجود مدينتي (قيرين) و (برقة) في حين أن العرب وجدوا هاتين المدينتين بعد سنين من ذلك الوقت وكانتا جديرتين بفتح جديد ، بل إن هاتين المدينتين في هذا الوقت الذي نصفه لم تذهبا وتنمحيا . وإنا لا نستطيع أن نفسر قوله هذا بأنهما نزعتا إلى الأبد من الدولة الرومانية فإن ذلك لم يكن . وليس في الأخبار ما يبرر أن حظ هاتين المدينتين كان غير حظ مصر ، فإنها جميعاً دخلت في حكم كسرى وبقيت على ذلك حيناً من الدهر ، ثم قدر لها أن تعود إلى حكم هرقل قبل أن تدخل في الإسلام وتصير إلى الأبد في حكمه[2] .

---

(١) الديوان الشرقي ، ويقول (ساويرس) كذلك إن (السلار) بنى في الإسكندرية قصر اسمه (طراوس) ويسمى الآن « قلعة الفرس » ، وقد ذكر ابن العبري كذلك هذه القلعة في (كتاب تاريخ الكنائس الجزء الأول الباب ٣٦٢) ، ويظهر من قراءة ما جاء في كتابه أن موضع القلعة كان في المكان الذي ينزل فيه الناس إلى البر من سفنهم إذا أتوا من الشرق . ويقول (ساويرس) بوضوح إن القلعة كانت في الإسكندرية وإلا لذهبنا إلى أنها كانت بعيدة بعض البعد عنها . والحق أن من قرأ السيوطي وسواه يتضح له أنها لم تكن في داخل أسوار المدينة .

(٢) يبرهن مؤرخو العرب برهاناً واضحاً على أن (قيرين) و (برقة) ظلتا في يد الدولة (الرومانية) إلى مدة غزو العرب ثم نزعتا منها عند ذلك .

وإنا لا نعرف عن حكم الفرس في مصر إلا قليلاً ، غير أنا نعلم أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا من الصلابة في أمر دينهم بحيث يرغمون المغلوبين على عبادة النار[1] وكذلك نعلم أنه بعد أن إستقر لهم الأمر ساروا على سنة التسامح في أمور الدين . وكانت تلك سنتهم في فلسطين وبلاد العرب ، فقد رأينا أن كسرى سمح للمطران (مودستوس) أن يجمع المال ليعيد بناء كنائس بيت المقدس ، ثم أباح لبطريق القبط أن يبقى في الإسكندرية حتى موته وأن لا ينازعه منازع في رئاسة الدين . وكذلك يظهر لنا أن انتخاب خليفته (بنيامين) تمَّ في سلام واطمئنان ، وأنه قضى أول سني ولايته مستظلاً بحكم الفرس . وكانت تلك السنين هادئة مطمئنة إذا قيست بسائر مدة ولايته الطويلة المليئة بعواصف الحدثان . وكما أن طرق الإسكندرية وأبنيتها العامة بقيت على عهدها من الفخامة والشموخ لم يعتريها فساد على يد الفرس ، كذلك قد بقيت تلك (المدينة العظمى) على عهدها مقراً للعلوم لم ينطفىء نورها وإن اعتراه شيء من الضعف .

(١) جاءت في ترجمة حياة (الديراني صمويل) قصة مفردة وهي أن الهمج (وواضح أن المقصود بذلك هم الفرس) سعوا إلى أن يجبروه على عبادة الشمس فلما أبى قرن إلى جارية سوداء ولكنه داوى ابن الرجل الذي أسره فأطلق سراحه وأعيد إلى ديره ومات فيه بعد أن تنبأ بمجيء العرب (ولعله قد رآهم) وبأن المسيحيين سوف يغلبونهم (وذلك ما لم يره) (أنظر المجلة الأسيوية سنة ١٨٨٨ ص ٣٨٤ ـ ٥) ومن الواضح أن عبادة (مثرا) أدخلت إلى مصر وأقيمت بها في مدة احتلال الفرس وتدل على ذلك آثار كثيرة غير جميلة وجدت في منف وسواها من المواضع وهي الآن في متحف القاهرة . والذي يدل على أن الصور المنقوشة على الآثار تمثل (مثرا) هو وجود أشعة الشمس بها حول الرأس والقلنسوة الفريجية .

الفصل الثامن

الفن والأدب

التاريخ - الطب - الفقه - زيارة (حنا مكسوس) مكاتب الإسكندرية- العالِم كزماس - التصوير - الفلك - العمارة والفسيفساء وصناعة المرمر - الإسكندرية - إيضاح الكتب بالرسم - النحت - العاج - صناعة المعادن - الخزف - الورق والزجاج - المنسوجات - التجارة - السفن وتجارة البحر .

قلما تخلف عن هذا العصر أثر من آثار الأدب وإن كان ما كتب عنه كثير فوق ما يتوقعه الإنسان[1] ويقول بعضهم إن حنا (فيلوبونوس) كان عند ذلك لا يزال حياً في الإسكندرية ولكن ذلك غير صحيح[2] . على أن أثر مذهبه - وإن شئت قلت أثر إعتزاله وانشقاقه - كان لا يزال باقياً حتى لقد رأى البطريق (سرجيوس) أن الأمر جدير بعنايته، فشرع يكتب في نقض آراء حنا وتفنيدها مشتركاً في ذلك مع (جورج البيسيدي)[3] . ولم يكن حنا هذا بصاحب الرأي الطريف المبتكر ولكنه كان عالماً ضليعاً بفنون كثيرة من العلم ولا تزال بعض

---

(١) نجد باباً قصيراً على آداب عصر هرقل في كتاب الأستاذ بوري « Hist. of The Later Rom. Emp. » الجزء الثاني (صفحة ٢٥٤ - ٧) ولمراجعة حالة العلوم في الإسكندرية (أنظر كتاب « ماتر ») « Ecole d'Alexandrie » .

(٢) قد برهن (ا . ناوكيوس) على أن (فيلوبونوس) كان من أهل القرن السادس (Encycl. Halensis) القسم الثالث الجزء ٢٣ صفحة ٤٦٥ ، أنظر أيضاً ما كتبناه فيما بعد عما آلت إليه مكتبة الإسكندرية .

(٣) كتاب (درابيرون) (L'empereur Heraclius) صفحة ٢٩٣ .

مؤلفاته باقية وهي حواش على كتاب أرسطو . وفي ذلك الوقت كتب قس من الإسكندرية اسمه هرون رسائل في علم الطب باللغة السريانية بقيت معروفة يرجع إليها العرب كما قال أبو الفرج[1] .

وكان أطباء الإسكندرية معروفين مشهوداً لهم زمناً طويلاً وكانت مدرسة الطب في تلك المدينة كعبة للطلاب يقصدونها من كل أنحاء الدولة . وقد جاء في كتاب زكريا المتليني عن وصفه للقرن السادس أن طبيب الإمبراطور بازيليكوس كان من أهل الإسكندرية . وجاء في موضع آخر في وصف (سرجيوس[2] طبيب ريزاينا الأكبر) ، أنه كان يطلع على كثير من كتب الإغريق ، وكان فوق ذلك فقيهاً في الدين وعالماً في الطب في الإسكندرية وكان يجيد السريانية قراءة وكلاماً[3] . ولعلنا نفهم من هذا الوصف أنه قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرس في الإسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء إلى مصر من سوريا عند غزو الفرس لها .

ومن العجيب أن (هرون) و (سرجيوس) كلاهما كان فقيهاً في الدين وعالماً في الطب في وقت واحد وكذلك البطريق أوتيكيوس . وقد قام أكبر الأدلة على أنه قد ازدهرت في ذلك الوقت مدرسة مستقلة من مدارس الفقه ، فنسمع أن جماعة من العلماء السوريين كانوا قبيل غزو الفرس مصر يراجعون الترجمة السريانية للإنجيل ويترجمون إلى السريانية كتاب التوارة السبعينية من جديد وكان أكبر من اشترك في هذا العمل (توما الهركلي) و (بولص التلوي)[4]

---

(١) نشره بوكوك .

(٢) ذكر أبو الفرج رجلاً اسمه (سرجيوس) وقال إنه أضاف مقالتين إلى الثلاثين مقالة التي ألفها (هرون) ولكن ذلك لا بد أن يكون شخصاً آخر .

(٣) زكريا المتليني (صفحة ٢٦٦) .

(٤) أنظر « Dict. Christ. Biog. S. V. » ونجد بعض أخبار هؤلاء العلماء في كتاب (شارب) =

وقد قامت الجماعة بعملها في أكثر الأوقات في الدير المعروف دير (الهانطون) . ولسنا في حاجة لأن نبرهن على أن ذلك العهد نشط إلى دراسة الكتاب المقدّس نشاطاً كبيراً ، ولكن (أجاتياس) يحدثنا أحاديث مدهشة عن الهوة السحيقة من التضليل والكذب التي قد تهوى إليها المناظرات الدينية ، فإنه يحدثنا عن حاكم من كبار حكام الدولة أنه جمع أربعة عشر كاتباً أو ناسخاً يعملون في تحوير ما كتبه الآباء ولا سيما (قيريل) حتى يستطيع أن يدعم المذهب الذي ينتمي إليه بما شاء من أكاذيب يعزوها إلى أكبر حجج الدين في ما ينشره من الكتب . وإنا لنرجو أن تكون هذه الأكاذيب قليلة الحدوث ، ولكنها كتبت في أوائل القرن السابع حين كان الخلاف المذهبي على أشده لا يتورع أصحابه عن الكذب ومخالفة الفضائل في سبيله . ولم تكن دور الكتب في دير (الهانطون) وحده بل كان لكل دير مكتبته وقصاده من أجل العلم ، ولعل الدير السورياني[1] أو الدير السوري الذي لا يزال إلى اليوم في صحراء وادي النطرون قد نشأ في ذلك الوقت عندما جاء إلى مصر كثير من السوريين وعلمائهم هاربين من خطر حرب الفرس . وكان الرهبان والزهاد في صوامعهم في كل مكان في الصحاري والجبال بعيدين عن العاصمة وما فيها من حياة العلم يكتبون باللغة القبطية رسائل في خلافاتهم وتراجم لحياة بطارقتهم ، ولكنهم لم يكتبوا من حوادث التاريخ إلا قليلاً .

لم يبق مما كتب في ذلك الوقت من التاريخ الصحيح إلا شيء يسير فقد بقيت بعض أخبار قيمة كتبها (تيوفيلاكت سيموكاتا) . على أنه قلما يذكر الإسكندرية وإن كان من أبنائها ، في حين أن الكاتب المجهول الذي ألف

= « Hist of Eg. » (الباب ٢١ صفحة ٣٨) ويقول شارب إنهم كانوا يدرسون في دير القديس أنطون والقديس (زاكيوس) بالقرب من الإسكندرية ولكن الظاهر أنه لم يفهم معنى للقول الذي نقل عنه وقد أفضنا في الكلام على زيارة هؤلاء العلماء السوريين وما ألفوه من الكتب في ذيل هذا الكتاب عن تاريخ فتح الفرس .

(١) أنظر « Ancient Coptic Churches » الجزء الأول صفحة ٣١٦ تجد فيه وصفاً لهذا الدير .

(ديوان بسكال) أو (الديوان الإسكندري) قد خلف لنا صحيفة يصف فيها عصره لها قيمة جليلة وهي جديرة بكل عناية . وكتب (حنا النقيوسي) ديوانه في أواخر القرن السابع ، ولكنه كان من غير شك يأخذ عما سبقه من المؤلفات التي لم يبق منها شيء حتى الاسم .

وهذه الأسماء التي ذكرناها تدلنا على أنه قد كان في ذلك العصر درس وبحث في التاريخ والفلسفة وفقه الدين والطب ، ولكنها مع ذلك قليلة العدد لا تكفي للدلالة على ما كان بالإسكندرية من نشاط أهل العلم في مختلف الفنون ، فقد ضاعت أكثر مؤلفات ذلك العصر في أثناء عواصف الفتوح التي اجتاحت مصر في النصف الأول من القرن السابع . على أنه قد بقي منها ما يشهد للإسكندرية بأنها كانت جديرة بأن تكون مقر الآداب في العالم أجمع ، ومقصد طلاب العلم ، وكان لا يزال بها أثر يزدهر من العلم القديم وإن كان أكثر العلم فيها عند ذلك خاصاً بالدين . وقد ألفت رسائل في الأخلاق المسيحية أو المثل الأعلى المسيحي قصد بها أن تكون قائمة على أساس مذاهب أفلاطون وأرسطو ، وكما أن (بولص السيلنتياري) كتب مدحة يذكر فيها فضائل (القديسة صوفيا) في شعر هومري[1] من ذي المقاطع الستة ، كذلك رأى (صفرونيوس) وهو في الإسكندرية أنه لا عار عليه في أن يكتب قصيدة يبث فيها شوقه إلى الأرض المقدسة في صورة شعر غزلي على نمط تشبيب الشاعر الإغريقي (أناكريون)[2] .

وقد إتفق أن بقي في كتب (حنا مسكوس) شيء من الوصف الشائق للحياة في الإسكندرية في ذلك العهد ، على أن هذا الوصف الذي بقي لا يكفي لأن يملأ صحيفة كبيرة من الرقاع التي كانت تستعمل للكتابة ، وقد كتبه الكاتب عرضاً بغير أن يقصد به شيئاً ، غير أنه مع ذلك يصوّر لنا صورة عجيبة . وكان (حنا مسكوس) هذا سوريّ المولد ولسانه لسان الإغريق وقد طاف في

---

(١) نسبة إلى هومر شاعر الإغريق .

(٢) أنظر كتاب ميني « Pat. Gr. » الفصل ٨٧ .

مصر بضع سنين قرب آخر القرن السادس مع صديقه وتلميذه (صفرونيوس) وهو دمشقي الموطن ، وقضيا مدة طويلة معاً في أديرة (الثيبائيد) وهو صعيد مصر ، ولما رجعا إلى وطنهما حمل حنا تلميذه (صفرونيوس) على أن يترهب . ويقال إنهما طردا من الشام في سنة ٦٠٥ في أثناء حروب (فوكاس) فذهبا إلى الإسكندرية وقضيا مدة أخرى نحو ثمان سنين أو عشر في القراءة والكتابة ، وكانا بين حين وحين يزوران الأديرة المجاورة للإسكندرية وأديرة الصحراء والواحة الكبرى ، وكان كلاهما صديقاً (لحنا الرحوم) ، على أنه قد كان أقل منهما علماً . وقد هربا مثله من الإسكندرية في وقت غزو الفرس حتى لقد قيل إنهما صحباه إلى قبرص ، وإن (صفرونيوس) ألقى خطبة على جنازته ، ولكن الأدلة تنقض هذه الرواية . ومن المحقق أنهما ساحا في الجزائر الإغريقية ورحلا بعد ذلك إلى رومة وهناك أعاد (حنا موسكوس) قراءة كتابه ونقح فيه التنقيح الأخير ، ولما وافاه أجله أعطاه إلى تلميذه صفرونيوس لينشره . فلما رجع الأمن حوالي سنة ٦٢٠ ، وأبيح للمسيحيين أن يعودوا إلى التعبد على دينهم تحت حكم الفرس ، عاد (صفرونيوس) إلى فلسطين ونشر بعد حين جزءاً من كتاب أستاذه وهو الجزء الباقي إلى اليوم واسمه (مسارح الروح)[1] .

وهذا الكتاب على ما فيه من قصص شفاء الأمراض بالمعجزات ، ومن الأحلام وأمثال ذلك مما لا قيمة له عند المؤرخ ، يشتمل على أخبار قيمة ينشرح لها الصدر إذا ما استطاع الباحث أن يستخرجها منه بشق النفس . والكتاب مع ذلك فيه شيء من فوضى علمية واستطراد غير منظم يجعله شهي المقرأ ، ويخلع لذة على المواضع التي تدعو فيه إلى الملال والسأم . وسنرى فيما بعد بعض ما جاء به عن وصف إقليم الإسكندرية ، ولكن لا بدّ لنا من أن نذكر هنا صفة تظهر في كل صفحة من صفحاته ، ألا وهي حب العلم حباً شديداً . فقد

---

(١) والأشهر عنه اسمه اللاتيني « Pratum Spirituale » أنظر كتاب ميني « Pat. Gr. » الجزء ٨٧ .

وانظر « Dic. Christ. Biog. » وانظر (صفرونيوس) .

كان الصديقان لا يستقرّ لهما قرار في طلبهما للعلم ، ويدل على ذلـك تنقلهما في الأقـطار ، وإن كـان بعض رحـلاتهمـا إنمـا قصـدا فيـه القيـام بخـدمـات للكنيسـة[1] . فبينا كـانـا في الإسكنـدريـة يحـدّثـان مـطران (دارنـه) أو هي (دارنيس) على ساحل البحر في ليبيا إذا هما مع رئيس الدير (تيودور الحكيم) أو مع (زويلوس القارىء) . وكان (تيودور) و (زويلوس) كلاهما نـادرة في العلم والخلق ، وكانا فقيرين فقراً مدقعاً فقد ورد عنهما أنهما لم يكن لأحدهما من حطام هذه الدنيا إلا رداؤه وبعض الكتب . وكان (تيودور) عالماً بالفلسفة في حين أن (زويلوس) كان مفسراً للكتب المخطوطة[2] ويوضحها بـالرسم . وقد وجد الصديقان غير ذلك رئيس دير قريب من الإسكندرية وكان شيخاً جليلاً قضى في الرهبانية ثمانين عـاماً[3] ، وكـان يحب الناس ولكنـه كان فـوق ذلك متصفاً بخصلة أخرى قلما اتصف بها أحد وهي حب الحيوان . فكان كل يـوم يطعم طير الجـوّ والنمل صغـاره وكباره حتى الكـلاب التي كانت تسـرح حول الدير . وإذا كنا قد وصفنا (تيودور) و (زويلوس) بأنهما كـانا لا يملكـان إلا شيئاً واحداً احتفظا به وهو الكتب فقد كان هذا الشيـخ الذي يحب الحيـوان لا يبقي على شيء . فلم يكن عنده درهم ولا رداء ، بل لم يكن عنده كتاب ، إذ كان يعطي الفقراء وأهل الحاجة كل ما يملك[4] .

ولكن أرعى موضع للنظر في كتاب (حنا مسكوس) قطعة غير كاملة إذا قرأها الإنسان إستزاد منهـا فلم يجد منهـا زيادة ، وهي تصف صلة الصـاحبين بكـزماس العـالم[5] ، وكانت صلة وثيقـة العرى . وكـان حنـا إذا وصف شيئـاً استعمل صيغة المثنى في وصفه يقصد نفسه وصاحبه (صفرونيوس) الذي كان

(١) ترجمنا الكلمة اليونانية*[15] بقولنا « بخدمات » ولكنها قد يكون معناها « من أجل تقدمنا العلمي » ومعنى ذلك أنهما قصدا إلى (أغراض علمية) .
(٢) أنظر كتاب حنّا مسكوس الباب ١٧١ .
(٣) أنظر نفس الكتاب الباب ١٨٤ .
(٤) أنظر نفس الكتاب الباب عينه .
(٥) *[16] أنظر الكتاب عينه الباب ١٧٢ .

شريكه في أسفاره ومباحثه جميعاً . وهذه القطعة عظيمة الشأن فلنا العذر إذا نحن أوردنا هنا شيئاً يشبه نصها .

قال حنا « ولن نقول عن (كزماس العالم) كلمة ننقلها عما يقوله الناس بل سنكتب ما خبرناه وشهدناه بأعيننا . كان رجلاً لا كلفة فيه زاهداً طاهراً . وكان هيناً ليناً مؤلّفاً كريماً يعطف على الفقراء وقد انتفعنا به انتفاعاً كبيراً إذ فاض علينا من علمه ورأيه[1] وكانت عنده فوق ذلك (خير مكتبة في الإسكندرية وكان يعير من كتبها في سخاء لمن يحب أن يقرأ)[2] . وكان فقيراً فقراً شديداً فلم يكن في بيته من الأثاث إلا فراشه ومنضدة ، على أن الكتب كانت تملؤه . وكان يبيح لكل من شاء أن يدخل مكتبته ومن أراد من القارئين كتاباً طلبه وقرأه هناك . وكنت أزور (كزماس) كل يوم ولست أذكر إلا الحق إذا قلت إني ما دخلت بيته يوماً إلا وجدته مكباً على القراءة أو الكتابة يردّ على اليهود أو يجادلهم . وكان لا يحب أن يترك مكتبته فكان كثيراً ما يبعثني لأجادل بعض اليهود بما جاء في الكتب التي كتبها .

وقد تجرأت يوماً على أن أسأله سؤالاً فقلت « أتتفضل علي بأن تخبرني كم من الزمن بقيت منعزلاً في مكانك هذا ؟ » فأمسك ولم يرد عليَّ حرفاً فقلت له عند ذلك « عزمت عليك بالله إلاّ ما قلت لي جواب مسألتي » فتردّد أوّلاً ثم قال « بقيت هنا ثلاثاً وثلاثين سنة » ولما أن ألحفت عليه بالسؤال قال لي إنه قد تعلم أموراً ثلاثة مما قرأ وهي ألا يضحك ولا يحلف ولا يكذب .

وهذه صورة ولا شك بديعة لعالم فقير في الإسكندرية جعل بيته مرثاداً لطالبي الكتب ومحبيها[3] وهي صورة تجعل القارىء يستزيد ولكن لا يجد فيها

---

(١) ترجم ميني لفظ*(١٧) على البناء للمجهول فكان معناها « عند حضوره » ولكن اللفظ نفسه كان لا يزال يستعمل للنظر الفلسفي*(١٨) فمثلاً جاء في زكريا المتليني أن حنا القسطنطيني صار من أهل الشك الكفرة الذين يتبعون النظر .

(٢) *(١٩) ولكن من سوء الحظ أن الأصل ليس فيه شيء يدل على التمييز بين المكاتب العامة والمكاتب الخاصة في المدينة .

(٣) في متحف القاهرة أثر ذو شأن أقيم ذكرى لأحد محبّي الكتب في ذلك العصر وذلك الأثر =

ما يشفي شوقه ويرجع ذلك إلى أمرين : الأول أنها لا تذكر شيئاً عن نوع الكتب التي كانت في المكتبة أو أنواعها ولا عن عددها ، والثاني أنه يسوءنا كثيراً أن (حنا مسكوس) و (صفرونيوس) لا يذكران شيئاً ما عن المكتبة العامة الكبرى بالإسكندرية وقد طبق ذكرها الخافقين ، مع ما كانا عليه من حب القراءة والعلم وعظيم العناية بأمر الكتب وجامعيها . فلسنا ندري أكانت تلك المكتبة في أيامهما موجودة أم غير موجودة ، وقد كانا قاب قوسين أو أدنى من إبانة ذلك الأمر فكانا يستطيعان بكلمة يقولانها أن يجليا سر تلك المكتبة الذي ما زال مكنوناً يضل فيه الباحث ، ولكنهما يوليان عنه في صمت وينصرفان .

ولا شك أن سكوتهما في نفسه متى قرن إلى صمت غيرهم من الكتاب ، وهم كثر ، له دلالة في الأفهام . ولكن ليس هذا مقام القول في الوقت الذي ضاعت فيه تلك المكتبة العظيمة وسيأتي مقامه في موضع آخر من هذا الكتاب . وأما هنا فحسبنا أن نظهر الأسف على أننا إذا قرأنا كتاب (حنا مسكوس) « مسارح الروح » أو إذا قرأنا ما بين أيدينا من كتب صفرونيوس الضخمة لا نجد في أي موضع منها إشارة واحدة نعرف منها أكانت تلك المكتبة لم تزل إلى أيامهما باقية في السرابيوم أم لم تكن .

ولكن كل شيء يذكر كتب الإسكندرية في هذا الوقت أو قريباً منه له في بحثنا هذا قيمة عظمى ، ولو كان قطعة من دليل أو نتفة من خبر ، وعلى ذلك فقد يكون لنا العذر إذا نحن أوردنا ذكر مجموعة أخرى من الكتب وهي مجموعة مطران (آمد) السوري (مورو باركستانت) في النصف الأول من القرن السادس . قيل في وصفه إنه كان « فصيحاً يتكلم اليونانية » ولكنه « نفي إلى (بطرة) بعد أن أقام في مقر رئاسته للدين مدة قصيرة ، ثم نفي بعد ذلك إلى الإسكندرية فأقام بها حيناً وجمع مكتبة تحوي كثيراً من الكتب القيمة ، يجد فيها من يرغب في العلم من أهل البحث والفهم فوائد جليلة . وقد نقلت هذه

= هو رسم بارز على غطاء تابوت لطالب علم يمسك في كلتا يديه بلفافة من المخطوطات .

الكتب بعد موته إلى خزانة كنيسة (آمد) وما زال يتعمق في القراءة وهو في الإسكندرية حتى لحقه السبات » ومن هذه النبذة الهامة التي جاءت في كتاب (زكريا المتليني)[1] يمكننا أن نستخلص أمرين : الأول أن الإسكندرية كانت إلى ذلك الوقت سوقاً رائجة لمن أراد أن يجمع الكتب ، والثاني أن إصدار الكتب إلى البلاد الأخرى كان مباحاً .

على أن إقبال أهل العلم في الإسكندرية لم يكن على آداب الإغريق وفقه الدين وحدهما فقد كانت مدينة بطليموس وإقليدس لا تزال مشهورة بخدمتها لعلم الفلك معروفة بمهارة من فيها من علماء الرياضة وعلم الحيل[2] ، وكان فيها من لا يزال يمارس التنجيم ، ولم يخل ذلك من فائدة للعلم لأن هؤلاء المنجمين كانوا على شيء من العلم بالنجوم . وكان الملوك وحكام البلاد يرسلون من كل أقطار العالم إلى رهبان الصحارى لينبئوهم بما في ضمير الغيب لهم ، وكانوا في ذلك يعتمدون على علم الرهبان بالكواكب أكثر من اعتمادهم على ربانيتهم ، ولم يخل هؤلاء المنجمون من التأثير في أمور السياسة . وكان أكبر علماء الفلك في ذلك الوقت (اسطفن الإسكندري) ولا يزال كتابه في علم الفلك باقياً . وهو معروف أيضاً بدرايته بالتنجيم ، ولو صح أنه تنبأ بمجيء دولة الإسلام[3] لكان من المؤكد أن كثيرين من سرعان أهل وطنه صدقوا ما قاله منذ سمعوه ، وداخلهم خوف خلع أفئدتهم ووهن من قوتهم عندما جاء وقت النضال والبلاء . ولكن (اسطفن) كان فذاً في الرجال ويلقبونه « بحكيم العالم » و « علامة الزمان » وليست درايته بالتنجيم لتزيد في قدره إلا قليلاً . وكان علم تقويم البلدان من فروع العلم المعروفة في ذلك الوقت ، فقد زادت معرفة

---

(١) صفحة ٢٠٩ .

(٢) علم الميكانيكا . (المعرب) .

(٣) جاء فيما كتبه (هـ. أوسنر) عن (اسطفن الإسكندري) ما لا يجعل أحداً يشك في علمه ولكن يتضح من ذلك أيضاً أن ما عزى إليه من التنبؤ ما هو إلا وضع نسب إليه في عصر بعد ذلك بزمن طويل . أنظر كتاب « De Stephano Alexandrino » .

الناس بالبحار الشرقية ، بفضل رحلات الكشف التي قام بها (كزماس) المعروف « بالبحار الهندي » وكأن تاجراً من أهل الإسكندرية جريئاً على المخاطر ، قام بسياحات علمية طويلة حول بلاد العرب والهند ، دفعه إليها حبه للأسفار والإطلاع على مجاهل البلاد أكثر مما دفعه إليها حب المال والربح . وقد مات قبل ذلك الوقت الذي نصفه ببضع سنين ، غير أن ما كتبه كان لا يزال فيه باقياً في أيدي الناس يعجبون به . ولكن من سوء حظنا أن أكثر ما كتبه وأعظمه قيمة ضاع ولم يصل إلى أيدينا[١] .

وإذا حق لنا أن نقول إن الآثار الأدبية كانت لم تزل باقية يعتز بها في الإسكندرية فإنه يحق لنا أكثر من ذلك أن نقول إن الفنون كانت بها زاهية مزدهرة . فقد كان بنيان المدينة يأخذ بالألباب بعظمته ورونقه ، من أسوار منيفة وحصون منيعة وقصور براقة وكنائس فخمة وطرق ذات عمد مرصوصة . وكانت مهارة البنائين على عهدها لم تضمحل ولم تضعف عما عليه في أيام (جستنيان) إذا اتخذ من أهل الإسكندرية ذلك البنّاء الذي أقام الساحة الكبرى بالقسطنطينية ، بها ألف عمود وعمود ، ولا تزال إلى الآن باقية . ورءوس الأعمدة في هذه الساحة يرجع إليها الفضل كما يقول الأستاذ (فريمن) في الإنفصال عن قيود الماضي إنفصالاً تاماً وتمهيد للبناء الجليل الذي أقامه (أنتيميوس) ألا وهو بناء القديسة صوفيا[٢] . وكان حجر السماق الأحمر والأخضر الذي استعمل في تحلية هذا البناء يؤتى به من مصر محمولاً في النيل[٣] ، وكانت مصر منذ أيام الفراعنة شهيرة بما فيها من المرمر البديع ، وكانت حلية الكنائس والقصور في جميع بلاد العالم من هذا الحجر الثمين ، وكانت سوقه في الإسكندرية وبقيت هناك حتى قضى عليها في أيام الفتح العربي .

---

(١) أنظر كتاب ماتر «Ecole d'Alexandrie» ، (الجزء الثاني صفحة ٣٨١) ففيه وصف (قزماس انديكوبلستس) وهذا الكتاب يحوي طائفة عظيمة من الأخبار .

(٢) أنظر كتاب « St. Sophia, Constantinople » ص ٢٤٩ تأليف (ليتابي وسوينسن) .

(٣) قال (بولص السيلنتياري) « كانوا يحملون الأحمال في السفن على صدر النيل » .

وكان فن التصوير من أتباع فن البناء يستخدم في تجميل الجدران في داخل البناء كما كان من وسائل ذلك التجميل نقوش الفسيفساء ذات الألوان وصور الفسيفساء[1] الزجاجية وأفاريز المرمر فوق الجدران وتغطية الأرض بالرخام . وقد احتفظ القبط زمناً طويلاً وهم تحت حكم العرب بالدراية في هذه الفنون ، فنون البناء وصناعة فسيفساء الزجاج وصناعة خاصة بالمرمر كان يطلق عليها اسم « الفن الإسكندري »[2] تمييزاً لها . وكانت أسوار العاصمة الجديدة (القاهرة) وما فيها من مساجد بديعة ، من صناعة المصريين في بنائها وزخرفها ، وما كان نبوغهم في هذه الصناعة وأساليبهم فيها إلا ما ورثوه كابراً عن كابر في الفن عن الإسكندرية القديمة .

ولا ننس في تفسير الكتب وإيضاحها بالرسم . وقد رأينا أن (سيموكاتا) يذكر صديقاً له كان (مفسراً) . وأن (حنا مسكوس) يصف (زويلوس) بأنه كان ممن يعالج هذا الفن . والحقيقة أن فن الكتابة المزخرفة ورسم الصور الصغيرة في الكتب كان شائعاً بالغاً حده من الإتقان في هذا العصر في كل بلاد الشرق . وكان خير المخطوطات إذ ذاك يتخذ من الرق يدهن بلون أرجواني ويكتب عليه بحروف من الذهب ، وكانت أمثال هذه الكتب تتخذ لمكتبة

---

(١) أنظر كتاب « أبي صالح » إذا أردت قراءة وصف الفسيفساء الزجاجية في مصر ١٤٨ وكذلك أنظر ما كتبناه في الهامش عن ذلك وإنا عندما كتبنا هامشنا لم نكن نعرف أن بعض أمثلة من تلك الصناعة لا تزال موجودة بمصر ، ولكن رأس القبلة في جامع ابن طولون ما زالت بها الفسيفساء الزجاجية التي جعلت حولها منذ القرن العاشر وقد رسم حولها رسم على نمط ما كان يرسمه القدماء ويوجد مثل آخر من ذلك في مسجد شجرة الدر ومثلان في الأزهر وهما في (قبلة الطبرسية) و (قبلة الأقبغاوية) ، وهذه الأمثلة تدل على ندرة وجود هذا الفن إذ ما كان يستعمل إلا قليلاً في تزيين أعظم المباني الإسلامية رسوماً وأجلها زينة ، ومع ذلك فوجودها دليل على أن تلك الصناعة بقيت إلى القرن الرابع عشر . أنظر تقرير لجنة حفظ الآثار العربية (القاهرة سنة ١٩٠٠) كتبه ماكس هارتز بك .

(٢) Opus Alexandrinum .

الإمبراطور . وإن بين أيدينا خطاباً خطيراً أرسله أكبر مطارنة الإسكندرية وهو (تيوناس) إلى رجل اسمه (لوقيانوس) وهو الوصيف الأكبر للإمبراطور وأمين خزانة كتبه ، ولعل هذا موضع صالح لذكره وإن كانت كتابته في سنة ٢٩٠ للميلاد . وقد جاء في أول ذلك الخطاب وصف لما ينبغي أن يسير عليه الكتاب في دواوين حسابهم وما في عهدهم من الخلع والحلى ، ووصف لطريق إثبات ما في الخزائن من آنية الذهب والفضة ، والبلور وقماقم المر وغير ذلك من تحف القصر . وجاء فيه بعد ذلك أن المكتبة أثمن ما في القصر وأنه يجب على المسيحي ألا يترفع عن مطالعة كتب الأدب الدنيوي ، وأنه يجب على أمين خزانة الكتب أن يكون ملماً بكل ما فيها ، وأن يرتبها على نظام ثابت ويجعل لها ثبتاً تدوّن فيه أسماء كتبها . وعليه أن يستوثق من أمر الكتب وأن النسخ التي عنده منها صحيحة غير محرّفة وعليه أن يعيد كتابة النسخ وتزيينها بالصور إذا هي بليت . وجاء في آخر خطاب (تيوناس) هذا أنه ليس من الضروري أن تكون (كل) الكتب منسوخة بحروف من ذهب على رق أرجواني[1] إلا إذا أمر الإمبراطور بذلك أمراً . وهذا الخطاب يدلنا على الأقل على أن كبير المطارنة كان له علم بأمور مكتبة عظيمة جليلة . وقد ازدادت صناعة إيضاح الكتب بالرسم وانتشرت في أثناء القرون الثلاثة التي تلت كتابة هذا الخطاب ولم تنقص شيئاً ولم تتبدل تبدلاً كبيراً في الوقت الذي نكتب عنه عما كانت عليه في وقت كتابة الخطاب . وكان أكثر إيضاح الكتب في مصر عند ذلك يقوم به الرهبان في الأديرة ، وذلك نظير ما حدث في أوربا فيما بعد . وقد كانت أعظم المواضع التي تخرج هذا الفن القسطنطينية والإسكندرية . على أنه قد كان من الرهبان في مواضع أخرى من يقضون أعمارهم في كتابة الكتب القيمة وتحلية صفحاتها بأبدع أنواع الزخرف وأجمل الألوان[2] ، ومن تلك المواضع ما كان في مصر ومنها ما كان في آسيا الصغرى أو الشام أو بلاد الفرس .

---

(١) أنظر كتاب (كوزا لوزي) (Pergamene Purpuree) .

(٢) أنظر كتاب المرحوم الأستاذ (مدلتون) (Illuminated Manuscripts) (طبعة كامبردج سنة ١٨٩٢) الباب الرابع .

وأما النحت في هذا العصر فلا نعرف عنه إلا القليل ، فلا نعلم عنه إلا أنه كان لا يزال من المعتاد أن تجعل تماثيل للإمبراطور الحاكم في العاصمة وفي أكبر مدائن الريف . وعلى ذلك فلم يكن هذا الفن مضيعاً كل التضييع [1] . وكانت المدرسة البطليموسية في هذا الفن أولى مدارس العالم في ذلك العصر وإن في بعض ما صنعته لجمالاً كأنك به عين جمال صناعة القدماء ورونقه ، فقد بقيت آثار الصناعة حتى في العصور المسيحية . ومن أمثال ذلك التمثال الجليل الضخم لأحد الأباطرة من حجر السماق الأحمر ومقره الآن دار الآثار المصرية بالقاهرة [2] .

على أنه لا شك في أنه ما أتى القرن السادس حتى كانت صناعة النحت قد اضمحلت ولكن الصناعة البيزنطية الخالصة صناعة نحت العاج بلغت وقتئذ قصارى الكمال ، ترى بها دقة الصناعة وإبداع الفن [3] . وكذلك كانت صناعة الذهب وتطعيم المعدن ، فقد برعت مدرسة الإسكندرية فيها جميعاً وبرزت فيها . وإذا كانت هذه الصناعات تمت بأصلها إلى صناع مصر القديمة ، فإنها بقيت إلى ما بعد فتح الإسكندرية بزمن طويل وعادت الحياة إليها في القرون الوسطى ، وكانت عند ذلك النشور بارعة ، ولم يخب نورها بل لا تزال باقية إلى أيامنا هذه .

---

(١) ولكنه لم يبق طويلاً بمصر بل اضمحل أمره سريعاً في حكم العرب ومدة حكم الروم إبان حكم الإمبراطورين الجاهلين مكسري التماثيل وهما (ليو) و (ايسوريان) في أوائل القرن الثامن .

(٢) ولكن الرأس من سوء الحظ لم يوجد ويظن أن التمثال لإمبراطور في الدولة المتأخرة ويقول الأستاذ (سترزجوسكي) إنه صنعة مسيحية وملابسه ووقفته وصقله غاية في الحسن وإذا ظن أنه من عمل العصور السابقة كان قريناً للتمثال البديع الذي أقيم للإمبراطور (مرقص أوريليوس) وهو في متحف الإسكندرية .

(٣) أنظر ديهل (La Civilisation Byzantine au VI Siècle) (صفحة ٦٥١ وما بعدها) ونجد في صفحة ٦٥٣ تفسيراً بالرسم من « عرش مكسميان » وقد علق عليه ديهل باقتباس رأي مولينييه وهو « ليس في أي أثر بالعاج في عصر قبل ذلك ما يظهر فيه زخرف مثل هذا قد برز في مهارة فنية تفوق كل مدح » ثم استمر بعد ذلك يبرهن على أن هذه التحفة وكذلك =

وكان بالإسكندرية عدا ما ذكرنا صناعات زاهية مزدهرة نذكر منها صناعة الورق وعمل الزجاج والمنسوجات وبناء السفن ، فكان في مصر السفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تنبت البردى ذلك النبات الطويل الحسن ، وكان الورق يتخذ من لبابه يشق شرائح تجعل منها صحائف بالضغط ثم تصقل بآلة من العاج . وكانت الصحائف بعد ذلك يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها . وكانت مقادير عظيمة من البردى تصدر من مصر من مراسي الإسكندرية المزدحمة ، ولسنا ندري متى ضعف أمر هذه التجارة ولا الأسباب التي أدت إلى القضاء على هذا النبات في مصر[1] . وأما صناعة الزجاج فقد بقيت معروفة ذائعة الصيت زمناً طويلاً في الإسكندرية وصحراء النطرون وقد قال سترابو إن صناع الزجاج في مصر كانت لهم أسرار يحفظونها ولا سيما في معامل (ديوسبوليس) وإنهم كانوا يقلدون الجواهر في صناعاتهم ويعملون قماقم المر . وكان الزجاج من بين الأشياء التي فرضها (أغسطس)[2] على مصر ترسل عيناً ضمن الجزية السنوية ، ولا تزال في متحف الإسكندرية أمثال بديعة من منتجات هذه الصناعة . ولا خلاف في أن هذه الصناعة أسلمها القبط بعضهم لبعض جيلاً بعد جيل حتى العصور الوسطى ، وكان آخر ما أخرجته تلك الصناعة المصابيح المطعمة الفاخرة التي كانت تزين الكنائس والمساجد ، وهي

= الجواهر الصغيرة وصناديق الآثار المقدسة والنقوش كلها مصرية في فكرتها وفي أصلها . وقد كان لمدرسة الفن السورية المصرية أثر كبير في ذلك الوقت في الفن البيزنطي عامة . وإن ما كتبه (ديهل) في فن البناء (صفحة ٦٤٢) وفي النقوش الدقيقة (صفحة ٦٥٠) لجدير بالقراءة كما أن كل كتابه جدير بذلك .

(١) تجد أخباراً حساناً في هذا الشأن (Mittheilungen a. d. Papyrus Erzherzog Rainer) صفحة ١٠١ وما بعدها ، ومنه تعرف أن لفافة البردي في القرن التاسع واسمها قرطاس (*١٩) كان ثمنها ٦ قراريط وذلك ربع دينار أو شلنان وستة بنسات وكان الطومار (وطوله ثماني أقدام وست بوصات) يساوي سدس هذا الثمن وذلك خمسة بنسات .

(٢) أنظر (Notice Historique de l'art de la Verrerie) في الكتاب النابوليوني (Descri-Ption de l'Egypte) وانظر كتاب أبي صالح صفحة ١٤٩ و ١٥٠ .

اليوم مفخرة المتاحف التي تجمع آثار العصور الوسطى . أما صناعة الخزف فلا نعرف على وجه البت في أي وقت بدأ أمرها في الظهور ولكن ذلك كان لا بد في عصر قديم . فقد ذكر سائح فارسي[1] جاء إلى الفسطاط في سنة ١٠٤٧ للميلاد أمر صناعة الزجاج الرقيق وذكر سوى ذلك القيشاني المزخرف الذي وجده يصنع هناك . قال عنه « وكان رقيقاً شفافاً حتى إن الإنسان ليرى من وراء الآنية يد من يمسكها » وقد ذكر أيضاً الأواني اللامعة المختلفة الألوان التي تشبه نسيج الحرير المعروف باسم (بوقليمون) وهو الذي يتغير لونه كلما تغير موقع الضوء من سطحه . وهذه الشهادة ذات قيمة عظمى إذ تدل دلالة قاطعة على ما بلغته صناعة الخزّاف والزجاج من التقدم في القاهرة في القرن الحادي عشر . ولا شك في أن الصناعة الإسبانية المغربية التي جاءت بعد ذلك وذاع ذكرها وشاع ترجع بأصلها إلى صناعة القاهرة .

وأما المنسوجات فقد كانت لها تجارة رائجة وكانت متعددة الأنواع والأصناف فكان الكتاب الدقيق لا يزال ينسج ، ولعله كان أدق خيطاً وصنعة مما كانت تخرجه مناسج مصر القديمة . وفوق ذلك قد صار الحرير منذ حكم (جستنيان) أكثر شيوعاً بين الناس[2] وكان تخرج على أيدي النساجين بدائع

---

(١) (Relation du Voyage de Nasiri Khusrau) من كتاب (شفر) صفحة ١٥١ ويدل على وجود هذه المصنوعات الوطنية ما نجد في بقايا القمائن التي كشفت في أطلال الفسطاط .

(٢) أنظر (Catalogue of Egyptian Textiles in S. K. M.) (تأليف آلان كول ١٨٨٧ صفحة x) ، وكان الحرير في القرن الثالث يساوي وزنه ذهباً وما جاء القرن الرابع حتى رأينا (جريجوري النازيانزي) وسواه من كتاب المسيحيين ينعون على الناس لبس الحرير ويقولون إنه ترف أخذ الناس في الإنغماس فيه . فلما انتصف القرن الخامس كان استعمال الحرير قد شاع في الناس فلم يكن مقصوراً على لبس الإمبراطور بل أصبح أهل الحاشية والأغنياء جميعاً يلبسونه وكانت طرق القسطنطينية ومنازلها تخفق بالحرير الخالص في وقت تعميد الطفل (تيودوسيوس الثاني). انظر كتاب (Bury) «His. of the later. Rom. Emp.» (الجزء الأول ص ١٩٦، ٢٠٤، والثاني ص ٩٦ - ٩٧، وكذلك الجزء الأول ص ٤٧٢) . وكان الحرير في مصر مستعملاً قبل استعماله في =

من الحرير والكتان تحليها زركشة تأخذ بالألباب وقد كشفت حديثاً بقايا كثيرة من منسوجات ذلك العصر أو ما هو قريب منه ـ وجدت في إخميم بالصعيد واسمها القديم (بانوبولس) وهي محفوظة اليوم في مجموعة (سوث كنزنجتون) بانجلترة وفي مجموعات أخرى . وكل هذه المنسوجات من الكتان وهي أبسطة منسوجة ، وأما أنماطها ورسومها فمختلفة ، فبعضها يشبه في رسمه المنسوجات القديمة وبعضها عليه أثر واضح من المسيحية وقسم منها عليه أثر ظاهر من أنماط الفرس ، فإن مدة إقامة الفرس بمصر وهي تلك السنون العشر أو الاثنتا عشرة لا بد قد أثرت فيها الرسوم الفارسية في الصناع فجعلتهم يخرجون منسوجاتهم على مثالها . والشبه عظيم بين مجموعة من ورقة البردى في فينا تنسب إلى (تيودور جراف) وبين مجموعة هذه المنسوجات . فمجموعة الأوراق التي تختلف تواريخها بين سنة ٤٨٧ وسنة ٩٠٩ للميلاد فيها لغات شتى ، فاليونانية والقبطية والفارسية والساسانية والعبرية والعربية ، ومجموعة المنسوجات التي ترجع إلى نحو هذه العصور تنطبع فيها صور ما مر على مصر من صروف الدهر المختلفة ، وغير الحادثات السياسية كما تنطبع صورة في مرآة[1] . ومن أهم الأمور أن نتذكر أن مادة صنوف المنسوجات ورسومها وألوانها تكاد تكون واحدة سواء في ذلك ما وجد في صقارة أو الفيوم أو الصعيد . وهذه

= أوروبا ، فكانت الأكفان تصنع منه للجثث المحنطة في آخر القرن الرابع . أنظر مقالة « وصف كفن قبطي » كتبها الدكتور (وليس بدج) في « أركيولوجيا » (المجلد ٥٣ الجزء الثاني ص ٤٤٢) . وانظر في الموضوع جمعية كتاب (Yates) « Textrinum Antiquorum » وقد ذكر في تلك المقالة . ويمكننا أن نعرف من كتاب (أكلى) مقدار شيوع الحرير في القرن السابع . فيقال إن هرقل كان له أكثر من ٣٠٠ حمل من الحرير الملون والحرير المزركش بالذهب في دمشق (ص ١٥٠ ـ ١٥٦) ، وكانت تكثر الملابس الحريرية في الغنائم والظاهر أن القواد كانوا يلبسون الحرير حتى في ساحة القتال (أنظر الصفحات ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨ ، ١٩٨ ، ٢١١) . وقد ذكرت ستور الحرير المزركشة بزهور الذهب في صفحة ٢٢٦ ، وقال المسعودي إن أغطية من الحرير الأخضر كانت تعلق على شوارع الإسكندرية لتقي من وهج الأبنية التي من المرمر .

(١) أنظر كتالوج (S. K. M,) (صفحة XIII) وكل المقدمة في هذا الكتالوج جديرة بالقراءة ، =

حقيقة تدلنا على إشتراك النساجين في الأنماط وتشابههم في الأذواق أكثر ممـا تدلنا على شدة محافظتهم على القديم وتمسكهم به . فكان مـا جد من طـرق الصناعة ورسومها يتنقل سريعاً في نهر النيل ، وهو المحجة العظمى ، ذاهباً إلى طائفة بعد طائفة من الصناع في البلاد المنتشرة في ريف مصر . وكان ما تخرجه المناسج يحمل إلى الأسواق الكبرى في منف والإسكندرية ، أو كان يحمل في الصحراء مرحلة قصيرة حتى يبلغ ميناء (بيرينيقة) على البحـر الأحمر ومن ثم ينقل في السفن إلى البلاد الأخرى . وكانت منسـوجات الكتـان والستائـر ذات الصور ـ التي تتخلل نسيجها خيـوط من الذهب وتـوشيها النقـوش البديعـة من التطريز في ألوان جميلة ـ كانت كلها من صناعة الصانع القبطي . وإنا كلما أمعنا في درس تاريخ مصر سواء منه ما كان في العصر البيزنطي أو العصر العربي زاد يقيننا بأن القبط كانوا أصحاب الفضل في بقاء آثار الصناعة حية ماثلة في البلاد وذلك في كل شعبة من شعبها : في صياغة الذهب وتطعيم المعادن والزخـرفة بالميناء وصناعة الزجاج وغير ذلك من صناعات الإنشاء أو التجميل .

على أنه لا بد لنا أن نتدارك خطأ قد يقـع فيه من يتصـور أن المهارة في الصنعة وحسن الإختيار والبصر كانا وقفاً عـلى القبط فاقوا فيهما.كل من عداهم من صناع الدولة البيزنطية أو أرمينيا وأشور وفارس ، فإن ذلك لم يكن . والحق أنه قد كان بكل بلاد الشرق صناعة فـائقة تخـرج من المنسوجـات والمطرزات وآنية الذهب والفضة والجواهر البديعة الصنع . ولقد كانت مصر تصنع الطنافس الجميلة ، ولكنا لا نقدر أن نقول إنها كانت تضارع ما تخرجه بلاد الفـرس من

= وانـظر كـذلـك كتاب (Gerspach) «Tapisseries Coptes» Les وكتـاب «Romische und Byzantinische Seiden Textilien » تـأليف Forrer وفي الكتـاب المسمى « Les cos-tumes en Eg. du IIle au XIIe Siècle » أفـاض مؤلفـه (Mons. A. Gayet) في وصف الكتان البديع والحرير والستور والزخرف الذي كان بمصـر ويفسر اختـلاف الرسـوم بأن الصناع كانوا مختـلفي الأجناس . وهذا في رأينا رأي خاطىء ، فقد كان الصناع مصريين ولكن رسـومهم كانت تتـأثر بتعـاقب الفتوح واختـلاف هوى الفـاتحين فيها ، وقـد أورد المؤلف في صفحة ٢٤٧ رسماً أشورياً له قيمة كبرى .

طنافسها البديعة[1] . وكذلك كان الحال في بعض الرسوم التي توضح الكتب ،

---

(١) ونورد على ذلك دليلاً البساط المعروف « بساط الشتاء » لملوك الفرس الذي غنمه المسلمون في المدائن فقد كان طوله ٣٠٠ ذراع في عرض ستين ذراعاً وكانوا يفرشونه في الشتاء إذا ما ذهب أوان الزهر وكان أبيض اللون يحيط به زخرف بديع من الزمرد وعليه رسم الزهور البديعة والنباتات ذات الروائح الذكية وكل ذلك من الجواهر المختلفة الألوان . فأرسل إلى المدينة فقسم بين قواد المسلمين فباع (علي) نصيبه بثمانية آلاف درهم (أنظر الطبري طبعة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤١٦) وكانت تنيس والقيس وسواها من مدائن الساحل مواضع هامة لصناعة الطنافس وسائر المنسوجات (أنظر كتاب كاترمير « Mem. His. et Geog.» (الجزء الأول صفحة ١٤١ ، ٣٠٨ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩) وقد ذكر (قيدرينوس) الكتان والحرير والطنافس فيما ذكره من الغنائم التي أحرقها هرقل في قصر كسرى في (دستجرد) وفي القرن التاسع أتى ببساط أخذ من الفرس إلى الخليفة المنتصر (الذي قتل أباه المتوكل) وكانت عليه صورة ملك متوج على ظهر جواده وقد نقشت على حوافي البساط تلك القصة « أنا شيرويه بن خسرو وقتلت أبي ولم أحكم إلا ستة أشهر » (أنظر المجموعات الشرقية الجزء الأول رقم ٣ هامش صفحة ٢٢٤) . وكانت (دمياط) تضارع (تنيس) عندئذ في دقة منسوجاتها الرقيقة ومطرزاتها وثيابها المطرزة بالذهب وبقيت كذلك مدة ثلاثة قرون أو أربعة بعد ذلك (أنظر كتاب أبي صالح صفحة ٦٢ ، ٦٣ ، وهوامشها) وقد ذكر اليعقوبي جملة من المنسوجات التي كانت تصنع عند ذلك وقد كتب حوالي سنة ٩٥٠ للميلاد . وكان يصنع في الفيوم نوع من الكتان الخشن وفي (القيس) كانت تصنع الأثواب التي كانت تسمى باسم المدينة وكذلك كانت تصنع منسوجات بديعة من الصوف . وفي البهنسا كانت تصنع أثواب الستور يسمى أحدها (البهنسي) وكانت تصنع المنسوجات الدقيقة في أهناس والأبسطة الحمراء في سيوط والطنافس الصغيرة والنمارق والجلود في أخميم والكتان الناعم في شطا وكانت تصنع في تنيس الثياب المشهورة بالدابقي على أنواعها الخشنة والدقيقة وذلك عدا أنواع الحرير الرقيق والثياب المخططة والمخمل والدمقس وغير ذلك . وكانت تصنع في دمياط أنواع من المنسوجات المتينة الدابقية والكتان الناعم والحرير الرقيق « Bibl. Geog. Arab » (الجزء السابع صفحة ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧) . ولا شك في أن هذه المصنوعات لم يدخلها العرب إلى البلاد بل بقيت من زمن الرومان . وإذا أردت قراءة شيء عن المنسوجات المطرزة التي كانت بمصر فانظر كتاب (Strzygowski « Orient oder Rom » صفحة ١١٣ وما بعدها وكذلك صفحة ٩٠ وما بعدها .

فقد جاء بعض بدائعها من صناعة فارس والعراق كما جاء من صناعة بيـزنطة . وكانت أكبر المصابغ التي يصبغ فيها الحـرير الأرجـواني الذي يصنـع منه بـرد الملك في مدينة بصرى بالشام ، وهي المدينة التي فتحها الفرس ثم العرب من بعدهم . وقد رأينا فيما سلف أن كسرى لم يكن من الملوك الهمج أو أشباههم بل كان رجلاً مهذباً عالماً . وكانت فنون الفرس في عهد الساسانيين قائمة على آثار القدماء من الأشوريين والبابليين ، وكانت تضارع فنون الدولة البيزنطية في الدقة وحسن الإنسجام .

وكانت فوق ذلـك ذات أثر أبلغ من أثـر الروم في صنـاعة العـرب ونشأة مذهبها في الرسم والنقش وهو المذهب الذي اشتهـرت به دمشق في العصـور الوسطى .

ولعـل أكبر صنـاعـات الإسكنـدريـة كـانت صنـاعـة بنـاء السفن . فـإن الإسكندرية كانت أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره إزدحاماً وحـركة ، وكـانت بها تجـارة عظيمـة في القمح والكتـان والورق والـزجاج وغيـر ذلك من صنـوف ما تخرجه البلاد . وكانت تحمل إليها مقادير عظيمة من الـذهب والعاج من بـلاد النوبة وأثيوبيا ، وكانت فوق ذلك أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها تـأتي من بحار الهنـد والصين إلى البحر الأحمـر ومن القلزم (وهي السويس) فتحمل في الترعة إلى (منفيس) ومنها تنحـدر في نهر النيـل إلى الإسكندريـة حيث كـانت تبعث إلى أطراف البحـر الأبيض المتوسط . ومثـل هـذه التجـارة العظيمة لا بد لها من عدد كبير من السفن . وكانت مصر منـذ الأزمنة القـديمة خلواً من موارد الخشب الذي تصنع منه السفن ، ومع ذلك قد كانت الأخشاب تشتري من بلاد الشام وغيرها لبناء السفن في الإسكندرية ، إذ كان بناؤها هناك في مقر التجارة التي تحتاج إليها أعود بالربح وأجدى على التجار ، وكانت مصر فـوق كل ذلـك تنبت نوعـاً من التيل يليق كـل الليـاقـة لعمـل الحبـال وأدوات السفن[1] .

---

(١) يقول ابن الفقيه (القرن العاشر) « ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه الدقس كانت =

وقد رأينا فيما سلف أن إحدى سفن الغلال التي كانت للكنيسة في الإسكندرية كانت تحمل عشرين ألف مد (كل مد خمس الأردب) ، ولم يذكر أحد أن حمل هذه السفينة كان فذاً . وأكبر الظن أن تلك السفن التجارية كانت أكبر كثيراً مما اعتاد الناس أن يظنوا فيها وكذلك كان حال السفن الحربية . وقد حدث بعد سنين عدة من هذا الوقت عندما أصبحت مصر في ملك العرب أن أمر معاوية الزعيم العربي في الشام ببناء عدد من السفن الحربية في الإسكندرية وسواها من الموانىء التي في حكم الدولة العربية ، وذلك في وقت لم يكن فيه بمراسي الإسكندرية أحد من بنائي السفن الذين هم من أصل بيزنطي محض ، إذ كانوا لا بد قد خرجوا منها جميعاً . ويقول (سبيوس) إن السفن كانت على نوعين أحدهما يمكن أن نسميه (البوارج) ، والآخر (الطرادات) . وكانت البارجة تحمل ألف رجل في حين أن السفن الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل[1] ، وكانت تجعل للسير السريع واللف حول السفن الكبرى . ويذكر ذلك المؤرخ وصفاً مسهباً عظيم القيمة لما كان في سفن الحرب من الآلات والسلاح ، فكان بها عدد القذف (مجانيق وآلات رمي الحجارة) وكان في بعضها صروح عالية فوق ظهرها حتى إذا ما جاءت السفن بحذاء أسوار محصنة استطاع المهاجمون أن يكونوا هم والمدافعون على علو سواء ، وأمكنهم أن

= تصنع منه حبال السفن وكانت تسمى القرقس « Bibl. Geog. Arab » الجزء الخامس صفحة ٦٦ » .

(١) هذه الأرقام واضحة في النسخة المخطوطة من كتاب (سبيوس) كما قال لي المستر (Conybeare) ولا أرى داعياً إلى الشك فيها ولو أن السياق يفيد أن عدد السفن الكبرى ٣٠٠ كل منها يحمل ١٠٠٠ رجل و ٥٠٠٠ طرادة كل منها يحمل ١٠٠ رجل ، فيكون ذلك كله ٨٠٠,٠٠٠ رجل أرسلوا بالبحر لغزو بيزنطة ما عدا من أرسلهم معاوية بالبر إلى (خلقيدونية) ، وهذا بالطبع عدد غير ممكن . ولا بأس علينا إذا قللنا من عدد السفن فإنه قد كان عليها شيء كثير من السلاح والآلات التي يذكرها (سبيوس) وكذلك من الخيام والمؤونة . ولعلها كانت تحمل خيلاً ولا بد قد شغل كل هذا جزءاً كبيراً من السفن .

يثبتوا من تلك الصروح إلى الأسوار ، أو أن يقيموا قنطرة على الفضاء القليل الذي بينهما ويعبروا عليها إلى حصون الأسوار .

وأعظم شأناً من هذا ما جاء في كتب (سبيوس) من الوصف الصريح لما شهده من تلك السفن الكبرى ، وأنها كانت مجهزة « بآلات تقذف النار » ، وهي آلات ترمي بالنار المهلكة المعروفة (بالنار الإغريقية) وكانت مزيجاً قوياً من مواد سريعة الإلتهاب ، وكانت تشتعل اشتعالاً شديداً لا يمكن إطفاؤه ، ولعلها كانت فوق ذلك ذات قوة على النسف والتمزيق ، وكانت لذلك تحدث تخريباً كبيراً وخوفاً شديداً . ولكن أكبر ما يسترعي النظر فيما جاء في كتاب (سبيوس) من ذلك الوصف أنه يقول : إن السفن التي بنيت في مصر بعد الفتح العربي بأمر العرب كانت مجهزة بالمجانيق لقذف المواد الملتهبة وهي المواد التي قيل إن تجهيزها كان إلى القرن السابع على الأقل سراً مكنوناً اختص به أهل بيزنطة . وقد جرت العادة أن يقولوا إن أول من اخترع النار الإغريقية رجل اسمه (قلِّينيكوس) وهو مهندس في مدينة (هليوبولس) ويقولون في تسرع إن (هليوبولس) المقصودة هي التي بالشام وليست هي المدينة القديمة الشهيرة بمصر . أما المؤرخ (جبون) فإنه يعتمد على ما جاء في كتاب (قيدرينوس) ويقول إن (قلينيكوس) كان مصرياً ولكنه يزعم خطأ أن (هليوبولس) كانت عند ذلك أطلالاً بالية[1] . وإننا لا يمكن أن نتصور أنه كان من الممكن أن تبنى سفن في الإسكندرية بعد فتح العرب لمصر بما لا يزيد إلا قليلاً على عشرين سنة ، ثم أن تجهز بتلك الآلات التي تقذف النار الإغريقية ، اللهم إلا إذا كان إختراع مزيج تلك النار وعمل آلاتها أصله في مصر ذاتها .

ومهما كان من أمر هذه النار فإنه لا شك على كل حال في أن صناعة بناء

---

(١) انظر كتاب «Decline and Fall» الباب ٥٢ هامش ٢ وفيه « وقد أتى قيدرينوس بهذا الصانع من أطلال هليوبولس ، وكانت الكيمياء العلم الخاص بالمصريين » . وقد كتب (ليو) كذلك كلمة مستفيضة في « النار الإغريقية » (الجزء الحادي عشر صفحة ٤١٩) أنظر كذلك كتاب الأستاذ « Bury « Later Rom. Emp. (الجزء الثاني ٣١١ ، ٣١٩) .

السفن كانت عظيمة في الإسكندرية في النصف الأول من القرن السابع ، وأنها لم تضمحل عندما إنتهى أمر الدولة البيزنطية في مصر . وفي هذا ما يدل على أن الصانع القبطي في هذه الصناعة وفي غيرها من الصناعات الكبرى في وادي النيل كان مستقلاً بنفسه بغير إرشاد ولا تسيير من الروم إذا لم نقل إنه كان في الحقيقة الصانع المعلم .

قد ألجأنا هذا الفصل المجمل في كلامنا على الفنون والآداب في الإسكندرية حوالي وقت غزو الفرس لمصر إلى أن نخوض في تاريخ ما سبقه وما جاء بعده من العصور ، ولكنا قصدنا إلى ذلك قصداً لأمرين : أولهما أن نبين على وجه الإجمال والتقريب ما كانت عليه المدنية المادية في هذا العصر ، وثانيهما أن ندل على أن سير تلك المدنية كان متصلاً ولم يقطعه على الأقل فتح الفرس للبلاد . فإن جيوش كسرى لم تسبب أذى كبيراً للتحف الكبرى في العاصمة سواء كان ذلك بنياناً أو علماً ، فإن غزاة الفرس لم يكونوا هم الذين دمروا مكاتب الإسكندرية إذا كانت لم تزل إلى ذلك الوقت باقية ، وكانت المنارة الكبرى منارة (فاروس) إحدى عجائب الدنيا السبع لا تزال إلى ذلك الوقت ماثلة مشرفة فيما بين المدينة والبحر ، تكلل هامتها سحب من الدخان في النهار ، ولهب من النيران بالليل . ولم يهدم من أبنية الإسكندرية ما اشتهرت به المدينة من المعابد القديمة وساحات العمد الفسيحة والقصور التي لا تقع تحت حصر ، بل إن الكنائس ذاتها التي كانت في داخل أسوار المدينة لم يمسها أذى يستحق الذكر ، وكان المصلون يزدحمون في الكنيسة الكبرى كنيسة (القيصريون) أو في كنيسة القديس (مرقص) حيث كانت رفاة (رسول مصر)[1] لا تزال في مقرها يعلوها المذبح المنيف .

---

(١) تدل شهادة الحجاج بعد هذا العصر على أن كنيسة القديس مرقص بقيت سالمة . وقد بقيت بعد الفتح العربي الثاني للإسكندرية وفيه على ما يظهر تهدّمت كنيسة القيصريون .

الفصل التاسع

جهاد أصحاب الصليب للفرس

هرقل يطلب الصلح ـ يمتنع سفره إلى قرطاجنة ـ يصح العزم على حرب فارس ـ إرسال وفد إلى كسرى وإخفاقه ـ إرسال بعث إلى قليقيا ـ القيادة في البحر ـ ما حدث في كنيسة أيا صوفيا ـ تنتهي الحرب بالقضاء على قوة الفرس ـ إرجاع الصليب ـ إنتصار هرقل .

بلغت الحال بهرقل مبلغاً سيئاً وهوى ملكه حتى صار لا يتعدى أسوار عاصمته . فكانت جموع التتار أو الهون وما إليها من قبائل الهمج تضرب فيما يلي قسطنطينية من الغرب ، وذلك من ناحية القارة ، وقد كانت تلك الجموع من قبل تتنقل هناك لا يقف أحد في سبيلها حتى جاءت عند ذلك تدب حول أبواب المدينة ذاتها ، وكانت الجيوش الفارسية تقتحم آسيا الصغرى وتجتاح ما في طريقها حتى فتحت (خلقيدونية) على الساحل الأسيوي للبوسفور تجاه القسطنطينية[1] ، وذلك بعد أن بسطت يدها على فلسطين والشام ومصر . وخيبت عند ذلك الآمال التي أشرقت على الناس عند تولية هرقل أو علتها سحابة داكنة ، إذ رأوا أو خيل إليهم أنه قد ذهبت عن ذلك العاهل همته الشماء التي مهدت له سبيل العرش ، وحل محلها الفتور واليأس . وكان أول شيء فعله بعد

(١) قد وصف (تيوفيلاكت) موضع (خلقيدونية) وصفاً دقيقاً (الجزء السابع صفحة ١٥ ثم الجزء الثامن صفحة ١٤) (Teubner. Classics, ed. de Boor) .

استيلائه على الملك أن بعث إلى كسرى يتوسل إليه أن يصالحه ، فما كان نصيبه من ذلك إلا الدفع والرفض[1] بإزدراء .

والظاهر أن هرقل خارت نفسه وضاع منه الأمل في الخلاص منذ عرف أن مصر قد إنفصلت عن دولته ، وضاع ما كان يأتي من تلك الأرض الغنية من الجزية من أموال وقمح ، ورأى أن خزائنه خاوية من المال والغلال ، وأن حوله أعداء ضارية تحصره وتهدد أسواره ، ولم يكن دونها من حماة إلا جند خائر الهمة منفرط النظام ، وسولت له نفسه أن يهرب ناجياً ، وفي ذلك ما يعزز رأي من يقول إنه كان يحس أن لا قبل له بحمل أمور تلك الدولة وهمومها ، وإن وقع المصائب قد صدع نفسه فذهب بما فيها من الشهامة والهمة ، وإنه قد انخلع قلبه وتحطم منه ما كان صلباً . وقد ثبت عند الناس أنه قد وطد العزم على أن ينضو التاج ويعود إلى موطنه في أفريقيا . ولو صح ذلك لحق للناس أن يذكروا رد فوكاس عليه إذ قال : « وهل أنت من يحكم خيراً من هذا ؟ » على أن الأمر فيه ما يدعو إلى الظن أن هرقل إنما كان يريد نقل مقر الحكومة إلى قرطاجنة حتى يقدر أن يجهز نفسه في متسع من الوقت والمجال قاصداً أن يعود بعد ذلك ليسترد أرض دولته في آسيا .

ومهما يكن من الأمر فقد سافرت سفينة تحمل الأموال والتحف التي كان يريد حفظها قاصدة قرطاجنة فلما بلغت (بنطابولس) نزلت بها كارثة فغرقت . وعند ذلك علم (سرجيوس) بطريق القسطنطينية بما عزم عليه هرقل ، فأحفظه ذلك وحال بين الإمبراطور وبين إتمام ما كان ينوي . وليس لنا من سبيل إلا الحدس لمعرفة ما كان بينهما ، فلا ندري بأية لهجة كلمه ولا بأية قوة أثر فيه فجعله ينصاع لرأيه ، وينزل عن عزمه الأول . ولكن المحقق عندنا هو أن البطريق نفخ في الإمبراطور روحاً جديداً وجعله يقسم له على المذبح

---

(١) قال (سبيوس) إن كسرى قال عند ذلك « إن الدولة لي وقد غصبها ثم هو يرسل الآن إلينا أموالنا هدية ، ولكنا نصبر طويلاً حتى نأتي به إلى قبضة يدنا » وقتل الرسل ولم يرسل إلى هرقل جواباً .

الأكبر في الكنيسة الكبرى أن يؤدي أمانته وأن يقاتل في سبيل تخليص الدولة من أعداء الصليب[1] .

ولا شك أنه قد طرأ على الإمبراطور منذ ذلك الحين تغير مشهود ، ولا ندري سبب ذلك التغير الذي أحدث أول حرب صليبية كبرى ، أكان سببه لسان (سرجيوس) وبلاغته في الموعظة ، أم كان ما شهده تحت القبة الكبرى في كنيسة (أيا صوفيا) مما يثير النفس ، أم كان بارقة من الأمل لمعت له من تغير في حال عدوه ، أم كان السبب كل ذلك وقد اجتمع وصحبه نهوض من وهدة اليأس التي تردى فيها . وكان ذلك أمراً طبيعياً في رجل مثله كان له عقل راجح يحكمه مزاج غلبت عليه الأعصاب . أما الناس فقد رأوا منه على الأقل رجلاً ينضو عن نفسه الضعف والخمول كما تنضو الأفعى عنها أديمها ، وعاد إلى ما كان عليه من خلق الزعيم القوي ، وأظهر من شيم الملوك ما هو جدير بولاء الناس وخضوعهم ، وأصبح وليس في نفسه إلا أن يجمع كل ما عنده من الموارد ويتجهز للحرب مع الفرس .

ومع ذلك فقد إتخذ هرقل الحيطة في أعماله ، فبينما كان يستعد للحرب عول على أن يفاوض قائد الفرس في أمر الصلح[2] ، فزاره بنفسه في مدينة

---

(١) كتاب ليبو « Histoire du Bas Empire ed. de Saint Martin » (الجزء الحادي عشر صفحة ١٩ و ٢١) .

(٢) جاء في كل من (ديوان بسكال) وكتاب (تيوفانز) لفظ (شاهين)*[20] أنه الاسم وقال (نيقفوروس) إن الاسم هو (سايتوس)*[21] أي شاهين وهو الذي يعزي إليه فتح مصر (أنظر ما سبق في هامش صفحة ١١٠) وقد جاء بوضوح في ديوان بسكال أن (ساين) هو فاتح (خلقيدونية) الأول وجاء فيه بوضوح مثل ذلك أن (خوريام) ويسميه (سالفاراس)*[20] أي (شهر - ورز) هو الذي كان قائد الفرس في فتح خلقيدونية بعد عشر سنوات وقال إنه وصل هناك سنة ٦٢٦ ولا يمكن أن يكون الخبران صحيحين ، لكن الخلط بين شاهين وشهر - ورز محير وليس عجيباً ، ويسمى جبون القائد الأخير (Sarbaraza) ويتكلم بعد ذلك بصفحتين عن قائد اسمه (Sarbar) والاسمان علمان على شخص واحد ولو أن الظاهر أن (جبون) لا يعرف ذلك . وقد جعل جبون (ساين) قائداً =

(خلقيدونية) . وقد نصح الناصحون للإمبراطور أن يوفد رسلاً إلى كسرى يطلب منه الصلح ، وقالوا إنه لا بد يجيبه إلى ذلك ، فأرسل ثلاثة من خاصته وبعث معهم كتاباً لا يزال باقياً إلى اليوم ، وأرسل معهم هدايا ذات قيمة ، وأدى الرسل أمانتهم وأفضوا بالكتاب إلى الملك الأعظم ، فقبل منهم الهدايا ولكنه أجاب على الكتاب رداً قاطعاً جاهماً إذ قال : « قل لمولاك إن دولة الروم من أرضي وما هو إلا عاص ثائر وعبد آبق ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس »[1] .

فأحدثت تلك السبة المقصودة في ردّه هذا هزة عنيفة أيقظت نفوس الروم من رقدتها ، وأظهرت لهم من جديد أن تلك الحرب كانت دينية . فثارت حفيظة القوم وتملكتهم الحماسة ، فوجد الإمبراطور فيهم عند ذلك ما شاء لتمام خطته الجديدة . وقد قيل إن هرقل عندما أرسل رسله إلى كسرى قد بعثت إلى أعدائه

= في (خلقيدونية) ويجعله يسير مع رسل هرقل ويقول إن كسرى سلخه حياً ولكن (تيوفانز) يقول إنه مات من الغم والمرض بعد هزيمته ببضع سنين وقد مثل كسرى بجثته . ويقول (سبيوس) إن شاهين أغار على (قبادوقيا) في سنة ٦١٠ ثم اشترك بعد ذلك مع خوريام ولكن (سبيوس) يقول إن (خوريام) سار عند ذلك إلى (خليقدونية) وقاد الجيوش هناك ويذكر المقالة التي قالها هرقل عند ذلك في (خلقيدونية) وهذا هو الحق لا شك فيه إذ كان (شاهين) في مصر .

(١) قد أورد (تيوفانز) بعض هذا الرد وأورد المؤرّخون الفرس البعض الآخر . (أنظر الجريدة الأسيوية السلسلة السادسة ١٨٦٦ الجزء السابع صفحة ٢٠١) وقال (سعيد بن بطريق) إن كسرى لما ضيق على القسطنطينية أرادت المدينة أن تسلم إليه ولكن هرقل أرسل إليه ١٠٠٠ تالان (وكل تالان نحو مائتي جنيه) من الذهب والفضة وألف عذراء وألف حصان وألف خلعة من الحرير . وقد أخذ عنه (جبون) هذه القصة ولعلها غير جديرة بالتصديق فهي تتناقض مع بقاء الفرس عشر سنين في (خلقيدونية) وهذا أمر غير متنازع فيه ، ولم يفسر (جبون) ذلك التناقض . ولا يذكر (ديوان بسكال) شيئاً من ذلك مع أنه كتب في ذلك العصر . ولعل هذه القصة لا تزيد على أن تكون رواية متأخرة لقصة الوفد الذي ذكرناه في متن كتابنا ، وقد روى (سبيوس) رواية أخرى عن خبر كتاب كسرى إلى الإمبراطور .

من الهمج ليهادنهم إلى حين[1] ، فأمن بذلك أن يأتيه العدوّ من ورائه من ناحية الأرض المتصلة بالعاصمة . وقد روى أنه اتفق فيما بعد مع قبيلة من قبائل الترك في شمال بلاد الفرس على أن يمدّه شيخها بأربعين ألفاً من خيله ، وأن يجزيه نظير ذلك بأشياء منها أن يزوّجه بأخته (أودوقيا) . ولكن هذا العهد لم ينفذ لموت شيخ القبيلة الذي اتفق معه . على أنه من أشق الأشياء أن نجد الدليل القاطع على وجود السلام في غرب العاصمة[2] فإن قبائل الآفار كانت لا تزال تجوس خلال الديار في سنة ٦٢٢ أو سنة ٦٢٣ تخرّب فيها ، وكادوا يوقعون بهرقل نفسه ثم يأخذون العاصمة بمكيدة دنيئة دبروها . ثم جاء جيش من الآفار عدّته ثلاثون ألفاً في سنة ٦٢٦ وحاصر المدينة حليفاً للفرس الذين كانوا في مدينة (خلقيدونية) وكان قائدهم عند ذلك على ما يلوح هو (شهر ـ ورز) الذي قدم منذ قليل . وعلى ذلك لم يكن السلم بين الروم والآفار سلماً صحيحاً ولم يدم طويلاً . وأكبر الظن أن هرقل كان على بينة من أمر العهد الذي كان بينه وبين الآفار عالماً بقدره الحقيقي موقناً أن سلامة عاصمته أثناء غيابه إنما تكون بقوة حصونها وسهر السفن الحربية على سلامتها . وكان إقبال الناس على الحرب عندما ندبهم إليها عظيماً ، فاستطاع أن يجمع جيشاً كبيراً ويجهزه ، وبلغت عدته مع من اجتمع إليه فيما بعد مائة وعشرين ألفاً . وكانت خطته أن يبدأ أول شيء فيختار ميداناً يستطيع أن يدرب فيه جنوده ويعودهم النظام ويعلمهم حركات الحرب واستعمال السلاح . وفي أثناء ذلك يجمع في خزائنه الذخائر والمؤن الكثيرة . فإذا ما تم له ذلك وأصبح جيشه صالحاً للقتال خرج قاصداً إلى قلب بلاد الفرس ليطعنها فيه . ولهذا عزم على أن ينقل جيشه إلى

---

(١) يجعل (قيدرينوس) هذا الصلح في السنة الحادية عشرة من حكم هرقل أي في سنة ٦٢١ أو سنة ٦٢٢ .

(٢) لعل رواية (تيوفانز) عن هذا الأمر صحيحة ولكن من الشاق أن يدرك الإنسان تواريخه أو يوفق بينها وبين ما جاء في الكتب الأخرى ، هذا مع اعتبار الخطأ الثابت في طريقته في التاريخ فإن الهجوم على هرقل إذا وقع في سنة ٦٢٣ فإن عودته إلى القسطنطينية من ميدان القتال وإقامته بها بضعة أسابيع لا بد تكون قد وقعت في الشتاء .

خليج (أيسوس) في الركن الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، وأن يجعل (قليقيا) مقره . وكانت تلك منه جرأة عظيمة ساعده عليها أنه كان يملك ناصية البحر لا منازع له فيه وأن وراءه من السفن عدداً جد عظيم .

وإنه ليتبين من هذا أكبر خطأ وقع فيه الفرس، فإنهم لو كانوا أعقبوا إنتصارهم الأول في البر بتعلم حرب البحر والانتصار فيه لما استطاع أحد أن يدفعهم عن ملك دولة الروم[1]. وقد كان من حسن حظ المدنية المسيحية أن الفرس لم يكونوا من أهل البحار ولم يعرفوا عند ذلك مقدار حاجتهم إلى ملك البحر إذا هم شاءوا أن يتم لهم النصر، وأن يبقوا على ما فتحوه. وقد جاء في كتاب (سبيوس) أن كسرى عندما بعث رده الشنيع إلى هرقل أمر جنده أن يعبروا إلى (بيزنطة)، فجهزوا عدداً كبيراً من السفن وأعدوا عدتهم للحرب في البحر ، فلما سار أسطول الفرس قابلتهم سفن الروم الكبيرة فصدمتهم صدمة انهزموا لها هزيمة قبيحة ، ومات منهم أربعة آلاف رجل[2] ، وتحطمت سفنهم كلها ووقع في أنفسهم الفشل « فلم يجرأوا بعد على مثل هذا العمل » وظلوا مقيمين نحواً من عشر سنوات لا ينتفعون بما في يدهم من ثغور البحر أمثال (خلقيدونية) وميناء الإسكندرية العظيمة وما إليها من موانىء الشام وموانىء بلاد المغرب في (ليبيا) و (بنطابولس) ، وكانوا يستطيعون لو شاءوا أن يجمعوا في هذه المواضع سفنهم ويعدوها للحرب فيسيطروا بها على بلاد البحر الأبيض المتوسط . فقد كانوا يستطيعون أن يجهزوا من الإسكندرية وحدها أسطولاً به عدته ورجاله يناجزون به أساطيل الروم وينابذونه على سواء في أمل النصر . ولكن الفرس كانوا جنوداً اعتادوا حرب البر ، فلم يفطنوا إلى قيمة البحر والسيادة فيه ، ولم يتعلموا من الحوادث درساً تعلمته جمهورية الروم القديمة بعد لأي ، ولكنها منذ لقنته برعت فيه

---

(١) قد سعى كسرى بعد احتلال (خلقيس) أن يجهز أسطولاً ولكن الأشياء التي أعدها لبنائه ضاعت في حريق فعدل عن ذلك الأمر .

(٢) وقد ذكر (توما الأرظروني) أنه قد قتل ٤٠٠٠ جندي مدرع (أنظر كتاب Brosset « Collection d'Historiens Armeniens » الجزء الأول صفحة ٨٢) .

واستفادت منه أثناء حربها مع قرطاجنة ، وهو الدرس الذي تلقنته العرب فيما بعد سريعاً في فطنة وذكاء قبل أن ينتهي ذلك القرن السابع . وعلى ذلك فقد ظلت جنود الفرس مرابطة بالشاطىء ثابتة عليه ، وكان أثرها في الحرب ضئيلاً لا ترزأ عدوها بالهجوم إلا قليلاً . فرأى هرقل بعد قليل أنه يستطيع أن يتركها حيث هي لا يعبأ بها ، فكان الروم إلى ما بعد عشر سنوات من فتح الفرس مدينة (خلقيدونية) يسيرون بسفنهم آمنين لا يخشون شيئاً في المضيق بين جنود الفرس على ضفة وجنود الهون على الضفة الأخرى[١] .

وقبل أن يبدأ هرقل رحلته حول آسيا الصغرى أعدّ العدّة لكي يجهز ما يلزم لها من النفقة ، وذلك بأن اقترض من الكنائس كل ما تستطيع إقراضه من كنوز عظيمة من آنية الذهب والفضة ، ثم سكها نقوداً . وكانت تلك وسيلة سيئة فيها كثير من الإسراف أمدّ بها خزائن الدولة ، ولكن لعله لم يكن دونه وسيلة سواها . فلما أن تم الجهاز استخلف هرقل على الحكم ولده وجعل عليه وصيين وهما البطريق (سرجيوس) والنبيل (بونوس) ، ثم انتعل نعلاً أسود ودخل الكنيسة الكبرى وخرّ ساجداً يصلي لله يسأله المعونة والبركة فيما هو مقدم عليه[٢] . وكان ممن شهد صلاة الإمبراطور رجل اسمه (جورج البيسيدي) وكان شماس الكنيسة وسادتها فقال : « أسأل الله أن تصبغ نعلك في دماء عدوّك حتى يصبح نعلك الأسود وقد أحمر لونه » وتلك لعمري دعوة تقى نغتفرها لشاعر الملك[٣] لا لقسيس الجيش وإمامه . إذ يظهر أن (جورج) هذا الذي ذكرناه قد

(١) ديوان بسكال (ميني .Pat. Gr الجزء ٩٢ المجموعة ١٠١٤) .

(٢) جاءت هذه القصة في (قيدرينوس) وقد ذكر الكلمات التي قالها هرقل في صلاته .

(٣) يمكن أن نجد في كتاب ميني « .Pat. Gr » الجزء ٩٢ تلك القصائد السخيفة التي قالها الشاعر (جورج البيسيدي) في حروب الفرس والآفار ونحن موردون هنا بعض أسطر من « هرقليته » التي تحتمل الترجمة وهي تصف الروح التي أحياها هرقل :

خشى الروم من الفرس وقد ... هربوا في الحرب من وقع الأسل
وغدوا والجبن من عادتهم ... منذ حل الخوف فيهم والفشل
من سوى قولك أحيا موتهم ... فكساهم ثوب عزم وأمل؟ =

سار مع الجيش شاعراً وقسيساً في وقت واحد . وبدأ هرقل رحلته في يوم الإثنين يوم عيد الفصح لسنة ٦٢٢[١] ، فسارت سفنه من العاصمة نحو الجنوب ، فلقيت في سبيلها عاصفة تكشف هرقل فيها عن نفس لها ثبات القائد ورباطة جأشه ، وقوة النوتي وصبره على مقابلة الأخطار . ثم سارت السفن تشق حيازيمها الماء حتى بلغت مرساها بغير أن تنزل بها نازلة . وهبط من فيها من الجند إلى البر وأقاموا معسكراً في مدينة (أيسوس) وحلت منهم جماعة في شعب (بيلي) وهو على الحد الفاصل بين الشام و (قليقيا)[٢] .

وليس قصدنا أن نصف ما كان من الحوادث في مدة السنوات الست التي كان هرقل يشن فيها الغارة على بلاد الفرس . فقد كانت جنوده مظفرة منذ بدأ

= من سوى عزمك قد بدلهم ... باعثاً في كل قلب ما انخذل؟
ما سوى حزمك قد أنشرهم ... بعد أن كانوا كأحجار الجبل
يشقلون الأرض من كثرتهم ... ثم لا يغنون في أمر جلل

(١) قد أورد (تيوفانز) تاريخ تلك السنة إيراداً دقيقاً وهو يقول إنها هي السنة التي ظهر فيها محمد أي سنة الهجرة وهي سنة ٦٢٢، وجاء نفس التاريخ في (ديوان بسكال) وعلى ذلك نستطيع أن نجعله علماً في مفازة هذا العصر المجهول. وقد ذكر (جورج البيسيدي) وكان مع هرقل في سفره في البحر، ثم ذكر (تيوفانز) و(قيدرينوس) أن الامبراطور غادر العاصمة في يوم الفصح (الإثنين). والظاهر أن (جبون) يأخذ هذا عنهم ولكنه يجعل الفصح يوم الثلاثاء، وهذا بلا شك خطأ في فهم ما جاء في النص اليوناني «Feria Secunda» والعيد الأول «Feria Prima» هو بالطبع يوم الأحد وقد خلط (تيوفانز) بين الحملة الأولى والحملة الثانية.

(٢) قد أورد (جورج البيسيدي) قولاً عاماً غير مستوف. وأما (سبيوس) فإنه يؤكد هذه الرواية ويتممها. وقد ذكر (سبيوس) أن الواقعة التي كانت في جوار أنطاكية لم تكن هزيمة لأحد الجانبين على أنه قد قتل فيها خلق كثير منهما ثم رجع الروم إلى (بيلي) فهزموا فيها الفرس فجاء الفرس إلى (طرسوس) ففتحوها وفتحوا (قليقيا) جميعها. فهل معنى هذا أن الحملة أخفقت فيما قصدت إليه؟

أما (جورج البيسيدي) فإنه لا يذكر شيئاً عن مثل هذه النتيجة ولكنه يذكر أن الإمبراطور عاد إلى بيزنطة .

القتال ، واستطاع أن يجعل ممن معه من الجند ـ ولم يكن فيهم كبير أمل في مبدأ أمرهم ـ جيشاً جليلاً . فكان كمن إتخذ من مادة خسيسة سيفاً حساماً ثم جعله في يده يبطش به في عدوه بطش بطل مغوار بارع في القتال وكان هرقل ذا أيد وقوة ، نجداً هيكلاً ، ماهراً في نزال القرين ، تملأ قلبه الغيرة ويثور به إيمان قوي بأنه فارس الصليب ، وعليه أمانة يؤديها في نصرته ، ويؤثر أن يشارك جنده في تحمل المشاق . وكانت له في الجيش هيبة يملك أمره وزمامه ، فإذا اختط خطة كانت سريعة موفقة ، وإذا طرأ طارىء كان رابط الجأش مالكاً أمر نفسه . ولهذا وذاك مما بدا من صفاته بين الناس المثل الأعلى للزعيم واستطاع أن يغلب عدوه في موطن بعد موطن وينتصر انتصاراً لا مثيل له .

وكانت غزوة (قليقيا) كأنها الوتد يشق قلب الأرض التي كان الفرس يملكونها عند ذاك فيما بين النيل والبوسفور . وفي السنة التالية أرسل بعث آخر إلى (طرابزون) فكان كأنه وتد آخر أرسل ليلاقي أخاه آتياً من شمال آسيا الصغرى . فكان دفع هذين البعثين عظيماً ، ثم توالت الوقعات فاضطر الفرس أن يدعوا جيوشهم من الإسكندرية و (خلقيدونية) لتنصرهم . ولا ندري متى كان ذلك ، ولكن المؤرخين مجمعون على أن فتح كلا المدينتين كان في وقت واحد ، وتخليتهما كذلك في وقت واحد . ويختلفون بعض الإختلاف في مدّة حلول الفرس بهما . فيقول المكثر إنها كانت في كلا الحالين اثنتي عشرة سنة ، ويقول المقلل عشر سنوات . ولن نخطىء الصواب خطأ بعيداً إذا نحن جعلنا تاريخ جلاء الفرس عن ضفاف البوسفور والنيل كليهما في أول سنة ٦٢٧[1] للميلاد .

---

(١) جاء في (ديوان بسكال) أن مجيء الآفار والخاقان إلى بيزنطة كان في ٢٩ يونيه سنة ٦٢٦ ويقول إن ذلك كان بعد وصول (شاه ـ ورز) ليتولى القيادة في خلقيدونية . وقد أخفق الحصار لأن سفن الروم بقيت مسيطرة على البحر فحالت دون ما كان في النية القيام به من إجتماع الآفار والفرس واشتراكهما في القتال ، فاضطر الخاقان إلى الرجوع خاسئاً ومعه جنوده وقد نال منهم الفشل وفتك بهم الجوع وما مضت سنتان بعد ذلك حتى إنتهى القتال .

وتكللت أعمال الحرب بفتح (دستجرد) في فبراير سنة ٦٢٨ وهي مدينة على ثمانين ميلاً من المدائن وهي (طيسفون) نحو الشمال . وفي الرابع والعشرين من ذلك الشهر فرَّ كسرى هارباً هرباً مهيناً ، ثم قبض عليه وسجن ولقي على يد خلفه (شيرويه) عذاباً شديداً وذلاً ، ثم قتله بعد أيام من ذلك . وأحرق قصر كسرى فلم يبق منه شيء وذهب طعمة للحريق كل ما به من التحف والكنوز[1] التي لم يستطع نقلها ، وأطلق من كان في السجون من أسرى مصر والشام وهم كثيرون وفيهم (زكرياس) بطريق بيت المقدس ، وأعيد الصندوق الذي كان به الصليب المقدس لم يمسسه سوء إلى هرقل[2]، وانتهى القتال إلى صلح بين دولتي الروم والفرس . وهكذا انتهت تلك الحرب الصليبية الكبرى بنصر عجيب قل مثله في التاريخ فيما يثيره في النفوس .

---

(١) يظهر (تيوفانز) الأسف لتدمير « أبدع الأبنية وأعلاها فناً وأجمل القصور » ويذكر ما كان هناك من حدائق الحيوان وبيوت الطيور . ويقول إنه قد ضاعت في الحريق مقادير عظيمة من عود الند والبهار والسكر والزنجبيل والكتان والحرير والطنافس والمعادن النفيسة . ويذكر الكتاب من أهل الشرق أخباراً مبالغاً فيها عن الأموال والعجائب التي كانت في قصر كسرى فجاء مثلاً في « Tarikh Regum Persiae » (صفحة ١٦٠) أنه قد كانت هناك آلة تتحرك بنفسها بها مرصد ينبىء بالمطر والرعد وغير ذلك . وجاء في « تاريخ جاهان آرا » (ترجمة السير و . أوسلي صفحة ٦١) أن كسرى كان عنده في قصره ١٥,٠٠٠ جارية تعرف الغناء و ٨٠٠٠ رجل في حاشيته و ٢٠,٥٠٠ من الخيل و ٩٦٠ فيلا ، وكذلك كان عنده كأس لا ينضب الماء منها ويد مبسوطة من العاج إذا وضعها في الماء عند ميلاد طفل انقبضت وأنبأت عن طالعه وقطعة من الذهب لينة كالشمع ومنديل إذا لحقه الوسخ وضع في النار فعاد نظيفاً . أنظر كذلك كتاب (جبون) . « Decl. And Fall » الجزء الثامن صفحة ٢٣٠ (طبعة أدنبرج سنة ١٨٤٨) .

(٢) ليس من الواضح هل استرجع هرقل الصليب من شيرويه في الحال فقد جاء في Col. d'his. Armeniens (Brossot) الجزء الأول صفحة ٨٦ أن هرقل دعا خوريام (شاه ـ ورز) ووعده بملك فارس إذا جاء له بالصليب . وجاء في (بروسيه) بعد ذلك في هامش أن خوريام كان في (خلقيدونية) وقتئذ وأظنه مخطئاً في ذلك لأسباب : (١) ترك خوريام (خلقيدونية) قبل سقوط كسرى (أنظر درابيرون صفحة ٢٥٨) ، (٢) إذا لم يكن الأمر كذلك لم يكن الوعد ممكناً إلا بعد موت (شيرويه) . وقد جاء في (درابيرون) أن هرقل =

وجاءت البشرى يحملها رسل الإمبراطور بانتهاء الحرب والنصر في يوم عيد العنصرة الذي كان في الخامس عشر من شهر مايو من السنة ذاتها وقرئت من منبر كنيسة أيا صوفيا[1] وكان لهذا النصر وقع كبير في نفوس الكتاب في ذلك

= عاد إلى قصره بقرب (خلقيدونية) ونزل قائده (تيودور) ليأتي بالصليب من (خوريام) . فلما أتم (تيودور) ذلك عاد به إلى القصر فحمله هرقل في البحر وسار ظافراً إلى القسطنطينية وكان هذا بعد أربعة أشهر أي في ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٨ (صفحة ٢٧٦ - ٧) . ويمكن أن يختلط هذا التاريخ بتاريخ عيد إعلاء الصليب في بيت المقدس . وقد اختلف (سبيوس) في ذلك مع إتفاقه في أن هرقل أخذ الصليب من (خوريام) وليس من (شيرويه) وأما بعد ذلك فإنه يصف أن هرقل لقي (خوريام) بنفسه ووعده بملك فارس في يوم موت (شيرويه) في أغسطس سنة ٦٢٨ في نظير تسليمه الصليب إليه . فأقسم (خوريام) على ذلك فذهب إلى المدائن فقتل الملك الطفل (أردشير) وكثيراً من الأشراف ووجد الصليب وبعث به مع رسل إلى هرقل سريعاً . وإذا صح هذا لم يمكن أن يكون الصليب قد وصل إلى هرقل قبل عيد الميلاد من سنة ٦٢٨ بزمن طويل أو بزمن ما . ولكن ليس من الواضح لِمَ لم يأخذ هرقل الصليب من (شيرويه) بل طلبه من (خوريام) ؟ ولم كان (خوريام) أقدر على الإتيان به أو أرغب في ذلك ؟ ويجدر بنا أن نذكر أن (سبيوس) يقول إن (خوريام) كان في الإسكندرية عندما أتاه كتاب هرقل يدعوه إلى لقائه . ولا شك في أن هذه كانت إسكندرية الشام لأسباب : (١) اعتاد (سبيوس) إذا أراد إسكندرية مصر أن يذكرها « إسكندرية المصريين » (٢) لا بد أن يكون (خوريام) قريباً فإن القصة التي تركته في (قيادوقيا) تقول إنه لا يزال « في الغرب » بعد أن فتح هرقل (المدائن وأنه رفض أن يساعد كسرى . (٣) ينكر الطبري ذهاب (شاه - ورز) إلى مصر ويقول المسعودي فسار إليه من أنطاكية من بلاد الشام شهريار (طبعة باربييه دي مينار الجزء الثاني صفحة ٢٣٣) .

(١) قد أدى لنا (ديوان بسكال) خدمة جليلة بأن قال عرضاً إن يوم ١٥ مايو وهو يوم الاحتفال كان أيضاً يوم (أحد العنصرة) فذلك يثبت تاريخاً علماً في حوادث ذلك العصر . والظاهر أن هذه الحقيقة لم يدركها أحد الإدراك الواجب ولكنها مع ذلك حقيقة ذات شأن كبير ، فإن السنة الوحيدة التي وقع فيها يوم ١٥ مايو في يوم أحد هي سنة ٦٢٨ . وتدل البيانات في « كنز التواريخ » على أن يوم الفصح من عام سنة ٦٢٨ هو يوم ٢٧ مارس . وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يقع عيد العنصرة يوم ١٥ مايو وهذا إتفاق صريح مع ما جاء =

العصر ، ولا شك أنه قد أقيم من أجله ما اعتادوا إقامته في ذلك المكان العظيم

= في الديوان فكما أن تاريخ بدء هذه الحرب التي قام بها هرقل قد ثبت وقوعه في سنة ٦٢٢ لأنه كان في سنة هجرة سيدنا محمد قد ثبتت كذلك نهايته بوقوعها في يوم العيد المذكور في الديوان . والمدة بين بدئه ونهايته ست سنوات ، وهو ما ينص عليه كل المؤرخين ، وعلى ذلك يثبت لنا هذا الأمر . وقد جاء ما يؤكد هذا التاريخ في كتاب (Drapeyron) صفحة ٢٦٧ ولكنه في الصفحة السابقة على تلك قد ذكر الخطاب الذي قرىء في كنيسة (أيا صوفيا) في يوم ١٥ مايو وقال إنه قد كتب في أرمينية بعد يوم ٨ مايو ! وأما (تيوفانز) فإنه يقول إن الحرب انتهت في سنة ٦٢٦ ويجعل زيارة الإمبراطور لبيت المقدس في السنة نفسها ومقدمة الكتاب الذي كتبه (زكريا) من أسره تفيد أن موت كسرى كان في سنة ٦٢٧ (ميني « Pat. Gr. » الجزء ٨٦ المجموعة ٣٢١٩ وما بعدها) وأن عودة (زكريا) كانت في الربيع التالي سنة ٦٢٨ ولكن أين كان زكريا في هذه الأثناء ؟ إنه لم يذهب مع الإمبراطور بغير شك إلى القسطنطينية وقد جاء في كتاب (تاريخ جاهان آرا) (صفحة ١٢٥ هامش ٢) أن موت كسرى كان في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٧ وهذا تعيين دقيق ، ولكن هذا التاريخ يوافق ١٥ سبتمبر سنة ٦٢٨ وهذا غير مقبول فإن الأدلة قائمة على أن ذلك كان في شهر فبراير ولكنا إذا خطأناه في الشهر وجب أن تكون السنة أيضاً مخطئة لأن فبراير سنة ٦٢٨ كان في سنة ٦ للهجرة ويقول المؤرخ العربي (مكين) إن خلع كسرى وموته كان في سنة ٥ للهجرة ولكن الكاتب في الجريدة الأسيوية (السلسلة ٦ الجزء ٧ سنة ١٨٦٦) يأخذ بما جاء في (سبيوس) وسواه من الكتاب الأرمن ويجعل مدة حكم كسرى من ٥٩٠ إلى ٦٢٨ وهذه التواريخ تتفق كل الإتفاق مع ما جاء في (الطبري) وهو حجة فيما رواه عن تاريخ الفرس . وهو يقول إن هجرة سيدنا محمد كانت في سنة ٣٢ من حكم كسرى أي سنة ٦٢٢ وأن موت كسرى كان في السنة الثامنة والثلاثين من حكمه أي سنة ٦٢٨ ، وإن إتفاق هؤلاء المؤرخين المختلفين مع ديوان بسكال لجدير بأن يُعَد برهاناً قاطعاً على أن التاريخ الذي عزل فيه كسرى وقتل هو شهر فبراير سنة ٦٢٨ ، ومع ذلك فإن هذا التاريخ لا يتفق كل الإتفاق مع التاريخ الذي أخذنا به لفتح الفرس بيت المقدس وهو سنة ٦١٥ إلا إذا قللنا مدة الفترة التي كانت فيها المدينة خاضعة للفرس وهي تقدر عادة تقديراً غير دقيق فتجعل أربعة عشر عاماً ، وهذا المجموع لا يمكن أن يعد صحيحاً إلا إذا اعتبرنا أن الجزء من سنة ٦١٥ كأنه سنة كاملة وإن الجزء من سنة ٦٢٨ كذلك كأنه سنة كاملة .

في مواسمهم الجليلة وحوادثهم الكبرى من احتفال باهر وزينة بالغة[١] .

ولكن الإمبراطور اضطر إلى البقاء حيناً في بلاد الشرق كي يتم عمله في القضاء على عدوه ونشر السلام على بلاده . فلما أن خرجت جنود الفرس الباقية في حصون الشام وآسيا الصغرى على بكرة أبيها وعادت إلى بلادها تحت حراسة جنوده وعاد البطريق (زكرياس) إلى مقره في بيت المقدس عاد هرقل إلى وطنه بعد أن غاب عنه ست سنوات قضاها في نضال وقتال ، ودخل القسطنطينية مظفراً منصوراً يحمل معه الصليب المقدس الذي خلصه ممن لا يعبدون الله .

---

(١) يجب على كل من يهتم بأمر هذا الأثر العظيم من فن البناء البيزنطي أن يقرأ كتاب « St. Sophia Cons. » (Lethaby and Swainson) ففي هذا الكتاب أخبار كثيرة عن تاريخها ووصف بنائها وفيه على الخصوص وصف كثير للمحراب .

الفصل العاشر

إعلاء الصليب

حج هرقل إلى بيت المقدس ومعه الصليب ـ اليهود في طبرية ـ احتفل بإعلاء الصليب في كنيسة القيامة ـ أعلى ما بلغه الإمبراطور من المجد في حياته ـ يوافق على مقتلة في اليهود ـ صوم هرقل ـ موت البطريق (زكرياس) ـ خلفه (مودستوس) ـ رأي الإمبراطور في توحيد مذاهب الدين ـ قيرس مطران فاسيس يولى بطرقة الإسكندرية .

في السنة التالية وهي سنة ٦٢٩ سار الإمبراطور يقصد الحج إلى بيت المقدس في أول الربيع ، وأراد عند ذلك أن يعيد الصليب إلى محله ، وكان في هذه الأثناء مودعاً في كنيسة أيا صوفيا .

وقد ذكر التاريخ حادثتين في رحلته هذه : الأولى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه قد أتى عند ذلك رسول إلى حمص[١] (ويقول بعضهم إلى أذاسة) من قبل النبي محمد عليه الصلاة والسلام[٢] بكتاب يدعو فيه هرقل إلى

(١) ذكر الموضعان كلاهما ولكن ليس من المحتمل أن يكون هرقل قد حاد عن طريقه وذهب إلى (أذاسة) ولو أنه ذهب إلى تلك المدينة وأقام بها مدة طويلة فيما بعد . والحق أن البلدين يكثر الخلط بينهما في أخبار هذا العصر ، ولكنا نظن أن تلك الرواية لا موضع لها هنا فإن الكتب قد وصلت إلى هرقل قبل آخر سنة ٦٢٧ (أنظر ما جاء بعد في هامش ٢ صفحة ١٧٥ وفي هامش ٢ صفحة ١٧٦) .

(٢) إضافة (النبي) والصلاة عليه إضافة من عند المعرب وقد سار على هذه السنة في ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام جرياً على عادة المسلمين .

الإسلام ، ولعل هذه الحادثة لم تقع عند ذلك بل كانت قبل ذلك في حياة الملك الأعظم (كسرى) . وأما الحادثة الثانية فهي أن الإمبراطور عندما بلغ طبرية أرسل إليه يهودها وفداً معهم الهدايا العظيمة يطلبون منه عهداً يضمن لهم السلامة . فقد ذكروا ما أتوا من الجرائر في المسيحيين وخشوا أن يقتص الإمبراطور منهم ولكنه مَنَّ عليهم بالعهد ، وكان من حرص اليهود وحيطتهم أن أخذوا منه بذلك العهد كتاباً .

وسار الإمبراطور بعد ذلك في سبيله إلى أن لاحت له المدينة المقدسة عن بعد ، ومن السهل أن تتصور سير موكبه في خيل تلمع عدتها ، من حديد يبرق[1] وألوية على الخيل تخفق ، ومن رماة بالنبال وكماة في يد كل رمحه وعليه درعه وقد احتقب كنانته ، وفي وسطهم سار هرقل في خاصته[2] وهم جميعاً قطعة تتلألأ من الذهب وزاهي الألوان ، حتى إذا ما اقترب من المدينة خرج إليه موكب من القسوس والرهبان وعلى رأسهم (مودستوس) ، يحملون الأناجيل والشموع والمجامر ، كما كانت عادتهم في احتفالاتهم ، وجاءت من

---

(١) كانت مدة الفارس الروماني المعتادة في ذلك الوقت لأمة من الصلب ودرعاً وقفازين وحذاءين من الصلب (أنظر كتاب Oman « Art ot War in The Mid. Ages. » صفحة ١٨٤ وما بعدها) وقد قال الكاتب إن العدة التي يصفها (موريق) في كتاب (Strategicon) سنة ٥٧٨ هي نفسها العدة التي يصفها (ليو الحكيم) في كتاب (Tactica) سنة ٩٠٠ للميلاد وكانت الأعلام كذلك تحمل بأمر حربي وقد ذكرت كثيراً ـ ذكرها مؤرخو اليونان ، وكثيراً ما كان المسلمون والروم يحملون ألوية من الحرير .

(٢) روى (سبيوس) أن الإمبراطور استصحب كل حاشيته في هذه الرحلة . ويمكن أن ندرك صورة من موكب سيره إذا قرأنا وصف ما كان معتاداً في القرن الخامس في كتاب الأستاذ (Bury) فكان « حول الجسم كله ثوب ثمين من النسيج القرمزي وكانت رسوم الأفاعي تلمع فوق ثيابه الحريرية ، وكانت عدة جواده كلها من الذهب فإذا ما ركب فوق سرج أبيض كالثلج كان يحيط به الحرس يحملون الرماح لها أسنة من الذهب والدروع في وسطها الذهب وفيها عيون من الذهب » (أنظر كتاب « Later Rom, Emp. » الجزء الأول صفحة ١٩٦) .

ورائهم جموع كبيرة من الأهلين . وهكـذا سار حتى بلغ البـاب الذهبي[1] في الجانب الشرقي من المدينة ، وكان في انتظاره هنـاك البطريق (زكرياس) فسلم عليه وأظهر الخضوع ثم أخذ يعنفه على فخامـة ملبسه ، وأمـره أن يخلع رداءه الأرجواني ويطرح ما عليه من الذهب حتى يقترب من المواضع الطاهرة بما يليق بها من الخضوع والخشوع . وسار الإمبراطور المظفر بعد ذلك في لباس الحاج المنيب إلى ربه ، وكان يرى أينما ولى وجهه آثار الخراب الذي جره الفرس على البلاد منذ أربعة عشر عـاماً . ثم شكـر (مودستـوس) على ما بـذله في سبيـل الإصلاح والعمارة ، ولا سيما إعادته بناء كنيسة القيامـة وكنيسة الـرأس وكنيس قسطنطين ، ثم كان بعد ذلك الاحتفال الأكبر المشهور باسم (إعلاء الصليب) ولا تزال ذكراه إلى اليوم تحييها الكنيستان الشرقية والغربية كلتاهما في يوم ١٤ سبتمبر .

وتروي قصة عن الصليب المقدس أنه بقي محفوظاً في صنـدوقه تحليـه الجواهر ، ولـم تقـع عليه نـظرة نجسة من أعين الكفـار في مدة وقـوعه في يـد الفرس ، حتى إن كسرى نفسه لم يجرؤ على أن يدير مفتاح ذلك الكنز الطاهر ، أو يكشف غطاءه . وأكبر الظن أن الصليب لم تدركه يد التدمير لأمرين : أولهما أن الملك كان يخشاه ويحترمه مع أنه كان غير مسيحي ، وكانت خشيته نـاشئة من وهم خرافي ، وثاني الأمرين أن الصليب كان له في نفسه قيمة لما فيـه من الذهب والجوهر الذي يحيط به ، وكان كسرى يحب جمع التحف وآثار الفن . وعلى أي حال قد أرجع الصليب إلى كنيسة القيامة ووضع فيها على المذبح في احتفال باهر فخم .

---

(١) سد هذا الباب الذهبي في القرن الثاني عشر ولم يستعمل إلا في يوم أحد السعف وفي الاحتفال بإعلاء الصليب وذلك لأن هرقل دخل منه وهو عائـد يحمل الصليب المقـدس راجعاً به من الأسر الفارسي (أنظر كتاب « Pal. Text. Sec. » الجزء السادس مدينة بيت المقدس صفحة ١٤) .

وليس من الوهم أن نرى في هذا الإحتفال الباهر بإعادة الصليب أعلى ما بلغه الإمبراطور من المجد في حياته ، فقد أدرك عند ذلك قصارى السلطان والهيبة ، وطبق ذكره الآفاق . ولعله أحس عند ذلك أنه قد أدى أمانته وأتم أمره ، فقد قضى من قبل عشر سنين كان فيها مخذولاً ذليلاً ، يهوي به خور عجيب في النفس ، وهوت معه دولته حتى رغمت ، وضاعت منها قطعة بعد قطعة لا تحتمل أن تلمسها جيوش الهمج حتى تتداعى ، فلم يبق منها إلا أسوار العاصمة وما يليها من شريحة صغيرة من البحر تفصل بينها وبين جموع العدو الضاربة حولها . ثم نهض كما ينهض الحالم من سباته فأعجب العالم بما أظهر من مضاء في العزيمة وقوة في الجهاد ، ومن حماسة ثائرة ورأي في الحرب باهر ، ومن سرعة في بت الرأي وهيبة تخضع لها الرجال . وتلك لعمري صفات جعلته سيد قواد عصره لا يدانيه مدان ، وسارت الجيوش التي جمعها تحت لوائه يهديها بهدي عقله الراجح ، فغلبت الفرس وكانوا من قبل مغلبين ، وأزاحت نيرهم عن الدولة من ضفاف البوسفور إلى شواطىء (نهر الرس) ، ومن ثم إلى الأردن فالنيل . وفوق هذا وذاك استطاع أن يحفظ المسيحية من خطر كاد يدهمها من الوثنية إذ كانت على وشك أن تجتاحها . وأرجع من ملك الوثنيين أعز رمز لدين المسيح ، فكان إرجاع الصليب إلى مشهده في المدينة المقدسة بمثابة الخاتم ضم الإمبراطور المظفر إلى الغازي الموفق في جهاده في سبيل الدين . وجملة القول إنه خلص دولة الروم وحفظ دين المسيح بعد أن كانا على شفا جرف هار من الضياع والدمار .

غير أنه منذ ذلك الوقت أخذ حظه يتعثر وخلقه يهن ويضمحل . وكان أول ما أمر به في أمور السياسة أن نكل باليهود تنكيلاً فظيعاً انتقاماً منهم ، وكان الناس والقسوس كلاهما يتسابق بالوشاية إلى الإمبراطور بهذا الشعب وإيغار صدره منهم ، يتهمونهم بأشنع من تهم الفرس ، وأنهم كانوا أشد منهم فتكاً بالمسيحيين وأفظع منهم جرماً في تدمير الكنائس وإحراقها . ولسنا ندري لعل تلك التهمة كانت صحيحة أو في شيء كثير من الصحة ، فإنه لأمر ما قد بادر اليهود إلى أخذ عهد من الإمبراطور يؤمنهم ، وقد كانوا ولا شك يحملون

للمسيحيين عداوة أشد مما كانوا يحملون لجيرانهم من أهل الوثنية . على أن هرقل لم يسارع إلى الأمر ، بل كان غير راغب في الإقدام على نقض عهده . فقال له قائل : إنه إنما أعطى العهد قبل أن يعلم بحقيقة ما كان منهم ، وإنه ما كان ليحفظ عهداً مع قوم خدعوه عنه ، وإنه لو كان قد علم بما فعله اليهود من فتك بالمسيحيين بالسيف والنار ، لما تردد في أن يقسو عليهم ويشتد في حكمهم ، إلى غير ذلك من الأقوال . وما زالوا به حتى أزالوه عن رأيه إما بعلو ضجيجهم وإما بالتماس الحجج لإحلاله من عهده . ولعل كلا الأمرين قد اجتمع على ذلك . فأمر أن يجلى اليهود عن بيت المقدس ويمنعوا أن يعودوا بعد ذلك إلى ما بعد أسوار المدينة بثلاثة أميال . ولكن ذلك النفي لم يكن أشد عقوبة نزلت بهم ، فإنه يلوح لنا أن هرقل قد أجاب المسيحيين من رعيته إلى كل ما طلبوه من الإنتقام ، وهناك وقعت في اليهود مقتلة تشبه أن تكون عامة[1] . ولكن البطريق ومطارنته أرادوا أن يزيلوا وساوس الإمبراطور وأن يطيبوا نفسه ويطمئنوا نفوسهم إلى ما كان ، فبعثوا إلى المدائن جميعها كتباً يأمرون فيها أن يصوم الناس أسبوعاً وأن تكون تلك سنة أبد الدهر . وما زالت تلك السنة باقية إلى يومنا هذا ، فإن أول أسبوع من الصوم الكبير عند القبط لا يزال اسمه (صوم هرقل) . ويمكن أن نقول إن القبط قد اشتركوا في تلك المقتلة لما كان بهم من ذحل وموجدة على اليهود منذ أيام فتح الفرس للإسكندرية .

والظاهر أن الإمبراطور قضى الشتاء في بيت المقدس . ويمكننا أن نستنتج من تاريخ الصيام المذكور أن مقتلة اليهود كانت في أول العام الذي بعده أي عام ٦٣٠ . وقد مات في ذاك الشتاء البطريق (زكرياس)[2] وولى مكانه على عرش البطرقة (مودستوس) عن رضى من الملك والناس جميعاً .

---

(١) جاء في المقريزي أن اليهود قتلوا « حتى لم يبق منهم أحد في دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أو اختفى » وهذا معناه أن المذبحة إمتدت إلى جميع أنحاء الدولة (أنظر ترجمة ملان صفحة ٧٠) ونجد تلك القصة أيضاً في كتاب سعيد بن بطريق .

(٢) جاء في كتاب (Acta Martyris Anastasii) (طبعة Usener صفحة ١٢) أن هرقل جاء =

ولسنا ندري أي البطريقين كان صاحب الرأي في مقتلة اليهود التي لطخت ذكر هرقل ، ولا شك في أن كلاهما قد رضي عنها وأقرها . ولكن الإمبراطور عندما أزمع السير إلى عاصمته استصحب (مودستوس) ليساعده على إقرار أمور الكنيسة وإعادتها إلى سابق عهدها بعد أن رجعت بلاد الشام إلى دولة الروم ، وليعمل على رد الكنائس التي كان كسرى قد جعلها للنسطوريين[1] والمنوفيسيين وإرجاعها إلى أصحاب مذهب الدولة (الأرثوذكس) . وكان مما قصد إليه الإمبراطور من صحبة البطريق أن يساعد كذلك في التماس الوسيلة لجمع مذاهب الدولة المنتضلة وتوحيدها ، وكان هذا من أعز ما يتمناه الإمبراطور . وقد بدا له الأمر ممكناً إذ كان عند ذلك بطل المسيحية وناصرها .

= إلى بيت المقدس في الخمسة عشرة الثالثة في السنة الثانية والعشرين من حكمه (وهذا يوافق السنة التي أولها سبتمبر سنة ٦٢٩) وأنه بينما كان هناك جاء جاثليق الفرس بكتاب إلى الإمبراطور وآخر إلى (مودستوس) وكان قد اختير قبيل ذلك بطريقاً . وهذا تاريخ ثان ثابت دقيق ورد في كتاب مؤرخ كان يعيش في ذلك العصر ، وقد جاء فيه عرضاً وعلى ذلك لا سبيل إلى الشك فيه . وليس اعتقاد ذلك المؤرخ في الخوارق والمعجزات بسبب يدعونا إلى الشك في صدقه في مثل هذا الأمر ، إذ لا نرى باعثاً يبعثه على الخطأ فيه فإذا صدقنا هذا التاريخ علمنا أن موت (زكرياس) لم يكن بعد شهر فبراير أو مارس سنة ٦٣٠ لأن هرقل لم يكن ليقيم في بيت المقدس أشهراً كثيرة ، ولأن (مودستوس) اختير بطريقاً قبل أن يرحل هرقل عن ذلك الموضع . وقد قيل إن مدة ولايته كانت اثنتين وعشرين سنة . وهذا يتفق مع وقت اختياره المعروف في سنة ٦٠٩ . وقد استشهد (أنستاسيوس) في أيام كسرى في ٢٢ يناير سنة ٦٢٨ وكتبت ترجمة حياته في الغالب بعد موته بقليل . وعلى ذلك فلنا أن نعدها مؤكدة لجعل تاريخ دخول هرقل في بيت المقدس في ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٩ .

(١) روى (مكين) أن كسرى إضطر أهل مدينة (أذاسة) إلى إتباع مذهب اليعاقبة في سنة ٦٢٥ وقد كان طبيب كسرى واسمه حنا من اليعاقبة ، فحمل كسرى على الإعتقاد أن الناس إذا بقوا على مذهب الدولة كانوا أحرياء أن يوالوا دولة الروم ، فخيرهم كسرى بين الموت وتغيير مذهبهم . وجاء أيضاً في (قيدرينوس) أن الكنائس التي أعطاها كسرى للنسطوريين في (أذاسة) أعادها هرقل للملكانيين وهم أصحاب مذهب الدولة .

ولكن (مودستوس) تـوفي في شتاء سنـة ٦٣٠ ـ ٦٣١ ولم يل إلا تسعـة أشهر[1] ، فلم يجد هرقل بعده بين المطارنة من يوافق رأيه في أمر الكنيسة كل الموافقة ، ولهذا ترك مكان البطريق شاغراً . ولم يكن أحـد ليستطيـع أن يزيله عن رأيه وهو التوفيق بين اليعاقبة والملكانيين وهما حزبا الكنيسة : أولهما حزب الخوارج ، والثاني حزب الجماعة . وكان سرجيوس القسطنطيني يـرى الملك في التوفيق فاعتز ذلك الرأي به وهو الرجل الذي عرف بالقوة والإقدام . وكـان سوري المولد وهو صاحب صورة التوفيق التي أقرها هرقل، وكانت تلك الصـورة تقضي بأن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة (السيد المسيح) وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة أو قضاء واحداً . وكان الإمبراطور منذ سنة ٦٢٣ عندما كان في أرمينيا قد اتفق مع (بولص) زعيم الدين ، وكان أثر ذلك الإتفاق أن توحـدت الكنيستان كنيسة الدولة وكنيسة أرمينيـا . وبعد أربـع سنوات من ذلـك زار (اللازيين) . ودعا (قيرس) مطران (فاسيس) إلى مذهبه الجديد فوجد منه قبولاً . وفي ذلك الوقت عرض رياسة الدين في أنطاكية على (أثناسيوس (على شرط أن يقـر ما أقره مجمع (خلقيدونية) ، وأن يـأخذ بتـأويل المـوحدين (المـونوثيليتيين) . والظاهر أن الرؤساء الثلاثة اجتمعوا بالإمبراطور في (هيرابولس) وكانت نتيجة مناظرتهم في ذلك الإجتماع أن أقروا شرط التوفيق إقراراً كاملاً . وكان المتوقع عند ذلك أن يسود السلام الكنيسة وترتق فتوقها المتسعة .

ولعل هذا الوفاق كان في صدر عام ٦٣١[2] وأعقبته ولاية (قيرس) بطرقة

---

(١) جاء في كتاب (سعيد بن بطريق) أن المـدة كانت تسعـة أشهر ويقـول نيقفوروس إنهـا كانت سنة وقد خلفه بعد تلك المدة (صفـرونيوس) وهـو الذي كـان في سنة ٦٣٣ في مجلس الإسكندرية (راهباً) من الرهبـان ، ولعل ولايتـه كانت سنـة ٦٣٤ ولو أن (ابن بطريق) يذكر أن المحل ظل شاغراً مدة ست سنوات .

(٢) إن (درابيرون) صفحة ٣٠٣ كما بينا يخطىء خطأ واضحاً في جعل اللقاء بين الإمبراطور و (أثناسيوس) في هيرابولس في سنة ٦٢٩ . وفوق ما ذكرناه من الأدلة نقول إنه قد جاء في (قيدرينوس) أن هرقل في السنة العشرين من حكمه أمر في هيرابولس أمراً ينهي عن =

الـدين في الإسكندريـة . وقد أمـره الإمبراطـور أن يجمـع المـذهبين القبـطي والملكاني في المذهب الموفق الذي إبتدعته حكمـة المجلس الإمبراطـوري . وكانت خطة الإمبراطور إلى ذلك الوقت موفقة توفيقاً أعـظم مما تـوقعه أحـد ، وجاءت إليه الأنباء من مصر في أول الأمر مبشرة بالنجاح ، فقد وصف (قيرس) نجاحه وصفاً بليغاً حتى لكان يخيل إلى الناس أن هرقل قد بدأ باسترجاع دولته وجمع شملها بعد أن نزعها الفرس من يده ومزقوها كل ممزق ، ثم ثنى بعد ذلك بالحلم الذي كان يتمنى تحقيقه في حياته وكاد يتم له الأمر كما يشتهي . فلما تم له النصر في القتال وغلب الكفار وحمى منهم المسيحية ، رأى أنه ليكون نصراً أعظم لو استطاع أن يحل السلام والوئام على الكنيسة ، وأن يـزيل مـا فيها من مواضع الخلاف[1] ويربط بين المسيحيين فيجعلهم إخواناً في دين واحد . وكان الصليب الذي استرجعه من العدو رمزاً ماثلاً أمام عينيه ، فلا عجب إذا لاح له فوقه ذلـك الخيال الـذي لاح لعيني سلفه العـظيم وهو (فـز إما بـالموت وإمـا بـالحياة)*[1] . فقـد كـان الصليب أداة نصـره في الحـرب وكـان يستلهم من الصليب وحيه وإلهامه في أمور الدولة بعد أن ساد السلام .

= اتبـاع مذهب الـطبيعة الـواحدة أو الـطبيعتين ، وذلك بعـد تردد طـويل منـه بين مذهب (المونوفيسيين) ومذهب الدولة الأورثوذكسي . وقد كان قراره بغير شـك في سنة ٦٣١ في حين أنه لم يخرج الأمر إلا بعد بضع سنوات من ذلك .

(١) اقتبس (درابيرون) في صفحة ٣٠١ ما يأتي عن اليونانية . (أن من يحمل الهمج على إلتزام السلام يحمل كذلك الأحزاب على إلتزام السكينة . حذار من الأحزاب)*[٢٢] .

الفصل الحادي عشر

دعوة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام)

إتفاق في الزمن بين النبي وهرقل - كتب النبي إلى ملوك العالم وأمرائه وما أجابوا به - وقعة (مؤتة) - هزيمة (تبوك) - موت النبي واتحاد بلاد العرب - كنيسة صنعاء - البعث إلى الشام - أسباب فوز الإسلام - رأي المسيحيين .

ما أكثر عجائب التاريخ وعبره ! ولكن قلما حدث في التاريخ من العجائب ما هو أكثر عداً أو أعجب أمراً مما كان في عهد هرقل . فقد إتفق عندما بدأ هرقل عهد ولايته أمر الإمبراطورية أن بدأ النبي محمد دعوته وأخذ في نشرها وذلك في سنة ٦١٠[1] . وكان مقدوراً أن تكون دعوة النبي أكبر ما يصدم هرقل ويهدم ما بناه . وقد لاقى كل من هذين العظيمين في أول حياته تخذيلاً عظيماً وأخطاراً جمة صحبته نحواً من اثنتي عشرة سنة ، ثم خرج كل منهما من هذه المحن وقد قويت نفسه واستعدت للعمل العظيم الذي كانت مقبلة عليه . ففي سنة ٦٢٢ سار هرقل في سريته إلى قليقيا فضرب أول ضربة في سبيل استنقاذ الصليب المقدس وإعادته إلى الدولة الرومانية من الفرس ، وفي هذه السنة عينها هاجر النبي من مكة إلى المدينة وبدأ بذلك عصر الجهاد في سبيل تخليص

(١) ولد النبي في سنة ٥٧٠ وعلى ذلك كان عمره وقتئذ نحو أربعين سنة ، وقد اتفق في ذلك كتّاب العرب ، وكانت سن هرقل أقل من ذلك بسنوات ثلاث أو أربع . ونقول هنا إننا كتبنا هذه الفقرة عن الاتفاقات قبل أن تتاح لنا فرصة الاطلاع على كتاب (درابيرون) الجليل «L’Empereur Heraclius et L’Empire Byzantin» (راجع صفحة ٣١٨ و ٣١٩).

بيت الله الحرام وفتح بلاد العرب لدعوة الإسلام ، فكان هذا الحدث مبدأ التاريخ الإسلامي أبد الدهر .

وليست هذه كل وجوه الإتفاق ، فإن النبي والملك كلاهما صحبه نصر لا تكاد تثلمه هزيمة مدة ست سنين [1] بعد سنة ٦٢٢ . وكان النبي يرقب بلهف حوادث القتال الطويل بين الروم والفرس ، وكم آلمه نصر الفرس في مبدأ الأمر في سنتي ٦١٤ و ٦١٥ لأن ذلك كان إنتصاراً لعبدة الأوثان على قوم من أهل الكتاب . فلما رجع النصر إلى الروم ـ وما كان أعجب ذلك ـ واستطاع هرقل أن يمحق سلطان الفرس بعد حرب ضروس استمرت ست سنوات ، بعث ذلك في النبي آمالاً كبيرة لغزو الطائفتين والتغلب عليهما وقد تضعضعت قوة الغالب منهما والمغلوب ، ورأى أن الله قد مهد بذلك للإسلام طريق النصر والفتح . ولهذا نستطيع أن نقول إن الساعة التي بلغ فيها هرقل أعلى ذروة مجدة كانت ساعة البشرى العظيمة للنبي (عليه الصلاة والسلام) .

وكان النبي قبل ذلك رأى أنه قد آن له أن يرسل إلى أمراء العالم يدعوهم للدخول في الدين الجديد ، فبعث كتباً إليهم في سنة ٦٢٧ [2] ، وختمها بخاتمه

---

(١) لا يخفى أن نصر النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن لمدة ست سنوات بل استمر إلى نحو عشر سنين إلى قبيل لحاقِهِ بربه (المعرب) .

(٢) في هذا التاريخ بعض الشك كما هي العادة. فالظاهر أن أكثر مؤرخي العرب يجعلون السنة التي كتب فيها النبي تلك الكتب سنة ٦ للهجرة وأولها ٢٣ مايو سنة ٦٢٧ للميلاد (انظر ما كتبه Evett تعليقاً على كتاب أبي صالح صفحة ١٠٠ هامش ٣). أما (Sale and Ockly) فيجعلان تاريخ ذلك سنة ٦٢٩ ولكنهما يناقضان ذلك بجعل ملك الفرس عند ذلك كسرى (أبرويز) وهو المتوفى سنة ٦٢٨ (شهر مارس) ومن المعلوم أن النبي قصد إلى مكة غازياً في فصل الربيع في العيد وقد كتبت الخطابات بعد عودته من الغزوة التي انتهت بالهدنة مع قريش. فلا بد أن تكون الغزوة قد وقعت في سنة ٦٢٧ حتى يمكن أن يبلغ كتابه إلى كسرى قبل عزله في مارس سنة ٦٢٨ كما يقتضيه الخبر. فإن الطبري لا يدع مجالاً للشك في أن الملك الذي بعث إليه النبي بالجواب كان كسرى (أبرويز) وأن الخطاب جاء إليه قبل موته بشهور أي لا بد أن يكون ذلك قبل نهاية

على ما جرت عليه عادة أهل الشرق ، وكان نقش ذلك الخاتم « محمد رسول الله » . وكانت الكتب جميعها تدعو إلى الدخول في الإسلام والشهادة بأن محمداً عبد الله ورسوله . وأرسلت تلك الكتب إلى أمراء اليمن وعمان[1] واليمامة والبحرين وإلى الحارث (ابن أبي شمر الغساني) أمير العرب على حدود الشام ، وإلى (جرج) وسمى (المقوقس) في الكتاب خطأ وهو حاكم الإسكندرية ونائب الملك في مصر[2] ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى هرقل قيصر الروم[3] .

= سنة ٦٢٧ وعلى ذلك فنحن مسوقون إلى أن نقول إن الخطابات أرسلت في تلك السنة. وعلى ذلك يكون هرقل قد جاءه بالخطاب في سنة ٦٢٧، أما القول الآخر الذي يجعل غزوة النبي في ربيع سنة ٦٢٧ فيدعو إلى رفض رواية الطبري رفضاً صريحاً وذلك أمر عظيم صعب، وفوق ذلك فإن عملنا هذا يحملنا على صعاب أخرى وذلك لأن الخطابات ما كانت لترسل قبل شهر مايو وقد كان هرقل عند ذلك في أرمينيا وهذا القول مبني على تصديق رواية ابن إسحاق إذ يقول إن جميع الخطابات أرسلت في وقت واحد، وقد يكون كتاب فارس أرسل قبل كتاب هرقل بسنة، على أن مثل ذلك الرأي غير قريب وأن خيراً لنا الاعتماد على ما رواه مؤرخو العرب في ذلك الشأن.

(١) قال ابن إسحاق (نقلاً عن الدكتور (Kœlle) في كتابه «محمد والإسلام» صفحة ١٩٤ و٣٣٢ و٣٣٣) إن الرسول الذي حمل خطاب النبي إلى عمان هو (عمرو بن العاص) فاتح مصر في المستقبل. ولكن يلوح لنا أن ذلك خطأ لأن عمراً لم يدخل الإسلام في ذلك الوقت (انظر تعليق المعرّب في هامش (١) صفحة ١٧٧) .

(٢) ابن إسحاق وهو الذي نأخذ عنه هذه الأخبار يقول قولاً صريحاً (وهذا بلا شك خطأ) إنه كان بمصر رجل اسمه المقوقس وقال إنه كان حاكم مصر الحقيقي في ذلك الوقت، وهذا الرجل إما أن يكون قد ولاه هرقل عند خروج الفرس من مصر وإما أن يكون هرقل قد أقره على ولايته التي كان عليها مدة حكم الفرس، ولكن الصعاب تحيط بكل هذه الخطابات وتواريخها، ومن الممكن أن تكون قد أرسلت في أوقات مختلفة كلما سنحت الفرص.
(انظر تعليق (Hamaker) على الواقدي صفحة ٢٤ هامش ٥).

(٣) إذا قرأنا كتب العرب وجب علينا أن نذكر أنهم يذكرون لفظ «الروم» ويفضلونه على «الإغريق أو «البيزنطيين»، وأهمية الاسم الأول واضحة من أن العرب كانوا لا يكادون يطلقون على أهل الدولة إلا لفظ «الروم» وأنا نعلم رأي الأستاذ (Bury) في النعي على

فأما أمراء العرب فقد ردّ أثنان منهما رداً حسناً وأسلما ، وهما أمير (اليمامة) وأمير (البحرين) وأما أمير اليمن وعمان فقد ردا رداً فاحشاً[1] فدعا عليهما النبي . وأما النجاشي فقد أجاب جواباً حسناً ولم يبعد ولكنه لم يسلم . ولعل هذا موضع لأن يقول إن الحبشة هي البلاد التي لم يفتحها الإسلام دون كل البلاد التي أرسل النبي إليها الرسل . وأما (عظيم القبط)[2] فقد وعد أن

= المؤرخين الذين يسمون دولة الروم في ذلك العصر بغير هذا الاسم (انظر مقدمة كتاب «Later Rom. Emp.» . ولكني مع ذلك لم أتردد في أن أذكر «الحكومة البيزنطية» والمؤرخين «الإغريق» وقد كان أهل الدولة يسمون أنفسهم الروم وكان لفظ «الإغريق» عندهم سبة مرادفة لقول «وثني».

(١) جاء في كتاب الطبري غير هذا إذا قال في حوادث السنة الثامنة إن (عمرو بن العاص) أرسل إلى (جيفر) و(عباد) ابني جلندي (بعمان) فصدقا النبي وأقرا بما جاء به. ويذكر الطبري أن إسلام عمرو كان في السنة الثامنة، وهذا يؤيد أن رسالة النبي إلى عمان لم تكن في السنة السادسة كما يقول المؤلف (المعرّب).

(٢) قد بيّنا في ذيل الكتاب عن «المقوقس» أن ذلك لقب أطلق خطأ على الحاكم في هذا العصر ويجب عليّ هنا أن أرجع عن الرأي الذي بينته في تعليقي على أبي صالح (صفحة ٨١ هامش ٤) فإن وظيفة من أرسل إليه النبي خطابه كانت بلا شك أعلى من وظيفة حاكم إقليم وحاكم قسم فإنه لم يكن سوى «حاكم مصر» ولقبه أغسطاليس، وأن إرسال النبي الكتاب إليه لدليل على عظم شأنه. وأما الرأي الذي يجعل ذلك الحاكم حاكم قسم فإنه يصل بالقائلين به إلى حد السخف، فقد كتب المستر (ملن) في تعليق له على هذا الأمر في كتابه «Eg. under Rom. Rule» صفحة ٢٢٤ ـ ٣٢٥) «ولعل جورج كان حاكماً على إقليم (أغسطمنيكا) فإن إقليمه غير معروف وقد ذكرت أسماء ولاة مصر وأسماء حكام إقليم الوجه البحري وأركاديا (الصعيد) في ذلك الوقت في كتاب (حنا النقيوسي) في موضع آخر، وان مقامه في الناحية الشرقية من مصر يجعله أول عظيم تأتي إليه كتب النبي. ورداً على ذلك نقول إن الحكام الثلاثة الذين ورد ذكرهم ما هم إلا حكام حربيون، وإنه لمما لا يقبله العقل أن يقول قائل إن النبي كان يعرف كل شيء عن ملك فارس وعن حاكم الدولة الرومانية وعن جميع أمراء العرب ورؤسائهم، وأما حاكم مصر فلا يعرف عنه شيئاً، بل يرسل كتابه بغير قصد فيسلم إلى أول من يلقى الرسول من حكام الأقاليم ثم يرد عليه ذلك الحاكم. على أن مؤرخي العرب يجعلون الذي أرسل إليه الخطاب أكبر حاكم في مصر وهذا هو الحق.

يرى لنفسه رأياً في الأمر وأكرم الرسول وهو (حاطب بن أبي بلتعة اللخمي) ، وبعث معه هدية عظيمة كان فيها جاريتان (مارية) و (شيرين) وبغلة سماها النبي (دلدل) ، ويزعم بعضهم خطأ أنها كانت أول بغلة عرفت في بلاد العرب[1] ، وكذلك كان بين ما أهدى حمار اسمه (نفور)[2] ومقدار من المال[3] . فأما (مارية) فقد أسلمت وتزوجها النبي عليه الصلاة والسلام وأحبها وماتت سنة ٦٣٦ فلم تشهد فتح مصر وخضوعها للعرب .

وأما رد كسرى فقد كان على طريقة أخرى ، إذ شق كتاب النبي ومزقه وهو غضبان قد تولى كبره ، وكتب إلى بازان[4] عامله على إقليم (حمير) يأمره

---

(١) لعله يشير إلى رواية ابن سعد عن محمد بن عمر عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: «كانت (دلدل) بغلة النبي ﷺ أول بغلة رؤيت (في الإسلام) أهداها له المقوقس وأهدى له معها حماراً يقال له (عفير) فكانت البغلة بقيت حتى كان زمن معاوية» ولا شك أنه فرق بين قوله أول بغلة رؤيت «في الإسلام» وبين قوله أول بغلة رؤيت في «بلاد العرب» (المعرّب).

(٢) جاء في كل الروايات التي رأيناها أن اسمه (يعفور) أو (عفير) (المعرّب).

(٣) أبو صالح (صفحة ١٠١) ويزيد بعض المؤرخين أنه أهدى إليه سمناً وعسلاً كذلك.

(٤) لعله من المفيد أن نذكر هنا تاريخ حكم الفرس في بلاد العرب على وجه الاختصار، فقد كانت اليمن منذ القرن الرابع تحت حكم المسيحيين مع أن أهلها كان أكثرهم من اليهود ودخلت في القرن السادس تحت حكم الحبشة، ولما أراد أهلها أن يخلعوا نير الحبشة أرسلوا رسولاً من قبلهم (سيف) إلى امبراطور الروم فلم يرض أن يساعد قوماً يريدون أن يثوروا على دولة مسيحية. فذهب سيف إلى بلاد الفرس في سنة ٥٧٤ واحتال على (أنوشروان) فجعله يرضى بأن يرسل معه جيشاً من أهل السجون عدتهم ٣٦٠٠ وجعل عليهم (هرزاد الديلاني) وانتقلت هذه السرية في ثمان سفن تحمل كل منها ٤٥٠ رجلاً غير المؤونة والعدة. فلما نزلوا دخل معهم كثير من الناس وفتحوا صنعاء عاصمة البلاد وقد ثار أنصار الحبشة بعد بضع سنين فأرسل إليهم كسرى جيشاً آخر بقيادة القائد عينه، فهزمهم وطرد الجيشان من بلاد اليمن فانقضت بذلك دولة حمير وأصبحت بلاد اليمن مع حضرموت ومهرة وعمان تحت حكم الفرس. وأخبار هذا العهد واضحة الدلالة على أن حكم الفرس كان عادلاً لا يكاد أحد يحس له وطأة، وكان أتباع ديانة اليهود وديانة النصارى أحراراً في التعبد على ديانتهم (انظر -Capt. R. L. Playfair's His) =

« إبعث إلي برأس هذا الرجل الذي بالحجاز »[1] . فقال النبي عندما بلغه ما فعله كسرى بكتابه « مزق ملكه » فكانت نبوءة ودعوة عليه ، وما مضى بعد ذلك إلا زمن قصير حتى تحققت[2] .

أما ما كان من أمر هرقل فلسنا ندري ما كان يدور بنفسه إذ هو خارج من مواكب الإحتفال عند مقدمه إلى عاصمة ملكه بعد فتوحه في آسيا ، أو عندما كان يسير وفي ركابه الظفر يشق بلاد الشام نحو بيت المقدس ، حاملاً معه الصليب الأعظم ، أكان عند ذلك يذكر ما وقع له وهو في معسكره منذ حين ، إذ طلع عليه جماعة من فرسان البدو وعليهم رئيسهم (دحية بن خليفة) الكلبي يحمل إليه كتاب النبي ؟ لا شك أن الإمبراطور قد سمع بما أجاب به من قبل ملك الفرس ، ولعله كان عند ذلك قد أتاه نبأ مقتل رسول النبي في مؤتة ، ولكنه مع ذلك أرسل رداً حسناً ، حتى إن بعض مؤرخي العرب خلق من ذلك قصة منمقة سخيفة عجيبة يذكر بها إسلام هرقل ، ولم يكن شيء أبعد من ذلك الأمر عنه .

= tory of Arabia Felix) (بومباي ١٨٥٩) صفحة ٧٢ ـ ٧٧ وانظر (Wright's Christianity in Arabia) صفحة ١٧٥ ـ ١٨٩) وكانت مملكة الحيرة كذلك خاضعة للفرس وقد تنصّر أميرها (النعمان أبو قابوس) وحكم من ٥٨٩ إلى ٦١١ وكان في مبدأ أمره وثنياً يضحي بالآدميين. ولما تم تعميده صهر تمثالاً من الذهب للآلهة فينوس (الزهرة) كان قومه يعبدونه وهذه القصة واردة في كتاب (Evagrius) الجزء السادس الباب ٢٢، ويقول (Wright) انها تتفق اتفاقاً ظاهراً مع ما ورد في كتاب العرب.

(١) اخترنا أن نستعمل بعض لفظ رواية ابن جرير الطبري عدا ما جاء من ذكر القتل فإنه غير مذكور بها فإن الأصل الإنجليزي فيه خروج كثير، إذ قال عن النبي على لسان كسرى (The Impostor) (المعرّب).

(٢) لعل هذه الملاحظة حقيقية وهي تدل دلالة واضحة على أن الذي جاءه الكتاب كسرى وليس (شيرويه) فقد حكم (شيرويه) ستة أشهر آخرها أغسطس سنة ٦٢٨ وجاء بعده الطفل الضعيف الذي قتله (شاه ـ ورز) وهو القائد الذي اختاره هرقل للملك عندما رأى أن الملك محتاج إلى رجل قوي، وكان هذا في صيف سنة ٦٢٩؛ وقد ظهر أن (شاه ـ ورز) ظالم من أفجر الطغاة وقتل في أوائل سنة ٦٣٠، وهذه التواريخ على ما يظهر لها ما يعززها ولكنها مع ذلك متنازع فيها.

وماذا عسى كان يدفعه إلى تصديق ما أتى به زعيم عربي لم يعرفه ، وذلك في حين كان ملكاً سيد الكتائب الكثيرة التي عركتها الحرب فأصبحت ضارية صعبة المراس .

وعلى ذلك فقد سار هرقل في سبيله ولم يعكر شيء صفاءه ولم يعر أمر تلك الرسالة اهتماماً ، ولكن فيما كان هرقل يسير في موكبه من الباب الذهبي بين الطرق المتعرّجة قاصداً إلى الكنيسة القائمة على جبل الزيتون ليقيم بها الصليب الذي استنقذه ، وفيما كانت الناس في بيت المقدس يبكون مما في نفوسهم من سورة قد غلبت عليهم جميعاً حتى لقد بكى من كانوا منهم ينشدون أناشيد النصر[١] ، كانت سرية من ثلاثة آلاف فارس أرسلها النبي تسير في الصحراء إلى مؤتة لتثأر لرسوله الذي قتل . ومن ذلك الحين بدأت الحرب مع الدولة الرومانية فلم تنته حتى كانت سنة ١٤٥٣ وفيها سلمت القسطنطينية للإسلام ، ونقش اسم النبي العربي حيث هو اليوم على جدران الكنيسة الكبرى كنيسة (أيا صوفيا) . وقد جاءت جنود الدولة فالتحمت بجيش العرب يقوده زيد بن حارثة قرب (مؤتة) وكانت صدمة القتال عنيفة فقتل أكثر القادة حتى وُلِيَ القيادة خالد بن الوليد واستطاع بما له من مهارة فائقة في الحرب ورأى سديد أن يحفظ المسلمين من القتل ، وقد سمي من ذلك الحين بسيف الله ، فانحاز بمن بقي منهم وسار إلى المدينة في أسف شديد . ولكن النبي تلقاهم ولم تقلل الهزيمة من عزمه ، وما أتى آخر شهر أكتوبر حتى جهز عمرو بن العاص في سرية صغيرة وبعثه إلى أكناف الشام ، وانتظر كي يتم نشر الدعوة في بلاد العرب ثم يخرج إلى من حوله فيناجزهم في حرب عظيمة . وقد تم له فتح مكة ثم انتصر في حنين فسار ذكره وسادت هيبته بعد ذلك كل ربوع بلاد العرب .

ثم أخذ في إعداد جيش وجاهر بأنه لغزو فلسطين يدفعه إيمانه وما في قلبه

---

(١) ذكر (سبيوس) ما كان يشمل الناس من الفرح في ذلك اليوم ثم ذكر بعد ذلك بكاءهم ونحيبهم وذرفهم للدمع ، وذكر أن ذلك عمهم جميعاً من الامبراطور والأمراء والجنود وأهل المدينة حتى «لم يكن أحد يغني أناشيد الصلاة» .

من شعور قوي بأمانته إلى الإستهانة بما قد يلقى من العقبات . ولكن كثيراً من أصحابه استصعبوا الأمر فدل ذلك على أن إيمانهم لم يعصمهم من هيبة هرقل . وكان يحب أن يجتمع عنده مائة ألف رجل مجهزين بالعـدد ، ولكن لم يجتمع إليه إلا ثلاثون ألفاً ، وتخلف عنه المنافقـون والمعذرون الـذين ادعوا المرض هرباً . وسار في هذا الجمع إلى (تبوك) وهي في نصف الطريق إلى مؤتة فأقام بها عشرة أيام ولم يلق كيداً ، ولعل ريبتَهُ قد حملت إليه من الأخبار ما جعله لا يتقدم إلى الشمال إلى أبعد من ذلك ، أو لعله عاد لقلة الزاد والماء معه ، فإنه قد عاد إلى المدينة وقضى بها عاماً يعد جيشاً لغزوة جديدة . وفي أثناء مقامه في (تبوك) عقد عهوداً مع كثير من أمراء العرب ، وأرسل خالداً في أربعمائة فارس إلى أمير (دومة) النصراني فنزل عليه على غرة منه وأسره . ثم أسلم ذلك الأمير وأخذ منه النبي أرضه ومدينته وحصنه وثلاثة آلاف من الإبل وأربعمائة درع[1] .

وعلى كل حال فإن غزوة (تبوك) وإن لم يصل النبي منها إلى غرضه من لقاء الروم لم تؤخر سير الإسلام ، فقد تتابع أمـراء العرب إلا قليـلاً منهم على الدخول في الإسلام ، وشهد ذلك العام دخول الناس جميعاً تحت لوائه ، ومن ثم سمي « عام الوفود » . وكانوا جميعاً يتبعونه ويرونه سيداً وقائـداً ورسولاً من عند الله ، بعضهم يرى ذلك صدقاً عن عقيدة وإيمان وبعضهم يتراءى ذلك خوفاً ونفاقاً . وفي عام ٦٣٢[2] حج النبي إلى مكة حجة الوداع ، وقام بين المؤمنين لا يحصرهم عد ، وعلمهم شعائر الحج إلى الكعبة التي أصبحت بيتهم الحرام بعد أن كانت معبد الأوثان ، وقرر شعائر الحج التي لا تزال متبعة إلى اليـوم . وبعد شهرين من منصرفه من الحج أخذ يدعو العرب إلى غزو الروم وجعل قيادة الجيش إلى أسامة ابن مولاه زيد الذي قتل في وقعة (مؤتة) ، ولكنه مرض بعد ثلاثة أيام من عقده لأسامة على الجيش وكان مرضه بالحمى وتوفي من مرضـه ذاك بعد قليل .

---

(١) انظر كتاب الدكتور Koelle «محمد والإسلام» (صفحة ٢٠٧ ـ ٢١٠).

(٢) وقيل إن تاريخ ذلك ٩ مارس و «الظاهر أن هذا ثابت لا خلاف فيه» انظر كتاب المستر ر. ل. ميشيل « Egn . Calendar » صفحة ٣٥ .

على أن وفاة النبي لم تضعف الإسلام بل شدت ساعده ، فإنه اهتز حيناً ولكنه كان راسخ الأساس ، فلم تكن تلك الهزة التي جاءته من داخل جزيرة العرب لتحدث فيه أثراً . وقد مات النبي بعد أن أتم ما تاقت إليه نفسه في حياته وإن لم يكن ذلك في الوقت الذي كان فيه على ذروة النصر والقوة . فكان في ذلك على غير ما كان عليه هرقل عند موته . وكان النبي لا يشعر عند موته بما يعكر صفاءه من أنه أخفق أو أنه قد مضى عزه وتقادم العهد على نصره ، بل إنه لو أتيح له أن يطلع على الغيب لعرف أنه قد ألف بين قومه وألبهم فأصبحوا وقد خلفهم قوة ذات بأس في الدين وذات أثر في السياسة وأنها ستفتح العالم بعد وفاته .

وكانت بلاد العرب قد صارت يداً واحدة قبل موت النبي ، وقد انقطع بسقوط كسرى ما كان بين الفرس واليمن وجنوب أرض العرب من علاقة السلطان ، في حين أن هرقل لم يعمل على تقوية سلطانه وتحديده في شمال الجزيرة ، بل تركه كما هو ظِلاً غير حقيقي من الهيبة . ولا شك في أن جل نصارى العرب كانوا على المذهب (المونوفيسي) وأنهم لذلك كانوا لا يؤمنون برأي الإمبراطور في السياسة ، على أنهم كانوا ضعفاء لا يستطيعون دفع أعداء الدولة[1] .

وإذا كان ثَمَّ شيء يتم به جمع جزيرة العرب لتصبح يداً واحدة تحت سلطان واحد ، فقد قام به أبو بكر خليفة رسول الله وقد بايعه الناس بعد النبي . ففي سنة واحدة أرسل (أسامة) في بعث إلى الشام وكان موفقاً منصوراً ، وأرسل خالداً ذلك القائد الشهم المغوار فقضى على مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في بلاد اليمن ، وكان النبي قد أوصى وهو على فراش الموت ألا يبقى في بلاد العرب إلا دين الإسلام ، والظاهر أن ذلك تم بلا تريث ولا مهل ، فقد أخرج المسيحيون من الجزيرة ولم يبق منهم فيها أثر . وكذلك قضى على

(١) انظر كتاب ريت Early Christianity in Arabia صفحة ١٨١ .

ما كان عندهم من العلوم والفنون والآداب[1] .

وليست لـدينا صـورة كاملة عن الفنـون في بلاد العـرب إذ ذاك . ولكنـا نستطيع أن نعرف شيئاً عن تقدمها مما يروى لنا من وصف كنيسة صنعـاء وهي التي نالها المسلمون بالأذى وهدموها ، وهي من بناء (أبرهة الأشـرم) عامـل ملك الحبشـة على بلاد اليمن ، وذلـك بعد منتصف القـرن السادس بقليـل . ويروى أن الملك كان شديد العناية بأمر بنائها وزخرفتها فكان يقضي الوقت كله نهاراً وليلاً فيها ، وكانت تشبه كنائس الروم في رسمها ، فكانت الأعمدة العالية من المرمر الثمين تفصل ما بين وسطها وجناحيها ، وكـان ما فـوق الأعمدة من القباب وأعالي الجـدران يزينـه زخرف بـديع من فسيفسـاء الذهب والألـوان ، وتحليها الصور . وأما أسفل الجدران فقد كان يغطيها إفريز من المرمر ، وكذلك كـانت الأرض ، وكان المـرمر من ألـوان مختلفة منسقـة تنسيقاً جميـلاً . وكان المحراب يفصله حاجز من آبنوس مطعم بالعاج بديـع النقش ، وكانت نقـوش الذهب والفضة تغـطي البناء من داخله . وكـانت الأبواب تغـطيها صفـائح من الذهب مساميـرها من الفضـة ، أو صفائـح من الفضة عليهـا مساميـر كبيرة من الـذهب . وأما الأبـواب التي كانت تفضي إلى المحـاريب الثلاثـة فقد كـانت تغـطيها صفـائح كبيـرة من الذهب عليهـا حلية من الجـواهر ، وكـان على كل صفيحة من تلك صليب بارز من الذهب والجوهر في وسطه شكـل خزامي من حجـر أحمر وتحيط بـه زهور زخـرفية من الـذهب والجـواهـر ، أو من الميـنـاء المختلفـة الألـوان . تلك كـانت الكنيسـة العـظمى التي سـاعـد (جستنيـان)

---

(١) هذا كان في أول عهد عمر. وروى الطبري أن أول بعث بعثه عمر بعث أبـي عبيـد ثم بعث بعلي ابن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل (نجران) لوصية رسول الله ﷺ في مرضه بذلك ولوصية (أبـي بكر) رحمه الله بذلك في مرضه وقال «ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وامسـح أرض كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان، فليخرجوا من أقام منهم على دينه ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بـالحق على أنفسنا ووفـاء بذمتهم. . . إلـخ » (المعرّب) .

(أبرهة) في بنائها[1] . ولم تكن كنيسة (أيا صوفيا) ذاتها بأغلى زينة ولا أبدع في الصناعة منها .

ولعل هذا الوصف المجمل يحمل إلينا صورة من المدنية التي وجدها الإسلام في بلاد العرب ، غير أن العرب كانوا عند ذلك لم يقبلوا على الصناعات والفنون ، ولم ينم لهم ذوق فيها ، ولذلك لم يدرك المسلمون من تلك الثروة العظيمة ومن ذلك الجمال البارع إلا أنها كانت للغنيمة إذا كانت مما يغنم ، أو للتحطيم إن كانت صوراً أو دمى . ولسنا نعرف على وجه البت في أي وقت كان هدم هذه الكنيسة وسواها من أبنية النصارى . ويقول (ريت) إنه إن بقي في جزيرة العرب أحد من النصارى في سنة ٦٣٢[2] فإنه لم يبق بها إلا قليل ، ولم تكن الأبنية وقتئذ لتترك كما هي أو تتخذ مساجد للمسلمين كما حدث في غير ذلك الوقت وفي البلاد الأخرى ، لأن الإسلام كان في أول أمره شديد الوطأة على الدين المسيحي وآثاره يمحوها ويعفى أثرها ، كما كان قبل ذلك يوقع باليهود وعبدة الأوثان . ولا شك أن المسلمين كرهوا ما في كنائس النصارى من كثرة الصور والرسوم المنقوشة بالألوان ، فحق لهم بعض الحق أن يخلطوا بين المسيحية وعبادة الأوثان . ومهما يكن من ذلك الأمر فقد أصبح المسلمون جميعاً في جميع بلاد العرب وقبلتهم الكعبة وإمامهم القرآن ، قد ضمهم دين واحد وحكم واحد في عبادة إله واحد ، سواء أكانوا قبل ذلك نصارى أو يهوداً من الفرس أو السودان أو العرب .

---

(١) انظر كتاب (أبي صالح) صفحة ٣٠٠ ـ ٣٠١ وهامشها، وقد يفهم من قوله وجود كنيسة كبرى في أيامه ولكن من المؤكد أنه أخذ عن الطبري ولعله أخذ عن نسخة خطية أقدم مما عندنا اليوم.

(٢) انظر (أوكلي) صفحة ١٨٧ ومع ذلك فهو ينقل عن (أسمان) أن صنعاء كان لها أسقف في القرن الثامن وأن اليمن كان له قسيس في القرن العاشر. ولعل الأسقف كان أسقفاً اسماً وكان منفياً أو غريباً، وقد نجد وصفاً حسناً للمسيحية في العرب قبل الإسلام في كتاب (F. M. E. Pereira) «Historia das Martyres do Nagran» .

وكانت دولة العرب التي قامت عند ذلك دولة حلفاء عدة يضمها حكم جمهوري ، وذهبت مكة بزعامتها . وقد رأى (أبو بكر) وزعماء المسلمين ما رآه النبي من قبل ، وذلك أنهم إذا شاءوا أن يحفظوا على الدولة تماسكها ويتموا عليها اتحادها فلا بد لهم أن يبعثوا البعوث لغزو ما يليهم من البلاد . وكانت بلاد فلسطين للعرب بلاداً موعودة كما كانت تلك الأرض موعودة لليهود ، أرضاً تفيض لبناً وعسلاً . وكان حب القتال غريزة في العرب ، وقد زادهم توقداً إيمانهم بأن عليهم واجباً دينياً يؤدونه . فاجتمعت لهم صفتان ما اجتمعتا في قوم إلا صار بأسهم شديداً ، فلما اجتمعتا للعرب أصبحوا ولا يكاد شيء يقف في سبيلهم .

وكتب أبو بكر إلى رؤساء القبائل من العرب لإنتداب الناس إلى المدينة ليخرجوا للقتال ، وقال لهم إنه بعث إليهم ليخبرهم أنه قد عزم على أن يرسل المؤمنين إلى بلاد الشام لينزعوها من أيدي الكافرين ، وأنه يعلمهم أن الجهاد في الدين طاعة لأمر الله[1] . فما هو إلا قليل حتى اجتمع لديه جيش عظيم ، ثم عقد عليه ليزيد بن أبي سفيان . وكان عمرو بن العاص على قسم منه[2] . وكان عمله هذا جرأة عظيمة ، فإنه حادّ دولتي الفرس والروم وأغزى العرب بلادهما . ولكن الأمر كان أهون في الحقيقة مما يلوح للناس ، فإنه من الخطأ أن نتصور أن العرب قبل الإسلام كانوا كلهم يعبدون الأوثان ، كما أنه من الخطأ أن نتصورهم جميعاً في عزلة عن العالم تفصلهم عنه مفازات الصحارى ، ويعيشون في أرضهم لا يعرفهم أحد ، ثم جاء الإسلام فقوى جموعهم على اقتحام الفيافي والخروج إلى أمم العالم يغزونها ، فليس شيء أبعد من هذا عن

(١) أوكلي صفحة ٩٣.

(٢) جاء في رواية الطبري : «فأمد عمراً ببعض من اجتمع إليه وأمره على فلسطين وأمره بطريق سماها. . . الخ وكتب إلى الوليد (بن عقبة) وأمره بالأردن وأمده ببعضهم ودعا يزيد بن أبي سفيان فأمره على جند عظيم هم جمهور من انتدب له وفي جنده سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة وشيعه ماشيا واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره على حمص وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما وخلفهما» (المعرّب).

الحقيقة . ولا شك في أن ضعف أسدى الروم والفرس وما كان بين النصارى من الشحناء والبغضاء ، وما انبعث في نفوس العرب من الإيمان وما كان فيهم من حب الفيء والغنيمة في هذه الحياة ، وما كانوا يأملونه من نعيم الآخرة ، لا شك في أن ذلك كله كان عاملاً قوياً على فوز غزاة العرب في غزواتهم . ولكن لعله قد كان أكبر من كل ذلك أثراً في فوزهم أنهم كانوا يمتون بصلات وشيجة من قرابة الجنس إلى طائفة كبيرة من أهل البلاد التي غزوها ، فقد كان العرب منذ الأزمنة الغابرة ينزحون إلى ما يلي بلاد الفرس والشام ، وإلى ما بعد الحد الفاصل من الإقليمين من الشرق ، فيقيمون بتلك الأرض أحياناً ويضربون في أنحائها أحياناً أخرى ، وينتجعون بلاد الدولتين فيجوسون خلالها التماساً للتجارة أو يشنون عليها الغارة[1] . وكان بعض هذه القبائل العربية يدين لهرقل بطاعة لا تتعدى اسم الطاعة ، وعلى مثل تلك الحال كان بعضهم مع كسرى ، على حين كان بعضهم معتزلاً لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك . وكانوا جميعاً لا يحجمون عن نصرة أي الدولتين بسيوفهم إذا تبين لهم وجه النفع معها[2] . وكانت طلائع جيوش هرقل من العرب في حين أن منهم قوماً كانوا يغيرون على آسيا الصغرى ، وهم قوم « طوال الشعر » ذكرهم (جورج البيسيدي)[3] . وكان أول نصر لهرقل يوم انتصر على هؤلاء ، وقيل إن جل جيش الروم في (مؤتة) كان من العرب ، وكانت منهم كتيبة خيل بارعة مع كسرى تساعده على فتح الشام ومصر .

فوجد الإسلام على ذلك بين هؤلاء العرب الضاربين على التخوم عدة

---

(١) نقرأ في أخبار القرن الرابع نفسه أن العرب كان لهم شأن يذكر في الدفاع عن القسطنطينية وصد القوط عنها (انظر كتاب الدكتور Hodgkin وهو «Italy and Her Invabers» الجزء الأول صفحة ٢٨٤ (أكسفورد ١٨٩٢).

(٢) وهكذا يقول (زكريا المتليني) إن العرب أغاروا على أرض الدولة الرومانية بأمر من ملك الفرس (صفحة ٢٠٦) ثم في صفحة ٢٣٢ نقرأ عن «أهل بلاد العرب» وأنهم يحاربون مع جستنيان ليخمدوا ثورة السماريتانيين.

(٣) كتاب «De Exped. Pers. Acro» الجزء الثاني صفحة ٢٠٩ .

عظيمة من رجال الحرب شبيهين بما كان من بلاد العرب ذاتها من جنده . فما كان على المسلمين إلا أن يدخلوا هؤلاء العرب في الإسلام ، ويشعروا قلوبهم عقيدتهم ، ويثيروا فيهم روحه فيصبح لهم عيبة ومسلحة . ولم يكن الأمر في أوله بالهين فقد كان أكثر هؤلاء العرب نصارى[1] ، وكان كثير منهم يقاتلون مستميتين في سبيل دولة الروم ودين المسيح[2] ، غير أنه قد كان منهم من آثر علاقة الجنس ، أو كان غير حريص على دين لم يفقه فيه ، في حين أنه قد كانت منهم طائفة انحازت على حذر ، فلم تكن مع هؤلاء ولا مع أولئك ، متربصة حتى يتبين لها لمن الغلبة ، فتكون مع الظافر وهي آمنة . ومهما يكن من الأمر فقد كانت صلة الجنس تجعل رجحان الميل إلى المسلمين .

ولعلنا نجد عذراً إذا نحن سقنا بعد ذلك رأياً آخر نمهد به مجملين ؛ وذلك أن فوز المسلمين كان له سبب آخر ألا وهو ما حل بالمسيحيين من الخذلان والوهن، وهو يعدل في شدته ما كان عند المسلمين من إيمان وقوة . قال (قيدرينوس) « على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ومن لا يخشون الله من القسوس خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا » هذه كلماته التي ذكر فيها نشأة الإسلام ، وهي كلمات قليلة ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمداً كان رسولاً من الله ، أو هو على الأقل سوط من الله

---

(١) كان القديس (سيميون استيليتس) عربي المولد وهو مثل من أمثلة التعصب في المسيحية وإنا والحق نشعر بشيء من التردد في وصفه بهذا الوصف لأنه قد ضحى تضحية مدفوعاً بدافع طيب وإن كان مخطئاً.

(٢) انظر مثلاً رواية (أوكلي) عن وقعة اليرموك صفحة ١٩٤ وما بعدها وانظره كذلك لما جاء عن العرب المسيحيين في صفحات ١٤٤ - ١٤٥، ١٧٢، ٢٢٨، ٢٢٨ - ٢٢٩، ٢٣٢ . . . إلخ . ويحكي (حنا مسكوس) قصة رجل غريب لقي امرأة أعرابية فسألها عفواً قائلاً « مسيحية أم وثنية ؟ » (Pr. Spir. Cap. 136) وهذا كان بالطبع قبل الإسلام ولكن بعض طوائف العرب المسيحيين بقيت في فلسطين إلى ما بعد فتح العرب لها فإن (أبا الفرج) يذكر أسقفاً لقبائل المسيحيين في أول القرن الثامن (كتاب أبي الفرج تاريخ الكنائس) (الجزء الأول المجموعة ٢٩٤) .

أرسله عليهم . وهذا شعور يظهر على لسان كثير ممن كتب من المسيحيين في ذلك الوقت ، أمثال (سبيوس) الأرمني[1] . وإنه لأمر معروف أنه إذا نزلت بقوم نازلة من هزيمة قالوا إن ما أصابهم كان عقاباً على ذنوبهم . وإن من فكر وجد أن هذا القول لم يخطىء الصواب ولم يبعد عن الحقيقة ولكن يلوح لنا أن في قول هؤلاء الكتاب شيئاً من الحزن المبرح أكثر ممن نراه في مثل هذه الأحوال . فإنهم يحسون أن النصارى قد وزنوا والعرب في كفتين فرجح العرب وَمَالت كفتهم ، وأن المسيحيين قد أصبحوا غير جديرين بأن يكونوا دون غيرهم هداة الناس إلى سبيل الله . وليس من العسير أن ندرك كيف قوي الإسلام بما وقع في قلوب المسيحيين من هذا الخوف وتوقع البلاء ، فقد كان قسوسهم وجندهم في ذلك سواء وقد كان (لوقا) الذي أسلم مدينة حلب للعرب ممتلىء القلب بما كان يبشر به قسيس من أنه كان محتوماً أن يفتح العرب البلاد ، وكان (بازل) الذي أسلم مدينة صور قد أخذ عن الراهب (بحيرَى) ما جعله يترك الروم ويوصي أهل الدولة الرومانية[2] بدين الإسلام . وهاتان الروايتان قد جاءتا عن طريق العرب ، وقد تكونان هما وأمثالهما أقاصيص وهمية لا حقيقة لها ، ولكنها تدل على أمر واحد لا شك فيه ولا يكذبه التاريخ ، وذلك أنه قد شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين فارتجفت لها أفئدتهم ، وهيْ أن الإسلام حق وأن نصره محقق .

---

(١) نورد قوله وهو قول عجيب : «في ذلك الوقت ظهر رجل من ولد إسماعيل اسمه محمد كان تاجراً وقال للناس إن الله أرسله بدعوة الحق ـ ولما كانت الدعوة من الله اجتمع الناس بأمره ودانوا لشريعته وهجروا عبادة الأوثان الباطلة ونابوا إلى الله الحي القيوم الذي ظهر لأبيهم إبراهيم وقد أمرهم محمد ألا يأكلوا الموقوذة ولا يشربوا الخمر ولا يكذبوا ولا يزنوا» والعجب في أن (سبيوس) كان مسيحياً وكان فوق ذلك أسقفاً .

(٢) كتاب (أوكلي) صفحة ٢٣٠ و ٢٥٢ .

الفصل الثاني عشر

فتح العرب للشام

هرقل لا يدع فرصة تفوته ـ رحلته إلى أذاسة ـ اضطهاده للخارجين على مذهب الدولة ـ يولي (صفرونيوس) بطريقاً لبيت المقدس ـ وفود التهنئة إلى (هرقل) ـ حلف العرب واليهود ـ فتح دمشق ـ (خالد) يهزم (تيودور) ـ وداع هرقل للشام ـ استنقاذ الصليب الأعظم ـ تسليم بيت المقدس لعمر .

لما انقضى مقام هرقل في بيت المقدس وعاد أدراجه إلى الشمال في (فلسطين) ، لم يكن بعد قد بدا له ما في الإسلام من خطر عليه . وقد كان النبي (عليه الصلاة والسلام) عند ذلك قد فاز ونشر الإسلام في جزيرة العرب ، وبلغ ظل الإسلام أكناف الدولة الرومانية . ولكن الإمبراطور لم ير في ذلك إلا ما اعتادت الدولة أن تصمد له من غارات أهل الصحراء ، وكان هذا أمراً مألوفاً . فإنه لو أدرك عند ذلك حقيقة ما في ثنايا الإسلام من الخطر ، لكان قد سارع إلى منازلته ، ولعله كان يستطيع أن يقضي على دولة العرب في أول نشأتها ويمحو أثر الإسلام[1] من التاريخ لو كان اتخذ الحيطة وأعدّ العدّة قبل فوات وقتها . وكانت قوّة عقله تمكنه من ذلك وعنده موارد المال لا تزال مع ما نزل بها من ضعف كافية لما كان دونه .

ولكن قضى الله أن ذلك لا يكون . فإن واجبه كان يناديه أن يسرع بالسير من الجنوب ، وكان قلبه مهموماً بأمر البلاد التي في أكناف الدولة حريصاً على

(١) جاء في الأصل : « ويمحو اسم محمد » .

تنظيمها حسب نصوص المعاهدة مع الفرس ، وكذلك كان عليه أن يدبر أمر الأموال وأمر الحكم في كل البلاد الشرقية التي اضطربت أمورها في سنوات الحرب الست . وكان فوق كل ذلك يحب أن ينفذ ما اختمر في ذهنه منذ زمن طويل من أمر الديانة المسيحية وتوحيد مذاهبها ، حتى يقوم التوحيد على الوفاق لا على الجبرو والإضطرار . وكان يظن أن زعماء الكنيسة يستطيعون أن يخلقوا صورة جديدة من المذاهب تخلب الألباب وتسحرها ، فإذا ما تم له صهر مذاهب الخارجين وأهل الشقاق والخلاف وأخرج منها مذهباً خالصاً مصفى لا يدخل إليه الخلاف من بين يديه ولا من خلفه ، كانت عند المسيحيين قوّة لا تقف دونها قوّة أعداء الدولة والصليب !

وسار الإمبراطور عند منصرفه من بيت المقدس إلى جزيرة ما بين النهرين[1] وكان طريقه عن دمشق فحمص فمدينة (بيرويه) فهيرابولس فأذاسة ، وكانت (أذاسة) موطن آبائه وكانت موطن القديس (أفريم) أبي الكنيسة (السورية)[2] ، وكذلك كانت مشهد اليعاقبة (المونوفيسيين) لأنها كانت مقر (يعقوبوس بارودايوس) . وكان ذلك المذهب هو السائد في الأديرة المجاورة وعدّتها ثلثمائة ، وفي معظم بلاد أرمينيا والشام ومصر . وكانت أذاسة فوق كل ذلك موضعاً ذا خطر عظيم في السياسة لوقوعها بين دجلة والفرات ، وقربها من بلاد الأرمن والفرس وسوريا ، فلم يكن بلد أصلح منها لما عزم عليه الإمبراطور من الأمور .

وحوادث هذه المدة ذات عقد يتعذر على المرء أن يحلها ، فإنه قد يستبين خيطاً منها في ديوان من الدواوين ، وبضعة خيوط أخرى في ديوان سواه ، ولكن تلك الخيوط لا صلة بينها ، ولذلك يصعب على الإنسان مهما أوتي من الصبر والأناة أن يسويها ويجمع بينها . وعلى كل حال فإنا نستخلص أنه في سنة ٦٣١ ذهب الإمبراطور إلى (هيرابولس) وبدأ فيها تحقيق ما كان يرجو إنفاذه من

---

(١) سبيوس .

(٢) داربيرون صفحة ٢٨٦ وانظر كذلك صفحة ٢٩٩ لما سيأتي بعد .

توحيد الكنيسة ، واختار (أثناسيوس) رئيساً لأساقفة (أنطاكية) وجعل (قيرس) رئيساً لأساقفة الإسكندرية . غير أنه أخطأ خطأ كبيراً في اختيار (قيرس) هذا ، وسنصف بعد قليل سيره إلى مصر ، ونرى أي نكبة حلت في تلك البلاد بما كان الإمبراطور يسعى لتحقيقه من الآمال . فإنه لقي مقاومة ومخالفة من كل جانب ، فخالفه الزعيم الملكاني (صفرونيوس) وشيعته ، وخالفه كذلك كل القبط قسوسهم وعامتهم . وسنرى بعد ذلك كيف انقلب (قيرس) فقلب للقبط ظهر المجن ، وحارب مذهبهم ، إذ رأى أنه لم يستطع أن يدخلهم بالحسنى في المذهب المونوفيسي ، وشرع يحملهم على الخروج من مذهبهم جبراً واضطراراً بالعسف والإضطهاد .

وكان الأمر في بلاد الشام على ما كان عليه في مصر إذ أخفق سعي الإمبراطور هناك ، فأراد حمل الناس على ما أراد بالإضطهاد ، فكان (قيرس) بعسفه واضطهاده يهدم ما بناه هرقل بحروبه وفتوحه ، ويمهد السبيل للإسلام في مصر ، على حين كان الإضطهاد في الشام يمهد السبيل له هناك . غير أن الأمر في بلاد الشام لم يبلغ من الشدة ما بلغه في مصر ، فقد كان (أثناسيوس) صاحب كياسة وأناة وكان (قيرس) خلواً منهما . وكان لوجود الإمبراطور نفسه في الشام أثر في تخفيف حدة الخلاف ومنع الخروج[1](*) ولكن لم يمض كبير

---

(١) يورد أبو الفرج (ابن العبري) رواية مخالفة لهذه لما كان بين الإمبراطور وأنستاسيوس من العلاقة (تاريخ الكنائس الجزء الأول المجموعة ٢٧١ ـ ٤) ويقول : إن الإمبراطور حرم من الاتصال بالمؤمنين في أذاسة وأن في (مبوج) جاء (اثناسيوس) ومعه اثنا عشر أسقفاً وعرضوا مذهبهم على (هرقل) فقرأه ومدحه ولكنه أوعز إليهم أن يقبلوا مذهب (خلقيدونية) ولما أبوا ذلك كتب (هرقل) أمراً لكل الدولة قال فيه :

« كل من يأبى الطاعة للمجمع يجدع أنفه وتصلم أذناه ويهدم منزله » فدخل كثيرون عقب ذلك في مذهب المجمع وسار أهل حمص وسواها فارتكبوا كثيراً من أعمال الوحشية وأحرقوا كثيراً من الكنائس والأديرة وإن من الصعب أن نفهم سبب هذا ولكن هذه الرواية جاءت في كتاب رجل لا يعرف عنه ميل إلى آراء المونوثيليين التي كانت تعزى إلى (اثناسيوس) والتي كان بلا شك يعتقدها ولكنه قد خرج عليها فيما بعد . وأما فيما يتعلق =

زمن حتى ظهر الضرر المحقق الناشىء من سعي الإمبراطور في أمر الكنيسة . وقد توسل الحبر القدير (صفرونيوس) إلى (قيرس) توسلاً حاراً ليعدل عن عسفه فلم يجده ذلك شيئاً ، فسافر إلى القسطنطينية لكي يخاطب البطريق (سرجيوس) في ذلك الشأن ، وكان (سرجيوس) من خير من ولي أمر الكنيسة الشرقية وأوضحهم عقلاً . ولكنه كان صاحب المذهب المونوثيلي الذي أراد به التقريب بين المذاهب ، ولم يكن ليستطيع إنكار ذلك المذهب ، وحاول أن يقنع (صفرونيوس) أو يستميله بكل ما أوتيَ من قوة في الحجة وبلاغة في الخطاب وخلابة في الخلق ولكنه لم يفلح وعاد (صفرونيوس) إلى الشام آسفاً كئيباً .

ولعله ذهب بعد ذلك إلى (هرقل) ليبذل معه من الجهد مثل ما بذل مع (قيرس) و (سرجيوس) ، ولكن لا يذكر التاريخ حدوث ذلك اللقاء بينهما . أما نحن فنرى أنه لا بدّ أن يكون قد حدث ذلك اللقاء فهو يتفق مع سائر ما نعرف من الحوادث ، وبغير حدوثه لا يمكن أن نفسر العلة التي من أجلها اختار (هرقل) (صفرونيوس) ليكون كبير أساقفة (بيت المقدس) . وقد بقي ذلك المنصب شاغراً منذ مات (مودستوس) في سفره إلى الشمال مع الإمبراطور . ومهما يكن من الأمر فإنه من المحقق أن (صفرونيوس) لم يخفف من وطأة عداوته للمذهب المحدث مذهب الوفاق ، وكان من أول ما قام به بعد ولايته أنه جمع رجال الكنيسة وقال فيهم كلمة طعن فيها بدعة الإمبراطور وندّد بها في غير

= بالصعوبة الأخرى وهي أن (اثناسيوس) كان بطريق أنطاكية قبل أن يتفق أي اتفاق مع (هرقل) فقد رأينا أن زيارته لمصر بصفته بطريق أنطاكية كانت سنة ٦١٥ ونظن أن تفسير الأمر كله يأتي : لما فتح الفرس بلاد الشام في سنة ٦١٤ عزل (اثناسيوس) عن ولايته للدين فعلاً وإن لم يكن شرعاً وما كان ليعود إلى ولايته إلاّ بعد الصلح بأمر من (هرقل) وقد رضي الإمبراطور بإعادته مع أنه (مونوفيسي) على شروط الاتفاق الذي وقع بينهما فرضي (أثناسيوس) بهذا ولكنه بعد رجوعه إلى الولاية رأى أنه لا يستطيع أن يحمل الناس على ما ركب هو فرجع عن الاتفاق رجوعاً صريحاً ـ فقابل الإمبراطور ذلك بأن أمر بالاضطهاد .

حيطة ولا هوادة ، وحكم بالخروج على البطارقة الذين اتبعوها[1] ، لأن (صفرونيوس) لما قبل أن يلي إمرة الدين في بيت المقدس كان يظن من غير شك أن الإمبراطور سيعدل عن بدعة (المذهب المونوثيلي) ويعود إلى مذهب السنة (الأرثوذكسي) ، في حين أن الإمبراطور كان يظن أنه سيستميل (صفرونيوس) باختياره للولاية الدينية كما استمال (أثناسيوس) من قبل . ولعل هذه كانت أشأم زلة زلها (هرقل) لا تفوقها إلا زلته الأولى وهي اختيار (قيرس) . وليس من المبالغة أن نقول إنها تكاد تكون السبب في ضياع فلسطين كما كان اختيار (قيرس) سبباً في ضياع مصر .

إنه من الممكن أن نلتمس لهرقل العذر في زلاته هذه إذا نحن ذكرنا أنه إنما اقتحمها اقتحاماً وهو يقصد إلى غاية سامية ويدفعه باعث نبيل . ولكن على أي حال قد أدّى الأمر في مصر والشام إلى أن الإمبراطور عندما أخفق في سعيه عمد إلى التضييق على معارضيه تضييقاً مراً ، ولم تبق إلا خطورة واحدة بين هذا التضييق وبين الإضطهاد . ولم تكن نفسه الوثابة لتتردّد في أمرها وقد جرح الفشل عزتها فأثارها . قال أبو الفرج : « ولما شكا الناس إلى هرقل لم يجب جواباً ، ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب فعظمت نعمته لدينا أن أخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهتهم الشديدة وعداوتهم المرة[2] . على

---

(١) انظر ما كتبه صفرونيوس في مقالة (Epistola Synodica ad Serguim) وقد ذكرها ميني في كتابه (Pat. Gr.) الجزء ٨٧ - ٣ المجموعة ٣١٩٣ .

(٢) أنظر الكتاب المذكور في موضع ذلك القول صفحة ٢٧٤ فإن أبا الفرج كتب كرجل (مونوفيسي) سوري . ويظهر الكاتب نفس الروح في مواضع أخرى (أنظر مجموعة ٢٦٦ و ٢٦٧) وفيها يقول إن كسرى انضم إلى المونوفيسيين السوريين فطرد أتباع مذهب خلقيدونية من الأساقفة من الأرض وأعاد كل الكنائس التي كان (دومتيان) أسقف (ملتينا) قد أخذها من المونوفيسيين في أيام موريق فمحا ذكر الخلقيدونيين من حدود الفرات شرقاً ، فإن الله قد أخذهم بجريرتهم فنالوا على يد الفرس جزاء ما جنوه من الآثام . وهذه هي القصة القديمة للمسيحيين إذ يضحون ببلادهم وشعبهم ودينهم لكي يفوزوا على شيعة منافسة لهم من شيع المسيحيين . وهكذا نجد مطراناً نسطورياً بعد أخذ دمشق بخمسة عشر عاماً يقول في كتابه « وهؤلاء العرب الذين أعطاهم الله السلطان في =

أن كنائسنا لم ترجع إلينا لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان في يدها عند فتحهم للبلاد » . وإنه لمن المحزن أن يقرأ الإنسان مثل هذا الترحيب من قوم مسيحيين بحكم العرب وزعمهم أن ذلك كان تخليصاً لهم ساقه الله إليهم ليخرجهم به من حكم إخوان لهم في المسيحية . ولكن ذلك يظهر بجلاء قاطع أن سعي الإمبراطور في توحيد طوائف الكنيسة كان سعياً باطلاً غير ممكن وأنه لا شك جر عليه الدمار والوبال .

بقي علينا أن نذكر الزلّة الثالثة الكبرى وقد سبق أن أشرنا إليها وهي مقتلة اليهود ، وكانت تلك أولى زلاته من الوجهة التاريخية ، وكانت كذلك أول ما جنى منه الثمر الوبيل . فإنه بعد احتفال إعلاء الصليب في بيت المقدس بزمن يسير أمر بنفي اليهود أو قتلهم فأتى بعضهم نبأ ذلك فهرب من استطاع إلى الصحراء فيما بعد نهر الأردن وتربصوا هناك الدوائر بأعدائهم . وكانت قلوبهم تتقد بنار الغيظ وطلب الثأر وهم على تربصهم هذا ، حتى لاحت لهم أعلام الإسلام وهي طالعة فرحبوا بهذه الجموع التي جاءت تطلب قتال الدولة الرومانية .

وفيما كانت السحب الدكناء تتعالى بعضها فوق بعض على أفق الدولة كانت أعمال هرقل قد طبقت شهرتها الخافقين ، وصار الملوك من أقاصي الأرض في الشرق والغرب من الهند ومن فرنسا[1] يرسلون إليه الرسل والهدايا الثمينة وآيات الإعجاب . ولكن الإمبراطور ما لبث أن عرف أن القضاء يسخر منه ، فإنه ما كادت تمثل بين يديه آيات خضوع العالم وإعجابه حتى كان العرب يقرعون أبواب الشام قرعاً عنيفاً وحتى كان ابنه من صلبه (أثالاريك) يكيد له

= أيامنا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا » وكانت الكنيسة الكبرى في دمشق إذ ذاك يستعملها المسلمون والمسيحيون على حد سواء (أنظر كتاب دي غويه « Conquête de la Syrie » صفحة ٨٤) .

(١) (Drapeyron) صفحة ٢٨٨ .

مشتركاً مع ابن أخته (تيودور) وجماعة من الأرمن يريدون خلعه ثم قتله . وقد فشا أمر المتآمرين ، أفشاه أحدهم ، وكان عقاب المجرمين أن قطعت أنوفهم وأيديهم[1] اليمنى إلا من نم عليهم فإنه جوزي بحكم أخف وطأة وهو النفي وذلك لأنه لم يوافقهم على أمر قتل هرقل[2] .

ويلوح لنا أنه قد حدث بعد هذا وبعد سفر هرقل إلى أذاسة أن اجتمع اليهود في تلك المدينة ، وقد روى (سبيوس) أن قبائل اليهود الإثنتي عشرة كان لكل منها من ينطق بلسانها في ذلك الإجتماع . ورأى اليهود أن المدينة خالية من الجنود ، فإن جنود الفرس خرجوا منها ولم تحل محلهم مسلحة من الروم ، فأغلقوا أبواب المدينة وأصلحوا حصونها وحادوا الإمبراطور وجنوده . فحاصرهم هرقل ولم يلبثوا أن نزلوا على حكمه فَمَنَّ عليهم ولم يشتط في شرطه ، بل سمح لليهود أن يعودوا آمنين إلى موطنهم . ولكنهم لم يطيعوا بل ذهبوا إلى الصحراء واتفقوا مع جند الإسلام وصاروا لهم أدلاء في تلك البلاد[3] . ولا بد أن ذلك كان في سنة ٦٣٤ حين كان العرب قد دخلوا بلاد الفرس بقيادة خالد بن الوليد .

---

(١) إذا أردت قراءة شيء عن فظاعة بعض هذه العقوبات التي لا تزال في القانون إقرأ كتاب الأستاذ (Bury) « Later Rom. Emp. » الجزء الثاني صفحة ٣٩٠ وكذلك ما جاء في هامش ص ٥٢٩ من كتاب جبون الذي نشره الأستاذ بوري الجزء الخامس تعليقاً على القانون الروماني الإغريقي .

(٢) جاءت هذه القصة بتفصيل عظيم في كتاب سبيوس .

(٣) ورد هذا الخبر في (سبيوس) ويوافق مؤرخ آخر أرمني اسمه (جيفوند) على أن اليهود دعوا العرب ليخرجوا الروم من فلسطين وكان (جيفوند) من أهل القرن الثامن وقد طبعت من كتابه ترجمة فرنسية في باريس نشرها (شاه نزاريان) في سنة ١٨٥٦ ويقول (درابيرون) صفحة ٣٢٧ أنه حدثت مذبحة جديدة لليهود في (أذاسة) ويروي الخبر عن سبيوس ولكني لم أجد مثل هذا الخبر في سبيوس ويظهر أن ثورة اليهود هذه هي ثورة العرب التي وصفها قيدرينوس وقال إنها حدثت بعد موت النبي . وكان هؤلاء العرب في خدمة الإمبراطور لكي يحرسوا طرق الصحراء فلما قطعت عنهم وظائفهم « أساءهم ذلك =

فلما اتفق اليهود مع العرب طلب إلى هرقل أن يعيد أرض المعاد إلى أبناء إبراهيم ، وهدد أنه إن لم يفعل أخذوا منه تراثهم وزيادة ، ولم يكن لهذا الطلب إلا رد واحد وهو الحرب . وهزم الروم بقيادة (تيودور) في (جبته) وأعقب ذلك انهزامهم الأكبر عند (اليرموك) في أول سبتمبر سنة ٦٣٤ ، وقد مات أبو بكر قبل ذلك في شهر يوليه وولِيَ الأمر بعده الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان العرب قد فتحوا (بصرى) وجاءوا بعد اليرموك إلى دمشق وهي العاصمة القديمة لبلاد الشام ، فحاصرها خالد حتى أسلمها لهم حاكمها (منصور) على عهد ضمن لأهلها سلامتهم وما يملكون ، وأبقى في أيديهم كنائسهم لا ينازعهم فيها منازع ، وكان هذا في سنة ٦٣٥ . وقد روى أحد المؤرخين[١] « أن جميع المطارنة والبطارقة في كل البلاد لعنوا (منصوراً) هذا لأنه ساعد المسلمين » ، وكان هرقل قبل تسليم المدينة قد أرسل جيشاً عظيماً بقيادة أخيه (تيودور) وكان جيشه أكبر عدداً من جيش المسلمين ، فقاتل خالداً أشد قتال وظل النصر متردداً بين الفريقين حتى انتهى الأمر بفوز المسلمين وانهزمت جيوش الروم فلم يبق لها أثر . وجاءت أنباء الهزيمة إلى هرقل وهو في أنطاكية[٢] فعرف أن الأمر قد انفلت من يده وأن الله قد خذل الإمبراطورية وأصبح غالب الفرس الوثنيين وقد غلبه العرب الذين لا يتبعون دين المسيح[٣] . ومما زاد ألمه شدة علمه أنه

= ونزحوا إلى قومهم وذهبوا إلى أرض غزة قاصدين إلى الصحراء التي في طريق جبال سيناء »*(٢٣) .

وعلى أي حال قد ساعدت هذه الثورة التي قام بها العرب جيوش المسلمين كما ساعدهم خروج اليهود على الدولة ، وإذا أردت أن تقرأ عن اضطهاد هرقل لليهود اضطهاداً مطرداً فاقرأ كتاب الأستاذ بوري « Later Rom. Emp. » الجزء الثاني صفحة ٢١٥ .

(١) هو سعيد بن بطريق .

(٢) لعل هذه هي الرواية المحتملة ولكن (فيدرينوس) يقول إن تيودور عاد بعد هزيمته إلى ملك أذاسة ويقول جبون وقوله عجيب : « وقد أيقظته غزوة الشام من سباته في قصره في القسطنطينية أو في أنطاكية » (الفصل ٥١) .

(٣) جاء في الأصل كلمة (The unbelieving Saracens) وهذه لا يمكن ترجمتها حرفياً لأن ذلك يغير الحقيقة .

ارتكب خطيئة بزواجه من ابنة أخته (مرتينة) ، وأن جسمه آخذ في الإعتلال والإنحلال . ولسنا نجد تفسيراً غير هذا نبين به سبب قعوده وتهاونه ، فقد كان من قبل رجلاً تلقاه أبداً في الصدر كلما ثارت الحرب ودعاه الناس لائذين بسطوته في القتال ودرايته بكل أموره . ولو لاقاه خالد بن الوليد « سيف الله» منذ ست سنوات للقي فيه قرناً كفيئاً ، ولكان في حربه أغزر حيلة وأبرع مكيدة ، ولصمد لشجاعة قواد العرب البدوية فزلزلها وأوقع بها . ولكنه في ذلك الوقت الذي جاء فيه العرب لم يتحرك ولم يقد جيشاً ليلقاهم به . فكأن يده كانت عند ذلك مغلولة وكأن عقله كان مفلوجاً . وقد جمع كبار قومه في حفل حافل في كنيسة أنطاكية يستشيرهم فيما يعمل ، فقام شيخ أشيب وقال : « إن الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ولما يرتكبونه من الربا والقسوة ـ وكان حتماً عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم » فكان قوله هذا فصل الخطاب ، فأحس الإمبراطور من نفسه بضعف الجسم ووهن العقل ، ورأى الحظ يتعثر به ، وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لا غناء فيه ، فرحل عنها إلى القسطنطينية في البحر في شهر سبتمبر من سنة ٦٣٦[١] ، وقال إذ هو راحل : « وداعاً يا بلاد الشام وداعاً ما أطول أمده ! » . وإن في تلك المقولة المعروفة التي قالها لرنة من الأسى ، وكأننا بها تحمل ما كان يدور في نفسه من أن مجده الغابر ونصره الباهر قد انتهيا بعد بالخذلان والعار ، وإنه إذ يقولها ليودع عزه وسطوته . وإن ذلك ليذكرنا بنابليون وما أحس به من الألم إذ هو على ظهر السفينة (بلريفون) ينظر إلى وطنه فرنسا نظرته الأخيرة[٢] . والحق أن فيما بين ذينك القائدين العظيمين لشبهاً من وجوه عدة في اضمحلال جسمهما وضياع قوتيهما على القتال . ولكن نابليون ظل إلى آخر مواقعه وهو ملك يقود جيوشه ، في

(١) أنظر كتاب (De Goeje) وهو (Conquête de La Syrie) صفحة ١٠٢ وقد جاء فيه أن تاريخ سير هرقل كان في شعبان سنة ١٥ للهجرة . ولكن الدليل على أن سفره كان في البر غير قاطع .

(٢) أنظر كتاب لورد روزبري « نابليون » صفحة ١١٢ (طبعة لندن ١٩٠٠) .

حين أن هرقل أضاع قواه سدى في نضال لا فائدة فيه أراد به توحيد الكنيسة ، فلم يستطع أن يجمع ما بقي من قوى الدولة أو يقود جندها إذا ما أزفت ساعة الخطر واشتدت الأزمة . فبقي من شدته ثلاث سنين خبت فيها آماله وذوت قوته وصوح نشاطه ، وعلا أمر الإسلام تحت بصره وسمعه ولم يتحرك لمقاومته ، فما زال الإسلام يعلو حتى طوى دولته تحت ظله .

ويذهب معظم المؤرخين مذهب مؤرخي اليونان ، أو لعلهم أخطأوا تأويل ما قصدوه في رواياتهم ، فيقولون إن هرقل صحا بغتةً من سباته واندفع إلى بيت المقدس لا يلوي على شيء لكي ينجي الصليب المقدّس من أيدي أعدائه[2] .

---

(١) قال درابيرون في صفحة ٣٢٩ : « وقد جرى هذا الطريد القوي إلى جبل الزيتون فنزع الصليب المقدس من البطريق صفرونيوس صاحبه وسار في لبنان بين الناس الذين أدهشهم صنعه » وقد أخذ نبذاً من نيقفوروس وتيوفانز وقيدرينوس وسويداس ـ ويذهب (ليبو) إلى هذا الرأي ويقول الأستاذ (بوري) في كتاب الدولة الرومانية المتأخرة (الجزء الثاني صفحة ٢٦٦) « إنه استطاع مع قرب العرب أن يسرع إلى بيت المقدس ويأخذ الصليب إذ عزم على أن يحول بينه وبين الوقوع في يد الذين لا يؤمنون بالمسيح » . وإني أجرؤ فأقول إن هذا كله وهم ولنبدأ بما قاله نيقفوروس فإن كل ما قاله عن حركات هرقل خطأ في خطأ فإنه يقول إن هرقل أخذ الصليب إلى بيت المقدس قبل أن يعود ظافراً إلى القسطنطينية ويقول إنه أسرع بالاحتفال بإعلائه ثم حمله بعد ذلك إلى القسطنطينية ! ويقول إن هرقل جاء إلى الشرق عندما جاء العرب وخربوا ما حول أنطاكية، وفيما كان لا يزال في الشرق فتح العرب مصر . وواضح أن نيقفوروس لا يمكن أن يعتمد عليه في ذلك العصر لما يقع فيه من الخلط الذي لا رجاء معه في الإعتماد عليه ومع ذلك فإنه لم يذكر العبارة التي نسبت إليه . وكذلك الإشارة إلى تيوفانز فإنها لا مبرر لها فإنه يقول إن الإمبراطور لما غادر الشام يائساً « أخذ معه الخشب المقدس (الصليب) وذهب إلى القسطنطينية »*[24] ولم يذكر في ذلك كلمة عن سفره إلى بيت المقدس .
ولما نقل قيدرينوس عن تيوفانز أضاف بعد كلمة (أخشاب)*[25] كلمة (من بيت المقدس)*[25/] ولكن هذه الإضافة ناشئة من محض استنتاج منذ عرف أن الصليب ترك في بيت المقدس .
وقال (سويداس) بعد ذكر حفلة إعلاء الصليب «ثم أرسله الإمبراطور إلى القسطنطينية» وعلى ذلك فلا يبرر ممن نقل عنهم درابيرون رأيه الذي ذهب إليه . =

وليس ثمة ما يدل على تلك الرحلة إلا ما رويَ من أن هرقل حمل معه الصليب وهو عائد إلى القسطنطينية . ولا شك في أنه فعل ذلك ، غير أنه لم ينقذه بأن ذهب إلى بيت المقدس ، ولا يمكن أن نتخذ من قول (قيدرينوس) وأمثاله ممن يسوقون القول جزافاً لا يتحرّون فيه الدقة دليلاً يقوم لحظة واحدة في وجه رواية (سبيوس) وهي رواية واضحة دقيقة . فإن (سبيوس) يقول إن العرب بعد وقعة اليرموك جازوا نهر الأردن ، وكانت هيبتهم تسبقهم فتقع في قلوب أهل تلك البلاد ، فكانوا يذعنون لهم خاضعين . وقال « وفي تلك الليلة » يقصد الليلة التي أعقبت بلوغ أنباء قدوم العرب إليهم « أخذ أهل بيت المقدس الصليب الأعظم وكل ما كان في الكنائس من الآنية وجعلوا كل ذلك عند الساحل ثم وضعوها في سفينة وبعثوا بها إلى دار الملك بالقسطنطينية » ولم يذكر في روايته كلمة واحدة عن هرقل . ولكن لا شك أن تلك السفينة التي كانت تحمل الكنوز المقدسة سارت إلى الشمال ولحقت بالإمبراطور . وكان لحوقها به إما في بعض الثغور التي مر بها في طريقه إلى عاصمته إذا كان سفره بحراً ، وإما لحقته بقصره في (هيبيريا) على مقربة من خلقيدونية وكان قد أقام بها مدّة من الزمن وهو في إضطراب ومرض[1] يفتت عليه الأكباد . فلما سار إلى العاصمة حمل معه الصليب فأعاده إلى كنيسة القديسة صوفيا . وكان الناس قد فرحوا من قبل أشد الفرح بذلك الصليب ورحبوا بمقدمه ظافراً ورأوا فيه سر نجاح هرقل ، ثم عاد إليهم بعد ذلك والحزن مخيم على الناس وهم يرون في عودته إليهم رمزاً لإخفاق مليكهم وخيبته . ويقيننا أن الأقدار لم تسخر من هرقل

= ويجدر بي أن أقول أن تيوفانز لا يزيد شيئاً على نيقفوروس فكلاهما لا يصح الإعتماد عليه في تاريخ هذه السنوات القلائل فإنه مثلاً يجعل هرب هرقل قبل وقعة اليرموك وقبل فتح العرب دمشق ويجعل غزو مصر بعد فتح دمشق مباشرة وأن وصف تيوفانز لما حدث بمصر كله غير صحيح فوق أنه ناقص . فالحقيقة أن هؤلاء المؤرخين البيزنطيين في وصفهم فتح مصر يضللون التاريخ أكثر من هدايتهم له .

(١) كان مرضه الذي يسمونه (Hydrophobia) أو « كره الماء » قد أصابه في (هيبريا) وكانت علته في الحقيقة الخوف من الفضاء الفسيح أياً كان وليس الخوف من الماء .

سخراً أقطع حداً ولا أمر مذاقاً من هذا على كثرة ما أنزلته به من النكبات .

إذن تتضح لنا الحقيقة وهي أن الصليب لم ينزع نزعاً من يد صاحبه البطريق صفرونيوس بل إنه أرسله مختاراً مع سائر تحف الكنيسة ، نزل عنها للإمبراطور لكي يحفظها عنده ، ولم تكن ثمة وسيلة لحفظها غير هذه . فقد كان بالإسكندرية عدوه قيرس لا يزال على ولايته ، وكانت مصر فوق ذلك قريبة العهد بغزو الفرس وكان يتهددها الخطر من فتح العرب . ولكن القسطنطينية صمدت لكل عواصف الحدثان في الحروب الماضية ولم يستطع عدو أن ينال منها ، فكانت على ذلك هي البلد الذي لا يقهر فوق أنها كانت عاصمة الدولة .

وإذا صح أن إرسال الصليب والتحف كان عملاً يقصد به صفرونيوس أن يدل على ولائه لهرقل ، لكان ذلك آخر ما قدمه له في حياته من الولاء ، فإن مدينة بيت المقدس كانت عند ذلك يحاصرها خالد ، ثم جاء له أبو عبيدة بعد بضعة أيام ممداً . وكان بالمدينة شيء كثير من المؤونة وكانت أسوارها قد أصلحت وحصنت بعد خروج الفرس منها ، فلما جاء العرب إليها ظلوا حولها عدة أشهر يحيطون بأسوارها ، ويرامون جندها بالسهام ، ويقاتلون من خرج إليهم منهم . ولكنهم لم يستطيعوا أن يرزأوها إلا يسيراً لأنهم كانوا لا عهد لهم بالحصار في حروبهم ، ولم تكن لهم عدة لصدع الأسوار . ولم يستغرق الفرس في فتحها من قبل أكثر من ثمانية عشر يوماً ، وأما عند ذلك فقد ظل خالد بن الوليد نفسه مقيماً حولها وهو يحرق الأُرَّم غيظاً لا يستطيع شيئاً إذ يتطلع إلى حصونها وآطامها . وقد اختلف الرواة في مدة حصاره ، والظاهر أنها استطالت مدة الشتاء كله ، شتاء سنة (٦٣٦ ـ ٦٣٧) ولعلها كانت أطول من ذلك . ولكن لم يكن عند أحد شك في نهاية الأمر ، فإن العرب إن عجزوا عن فتح المدينة عنوة بالهجوم فإن أهل المدينة لم تكن بهم قوة على رفع حصارهم عنها ، ولم تأت من قبل الرومان أنباء تجعلهم يؤملون في النجدة ، بل كانت الأنباء تترى بالمصائب والنكبات . فحل في قلوب أهل بيت المقدس من الخيبة واليأس مثل ما حل من قبل في قلب هرقل .

فلما أن صار الأمر إلى ذلك فاوض البطريق الشيخ صفرونيوس[1] قواد العرب من فوق الأسوار ، ولعله كان يحس عند ذلك أن المدينة لن تستطيع المقاومة بعد ذلك طويلاً ، لنفاد المؤونة وقرب وقوع المجاعة بها ، واتفق على أن يسلم المدينة على شرط أن يأتي الخليفة عمر بنفسه ليكتب عهدها .

ولا حاجة بنا أن نعيد هنا القصة المعروفة قصة مجيء عمر إلى الشام على جمل ، وكان أشعث أغبر خشن الملبس والهيئة ، حتى اقتحمته عيون مترفي الروم ، ثم ختم العهد وزار الأماكن المقدسة يصحبه صفرونيوس . فالتفت ذلك البطريق إلى أصحابه وقال لهم باللغة اليونانية : « حقاً إن هذا هو الرجس الآتي من القفر الذي ذكره النبي دانيال» وكانت هذه آخر مقولة وردت عن ذلك البطريق « صاحب اللسان المعسول في الدفاع عن الدين »[2] وقد شهد مرة ثانية في آخر حياته أسر بلاد صهيون ، وكان حزنه وألمه لذلك الأسر الأخير سبباً في الإسراع به إلى قبره .

(١) كان صفرونيوس بحسب ما يصوره لنا (حنا مسكوس) فوق السبعين عند ذلك .

(٢) كان هذا لقباً لصفرونيوس . أنظر كتاب Mansi وهو (Conoiliorum Nova Collectio) (الجزء العاشر مجموعة ٦٠٧) .

الفصل الثالث عشر

الإضطهاد الأعظم للقبط على يد قيرس

بنيامين يدعى لولاية الدين في القبط ـ (جرج) البطريق الملكاني خليفة أندرونيكوس ـ حب الناس لبنيامين وإصلاحه ـ خروج الفرس من مصر ـ يختار (قيرس) بطريقاً للإسكندرية وهرب بنيامين ـ يصير (صفرونيوس) زعيم المعارضين من الروم لقيرس ولكنه لا يستطيع شيئاً ـ مقاومة القبط ـ لم يفهم القبط مذهب هرقل ـ عودة حكم الروم كاملاً في مصر ـ إضطهاد السنين العشر ـ حوادث شتى ـ أثرها العام في تمهيد السبيل لفتح العرب .

قد وصفنا فيما مضى ما كان من أمر الإمبراطور منذ يوم احتفاله بالنصر في بيت المقدس وقد بلغ ذروة مجده ، إلى أن ودع أنطاكية وقد أصبح ذلك العاهل الكبير ولا حول له ولا قوة ؛ ضعيف العقل واهي القوة ، غارق في غمرات الخيبة والحزن . ثم رأينا سحابة ترتفع على أفق فلسطين من الجنوب ، ثم تعلو شيئاً فشيئاً كما يعلو المارد في قصص العرب ، فإذا بشبح الإسلام[1] قد صار هيكلاً ضخماً يزيد على الأيام نماء ، ثم يناضل دولة الروم في الشام حتى ينضلها وتصير إليه دمشق ثم بيت المقدس . وقد ألممنا إلمامة خفيفة بالأسباب التي اجتمعت على إحداث هذا التغيير الذي عجب منه العالم . وقد كان وصفنا لهذه الحوادث قصيراً ، وكان لا بد لنا منه إذ أردنا أن نعرف حقيقة الحوادث التي كان لمصر فيها أثر كبير . ولكن ذلك الوصف مع ذلك قد شط بنا عن حوادث وادي النيل شططاً بعيداً ، وما أحرانا أن

(١) في الأصل « محمد » .

نعود الآن إلى تلك البلاد لنصف ما كان فيها من الحوادث منذ أول الحرب التي بقيت ثائرة مدة ست سنوات ، وكانت نهايتها موت كسرى . وليس لدينا من أخبار هذه المدة إلا النزر اليسير وهذا ما نأسف له ، والقليل الذي لدينا منها غير واضح . فنحن مضطرون إلى أن نتلمس طريقنا فيما دوننا منها ، مهتدين ما استطعنا بهدي نورها الضئيل .

كان القليل الذي نجا من التدمير من الأديرة في جوار الإسكندرية (ديرقبريوس) وكان في وسط بستان من النخيل على مقربة من شاطىء البحر في الشمال الشرقي من المدينة ، ومن الأبنية التي نهبها الفرس[1] . وكان في ذلك الدير شاب اسمه (بنيامين) ، من سلالة أسرة قبطية موسرة من قرية فرشوط في البحيرة ، وقد جاء إليه وترهب فيه على يد رئيسه الشيخ (تيوناس) ، فجد في تحصيل العلم ، وكان ذكي الفؤاد . فما كان إلا قليل حتى نبغ وبذ معلميه في العلم والتقوى . وكانت عادته أن يقوم الليل في العبادة في كنيسة الدير . ويروى في القصص أنه كان يوماً في قيامه فسمع صوتاً يناديه أنه سيكون راعي أتباع المسيح . فلما سمع (تيوناس) مقولته أمره أن يحذر الوقوع في حبائل الشيطان . ثم قال له ينصحه إن مثل هذا الأمر لم يقع له ولا لأحد من إخوانه في مدة خمسين سنة قضاها في دير (قبريوس) ، على أنه مع ذلك صحبه إلى الإسكندرية ، ومثل به بين يدي البطريق القبطي (أندرونيكوس) ، فأعجب البطريق بما كان عليه (بنيامين) من القدرة وقوة النفس ، واستبقاه في المدينة معه ، وعاد (تيوناس) إلى الدير وحده . ثم دخل بنيامين بعد ذلك في زمرة القسوس ، وبقي مع البطريق ، وكان أمينه وصاحب ثقته « وساعده في أمور الكنيسة وتصريف أحوال ولاية الدين » .

وكان دخول (بنيامين) إلى دير (قبريوس) قرب عيد الميلاد من سنة ٦٢١ ، ولم يبق في خدمة البطريق (أندرونيكوس) إلا شهوراً ثم مات

---

(١) انظر ما سبق في هامش ٣ صفحة ١١٤ وهذه القصة من كتاب (ساويرس) ترجمة حياة البطارقة (بنيامين) النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني صفحة ١٠٢ وما بعدها.

البطريق ، وأوصى أن يكون هو خليفته . وقيل إن (بنيامين) كان إذ ذاك شاباً ولعله كان في السنة الخامسة والثلاثين من عمره[١] ، ولكن رداء البطارقة ألقي على عاتقه في حفله المرسوم في كنيسة القديس مرقص .

وقد رأينا فيما سلف أن (أندرونيكوس) لم يخلعه فتح الفرس من ولايته في حين أن (حنا الرحوم) بطريق الملكانيين هرب عند ذلك ومات في هربه ذاك في جزيرة قبرص . وكان خليفة (حنا) على ولاية أمر المذهب الملكاني اسمه (جورج) ، ولكن سلطان الروم كان عند ذلك قد ذهب عن مصر وليس لدينا دليل كاف يدلنا على أن استخلاف (جورج) على ولاية المذهب الملكاني وقع قبل سنة ٦٢١ ، وأقل من ذلك ما لدينا من الأدلة على تعيين الوقت الذي ذهب فيه ذلك البطريق إلى الإسكندرية[٢] وأنفذ فيها أمر ولايته . بل إنا نشك

(١) مات (بنيامين) في ٨ طوبة سنة ٦٦٢ بعد ولاية تسع وثلاثين سنة وجاء نفس التاريخ في (ساويرس) ٨ طوبة (أي ٣ يناير) لموت (أندرونيكوس) ومع أن هذا الإتفاق غير محتمل فإن موت (أندرونيكوس) قد يكون مع ذلك وقع في يوم من شهر طوبة ، وإذا اعتبرنا أن ولاية (بنيامين) من يناير سنة ٦٢٣ إلى يناير ٦٦٢ وذكرنا ما قاله عنه (ساويرس) وذلك أنه كثيراً ما كانت تعتريه أسقام الهرم في آخر أيامه خلصنا إلى أنه كان عند وفاته لا تقل سنه عن خمسة وسبعين عاماً وما كانت قوانين الكنيسة لتسمح بأن يختار بطريق إلا إذا كانت سنه على الأقل خمسة وثلاثين سنة . فلا بد أنه كان « في منتصف العمر » .

(٢) انظر الهامش ٣ في صفحة ٩٣ وقد قال (سعيد بن بطريق) إن جورج هرب في سفينته عندما بلغه أن المسلمين هزموا الروم وفتحوا فلسطين وساروا إلى مصر (Annales ed. Pococke) الجزء الثاني صفحة ٢٦٦ ، ولكن هذا الخبر ينهدم إذا نظرنا في تواريخه ولعله وهم حقيقته خير هرب (حنا الرحوم) . ولكن (حنا النقيوسي) (طبعة زوتنبرج صفحة ٥٧١) يذكر (فيليادس) أخا البطريق جورج ثم بعد ثلاث صفحات (٥٧٤) تأتي هذه الكلمات : «وقبل مجيء البطريق قيرس كان الحاكم (أنستاس) قد أكرم جورج الذي اختاره (هرقل الأصغر)، ولما كان رجلاً هرماً شمل نفوذه كل الأمور وقد ترك البطريق نفسه سلطته» وقال زوتنبرج في تعليقه على ذلك كان يجب أن يقال «هرقل الأكبر» بدل «هرقل الأصغر»، ويتفق معه في هذا الرأي الدكتور شارل. فالظاهر على ذلك أن جورج المذكور هنا هو البطريق جورج. وإذا كان الأمر كذلك كان ما يأتي : (١) لم يمت جورج =

في أنه جاء إلى مصر حقيقة وحل بها ، فإنه كان لا يرجو ترحاباً لا من القبط ولا من الفرس . ولم يكن في مجيئه إلى مصر من فائدة إلا إذا عاد جيش الروم إليها فأرجع فيها أمر الدولة وأقر فيها مذهب الملكانية . ثم دارت الدائرة وجلا الفرس عن مصر في أول سنة ٦٢٧ وذلك عندما أزمتهم الهزائم على يد هرقل . وقد ذكر في التاريخ أن حكم الروم عاد إلى مصر في تلك الفترة التي بين ذلك التاريخ وبين الوقت الذي وليَ فيه (قيرس) على مصر ، فمن الجائز أن يكون البطريق (جورج) قد دخل الإسكندرية في ذلك العام سنة ٦٢٧ وبقي بها كما يظهر من كتاب (حنا النقيوسي) حتى حل محله (قيرس) نفسه ، وصار بطريقاً بدله . ولكن أغلب الظن في رأينا أن دخول (جورج) إلى الإسكندرية لم يكن عند ذلك بل كان بعده بزمن ، وذلك لأنه لما وقفت رحى القتال بين الروم والفرس فرغت بعض كتائب الروم شيئاً فشيئاً من مشاغلها ، واستطاع الروم أن يعيدوا الجند إلى مصر ، ولكن من البعيد أن يكون وقوع ذلك قبل سنة ٦٢٩ بزمن طويل . ولعل جورج لم يبلغ الإسكندرية إلا في ذلك العام ، ولعله لم يبق في ولايته إلا سنة أو سنتين ، لأنه مات بعد ذلك أو عزل. فإذا كان الأمر كذلك سهل علينا أن ندرك السبب الذي من أجله كان ذكره فيما تخلف من أخبار الكنيسة غير واضح وكانت أحواله غير جلية[1] .

عندما مات (أندرونيكوس) كبير أساقفة القبط في أواخر سنة ٦٢٢ أو

= في سنة ٦٣٠ ولا في سنة ٦٣١ بل حل محله قيرس. (٢) إنه كان يعيش في الإسكندرية في مدة ولاية قيرس. (٣) أنه كان مع تخليه عن الولاية ذا نفوذ شخصي عظيم. (٤) إنه كان على وفاق مع قيرس وقام وكيلاً عنه في أثناء غيبته أو منفاه من مصر. وكل هذا جديد وجدير بالذكر ولكن من الصعب أن لا نصدق ذلك التأويل الذي أولنا به لغة حنا أو أن نرد شهادته .

(١) لا يشك (ربنودوه) في الخبر السائر عن موت جورج ولكن قلمه زل فكتب (Post Gregorii) بدل (Post Georgii mortem) (تاريخ بطارقة الإسكندرية صفحة ١٦١). ويرى (جوتشمت) أن موت جورج ربما كان في يونيه سنة ٦٣١ (الجزء الثاني صفحة ٤٧٥ من (Kleine Shriften) .

أوائل سنة ٦٢٣ كان حكم الفرس في مصر غير مزعزع لا يخشى عليه من شيء لا من قبل هرقل ولا من كرة الدولة الرومانية على يديه . حقاً لا يشك إلا قليلاً في أن ذلك البطريق قد سمع قبل موته أنباء سفر هرقل في رحلته الأولى في البحر ، ومروره بـرودس ذاهباً إلى (قليقيا) ، وأكبر الظن كذلك أن أهل الإسكندرية كانوا عند ذلك يرددون فيما بينهم ما سمعوه من قوافل العرب عن ظهور النبي في مكة . ولكن ما كان لأحد أن يذهب به الظن ويحمله الخيال ـ ولو كان ظناناً بعيد الخيال ـ إلى أنه لن تمر عشرون سنة حتى يكون الفرس قد أخرجوا من مصر إذ يجليهم الروم عنها ، ثم يعود الروم بعد ذلك فيقهر سلطانهم وتخبو نيرانه وينمحي أثرهم على يد الكتائب الشعثاء من جنود الإسلام .

وقد وافق اختيار (بنيامين) لولاية الدين هوى في قوب الناس فإننا إن شككنا في حكمته وحسن رأيه في آخر أمره ، لا يمكن أن ننكر أنه كان حبيباً إلى الناس عزيزاً عليهم ، وأنه قد بقي على محبة الناس له وإجلالهم إياه لم ينقص من ذلك شيء على تغير الأحوال وتقلب الصروف . وكانت مدة ولايته أكثر عهد في تاريخ القبط تقلباً وأعظمه حوادث . لكنه لم يتساهل في أمر الدين ولم يغض عن رذيلة في الخلق ، فشرع منذ أول أمره يأخذ قسوسه بالشدة إذا هم جازوا حدود الحمى في حياتهم ، وما كان أكثر من يفعل ذلك منهم ، ثم جعل يقضي على السوء الذي حل في مواضع كثيرة ولم يستطع الأساقفة أن يتلافوه إذ منعتهم من ذلك ضجة الحرب ومشاغلها . وقد زار بابليون[1] مرة قبل ولايته فلما ولي البطرقة أرسل كتاباً إلى أساقفته قال لهم فيه :

« لقد رأيتُ في مقامي في حلوان وبابليون جماعة من أهل العناد والكبر وكانوا قسوساً أو شمامسة ، وما أشد ما كرهت نفسي أفعالهم . وإني باعث بكتابي هذا إلى الأساقفة جميعاً آمرهم أن ينظروا مرة في كل شهر في أمر كل من

---

(١) وهذه بلا شك بابليون مصر في الجهة التي يطلق عليها خطأ اسم « Old Cairo » .

(٢) وقلنا مرة غير هذه إن الخطأ واقع في الاسم الإنجليزي ولكن التسمية العربية لا خطأ فيها فهي «مصر القديمة» . (المعرِّب) .

عندهم ممن لم تمض عليه عشر سنوات في زمرة أهل الدين » . قال صاحب الديوان[٢] : (وقد دل بخطابه هذا على أنه كان كبير الأساقفة حقاً) ، ثم ظهر أمره بعد ذلك ظهوراً أجلى وأوضح عندما نفى من الدين جماعة من رجال الكنيسة في إقليم بابليون وقد أعقب كتابه بزيارة ، وجاء في الأخبار أنه في أثناء زيارته تلك سار راجلاً من بابليون « يصحبه (أبامينا) أسقف حصن بابليون و (بليهيو) أسقف حلوان وجمع كثير من الناس » وذهب إلى رجل اشتهر بالعصيان ليحاسبه على ما أجرم ، ودعا عليه فأرسل الله على داره ناراً من السماء . وكان الناس يتلقونه أفواجاً أينما سار لينالوا من بركته .

وبقي على حاله هذه يطهر الكنيسة ويجزي المسيء من أهلها فعرف الناس في كل البلاد أن دونهم رجلاً يعتد به . ولا شك في أنه عمل على إعادة وحدة الكنيسة القبطية وعلى أن يعيد إليها إطمئنانها واستقرارها بعد أن زعزعتها حوادث السياسة في ذلك الوقت ، أو كادت تهدمها . وقضى بنيامين أربع سنين أو خمساً[٢] في سلام تحت ظل الفرس في الإسكندرية ، وهناك رأى (شاهين) وقد دعاه سيده (كسرى) ليعمل إذا استطاع على مداركة أمره ، ثم رأى بعد ذلك جنود الفرس تجلو عن مصر عندما غلب هرقل ملكهم وقهره ، ولسنا ندري كيف كان نظره إلى هؤلاء الكفرة وقد رآهم يحملون الرماح ويتنكبون القسيّ وهم خارجون من الباب الشرقي للمدينة العظمى ، ولا نعرف ما دار بنفسه وهو يتوقع عودة الروم بعد ذلك .

---

(١) انظر النسخة القبطية المخطوطة في مكتبة Bodlein (Clar. Press. b. 5) وترجمة (أميلنو) المسماة « قطع قبطية لخدمة تاريخ فتح مصر » في الجريدة الآسيوية سنة ١٨٨٨ وإنه من سوء الحظ ألا يبقى من هذه الترجمة القديمة القبطية لتاريخ حياة بنيامين إلّا قطعة صغيرة كهذه .

(٢) يقول (ساويرس) على وجه البت إن الفرس أقاموا في مصر مدة ست سنوات بعد اختيار (بنيامين) وذلك يجعل تاريخ مقامهم في مصر إلى سنة ٦٢٨. ولكنا نرى أنه من المستحيل قبول مثل هذا الرأي، فإن كل شيء يدل على أن خروج الجيش الفارسي الأكبر كان في أوائل سنة ٦٢٧ .

وأكبر الظن أن أكثر الفرس خرجوا من مصر في أول سنة ٦٢٧ ، وأن البعض القليل منهم قد بقي في مسالح متفرّقة إلى سنة ٦٢٨ ، وخرجوا بعد ذلك عندما تم الصلح مع هرقل . وعاد في ذلك الوقت سجناء المصريين إلى ديارهم قافلين من (دستجرد) وما إليها من مدائن آسيا ، ولعل هرقل قد أرسل جيشاً بعد أن دخل القسطنطينية ظافراً منصوراً ـ أرسله في البحر في شتاء (سنة ٦٢٨ ـ ٦٢٩) ليحتل مصر ويعيد أمر الدولة الرومانية من فلسطين إلى بلاد (بنطابوليس).

وإنا لا يسعنا إلا أن نقرّ بأن هرقل إنما كان من أحسن الناس قصداً عندما بعث قيرس الذي كان أسقف (فاسيس) في بلاد القوقاز ، وولاه رياسة الدين في الإسكندرية . ولكن عمله هذا كان خطأ كبيراً وكان له أسوأ العواقب . فقد كان المسيحيون جميعاً قد اتفقوا إتفاقاً عجيباً عندما رأوا حرب هرقل وجهاده مع الفرس ذلك الجهاد المدهش ، وكانوا يرقبونه وأنفاسهم خاشعة في الصدور من عظم ما كان في نفوسهم . فلما أن هزم الكفار وخلص بيت المقدس منهم وعلا أمر الصليب فرح المسيحيون بالنصر على اختلاف نحلهم من قبط وملكانيين ، وكذلك أظهروا سرورهم جميعاً بما حل باليهود من النقمة واشتركوا كلهم فيما أمرهم به زعماؤهم من التوبة تكفيراً عن ذنبهم هذا ، فكانت تلك الساعة فرصة من ذهب لو اغتنموها لأدّت إلى وفاق دائم ووئام حق . وقد فطن هرقل إلى هذا وكان يعرف تعلق أهل ذلك العصر بأن يكون لهم شعار يحفظونه ومقولة يقولونها، غير أنه لم يفطن إلى أن مذهبه الذي حاول به التوفيق قد يأباه أهل مصر ، ولم يعرف أن أهل مصر إذا أبوا ذلك المذهب كان شر الطرق إلى ضمهم إلى الجماعة أن يرغمهم عليه ويقذف به في حلوقهم إذ قد كرهوا مرارة مذاقه منذ ذاقوه . وعلى أي حال قد كانت هذه خطته في مصر والشام ، وكان من رأي ذلك العصر أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغي للدولة أن تقوم عليه ويصدر الناس فيه عن أمرها . ولم يكن الإمبراطور في هذا الشأن أحكم رأياً من أهل عصره ، فعقد النية على أن يظهر المذهب الذي ابتدعه رؤساء الدين الثلاثة في دولته على كل ما عداه من المذاهب المخالفة له ، متوسلاً إلى غرضه هذا بكل الوسائل حسنها وقبيحها .

ولكنه مع عزمه هذا كان كمن يسعى إلى المصائب سعياً . وذلك أنه اختار (قيرس) دون سواه إذ كان ذلك الرجل نحساً أنكد النقيبة ، أخفق الإمبراطور بشؤمه في سعيه لتوحيد المذاهب في مصر ، ثم عسف في الحكم حتى صار اسمه مفزعاً للقبط كريهاً عندهم مدّة عشر سنين أمعن فيها ما استطاع في اضطهاد مذهبهم ، حتى استحال بعد أن يبقى في القبط ولاء لدولة الروم . وكان ظالماً أساء في حكمه حتى كره الناس دولته ، ومهد السبيل بذلك إلى فتح العرب للبلاد . وكان فوق كل ذلك خائناً فإذا ما اشتد الكرب وجد الجدّ أسلم البلاد إلى أعدائها . كان هذا هو الرجل الذي ذاع سوؤُهُ وقبح ذكره ، وهو المعروف فيما بعد في تاريخ مصر باسم (المقوقس) . وقد بقي ذلك الحاكم في التاريخ سراً خفياً استعصى على المؤرخين أن يعرفوا اسمه أو قومه ، ولكن قد أصبح اليوم من الثابت أنه هو قيرس دون سواه[1] .

والظاهر أن (بنيامين) لم يستشره أحد في رأي القبط وما ينتظر منهم أن يفعلوا لقاء ما يراد إدخاله من البدعة الجديدة عليهم . وكان خطأً فاحشاً ألا يستشيره أحد في ذلك فإن المذهب الجديد كان محتوماً عليه ألا يلقى في مصر نجاحاً . فما هو إلا أن جاء (قيرس) إلى الإسكندرية في خريف سنة ٦٣١ حتى هرب البطريق القبطي[2] . وقد جاء في إحدى القصص أن ملكاً أتى (بنيامين) في نومه فأنذره أن يهرب مما هو لا بُدَّ واقع من العسف ، وهذا يدل على الأقل على أن ذلك البطريق كان قد عقد النية على أن يرفض ما جاء به (قيرس) قبل أن يفضي به إليه ، وعرف ما سيكون وراء ذلك من الآثار . وكان عزمه ذاك غير مزعزع سواء أكان عارفاً بحقيقة ما جاء به (قيرس) أم كان غير

---

(١) وإذا أراد القارىء أن يرى البرهان على هذه العبارة فإنا مرشدوه إلى ما كتبناه في ذيل الكتاب تعليقاً على هذا الأمر.

(٢) قد جاءت عبارة عجيبة في هامش ١ صفحة ٢١٥ من الجزء الثاني من كتاب الأستاذ (Bury) «Later Rom. Emp.» وذلك أن (بنيامين) هرب من الفرس ومن ثم وصل إلى نتيجة أن «القبط المنوفيسيين لم يكونوا جميعاً راضين عن الحكم الفارسي» فإن العبارة مخطئة وكذلك النتيجة التي استنتجت منها. فإن (بنيامين) لم يهرب من مصر إلا بعد =

عـارف بها . ففي الحق قـد رأى القبط في مقدم (قيـرس) إيذانـاً لهم بحرب يثيرها الروم على عقيدتهم . وقـد دبر (بنيـامين) أمور الكنيسـة قبل أن يغـادر ولايتها ، وجمع جمعاً من القسوس والـرعية وألقى فيهم خـطاباً « يحضهم فيـه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت » ثم كتب إلى أساقفته جميعاً يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحاري ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه. وأنبأهم أن البلاد سيحل بها وبال وأنهم سيلقون العسف والظلم عشر سنين ثم يرفع ذلك عنهم .

هذا ما بعث به في خطابه إليهم ولما أنفـذه سافـر من الإسكندريـة خفية تحت جنح الليل لا يصحبه إلا رفيقان . وخرج من المدينـة من الباب الغـربي وسار يمشي إلى مريوط ، ومن ثم ذهب إلى (المنى)[١] وهي قريـة في واحة عند مفترق الطـريقين طريق الإسكندرية ووادي النطرون وطريق الطرانة وبرقة . ولا بـد قـد كـانت تلك القـريـة عند ذلك مـدينـة عـظيمـة فـإنهـا بقيت إلى ما بعد ذلك بقرون، وكان المسافر في الصحراء والقفار إذا طلع عليها عجب من عظيم كنائسها وفخم بنيانها[٢] . ولا شك أن البطريق دخل يصلي في الكنيسـة

= جلاء الفرس عنها بنحو ثـلاث سنوات أو أربـع بعـد مقامهم بهـا طويـلاً (انظر الـديوان الشرقي)، وكتاب (رينودوه تاريخ بطارقة الإسكندرية الفصل الأول) وكتاب (أبـي صالح صفحة ٢٣٠ هامش ٢) وكتاب مكين (صفحة ٣٠ و ٤٠)، وكلها تدل دلالة واضحة على أن هـرب (بنيامين) قبـل وفاة هـرقل بعشـر سنوات وإذا أردت مـراجعة استنتـاج الأستاذ (Bury) فارجع إلى ما كتبناه قبل ذلك في الصفحات (٦٤ ـ ٦٨) حيث أظهرنا أن الرأي الذي يعزو إلى القبط عطفاً على الفرس رأي غير حقيقي .

(١) هذه هي الصورة التي يوردها (ساويرس) ولكن (كاترمير) يرى فيما نظن أن المدينة كلها كـان اسمها (مينـا) باسم القـديس الذي سميت الكنيسـة الكبرى هنـاك (Mem. Geog. et Hist.) الجـزء الأول صفحة ٤٨٨ وقـد ورد هذا الاسم واضحـاً في النسخة الخـطية بالقاهرة هكذا «منى» وليس (مينا) .

(٢) توجد في باريس نسخة مخطوطة من كتاب لجغرافي عربـي مجهول (نقل عنها كـاترمير في الفصل الأول) وفيها تفاصيل عجيبـة عن (المنى) أو (مينا) يجـدر بنا ذكـرها. «بعـد =

العظمى بها كنيسة (القديس مينا) ، واستراح قليلاً بها ثم مضى في سبيله إلى جبل اسمه برنوج[٢] ، وأصبح عند ذلك قريباً من أديرة وادي النطرون . ولكنه رآها مقفرة لا يكاد يكون فيها أحد ، فإن تلك الأديرة لم تعد إلى ما كانت عليه

= الخروج من الطرانة على طريق برقة يمر الإنسان بالمينا وهي عبارة عن ثلاث مدائن مهجورة في وسط صحراء رملية ولا يزال بناؤها قائماً ويكمن العرب فيها للمسافرين، وفيها يرى الإنسان قصوراً عالية حسنة البناء وأكثرها قائم على عقود فوق أعمدة ويعيش الرهبان في بعضها وبها بعض الآبار ولكن ماءها قليل ويرى الإنسان فيها كنيسة (القديس مينا) وهي بناء عظيم فيه عدد كبير من التماثيل والصور المتقنة الصنع وتوقد بها الشموع ليلاً ونهاراً، وفي نهاية البناء مقبرة كبيرة عليها تمثالان لجملين من المرمر فوقهما تمثال رجل من المرمر وقد جعل رجلاً فوق كل منهما وإحدى يديه مبسوطة والأخرى مقبوضة ويقال إن هذا تمثال (القديس مينا). وعلى يمين الداخل إلى الكنيسة نرى عموداً عظيماً من الرخام نقش عليه مشهد به صورة (المسيح) و (حنا) و (زكريا) وقد أقفل باب المشهد ويرى بها كذلك صورة للعذراء (مريم) عليها ستاران وكذلك صور الأنبياء . وفي خارج الكنيسة صور لأنواع الحيوان وللناس في أعمالهم من كل صنف ، ومن بينها صورة تاجر رقيق في يده كيس نقود مفتوح . وفوق وسط الكنيسة قبة تحتها ثمانية تماثيل قيل إنها تماثيل الملائكة ، وعلى مقربة من فلك الكنيسة مسجد يصلي فيه المسلمون والأرض التي حولها ذات زرع من أشجار الفاكهة والكروم، وفي كل عام ترسل مدينة الفسطاط ألف دينار للانفاق على هذه الكنيسة» وقد أورد كاترمير في كل المواضع التي استعملنا فيها لفظ «صورة» لفظاً آخر وهو «تمثال» والتماثيل المنحوتة كانت ولا تزال محرمة وأنا على يقين من أنه يقصد أنها صور لا تماثيل على الأقل حيث يكون المقصود صور القديسين أو الملائكة، ولا يمكن أن ننفي وجود التمثال القائم على جملين ولعله بقية من آثار الإغريق هو والقصور والأعمدة. وقد يكون القبط قالوا عنه فيما بعد إنه القديس مينا ولكن وصف هذه المدينة جميعه شائق وموضعها اليوم مجهول ولعله في الشمال الغربي من بحيرات النطرون وإلى الجنوب من مريوط مباشرة، (والمدينة الأخيرة موضعها الآن أطلال فتكون على ذلك واقعة على الطريق الذي كان اسمه «طريق الحاج» الآتي من شمال أفريقيا) .

(١) انظر أملينو (Geog. copte) صفحة ٣١٩ ـ ٢١ ويقتبس المؤلف من نسخة مخطوطة عربية في باريس ١٣٩ مجموعة ٩٧ في وصف وصول (بنيامين) إلى ذلك الموضع .

بعـدما حل بها من التخريب منذ ثلاثين عاماً[1] ، وكان البدو لا يبيحون لأحد أن يعيد بناء كنائسها ولا أن يقيم بها عدد كبير ، فلم يكن فيها مقام للبطريق . وكان يحس فوق ذلك أنه ما زال على مقربة من العاصمة فلا هو بآمن على نفسه ، ولا هو مقيم بين ظهراني قومه ليدفع عنهم وينصرهم . فرأى أن يسير إلى الأهرام ، ثم تركها وصعد إلى صعيد مصر سائراً على جانب الصحراء ، وما زال حتى بلغ مدينة قوص[2] ولاذ هناك بدير صغير بالصحراء غير بعيد عن تلك المدينة . وقد ظل هذا الدير مشهوراً بمقامه فيه مدة قرون بعد ذلك .

وكـان هرب (بنيـامين) في نفس الوقت الـذي جاء فيـه (قيـرس) إلى الإسكندرية أو قريباً منه . ولم نجد كلمة واحدة في خبر من الأخبار تدل على أن (قيرس) سعى مرة إلى أن يتقرب إلى بطريق القبط أو يتفق معه ، فالظاهر أن مجيئه إلى مصر قد شرد قسوس القبط فزعين . وقد صار بطريقاً من قبل الدولة الرومانية في الإسكندرية ، وزاد سلطانه بأن صار والياً الى حكومة مصر من قبل الإمبراطور[3] ، ولا شك أن قبض (قيرس) على رياسة سلطتي الدنيا والـدين معاً هو الذي زعزع أمـر بنيامين ، فـإن ذلك جعله يـوشك أن يكـون ذا سلطان مطلق . ولما قدم قيرس في أول الأمر تظاهر بأنه إنما جاء مسالماً ، وجعل يبين للناس كنه المذهب الجديد (المونوثيلي) وهو المذهب الذي كان الإمبراطـور يطمع أن يزيل به ما أحدثه مجلس خلقيدونية من الشقاق بين الناس . فكان عليه

---

(١) في زمن البطريق (دميانوس) وقد أعيدت هذه الأديرة بعد الفتح العربـي واحتفل بنيامين نفسه بافتتاح كنيسة القديس مكاريوس احتفالاً عظيماً كما جاء في ساويرس .

(٢) انظر ما كتبه كاترمير عن قـوص (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول الصفحـات ١٩٢ و ٢١٦) وفيها تعليق مفيد يشرح موقـع المدينـة ويذكـر بعض قصص عجيبة عن السحر وتعاويذ الأفاعي المتصلة بالمدينة وقد جاء في كتاب أبـي صالح (صفحة ٢٣٠) ذكر الدير الذي لجأ إليه بنيامين ولكنه لا يسميه.

(٣) أوردنا بعض الدليل على اجتماع سلطان الدنيا والدين لقيرس في ذيل الكتاب، وليس ثمة مجال للشك في هذا الأمر.

أن يستميـل إلى المذهب الجـديد أقبـاط مصر أولاً وأتبـاع المذهب الملكـاني ثانياً . ولكن الظاهر أن مذهبه لم يلق منذ أول أمره توفيقاً ، فقد أساء هو بيانـه وإيضاحه ، وأساء الناس فهمه وتلقوه لقاء سيئاً . فأما أتباع المذهب الملكـاني فقد رأى كثير منهم أن المـذهب الجديـد نقض تام لمـذهب خلقيدونيـة ، وأما القبط فإن من سمع منهم بالبدعة الجديدة قال إن المذهب الجديـد ما دام قـد سلم بأن الله له إرادة واحدة وفعل واحد ، فإنه لا بد له أن يسلم بأن له كذلـك طبيعة واحدة ، وعلى ذلك فإن (قيرس) إنما جاء في الحقيقة مسلماً بالمذهب (المونوفيسي) .

ولمـا أراد قيرس أن يـزيل مـا علق بالأفهـام من الخطأ جمـع مجلساً في الإسكندرية وطرح عليه الأمر ليتناظر المجتمعون فيه وليتناقشوا في مسائله . وفي ذلك المجلس جاء صاحبنا (صفرونيوس) وكان قد عاد إلى مصر وصـار زعيم المعارضين من الملكانيين ، واجتهد جهده أن يثني (قيرس) عما عزم عليه من البدعة ، تارة بالحجة وطوراً بالتوسل والرجاء . وقيل إن (قيرس) أجابه جواباً ليناً[1] وطلب إليه أن يرجع إلى البطريق الأكبر (سـرجيـوس) بالقسطنـطينية ، ليزيل ما في نفسه من الشكوك . ولكن (صفرونيوس) لم يثن وانتهى المجلس إلى إقـرار البدعـة ، ووسم من لا يقبلها بتسـع سمـات شـائنـة . والـظاهـر أن (قيـرس) لم يكن أثناء ذلـك على ما ينبغي أن يكـون عليه والي السلطان من الكياسة والرحمة ، وقد جاء يدعو إلى السلم والـوفاق ، فـإنه كـان لا يلقى من

---

(١) جاء فيما كتبه الدكتور (Nurdock) تعليقاً على (Mosheim) (الطبعة الحادية عشرة صفحة ٢٥٦ هـامش ١) أن صفرونيـوس كان كثيـر التواضـع إذ ركع وجعـل يتوسـل إلى قيرس ألا يغـالي في الأمر وأن قيـرس كان معـه كثير التسـاهل. وإنـا نشك في هـذا فقد كـان صفرونيوس شديد الغيرة في سيرته أبياً عن المهانة «فقد صاح صيحة عالية أظهر فيها ألمه الشديد وانفجر الدمع من عينيه ورمى بنفسه إلى أقدام قيرس يتوسل إليه ويرجوه ألا يعلن ما أراد إعلانه من الأسباب التسعة للعن، ولكن قيرس لم يعر سمعه لتوسله (انظر منسى الجزء العاشر المجموعة ٦٩١).

يقاومه إلا بقوة من العزيمة تدعمها قوة السلطان ، في حين أن مثل تلك المشكلات الدينية في مصر لم يكن لها أن تحل إلا بالدهاء وحسن الإحتيال . على أن الذنب في الإخفاق كان ذنب كلا الفريقين ، فقد كان (قيرس) عاتياً متكبراً ، في حين كان القبط على شيء من العناد وقلة البصر ، وذلك إذا نحن سلمنا بأن (قيرس) قد أوضح لهم المذهب الجديد وبين كنهه لهم . فإنه لم يكن ثم فرق كبير بين مذهب القبط (المونوفيسي) والمذهب الجديد (المونوثيلي) ، لو طرح كلاهما أمام أعين عامة الناس . حقاً يجب علينا ألا ننسى أنه لا تزال إلى اليوم بين المسيحيين فرق وشيع ؛ وكثيراً ما يكون بينها شديد العداوة وكبير الخلاف مع انعدام ما يوجب ذلك في حقيقة الأمر . ولكن القبط في ذلك الوقت قد إرتكبوا خطأ كبيراً برفضهم ما عرض عليهم من أمر توحيد المذاهب ، وكان خطؤهم ذاك سبباً في مصائب عظيمة تحل بهم .

وقد يرى البعض أن المذهب الجديد كان بدعة وضلالة ، ولم يكن من المتيسر نشره ، ولكن مهما يكن حكمنا على هذا المذهب الذي إبتدعه هرقل وبطارقته الشرقيون الثلاثة ، ومهما تكن صورته التي أطلع القبط عليها ، وسواء كانوا على الحق أو على الباطل ، فإنهم تلقوه بكراهة شديدة بادىء ذي بدء . فلم يطيقوا أن يخطر ببال أحد منهم أن يغير ذرة من أصول عقيدته أو لفظاً من شعار مذهبه ، وعدّوا ذلك خيانة لدينهم واستقلالهم بأمره ، وقد كان استقلالهم في أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم ، فإنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط[1] ، ولعلهم لم يحلموا يوماً بمثل ذلك الأمل . وأما الاستقلال في أمر الدين فقد ناضلوا من أجله ، وجاهدوا في سبيله ، لم يثنوا عن ذلك في وقت من الأوقات منذ مجلس خلقيدونية . وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض لا تغفل عنه قلوبهم ، ولا يحجمون عن بذل كل شيء في سبيله مهما عظم . ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعاً .

---

(١) لا بد أن المؤلف يقصد قبط مصر في عهد المسيحية ولا يتعدى ذلك إلى العصور الفرعونية القديمة . (المعرّب) .

ولما رأى (قيرس) أنـه لم يستطع أن يستميـل القبط بالخـداع ، ولا أن يحملهم على ما أراد برميهم بالكفر واللعنة ، لجأ إلى ما هو أشد من ذلك . ولا نقدر أن ننكر أن هرقل كان شريكه فيما لجأ إليه من العسف ، ولكن الإمبراطور حاول مرة أخـرى بعد ذلـك أن يصل إلى غـرضه من تـوحيد المـذاهب ، فإن سرجيوس لما رأى أن الناس لم يقبلوا المذهب القائل بأن الله إرادة واحدة وفعلاً واحداً ينفذها به إقتـرح أن يقر النـاس بأن الله لـه إرادة واحدة ، وأمـا المسألـة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل وهل ذلك الفعل واحد أو مزدوج فيرجىء القول فيها ويمنع الناس أن يخوضوا في مناظراتها . ثم أرسل إلى البابا في رومة وهو (هونوريوس) فأخذ منه إقراراً لهذا الحل، وإن شئت فقل إنه لم يكن حلاً ولكنه كان هروباً وتخلصاً من المشكلة . ثم جعل ذلك في رسالة رسمية وبعث بها إلـى جميع جهات العالم الشرقي وتقدم إلى الناس أن يعتقدوه ويتبعوه ، وأمر البطريق سرجيوس حنا قائد الشـرطة أن يحمـل صورة من الأمـر إلى (قيرس) وأرسل معه هدية[1] صليباً له قدر عظيم من القداسة . ولكن أثر تلك الرسالة لم يكن سوى أن زاد المعارضة والرفض ، ورأى الإمبراطور أن (صفرونيوس) عدو لسعيه[2] لا يفل حده ولا تخور همته ، وقد كـان حاول من قبـل أن يستميله أو يسكت لسانه بأن اختاره بطريق بيت المقدس ، فلم يغنه ذلك شيئاً . وأما القبط فقد وجدوا أن الصيغة الثانية للمذهب الجديد إذا كان فيها مـا يخالف الصيغـة الأولى فهي أشدّ منها وأكره مذاقاً .

(١) ورد ذكر هذه الصيغة الأولى للمذهب الجديد في كتاب (Harduin) وهو «Concilia Eccles. His.» الجـزء الثالث صفحـة ٧٩١ انظر كـذلك كتـاب (Mesheim) صفحـة ٢٥٦ (الطبعة الحادية عشرة) وقد أفاض قيرس عند إرسال الرد بوصولها إليـه، وجاء ذكـر هذا الرد في (Drapeyron) صفحة ٣٨٩ وهو يذكر اسم الرسـول الذي حمله. وقـد ورد ذكر الصليب في ديـوان (حنا النقيـوسي) صفحة ٥٧٤، ولعله كـان يدخله جـزء ممـا يسمى (الصليب الحقيقي).

(٢) قال قيدرينوس عند ذكر موت صفرونيوس إن البطريق مات بعـد أن حارب هـرقل حـرباً عظيمة وبعد أن ناضل سرجيوس والمونوثيليين .

وإنه لمن أبعد الأمور أن تكون الصيغة الأولى للمذهب ، أو الرسالة التي بعثت فيها الصيغة الثانية له ، قد بلغت أقباط مصر في غير الإسكندرية . فإن ما تخلف من أخبار القبط لا أثر فيه لذكر صيغة المذهب الجديد ، أو أن شيئاً مثل ذلك عرض عليهم . ولعل هذا أدعى ما في الأمر للحزن والأسى ، إذ لايذكر في ذلك العصر كله في أثناء الإضطهاد إلا شيء واحد وهو أن الروم كانوا يخيرون الناس بين قبول مذهب خلقيدونية بنصه ـ وهو كتاب (ليو) ـ وبين الجلد أو الموت ، ولم يكن في عقول مؤرّخي القبط إلا هذا الإعتقاد يدوّنونه في دواوينهم . فيلوح من ذلك أن قيرس أحس بإخفاقه في سعيه من مبدأ الأمر وكان يودّ أن يحمل القبط على المذهب الذي تقرّر مهما تكلف في سبيل ذلك ، فلم يعبأ بعد بما أدخله الإمبراطور على هذا المذهب من التهذيب ، بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تعقيد فيهما ، وهما قبول الدخول في الجماعة أو الإضطهاد .

وكانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد (قيرس) المقوقس يصرفها كيف شاء وكان جيش الرومان مرة أخرى يملك مصر . فكانت طرق الإسكندرية البراقة تتجاوب جوانبها بأصداء الكتائب البيزنطية إذ تسير فيها ، وعادت جنود الروم إلى الأسوار العظيمة أسوار المدينة وآطامها ووضعت عليها آلات حربها وبعثت المسالح إلى مدينة الفرما (بلوز) وهي ثغر الطريق الآتية من فلسطين إلى مصر ، وإلى بلاد مصر السفلى مثل أثريب ونقيوس ، وكذلك إلى الحصن العظيم حصن (بابليون) بقرب ممفيس ، ومن ثم عاد سلطان الروم فانتشر على بلاد الفيوم ووادي النيل حتى بلغ الحدود من الجنوب عند أسوان في أسفل الجنادل . وكانت كل تلك الجنود والكتائب عند أمر (قيزس) ماثلة لإنفاذ أمره إذا ما دعاها . ولم يتحرّك القبط بطبيعة الحال عندما عاد جند الروم إلى البلاد ، ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثاً يحمدونه ويفرحون من أجله . فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب ، فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس إلى حكم الروم قد رفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب .

إذ بينا كان غزاة الفرس بعد أن استقرّ بهم الأمر في البلاد لا يحولون على الأقل بين القبط وبين التدين بما يشاءون من الدين ، جاء (قيرس) المقوقس وصمم على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينزعها من أيديهم .

وابتدأ الإضطهاد الأعظم عند ذلك . ويتفق المؤرخون جميعاً على أنه بقي مدة عشر سنوات ، أي أنه بقي كل مدة ولاية قيرس رياسة الدين . فإن أكبر الظن أن مجمع الإسكندرية كان في شهر أكتوبر من سنة ٦٣١ ، وقد بدأ عهد الإضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو بشهرين . ولا يشك أحد في فظاعة ذلك الإضطهاد وشناعته ، فقد جاء في كتاب (ساويرس) « لقد كانت هذه السنين هي المدة التي حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر ، ففُتن في أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الإضطهاد والظلم ، ومن شدة العذاب الذي كان يوقعه هرقل بهم ، لكي يحولهم على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية . فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ، ويمكر بالبعض ويخدعهم » . وقد جاء في ترجمة حياة البطريق القبطي (إسحق)[1] ، وكانت كتابتها سنة ٦٩٥ ، أنه في شبابه لقي قساً اسمه يوسف كان ممن شهروا بين يدي (قيرس) وجلد جلداً كثيراً لأنه شهد شهادة الحق . وكذلك كان أخو (بنيامين) ممن عذبوا ثم قتل غرقاً . وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نيرانها على جسمه ، فأخذ يحترق « حتى سال دهنه جنبيه إلى الأرض »[2] . ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس به رمل وحمل في البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو

(١) تاريخ البطريق القبطي اسحق (صفحة ١٢) تأليف اميلنو. وترجمة اميلنو لا تظهر الفعل في قوة دلالته على الزمن الماضي التام (كما يقول المستر كروم) وذلك الزمن الماضي التام (Pluperfect tense) له دلالة كبرى في تعيين التاريخ فإنه عندما حدث الاجتماع كان الاعتراف أمام قيرس قد حدث من قبل ومات اسحق في سنة ٦٩٣ كما بينا في الذيل (ف).

(٢) هذا الخبر عن (ساويرس) (النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني صفحة ١٠٤ الكتاب العاشر) وتتفق نسخة القاهرة معها في ذلك الخبر.

آمن بما أقرّه مجلس (خلقيدونية) ، فعلوا ذلك ثلاثاً وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر فمات غرقاً . وقال الكاتب الذي كتب ترجمة حياة بنيامين « ولكنهم بفعلهم هذا لم يقهروا (ميناس) الذي مات شهيداً بل قد غلبهم هو بصبر الإيمان المسيحي » .

وإليك دليلاً آخر جاء في ترجمة حياة صمويل (القلموني)[1] وقد كتبت تلك الترجمة في أيام (قيرس) ، وجاء فيها وصف جلي لما فعله (قيرس) نفسه من الأفاعيل في هذا الإضطهاد ، ولهذا كان لنا العذر إذا نحن نقلنا هنا بعض ما جاء فيها في شيء من الإفاضة . تصف القصة أن البطريق (قيرس) جاء إلى الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده وأخذ يسأله، فقال له الخازن : « لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصفك بالكفر وبأنك يهودي من أتباع (خلقيدونية) ، ولا تؤمن بالله ، وبأنك لست أهلاً لأن تقيم الصلاة ولا أن يعاملك المؤمنون . فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك » فلما سمع الكفار الفاسق ما قاله الخازن ثار ثائره وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه ، ومضى عنه . قال كاتب الترجمة : « ولم يعد للدير بعد ذلك إلى يومنا هذا »[2] . فلما ذهب رجع

---

(١) نشر هذه الترجمة (اميلنو) في «Mon. pour servir à l'his. de l'Eg. Chret. aux IVe-VIIe Siècles» (Mem. Misc. Arch. Franç. au Caire) الجزء الرابع وصفحة ٧٧٤.وما بعدها، وأما عن التاريخ فانظر التعليق التالي.

(٢) هذا القول يدل على أن النسخة الأصلية المخطوطة قد كتبت قبل موت قيرس في سنة ٦٤٢ فقد مات صمويل في قلمون بعد أن تنبأ بقدوم العرب وانتهاء غزوتهم بنصر المسيحيين (الجريدة الآسيوية ١٨٨٨ صفحة ٣٨٤) ومن هذا نستنتج أن تاريخ حياته كتب في أول الفتح وقبل أن يظهر انتصار العرب أي أنه كتب في أوائل سنة ٦٤٠. وكانت تواريخ الحياة تكتب عادة وتلقى بصفتها مديحاً بعد موت قديس عظيم أو رجل كبير من أهل الدين، فلنا أن نقول إن صمويل مات سنة ٦٣٩ ويقول (Pereira) إنه قيل إن صمويل لقي في قلمون رجلاً اسمه جريجور أسقف قيس وإن ساويرس يذكر مقابلة بين رجل اسمه جريجور أسقف قيس وبين البطريق حنا السمنودي (سنة ٦٨٠ ـ ٩).

وإن البطريق اسحق بعد اختياره وإقرار عبد العزيز له دخل الإسكندرية في سنة ٦٨٥ =

الإخوان إلى ديرهم آمنين ، وأما الكاوخيوس (المقوقس) ذلك البطريق الدعيّ فقد ذهب إلى الفيوم والغيظ يأكل قلبه ، ودعا هناك أصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعابد (الأبا صمويل) مكتوف اليدين من خلاف ، وأن يضعوا في عنقه طوقاً من الحديد ، وأن يدفعوا به كما يدفع باللصوص . فذهبوا إلى الدير الذي كان فيه وقبضوا عليه .

وذهب صمويل مستبشراً في صحبة الله وهو يقول : « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح » ، ثم جعل يسب المقوقس لا يخشى شيئاً . وأدخله الجنود عليه ، فلما رأى المقوقس ذلك الولي أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ثم قال له : « صمويل أيها الزاهد الشقي . من ذا أقامك رئيساً للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبوني ومذهبي » ؟ . فقال له العابد (الأبا صمويل) : « إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق (بنيامين) وليس في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطاني - يا سلالة الطاغوت ويا أيها المسيخ الدجال » . فأمر (قيرس) جنده أن يضربوه على فمه وقال : « لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلونك ويعلون من شأن زهدك ، ولهذا تجرأت وقويت نفسك . ولكني سأشعرك أثر سبابك للعظماء إذ سولت له نفسك ألا تؤدي لي ما يجب عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال في أرض مصر » فأجابه صمويل : « لقد كان إبليس من قبل كبيراً

= وكان معه عند ذلك رجل اسمه (جريجور) أسقف قيس، وهذا التاريخ الأخير يجب أن يكون سنة ٦٩٠ بدل سنة ٦٨٥ ، ولكن هذا التصحيح يقوي حجة (بريرا) وهي أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين اسمهم (جريجور) إذا كانوا شخصاً واحداً كما تدل عليه الأدلة وإذا كان صمويل قد مات سنة ٦٣٩ وجب علينا أن نقول إن جريجور بقي على الأسقفية أكثر من خمسين سنة، وليس هذا بمستحيل بالطبع. ولكنا بدل أن نقول إن موت صمويل كان بعد هذا التاريخ نقول إنه من الجائز أن يكون بمصر في ذلك الوقت رجلان اسمهما جريجور كما قد كانت عند ذلك مدينتان كل منهما اسمها قيس واحدة منهما في الشمال على ساحل البحر والأخرى عند البهنسا في الجنوب.

انظر كتاب كاترمير «Mem. Geog. et His.» (صفحة ١٤١ و ٣٣٧ من الجزء الأول) وقال أبو صالح إن جريجور أسقف قيس أنشأ كنيسة في حلوان (صفحة ١٥٦).

على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه . وهكذا أنت أيها الخادع (الخلقيدوني) فإن مذهبك مذموم وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » . فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الولي وأومأ إلى الجند أن يقتلوه . وقصارى القول إن ذلك الكفار أراد أن يقتل الولي ، ولكن حاكم الفيوم خلصه من يديه فلما رأى قيرس أن صمويل نجا منه أمر به أن يطرد من جبل نكلون[1] .

وقد جاء مثل هذا الخبر في الترجمة الأثيوبية لحياة (الأبا صمويل) وقد جاء فيها ذكر رجل اسمه (مكسميانوس) وأنه أتى إلى دير صمويل في الصحراء ومعه مائتا جندي وأنه أعطاه كتاباً يؤمر فيه بالإيمان بمذهب خلقيدونية[2] فمزقه صمويل ورمى به من باب الكنيسة وهو يقول : « ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفار الذي جاء من الإمبراطور الروماني ، ولعنة الله على مجمع خلقيدونية وكل من آمن بما أقره » فضرب صمويل حتى ظن أنه

---

(١) كانت نكلون وهي بالعربية (النقلون) في جوار قلمون على ساعتين إلى الجنوب الغربي من مدينة الفيوم، وأما الدير المسمى دير الخشب فقد وصفه أبو صالح (صفحة ٢٠٥ ـ ٢٠٦) وذكره متصلاً بدير القلمون، وقد وصفه كذلك المقريزي (انظر الكتاب صفحة ٣١٣ ـ ٣١٤). ولكن الظاهر أنه اندثر من زمن (انظر كذلك كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) (الجزء الأول صفحة ٤١١ و٤٧٣)، وكتاب أميلنو (Goeg. Copte) (صفحة ٢٧٣)، والجريدة الآسيوية نوفمبر سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٩٨، وكتاب (Pereira) «حياة الأنبا شنودة» (صفحة ٣٦ ـ ٤٠) وقد أخطأ (Pereira) في أنه جعل القلمون على مسيرة ١٥ ميلاً (أو ٢٩ كيلومتراً) من الإسكندرية آخذاً ذلك عن كتاب «Vitae Partum lib. X.C. 162» (Rosweyde) فإما أن نقول إنه قصد ١١٥ ميلاً بدلاً من ١٥ وإما أن القلمون الذي يقصده هو دير آخر وليس الدير الذي بالفيوم. وقد جاء في (Bulletin de l'Institut Franç. d'Arch. Gr.) (الجزء الأول صفحة ٧٢) أن دير النقلون في الجبل شرق كوم بشا وأن دير القلمون عند سفح الجبل في مدخل الفيوم وأنه كان فيه اثنتا عشرة كنيسة.

(٢) انظر (Pereira) صفحة ١٤٢.

مات ثم غودر ولكنه عاد إلى نفسه وسار إلى القلمون حيث عاد لمحادَّثه لقيرس وما أعقبها كما أسلفنا وصفه[1] .

وإذا كان مثل هذا العسف يجري في الصحاري فما بالنا بما كان يحدث للقبط في بلاد مصر السفلى والصعيد ـ فلقد كان حظ من يأبى منهم أن يتخلى عن عقيدته أو ينازع قيرس في أمره أن يجلد ويعذب أو يلقى به في السجن أو يلقي الموت . فكانت تقام أساقفة للملكانية في كل بلد من مصر حتى أنصنا[2] من بلاد الصعيد ، في حين كان قسوس القبط يقتلون أو يشردون في أنحاء الأرض يلتمسون فيها ملاذاً . وكان السعي حثيثاً غير منقطع وراء بنيامين ، ولكن لم يعثر عليه في مكان . وقد جاء في كتاب (ساويرس) أنه كان يتنقل من دير محصن إلى آخر . وجاء في ترجمة حياة شنوده[3] ما يفهم منه أن بنيامين لجأ

---

(١) الكتاب نفسه صفحة ١٤٦ ولم يسم قيرس صراحة ولكنه سمى الحاكم وكانت له سلطة الدين وسلطة الدنيا على مصر كلها، فليس من شك في أنه كان قيرس. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الديوان القبطي الذي نقلت عنه تلك الحادثة قد جاءت فيه هذه الكلمات «لما أتت الأنباء إلى المقوقس عن طريقة معاملته لكتاب ليو دبَّر له مكيدة وقبض عليه وضربه ضرباً شديداً وقال له: «اعترف إن مجلس خلقيدونية كان على الحق حتى أطلق سراحك» انظر الجريدة الآسيوية نوفمبر سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٩٧).

(٢) كانت (انصنا) وهي (أنتنويه) عند ذلك عاصمة (التيبائيد) وكانت تجاه هرموبولس مجنا إلى الشمال من لاكوبولس (وهي سيوط) فالظاهر أن سلطان قيرس لم يكن عظيماً في جنوب سيوط.

(٣) هذه الترجمة باللغة العربية وقد نشرت مع ترجمة لها في (Mem. Miss. Arch. Franc.) (الجزء الرابع (١) صفحة ٣٤٠) وجاء ذكر ما وقع بين بنيامين وقيرس على صورة نبوءة، ويجدر بنا أن نذكر ذلك هنا «سيخرج الفرس من مصر ثم سيقوم «الدجال» (وهو الاسم المعتاد للمسيخ المفسد) وسيذهب أمام إمبراطور الروم بعد أن يحصل منه على الرياستين رياسة الدنيا ورياسة الدين وسيدخل مصر ويملك أرضها وملحقاتها وسيحفر الخنادق ويبني الأسوار حول المدن في الصحراء، وسيخرب الشرق والغرب وسيخرب الراعي أكبر أساقفة الإسكندرية والوالي على دين المسيحيين في أرض مصر، وسيهرب منه ذلك الراعي إلى أرض (تيمان) حتى يعود إلى ديرك وهو حزين متألم وعندما يعود إلى هناك سأعيده إلى حاله وأرجعه إلى عرشه».

=

إلى دير الأنباء شنوده وهو الدير العظيم المعروف بالدير الأبيض ، على أن هذه الرواية تختلف عما تواتر من الأخبار عن أنه إنما لاذ بدير في الصحراء قريب من (قوص) . ولعل الدير الأبيض كان مع قوة حصونه ومنعة أسواره العظيمة غير كفيل بحماية بنيامين مدة طويلة لقربه من النيل ، في حين أنه كان يستطيع أن يجد ملاذاً آمناً لا تصل إليه أيدي أعدائه في جبال صحراء قوص ، وما بها من المغاور الكثيرة والكنائس المنقورة في الصخور .

وليس من العجيب أن يفتتن كثيرون ممن لم يستطيعوا الهجرة والهرب وأن يخضعوا لما شاء قيرس منهم ، فقد كان حكمه حكم إرهاب . وإذا كان القبط لم تخمد نفوسهم فما كان لشعب بأجمعه أن يستشهد في سبيل الدين . فدخل جماعة من الأساقفة في المذهب الجديد مذهب عدوهم ، ومن هؤلاء أسقف (نقيوس)[1] واسمه (قيرس) وأسقف الفيوم (فكتور) ، ولا شك أن عدواهم انتقلت إلى سواهم . أما من لم يستطع الهرب من الناس والخروج إلى الصحراء وكان مع ذلك غير راضٍ عن ترك مذهبه فقد لجأ إلى التقية ، وأظهر غير ما يبطن حتى لقد بقيت في الإسكندرية ذاتها بقية من القبط في سني الاضطهاد العشر ، مع أنهم لم يكن لهم بها إمام من مذهبهم اللهمَّ إلاَّ قس واحد من أهل مريوط اسمه (أجاثو) وكان كل يوم يخاطر بحياته في سبيل دينه . فكان يخفي نفسه في لباس نجار ويسير في أنحاء المدينة في النهار يحمل على ظهره كيساً قد وضع فيه آلاته وعدته ، فإذا ما جاء الليل ذهب إلى الكنيسة كي

= وانظر ما قيل في الدير الأبيض في كتابنا (Anc. Copt. Ch.) الجزء الأول صفحة ٣٥١ وانظر الكتاب الجليل كتاب المرحوم (و. دي بوك) وهو (Materiaux pour servir à l'arch. de l'Eg. Chret.) صفحة ٣٩ وما بعدها. ولعل دير شنوده الذي ذكر هو الذي في قوص وذكره أبو صالح ولكن ذلك الكاتب يفرق بينه وبين الدير الذي لجأ إليه بنيامين تفريقاً واضحاً.

(١) تذكر النسخة المخطوطة في المتحف البريطاني لكتاب (ساويرس) «قيرس أسقف (سفنوس) » ولكن نسخة القاهرة المخطوطة تذكر (نقيوس) وهذا حق، وأما المقريزي فإنه يذكر بطرس بدل (قيرس).

يقيم شعائر العبادة لإخوانه القبط . وقد صار هذا القس فيما بعد أكبر أصدقاء بنيامين وخلفه بعد موته على ولاية الدين .

وروي أن دير (مطره) ويسمى بدير (السقونية) نجح في مقاومة (قيرس) ، وكان ذلك الدير في الإسكندرية أو قريباً منها ، وكان السبب في أنه بقي على عهده لم يتغير أن كل رهبانه كانوا مصريين خلصاً ليس فيهم غريب واحد[1] .

والظاهر أن المصريين سعوا مرة إلى التخلص من (قيرس) مع ما كانوا عليه من الصبر والإحتمال الطويل ، فقد أثار حفيظتهم ما رأوه من فعله ، إذ تارة ينهب أواني كنائسهم الثمينة لا يرقب فيها إلاً ولا ذمة ، وتارة يضربهم أو يسجنهم . فاجتمع أتباع الطريقة (الجايانية) في كنيسة (دفاشير) بقرب مريوط ، وتآمروا على قتل ذلك الظالم . ولكن سمع بهذا الاجتماع (ضابط) روماني اسمه (أودوقيانوس) وهو أخو (دومنتيانوس) ، وكان عدواً شديد العداوة للقبط ، فأرسل جنداً وأمرهم أن يذهبوا إلى المتآمرين فيقتلوهم . فكان ذلك وقتل الجنود بعضهم وجرحوا منهم البعض بسهامهم ، وقطعوا أيدي طائفة منهم بغير أن يسمعوا منهم شهادة أو يقوموا معهم بشيء يشبه القضاء ، وبذلك قضى على المكيدة ونجا قيرس من الخطر[2] .

وقد أوردنا هذه القصص جميعها لكي ندل بها دلالة واضحة على شدة الإضطهاد وعنفه . وإنه ليخيل إلى الإنسان أنه من المستبعد أن يبقى مثل هذا الإضطهاد عشر سنوات ، ولكن هذا هو الحق الذي لا مراء فيه . فقد جاء في

---

(١) ساويرس نسخة المتحف البريطاني المخطوطة صفحة ١٠٧ (الكتاب ١١) .

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٦ ويقول زوتنبرج بحق إن الفقرة التي بها هذا الخبر خارجة عن موضعها، فإن هذه الحادثة كانت قبل غزوة المسلمين. انظر ما قاله أميلنو في (دفاشير) (Geog. Copte) صفحة ١٢٢ ، وقد سبق ذكرنا لهذا الموضوع (صفحة ٧٠) عند ذكر ثورة نيقيتاس.

ديوان (حنا النقيوسي) ما يأتي : « وظل قيرس إلى ما بعد موت هرقل عندما عاد إلى مصر » (وذلك في سنة ٦٤١ بعد نفيه من البلاد أو غيابه عنها فترة) ، « لم يذهب عنه حقده على عباد الله ولم يمتنع عن إضطهادهم بل زاد قسوة على قسوة » . وقد جاء مثل هذا القول في كتاب (ساويرس) إذ قال : « فكان هرقل كأنما هو ذئب ضار يفتك بالقطيع ولا يشبع نهمه ، وما كان ذلك القطيع إلا طائفة (التيودوسيين)[1] » . ولكن ما كان الإضطهاد إلا ليزيد من استطاعوا مقاومته إيماناً على إيمانهم ، بدل أن يفتنهم عنه ويقضي عليه . فكانت الشدائد تتوالى بمذهب القبط والمصائب تفتك بأصحابه ، ولكنه ظل قوياً لم تلن قناته ، وبقي أكثر الناس على إيمانهم ثابتين أقوياء . ولكن حد ذلك البطش كان قد بلغ نفوسهم فثلمها وجعل الداء ينخر في جراحهم مدة ظلم تلك السنوات العشر وظلامها ، فكان ذلك سبباً في ضياع كل أمل في عودة السلام والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين ، إذا استفحل الأمر واستمر مرير العداوة والكراهة لسلطان الدولة البيزنطية ودينها جميعاً .

وليت شعرى ماذا كان يدور بنفوس أهل مصر إذ ذاك ، وبأي عين كانوا ينظرون إلى تلك الحركة العظيمة التي ثارت في بلاد العرب ، فما زالت حتى قرعت بلاد الشام وهزت مدائنها هزاً . إنا نقول ، وإن قولنا لمما يشرف القبط ، إننا لا نجد أقل دليل يبعثنا على الظن إنهم نظروا إلى تلك الحركة نظرة الميل والرضى . على أنهم لا بد قد بلغهم أن المسلمين يدعون للمسيحيين أمور دينهم ، وفعلهم قد خطر بقلوبهم عند ذلك أن الخضوع للمسلمين قد يخفف

---

(١) هذا القول عجيب وهو يدل على أنه في أيام (ساويرس) كان القبط لا يزالون يسمون أنفسهم (التيودوسيين) وأن لفظ «القبط» في الحقيقة كان مرادفاً للفظ «تيودوسيين» وكان «الجيانيون» طائفة صغيرة في وقت قيرس (انظر هامش صفحة ٢٥) ومع ذلك فالأستاذ (Bury) عندما ذكر تولية قيرس يقول إن «أول عمل قام به هو أن يستميل إليه الطائفة الكبرى طائفة التيودوسيين أو (الفطار تولاتربين) انظر كتابه (Later Rom. Emp) (الجزء الثاني صفحة ٢٥١).

من الآلام التي نغصت عليهم حياتهم ، وأن نير المسلمين قد يكون أخف حملاً من نير الملك الأصيل في دين المسيح وهو هرقل . لا شك في أنهم قد كرهوا دين الإسلام ، وتدل على ذلك كل صفحة من صفحات تاريخهم ، ولكن سيف (قيرس) قطع آخر ما كان يربطهم إلى الدولة الرومانية من أسباب الولاء ، وذلك لكثرة ما لاقوه في مدة السنوات العشر من الظلم الذي نزل بهم إلى حضيض من الشقاء لا أمل معه . فرأوا في مجيء المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالميهم .

وهكذا دفع سوء الحكم خير بلاد الدولة الإمبراطورية إلى مأزق ما أضيفه ، ولسنا نستطيع أن نعرف جناية من هذه ، أهي جناية هرقل وقد أطاعه المقوقس فيما أمر به من الشر ، أم هي جناية المقوقس وقد عصى سيده وخان أمانته . فمن الجلي أن هرقل كان يقصد في مبدأ أمره إلى قصد نبيل ، فما كان أعظم أن يخلع على الكنيسة من السلام مثل ما خلع على الدولة ، ولكنه لم يعرف ثبات الناس على أديانهم وحرصهم عليها ، ولم يعرف أن الدين كان متغلغلاً في أعمق فجاج الدولة ، وأنه إذا شاء أن ينزعه منها بالقوة كان في ذلك أشد الخطر على حياتها . وكذلك كان اختياره لمن ينفذ له أغراضه غير موفق ، فقد أرسل إلى مصر رجلاً ليعيد السلام فإذا به ظالم عاتٍ ، وأرسل كلمة يقصد بها نشر السلام فلم يؤدها الرسول أو لم يسمع بها الناس . وأما الإضطهاد فلا شك في أنه قد وافق عليه وأقره ، ولكنه قد يكون أقره بعد أن لم يجد عنه محيصاً ، في حين أن قيرس لجأ إلى العسف بادىء ذي بدء ولم يلجأ إلى وسيلة سواه . ومهما يكن من شيء فقد كان رأى الإمبراطور في القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به ، رأياً بعث به الخيال والوهم . فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدىء العواصف الثائرة من الخلاف في المذاهب ، فما كان منه إلا أن زاد العاصفة شدة ، ولم يستطع الصبر على الخيبة ولم يرض أن يدع الأمور إلى الزمن ويلزم جانب الإعتدال ، فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية في مصر والشام ، فكان بعمله هذا يمهد السبيل في القطرين لمطلع جنود الإسلام .

الفصل الرابع عشر

مسير العرب إلى مصر

عمرو بن العاص يفضي إلى الخليفة برأيه في فتح مصر ـ تردد عمر في السماح له ـ الكتب التي بعثت يطلب بها رجوعه وفتحها عند العريش ـ إقامة يوم الأضحى هناك ـ خلق القائد العربي ـ طوله وصفة جسمه ـ دحض ما قيل من وصفه بأنه تمتام ـ تاريخ حياته ـ دخوله في الإسلام وبعث النبي به على سرية من سراياه ـ قصص عدة تبين صفاته .

الظاهر أنه بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس سار عمر بن الخطاب الخليفة وعمرو بن العاص القائد وذهبا كلاهما نحو الشمال . وقد أرسل عمرو مدداً للعرب المحاضرين لقيصرية[1] ، وأما عمر فقد أقام في دمشق. ولعلَّ عمراً قد أفضى إليه برأيه في فتح مصر منذ كانا في بيت المقدس ، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد . فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو إلى عرض رأيه ، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة ، وقال له إنه ليس في البلاد ما هو أقل منها قوة[2] ولا أعظم منها غنى وثروة ، ثم قال إن

---

(١) انظر كتاب «Conquête de la Syrie» De Geoje صفحة ١٣٠ ، وقد جاء في ابن خلدون وابن الأثير أنه «لما أخذ عمر بيت المقدس سار عمرو إلى مصر» ولكن البلاذري وهو أسبق منهما وأثبت يقول إن مسير عمرو كان عند حصار قيصرية، وهو يروي رواية يفهم منها أن عمراً سار بغير علم عمر، وروى رواية أخرى أن عمراً كان في مسيره مؤتمراً بأمر الخليفة، ويروي المقريزي الروايتين معاً.

(٢) أخذنا هذا عن معجم البلدان لياقوت (الجزء الثالث صفحة ٨٩٣).

(أريطون) حاكم الروم على بيت المقدس ـ وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها إليهم ـ قد لاذ بمصر ، وإنه كان يجمع فيها جنود الدولة ، وإن على العرب ألا يضيعوا الوقت ، بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل أمره[1] ، وإن مصر بعد ذلك تكون قوة للمسلمين إذا هم ملكوها . وكان اجتماع القائد بالخليفة في (الجابية)[2] بقرب دمشق وذلك في خريف سنة ٦٣٠ للميلاد ؛ وكان العرب لا يزالون على حصار مدينة قيصرية .

وقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير للمسلمين ، ولكنه ظن أن عمراً يقلل من شأن ما يلقاه من الصعوبة في فتحها ، وكان في ذلك الوقت لا يستطيع أن يضعف جند الشام بأن يبعث منهم جيشاً كافياً لفتح مصر . فلما طلب منه عمرو أن يسير إلى مصر بجيش من ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ رجل وعده أمير المؤمنين أن يفكر في الأمر ، فإنه كان لم يستقر على رأي في ذلك . ثم عاد عمرو بن العاص إلى قيصرية وكان قسطنطين بن هرقل قائد الجند بها . فبعث الخليفة وراءه بكتاب مع (شريك بن عبده)[3] يقول له فيه إنه قد رضي بغزو مصر ، وتقدم إليه أن يجعل الأمر سراً وأن يسير بجنده إلى الجنوب سيراً هيناً . فسار عمرو بن العاص في الليل في جيش صغير من الخيل ولم يحدث له حدث حتى صار عند الحدود بين مصر وفلسطين ، وسار بعد ذلك حتى صار عند رفح[4] وهي على مرحلة واحدة من العريش بأرض مصر فأتت عند ذلك رسل تحت المطي تحمل رسالة من الخليفة .

---

(١) الطبري نشرة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤١١ .

(٢) المقريزي نقلاً عن ابن عبد الحكم ولعل هذا أقرب مما قاله سعيد بن بطريق أن عمر كان قد عاد إلى المدينة وهناك كتب إلى عمرو يأمره بالسير إلى مصر.

(٣) جاء اسمه ذاك في المقريزي إذ قال: «ويقال إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص بعدما فتح الشام أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر فمن خفّ معك فسر به وبعث به مع شريك بن عبده» . وفي الأصل الإنجليزي تحريف مطبعي لاسمه فقد ورد فيه هكذا (Sharikh. b. 'Ah dâb) . (المعرّب) .

(٤) انظر وصف هذه الأماكن فيما كتب في طبعة (Hamaker) الواقدي صفحة ١٥ وانظر كتاب =

ففطن عمرو إلى ما فيها وظن أن الخليفة لا بد قد عاد إلى شكه في الأمر خاشياً من الإقدام والمضي فيما عزم عليه ، وقد كان الخليفة كلم عثمان وأفضى إليه بما يرى من المخاطر في تلك الغزاة ، فأجابه عثمان قائلاً إن تلك الغزاة كانت عظيمة الخطر ، وزاد على ذلك أن قال إن عمرو بن العاص فيه جرأة وتهور ، وإنه لا بد يقتحم بالناس المخاطر ويرمي بهم إلى الهلكة . فخشى كانت عظيمة الخطر، وزاد على ذلك أن قال إن عمرو بن العاص فيه جرأة وتهور، وإنه لا بد يقتحم بالناس المخاطر ويرمي بهم إلى الهلكة. فخشي عمر بن الخطاب خشية عظيمة وعزم على أن يأمر ابن العاص بالرجوع إذا كان ذلك ممكنا . ولكنه أحس أن جيش العرب إذا دخل مصر كانت عودته عنها خذلاناً وسبة للمسلمين إذ يكون ذلك بمثابة الفرار من العدو ، وعلى ذلك أرسل كتابه وتقدم فيه إلى عمرو ابن العاص أن يعود إذا كان بعد في فلسطين ، فإذا كان قد دخل أرض مصر فليسر على بركة الله ، ووعده أن يدعو الله له بالنصر وأن يرسل الأمداد[1] . أما عمرو

= كاترمير «Mem. Geog. et Hist.» الجزء الأول صفحة ٥٣ وكتاب (شمبليون) «L'Eg. sous les Pharaons» الجزء الثاني صفحة ٣٠٤ وأميلنو «Geog. Copte» صفحة ٤٠٤ وكتاب أبي صالح صفحة ٧٠ وقد جاء في النص العربي للواقدي أن عمراً «ترك الصحراء وجعل الحصون التي في طريقه إلى مصر عن يمينه وهي رفح والعريش والعداد والبقارة والفرما (صفحة ٨) ولكن هذه العبارة غير محتملة في ذاتها ولا توافقها الكتب الأخرى، وقد جاء في ابن الأثير أن عمراً عندما كان في هليوبولس أرسل أحد قواده لحصار الفرما وآخر لحصار الإسكندرية ولكن ما ذكره عن فتح مصر كله مضطرب مختلط.

(١) لعل هذه خير رواية لهذا الحادث الذي خلط فيه المؤرخون العرب خلطاً شنيعاً وقد اخترتها من بين روايات المقريزي. وأما ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه من المؤرخين فيقولون إن عمر وافق على سير عمرو إلى مصر ثم قال له : «سأرسل إليك بعد قليل كتاباً فإذا أمرتك فيه بالرجوع فارجع إلا إذا كنت قد دخلت في أرض مصر فإذا كنت قد دخلت فيها فسر على بركة الله». وإذا صح هذا كان منهجاً من مناهج الحمقى، ولكن عمر ليس ممن يوصفون بهذا الوصف. والحقيقة بغير شك هي أن عمر وافق وهو متردد على سير عمرو إلى مصر ثم ندم على ذلك فأرسل وراءه يأمره بالرجوع إذا كان ذلك مستطاعاً بغير ضرر لاسم العرب. وقد روى ابن بطريق ثلاث روايات لهذه القصة ويمكن أن نشبهها بما رواه المقريزي.

فقد كان بدأ أمره ولم يكن بالرجل الذي ينقض ما بدأ فيه ، وعرف أن ذلك الكتاب الذي لحق به لم يأته بالرضا عما هو فيه ، ولهذا لم يأخذه من الرسول حتى عبر مهبط السيل الذي ربما كان الحد بين أرض مصر وفلسطين ، وبلغ بسيره الوادي الصغير الذي عند العريش . وهناك أتى له بالكتاب فقرأه ، ثم سأل من حوله : « أنحن في مصر أم في الشام » فقيل له : « نحن في مصر » فقرأ على الناس كتاب الخليفة ثم قال : « إذن نسير في سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين »[1] .

ولا شك في أن عمراً لقي من الناس الجواب الذي كان يرغب فيه .

ولنا هنا ملاحظة غريبة وهي أن العريش وإن كانت تعدّ عادة من بلاد مصر لا يخلو أمرها من الشك[2] ، غير أن سياق القول يدل على أنها كانت خلواً من جيش الروم مع أنها كانت مدينة ذات حصون ، وكانت أسوارها لا تزال منها بقية ماثلة بإزاء البحر إلى القرن الثالث عشر ، وكذلك كانت أطلال الكنيستين العظيمتين القديمتين . وكان يقال في ذلك الوقت إن أجود أنواع المرمر وأعظم العمد التي في القاهرة كانت تأتي من العريش[3] وما أعجب هذا ! وقد روى بعض المؤرّخين أن سور مصر العظيم كان يبدأ من هناك ويتجه إلى القلزم

---

(١) جاء في المقريزي: «قال عمرو فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع وإن لم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله». وقد أورد المقريزي روايات أخرى يصدق بعضها ما ذهب إليه المؤلف. (المعرّب).

(٢) قد بيّن كاترمير في الفصل الأول أن الحدود كانت (الواردة) وضبطها كذلك وجاء في كتاب البلدان لليعقوبي (المتوفى سنة ٩٠٠) (Bibl. Geog. Arabe ed. de Goeje) (الجزء الثامن صفحة ٣٣٠) «يذهب الآتي من فلسطين إلى مصر أولاً إلى الشجرتين عند الحدود ثم إلى العريش في إقليم الحدود ثم إلى (البقارة) (هكذا) ثم إلى (الواردة) بين كثبان الرمل ثم إلى (الفرما) وهي أول مدينة مصرية وبعدها مدينة (جرجير) ثم فاقوس ثم مدينة (غيفة) حتى يبلغ الفسطاط.

(٣) انظر كتاب أبي صالح صفحة ١٦٧ .

(وهي السويس) ، ثم يتجه مع شاطىء النيل الشرقي إلى الجنوب حتى الجنادل الأولى . ويقال إن من بنى ذلك السور هو (سيزوستريس) وقد سماه العرب (سور العجوز) ؛ ولكنه كان قد تهدم منذ زمن طويل حتى إنه لم يعق سير الجند في القرن السابع . وقد بقيت من أطلاله إلى اليوم قطع عند جبل الطير وفي مواضع أخرى في مصر[١] .

وقد أقام جيش العرب الصغير عيد الأضحى في العاشر من ذي الحجة من عام ١٨ للهجرة وهو اليوم الثاني عشر من ديسمبر سنة ٦٣٩[٢] للميلاد ، وهو عيد القربان وعيد الحج عند المسلمين ، وكان الإحتفال غير خال من الجدّ والرونق بين هؤلاء العرب الذين كانوا يسيرون مع زعيمهم العظيم تربطهم به روابط النسب والولاء ، وذلك مع ما كانوا عليه من قلة ـ إذ كانوا لا يعدون أن يكونوا كتيبة من جند الصحراء ـ ومع عظيم ما جاءوا له إذ جاءوا لفتح بلاد الفراعنة . وكان أكثر من مع عمرو من الجند من قبيلة (عك) وإن كان الكندي يقول إن ثلث الناس كانوا من (غافق)[٣] . ويروي ابن دقماق أنه قد كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الروم وقد سماهم في كتابه ، وقال أيضاً إنه قد كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الفرس الذين كانوا باليمن ، ولعل هؤلاء جاءوا فيما بعد مع الأمداد التي بعث بها الخليفة إلى مصر[٤] .

والآن فلننصرف إلى عمرو نفسه ـ فأي رجل كان هو بين الرجال : لقد

---

(١) أبو صالح صفحة ٥٩ هامش ٤ وقد ذكر فيه (ديودور وسعيد بن بطريق وبعض كتاب العرب .

(٢) هذا التاريخ أورده ابن عبد الحكم وهو يتفق مع التواريخ الأخرى المعروفة فيمكن أن نعتبره ثابتاً وتجنباً للتكرار الذي لا حاجة إليه يجب علينا أن ندل القارىء على مقالة «عن تاريخ الفتح العربي» في آخر هذا الكتاب .

(٣) ياقوت ، الجزء الأول .

(٤) ابن دقماق الجزء الرابع صفحة ٤ ـ ٥ ويقول عن هؤلاء الفرس إنهم بقية الجيش الذي كان كسرى أرسله إلى اليمن بقيادة (بازان) أو (هورزاد) انظر ما سبق ذكره في صفحة ١٧٨ هامش ٤ .

جاء في الأخبار كثير من أقواله وذكر صفاته ، وإذا نحن أردنا أن نكتب تاريخ فتح العرب لمصر كان لزاماً علينا أن نكتب شيئاً عن قائد ذلك الفتح . كان عمرو بن العاص في نحو الخامسة والأربعين من عمره في وقت غزو مصر[1] . وكان قصير القامة ، وقوي البنية ، مرن الأعضاء تعود جسمه احتمال المشقة . وقد ساعده ذلك على أن يبرز في أفانين الفروسية والضرب بالسيف ، وهي الفنون التي اعتاد أهل الفروسية في الغرب أن يقرنوها باسم العرب[2] . وكان عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ، له عينان سوداوان ثاقبتان سريعتا التأثر سواء أكان ذلك في حال الغضب أم في حال السرور ، وفوقهما حاجبان غزيران ، ودون ذلك فم واسع . وكان وجهه ينم عن القوة في غير شدة ، وتلوح عليه لائحة البشر والأنس ، وكان يخضب لحيته بالسواد . هذا كل ما رواه لنا المؤرخون من وصف مظهره . ولعل وصفه بأنه تمتام كان وصفاً غير صحيح . حقاً إن أبا المحاسن روى[3] عن عمرو ذلك العيب ، وقال إنه العيب الوحيد فيه . ولكنه كان معروفاً بسرعة ردّه وحدّة ذهنه في الإجابة المسكتة ، كما كان معروفاً بطول خطبه وبلاغتها فالظاهر من ذلك أن من وصفه بأنه تمتام كان واهماً ، ولعل ذلك الوهم كان أثر خلط وسوء فهم . فقد روي[4] عن عمر بن الخطاب أنه سمع مرة

---

(١) لعل هذا خير رواية عن هذا الأمر كما حاولت أن أبين في الذيل الخامس ناقضاً في ذلك قول بعض المؤرخين الذين يقولون إنه كان أكبر سناً من ذلك .

(٢) ابن قتيبة وابن خلكان وأبو المحاسن هم الذين نقلنا عنهم ذلك وكتابا المؤلفين الأولين عبارة عن قاموسي تراجم للحياة وقد ترجم ما جاء عن عمرو في كتاب ابن خلكان ترجمة (De Slane) ويصف أبو صالح (صفحة ٧٨) وصفاً آخر أو وصفين لعمرو بن العاص ولعله أخذهما عن ابن عبد الحكم .

(٣) من العجيب أننا عدنا إلى النسخة المطبوعة في دار الكتب المصرية لكتاب أبي المحاسن «النجوم الزاهرة» فلم نجد ذكراً لهذا العيب ثم وجدنا فيه وصفاً حسناً لعمرو في ترجمته في الكتاب الأول صفحة ٦٢ وما بعدها . وكل ما رويَ عنه يدل على الفصاحة والبلاغة . وقد ذكرت كلمة عمر «أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد» ولكنها ذكرت هناك على سبيل الدلالة على فصاحة عمرو . (المعرّب) .

(٤) هذه القصة مأخوذة عن ابن حجر ولو أنه بغير شك نقلها عن كتب قبله .

رجلاً يتلجلج في الكلام فقال : « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد » . وليس معنى هذا أن عمراً كان تمتاماً بل يقصد بذلك القول أن الله تعالى خلق الأبكم والمفصح كليهما . وذلك مثل ما روى عن عمرو بن العاص نفسه إذ أحرج صدره أحد الجهلاء يوماً فقال يعرض به « إنه كذلك من مخلوقات الله تعالى » . ولكن قول عمر بن الخطاب قد أخرجه جماعة من كتاب العرب عن معناه وأوّلوه بأن المقصود منه أن عمراً كان يتلجلج في كلامه . ولو قصد عمر بن الخطاب ذلك لكان قوله لا معنى له ، وفيه اعتداء على عمرو ، وذلك لا يتفق مع مكانة عمرو في قومه وما عرف عنه من الفصاحة في الكلام . ولو كان متصفاً بذلك العيب لما اختاره النبي عليه الصلاة والسلام من أول إسلامه وجعله من كبار قواده بل وما استطاع أن يكون يوماً ما زعيماً عظيماً بين الناس . وبعد ، فإن عمراً كان فوق ذلك كله إماماً يؤم الناس في صلاتهم ، وظل كذلك إلى آخر أيامه . وإن الشرع الإسلامي ينص على أنه لا يصح للتمتام أن يصلي بالناس[1] . وعلى ذلك يكون ما روي من أن عمراً كان متصفاً بذلك العيب خبراً غير جدير بالتصديق .

وأما سائر صفاته فقد جاء من أخباره وأقواله ما يدل عليها وعلى حوادث حياته . فقد كان من قريش ، ونسبه معروف[2] . وكان إسلامه في السنة السابعة أو الثامنة للهجرة . ويروى عن إسلامه خبر أو اثنان ، فقد سئل مرة[3] : « ما عاقك عن الإسلام تلك المدة الطويلة مع رجحان عقلك » ، فأجاب : إنه كان

---

(١) قد قتل خارجة بن حذافة بينما كان يصلي بالناس نائباً عن عمرو لمرضه . انظر ما جاء بعد في فصل الخاتمة وانظر ما كتبه الماوردي في الشريعة الإسلامية في كتاب الأحكام السلطانية . الباب التاسع «باب إمامة الصلاة» صفحة ١٧١ وما بعدها .

(٢) جاء نسبه في كتاب ابن قتيبة هكذا : عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ويضيف أبو المحاسن إلى ذلك «أبو عبدالله القرشي السهمي الصحابي» .

(٣) ابن حجر .

في أول أمره يخشى سوء رأي مشيخته ، فلما كبر وميز أخذ نفسه بالهوادة في معارضة النبي . وقد أرسلت إليه قريش واحداً من قومها يسأله عن إسلامه فجعل عمرو يسائل من جاء يسأله فقال له : « أي الناس على دين الحق ـ أهم العرب أم الفرس أم الروم ؟ » فقيل له « بل العرب » فقال : « أنحن أكثر منهم مالاً أم هم أكثر منا ؟ » فقيل له : « بل هم » فقال له : « فأي فضل إذن للعرب على الفرس والروم إذا لم تكن ثم حياة في الآخرة . فإنهم قد ذهبوا بخير هذه الحياة الدنيا جميعاً » ثم قال عمرو إنه قد أسلم وآمن بالنبي واليوم الآخر وبالعقاب والثواب بعد الموت وعزم على ترك الباطل أي دين العرب القديم . وقيل إن عمراً أسلم منذ كان في الحبشة وإن إسلامه كان على يدي جعفر بن أبي طالب .

وروي في الخبر أن عمراً قال مرة للنبي : « يا رسول الله إني أبايعك على أن يغفر لي ما مضى من ذنبي » فقال له النبي : « إن الإسلام والهجرة[1] يجبان ما كان قبلهما » فكان عمرو لا يرفع عينه من وجه النبي عرفاناً منه لصنيعه وكان يقول : « والله ما كنت أملأ عيني منه أو أنظر إلى وجهة ما أردت ، إلا رأيت الحياء في وجهه »[2] .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يرى في عمرو رأياً حسناً ، وقد قال فيه

(١) ليس معنى هذا أن عمراً كان ممن هاجر، فإنه إذا كان معناها هذا كانت القصة مشكوكاً فيها.

(٢) قول المؤلف هنا مضطرب ولسنا نعرف مصدر روايته هذه. ولعله لم يحسن فهم النص العربي الذي يدل على حياء عمرو من النبي وليس حياء النبي منه. فقد جاء في كتاب «النجوم الزاهرة» لأبي المحاسن ما يلي: جاء. . . «أن عمرو بن العاص قال: يا رسول الله أبايعك على أن يغفر لي ما تقدّم من ذنبي» قال: «إن الإسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما» قال عمرو: «فوالله ما ملأت عيني منه ولا راجعته بما أريد حق لحق بالله (حياء منه)». ولعل المؤلف قد رأى ترجمة لهذا القول أساء مترجمه فهمه. ويعزز هذا ما جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد في نهاية هذا الحديث وهو قوله: «ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له». (المعرّب).

يوماً : إنه من خير المسلمين وأكثرهم ثقة[1] ، وقال فيه أيضاً : إنه من « صالحي قريش » ، وكان يحبه لحسن رأيه ولشجاعته . وكان لعمرو أخ من أبيه اسمه هشام قتل يوم اليرموك ، وقد سئل عمرو عنه فقال : « حسبكم أن أقول إن أمه أم حرملة عمة عمر بن الخطاب وأمي عنزية ، وكان أحب إلى أبي مني وبصر الوالد بولده ما قد علمتم ، وأسلم قبلي واستبقنا إلى الله فاستشهد يوم اليرموك وبقيت بعده »[2] .

وكان أكبر ما امتاز به عمرو أن النبي نفسه عقد له على بعض سراياه ، وقال له عند ذلك إنه قد أمره على الناس ودعا له بالسلامة والغنيمة . فقال عمرو عند ذلك إنه لم يسلم للمال بل أسلم لوجه الله . فقال له النبي : إن المال الحلال خير ما يرزأ المؤمن . وأكبر الظن أن عمرو بن العاص لم ينس تلك الحكمة فيما بعد . وكان على قيادة كتيبة من الكتائب في يوم السلاسل ، فأرسل يستمد النبي فأرسل إليه مائتي رجل فيهم أبو بكر وعمر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح ، فلما أقبلوا عليه قال عمرو : « أنا أميركم وأنتم لي مدد » . فقال أبو عبيدة : « لا . بل أنا أمير على من معي وأنت أمير على من معك » . فأبى عمرو هذا فقال أبو عبيدة : « لقد قال لي رسول الله ﷺ لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك » فقال عمرو : « فإني آبى أن أطيعك » فسلم عليه أبو عبيدة عند ذلك بالإمارة ووقف وراءه في الصلاة .

---

(١) جاء هذا الخبر عن عقبة بن عامر رواه أبو المحاسن والنواوي وبينهما اختلاف قليل (المؤلف).

(٢) لعل المؤلف يشير إلى ما روي عن عقبة بن عامر إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلم الناس وآمن الناس عمرو بن العاص» رواه الترمذي. ويفهم من ذلك الحديث أن المقصود بآمن الناس إنما هو الإيمان لا الثقة. وقد جاء في الأصل الإنجليزي (Most trustworthy of men) وهو غير المقصود من الحديث على ما يظهر. (المعرّب).

(٢) هذا النص أخذناه من نسخة من كتاب «المعارف» لابن قتيبة بدار الكتب المصرية. (المعرّب).

وقد عقد النبي لعمرو بعد وقعة السلاسل على عمان فظل عليها حتى لحق النبي بربه . وبعد سنة أو سنتين من ذلك جعله أبو بكر أحد القواد الذين سيرهم إلى الشام ، وفي تلك الحرب نما أمره وذاع اسمه في معرفته بمكيدة الحرب والشجاعة . وقد آلمه تقديم أبي عبيدة عليه إذ أمره عمر في أول خلافته . ولكن لعل أجلى ما جاء في وصفه ما قاله هو عن نفسه دفاعاً عندما سمع أن بعض الناس يعذل معاوية على تقديمه إياه[1] .

اجتمعت بنو أمية عند معاوية بن أبي سفيان فعاتبوه في تفضيل عمرو بن العاص، وادعاء زياد بن أبيه، فتكلم معاوية ثم حرك عمراً على الكلام فقال عمرو في بعض كلامه:

أنا الذي أقول في يوم صفين:

إذا تخاذرت وما بي من خذر ثم كسرت العين من غير عور
ألفيتني ألوي بَعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر
كالحية الصماء في أصل الشجر

أما والله ما أنا بالواني ولا العاني ، وإني أنا الحية الصماء التي لا يسلم سليمها، ولا ينام كليمها، وإني أنا المرء إن همزت كسرت، وإن كويت أنضجت. فمن شاء فليشاور، ومن شاء فليؤامر؛ مع أنهم والله لو عاينوا من يوم الهرير ما عاينت أو لو ولوا ما وليت لضاق عليهم المخرج، ولتعاظم بهم المنهج ، إذ شد علينا أبو الحسن وعن يمينه وشماله المباشرون من أهل البصائر وكرائم العشائر. . . فهناك والله شخصت الأبصار. . . إلخ .

فلا يسمع يومئذ إلا التغمغم من الرجال والتحمحم من الجيل الجياد، ووقع السيوف على الهام كأنه دق غاسل بخشبته على منصته. . . إلخ .

---

(١) هشام بن الكلبي هو المؤلف الذي أخذنا عنه هذه القصة. ولا شك أن هذا الحادث قد وقع في عصر متأخر من حياة عمرو وبعد فتح مصر (المؤلف).

(٢) ابن خلكان س ٢٥٨ ـ ٢٥٩ الجزء الثاني طبعة ثانية (بولاق).

(وقد علمتم) أني أحسن بلاء وأعظم غناء وأصبر على اللأواء، وأني وإياكم كما قال الشاعر:

وأغضي على أشياء لو شئت قلتها ولو قلتها لم أبق للصلح موضعاً
وإن كان عودي من نضار فإنني لأكرمه من أن أخاطر خروعاً[1]

وإن مثل هذا القول ليظهر الرجل في اعتداده بنفسه ومعرفته لمقدارها. ولا شك في أن عمراً قد أظهر شيئاً من قلة التعفف في الخلاف الذي أعقب يوم صفين. فقد روى الذهبي أنه هتك ما كان معاوية يتستر به من النفاق والادعاء في أيام وقعة صفين، إذ قال: «يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك. أترى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه؟ لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها. وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنابذنك» ولا يسع المطلع على ما كان منه في أمر التحكيم إلا أن يرى في عمله خيانة وخدعة لأبي موسى، فكان أبو موسى كلما صلى قرن دعاءه بلعن عمرو، وقد قال له مرة: «ما مثلك يا عمرو إلا كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث» فقال له عمرو: «وما مثلك أنت إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[2].

وقال ابن حجر إن أحد أصحاب عمرو قال عنه: «ما رأيت رجلاً يعرف كلام الله معرفته ولا رجلاً أكرم نفساً ولا أشبه سراً بعلانية منه». وقال رجل اسمه جابر[3]: «لم أر رجلاً أقرأ لكتاب الله من عمر، وصحبت معاوية فما رأيت رجلاً

---

(١) قد حاولنا في الطبعة الأولى جهدنا أن نأتي بالنص لهذا القول فلم نوفق مع كثرة بحثنا، فاضطررنا إلى ترجمة المعنى عند ذلك ثم عثرنا بعد سنوات في أثناء المطالعة على ذلك النص عفواً في كتاب «وفيات الأعيان لابن خلكان» وها نحن نثبته هنا. (المعرّب).

(٢) روى هذا أبو المحاسن عن الذهبي.

(٣) في الأصل الإنجليزي تحريف مطبعي إذ جاء اسمه جابر هكذا (Gabiz).

روى أبو المحاسن في كتابه عمن روى عن جابر صاحب عمرو أنه قال: «. . . وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين (أو قال) أنصع ظرفاً منه ولا أكرم جليساً ولا أشبه سراً بعلانية منه». (المعرّب).

أحلم منـه، وصحبت عمرو بن العـاص فما رأيت رجـلاً أبين ظـرفـاً ولا أكـرم جليساً». وإنا موردون هنا خبـراً أو إثنين من أخباره لنـدل بهما على كـرم نفسه وصراحته وحبه لجمال النسق[١]: فقد لامه بعضهم مرة على أنه يركب بغلة هرمة قبيحة المنظر: فقال له «لا ملل عندي لدابتي ما حملتني ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي ولا لصديقي ما حفظ سري»[٢] وقيل إنه وقع مرة بينـه وبين المغيرة بن شعبة كلام فاغتاظ المغيرة وسبه، فقال عمرو وقد ثارت ثائرته: «يا آل هصيص! أيسبني ابن شعبة؟» فقال عبد الله ابنه وكان قريباً: «إنا لله! دعوت بدعوى القبائل وقد نهى عنها» فقبل الوالد تأنيب ابنـه وأعتق ثلاثين رقبـة يكفر بهـا عن ذلك. وسمع يوماً وهو أصغر من ذلك سناً إذ كان بالمدينة خطبة من خطب زيـاد فلما رأى بلاغتها قال: «لله در هذا الغلام لو كان من قريش لساق العرب بعصاه»[٣].

ولو أردنا لأتينا بغير هذه الأخبار ولكن حسبنا ما أوردناه منها ففيه الدلالـة على ما كان عليه عمرو بين الرجال. فإذا نحن قرنا بعض خلاله إلى بعض رأينا أنـه كان قـوي الجسم ذكي العقل، تجيش نفسـه فتدفعـه، وله قـوة من عزمـه كالحديد إذا عزم، وكان شجاعاً لا ينكل، ولكنه كان يؤثر الأناة ويعلم أن الرأي أول والشجـاعة في المحـل الثاني، وكـان في أمر الـدين والعبـادات على تقى وصلاح. وإذا كانت مطامع هذه الدنيا غررت به في بعض أيامه وعصفت بقلبه فقد بقي فيما عدا ذلك شريفاً نبيل النفس. وكان في العلم على ما كان عليه أهل

---

(١) الأصل الإنجليزي (Musical Measure) ولا يرد ذكر لقصة تدل على حبه للغناء، فلعـل قصد المؤلف جمال النسق أياً كان ولو كان في خطبة بليغة، ومثل ذلك ما ذكـر بعد من إعجابه بخطبة زياد. (المعرّب).

(٢) جـاءت زيادة بعـد ذلك في كتـاب أبـي المحـاسن «إن الملل من كـواذب الأخـلاق». (المعرّب).

(٣) هذه القصة من كتاب (اليمن) لعمارة (طبعة كاي) صفحة ٢١٩ وقصة البغلة مأخوذة من كتاب أبـي المحاسن (المؤلف).

قد أخذنا النص الذي أوردناه هنا من كتاب الآداب السلطانية وهو كتاب (الفخري) لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (المعرّب).

عصره، وعرف بين العرب بأنه من أحدهم ذهناً[1] ومن أكملهم عقلاً. وكان يحب الغناء حبًا جماً ويقبل عليه ويطرب للشعر. وكان خطيباً بليغاً وله خيال خصب فاجتمعت فيه صفات المحارب والشاعر وجواب الآفاق والرجل الصالح. فكان واضح الباطن والظاهر نبيل المقاصد والفعال وكان محبباً مؤلفاً يملك قلوب الناس ويستهوي أفئدتهم شأنه في ذلك شأن عظماء الرجال الذين يخلب حبهم أفئدة الناس فإذا إعجابهم ولاء وإخلاص.

هذه صفة القائد الذي جاء في فرسان أربعة آلاف بايعوا أنفسهم على نزع مصر من يد القياصرة.

---

(١) مكين صفحة ٣٩. وانظر كذلك ما جاء عن عمرو في كتاب (W. Nassau Lees) وهو (Conquest of Syria. Bibl. Indica) الجزء الأول.

الفصل الخامس عشر

أول الحرب

ما فعله قيرس ـ دحض ما قيل من أن العرب إنصرفوا على جزية تعطى لهم ـ حصار الفرما وأخذها ـ السير في الصحراء إلى بلبيس ـ أخذ تلك المدينة بعد حرب شديدة ـ وصول العرب إلى (تندونياس) وهي (أم دنين) ـ مناجزات لم تسفر عن نصر ـ ما كان المسلمون فيه من الخطر ـ عزم عمرو على غزو الفيوم ـ أخذ (تندونياس) .

نذر أهل مصر بغزوة العرب وسمع المقوقس (قيرس) بسير هؤلاء الأعداء أولي البأس ، وكان قبل ذلك قد أعدّ شيئاً من وسائل الدفاع فحفر خندقاً حول حصن بابليون العظيم بقرب ممفيس ، وزاد في تحصين الحصون الأخرى ، ورمم أسوار كثير من المدائن التي كانت غزوة الفرس هدمت منها[1] . وليس من الصدق قول القائل إن (قيرس) إشترى العرب فصرفهم عنه بجزية وعدهم بها ، وقد قال هذا الخبر أو أشار إليه المؤرخ (تيوفانيس)[2] . فإنه من سوء الحظ أن مؤرخي اليونان يتخبطون في ظلمة لا

---

(١) هذا ظاهر من نص النبوءة في تاريخ حياة شنودة (Mem. Misc. Arch. Franc.) (الجزء الرابع (١) صفحة ٣٤٠).

(٢) (Corp. His. t. Scrip. Byzant.) الجزء ٤٤ صفحة ١٦٧ :

«ثم ساروا إلى مصر ولما سمع قيرس أسقف الإسكندرية بغزوتهم نهض واتفق معهم على صلح خوفاً من طمعهم فوعدهم أن تدفع مصر جزية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار كل عام فأنجى مصر من تخريبهم مدة ثلاث سنوات ثم اتهمه الامبراطور بأنه يدفع الذهب =

يصفون حقيقة ما كان من الحوادث في ذلك العصر ، ولا يعرفون ما كـان منها أولاً وما كان منها بعد .

وأضل من (تيوفانيس) المؤرّخ (نيقفوروس)[1] وأبعد كِلا الاثنين عن الحق (الديوان الشرقي)[2]. فإنهم جميعاً لم يفحصوا الحوادث التي يصفونها ولم يدركوا حقيقتها . فلا فائدة فيها لأنها تخلط في التواريخ خلطاً فاحشاً وتقلب الحقـائق وتمسخها . بل إنها قد أضلت كل من اهتدى بها من الكتاب المحدثين وقذفت بهم في المجاهل[3] . وحسبنا في هذا المقام أن نقول إنه ليس ثمة كلمة صدق

= المصري إلى العرب» ثم يورد بعد ذلك قصة مجيء منويل وحلولـه محله، وسنعود إلى ذكر ذلك آخر هذا الكتاب.

(١) يقول إنه «بينما كان هرقل لا يزال في الشرق أرسل حنا قائد (برقينة) ليقاتل العـرب في مصر» وهو يذكر بعض مواقع ويذكر طلب الصلح من عمرو وقد قال إنه عرض على عمرو أن يتزوج من ابنة الامبراطور ويتنصّر. ويقول إن كل هذا كان قبل أن يبارح هرقـل بلاد الشام أي قبل سبتمبر سنة ٦٣٦، في حين أن العرب كانوا عند ذلك لم يفكروا بعد في غزو مصر.

(٢) جاء في هذا الديوان أن العرب عندما أتوا مصر أجلى هرقل كل الجنود الذين كانوا فيها حتى أسـوان ودفع للمسلمين الجـزية لمـدة عشر سنـوات حتى استنفد كـل ما كـان في الخزائن. وإنه لمن الصعب أن نعرف أي سنوات عشر يقصدها ذلك الديوان. ولعل هذه العبارة تشير إلى الشام. وإذا كان المقصود منها أن هرقل دفـع عن مصر الجزية لمدة عشر سنـوات كان لنـا أن نقول إن هـذا قول لا أسـاس لـه. ومن العجيب أن نجـد النسخـة المخطوطة التي في القاهرة من كتاب (ساويـرس) نورد هـذا الخبر عينـه بلفظه إلا أنهـا تجعل المدة ثماني سنوات بدل عشر، والقصـة التي في النسخة المخـطوطة بـالمتحف البريطاني بالغة حدّ السخف. وإنه من الواضـح أن الكاتب القبطي للديوان الشرقي كان ينقل عن (ساويـرس) ولا بد أن (سـاويرس) نقـل عن بعض مؤرخي اليونـان قصة هـذه الجزية، ولكنه لم يكلف نفسه عناء التوفيق بينها وبين ما ذكره عن غزوة العـرب ولا عن اضطهاد قيرس. وهذه القصة التي تذكر فيها هذه الجزية لا ترد في أي تاريـخ من تواريـخ العرب.

(٣) لعل خير مثلٍ لهذا التضليل هو كتاب ليبو «Hist. du Bas Emp» فإنه لا يمكن أن يعتمد عليه من صفحة ٢٧٢ في الجزء الحادي عشـر فهو يجعـل حوادث (منـويل) قبـل غزوة عمرو. وقد ضل (Drapeyron) كذلك في كتابه «L'Empereur Herac.» (صفحة ٣٩٦) =

واحدة فيما رواه هؤلاء اليونانيون عن دفع المقوقس غزوة العرب بجزية من المال يعطيهم إياها . ولا يرد لفظ واحد يشير إلى هذا الأمر في كتاب كتبه أحد أهل الشرق سواء أكان فارسياً أم سريانياً أم قبطياً أم من العرب ، اللهم إلا (ساويرس) وقد نقل عن (الديوان الشرقي) . والقصة كلها قائمة على خطأ وقع فيه مؤرخو اليونان ، فهي صورة مشوهة ممسوخة مما وقع بعد ذلك بزمن طويل ، وسيأتي ذكر ذلك في حينه . ولم يكن لنا بد من أن نبدأ بدحض هذا القول ، وإذ فعلنا ذلك فلنمض في سبيلنا من وصف مسير عمرو في الصحراء .

غادر العرب العريش وما حولها من بساتين النخيل وساروا في الطريق إلى

= وكذلك المؤرخون الإنجليز من (جبون) إلى (بيوري) وقد أخذ ثانيهما عن (ليبو) خبر غزوة منويل (.later Rom. Emp) الجزء الثاني صفحة ٢٦٩ هامش ٣) وكذلك المستر (ملن) في كتابه (Eg. Under Rom. Rule) (صفحة ١١٥) فإنه يقول إن العرب دفع غزوهم في أول الأمر بما كان يدفع إليهم من المال، ويذكر نص ما قاله Paulus) (Diaconus (الجزء الثامن عشر صفحة ٥٧٩) في حين أن كتاب (Paul) لا قيمة له ولا يصح الاعتماد عليه. وقصته في هذا الشأن منقولة عن (تيوفانز) وهو كما بيّنا عديم الدقة في كل ما يتعلق بفتح العرب، وقد لخّص في مقال بمجلة (.Asiatic Quarterly Rev) كل ما كان يحسب تاريخاً لغزوة عمرو، لخصه كاتب شرقي لا بأس بمقدرته وهو (س. خدابخش) يوليه سنة ١٩٠١، وقد قال «ولم يقابل عمرو كما يقابل العدو بل رحب به الناس كمخلص وقد كان البطريق قيرس بالانفاق مع المقوقس، يأملان أن يدرآ شرور الحرب بدفع جزية سنوية للعرب. وكان هذا منهما سخفاً وبلاهة، ولكن هرقل أبى هذا وأرسل منويل للدفاع عن ذلك الإقليم. . . إلخ». وإنه لا يكاد يوجد بهذه العبارة حرف واحد صحيح، ويمكن أن نقول ذلك عن رواية (أوكلي) عن فتح العرب، ولعل تلك الرواية هي السبب في أكثر الروايات الفاسدة في التواريخ الحديثة. وإنك لتجد في (درابيرون) مثالاً لما يمكن أن تؤدي إليه هذه الآراء الفاسدة عن قيرس وهذه الأخبار الكاذبة عن الجزية إذا ما وصلت إلى كاتب واسع الخيال، فإنه يذكر أن قيرس وهذه الأخبار الكاذبة عن الجزية إذا ما وصلت إلى كاتب واسع الخيال، فإنه يذكر أن قيرس كان «سورياً ماكراً» استطاع أن يوقف غزو العرب عند برزخ السويس بأن دفع جزية مقدارها ٢٠٠,٠٠٠ دينار استدين بعضها باسم المقوقس! (انظر كتاب L'Empereur) (Heraclius صفحة ٣٩٦).

الغرب بعيدين عن البحر ، فإن الطريق بعد العريش تسلك قطعة من الصحراء تتخللها بعض عيون وقرى ، وهي الطريق القديمة المؤدية إلى مصر ، شهدت من قدم مصر قبل أن يلوح فجر العمران ، كما شهدت مقدم إبراهيم ويعقوب ويوسف وقمبيز والإسكندر وكليوبتره[1] وأسرة المسيح ، ثم وطأتها جيوش الفرس في غزوتها منذ حين . وكانت فوق ذلك في كل الأوقات طريق التجار وأهل الأسفار والحاج تتردد عليها القوافل بين آسيا وأفريقيا . وقبل أن تبلغ الطريق مدينة الفرما ببضعة أميال تنحدر إلى الشمال الغربي فتقتحم الكثبان وهي التلال المتنقلة من الرمال ولم يلق العرب أحداً من جنود الروم حتى اقتربوا من المدينة .

ومدينة (بلوز) اسمها بالقبطية (برمون) ويسميها العرب (الفرما) وكانت على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر ، وكان لها مرفأ لعله كان متصلاً بالمدينة بخليج يجري من البحر . وكان فرع من النيل اسمه الفرع (البلوزي) يهوي إلى البحر بقربها . وكانت مدينة قديمة قوية الحصون بها كثير من آثار المصريين القدماء كما كان بها كنائس وأديرة[2] ، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشرق تشرف على طريق القادم من الصحراء ، وتملك ناصية البحر ويجري إليها فرع من النيل يؤدي إلى مصر السفلى . ومع كل ذلك فالظاهر أنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين في فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى في فتحها ، ولعلهم دكوا أسوارها وخرجوا من حصونها كما خربوا كنائسها . ولكن الروم نذروا بمجيء العرب منذ زمن ، ولقد كان في استطاعتهم إذا شاءوا أن يرمموا ما تهدّم من أسوارها .

---

(١) حنا النقيوسي ٤٠٧ .

(٢) انظر كتاب «أبي صالح» صفحة ١٧٦ وما كتبناه هناك تعليقاً ويمكن أن نضيف هنا أن قبرجالينوس الطبيب بالفرما كما ذكر الاصطخري (Bibl. Geog. Arab. ed. Goeje) (الجزء الأول صفحة ٥٣) وفي الوقت الحاضر توجد في موضع الفرما تلال حمراء يمكن أن تظهر عن بعد من قناة السويس، وتوجد بعض أطلال أبنية يقال إنها رومانية وإننا لنرجو أن يكشف موضع هذه المدينة كشفاً علمياً.

ولم يكن عند العرب الذين جاءوا مع عمرو شيء من عدّة الحصار ، ولم يكن لهم علم بطرقه ، وما كانوا ليستولوا على المدينة إلا بالمهاجمة وفتح الأبواب ، أو بالصبر عليها إلى أن يضطر الجوع أهلها أن ينزلوا إليهم . وليس لنا علم بعدد جندها ، ولكن من الواضح أن العرب كانوا فئة قليلة ، فما كانوا ليقدروا على حصارها من كل جوانبها ، فكانت مسلحتها تهبط إليهم بين حين وحين لقتالهم . واستمرت الحرب متقطعة مدة شهر ، ويقول أحد المؤرخين[1] بل شهرين ، ثم خرج إليهم جنودها مرة ليقاتلوهم ، ولما عادوا لائذين إلى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يغلق ، وكان أول من اقتحم المدينة من العرب (أسميقع بن وعلة السبائي)[2] . وقد روى المقريزي وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصار ، ولكن ذلك غير صحيح ، ولعل هذا رجوع إلى القصة القديمة التي تعزو إلى القبط ظلماً مساعدتهم للفرس . ولم يرد ذكر لهذه المساعدة في كل ما كتب قبل القرن الرابع عشر . ولعل ما ذكرناه من أخذها عنوة يكفي لتفنيد هذا الزعم . ولو ساعد القبط العرب لما أحرق هؤلاء السفن وهدموا الحصن[3] ، ولما فعلوا ما فعله الفرس من قبلهم من

---

(١) جاء في ياقوت أن المدّة كانت شهرين وأما ابن بطريق والمقريزي وسواهما فيقولون إنها كانت شهراً .

(٢) الكندي ونقل عنه السيوطي (المؤلف) .

(٢) وصحة الرواية ليست عن الكندي ونقل عنه السيوطي مباشرة، بل إن القضاعي نقل عن الكندي وأخذ السيوطي قول القضاعي في كتابه (حسن المحاضرة) وقد جاء فيه ما يلي :

«وقد لخّص القضاعي في كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصاً وجيزاً فقال ومن خطه نقلت: لما قدم عمرو بن العاص. . . كان أوّل موضع قوتل فيه الفرما قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله عليه. قال أبو عمرو الكندي : كان أول من شد على باب الحصن حتى اقتحمه اسميقع بن وعلة السبائي واتبعه المسلمون فكان الفتح . (المعرّب) .

ملاحظة : جاء في الأصل عقب ذكر ابن وعلة هنا. «وقد روى عنه المقريزي» ولكنا لم نجد لهذا الرجل رواية نقلها أحد عنه والظاهر أن المؤلف لا يشير إليه بقوله «وقد روى عنه المقريزي» بل يشير إلى الاسم الذي جاء في الهامش وهو الكندي . (المعرّب) .

(٣) راجع النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني من كتاب (ساويرس) (صفحة ١٠٥) . وقد =

تخريب الكنائس الباقية في الفرما[1] . ولنا فوق ذلك دليل آخر على كذب هذا الزعم وهو ما قاله (حنا النقيوسي)[2] في ديوانه ، وكان حنا من الأحياء قرب ذلك العهد . قال : إن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها . ولسنا ندري على التحقيق في أي وقت كان هذا ، ولكن من الجلي أنه لم يكن إلا بعد فتح حصن (بابليون) ولم تكن تلك المساعدة إلا مساعدة قليلة لا تعدو بعض الأمور .

فلما ملك العرب الفرما صار في أيديهم معقل يؤمن لهم الطريق المؤدية إلى بلادهم ، ويضمن لهم سبيل الرجوع إذا نزلت بهم هزيمة . وقد فطنوا بعد فتح الفرما إلى ما هم مقبلون عليه من الأمر الخطير إذا أتيح لهم فتح حصن بابليون والإسكندرية العظيمة ، ولا بد أن يكون عمرو قد أدرك أنه لن يستطيع شيئاً إذا لم يوافه عمر بن الخطاب بما وعده من الأمداد ، وكان يعرف أن الأمداد لن تستطيع أن تخلص إليه إلا عن طريق الفرما[3] . ولم يكن معه من الجند من

= أعيد بناؤها فيما بعد ولم تدمر نهائياً إلا على يد بلدوين الأول إذ دمرها قبل تقهقره في سنة ١١١٨ للميلاد.

(١) أبو صالح، صفحة ١٦٨ .

(٢) صفحة ٥٥٩ وإن (Weil) الذي ينقل هذا ويبالغ فيه ضد القبط في كتابه (Geschichte der Chalifen) لم ير كتاب (حنا النقيوسي) وهو على أي حال مصنف وليس بالباحث أو الناقد في تاريخ ذلك العصر.

(٣) هذا الرأي ينقض قوله ابن خلدون العجيب إذ يقول: «فحاصر العرب عين شمس (هليوبولس) وأرسلوا أبرهة بن السفاح لحصار الفرما وعوف بن مالك لحصار الإسكندرية». (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب)... إلخ (ملحق الجزء الثاني صفحة ١١٤) ولكن رواية ابن خلدون لا يصدقها أحد، فهو مثلاً يقول إن أول موضع أتى إليه هو (باب اليون) ومن هناك يقول إن عمراً سار إلى مصر. فهو يخلط بين الفرما وبابليون ثم بعد ذلك يجعل عين شمس موضع حصار طويل فهو يخلط بينها وبين بابليون كذلك. والظاهر أنه نقل عن عدة كتب مخطوطة، ولعله صححها بغير أن يفهم شيئاً من تاريخ تلك المواضع أو مواقعها. ويقول ابن الأثير: «وأول موضع فتح هو بابليون ثم سار عمرو إلى مصر» (انظر طبعة تورنبرج الجزء الثاني صفحة ٤٤٠).

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن المقريزي يروي عن سيف بن عمر أنه قد أرسلت من =

يقدر على أن يخلفه في المدينة ليحرسها ، وعلى ذلك لم يكن له بـد من هدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد بها العدو لو عاد إلى تملكها . ولسنا ندري ما كان يصنعه الروم في هذه الأثنـاء ، فأغلب الـظن أن (قيرس) كـان موقنـاً أن المسلمين لا بد لهم أن يسيروا إلى مصر بعد أن تخلص لهم الشام ، وأن الأمر واقـع لا محـالـة . فكـان الحـزم يقضي عليـه أن يقيم الأرصـاد والـربط في الصحراء ، حتى أكناف العريش على الأقل ، حتى يأتيه العلم بمسير القوم إليه في حينه ، ليستطيع التعبية ويسير للقائهم بمن معه جميعاً عند الفرما . ولو أرسل الروم عشرة آلاف من جندهم ليقاتلوا عمراً أثناء سيره ، أو جمعوا ذلك الجيش تحت حصن المـدينة ، لمـا عجزوا أن يهـزموا تلك الفئـة القليلة من أعـدائهم العرب . على أن ذلك لو حدث لما حال بين المسلمين وبين فتـح البلاد أمـداً طويلاً . ولكن الروم لم يصنعوا من ذلك شيئاً ، بل اعتمدوا على من في المدينة من الجند في أمر الدفاع عنها . وقد يقال إن العرب قد بغتوهم في أول الأمر ، وإنهم لم ينذروا بمسيرهم عند ذلك ، ولكن الروم لم يتحركوا في أثناء الحصار وقد لبث شهراً ، فلم يبعثوا أحداً لنجدة المدينة أو تخليصها . فكان قعودهم عن الفرما وإسـلامهم لها أول مـا إرتكبوه من خـطـأ في تلك الحرب ، وقـد كانـوا يستطيعون إتقاء هذا . وعلى ذلك يصح لنا أن نقول إن ذلك القعود كان أول ما ارتكبه (قيرس) من خيانته العظمى لدولته ، فلعله كان عند ذلك قد عزم على أن يعمل على فصل بطرقة الإسكندرية وشقهـا عن القسطـنـطينية بـالإتفاق مـع العرب وإعانتهم على دولته . ولسنا نجد غير الرأي ما نفسر به مسلكه ولا سيما ما وقع منه بعد ذلك .

كان عند ذلك قد مضى نصف شهر يناير من عام ٦٤٠ للميلاد وذلك العام الميلادي يكاد يتفق مـع سنة[١] ١٩ من الهجـرة ـ ثم سار عمـرو في سبيله ولم

= عين شمس سرية إلى الإسكندرية ولكن يظهر أن مثل هذه السرية تكاد تكون مستحيلة ، ولو كانت ممكنة لكانت عملاً في نهاية الحمق من الوجهة الحربية .

(١) أول عام سنة ١٩ للهجرة هو ٢ يناير سنة ٦٤٠ وآخرها يوم ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠ .

ينقص عدد جيشه إذ لحق به من البدو من عوّض عليه الذين قتلوا في المناجز الأخيرة أو لقد زاد عليهم ، وقد لحق به هؤلاء البدويون حباً في القتال وطمعاً في الغنيمة[1] . وسار من السبخة التي حول الفرما إلى أرض تليها يغطيها رمل قد خالطه الصدف الأبيض حتى بلغ مدينة (مجدول) القديمة[2] ، وهي في الجنوب الغربي من ألفرما . ومن ثم سار إلى موضع يقع على قناة السويس مكانه الآن (القنطرة) ، وفي ذلك الموضع تصير الأرض فدفداً صلباً يغطيه المدر تعترضه مواضع ينبت فيها العشب ـ أو غياض من ماء أجاج ينبت فيه القصب والغاب . وقد لزم العرب جانب الصحراء ، ولعلّهم قصدوا إلى مدينة الصالحية ، مخالفين في ذلك أكثر من عداهم من فاتحي مصر . فإن قمبيز مثلاً سلك طريقاً أخرى إذ ضرب إلى الغرب من بعد الفرما إلى (سنهور) و (تانيس) ومن ثم إلى (بوباستيس) في مصر السفلى[3] . ولكن في وقت غزو العرب كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها فأصبحت الطريق من هناك صعبة المسلك ، وكان جيش عمرو كله من الفرسان ، ولم يكن عندهم شيء من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار . ثم سار عمرو من الصالحية أو

---

(١) قال المقريزي إن قبيلة راشدة وبعض قبائل لخم لحقت بعمرو عند جبل الجلال وقد جاء في أخبار القرن السابق على هذه الحوادث أنه في سنة ٥٦٥ مر القديس انتونيوس الشهيد بهذه الطريق في حجه إلى الأماكن المقدسة ورأى هناك صنماً عظيماً للعرب يقيمون له عيداً في جبل (هريب) وذكر القبائل المغيرة وضربها في الصحراء بقرب (فرا) ولعلها هي الفرما (انظر كتاب (Pal. Pil. Text Soc.) (الجزء الثاني صفحة ٣٠ ـ ٣). وأما قبائل لخم فكانت غير عربية (انظر ابن دقماق الجزء الرابع صفحة ٥).

(٢) الظاهر أن (Jacques de Vitry) يقصد (مجدول) في قوله: «ووراء الفراميا (الفرما) مدينة أخرى قديمة في الصحراء بقرب الساحل» ولكنه كثير الخلط إذ يقول بعد ذلك «وبعدها مدينة بلبيس وهي التي تسمى (بلوز) وهي على خمسة برد من الساحل» (انظر Pal. Pil Text Soc. الجزء الحادي عشر، صفحة ١٤).

(٣) حنا النقيوسي صفحة ٣١٢ والأسماء العربية الحديثة لهذه البلاد هي (سنهور) و (صان) و (تل بسطة) أو الزقازيق.

(القصاصين) إلى الجنوب فاجتاز تلال وادي الطميلات[1] في موضع قريب من مكان اشتهر اليوم بوقعة كانت فيه وهي وقعة التل الكبير . فلما خرج من الوادي لم يبقَ دونه إلاَّ سير هين حتى يبلغ بلبيس .

وقد بدا من الروم في ذلك الموضع شيء من المقاومة ، وكانت طلائعهم قد خرجت ترقب قدوم العرب من الصحراء ، ولكنها لم تحاول إلا مناوشة ليس فيها كبير قتال . والظاهر أن قصة بعث المقوقس باثنين من الأساقفة وهما أبو مريام (أو أبو مرتام) وأبو مريم لمفاوضة العرب لم تكن سوى قصة بعث بها الوهم[2] . فلم يكن بين الأساقفة أحد بتلك الأسماء ، ولعل تلك القصة لم تنشأ إلا من الخطأ العظيم الذي وقع فيه مؤرّخو العرب عندما قرأوا أخبار هذه الحوادث ، وقد اختلطت فيها حوادث التاريخ بالخرافات اختلاطاً فاحشاً ، ومسخها النساخون عند نقلهم منها لم يتحرّوا فيها الدقة . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إنه قد جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة ، وإنهم فاوضوا عمراً في ذلك الوقت . ويقول الطبري فوق هذا إن عمراً طلب إلى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة في النسب إذ تجمعهم (هاجر) . ولكن القبط قالوا إن هذه قرابة ما أبعدها ، فأمهلهم عمرو أربعة أيام ليأتوا إليه بما استقروا عليه ، ولكن ما كان قائد الروم لينظر في مثل هذا القول . ولعل ذلك القائد الذي يسميه العرب أرطبون وصحة اسمه (أريطيون) هو نفسه

---

(١) هذه العبارات من (ساويرس) (النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني) صفحة ١٠٥ ونقل عنه أبو صالح صفحة ٧١ ولا أرى تلالاً أخرى هناك يمكن أن يقصدها غير تلال وادي الطميلات. وقد جاء في النسخة الخطية التي بالقاهرة أنهم أخذوا التلال «الجبل» وقد يكون معنى ذلك أنهم ساروا في الصحراء.

(٢) يظهر أن ابن الأثير صاحب هذه القصة وقد بحثتها ونقضتها في ذيل الكتاب في الباب الذي أفردته بالمقوقس (المؤلف).

ولكن هذه القصة موجودة في غير ابن الأثير فمثلاً نجدها في تاريخ ابن جرير الطبري وهو قبل ابن الأثير ولكنه يجعلها عند ذهاب العرب إلى قصر بابليون . (المعرّب).

حاكم بيت المقدس[1] ، وكان قد هرب إلى مصر كما رأينا قبيل تسليم المدينة لعمر بن الخطاب . وقد عزم أريطيون قائد جيش الروم على أن يناجز العرب ، فلم يشعروا في اليوم الثاني بعد المفاوضة إلا وقد بيتهم بياتاً شديداً . ولكن الدائرة دارت عليه فهزم وتمزق جيشه[2] . غير أن العرب لبثوا عند بلبيس مدة شهر جدت في أثنائه قتال كثير وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل ، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير[3] .

وصار عمرو بعد ذلك على مسيرة يوم من مفترق فرعي النيل ، فمر بمدينة (هليوبولس) سائراً على جانب الصحراء ، ثم هبط إلى قرية على النيل اسمها (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن (بابليون) ، وموقعها اليوم في قلب (القاهرة)[4] . ولكن جيش الروم كان عند ذلك قد تنبه إلى الخطر ، وما كان

---

(١) انظر ما سبق في صفحة ٢٢٧ وظاهر في الاسم تحوير (أريطيون) إلى (أرطبون). وقد ذكر أبو المحاسن الاسم الصحيح .

(٢) ابن خلدون .

(٣) هذه الحقيقة هي كل ما يمكن تصديقه من القصة الطريفة قصة أرمنوسة ابنة المقوقس التي ذكرها الواقدي فإنه يذكر أنها كانت في طريقها إلى قيصرة لِتُزَفّ إلى قسطنطين بن هرقل، فلما علمت أن قيصرية قد حاصرها العرب عادت إلى مصر بما كان معها من الخدم والمال، فما وصلت إلى بلبيس حتى جاءتها جيوش عمرو وحاصرتها وقيل إن عمراً أكرمها وأعادها إلى أبيها بما كان معها من الجواهر. ولا حاجة بي إلى إضاعة الوقت في تفنيد سائر ما جاء في هذه القصة فإن مجرّد العلم بأن المقوقس كان بطريق الإسكندرية كاف لدحضها. وقد جاءت القصة في كاترمير (Mem. Hist. et Geog.) (الجزء الأول صفحة ٥٣). وقد بنى عليها القس المحترم (ش. هـ. بوتشر) روايته التاريخية «أرمنوسة المصرية». ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أبا صالح قال إن «أرمنوسة» هي الاسم المصري القديم لمدينة أرمنت (صفحة ٢٧٩). وقد ذكر ابن عبد الحكم بغير دقة أنها امرأة المقوقس وذكر كرماً كان لها أغرقته فصارت منه بحيرة مريوط وإنه لمما يؤسف له أن هذه القصص التي يمليها خيال ألف ليلة وليلة مما يجب علينا إبعاده عن التاريخ .

(٤) نظن أنه ليس من شك في أن هذا الموضع الذي يسميه العرب (أم دنين) هو الذي يسميه (حنا النقيوسي) (تنونديس) فإنه إذا أزيل الحرف الأول منها وهو دليل على المؤنث في =

ليرضى أن تقع تلك القرية في يد الغزاة وهي موضع حصين يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة ، وفي ذلك ما فيه من القيمة في الحرب . وكان أمير الجيوش الرومانية في مصر واسمه (تيودور) رجلاً نكولاً عاجزاً في الحرب ، ولم يتبين له إلا عند ذلك أن تلك الحرب لم تكن غارة من غارات البدو بل كانت حرباً مخطرة . ولعل (قيرس) المقوقس حاكم مصر وبطريق الإسكندرية الإمبراطوري أسرع عند ذلك مع (تيودور) إلى حصن بابليون وجمعا فيه جنداً ليعبئا فيه جيشاً لحرب العرب . وكانت في أم دنين مسلحة قوية ، ولهذا كان في استطاعة الجيش الرومي الأكبر الذي في الحصن أن يهبط في أي وقت شاء إلى العرب ثم يعود إذا شاء إلى حصنه آمناً وراء أسواره العظيمة . ومضت على ذلك أسابيع عدة في مناوشة وقتال خفيف ، لم يؤذ الروم أذى كبيراً ولكنه قلل من عدة المسلمين بمن كان يقتل منهم ، ولا سيما وقد أجهضهم القتال من قبل حتى صاروا في قلة لا تستطيع إتمام ما جاءت له من الفتح .

والحق أن عمراً كان عند ذلك في حرج مخطر . وكان قد أرسل يتجسس البلاد وعرف أنه لن يستطيع أن يفتح حصن (بابليون) أو أن يحاصره بمن بقي

= اللغة القبطية صار التشابه بين الاسمين عظيماً. وقد أخطأ زوتنبرج (صفحة ٥٥٧ هامش ٢) بأن جعل (تنونديس) إلى جنوب حصن بابليون فإن سياق الخبر يجعل ذلك غير محتمل. ولكن قد جاء في ياقوت والمقريزي صراحة أن (أم دنين) هي المقس على الضفة الغربية للخليج (خليج تراجان) وعلى نهر النيل، ويقول المقريزي إنها كانت ميناء مصر في وقت الفتح. ومن المعلوم أن المقس كان في الموضع الذي فيه اليوم حديقة الأزبكية وقد كان النيل عند ذلك يجري بجوار حصن بابليون ودير (أبي سيفين) فكان مجراه إلى شرق المجرى الحالي بكثير وكان بعد مروره بالكبش يتجه شمالاً إلى ذلك الموضع (المقس). وعلى ذلك فقد كان الحصن الروماني (تنونديس) هناك قرب الأزبكية ومعه ميناء مصر ومراسيها، وكان هناك ميدان القتال الذي حدث. ولعل اسم (تنونديس) مشتق كما ذكر المسيو (كزانوفا) من اللفظ القبطي ⲧⲁⲛⲧⲱⲛⲓⲁⲥ، وقد كان الاسم العربي صدى لذلك الاسم الذي لم يفهم معناه. وليس من العجيب أن يكون النيل قد غير مجراه هكذا في مدة اثني عشر قرناً. وإن ابن دقماق لا يترك في ذلك الأمر شكاً (انظر كذلك كتاب Cairo للأستاذ (لين بول) خريطة في صفحة ٢٥٦) .

معه من الناس ، بل رأى أنه لن يستطيع فتح مدينة مصر ، وكانت متصلة بالحصن تكاد تحيط بجوانبه . وكان المسلمون قد جاءوا إلى مصر راغبين في القتال واثقين في شجاعتهم وحسن بلائهم في الحروب ، غير أنه لم يلقوا فوزاً متصلاً في جميع المواقف الأخيرة كما كانوا يتوقعون . وكان عمر بن الخطاب قد وعدهم بالأمداد فأرسل عمرو إليه يستحثه على إرسالها ، ولكنها أبطأت عنه ، وكان كل يوم من أيام إبطائها غنماً لأعدائه ، حتى أصبحت كفتا الحرب مترددتين ، وخيل إلى الناس أن النصر في إحداهما لا يدري أحد أيتهما ترجح[1] . ولكن ذلك الخطر ما كان ليرد القائد العربي عن قصده ، فلم تكن من شيمته أن ييأس أو يفرَّ ، فلما رأى أنه لن يستطيع فتح حصن بابليون بمن معه وهو ما كان يرمي إليه ، عزم على أن يسير إلى وجه آخر كان فيه من الجرأة . ولم يكن ذلك سوى إقليم الفيوم ، وهو إقليم خصب على نحو خمسين ميلاً إلى الجنوب في الجانب الغربي للنيل ، وهو العدوة القصوى ، ولم يكن له على ذلك بد من أخذ (أم دنين) ، ولو لوقت ما . فعوّل على أن يفعل ذلك مهما لقي في سبيله . ولسنا نعلم كيف أخذ ذلك الموضع ، ولكنا نعلم أنه كلف من معه من الناس مشقة كبرى . نعلم ذلك من قصة تروى عن ذلك العصر[2] ، إذ قيل إن عمراً رأى جماعة يخيمون في القتال ، فجعل يذمرهم ويحثهم ، فقال

---

(١) ويقر كتاب العرب بذلك فيقول المقريزي «إنه قد كان قتال شديد عند (أم دنين) وإن الفتح أبطأ على المسلمين». وجاء في كتاب أبي المحاسن قول أشد من هذا «كان قتال شديد ولم يدر الناس لمن تكون الغلبة». (المؤلف).

(١-) راجعنا كتاب أبي المحاسن فلم نجد إلا اللفظ نفسه «فأبطأ عليهم الفتح» ولعل المؤلف اطلع على ترجمة فيها تصرف. (المعرّب).

(٢) لم نعثر على مصدر يعزو هذه القصة إلى وقعة أم دنين، ولم يذكر المؤلف مصدره الذي أخذ عنه هذا وكل ما عثرنا عليه يدل على أنها وقعت في قتال العرب مع الروم وكان المقوقس حاصراً فيه. فأغلب الظن أن ذلك كان أثناء حصار بابليون. وبعض المؤرخين يذكر صراحة أن تلك القصة وقعت أثناء الحرب في عين شمس ومن هؤلاء ابن الأثير. (المعرّب).

له رجل منهم : « إنا لم نكن (حجارة)[1] أو حديداً » فقال له عمرو : « أسكت فما أنت إلا كلب » فقال الرجل : « إذن فأنت أمير الكلاب » فكان جوابه هـذا باعثاً على ضحك من حوله وأعرض عنه عمرو فلم يجازه على ذلك .

ولكن مهما كان من أمر القتال وشدته فقد أتم العرب ما قصدوا إليه وأخذوا (أم دنين) ، فملكوا بذلك منزلاً على النيل جعلوا فيه مسلحة منهم ، واستطاع عمرو أن يأخذ من السفن ما يكفي بقية جنده لاجتياز النهر[2] .

---

(١) هذه زيادة عن النص الإنجليزي زدناها إذ هي تتفق مع الاصطلاح العربي وقد جاءت في كتاب «النجوم الزاهرة». (المعرّب).

(٢) نجد أن ديوان (حنا النقيوسي) عمدتنا الأعظم يبدأ هنا بوصف حركات العرب مع أنه لا يذكر شيئاً قبل ذلك عن أول غزو العرب. ومما يؤسف له أن ذلك الجزء الذي أغفله يقع فيه تاريخ حكم هرقل كله من أول توليته إلى هذه النقطة. وإنه لمن أعـظم الخسائـر أن تضيـع كل الصحائف التي فيها وصف حروب الفرس والاحتلال الفـارسي لمصر وسني الاضطهاد الأعظم العشر وإن ما بقي بعد ذلـك مختلط مشوه التـرتيب. ومن المؤكد أن بعض فصول الكتاب أقحمت في غير مكانها وأن بعض الجمل قد نقلت من موضعها في بعض الفصول وأن التكرار والحذف في بعض المواضع يزيـد الحيرة والارتبـاك. ولكن يظهر أنه لا شك في أن غزوة الفيوم حدثت في الوقت الذي وصفناه وعلى الصورة التي أوردناها وليس ذلك موجوداً في أي كتاب عربـي. حقاً إن السيـوطي ذكر نقـلاً عن ابن عبد الحكم على ما يظهر أن عمراً بعد فتح مصر أرسـل جرائـد الخيل إلى القـرى التي حولها، ولكن الفيوم بقيت سنة لا يعلم المسلمون عنها شيئـاً (حسن المحاضـرة صفحة ٨٥) وهذا نقض لما جاء في كتاب حنا، ولكننا لا نتردد في أن نأخذ عن الكاتب المصري الذي كتب في القرن السابع. وأما البلاذري (وقـد كتب في القرن التـاسع أي بعـد حنا بمائة وخمسين سنة) فإنه يجعل فتح هليو بولس وفتح الفيـوم والأشمونين والصعيـد كلها بعد سقوط حصن بابليون (فتوح البلدان صفحة ٢١٧) ولكن الخطأ واضح فيمـا يخص هليوبولس، ويمكن أن نقيس عليه خطأ مثله فيما يتعلق بسواها. وقد ذكر كاتـرمير خبـر المقريزي الذي رواه عن ابن عبد الحكم عن فتح الفيوم (Mem. Hist. et Geog.) الجزء الأول صفحة ٤٠٧ وما بعدها.

الفصل السادس عشر

وقعة هليوبولس

غزوة عمرو في إقليم الفيوم ـ موقع الروم ـ فتح البهنسا ـ مقتل حنا قائد المسلحة ـ سير الروم من (نقيوس إلى (بابليون) ـ يلقى عمرو وبعض الإخفاق في غزوته ثم يعود ـ وصول أمداد المسلمين ـ إجتماع جنود العرب عند هليوبولس ـ سير جيوش الروم من (بابليون) للمناجزة ـ خطة عمرو ـ هزيمة الروم ـ عودة العرب لأخذ (أم دنين) وفتح الفيوم ـ معاملة قواد الروم .

سار عمرو بمن معه إلى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين ، وكان سيرهم بجوار المزارع حتى بلغوا (ممفيس) . وكانت تلك المدينة القديمة قد اضمحل أمرها منذ بناء الإسكندرية ، ولم يبق منها اليوم باق ، على أنها كانت في وقت غزوة العرب لا تزال أطلالها ماثلة في الموضع الذي كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة ، وكانت فيها مساكن عدة لا تزال آهلة . وكانت في الجانب الآخر من النيل مدينة نما أمرها وزاد سكانها حتى لقد كان يطلق عليها اسم ممفيس[1] أحياناً ، وتلك هي مدينة مصر ، وكان أكثرها إلى جنوب حصن

---

(١) قد ورد ذكر آثار ممفيس في كتاب ابن الفقيه (القرن العاشر) إذ سمع من أحد الشيوخ المعمرين عن قصر عظيم من كتلة واحدة من الصخر، وقد علق على ذلك تعليقاً غريباً إذ قال: «وممفيس مدينة فرعون لها سبعون باباً وأسوارها من الحديد والنحاس» (Bibl. Geog. Arab) (الجزء السادس صفحة ٥٨ و٧٣) وقال اليعقوبي (وهو قبله بقليل) إن «مدينة ممفيس متهدّمة» وقد كانت المدينة التي حول قصر الشمع محلة مصرية قديمة فقد وجدت بها آثار فرعونية وكان عند الباب الجنوبي للحصن تمثال مصري معروف ووجدت =

بابليون . ولعل العرب رأوا عند ذلك لأول مرة وهم في الجانب الغربي للنيل مدينة مصر واضحة تشرف عليها صروح حصن بابليون سامقة فوق ماء النهر من وراء جزيرة الروضة . وإن نفساً كنفس عمرو لا بد أن تكون قد ثارت بها سورة الشجون إذ يرى عن يمينه الأهرام ، وعن يساره نهر النيل وحصن بابليون ، وحوله أطلال ممفيس . وأما من كان معه من الناس فأكبر الظن أنهم ما كانوا إلا غزاة البادية يسيرون بين آجام النخيل لا يعبأون إلا قليلاً بما حولهم من آثار الحضارة الغابرة ، ولا يلتفون إلى ما دونهم من بناء الروم أو البيزنطيين .

وأما سيرهم فليس لدينا علم بيِّن بوصفه . وكان حاكم مدينة بيوم (الفيوم) اسمه (دومنتيانوس) . وأما حاكم الإقليم فاسمه (تيودوسيوس) ، وكان عند ذلك مع حاكم الإسكندرية (أنستاسيوس) في بعض بلاد مصر السفلى بقرب (نقيوس) ، ووكل أمر الدفاع عن الإقليم إلى (حنا)[1] قائد كتيبة (الخفر) ، وهي كتيبة من أهل البلاد . وكان تحت إمرته رجل آخر اسمه (حنا الماروسي) . وقد وضع الجنود عند ثغور الفيوم التي يدخل إلى الإقليم

= حجارة في أسوار الحصن عليها نقوش هيروغليفية وكان اسم المدينة «مصر» ولكن الظاهر أن «مصر» و «منف» كانا يستعملان مترادفين في بعض الأحوال فقد قال عبد اللطيف: «وتوجد الآثار التي بمصر القديمة وهذه المدينة بجوار الجيزة التي وراء الفسطاط وكانت مسكن الفراعنة ومقر ملوكهم» (ed. G. White) (صفحة ١١٧) ولفظ مصر له معنى في إطلاقه فمثلاً «المصران» استعملها ابن خلكان يقصد الكوفة والبصرة بمعنى (المدينتين) (انظر طبعة de Slane) (الجزء الرابع صفحة ٢٠٤) ولكنه في مصر كان عادة يطلق على المدينة التي على الجانب الشرقي للنيل في جوار حصن بابليون.

(١) جاء في (زوتنبرج) (صفحة ٥٥٤ هامش ١) أن حنا هذا هو حنا حاكم برقة أو برقينة الذي جاء ذكره في (نيقفوروس) ولقد بينا أن أخبار غزوة العرب في كتاب نيقفوروس ليست جديرة بالاعتماد (صفحة ١٨٤) ومع ذلك فقد كان حنا هذا رجلاً كبير الشأن ولدينا ما يحملنا على الظن أنه كان مرسلاً من قبل هرقل ولقد كان هو بعينه «قائد الرديف» الذي أتى بنص المذهب الجديد موفداً من (سرجيوس) إلى (قيرس) وهو الذي حمل مع هذا النص الصليب الذي جاء ذكره في (حنا النقيوسي) انظر ما سبق في صفحة ٢٤٨ وهامشها.

منها ، وحرست حراسة حسنة ، وأقام الروم ربيئة لهم في حجر اللاهون[1] ليرصد العدو ويعرف أخباره ومسيره ، ويحمل أنباء ذلك إلى (حنا) وكان مقيماً قرب شاطىء النهر . ثم أرسلت سرية من الفرسان والرماة إلى العرب لتحول بينهم وبين السير ، ويلوح لنا أن جنود العرب لم يقووا على أن يخلصوا ممن لاقاهم من الروم ، فعدلوا إلى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون ما لاقوا من النعم ، فأخذوا منها عدداً عظيماً ، وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة اسمها البهنسا ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال[2] . ثم سمع عمرو بأن (حنا) كان يسير وراءه في قلة خمسين من فرسانه يرقبون سيره ، فبعد به عمن وراءه من جنده ثم كر عليه مباغتاً . فلما رأى (حنا) ذلك وأن الخطر محدق به أراد أن يعود سريعاً إلى عسكره في (أبويط)[3] ، وهي واقعة على

---

(١) إذا أردت معرفة أخبار هذا الموضع فارجع إلى كتاب الدكاترة «Hunt and Grenfell» وهو «Fayoum Towns and their Papyri» (صفحة ١٣ شكل ١٨) واللاهون على بحر يوسف على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم وكانت عند مدخل الوادي الذي بين الجبال المحيطة بكورة (أرسنويه) وكانت موضعاً ذا شأن في الأمور الحربية للدفاع عن الإقليم (انظر المسعودي صفحة ٣٨٥ ـ ٦).

(٢) لم يكن من مذهب العرب ولا مما يوصيهم به الدين والخلفاء أن يقتلوا طفلاً أو امرأة ـ ولعل ذلك خطأ من (حنا النقيوسي) دفعه إليه كرهه لأعداء بلاده ودينه، ولو حدث شيء من ذلك لما تردد مؤرخو العرب في وصفه فإنهم لا يدعون شيئاً إلا وصفوه حتى ولو كان شديداً عليهم. (المعرّب).

(حنا النقيوسي صفحة ٥٥٥) ويجب أن نصدق خبر المذبحة ولم تكن بمخالفة لقانون الحرب في تلك الأيام وستجد أمثلة غيرها من نوعها. والبهنسا المقصودة هنا هي في كورة الفيوم بالطبع وليست البهنسا المعروفة التي في موضع المدينة القديمة Oxyrhynchus فقد كانت تلك على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من بعد بهنسا الفيوم (انظر أميلنو « Geog. Copte » صفحة ٣ . (المؤلّف) .

(٣) موضع (أبويط) غير معروف فيقول (زوتنبرج) إنها هي المدينة المعروفة بذلك الاسم في إقليم (Lycopolis) (أسيوط) ولكن هذا محال إذ أن هذا المكان في جنوب البهنسا وقد بيّن أميلنو في كتاب (Geog. Copte) (صفحة ٣) أن هناك موضعين باسم (أبويط) والمدينة المقصودة هنا لا بد أن تكون في مديرية بني سويف في الوقت الحالي وهي قريبة من (بوصير كوريدوس) في الشرق من حجر اللاهون.

النيـل على مسافـة قليلة من موضعـه ، فكان يسيـر بجنوده في الليـل ويكمنون بالنهار في النخيل والآجام . ولكن عمراً علم بمكمنه إذ دلـه عليه أحـد شيوخ البدو[1] ، فحاصره ومن معه وقتلهم فلم يدع منهم أحداً . فقتل في ذلك (حنا) قائد الكتيبة ووكيله لأن العرب لم يتخذوا منهم أسرى .

فلما بلغ القائد (تيودور) نبأ هذه النكبة بكى وأعول ، ثم هب بعد ضياع الـوقت فحشـد من دونـه من الجنـود وبعث بهم صعـداً في النهـر إلى جـزيـرة (الكيون) ، ثم أسرع (أنستاسيوس) و (تيودوسيوس) بالعودة من (نقيوس) إلى حصن (بابليون) ليساعدوا من به ، وأرسلوا من الحصن سرية جعلوا عليها قائداً اسمه (ليونتيوس) إمداداً للعسكر في (أبويط) . فلما بلغ (ليونتيـوس) مضـرب العسكـر في (أبـويط) وجـد المصـريين حيـال العـــرب ، ووجـد أن (تيودور) قد لاذ بجنوده في مدينة الفيوم ، يخرج منها بين حين وحين فيهـوى إلى العرب في البهنسة يقاتلهم . وكان (ليونتيوس) رجلاً سميناً خاملاً لا علم لـه بالحـرب ، فخيل إليـه أن العرب لن يلبثـوا أن يهزمـوا ويخرجـوا من ذلـك الإقليم ، ولهذا خلف نصف جنده مع (تيودور) وعاد بالنصف الآخر إلى حصن (بابليون) ليروي لأولي الأمر فيه ما شهده .

ولا شك أن العرب لم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم ، وأنهم عادوا أدراجهم إلى الشمـال منحدرين مـع النهر ، وكـان (تيودور) قـد أمر بـالبحث عن جثة (حنا) وكانت قـد ألقيت في النهر ، فـانتشلها النـاس في شبكة ، ثم حنـطت ووضعت على سرير وحملت في النيل إلى حصن (بابليـون) تحيط بها آيـات الحزن ، ومن ثم بعثوا بها إلى هرقل[2] . وقد حزن الإمبراطور لهزيمة (حنا)

---

(١) جاء في ترجمة زوتنبرج «رئيس الشيعـة» ولكن الدكتـور شارل يتـرجمها «رئيس عصـابة اللصوص» ولا شك أن المقصود بذلك أهل الصحراء المغيرين.

(٢) وهذا الحادث يدل على أن حنا كان موفداً من قبل الامبراطور نفسه لغرض معين وكـان (تيودور) بغير شك يعتمد على مقدرة حنا في الحرب ولذلك اهتم اهتماماً عظيماً لموته. وقد بينا فيما سبق (صفحة ٢١٥ هامش ١) البراهين المباشرة على أن حنا كان هو الذي جاء يحمل نص المذهب الجديد وأرسل معه الامبراطور صليباً له قداسة عظمى.

وقتله حزناً شديداً وبعث إلى القائد (تيودور) يظهر له موجدته وغضبه عليه ، فعرف ذلك القائد أن الإمبراطور لم يغضب عليه إلا أن وشي به (تيودوسيوس) و (أنستاسيوس) ، وأبلغا الإمبراطور عنه أنه السبب في قتل (حنا) ، ومن ثم وقعت في نفسه عداوة شديدة لهذين الرجلين .

ولكن العرب لم يعودوا من الفيوم منذ أحسوا بالفشل وحده . فلعمري لقد يكون ابن العاص أتم في غزوته تلك أكثر مما كان يطمع فيه . فقد أخرج جيشه من مأزق وقع فيه عند (أم دنين) ، وانتقل به إلى موضع أكثر أمناً ، ولقي في غزوته فوزاً كثيراً ونصراً في مواطن عدة ، وإن لم يحرز انتصاراً عظيماً ، وشغل جنده مدة فقطع عليهم مدة الانتظار إذ جاءته الأمداد بعد ذلك بعد أن طال إبطاؤها عليه ، فلما بلغه نبأ مجيئها عاد أدراجه بالمسلمين ليلقوها . أما (تيودور) فإنه جاء كذلك إلى الشمال مع جنوده إلى حصن (بابليون) ، وقد اجتمع به الجند من كل جهات مصر فأصبح فيه جيش عظيم .

وكان أول مسير عمرو إلى الفيوم نحو أول شهر مايو ، وقضى في غزوته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعاً بل خسروا فيها خسارة كبرى ، وغنم العرب فيها غنماً عظيماً . ولعل قدوم أمداد المسلمين التي بعث بها عمر بن الخطاب كان في السادس من شهر يونيه[1] ، والتقى الجميع قريباً من هليوبولس ، وكان الأمير على المدد الزبير بن العوام ابن عمة النبي وصاحبه وأحد رجال الشورى الستة ، وكان معه أربعة آلاف رجل . ثم جاء في عقبه كتيبتان كل منهما من أربعة آلاف رجل ، فكان جميع من جاء من الأمداد إثني عشر ألفاً[2] . وقد علم

---

(١) قد بيّنا في مقالنا «تاريخ فتح العرب» أن الرواية القبطية تجعل هذا التاريخ يقع في وقت غزو العرب لمصر وعلى ذلك لا يمكن أن يتفق مع مجيء عمرو الأول إلى مصر ويمكن أن يكون هذا تاريخ مجيء جيش الامداد.

(٢) اختلف الرواة في عدد الأمداد فقال ابن عبد الحكم إنها كانت ٤٠٠٠ ، وقال البلاذري إنها ١٠,٠٠٠ أو ١٢,٠٠٠ ، وقال ياقوت ١٢,٠٠٠ وأورد المقريزي نقلاً عن الكندي خبراً رواه يزيد أن جيش عمرو كان ١٥,٥٠٠ وتفصيل ذلك أن جيشه الأول كان ٣,٥٠٠ ثم زاد ١٢,٠٠٠ ، وقال السيوطي على اليقين إن الامداد جاء إرسالاً إلى أن بلغ =

الـروم أن النيـل يعلو في مجـراه العميق في وسط الصيف ، ولهـذا أرادوا أن يناجزوا المسلمين بمن اجتمع منهم قبل أن يفيض النهر ، ولكنهم عجزوا كـل العجز عن أن يحولوا دون إجتماع جيوش المسلمين المتفرقة ، مع أنهم كـانوا يملكون حصن بابليون ، وكان نهر النيل في يـدهم ، وعادوا إلى مسلحـة (أم دنين) فملكوها . فلو كان عندهم علم بالحرب وحزم في الرأي لاستطاعوا أن يمنعوا عمراً من العبور إلى الجانب الشرقي ، فكانوا يجعلونه بذلك في معـزل عمن جاء يمده ، ولعلهم كانوا يستطيعون بذلك القضاء عليه .

ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع كل ما كـان لديهم من ميـزة عليه ، واستـطاع عمرو أن يعبر النهر إما عنوة وإما على غرة منهم . وأغلب الظن أنه عبر النهر في موضع أسفل من موضع (أم دنين) إلى الشمال منهـا ، لأن ترعـة (تراجـان) كانت عند ذلك مطمومة منذ أهمل أمر حفرهـا وكريهـا ، ولم تكن لتعوق سيـر العرب حتى في وقت فيض النيل . وكـان عمرو قـد علم بأن أمـداد المسلمين سائرة في طائفتين ميممة شـطر (عين شمس) وهي (هليوبـولس) ، وعلم أن مقامه في الجانب الغربي مخطر[1] . والحق أنه فزع خوفاً من أن يفطن الـروم

= ١٢,٠٠٠ وهذا ما رآه المقريزي. وقال إن كتيبة منها كانت مع الزبير وعددهـا ٤,٠٠٠ وهذا يفسر السبب الذي جعل مؤرخي العرب يقولون إن الامداد كلهـا كانت ٤,٠٠٠، ومن العجيب أن (حنا النقيوسي) يقول إنها كانت ٤,٠٠٠ ويزيد على ذلك أن قائدها كان اسمه (والواريا) وكان أسود وهو من الهمـج ولا نستطيـع أن نعرف الاسم المقصود على أنه قد كان منهم قائد أسود وهو عبادة في إحدى الكتائب. وقال زوتنبرج إن (والواريا) هذا تحـريف ظاهـر، وقال يـاقوت إن كـلاً من عبـادة بن الصـامت، والمقـداد بن الأسـود، ومسلمة بن مخلد كان على ألف رجل وإن الزبيـر مثلهم وإنه لا يـوجد نـوع من الخلط إلا وقع فيما كتبه العرب وعلى ذلك فليس عجيباً أن نرى المقريزي يؤجل وصول الأمداد وهي ١٢,٠٠٠ مع الزبير ـ إلى الوقت الذي كان العرب يحاصرون فيه حصن بابليون.

(١) قد وقع نقل وتشويه في عبارة الفصـل الثاني والستين من كتـاب حنا فجعله غيـر ممكن الفهم (صفحة ٥٥٦). وقد جاءت فيه عبارة تشير إلى السير لفتـح الفيوم وهي: «فتركوا المدن الحصينة واتجهوا إلى موضع اسمه «تنونديس وساروا في النهر»، ثم جاءت بعدها عبارة تشير إلى فتـح مصر. والجملة التي بعد ذلك تشير إلى الرجوع من الفيوم. وإنا في =

إلى الأمـر فيحولـوا بينه وبين الإتصـال بالمـدد الذي جـاء بـه الـزبيـر ، ولكن (تيودور) ضيع الفرصة على عادته ، فلم يضرب الضربـة القاضيـة ، واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين في هليوبـولس وقد إمتـلأت قلوب أصحابه عزة وبشراً بما وفقوا إليه من الفوز في غزوتهم .

كانت هليوبولس في الأزمنة القديمة إحـدى مدن مصـر الكبرى واسمهـا (أون)[١] . ويتردد ذلك الاسم في قصص موسى ، وكان لا يزال باقيـاً يطلقـه القبط عليها في القرن السابع ، ويفيد ذلك الاسم معنى (مدينة الشمس) . ولا شك أن اليونان أخذوا ذلك المعنى فجعلوا اسمها عندهم (هليوبولس) . وقد احتفظ العـرب كذلك بذلك المعنى فجعلوا اسم الموضع (عين شمس)[٢] . وكانت هذه المدينة معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة للدين . ولما زارها (سترابو) قبل ذلـك الوقت بستـة قرون كـان الناس هناك يدلونه على المواضع التي كان أفلاطون يتلقى فيها العلم من قبل . على أن الزمن عند ذلك كان قد غير المدينة وجرَّت صروفه وحروبـه وحصاراتـه ذيل العفاء على أكثر معابدها وتماثيلها . فلما أتى العرب لم يكن باقيـاً من مجدهـا القديم إلا قليل من أسوار مهدمة ، وتماثيل (لأبي الهول) قد دفن نصفها تحت الثرى ، وعمود واحد مما يعرف (بالمسلة) ولا يزال باقياً إلى اليوم ذكـرى من ذلك العالم الغابر .

وكانت المدينة على نهد من الأرض، يحيط بها قديماً سور غليظ لا يزال أثر منه بـاقياً إلى اليـوم[٣] . ولم يكن لها خـطر في الحرب في ذلـك الوقت ،

= أشد الحاجة إلى ترتيب لجمل النص على يد ناقد بصير. ولكن على كل حال يمكن أن ندرك مما جاء في هذا الوصف أن عمراً كان يحس قلقاً من الحال التي كان فيها.

(١) كتب شامبوليون الأصغر تعليقاً على هذا الموضوع :

(14. 63. PP ii t. Les Pharoans sous L'Eg.)

(٢) الظاهر أنه قد غلب الاسم الجديد (المطرية) على الاسم القديم (عين شمس) والموضع معروف للسياح من أجل شجرة العذراء والعين التي استراحت الأسرة المقدسة بجوارها.

(٣) جرت العادة أن يقال إن هليوبولس هي (أون) ولكن الخريـطة الحديثـة الحربيـة تجعل =

ولكنها كانت تستطيع المدافعة ، وكـان فيها مـاء كثير، وتصلح لإمداد الجيش بالمؤونة ، ولهذا إتخذها عمرو مقراً وجعل يتجهـز منها لمـا هو مقبـل عليه من القتال . وقد وصفنا فيما سلف من قولنا مقدم (تيودور) إلى حصن بابليون وأنه جعل يحشد فيه الجنود من بلدان مصر السفلى ، ولكن لعله ما أتم حشد الجيش الـذي كان يستـطيع بـه قتال العـرب والخروج بـه إلى عين شمس حتى كانت الأمداد التي بعث بها عمر بن الخطاب قد بلغت عمرو بن العاص ، فأصبح بها أميراً على جيش عدته خمسة عشر ألفاً ، من بينهم طائفة من أكبر فرسان الإسلام وشجعـانـه[1] . ولسنـا نعـرف عـدد الجيش الـذي حشـده الـروم إلا بـالـظن والحدس . وقد عرفوا حق المعرفة ما كان عليه عدوهم من الشجاعة ، فقد سمع قبطي مرة وهو يقول : ما أعجب أمر هؤلاء العرب ، فإنهم أتوا إلى مصر في قلة من الناس يريدون لقاء الروم في كتائبهم العظيمة ! فأجابه آخر من القبط : إن

= (أون) في موضع تل اليهودية وهليوبولس في موضع تل الحسن. وآثار تل اليهودية على نهد من الأرض يحيط بها سور ساذج من اللبن، في حين أنه لا يزال في تل الحسن سور قوي علوه عشرون قدماً، ولا بد أن عمراً قد ضرب عسكره في الموضع الأخير فـإن تل اليهود على إثني عشر ميلاً إلى الشمال بعد ذلك. وقد علا كل سطح ذلك السهل بضعة أقدام منذ القرن السابع ويدل على ذلك العمق الذي توجد فيه المسلة اليوم والعمق الذي توجد فيه الآثار الأخرى تحت مستوى سطح السهل.

(١) ذكر ابن عبد الحكم كما جاء في كتاب أبـي المحاسن الأسمـاء الآتية للصحـابة الـذين شهدوا فتح مصر وهـم (من المهاجرين): عمرو وابنه عبد الله والـزبير وعبـد الله بن عمر وسعد بن أبـي وقاص (وهـذا مختلف فيه) وخـارجة بن حـذافة وقيس بن أبـي العـاصي السهمي والمقداد بن الأسود وعبد الله بن سعد بن أبـي سرح ونافـع بن عبد قيس الفهري وأبو رافع مولى رسول الله وابن عبدة وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ووردان مولى عمرو.

ومن الأنصار: عبادة بن الصـامت ومحمد بن مسلمـة وأبو أيـوب خالـد بن يزيـد وأبو الدرداء عويمر بن عامر ويسمى عويمر بن يزيد. وقد أتى نفس الكاتب بأسماء أخرى ممن شهد الفتـح ، ومن هم أقل من هؤلاء ذكراً بين العرب (انظر: النجوم الـزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) نشرة (Juynbollet Matthes (Lugd. Bat 1885-61 .

هؤلاء قوم لا يتوجهـون إلى أحد إلا ظهـروا عليه حتى يقتلوا عن آخـرهم[1] . وتروي قصة أخرى وهي أن الروم كانوا لا يقدمون على القتال ويقولون : ما لنا من حيلة في قـوم غلبوا كسرى وهزمـوا قيصر في بـلاد الشام . على أن هـذه القصص قـد جاءت عن طـريق العرب ، وإنـا نشـك كثيـراً في صحـة القصـة الأخيرة ، فإن الروم كانوا أكثر عدداً وإن جيوشهم التي كانت على قدم القتال لم تكن أقل من عشرين ألفاً ـ عدا من كان في الحصون .

كانت خطة عمرو أن يجعل الروم يخرجون إليه فيقاتلونه في السهل وهم بعيدون عن حصن بابليون ، فلما أحس (تيودور) من نفسه القوة جعل ينـاجز العرب ، وسار إليهم بجيوشه نحو (هليوبولس) ، وكانت على مسافة ستة أميال أو سبعـة من عسكـر العـرب . وكـان عـلى الخيـل (تيـودوسيـوس) و (أنستـاسيوس) ، ولكن أكثـر الجمع كـانـوا رجـالـة بعضهم رمـاة وبعضهم يحملون الرماح . وكانت ربيئة العرب قد أسـرعت فحملت إلى عمرو مـا عزم عليه الروم ، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعها ويعبئهم للقتال . فسـار هو من هليوبولس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم، ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين : إحداهما إلى (أم دنين) ، والأخـرى وعليها خـارجة بن حـذافة إلى مكان واقع إلى الشرق ، ولعله كان في ثنية الجبل[2] بقرب الموضع الذي فيـه اليوم قلعة القاهرة . فكان سير الروم على ذلك بين هذين الكمينين من العرب ، وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته إذا ما سنحت لهما الفرصة[1] .

---

(١) أبو المحاسن صفحة ٨ .

(٢) ولعل هذه هي الحادثة التي ذكرها المقريزي في غير موضعها حيث يقول إن عمراً أرسل ٥٠٠ فارس بقيادة (خارجة بن حذافة) وأمرهم أن يكمنوا فيهبطوا على العدو إذا خرج من بين الأديرة . قال: «فساروا بالليل ودخلوا مغار بني وائل قبل الصباح» فلما بدأت الوقعة بعد الفجر نزلوا على مؤخرة الروم بغتة وأكملوا ما بدأ من اضطرابهم واختلال أمرهم .

(٣) يقول (زوتنبرج) إنه لا يستطيع فهم الموقعة نظراً للمسافات التي بين هذه المواضع وقد =

وخرج الروم بين البسـاتين والأديرة التي كـانت إلى الشمال الشـرقي من الحصن وانتشروا في السهل[1] وكان ذلك في الصباح الباكر ولم يكن عندهم علم

= أخطأ بجعل تنوندس (أم دنين) إلى جنوب بابليون بدل أن يجعلها في شمالها. ولا شك أن (حنا النقيوسي) جعلها أبعد إلى الشمال الغربي ولهذا يقول إن المكان الآخر في شمال بابليون ولكنا فيما عدا الاعتراضات الأخرى لو وضعنا كمين عمرو في جنوب بابليون لجعلنا خطته في منتهى الجهالة في حين تكون كتيبة أخرى من جيشه في الشمال ومعظم جيشه في هليوبولس. وفوق ذلك كان حصن بابليون. ومعسكر الروم يسدان الطريق الذاهب إلى الجنوب. ولو قلنا إن عمراً ذهب إلى لقاء العدو ولم يبق في عسكره لانتظاره هناك لذهب الاعتراض ببعد المسافة. ولقد نسي (زوتنبرج) فوق هذا أن النيل كان يجري في موضع شرقي مجراه الحالي بكثير. فإذا نحن وضعنا كميناً عند (أم دنين) (الأزبكية) وآخر عند القلعة أو الجبل الأحمر صارت خطة الموقعة واضحة. ولنا كلمة أخرى فقد كانت هليوبولس قديماً تغطي مساحة أكبر مما يمكن تصوره اليوم وهذا واضح ليس فقط من الأطلال الباقية بل من شهادة ابن دقماق إذ يقول صراحة: «وكانت عين شمس في الزمن الماضي مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التي في موضع الفسطاط في الوقت الحاضر» (الجزء الخامس صفحة ٤٣) ومعنى هذا أنه لا بد قد كانت المسافة بين أرباض المدينتين قصيرة على أن أرباضهما كانت عبارة عن منازل وكنائس متفرقة.

(١) يظهر لمن يطلع على هذا الوصف الذي وصفنا به موقعة عين شمس أنها على اختلاف كبير مع ما جاء في الطبري (انظر زوتنبرج، الجزء الثالث، صفحة ٤٦٣) فقد جاء في الطبري: (١) إن الوقعة كانت بعد فتح حصن بابليون. (٢) إن المقوقس كان مع جيش القبط في عين شمس وقد أزمع السير إلى مصر. (٣) إن جيش عمرو سار إلى أبواب عين شمس. (٤) إن جيش القبط تشتت عند أول صدمة وخسر عدداً عظيماً بين قتيل وأسير. (٥) إن العرب غنموا غنيمة عظيمة وأرسلوا الأسرى إلى المدينة. وإنه ليكون من الإسراف أن نكذب خبراً مثل هذا الخبر المفصل، ولكنا فوق ما نشعر به من ضرورة الأخذ بما جاء في كتاب حنا الذي كان قريباً من ذلك العهد يظهر لنا أن الطبري قد أخطأ خطأً في وصف البلاد فإن وصفه للموقعة صحيح ولكنها لم تكن وقعة عين شمس. والدليل على هذا (١) ترتيب الحوادث فإن هذه الوقعة لا يمكن أن تكون بعد فتح مصر في حين أن مواقع أخرى يمكن أن تقع بعد ذلك وقد وقعت فعلاً بعد فتح مصر. (٢) الطبري نفسه يكشف عن خطئه بوصفه عين شمس بأنها كانت «مدينة عظيمة في بلاد القبط وأنها واقعة =

بمكيدة عمرو بـل رأوا أنه كـان يسير إليهم في جمعـة آتياً من هليـوبولس . ثم حدث اللقاء بعد ذلك ولعله كان في مكان وسط بين معسكـري الروم والعـرب عند الموضع الذي اسمه اليوم (العباسية) . وكانت كل من الطائفتين موقنة بأن ذلك اليوم سيكون يوم الفصل في أمر مصر ، فكانت كل تقاتل قتال المستميت . فلما حمى وطيس القتال وعض الناس على النواجذ أقبلت كتيبة خارجة تهـوي من مكمنها في الجبل ، كأنما هي عاصفة تجتاح مؤخرة الروم . فلما رأى الروم أنهم قد أخذوا بين جيشين من عدوّهم ، وقع الفشـل في صفوفهم ، واتجهـوا بعض الإتجاه إلى يسارهم نحو (أم دنين) ، فلقيهم الكمين الآخر فـظنوا أنـه

في الغرب» ومعنى هذا إما أن يكون أنها في غرب النيل أو في غرب مصر السفلى ، ولكن عين شمس لا يمكن أن توصف بأحد هذين الوصفين. وعلى ذلك فالظاهـر أن الوصف السابق إنما هو وصف بعض المواقع التي كانت فيما بين بابليون والإسكندرية وقد وقعت في الغرب وسيأتي ذكر هذا فيما يلي.

وقد كانت غلطة الطبري سبباً في خلط كثير من مؤرخي العـرب مثل ابن الأثيـر وابن خلدون (وقد كان الطبري غريباً عن مصر لا يعرف كثيـراً من وصف بلدانها) وهـذا مثل جديد من الأمثلة الدالة على ما يجده الإنسان من الخلط في وصف حوادث هذا العصر حتى في خير الكتب المعتمدة والدالة على ما يجب على المؤرخ الذي يعالج وصف هذا العصر من التمحيص والمقارنة. ولكنا نرى أن هناك سبباً بسيطاً في مثل هذا الخطأ الذي يقع فيه سوى هذا من المؤرخين العرب، فإنا إذا وجدنا أن ابن الأثير يذكر أن قواد العرب حاصروا عين شمس ويقول إن (الزبير) تسورها (وسترى أنه إنما تسور قصر الشمـع) نجد أنفسنا حيال خلط شبيه بما سبق ذكره، وسبب كل ذلك اسم (بابليون). فإن العـرب أو بعضهم فهموا ذلك الاسم على أنه باب ال (أون) أو (باب أون) و (أون) هي عين شمس (الاسم العربي لهليوبولس). ومن هنا نشأ الخلط بين المكانين فإن البلاذري يـذكر أن الفسطاط كانت عنـد الفتح اسمهـا (أيون). وقـال المؤرخون بعـد ذلك ان اسمهـا كان (اليون) وأخذوا ذلك اللفظ على أن معناه (أون) وهي (عين شمس) فبنى على هذا الخطأ أنه قد حوصرت عين شمس ونقلت الحوادث من بابليـون إليها. وفي رأينـا أنه لم يسبق أحد إلى هذا التفسير وأنه يفسر كثيراً من الصعاب التي نلقاهـا في تواريـخ العرب وقـد أسيء فهم اللفظ الروماني (بابليون) فصـار في صور متعـددة مثل (بـاب اليون) ومـدينة (ليون) و (قصر اليون) و (باب اللوق) و (لونيا) و (أيون).

جيش عربي ثالث . فانتثر نظامهم وحلت بهم الهزيمـة ، ففروا لا يلوون على شيء يطلبون النجاة من سيوف العرب وهي تلمع كأن وميضها وميض البـرق . فاستطاع الأقل منهم أن يبلغ الحصن براً فيلوذ به ، وكثير منهم ساقهم الفزع إلى النهـر فنـزلـوا في السفن وعـادوا إلى الحصن ، ولكن طـائفـة كبيـرة هلكت . واستولى العرب بعد إنتصارهم على (أم دنين) مرة أخرى ، وقد قتل في الوقعة كـل من كان بهـا من الجنود إلا ثلثمـائة . ولاذ كـل من نجا من الـروم بحصن (بابليون) وأغلقـوا عليهم الأبواب ، ولكنهم منـذ علموا بمـا أصاب إخـوانهم الروم من القتل حملهم الخـوف على أن يتركـوا الحصن فساروا في النهـر إلى (نقيوس) .

وليس في الأخبار ما يذكر عدد القتل من الجانبين ، ولكن من المعروف أن أميـر الجيش (تيودور) والحـاكمين (تيودوسيـوس) و (أنستـاسيـوس) لم يقتلوا . على أنـه قد بقي من الـروم فئة لا بـأس بها اجتمـع إليها من كـان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جميعاً مسلحـة قويـة تستطيـع الدفـاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة ، فقد أصبحت مدينة مصر في قبضة يـدهم بغيـر قتـال ، وكـانت من قبـل يحميهـا الجيش الـذي في الحصن[1] ، وأصبحـوا يملكون نـاصيـة شـاطىء النهـر من نـاحيتي الحصن من أعـلاه ومن أسلفه ، ونقلوا عسكرهم من هليوبولس فضربوه في شمال الحصن وشرقـه بين البساتين والكنائس ، وذلك هو الموضع الذي صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافياً لحصار (بابليون) لا يعوقه عائق من التضييق عليـه ، بعـد أن قضى على جيش الـروم فلم تبق منـه إلا الفلول التي لاذت بالحصن أو هامت على وجهها في بلاد مصر السفلى . ولما بلغت أنبـاء نصر العرب إلى الفيوم غادرهـا من بها من المسـالح ، فخـرج (دومنتيانـوس)

---

(١) عنوان الفصل الخامس والستين من ديوان حنا هو «كيف استولى المسلمون على مصر في السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية» ولكن لم يرد وصف للاستيلاء في ذلـك الفصل وهذا مثل من مائة مثل مما يدل على نقص الكتاب وتغيير مواضـع أخباره .

عندما علم بذلك من المدينة في الليل وسار إلى (أبويط) ، ثم نزل في النهر بجنوده وجدّ هارباً إلى (نقيوس) ، ولم يخبر أهل (أبويط) بما كان منه من ترك الفيوم لأعدائه لا دافع عنها أحد . ولما بلغ نبأ (دومنتيانوس) وهربه إلى عمرو بن العاص بعث كتيبة من جنده عبروا النهر ، وفتحوا مدينتي (الفيوم) و (أبويط) ، وأحدثوا في أهلها مقتلة عظيمة وأصبح ذلك الإقليم تحت الحكم الإسلامي منذ ذلك الحين .

ولما قضى عمرو بذلك على كل من وقف له من الفيوم ، وخلص له أمرها، أرسل جنوده إلى موضع اسمه (دلاص)[١]، رآه أصلح المواضع للنزول من النهر إلى ذلك الإقليم ، وأصبح العرب بذلك إلى حين سادة النهر ، وكان هذا أثراً عظيماً من آثار النصر . غير أن الروم كانوا لا يزالون يملكون جزيرة الروضة وهي جزيرة ذات حصون تتصل بحصن بابليون ، تسير بينهما السفن والقوارب ، وبقيت الأسفار على ذلك في النهر على عادتها يكاد لا يعوقها عائق ، لأن العرب لم يكونوا من أهل البحار ، إذ لم يحذفوا بعد تسيير السفن ، وكانوا في شغل بما هم فيه من القتال والفتح في الأرض . وعاد عمرو فأمر جرائد الخيل بالعودة إليه[٢] ، وكان أنفذهم يجوسون خلال البلاد بعد وقعة عين شمس. ثم أمر (أبا قيرس)[٣] حاكم دلاص أن يمدّ المسلمين الذين كانوا بالفيوم

---

(١) كانت (دلاص) على الضفة الغربية للنيل في جنوب (ممفيس) وهي إلى شرق مدينة الفيوم وهي بالقبطية (تيلوج) وباليونانية (نيلو بولس) (انظر كتاب أميلنو «Geog. Copte» صفحة ١٣٦).

(٢) جاء في السيوطي نقلاً عن ابن عبد الحكم «بعد إتمام فتح مصر (مدينة مصر) أرسل عمرو جرائد الخيل إلى القرى المجاورة «وجاء في ديوان حنا عند وصف الوقت عينه «فجمع جنوده ليرسلها في وجوه مختلفة» وهذا اتفاق واضح .

(٣) وهذا هو (أبا كيرى) (الذي جاء ذكره في ديوان حنا صفحة ٥٥٩) وقد حار (زوتنبرج) في ذلك الاسم فقال «وليس من المؤكد أن يكون هذا اللفظ علماً على شخص «ولكن كل شك قد زال عند كشف وثائق (قره باسك) «Papyrus Erzherzog Rainer: Fuhrer durch die Ausstellung» ورقم ٥٥١ منها هو خطاب من خارجة المشهور (انظر ما سبق في =

بـالسفن لينتقلوا فيها من الجـانب الغربي إلى الجـانب الشرقي ، وكـان يقصد بذلك أن يفتـح كل إقليم مصـر وهو الإقليم الـذي كان يلي مفتـرق فرعي نهـر النيل .

ولعـل وقعة عين شمس كـانت في النصف من شهر يـوليـه سنـة ٦٤٠ ، وقضى العرب في فتح الفيـوم نحو أسبـوعين . وعلى ذلك لم يبـدأ فتح مصـر السفلى قبل شهر أغسطس . وكان عمرو يطمع أن يبسط يده إلى هناك قبل أن يحول فيض النيل بينه وبين ذلك . وأما ما كان من أمر (جـورج) حاكم إقليم مصر فإما أن يكون قد وقع في الأسر عند فتح مدينة مصر وإما أنه أذعن للعرب وخضع لأمرهم . فالحق أن الرهبة من العرب أخذت عند ذلك بقلوب الناس في كل البلاد ، ولا سيما ما كان منها على كثب من سيوفهم ، اللهم إلا المواضـع ذات الحصون .

غير أن مصر السفلى كانت تشقها الترع الكثيرة وكان بعض هذه الترع لا يمكن إجتيازه خوضاً ، فجاء الأمر إلى (جورج) أن يقيم قنطرة على الترعة عند قليوب ، وقال حنا النقيوسي : « وأخذ الناس يساعدون المسلمين »[1] وإنه لمن سوء الحظ أن قول الأسقف هنا ليس بالواضح البين . غير أنا إذا قرنا ذلك القول مع سائر ما جاء في ديوانـه رأينا أن معناه لا يـزيد على أن النـاس قامـوا بتلك المساعدة إذ أمروا بها ، أي أنهـا لم تكن مساعـدة الراغب المختـار بل عمـل

= صفحة ٢٥٨) كتبه إلى (أبا قيرس) حاكم (هرقليو بولس مجنا). ورقم ٥٥٨ منها مكتوب بـاليونـانيـة والعـربيـة بتـاريـخ ٢٥ إبـريـل سنـة ٦٤٣ وهـو من عبـد الله بن جـابـر إلى (كريستوفوروس) و (تيودورا كيـوس) ابني (أبا قيـرس) عينه وهـذا الخطاب الأخيـر أقدم وثيقة إسلامية في مصر إن لم يكن أقدم ما في العالم ورقم ٥٥٤ يذكر ذلك الاسم أيضاً .

(١) صفحة ٥٥٩ الفصل ٦٣، وترجمة زوتنبرج هكذا: «وقد كان عنـد ذلك بـدؤهم بمديـد المسـاعدة للمسلمين». وفي ذلـك خـروج على الأصـل الـذي لا يـزيـد على «وبـدأوا يساعدون المسلمين» ورأى أن المساعدة كانت محدودة ومعينة لغرض خـاص ولم تكن مساعدة عامة.

المجبر المضطر. وفي الحق أنا لو أمعنا النظر لرأينا في قول الأسقف نفسه ما يدل على ذلك دلالة واضحة ، فإنه بعد أن قال إن العرب فتحوا المدينتين الكبيرتين (أثريب) و (منوف) وملكوا ريفهما وبسطوا سلطانهم على إقليم مصر كله ، قال : « إنهم لم يكفهم هذا بل أمر عمرو أن يؤتي بالحكام من الروم مجموعة أيديهم في الأصفاد وأرجلهم في القيود ، ثم أخذ من الناس أموالاً عظيمة وضاعف عليهم الجزية ، وأمرهم أن يأتوا له بالأعلاف لخيله وظلمهم ظلماً كثيراً » وليس من العجيب أنه بمثل هذه الشدّة قضى على كل مقاومة وجعل الناس لا يعصون له أمراً ، ولكنا لا نجد كلمة واحدة تدل على أنه قد كان بين أهل مصر من كان لمجيء المسلمين في قلوبهم إلا وقع الخوف والرعب .

على أن مدينة (نقيوس) ـ وكانت على الفرع الغربي للنيل ـ بقيت بنجوة من العرب بعد أن أخذوا (أثريب) و (منوف) ، وذلك لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة ، فما كانت لتؤخذ حتى يحاصرها العرب حصاراً تاماً ، ولم يستطع العرب ذلك عندئذ ، إذ كانوا لا يملكون العدّة للحصار ولا يتسع لهم الوقت له . وعلى ذلك بقيت (نقيوس) كأنها حلقة تصل من كانوا في حصن (بابليون) بمن كانوا في الإسكندرية . غير أن كبار الروم الذين كانوا فيها لم يستطيعوا البقاء بها عندما جاءتهم أنباء فتوح العرب وفوزهم ، فهاجروا إلى العاصمة ولم يغادروا في المدينة إلا (دومنتيانوس) في قلة من الناس للدفاع عنها ، وبعثوا إلى (داريس) في سمنود يأمرونه أن يحفظ ما عنده من البلاد التي بين فرعي النيل . وعند ذلك زاد الخوف وذعر الناس ، وغلب الرعب على كل بلاد مصر ، فأخذ الخلق يفدون أفواجاً من كل حدب إلى الإسكندرية تاركين أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع وضرع ومتاع . وبذلك خرج أهل مصر من عهدة المقوقس (قيرس) واضطهاده الذي عصف بهم عشر سنين إلى عهد آخر من الخوف والفزع .

ولكن عمراً لم يكن عند ذلك ليستطيع أن يسير إلى الشمال في أثر تلك الأفواج الهاربة ، فإن النيل كان آخذاً في مدّه يعلو به الماء علواً سريعاً في أواخر

شهر أغسطس ، فأصبحت البلاد لا يمكن السير فيها . وكان فوق ذلك لا يريد أن يخلف وراءه ذلك الحصن العظيم حصن (بابليون) بغير ردءٍ من جنوده يدرأ عنه ، وإذا هو شاء أن يجعل من جنوده ردءاً كان لا بدّ له أن يخلف جانباً عظيماً من جيشــه ، فلا يبقى لــه بعد ذلــك من الناس من يقــدر بهم على فتح الإسكندرية . فلم يكن له مفرّ من أن يعمــد بعد ذلــك إلى فتح حصن (بابليون) .

الفصل السابع عشر

حصن بابليون

ما عليه الحصن الآن ـ موقعه ومنعته ـ صروحه وأبوابه ـ الباب الحديدي ـ جزيرة الروضة ـ منشأ الحصن وأصل تسميته ـ ما فيه من الكنائس .

بقي من حصن بابليون إلى نحو أوائل القرن العشرين ما يدل على ما كانت عليه هيئته وعظمة خطره . وكان الفضل للقبط في حفظ تلك البقية إذا اجتمعت لهم كنائس عدّة فيه منذ أول عهد المسيحية ، لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم في أيام المحنة والشدّة ، وكانت كل أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للملكانيين وهو موضع كنيسة (مار جرجس) ، وإلا ما كان منها لليهود وهو موضع بيعتهم . والظاهر أن المسلمين لم يحفلوا بالمحافظة على ذلك الأثر مع ما كان له من الخطر في أيام فتحهم ومع كثرة ما كتبه مؤرخوهم عنه .

ولكنه خرب تخريباً يرثى له منذ احتلال الإنجليز لمصر ، إذ شعر أهله عند ذلك بالإطمئنان والأمن . فقد أصبح الأمر مستقراً لا حاجة معه إلى الأسوار المنيعة ، وصار القبط واليونان واليهود وكأنهم يتبارون في هدم أسواره كلما بدا لهم فتح باب في ناحية أو إقامة بناء في جانب منه . فإذا نحن قلنا إن السنين الثماني عشرة الأخيرة قد شهدت من تهديمه أكثر مما شهدته القرون الثمانية عشر التي قبلها لم يكن في قولنا شيء من المبالغة .

فلما أن انتهى الأمر إلى ذلك وحدث الضرر الذي كان يخشى تدخلت الحكومة وبسطت حمايتها على ما بقي منه ، ولكن ما أقل ما قد بقي منه .

وموضع ذلك القصر المتهدّم فيما يسمى (مصر القديمة)[1] ، وكان باقياً من الأسوار ثلاثة جوانب لم يكد يمسسها أذى منذ بضع سنين، ولكن لم يبقَ منها اليوم إلا قطع من جانبين اثنين ، وأما الثالث فقد شوّه ومسخ مسخاً . وكان سمك أسواره ثمانية عشر قدماً . وكان بناؤها من الآجر والحجارة طبقة من هذه وطبقة من تلك . وكان محيط الأسوار على شكل مربع غير منتظم ، ولكننا لا نستطيع البت في أمر سعته ومساحته حتى تكشف جدران الجانب الرابع وهو الجانب الذي لم يبق منه أثر . ويتخلل كلاًّ من الجانبين الجنوبي والشرقي من أسوار الحصن أربعة أبراج بارزة ، بينها مسافات غير متساوية ، وكانت ثلاثة من هذه الأبراج الأربعة التي إلى الجنوب لا تزال ظاهرة إلى عهد قريب ، وأما الآن فإن أحدها قد تهدّم واندثر ولم يبق إلا اثنان ، ونستطيع أن نرى بينهما الباب العظيم القديم الذي كشف مما كان علاه من الأقذار والأتربة إلى نحو ثلاثين قدماً[2] . وأما الجانب الغربي فلم تكن به بروج ، ونستطيع أن ندرك علة ذلك متى عرفنا أنه في وقت بناء الحصن كان ماء النيل يجري تحت أسواره ، فكانت السفن ترسو تحتها ، وقد بقيت الحال كذلك إلى أيام فتح العرب . وكان للحصن باب آخر في تجاه النهر ، ولعله كان بين الصرحين العظيمين المستديرين الذين بقيا إلى عهد قريب ، لم يبلغ منهما التهدُّم مبلغاً كبيراً إلا فيما إنتابهما في المدّة الأخيرة من التغير . وأما اليوم فقد بقي من أحدهما أثر في حين لم يبق من الآخر شيء تراه العين ، لأنه دخل في بناء مربع أقامه أبناء العرب في العصر الحديث . وكان كل صرح من هذين الصرحين دائرياً يبلغ

(١) جاء في الأصل الإنجليزي « now miscalled old Cairo » ومعناه : « فيما يسمى الآن خطأ القاهرة القديمة » والواقع أن الخطأ واقع في التسمية الانجليزية وحدها إذ أن اسم ذلك الخطر بالعربية « مصر القديمة » وليس « القاهرة القديمة » كما هو في الانجليزية . واهذا آثرنا أن نحذف من الترجمة لفظ « خطأ » إذ لا خطأ في التسمية العربية كما هو ظاهر . (المعرب) .

(٢) المؤرخون والأثريون مدينون على السواء ديناً عظيماً من الشكر إلى ماكس هرتز بك لما قام به من العمل الجليل بحفظ هذا الباب وإظهاره للعيان .

قطره نحو مائة قدم ، وكان في داخله دائرة أخرى من البناء . وتقطع ما بين الدائرتين الخارجة والداخلة جدران من البناء تقسم الصرح إلى ثمانية أقسام ، كان في كل منها سلم حجري صاعد إلى أعلى البناء . وأما علو الأسوار فكان على وجه الإجمال نحو ستين قدماً كما أظهره الحفر الحديث ، ولكن الحصن كله مطمور اليوم إلى نحو ثلاثين قدماً فيما تخلف حوله من أثر العصور المتتالية عليه . وأما الصروح فكانت أعلى من ذلك ، فكان الصاعد إلى أعلاها يشرف على منظر عظيم يبلغ مداه إلى المقطم من الشرق ، وإلى الجيزة والأهرام وصحراء لوبيا من الغرب ، وإلى قطع كبيرة من نهر النيل من الشمال والجنوب . وكان الناظر من هناك في وقت غزوة العرب ، وذلك قبل أن تبنى القاهرة ، لا يقف شيء دون بصره حتى يبلغ مدينة عين شمس[1] .

وكان بين الصرحين الكبيرين سور ساتر ينفذ منه الباب الذي ذكرناه آنفاً ، ولكن ذلك الباب ليس هو الذي يكثر مؤرخو العرب من وصفه ويقرنونه باسم المقوقس ، فإن الباب الذي يقصدونه هو الجنوبي وهو الذي نراه اليوم ماثلاً . وأما ذلك الباب بين الصرحين فقد تهدّم أو طمر في الأرض فلم يبق اليوم له أثر . وهذه حقيقة أصبحت ثابتة لا ريب فيها ، لأن البحث الحديث قد أظهر أمراً عجيباً وهو أن النيل نفسه أو فرعاً قصيراً منه كان في وقت الفتح يبلغ إلى الباب الأكبر الجنوبي ، (وهو ما يسميه العرب بالباب الغربي)[2] وإلى مرسى السفن الذي كانت ترسو عليه السفن الرومانية . وكان لذلك المرسى درج يهبط منه إلى الماء كلما تغير علو النهر . وإن وجود هذا المرسى إلى اليوم لدليل على دقة وصف مؤرخي العرب في بعض الأحيان لما يرون . ولعل ذلك كان حال

(١) قد حقق مؤلف هذا الكتاب ذلك . وقد جاء وصف مفصل لهذه الصروح في كتاب « Ancient Coptic Churches » وقد أثبتنا هنا رسم أجزاء السور التي كانت باقية إلى قبيل احتلال الانجليز لمصر وفيه تغيير يسير .

(٢) وليس في الواقع وصف الباب بالغربي دقيقاً كما أن وصفه بالجنوبي ليس صحيحاً فإن جهات البوصلة مخالفة لذلك . على أن الجانب المواجه للقاهرة أجدر بأن يسمى الشمال والجانب المواجه لحلوان الجنوبي .

الباب الذي كان بين الصرحين المستديرين اللذين كانا تجاه جزيرة الروضة . ولكن من الثابت أن ذلك الباب الجنوبي ـ باب كنيسة المعلقة ـ هو الذي يرد ذكره في أخبار مؤرخي العرب ويسمونه (الباب الحديدي) . وتدل على هذا أدلة كثيرة : (أولها) أن البحث قد كشف عن المرسى الذي كان هناك في النهر عند ذلك . و (ثانيها) أن الباب الذي لا يزال باقياً إلى اليوم فيه مجرى عميق منقور في البناء كانت جوانب الباب تجري فيه إذ يدلى من عل . وكان ذلك الباب إما مصنوعاً من الحديد أو عليه غطاء من صفائح الحديد . و (ثالثها) أن المقريزي[1] ينص على أن الباب الحديدي هو الباب الغربي (الذي نسميه نحن في كتابنا هذا بالباب الجنوبي) ، في حين أن ابن دقماق[2] ـ وكان يعيش في عصر المقريزي يقول إن الباب الغربي هو الباب الذي يلي كنيسة المعلقة .

ومن أغرب ما يذكر هنا أن ذلك الباب الحديدي الذي يلي المرسى القديم كان إلى سنة ١٤٠٠ للميلاد لا يزال مدخل الحصن الذي يلجه الناس منه ، وكان السوق الذي يسمونه « السوق الكبير » واقعاً إلى جوار ذلك الباب ، وكانت هناك طريق تنفذ من ذلك الباب مما يلي كنيسة المعلقة ، ثم تسلك

---

(١) الخطط : الجزء الأول صفحة ٢٨٦ .

(٢) الجزء الرابع صفحة ٢٥ و ٢٦ ولا يصف الكاتب الحصن ولكنه يسمى الأبواب والطرق والمساجد والكنائس التي كانت فيه . وإنا موردون بعض ما جاء فيه في هذه الفقرة الهامة . قال عن « طريق المعلقة » إنه الطريق الذي يمر أسفل كنيسة المعلقة وهو الباب الذي يدخل منه الآتي من السوق الكبير إلى الحصن الروماني المسمى قصر الشمع . وقال عن « طريق الحجر » إنه يدخل إليه من مخفر البنانة ومنه يدخل إلى الحصن وهو الباب (الشمال) الشرقي للحصن . وأما الطريق السابق فهو (الجنوبي) الغربي وسيأتي ذكر الأبواب الأخرى فيما بعد إن شاء الله . وقال عن « طريق محط القرب » إنه يدخل إليه من سوق السماكين ومن سوق القصابين وهذا هو الباب الشمالي (الغربي) للحصن وهو آخر الأبواب المشهورة في الحصن .

فالباب الذي سميناه بالجنوبي أسفل المعلقة يسميه ابن دقماق الغربي وذلك لا خطأ فيه ولكنه فيه شيء من التجوز والتكلف (أنظر ما سبق في صفحة ٢٧٠ هامش ١) (وانظر كذلك ابن دقماق الصفحات ١٥ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٨١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨) .

الحصن كله حتى تخرج من أسواره من باب في الشمال في تجاه جامع عمرو . وكان إلى جوار ذلك الباب الحديدي كذلك مخفر بنائه ، ولعله كان ذلك البناء الروماني المنفصل عن الحصن ، وقد بقيت للآن منه بقية صغيرة . ومع أن عبارة ابن دقماق يفهم منها أن الحصن كانت له أبواب عدّة أخرى فإنه لا يذكر إلا باباً آخر وهو في الجانب الغربي ولعله كان الباب بين الصرحين . وما دام الأمر كما وصفنا فإنه يكون من الثابت أن السور الغربي كان على النيل وأن السفن كانت تبلغ الباب الحديدي . ولكن النهر في هذه الأيام قد بعد بعداً كبيراً عن أسوار الحصن ، وعلت الأرض حوله فطمرت نصف أسواره ، فذلك النصف من الأسوار قد بقي تحت الأرض محفوظاً إلى اليوم لم تعصف به يد الهدم ولعله ينكشف يوماً مما علاه فيظهر للعين .

وكانت جزيرة الروضة كذلك ذات حصون ومنعة في ذلك العصر ، وكانت تزيد في قوّة حصن بابليون وخطره الحربي بأنها كانت في وسط النهر تملك زمامه . ويظهر من قول ابن دقماق[1] أن العرب غزوا تلك الجزيرة في أثناء حصارهم لحصن بابليون ، فلما خرج الروم من هناك هدم عمرو بعض أسوارها وحصونها فبقيت مجردة عاطلة حتى أعاد ابن طولون بناء أسوارها في عام ٨٧٦ ليجعلها مقراً لخزائنه وقصره الخاص . وكانت تلك الجزيرة تتخذ لغرض آخر فكان يسميها العرب في العصور المتأخرة (جزيرة دار الصناعة) . وقد بني مقياس النيل في الطرف الجنوبي منها في سنة ٧١٦ للميلاد بدل مقياس قديم كان في حصن بابليون .

وكان الإقليم الذي إلى شرق الحصن في وقت الفتح مزارع فسيحة ، وكانت إلى شماله الحدائق وحوائط الكرم ، وفيما يليها إلى الجبل الشرقي كنائس وأديرة متصلة إلى الموضع الذي به اليوم جامع ابن طولون وقلعة

(١) الجزء الرابع صفحة ١٠٩ ، أنظر كذلك كتاب « Cairo Fifty Years Ago » (E. W. Lane) صفحة ١٣٢ (لندن ١٨٩٦) وقد ذكر فيه الكاتب بقايا سور عظيم له بروج مستديرة من عمل الرومان كان ظاهراً في أيامه على الجزيرة .

الكبش . وقد بقيت بعض هذه الكنائس وتلك الأديرة إلى اليوم بعضها داخل سور القاهرة وبعضها خارجه ، مع أن الملك الناصر بن قلاوون[1] هدم أكثرها في القرن الرابع عشر .

وأما منشأ بناء الحصن فقد ذهبنا فيه إلى رأي[2] ظهرت صحته فيما بعد عندما نشر ديوان (حنا النقيوسي) ، وذلك الرأي هو أن أول من بناه الإمبراطور الروماني (تراجان) في العام المتمم للمائة من الميلاد . وقد جاء في ديوان حنا أن اليهود ثاروا بالإسكندرية مرة فأرسل إليهم (تراجان) جيشاً عظيماً وجعل أميره (مرقيوس تربو) ، ثم جاء بنفسه إلى مصر وبنى بها حصناً وجعل فيه قلعة منيعة قوية وجعل فيها ماء كثيراً[3] . ولعل هذه الكلمة الأخيرة يقصد بها ما حفره من الآبار عند الصرح المستدير وفي مواضع أخرى من الحصن . ثم قال بعد ذلك إن أصل ذلك الحصن كان بناء أقامه (بختنصر) وسماه باسم عاصمة ملكه (بابليون) ، وذلك عندما غزا مصر . فأقام تراجان أسوار الحصن على أساسه وزاد في بنائه[4] . وعلى كل حال فلا شك في أن البناء القائم اليوم بناء روماني ، ولا نظن أن تراجان جعل بناءه على نسق بناء كان في ذلك الموضع من قبل .

---

(١) أخذنا كل هذه الفقرة عن المقريزي (الخطط الجزء الأول صفحة ٢٨٦) ويقول أيضاً « وكان هذا الحصن مطلاً على النيل وتصل السفن إلى بابه الغربي الذي كان يعرف بباب الحديد . فانحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن والجامع العتيق (إلى الغرب) » وقد ذكر أبو صالح بعض كنائس في هذه الجهة بقيت بعد الفتح بمدة طويلة ولكنه يقول إن عمرو بن العاص هدم عدداً كبيراً من الكنائس هناك (صفحة ١٣٣) .

(٢) « Ancient Coptic Churches » الجزء الأول صفحة ١٧٨ .

(٣) صفحة ٤١٣ .

(٤) من العجيب أن يذكر المقريزي الخبر نفسه بغير خلاف كبير ولكنه يقول إن الحصن قد هدمه بختنصر ثم بناه الحاكم الروماني (أرجاليس بن مقراطيس) على أساسه الأول (الخطط الجزء الأول صفحة ٢٨٧) والظاهر أن الاسم المقصود (أركلاوس بن مرقاتس) ولعله كان والي تراجان أو لعله كان المهندس الذي تولى البناء .

على أنه من المحقق أنه قد كان في تلك الجهة حصن قديم، فقـد جاء استرابو[1] إلى مصر قبل عهد تراجان بنحو مائة وثلاثين عاماً، وقد ذكر أنه رأى حصناً قويـاً على نهد من الصخـر. وقال إن السبب في تسميتـه أن جماعـة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه. وقال ديودور[2] إن ملك مصر (سيزوستريس) جاء بجماعة من أسرى البابليين وأنزلهم في قصر، فأطلقوا على القصر اسم المدينة التي جاؤوا منها. ويقول المؤرّخ (يوسفوس)[3] إن الحصن لم يبن إلا في أيام غزوة الفرس في حكم الملك قمبيز. وقال (ابن بطريق)[4]: إن (آخوس) وهو (أرتخشيارش أوخوس) هو الذي بنى الحصن، وإذن نستـطيـع أن نقول إنـه قد كان على مقربة من موضـع الحصن القائم في الوقت الحاضر حصن قديم كانوا يطلقون عليه اسم (بابليون) مدة قرون طويلة قبـل أيام تـراجان. ولكنـا بينا في موضـع آخر[5] أن ذلك الحصن القديم كان على نهد صخري كما قال سترابو، وكان ذلك إلى الجنوب من الموضـع الذي به الحصن اليـوم. (ولا يزال ذلـك النهد الصخري إلى اليوم ماثلاً يرى). ولعل ذلك النهد الصخري وما جاوره كان داخلاً في مدينة مصر في وقت غزوة العرب، وكانت مصر إذ ذاك تتصل شمالاً بموضـع الحصن الرومـاني، ولعلها كـانت تتصل بمـا بعد ذلـك. وكان حـول الحصن خندق أعاد المقوقس (قيرس) حفره واتخذ عليه قنطرة متحركة[6]. وإنا

(١) (Geog. lib. XVIIC. 1 and 35) .

(٢) ديودور الصقلي (تاريخ) الكتاب الأول الفصل ٣٠٥٦ .

(٣) Ant. Jud. ii. 15. .

(٤) أنظر كتاب أبي صالح صفحة ١٧٧ هامش ٣ وقد أخذنا منه كلمات (ابن بطريق) وقـد رأى (Vansleb) في سنة ١٦٧٢ بقايا هيكل عظيم من بيوت النار الفارسية قيل إن الـذي بنـاه هـو (أرتخشيـارش أوخـوس) « Nouvelle Relation d'un Voyage fait en Eg. P. 240 » وكانت الأطلال بغير شك في داخل قصر الشمع .

(٥) « Ancient Coptic Churches » (الجزء الأول صفحة ١٧٢ ـ ١٧٥) .

(٦) يذكر (ساويرس) بين أعمال قيرس أنه حفر خنادق ويقول أبو المحاسن « وكانت الروم قد خندقوا حول الحصن وجعلوا لـه أبوابـاً (وتلك الأبواب هي القنـاطر التي تؤدي إلى الأبواب) وقال أبو صالح (صفحة ٧٣) وحفر أهل الفسطاط خندقاً لصد العرب .

نظن أنه كـان لا يزال بمـدينة مصـر في ذلك الـوقت كثير من مبـاني المصريين القدماء، فإن الباحثين اليوم يعثرون في كثير من الأحياء على حجارة كبيرة وعليها نقوش بالخط الهيروغليفي.

وقد سبب اسم (بابليـون) ارتباكـاً كبيراً لكتـاب العرب، وبقي ذلـك الاسم إلى اليوم ولكنه لا يطلق على الحصن نفسه، فـاسمه الآن «قصـر الشمـع» بل يـطلق على دير صغيـر على مسافـة قليلة من الحصن نحو الجنـوب وهـو (ديـر بابليون). وكان اسم الحصن باللغة القبطية في وقت الفتح (بابلون ـ آن ـ خيمى) ومعناه (بابليون مصر)[1] فكان من السهل تحريفه في اللغـة العربيـة لأن أول جزء منه «باب» ويمكن أن يفهم أن الجـزءالثاني منـه مضاف إلى الأول وقـد سبقت الإشارة إلى هذا[2]. وليس من السهل أن نعرف أصل تسميته بقصر الشمـع في اللغة العربية، فقد يكون لفظ «الشمـع» تحريفاً للكلمة القبطية (خيمى)، ولكن قد نصت الأخبار على أنه قد كان في حصن (بابليون) القديم هيكل للنار، وأنه قد بنى هيكل آخر مثله في صرح من الصروح بالحصن الروماني وذلك في مدة تملك الفـرس للبلاد في القـرن السابـع. ونجـد في كتاب يـاقـوت ذكـر (قبـة الدخان)[3]، ولعل منشأ ذلك أن الصروح العالية كانت تتخذ في وقت الحروب مراقب تبعث منها الإشارات، فلعله قد جعل على أحد الصرحين أو عليهما معاً منـائر توقد فيها النيران للإشارة، فنشأ من ذلـك اسم قصر الشمـع[4]. ومهمـا

---

(١) Ⲃⲁⲃⲩⲗⲟⲛ أو Ⲃⲁⲃⲩⲗⲱⲛ ⲛϫⲏⲙⲓ أو ⲡⲕⲏⲙⲓ: انظر كتاب شمبـوليون « L'Egypte Sous Les Pharaons » الجزء الثاني صفحة ٣٤ ولا يوجد دليل يعزز ما ذهب إليه من أن لفظ Ⲃⲁⲃⲏⲗ كان مستعملاً في مصر فلا يرد ذلك في كتب القبط ولا كتب العرب ولكن اسم ϫⲏⲙⲓ هو ⲕⲉϣⲣⲱⲙⲓ وقد جاءا مترادفين في نسخة مخطوطة سماها « Zoega » في كتابه « Cat. Codd. Copt. »صفحة ٨٨ .

(٢) أنظر ما سبق في هامش١ (ص ٦٥) .

(٣) ولكن يظهر أن ياقوت أخطأ فهم الاسم،فإنه يذكر حصناً اسمه قصر أليون أو قصر الشام أو قصر الشمع (الجزء الرابع صفحة ٥٥١) .

(٤) نقل المقريزي عن الواقدي أنه قال إنهم يوقدون مشعلاً على الحصن في أول يوم من كل =

يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوروبا في القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم (بابليون) وليس اسم مصر، وحفظوا تلك التسمية إلى ما بعد بناء القاهرة، فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم (بابليون) ويسمون حاكمها (سلطان بابليون)[١].

وبعد فلنا كلمة أخرى فإنه لم يرد لنا إلا القليل من أخبار ما كان في داخل الحصن من البناء في وقت حصار عمرو له، ولكنا نعرف أنه قد كان به مقياس للنيل بقيت آثاره إلى أيام المقريزي[٢] . وكذلك نعرف أن بعض ما بقي به إلى اليوم من الكنائس كان عند ذلك قائماً تصلي فيه جنود الروم ، نضرب لذلك مثل الكنيسة الكبرى كنيسة (أبو سرجة) ، ولعلَّ منها كذلك كنيسة (المعلقة) نراها اليوم بعد أن مضى عليها من الدهر ثلاثة عشر قرناً[٣] .

= شهر إذا دخلت الشمس في برج جديد وأن الحصن بناه أحد الفراعنة واسمه الريان وهذا غير مستغرب من الواقدي فهو صاحب القصص الخيالية .

(١) أنظر مثلاً كتاب « Marino Sanuto » وسواه من المؤلفين الذين جمعت كتبهم معاً في الجزء التاسع والعشرين مما نشرته جمعية « Pal. Pil. Text Soc. » .

(٢) وقال عن دير البنات في قصر الشمع « وكان هناك مقياس النيل قبل الإسلام ولا تزال توجد آثار منه إلى يومنا هذا » (نقله أبو صالح عن الخطط في ذيل الكتاب صفحة ٣٢٥) .

(٣) الظاهر أنه لا محل للشك فيما يخص أباسرجة . على أنه عندما كتبنا كتاب « Coptic Churches » لم نجرؤ على أن نذهب إلى أن شيئاً من هذه الأبنية قديم مثل هذا القدم وقد ذكر (أبو سرجة) حوالي سنة ٦٩٠ في كتاب أميلنو « Vie du Pat. Isaac » صفحة ٤٦ ونعلم كذلك من القطعة التي وجدت عن حياة بنيامين أنه كان عند الفتح أسقف لحصن بابليون وأسقف لحلوان وهذا دليل قوي على كثرة عدد الكنائس في هذه الجهة (وإذا أردت الإطلاع على ما يتعلق بالحصن فانظر كتاب « أميلنو » « Geog. Copte » صفحة ٧٥ وما بعدها ، وكتاب (كاترمير) « Mem Geog. et Hist. » الجزء الأول صفحة ٤٥ وما بعدها ، وكتاب « Hamaker » « فتوح مصر للواقدي » هامش صفحة ٩٠ وما بعدها وصفحة ٤١ ، وهامش صفحة ١١٠ ، متن صفحة ٦٠ ، وقد ذكر فيها أن المعلقة قد =

. . . .

= إفتداها القبط من عمرو وقد كتبت لوحة ذكر عليها ذلك . على أن الكنيسة وإن وجدت يشك الإنسان في أنها كانت على ما هي عليه الآن فوق الباب الروماني فإن الأسوار الخارجية ليست رومانية في شيء وجزء من الكنيسة قائم على أسوار بناؤها يجعل استعمال الباب غير ممكن وعلى ذلك فهي مبنية بعد الفتح العربي وقد أخطأ الواقدي إذ قال إن (دير بولص) هو قصر الشمع وبه المعلقة ودير بولص الذي ذكره هو ولا بد الدير الصغير الواقع خارج الحصن واسمه (دير بولص) وهو قائم على غور بين الأطلال التي في جنوب الحصن . وتجد صورة حسنة للباب الجنوبي كما كان قديماً في كتاب (ر . هاي) « Illustrations of Cairo » (لندن ١٨٤٠) ولكنا لا نعرف رسماً للبناء كما كان في الأصل إلا ما رسمه (بوكوك) وهو في منتهى عدم الدقة . وإن الرسم الذي تحضره الآن لجنة حفظ الآثار العربية سيخلد ذكراً قيماً للباب الروماني على الأقل . وتوجد بالحصن بيعة لليهود كانت في الأصل كنيسة مسيحية ترجع إلى ما قبل الفتح وهي ذات دلالة عظمى . وقد هدمها اليهود حديثاً ليقيموا محلها مكاناً آخر لعباداتهم وقد هدم اليهود كذلك جانباً عظيماً من السور .

الفصل الثامن عشر

حصار حصن بابليون وفتحه

حال القبط ـ قيرس المقوقس يحصر في الحصن ـ ضعف قيرس أو خيانته ـ عبوره إلى الروضة ومفاوضته لعمرو ـ رأي الروم في العرب ـ عبادة بن الصامت ـ رسول عمرو يذهب إلى الروضة للمفاوضة ـ شروط العرب ورفض الروم لها ـ استئناف القتال واتفاق الفريقين على الصلح وبعث قيرس بشروطه إلى الإمبراطور ـ استدعاء قيرس وعزله ونفيه ـ رفض هرقل للصلح وإعادة الحصار ـ نقص النيل ـ القتال في مصر السفلى ـ موت هرقل ـ تسوّر الزبير إلى الحصن ـ تسليم المسلحة الرومانية على عهد ـ فتك الروم بقبط مصر فتكاً فظيعاً.

عاد عمرو منذ أول شهر سبتمبر إلى حصن بابليون وجهز نفسه لكي يضيق عليه الحصار ، وكان ذلك الحصن منيعا على أعدائه ولا بد أن تطول بهم مدة حصاره إذ كانوا لا علم لهم بحيل الحصار ، وليس معهم من عدّته شيء ، في حين أنه كان حصناً تحيط به أسوار عظيمة وصروح عالية يحيط بها من ورائها نهر النيل ، إذ كان الخندق الذي حولها عند ذلك مليئاً بالماء . وكان العرب قد غنموا بعض آلة الحرب في غزاة الفيوم ومن حصن تراجان في منوف ، ولكنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها ، ولا علم عندهم بطرق إصلاحها إذا هي اعتراها الفساد ، ولهذا لم يضروا بها مسلحة الحصن إلا ضرراً يسيراً[1] مع أنه قد كان

(١) ذكر واحد أو إثنان من مؤرخي العرب أن عمراً وضع مجانيق حول الحصن ولكن لم يرد شيء يدل على أنها كانت ذات فائدة للمحاصرين .

دونهم نهد من الأرض على نحو مائتي ياردة (ثلثمائة ذراع) إلى جنوب الحصن ، وهو موضع إذا وضعوا عليه آلة الحصار كان فيه رجحان لهم وقوة .

وقد قلنا فيما سبق إن الحصن كان على كل جانب النهر يتجه إليه بأطول جوانبه ، تحف به المياه في وقت الفيض ، وكان الباب الحديدي تجاه الخندق والمرسى في الجهة الجنوبية من الحصن ، وكان في تجاهه جزيرة الروضة يتصل طرفها الجنوبي بالحصن بجسر من السفن ، ولا سيما في أيام السلام . ولسنا ندري إذا كان ذلك الجسر قد ترك في إبان الحرب على ما كان عليه من قبل ، ولكنا على يقين من أن القناطر فوق الخندق بقيت مشدودة إلى جانب الباب الحديدي في مأمن من الخطر ، وأن السفن كانت تمضي بين الحصن والجزيرة بغير عائق . فإن عمراً لم يستطع بعد أن يملك زمام النهر مع كل ما كان من إنتصاره ، لأن أتيّه الهدار لا يقوى عليه من هم أخبر من العرب بتسيير السفن . ولو أتى عمرو إلى الحصن من جانب النهر لاستاقت مياهه السفن التي أتى فيها أو لأغرقها من في الحصن من رماة المنجنيق .

ولا خلاف بين مؤرخي العرب أجمعين في أن المقوقس (وهو البطريق قيرس) كان بالحصن[1] عند ابتداء الحصار ، وكان تيودور كذلك بالحصن قبل وقعة عين شمس . ولا ندري إذا كان قد حضر الوقعة بنفسه أم لم يحضرها ، ولعله كان هناك ثم لحق بالهاربين بعد الهزيمة ولاذ بالإسكندرية . وعلى ذلك كان (قيرس) القائد الأكبر في الحصن وهو خليفة هرقل على مصر ، ولكن القائد الذي كان يدبر أمر الجنود هو من يسميه العرب (الأعيرج)[2] ولعل ذلك

---

(١) ابن عبد الحكم وابن بطريق وياقوت والمقريزي وأبو المحاسن كلهم متفقون على أن المقوقس كان في الحصن ولكنهم يختلفون طبعاً في تعيين شخصه.

(٢) انظر الذيل الثالث عن المقوقس والخلط كثير فيما يخص القائد. فالطبري مثلاً يقول إن المقوقس عظيم القبط جعل (ابن مريام) قائد للحصن (والطبري يجعل تسليم الإسكندرية يقع قبل حصار مصر أو بابليون وهذا أمر عجيب فإن المقوقس كما نعلم هو قيرس عدو القبط الأعظم ومضطهدهم وابن مريام هو كما أظهرنا البطريق القبطي الذي كان مختبئاً في الصعيد، فكل ما يمكن أن يفهم من رواية الطبري أن الحاكم الحقيقي كان بطريقاً =

تحريف منهم لاسم (جورج) . ولو كان الأمر كذلك لكان هذا الرجل خلاف الحاكم (جورج) الذي أمره عمرو أن يقيم له جسراً على ترعة قليوب . وكان في الحصن قائد آخر بقي فيه طول مدة الحصار وهو (أودوقيانوس) أخو (دومنتيانوس)[1] . ولعل كل الجنود التي كانت تحت إمرة جورج تبلغ الخمسة آلاف أو الستة آلاف لا يمكن أن تزيد على ذلك كثيراً . وكان بالحصن كثير من الأزواد والذخائر من كل نوع ، وكان قد اجتمع به عدد عظيم من غير الجند من أهل مدينة مصر والأديرة المجاورة ، ولكن أغلب الظن أن هؤلاء أخرجوا عن طريق النهر ليوسعوا على الجنود . ويجدر بنا هنا أن نذكر أن كل الكنائس التي كانت في داخل الحصن كانت تؤمها قسوس على المذهب (الخلقيدوني) أو الملكاني ، ولم يبح لأحد هناك أن يتعبد على غير ذلك المذهب ، فإن قيرس كان لا يزال على عهده العدو الأكبر لمذهب القبط ، وبقي على ذلك إلى آخر أمره . وإن في وجوده بالحصن لأقوى دليل إذا احتاج الأمر إلى دليل على أنه لم يبق بالحصن من القبط إلا من أزالهم الإضطهاد عن عقيدتهم . بل إن الروم أساءوا الظن ببعض هؤلاء فوضعوهم في السجن وأنزلوا بهم فيه نكالاً فظيعاً كما سنرى فيما بعد .

وقد كان هذا البطريق هو قيرس بغير شك وهذه الحقيقة تنقض ما قاله (سعيد بن بطريق إن المقوقس منع أموال مصر منذ حاصر كسرى قسطنطينية . فإن قيرس لم يأت إلى مصر إلا بعد هزيمة الفرس وموت كسرى بثلاث سنوات وإنا لم نعبأ بأن نلاحظ هذا الخطأ الذي وقع فيه (ابن بطريق) إلا لأن المؤرخين الحديثين أخذوا به وظنوه صحيحاً. فإن (جبون) في الفصل الحادي والخمسين يجعل المقوقس «أحد أعيان الأغنياء المصريين» وأنه كان يتطلع إلى الاستقلال في مدة حروب فارس. ثم يقول «إن سوء تصرفه في أمانته عرضه لمقت هرقل». وكذلك يجعل الأستاذ (Bury) المقوقس «قبطياً كان يحكم مصر للملك الفارسي» (.Later Rom. Emp صفحة ٢١٤ الجزء الثاني) .

ويقول إنه بعد ذلك صالح عَمراً كما تبيّن قول أحد المؤرخين الحديثين عن « البطريق قيرس بالاتفاق مع المقوقس » فالحقيقة أن كشف الغطاء عن حقيقة المقوقس يؤثر أعظم الأثر في تاريخ هذا العصر .

(١) حنا النقيوسي ، صفحة ٥٧٠ .

ومن ذلك نعرف أن مؤرخي العرب ومن قال قولهم إنما يمسخون الحقيقة ويقلبونها قلباً إذ يقولون إن جند الحصن أو كل من كان به كانوا من القبط . فإن القبط لم يكونوا في شيء من القتال ولا الجيوش ، وكان الإضطهاد في مدة السنوات العشر قد شطر مذهبهم وفرّقهم ، فكان منهم من ذهبوا أفراداً وجماعات فهربوا إلى الجبال والكهوف أو أووا إلى الصحراء أو لاذوا بالأديرة الحصينة في الصعيد . وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والإسكندرية فقد اضطروا إلى الدخول في مذهب الدولة ولم يغن عنهم شيئاً ما كان في قلوبهم من كره لما دخلوا فيه . وقد كتب مؤرخو العرب بعد الفتح بقرون فكانوا يذكرون جيوش المصريين وقواد المصريين لا يميزون بين القبط والروم ، فكثرت من ذلك زلاتهم وعظم خلطهم . فعلينا أن نبين هنا بياناً لا شك فيه أنه لم يكن في ذلك الوقت شيء اسمه القبط في ميدان النضال ، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه ، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه قد أذلهم (قيرس) وأرغم أنوفهم . فليس من الحق في شيء أن يقول قائل إن القبط كانوا يستطيعون أن يجتمعوا على أمر أو ينزلوا إلى القتال أو يصالحوا العرب .

وكان حرياً بقيرس عند ذلك أن يدرك كيف خذل مصر وأضعفها عن لقاء أعدائها ، مهما كان في قلبه من عوامل الضغن على القبط . فقد أدى عسفه إلى شيء يظنه من يراه توحيداً لمذاهب الدين، وما هو كذلك . فإنه بعسفه قد قطع أسباب المودة بين الحكام والرعية قطعاً ، فما كان له أن يتوقع من القبط خيراً ، بل كان خير ما يقع منهم له أن يعتزلوا جاهمين فينظروا إلى نضال بين طائفتين كلاهما غريب عنهم كريه في أعينهم . لقد كان أمر الروم يضعف وقوة جيوشهم تخور ، وأملهم في النصر وتخليص مصر يخبو شيئاً فشيئاً . أكان هذا ما قصده (قيرس) وسعى إليه ؟ .

كان المقوقس آمناً إلى حين في قصره المنيع تحيط به مياه النيل . وكانت مجانيق الروم أقوى أثراً مما كان يرميه المسلمون إلى الحصن من حجارة وسهام . ولكن ما كانت تلك الحال لتبقى فإن الماء في الخندق كان لا بد له أن

يهبط بعد حين ، وقد أدى صبر العرب وشدة بأسهم في القتال إلى خور في عزيمة من بالحصن واختلاف في رأيهم . فما مضى شهر من الحصار حتى جمع (قيرس) من وثق بهم من رؤوس الحرس ودعا معهم أسقف بابليون الملكاني ، واستشارهم سراً في الأمر وبسط لهم رأيه . وكان ذلك في أوائل شهر أكتوبر سنة ٦٤٠ ؛ وقال لهم إن الدبرة في الحرب كانت عليهم إذ قضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم ، ثم أتوا لحصارهم بما لا قبل لهم به ، من قوم أكثر منهم عدداً وأشد في الحرب بأساً . وقال إنه لا يتوقع أن يأتي إليهم مدد يرفع عنهم الحصر قبل مضيٍّ أشهر ، وإذا كان الحصن يستطيع المقاومة والصبر وهو أمر لا شك فيه ، فإن عقبى الحرب كانت كذلك لا شك فيها ، وما كانت تلك العقبى إلا وبالاً عليهم . ومنذ كان الأمر كذلك كان خيراً لهم أن يفدوا أنفسهم بالمال فيعطوا أعداءهم مقداراً منه ليرحلوا عنهم ، فإذا هم استطاعوا ذلك وأمكنهم أن يبعدوا العرب عن البلاد بمال يبذلونه لهم كان في ذلك كل الخير، إذ يُخلِّصون مصر فتعود إلى دولة الروم. وجعل قيرس يفتلهم في الذروة والغارب بمثل هذه الحجج يسوقها في بيانه الخالب الذي عرف به ، حتى تبعه من اجتمع عنده من القوم ، فاتفقوا على أن يمضوا في الأمر إذا استطاعوا كما شاء قيرس منهم . ولكنهم رأوا من الحزم ألا يزعجوا أهل الحصن من الجنود وممن كان رأيهم المضي في الحرب إلى أن يفنوا ، فاستقر رأيهم على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل إلى جزيرة الروضة بغير أن يحس بهم أحد ، ويبعثوا إلى قائد العرب بما أرادوا فيفاوضوه ولم يطلع على الأمر مطلع[1] .

---

(١) لا حاجة بنا إلى أن نطيل في بيان الأسباب التي دعتنا إلى عدم الأخذ برواية (ابن بطريق) الباطلة وهي أن المقوقس كان يميل إلى القبط فخدع الحراس الروم وأخرجهم خفية من الحصن لكي يسلمهم إلى عمرو وفي ذلك مصلحة القبط وأنه عمل لا آخر له إذا نحن أردنا أن ننقد الروايات المختلفة التي جاءت في متن الكتاب عن هذا الحادث ولكنا نتبين أمرين صحيحين في كل هذه الروايات: (١) إن الذي بدأ المفاوضة هو بطريق أو أسقف. (٢) إن المقوقس خرج إلى جزيرة الروضة في وقت فيضان النيل. وقد اختلف الرواة في أوقات تدخل الأسقف وكذلك قال بعضهم إن الخروج إلى الروضة كان بعد =

تم الأمر بعد ذلك على أبلغ الكتمان ، ففتح الباب الحديدي المفضي إلى النيل واستقل الخارجون السفن من هناك ، فعبروا إلى الجزيرة ونزلوا في الموضع الذي أنشئت فيه فيما بعد دار الصناعة . ولعل (جورج) قائد حرس الحصن كان معهم في تدبيرهم هذا ، ولكنه قد بقي في الحصن حتى إذا ما نذر أحد بخروج قيرس وفشا خبر خيانته في الناس كان هو هناك ليخمد الخبر ويقضي على ما يشاع[1] . وقد أمر قيرس أن ترفع قناطر الحصن حتى يأمن خروج الناس منه إذا هم علموا بخروجه وذعروا من أجله . ولما بلغ جزيرة الروضة[2] أرسل إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف (بابليون) فلقيهم عمرو وأكرمهم فأدوا رسالتهم فقالوا :[3] .

= شهر من أول الحصار وقال البعض أنه كان بعد فتح الحصن ولكن الذين يذهبون إلى هذا الرأي الأخير أنفسهم مثل ياقوت والسيوطي يذكرون أن ذلك كان في وقت الفيضان وهذا خطأ إذ أنه ثبت بلا نزاع أن أخذ الحصن كان في أوائل إبريل وهو وقت انحطاط النهر ولكن حدوث المفاوضة في وقت الفيضان قد اتفق فيه الرواة وهذا الاتفاق غير مقصود فهو يدعو إلى تصديق الخبر ويعزز صدق من ذكر من الرواة أن المفاوضة كانت بعد شهر من أول الحصار وقد بدأ الحصار حوالي أواخر أغسطس فبعد ذلك بشهر يكون في أواخر سبتمبر، وعند ذلك يكون النيل حقيقة في أعلى فيضانه وعلى ذلك يكون تاريخ هذا الحادث قد ثبت بدليل لا بأس بقوته.

(١) جاء في المقريزي أن الآراء مختلفة في وجود (جورج) مع المقوقس ويقول السيوطي إنه بقي في الحصن أولاً ثم لحق بالمقوقس.

(٢) يجب أن نذكر أن المجرى الذي في الجانب الشرقي للجزيرة وهو الذي بين الجزيرة والحصن كان عند ذلك في اتساع المجرى الغربي وهذا واضح من كتاب «السفرنامه» وقد جاء فيه صراحة أن هذا كان الحال بعد ٤٠٠ سنة من الفتح (سنة ١٠٤٧) ولكنه يذكر أن التيار في المجرى الشرقي ضعيف وهذا يدل على أن الطين قد بدأ يسده. أما اليوم فالمجرى الشرقي ضيق جداً والنيل يجري كله تقريباً في المجرى الغربي ورأس الجزيرة اليوم من جهة الجنوب في موضعها القديم وقد كانت دائماً تحمى من فعل التيار ببناء سور متين من الحجر. من أجل السفرنامه. (انظر: «Relation du Voy. de Nasiri Khusrau» صفحة ١٥٣).

(٣) قد أخذنا هذا النص عن المقريزي مع أن في آخره شيئاً من الاختلاف عن النص الانجليزي. (المعرّب).

« إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا . وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدَّة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم »[1] . فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين إذ أبيح لهم أن يسيروا في العسكر ويروا ما فيه . ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين » .

ففرح قيرس لعودة الرسل إذ كان قد خاف عندما حبسهم عمرو ، وجعل يقول لأصحابه أترون أن العرب يقتلون الرسل ويستحلون ذلك في دينهم . ولما جاء الرسل جاءوا وقد وقع في نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا

---

(١) هذا الكلام من المقريزي وسنتبع وصفه في أكثر الأحوال. وقد ذكر هو والسيوطي وأبو المحاسن روايتين مختلفتين لذلك الاجتماع فالأولى أن عمراً دخل الحصن ليفاوض وأنه قد دبرت مكيدة للإيقاع به عند خروجه. ولا نشك في تكذيب هذه الرواية ووصفها بأنها اختلاق ووهم. ونقول هنا إن هذه القصة نفسها قد ذكرها (ابن بطريق) عن غزة في فلسطين (انظر كتاب «فتوح مصر» Hamaker صفحة ٨٤ من الذيل). وأما الرواية الثانية فهي التي ذكرناها في متن كتابنا ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الرواية الأولى نفسها تذكر أن المفاوضة التي قام بها عمرو في الحصن لم تسفر عن شيء فالروايتان على ذلك متفقتان في شيء واحد وهو أن أول مفاوضة في الصلح سعى إليها الروم لم تنجح .

السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »[1] . وقد رأى قيرس مع ما اشترطه العرب من الشروط التي لا هوادة فيها ولا مفاوضة أن يبدأ في ذلك الوقت بعقد الصلح ، إذ كان العرب تحصرهم مياه النيل قبل أن يهبط النهر ويستطيعوا السير والإنتقال ، فيجوسوا خلال البلاد . فأرسل إلى عمرو أن يبعث إليه جماعة من ذوي الرأي ليعاملهم ويتداعى معهم إلى ما عساه يكون فيه صلح ، فبعث عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت . وكان عبادة أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : « نحوا عني ذلك الأسود وقدّموا غيره يكلمني »[2] فقال العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله » ثم قالوا فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحداً إلا بفضله وعقله وليس بلونه ، فقال المقوقس الرقيق لعبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه فقال له عبادة : « إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني[3] . . . وإني ما أهاب مائة رجل من عدوي ، لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي . وذلك إنما رغبتنا وهمتنا

---

(١) أخذنا هذا النص عن المقريزي لأن المؤلف قال إنه سيتبع وصفه وقد جاء في الأصل الإنجليزي «أنهم يأكلون على (مطاياهم) » فكأنه فهم (ركبهم) «بضم الكاف» بمعنى ما يركب وقد يفهم من اللفظ أنهم بسطاء يأكلون على (ركبهم) «بفتح الكاف» وهم جلوس على الأرض. (المعرّب).

(٢) جاء في الأصل الإنجليزي « نحوا عنّي هذا الأسود فإني لا أقدر أن أكمله » وقد آثرنا أن نجيء برواية المقريزي الذي نقل عنه المؤلف. (المعرّب) .

(٣) جاء في الأصل الإنجليزي «مثلي في السواد» وقد آثرنا نقل ما جاء في المقريزي. (المعرّب).

في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للإستكثار منها . . . . . . لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها . . . . . . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء في الآخرة[1] . فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه : « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل . . . إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض » ثم أقبل على عبادة فقال : « أيها الرجل الصالح . قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها . وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم لا يحصى عدده . قوم معروفون بالنجدة والشدة . ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم[2] . . . ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم . . . » .

فقال عبادة: «يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما كان هذا بالذي تخوفنا به . . . وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم واشتد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أوغنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين إلينا

---

(١) عن المقريزي مختصرة بحسب ما يوافق الأصل الإنجليزي . (المعرّب) .

(٢) في هذه الكلمة بعض زيادات عن الأصل الإنجليزي لم نستطع حذفها لاتصالها بسائر القول. ولا شك في أن المؤلف نقل عن المقريزي نقلاً مبتوراً . (المعرّب) .

بعد الاجتهاد منا. وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا... فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل. بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا... إلخ»[1]. فأراد (قيرس) أن يستنزله عن شيء أو أن يجعله يقبل شيئاً مما عرضه عليه فلم يقدر على شيء، بل وقع قوله على آذان صماء لما يقول. وقال عبادة يرد عليه بعد أن نفذ صبره ورفع يديه إلى السماء: «لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ما لكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم»[2].

فاجتمع عند ذلك المقوقس بأصحابه فقالوا: «أما الأمر الأول فلا نجيب إليه أبداً فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه» وبذلك أبوا شرط الإسلام فلم يبق إلا الجزية عن يد وصغار أو الحرب. قالوا: «فإنا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيداً وللموت خير من هذا» فقال عبادة لهم: إنهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، مسلطين في بلادهم على ما في أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم، وحفظت لهم كنائسهم لا يتعرض لهم أحد في أمور دينهم. فلما قال عبادة ما قال مالت نفس المقوقس (قيرس) إلى الإذعان، فقد كان وقع في قلبه أن المسلمين لا بد منتصرون فذهب ذلك بجرأته وقوة نفسه. ولكن المسيحيين لم يكونوا جميعاً على ما كان عليه بطريق

(١) نقلنا نص خطاب عبادة أيضاً عن المقريزي بحسب ما يتفق مع ما أراده المؤلف من المعاني وتركنا ما لم يورده منها. (المعرّب).

(٢) هذا النص الأخير مأخوذ عن رواية ابن عبد الحكم في كتاب أبي المحاسن «النجوم الزاهرة». (المعرّب).

الإسكندرية الرومي، ويلوح لنا أن (جورج) قائد جنود الحصن أتى عند ذلك فلحق بالمجتمعين، ولقي المقوقس من أصحابه عزماً شديداً على القتال ورفض ما كان يراه من الإذعان. وهنا ينسدل ستار على الحوادث كما يحدث في كثير من الأحيان في تاريخ هذا العصر. فلم يبق لنا إلا أن نتلمس ما كان ونتحسس أخباره من وراء ذلك الستار[1].

ويظهر لنا أن كبار الروم عندما اختلف رأيهم على قبول شروط العرب أو رفضها طلبوا أن يهادنهم العرب شهراً ليروا فيه رأيه، فأجابهم عمرو

(١) لا نجد مثلاً أوضح في دلالته على خلط كتاب العرب من وصفهم نهاية هذا الاجتماع (ونحن مضطرون للاعتماد عليهم وحدهم لأن كتاب حنا لا يرد فيه شيء عن ذلك) فقد قال المقريزي إن شروط عمرو لم تقبل وإن العرب ألحوا في الحصار وإن الحصن فتح في أيام الفيضان ثم حمل المقوقس أصحابه على الموافقة على رأيه من صلح العرب. وكتب إلى عمرو أن الروم والقبط قد أبوا الموافقة من قبل ثم عادوا فرضوا بدفع الجزية. ولكن من الواضح أن ترتيب الحوادث ههنا ترتيب فاسد فإن الحصن قاوم إلى شهر إبريل وقد جاء مثل هذا الخبر في كتاب أبي المحاسن ولكنه يذكر أن المقوقس عرض الصلح بإسم القبط ولكن ذلك كان عن غير رضى منهم فأبوا أن يقروه فعاد العرب إلى الحصار وفتح الحصن وقتلت فيه مقتلة عظيمة. وقال إن ذلك كان في وقت الفيضان أيضاً ثم تم الصلح بعد ذلك. وأما ياقوت فإنه أوضح في قوله فقال عند ذكر الاجتماع الذي كان مع عبادة إن المقوقس صالح عمراً عن القبط والروم وإنه جعل أمر الروم خاصة إلى ملك الروم فأرسل إليه عقد الصلح. ثم قال إن أهل العلم من المصريين في أيامه يقولون إن الأمر لم يتم حتى قابل عبادة المقوقس. ولكن ياقوت نفسه يقول إن فتح الحصن كان عنوة في وقت الفيضان وإن مقابلة عبادة للمقوقس وقعت بعد زمن يسير من أول الحصار. فكل من هذه الروايات تختلف عن الحقيقة المعروفة في شيء أو أشياء ولكنا نستخلص منها: (١) إن المقابلة كانت في وقت فيضان النيل (في أوائل أكتوبر). (٢) إنها انتهت باختلاف في الرأي وعاد العرب إلى الحرب. (٣) إن الدائرة كانت على الروم فجعلتهم يفكرون في العودة إلى المفاوضة. (٤) أنه قد عقد بعد ذلك صلح وجعل رهن إقرار الامبراطور وأرسل إليه بغير إبطاء لإقراره.

ونعلم أن هرقل أبى ذلك الصلح وقد ذكر مؤرخو العرب ذلك ولكنهم يذكرونه عند ذكر فتح الإسكندرية وهذا خطأ منهم لأسباب: (١) إن هرقل كان قد مات عندما فتحت الإسكندرية (٢) إن صلح الإسكندرية كان عن أمر الملك الحاكم عند ذلك. وقد ذكر =

جـواباً قـاطعـاً إذ قـال إنـه لن يمهلهم أكثـر من أيـام ثـلاثـة. غيـر أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع بين النـاس، فلما رجـع أصحابـه إلى الحصن عـائدين من الـروضة إذا بـالناس قـد ثار ثـائرهم على المقـوقس، وأبـى جنـد الإمبراطور إلا القتال، وظهر أمر الذين كانوا يأبون الإذعان، واستقر الأمر على هذا سريعاً، فما انتهت أيـام الهدنـة الثلاثـة حتى أخذ أهـل الحصن يتجهزون للخروج إلى المحاصـرين يناجـزونهم. ولـم يبعثوا رداً إلى عمـرو. وفيما كـان عمرو في اليوم الرابع بعد انتهاء الهدنة يفكر فيما يصنع إذا بالروم قد خرجوا إليه فوق قناطرهم، فأخذوا جنود المسلمين على غرة. غير أن تلك البغتة لم تذهل العرب فأسرعوا إلى سـلاحهم وقاتلوا الـروم قتالاً شـديداً وقـاتل الـروم يومئـذ مستبسلين. غير أن العرب تـواردوا إليهم منذ نـذروا بهم فتكاثـروا عليهم، فما استـطاعوا إلا أن يتـراجعـوا حتى دخلوا إلى الحصن بعـد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة.

أما المقوقس فإنه مـا زال رأيه من الإذعـان والتسليم للعرب مستقـراً في قلبه. وكان مشئوماً مشترك العقل، فـرأى في انهزام الـروم فرصـة له إذ أن من عصوه ونبذوا رأيه احتكموا إلى السيف وحاربوا مستبسلين كما ينبغي لجنود الروم أن يحاربوا، وأخذوا عدوهم على غرة، ولكن ذلك لم يغنهم شيئاً بل أخـذتهم سيوف عدوهم. ورأى المقوقس وهو خليفة الإمبراطور على مصر أن النصر على هؤلاء العرب لن يتأتى له، وزادته تلك الهزيمة الجديدة يقيناً أنه لن يستطيع طرد

= البلاذري في أثناء تلخيصه المضطرب للروايات المختلفة رواية صحيحة فقال إن الصلح الذي عقـده عمرو مـع المقوقس لم يقـره هرقـل وأرسـل جيشـاً إلى الإسكنـدريـة وأقفلت أبـوابهـا واستعدت للحصار. وكذلك يرد ذكر الصلح بين عمرو والمقوقس وأنه كان في بابليون في الأخبار المضطربة في كتاب (ابن بطريق) فذلك الصلح يمكن أن نعتبره صحيحاً، ولكنا لا نعرف الظروف الحقيقية التي أحاطت به عنـد عقده، إذ قـد ضاعت أخبـارها. وقـد جاء ذكـر الهجوم بعد هدنة ثلاثة أيام في الطبري ولكنه يخطىء مثل سائر مؤرخي العرب بأنـه لم يجعل مدة فاصلة بين الهدنة وبين فتح الحصن في النهاية.

العـدو من البلاد. ثم رأى من كـانوا يعصـون رأيه وينـادون بالقتـال قد ضعفت نفوسهم، فلم يلق منهم بعد عصياناً، وأذعنوا له مرغمين جاهمين، على أن يعيد الكرة على عمرو فيبعث إليه في أمر الصلح. وإنه لمن العجيب أن شروط عمرو لم تتبدل، ولا يستطيع قائل أن يقول إن العرب كانوا يبدلون شرطهم ولم يفعلوا ذلك في أول الحرب ولا في آخرها. وكـانت الخصلة التي اختارهـا الروم هي الجزية والإذعان. فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الإمبراطور فإذا أقره نفذ، وأخذ قيرس على نفسه أن يبعث به إلى هـرقل. واتفق الـروم والعرب على أن تبقى الجيوش حيث هي إلى أن يجيء رد هرقل، ولا سيما الحصن فقـد اتفقنا على أن يبقى مع الروم إلى أن يقر هرقل الصلح.

سافر المقوقس عند ذلك مسرعاً في النهر حتى بلغ الإسكندرية، وبادر بأن بعث إلى الإمبراطور كتباً يبين فيها ما كان منه، ويعتذر عنه بأن الحاجة ألجـأته إليـه من صلح العرب، ويسـأله أن يقـر الصلح حتى يكفي مصر شـر الحـرب ووبالها. وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار في أمر تلك الكتب التي جاءته من المقوقس، فإنها لا تبين إذا كان الصلح خاصاً بحصن بابليون، أو أنـه كان صلحاً على ترك بلاد مصر جميعها حتى الإسكندرية للعرب، ولا تبين هل يبقى العرب في البلاد بعـد أخذ الجـزية، أو يـرحلون عنها. فهـل كان معنى ذلـك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية؟ لقد كان الامبراطور منذ شهور يلوم قواده ولا سيما (قيرس) خليفته على مصر لأنهم فرطوا في الأمر، حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفـع ألويتهـا في مصر وتغلب جيـوش الدولة وتحادها. فإذا به وقد بعث إليه بصلح ليس يدري هل معناه رشوة العدو بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد، أم معناه إسلامها له فيبقى ذلك العدو سيد الأرض يجبـي له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها. عجب الامبراطور ولم يـدر ما الـذي أدى إلى ذلك الإذعـان وعزم على أن يـدعو (قيـرس) المقـوقس ليحاسبه على ما كان منه في مصر.

فبعث إليه رسالة يأمره فيها بأن يأتي إليه على عجل. ولعل ذلك كان في

وسط نوفمبر. ولم تكن الرسالة مما يطمئن إليه القلب. ولعل المقوقس قد أحس بما أجرم وخشي العاقبة منذ جهز في نفسه ما يقوله لمولاه إذا هو حاسبه. فلم يكن لأحد سواه علم بما أدى من أمانته وما آختان منها، ولا بما اتبع من أوامر مولاه بنصها أو بالمقصود منها وما عصاه فيها في مدة ولايته، في تلك السنين العشر ،سني العسف والاضطهاد. ولكن شيئاً واحداً لم يخف عن أحد، وذلك أنه قد جاء إلى مصر يقصد إلى قصد ديني فلم يوفق فيه، بل أخفق إخفاقاً وبيلاً، وجر إخفاقه هذا على حال مصر السياسية نكبة جليلة وخطباً عظيماً. ولا بد أن يكون ذلك الرجل قد أحس بأن إسراعه إلى اليأس من أمر الروم وإقباله على مفاوضة العدو ـ لا بل سعيه إلى ذلك سعياً حثيثاً ـ كل ذلك وصمه بمظنة السوء وجلله بشبهة الخيانة. وما كان ليستطيع النجاة من مثل هذا الفكر مهما صور لنفسه من حسن قصده، ومهما خادعها بتزويق نيته وتزيينها. لا بد أن يكون قلب ذلك الرجل قد جاش بمثل هذه الأمور عندما بلغ حضرة الإمبراطور في القسطنطينية. ولقي الإمبراطور وما كان أهوله من لقاء، إذ لم يكن له بد من أن يقرّ بأنه رضي بأن يلقي أموال مصر إلى العرب[1]. على أنه مع ذلك جعل يدافع عن فعله، ولعل ذلك كان خداعاً وتصنعاً، فقال إن العرب قد يحملون على الخروج بعد من مصر، وإن الجزية التي دفعتها إليهم يسهل عليه أن يجبي مقدارها من متاجر الإسكندرية وبضائعها، فيعوض ذلك ما خسرته خزائن الدولة. وأما فيما سوى ذلك فقد كان المقوقس لا يرى موضعاً للأمان، إذ كان العرب قوماً لا يشبهون سائر الناس في شيء. فهم عند قولهم لا يعبأون بأمر من أمور هذه الحياة الدنيا ولا متاعها، لا يطلبون منها إلا لقمة يسدون بها رمقهم وشملة يسترون بها أبدانهم. فهم «قوم الموت» يرون ربحاً في أن يقتلوا، لأنهم

(١) هذه هي الحقيقة التي نقلها (تيوفانز) عن موضعها وأولها فأساء تأويلها فكانت أساس قصة الجزية التي دفعها (قيرس) للعرب قبل فتحهم كيما يشتري سلامته من غزوهم وإن خبر إرسال (منويل) ليستمر في حربهم وهو خبر الحادث الذي جعله (تيوفانز) يقع في ذلك الوقت إنما هو حادث وقع بعد ذلك بزمن طويل وبعد أن مات هرقل بمدة طويلة وسيأتي ذكر هذا في أواخر هذا الكتاب.

يرون في ذلك الشهادة التي ينالون بها الجنة، في حين أن الروم يحبون متاع الحياة الدنيا ويحرصون عليه. وقال للإمبراطور لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبون. فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة وتصبح البلاد غنيمة له.

بمثل هذه الأقوال أدلى المقوقس بحجته، وقد جاء في كتاب (نيقفوروس) أن الإمبراطور قبل أن يبعث إلى (قيرس) ليسير إليه كان قد وجه إليه (مارينوس) ليشترك معه في الرأي، لعلهما يجدان سبيلاً على العرب، وجاء فيه أيضاً أن (قيرس) عندما بعث إلى الإمبراطور يعرض عليه دفع الجزية طلب إليه أن يزوج عمرو بن العاص من (أودوقيا) أو إحدى بناته الأخرى، فإذا هو رضي بذلك تنصّر ابن العاص. وتلك لعمري قصة لا تصدق، فما هي إلا عودة ضالة إلى قصة سابقة قيلت منذ سنين، ألا وهي قصة تزويج (أودوقيا) لملك الخزر. فما كان (قيرس) ليجهل ما كان عليه المسلمون في إسلامهم من ثبات لا زعزعة به، واعتقاد لا هوادة فيه. وإن قصة يقال فيها إن عمرو بن العاص يتنصر لهي قصة ضل فيها الوهم ضلالاً بعيداً. وليس ثمة أثر لمثل هذا الخبر في كتاب آخر كائناً ما كان. ولكن هرقل ثار ثائرة بغير أن يعرض عليه المقوقس أمر ابنته وتزويجها. وما كان في حاجة إلى مثل هذا ليتقد غضبه، فقد دهاه ما كان من أمر جنده، وعظم غيظه أن ينهزم منهم مائة ألف ليس أمامهم من العرب إلا إثنا عشر ألفاً. فاتهم المقوقس ـ ولا بأس أن نسميه بهذا الاسم حتى في عاصمة الروم ـ اتهمه بأنه خان الدولة وتخلى العرب عنها. ثم حكم عليه بأنه مرتكب مجرم، وما كان دونه إلا الموت جزاء ذنبه. ثم شرع يقرعه ويؤنبه على ما كان منه قائلاً: إنه لم يكن أكثر غناءً من بعض فلاحي مصر، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه إلى حاكم المدينة فشهره وأوقع به المهانة[1] ثم نفاه من بلاده طريداً.

ولا بد أن رفض الإمبراطور للصلح كان في هذه الأثناء قد بلغ العرب وهم

---

(١) جاء في كتاب (نيقفوروس) لفظ (أسيئت معاملته[٢٦]*) والظاهر أن معناه ما ذكرناه وليس معناه التعذيب، كما جاء في كتاب (لوكيان).

في حصار الحصن، قرب نهاية عام ٦٤٠؛ وانتهى بذلك أمر الهدنة وعاد القتال، وعض الفريقان على النواجذ من الأضراس. وكان النيل عند ذلك يهبط سريعاً وهبطت معه المياه التي في الخندق، وكلما هبطت خبت معها آمال من في الحصن إن لم تخب شجاعتهم. فلما فرغ الخندق من مائة استعاض الروم عنه بأن رموا في قاعة حسك الحديد، وجعلوا ذلك الحسك كثيفاً عند مدخل أبواب الحصن. ولا بد قد كان المسلمون لقاء ذلك يسعون إلى طم الخندق وهدم جوانبه فيه حتى ينفذوا منه. غير أننا لا نعلم إلا قليلاً مما كان في أثناء ذلك الحصار، فلا نجد غير ذكر الترامي بالآلات والضرب بالدبابات وخروج جنود الحصن إلى العرب وهجوم العرب على من بالحصن، ولكن من الجلي أن العرب كانوا لا علم لهم بفنون الحصار وآلاته، ولذلك كان أثر حصارهم في الحصن ضئيلاً بطيئاً. ولسنا ندري لعل حصارهم وإن كانوا ضيقوا به على الحصن من جانب البر لم يكن ذا أثر من جانب النهر. ولكن يلوح لنا أن العرب لقوا شيئاً من المساعدة في ذلك الحصار من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها، وكانوا أحابيش من الحزبين الأخضر والأزرق[1] فكانت عصبة من الحزب الأخضر يقودها (ميناس)، وأخرى من الأزرق يقودها (كزماس بن صمويل) تعبران النهر ليلاً إلى الروضة فتنهبان فيها، أو تهبطان على ما قد يكون بالنهر من سفن الروم أثناء عبورها إلى الحصن أو رسوها إلى جانب الباب الحديدي، فكانت هذه الغزوات تؤذي مصلحة الحصن أذى كبيراً وتنقص من هيبة الروم وسلطانهم في النهر.

ولم يكن حصار المسلمين من جانب البر نفسه على ما ينبغي من الحذر واليقظة، فقد خرج مرة جماعة من حرس الحصن ففاجأوا عبادة والزبير[2] في صلاتهما، فوثب الرجلان إلى فرسيهما وحملا على الروم. فلما رأى الروم أن

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٨.

(٢) لم يرد في كتاب مما رأينا ذكر لابن الزبير بل ترد القصة خاصة بعبادة. وقد ذكر المؤلف أنه أخذ القصة عن (أبي المحاسن) ولكنا راجعنا كتابه «النجوم الزاهرة» فلم نجد إلا ذكر «عبادة ابن الصامت» وحده. (المعرّب).

العـدو لاحق بهم جعلوا يلقون منـاطقهم وحليتهم ليشغلوه بذلـك عن طلبهم، وعدوهم لا يلتفت إليها حتى دخلوا الحصن، وأصيب عبـادة إصابـة خفيفة من حجر رمي به من فوق الحصن[1]. فرجع القائدان المسلمان ولكنهمـا لم يلتفتا إلى ما ألقاه الروم، بل عـاد إلى موضعهمـا فأتمـا صلاتهمـا وخرج الـروم إلى متاعهم يجمعونه.

وقد روى الواقدي رواية عن قتـال في موضـع آخر، قـال: إن المسلمين كانوا في يوم جمعة قد اجتمعوا للصلاة، وسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال، فرآهم ربيئة الروم وحمل إلى قومـه في الحصن خبر اجتمـاعهم. فلما انتهى عمرو من خطبته نـزل عن منصته السـاذجة التي كـان قائمـاً يخطب عليها، وأم المسلمين في الصلاة. وفيما هم كذلك هبط عليهم جنود الروم بغتة وهم عزل ليس معهم السلاح فأوقعوا بهم[2].

ولما مضى الشتاء قل خروج الـروم من الحصن وقتالهم للمسلمين، في حين كثـر هجوم المسلمين على الحصن وزاد شـدّة، واشتدّت وطـأة الحراسـة والقتال على الروم وخارت قواهم عن الدفاع. على أن حصونهم ما زالت على عهدها لم يصدع الحصار منها إلا قليلاً. ثم فتك المرض بأهل الحصن[3] فقل

---

(١) جاء هذا الخبر في كتاب (أبـي المحاسن) وهو أقرب إلى التصديق من قول المقريـزي إذ قال إن جنود الروم عادوا إلى الحصن فرماهم عبادة من فوق السـور وعاد بعـد ذلك. (المؤلف).

(١ـ) فهم المؤلف أن عبارة المقريزي يقصد بها أن عبادة هو الذي رمى بـالحجارة من فـوق الحصن مـع أن العبارة في المقـريزي هي: «حتى دخلوا الحصن ورمى عبـادة من فوق الحصن بالحجارة فرجع» ومن هذا يتضح أنه لا فرق بين ما جاء في أبـي المحاسن وما جاء في المقريزي وإنما الخطأ ناشىء من قراءة «ورمى عبادة» بصيغة البناء للمعلوم مع أن الواضح أن الفعل «رمى» مبني للمجهول. (المعرّب).

(٢) (Ed. Hamaker. P. 104. Notes) وقد جاء في متن ذلك الكتاب صفحة ٥٥ أسماء كثيرين من المسلمين الذين استشهدوا في أثناء الحصار.

(٣) جاء ذكر هذا المرض في كتاب ياقوت ولنا أن نصدق هذا الخبر مع أنه مقرون بخبر آخر =

عددهم ولم يأتهم المدد، يتطلع حراسهم وهم فوق صروحهم إلى ما حولهم من الآفاق فلا يجدون أثراً يلوح من رماح الروم ودروعهم طالعاً من بين قباب الأديرة البيضاء التي تملأ السهل في شمال الحصن. وكان النهر عند ذلك قد هبط وجفت الأرض، وإذا كان ثم أمل في قدوم جيش من الروم لإمداد الحصن فقد كان ذلك وقته وتلك فرصته.

ولعل ذلك هو الوقت الذي بلغ عمراً أن الروم قد أعدّوا جيشاً في مصر السفلى بين فرعي النيل، وجعلوا عليه (تيودور). فلم يُقم عمرو حتى يقبل عليه العدو، بل ترك من جيشه جماعة تكون ردءاً عند الحصن، ثم سار على الفرع الشرقي للنيل وعبر النهر عند أثريب وتوجه نحو سمنود. فبعث (تيودور) بإثنين من قواده ليدافعا عن المدينة فاتصلا بجنودهما بمن كان في المدينة من الحرس، غير أن هؤلاء لم يرضوا أن يتبعوا الروم في قتال العرب. والتقى الجمعان مع هذا على كثب من سمنود ودارت الدائرة على المسلمين وعلى من كان معهم ممن أسلم من النصارى، وقتل من هؤلاء وأولئك خلق كثير. ورأى عمرو أنه لن يستطيع أن يصيب البلاد الشمالية بشيء كبير، إذ كانت تحميها الخنادق والترع دون جرائد الخيل العربية. فعاد أدراجه إلى بوصير وجعل حولها الحصون، ثم رمم حصون (أثريب) و(منوف) وجعل فيها مسالح من المسلمين ثم عاد إلى حصار الحصن. ولكن (تيودور) لم يستطع أن يستفيد شيئاً من وراء انتصاره في ذلك القتال ولم يقدر على أن يبعث من جنده إمداداً يبلغ الحصن أو يقترب منه[1].

= لا يمكن تصديقه وهو أن عدد الذين قتلوا داخل الحصن بسهام المسلمين كان ١٢,٣٠٠.

(١) هذه القصة ليست خالية من الشك فقد جاءت في كتاب حنا النقيوسي في الفصل الرابع عشر بعد المائة وهو مضطرب كل الاضطراب فقد جاء فيه أن عمراً سار في وجهة ذلك «وترك في حصن بابليون قوة كبيرة» ثم جاء فيه أن الروم كانوا مالكين لمدينة (نقيوس). وقد رأى زوتنبرج أن الواجب تغيير النص حتى يكون معناه «عند حصن بابليون» أو «أمام حصن بابليون» بدل أن يكون «في حصن نابليون» وهذا خير سبيل للخروج من هذه الصعوبة فإذا لم يكن ذلك مقبولاً كان لا بد لنا من أن نقول إن سير عمرو في هذا الوجه =

ولعل عجز (تيودور) وقعوده عن مواصلة الحرب كانا عن خيانة أصحابه وتركهم له. ولسنا ندري ما كان حال الجند الذين كانوا حرساً في المدائن، فلا نعلم كم كان منهم من القبط وكم كان من الروم. بل إن المؤرخين ينسون أمراً فلا يذكرون عنه شيئاً، وذلك أن الروم لا بد قد امتزجوا بالمصريين في مدة القرون التي أقاموا فيها بمصر، واختلطت دماؤهم وتقاربت أسباب التواصل بينهم، وكان القبط يكرهون الدولة ولهم في ذلك كل العذر، وكان بعض الروم لم يتغلغل الولاء لدولتهم في قلوبهم، فكانوا لا يتورعون عن مساعدة العرب إذا ما رأوا في ذلك نفعاً لأنفسهم ، يفعلون ذلك حتى ولو لم يدفعهم دافع من اختلاف في الدين مع قومهم . وإنا موردون هنا خبرين من أخبار أمثال هؤلاء وقعاً في هذا الحين. فالأولى قصة قائد اسمه (كلاجى) لحق بالمسلمين وغادر قومه، فسعى (تيودور) حتى لقيه وجعل يثنيه عما هو فيه بالحجة الدامغة، حتى حمله على الرجوع وكان قد ترك زوجه وأمه رهينتين في الإسكندرية، فافتداهما واشترى عفو (تيودور) عنه بمبلغ من المال، ثم تسلل بجنوده تحت الليل من بين عسكر المسلمين ولحق (بتيودور)، فأرسله إلى (نقيوس) ممداً لمن فيها من الجند مع القائد (دومنتيانوس). وأما الخبر الآخر فقصة الخائن التائب (سبنديس)[1] فإنه مثل (كلاجي) تسلل من عسكر المسلمين في الليل وسار إلى دمياط وكان عليها قائد اسمه (حنا)، فأرسله حنا إلى نائب الحاكم بالإسكندرية وبعث معه بكتاب. وقد أقر (سبنديس) بذنبه والدموع تنحدر من مآقيه، وقال «لقد كان مني ما كان منذ ألحق حنا بي العار بأن ضرب وجهي ولم يرع حرمه سني، فلحقت بالعرب بعد أن كنت خادم

= كان فيما بين سقوط حصن بابليون وسقوط (نقيوس) ولكن المدة بين هذين الحادثين مدة قصيرة لا تكفي لذلك، وعلى هذا فإنا نرى أن هذا الرأي يكاد يكون غير ممكن فالحقيقة أن ذكر الحوادث في هذا الفصل والفصول التي بعده من كتاب حنا مضطرب كل الاضطراب مقلوب رأساً على عقب ويكاد يكون إرجاع أخبارها إلى ترتيب صحيح أمراً مستحيلاً.

(١) هذه الأسماء بلا شك محرفة ولكنا نوردها هنا كما جاءت في كتاب حنا النقيوسي.

الدولة الأمين»، وفي هذا ما يدل على ما كانت عليه أسباب الوطنية من الوهن وما كان عليه القوم من الضعف في أمر دينهم.

ومر اليوم بعد اليوم ولا شيء يبشر أهل الحصن ولا كتاب يدخل إلى قلوبهم الرجاء. فلم تبلغهم إلا أنباء سوء وشؤم. فقد بلغهم نبأ غضب هرقل على المقوقس، ونقضه لأمر الصلح وحكمه عليه بالنفي، ولكن لم يبعث الإمبراطور أحداً من جنوده الذين كان بهم معجباً، ولم تغن عن الحصن شيئاً أوامره التي بعث بها إلى قواده. غير أن الناس ما زالوا يعللون النفس بالآمال إلى أن سمعوا يوماً تكبيراً عالياً في عسكر المسلمين، وذلك في أوائل شهر مارس سنة ٦٤١. فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل قد مات. فخارت عند ذلك نفوسهم. ولم يكن ذلك لأنهم صوروا لأنفسهم ما لا بد أن يعقب موته من الاضطراب في الدولة، بل لأنهم قد ذهب عنهم ملكهم الشيخ وكان باسلاً في الحرب، فكان في ذهابه عنهم ذهاب لأمرهم وخور في عزيمتهم. وقد قال أحد مؤرخي العرب «فكسر الله الروم بموته»[1] وحسبنا بقوله هذا دليلاً على ما أحدثه موته من الأثر في جند مصر. وأما العرب فقد زادهم نبأ موته شدة وجرأة وضاعف من همتهم في فتح الحصن.

ولكن قد بقي الحصن بعد ذلك شهراً لا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير وهب الله نفسه وأقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعد لذلك الأمر عدته. وكان الخندق قد طم جزء منه استعداداً للهجوم، ولم يعق العرب عن ذلك دفاع أهل الحصن، وكانوا يفتك بهم المرض ويقعد بهم اليأس. ولكن

---

(١) عن السيوطي وهو يأتي بالتاريخ المخطىء أي سنة ١٩ للهجرة ثم يذكر التاريخ الصحيح رواية عن الليث وهو عام ٢٠ للهجرة (٦٤١ للميلاد) ويورد (مكين) نفس القول ويخطىء الخطأ عينه في التاريخ وهو مثل السيوطي يقول إن أخبار موت هرقل جاءت في أثناء الحصار بالإسكندرية بدل (بابليون). وقد مات هرقل في ١١ فبراير سنة ٦٤١ أي قبل بدء حصار الإسكندرية بشهور ويخطىء المقريزي نفس الخطأ ولكنه يقول «واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية».

ساعة الهجوم بقيت سراً ؛ فلما جاء وقتها أقبل العرب سراعاً تحت جنح الليل[١] ، ووضع الزبير سلماً على السور ولم يفطن إليه أحد[٢] ، فما شعروا إلا والبطل العربي على رأس الحصن يكبر وسيفه في يده . وتحامل الناس إليه من داخل الحصن ، غير أن السهام أمطرتهم من العرب في خارجه ، واستطاع بذلك أصحاب الزبير أن يصلوا إليه فوق السلم ويطأوا الأسوار بأقدامهم . والظاهر أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من ذلك الجانب ، فبنوا حائطاً تعترض الممشى فوق السور من جانبي ذلك الموضع ، فلما جاء العرب الذين صعدوا إلى الحصن وأناموا من كان هناك من حرسه وملكوا رأسه، ألفوا طريقهم مسدودة يعترضها ذلك الحائط، فلم يجدوا سبيلاً إلى السلم ليهبطوا منه إلى قلب

---

(١) اليعقوبي هو المؤرخ الوحيد الذي يذكر أن الهجوم كان بالليل. انظر «Ibn Wâdhih qui dicitur al Ja'cûbî Historiae» (طبعة M. T. Houtsma الجزء الثاني صفحة ١٦٨).

(٢) ليس من السهل أن نعرف في أي موضع وضع سلم العرب فإن المقريزي وأبا المحاسن يَذْكران أنه كان بقرب الموضع الذي كان معروفاً في أيامهما بإسم «سوق الحمام» ويقول ياقوت إنه كان بقرب الموضع الذي بنى فيه فيما بعد «بيت أبي صالح الحراني» بقرب حمامات «أبي نصر السراج» بجوار السوق المتقدم الذكر. ويقول ابن بطريق إنه كان بجوار سوق الحمام ثم يقول إنه كان في الجانب الجنوبي من الحصن وهو تفصيل يتفق مع ما قاله البلاذري فإن هذا المؤرخ بعد أن وصف مجيء الزبير وهو بالطبع آت من الشمال يقول إنه وضع السلم على «الجانب الآخر» أي الجنوبي ولكن الموضع المسمى «سوق الحمام» كان في الغالب جزءاً من مدينة الفسطاط وقد زالت الآن زوالاً تاماً. والظاهر لنا أن الهجوم كان على مقربة من الركن الجنوبي الغربي من الحصن ولا تزال الأسوار هناك قائمة.

ولا شك في هذه الحادثة في نظرنا فالبلاذري يذكر أنه عند اختطاط الفسطاط بنى الزبير لنفسه بيتاً بها فورثه ابنه وقال انه لا يزال فيه السلم الذي صعد عليه الحصن (وذلك في القرن التاسع). ويقول ياقوت إنه يقال إن سلم الزبير كان محفوظاً في منزل بسوق وردان حتى احترق المنزل في سنة ٣٩٠ (حوالي سنة ١٠٠٠ للميلاد).

ويذكر ياقوت سلماً آخر ويقول إن شرحبيل بن حجيرة المرادي صعد عليه في موضع بقرب «شارع الزمارين» ولكن هذه الدلالة قد ضاعت مع مدينة الفسطاط.

الحصن. ورأوا أنفسهم قد بلغوا رأس الأسوار ثم لا سبيل لهم وراء ذلك، وكانت تلك فرصة للمدافعين ولو كان في قلوبهم بقية من القوة لاستطاعوا أن يرموهم بسهامهم، فيردوا ذلك النفر أو يقضوا عليهم. ولكنهم ما كانوا ليفعلوا شيئاً من ذلك وقد بلغت أرواحهم التراقي، فاجتمع كبارهم على عجل في أول الصباح الباكر فسألوا عمراً الصلح، وعرض (جورج) قائد الجند في الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم. فقبل عمرو منهم الصلح وخالفه الزبير خلافاً شديداً في ذلك، وقال له إنه كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة، وقال «لو صبرت قليلاً لنزلت من السور إلى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهي». ولكن عمراً لم يلتفت إلى ما قاله وكتب عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن في ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك[1] ويدفع أهل المدينة للمسلمين الجزاء.

---

(١) كان من أصعب الأمور أن تؤلف قصة لفتح بابليون فإن خبر صعود الزبير أسوار الحصن جاءت أولاً من ابن عبد الحكم ولكن مؤرخي العرب غيروها وبدلوا فيها حتى خرجوا بها إلى حد السخف فيقول المقريزي إن الروم قد هربوا عندما سمعوا صياح المسلمين وفتح الزبير الباب فدخله العرب فخاف المقوقس وعرض الصلح ودفع الجزية. على أن المقوقس لم يكن هناك عند ذلك وليس من المعقول أن يفاوض في الصلح لو فتح الحصن عنوة. وقد روى أبو المحاسن القصة على هذه الصورة عينها والسيوطي مثلهما في الخلط فإنه يذكر أن المسلمين لما دخلوا الحصن أرسل المقوقس إلى عمرو يعرض عليه الصلح ولكن الرواية التي ذكرناها هنا مأخوذة عن الطبري وإنها لواضحة وقريبة إلى الذهن فلسنا نتردد في قبولها ولو أن ذلك المؤرخ قد خلط في كثير من أخبار الفتح. ويجدر بنا أن نذكر أن المؤرخين متفقون على أن مدة الحصار كانت سبعة أشهر في حين أنهم يختلفون في ذكر التسليم ويخلطون بينه وبين تاريخ الصلح الذي عقده (قيرس) ولم يقره الامبراطور. وعلى ذلك يجعل ذلك التاريخ في وقت فيضان النيل وقد ضل (Weil) في هذا الأمر في كتابه Geschichte der Chalifen فهو يجعل الفتح في وقت الفيضان وينقض قول القائلين إن مدة الحصار كانت سبعة أشهر. ولكن تواريخه كلها مخطئة فمثلاً يقول إن عمراً وصل إلى بابليون في يناير. ورواية الطبري يتمها ما جاء في كتاب (حنا =

وكانت حملة العرب الأخيرة على الحصن في يوم الجمعة السابق لعيد الفصح وذلك في السادس من أبريل سنة ٦٤١ وكان خروج الروم منه في يوم الإثنين وهو عيد الفصح[1]. وفي مدّة تلك الأيام الثلاثة جمع الروم السفن من جزيرة الروضة ووضعوا فيها المؤونة وأخذوا في التجهز للهبوط في النيل إلى مصر السفلى. ولقد كان أشدّ لحزن جيش المسيحيين أن آخر يوم لهم في الحصن هو يوم الفصح (يوم القيامة)، وكأننا بهم وقد اجتمعوا في الكنائس قبل أن يخرجوا والحزن سائد عليهم والذل ضارب فيهم لما أصابهم من الهزيمة على يد المسلمين. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحيين في مصر، ولم تقع في

= النقيوسي) فإن الفصل المضطرب الرابع عشر بعد المائة يذكر الوقت الحقيقي لتسليم حصن بابليون، ولكنه لا يذكر وصفاً للحصار. (المؤلف).

(١-) رجعنا إلى الطبري فلم نجد به تفصيلاً كالسابق وكل ما جاء به أن الزبير دخل الحصن «حتى خرج على عمرو من الباب معهم» أي مع أهل الحصن الذين فتحوا الباب عندئذ وخرجوا إلى عمرو مصالحين. (المعرّب).

(١) جاء ذكر يوم الإثنين وهو عيد الفصح واضحاً في كتاب حنا النقيوسي وهو لا يذكر يوم الجمعة الطيبة ولكن: (١) يوم الجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلمين ومن القريب إلى الذهن أن يعمد فيه الزبير إلى عمله تقرباً إلى الله. (٢) يذكر حنا بوضوح أن جنود الحصن أبيح لهم إخلاء الحصن في مدة يوم أو يومين لأنهم استطاعوا في عيد الفصح أن يرتكبوا فظائعهم التي ذكر أنهم ارتكبوها مع القبط المسجونين. ويجدر بنا أن نذكر أن ابن عبد الحكم يذكر خطاباً أرسله عمر بن الخطاب إلى عمرو يشكو فيه من إبطاء فتح الإسكندرية (ولعل المقصود إبطاء فتح بابليون) وقد جاء في الخطاب قوله وليكن ذلك (أي الهجوم) عند الزوال[1]/ يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة.

وقد ذكر السيوطي هذا الخبر (صفحة ٦٢) ونعلم أن هجوم الزبير كان وقت المساء. [المؤلف].

(١) ترجم المؤلف لفظ «الزوال» في خطاب عمر خطأ بلفظ evening، ومعناه «المساء» والمقصود طبعاً من الزوال وقت الظهر أي وقت صلاة الجمعة وهو الذي يعتقد المسلمون أنه وقت «تنزل الرحمة ووقت الإجابة» وعلى ذلك يظهر لنا أن حجة المؤلف في الهامش السابق قائمة على خطأ. (المعرّب).

نفوسهم حرمة ليوم الفصح الذي خرجوا فيه، فبقيت في صدورهم العداوة والشحناء الذهبية لم يذهب منها شيء. وقد ذكرنا من قبل أنهم سجنوا في أول الحصار كثيراً من القبط الذين كانوا في الحصن، وذلك لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر. فلما جاء يوم الفصح الذي كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء، فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم، أمرهم بذلك كبيرهم (أودوقيانوس). ولا عجب مع هذا أن نجد الأسقف المصري يسبهم في ديوانه حانقاً ويسميهم «أعداء المسيح الذين دنّسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه. فلم يكن في الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان»[1]. ويصف الأسقف المصري أنين أولئك الأسرى الذين مثل بهم وبكاءهم إذ يساقون مطرودين من الحصن يشيعهم السباب. وإنه ليس بغريب مع ذلك من مثل الأسقف المصري أن يقول إن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقاب لله على ما فعله الروم من الأفاعيل في القبط، ولو أن مثل هذا القول ليس مما يصح في الأذهان. على أن ذلك الأمر له معنى إذ يدل على ما كان بين شيعتي المذهبين المسيحيين من عداوة لا تحل عقدتها، بقيت في قلوبهم لم تخب ولم تخمد نارها مع ما ظهر من ثمار اختلافهم وعواقب تخاذلهم من فوز الإسلام وعلوّ أمره.

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٧ .

الفصل التاسع عشر

السير إلى الإسكندرية

معاهدة بابليون ـ صفتها وحدودها ـ درس العرب لأهل البلاد ـ من أسلم من النصارى ـ إصلاح الجسور المقامة على النيل ـ سير جيش العرب إلى الشمال ـ يقصد العرب إلى نقيوس ـ وقعة الطرانة ـ جبن (دومنتيانوس) وفراره ـ فتح العرب لنقيوس ـ المقتلة هناك ـ المضي في السير ـ وقعات كوم شريك وسنطيس وقريون ـ هزيمة الروم وارتداد تيودور ـ وصول المسلمين إلى الإسكندرية ـ رأيهم في المدينة منذ رأوها وعجزهم عنها ـ فتوح عمرو في مصر السفلى ـ عجزه عن أخذ سخا ـ سيره إلى طوخ ودمسيس ورجوعه إلى بابليون ـ نقض أوهام المؤرخين.

انتهى حصار بابليون في اليوم التاسع من أبريل سنة ٦٤١ بعد أن لبث سبعة أشهر، وهذا أمر قد ورد جلياً في أخبار العرب. على أن جل مؤرخيهم إن لم يكونوا كلهم يخلطون الصلح الأخير الذي سلمت به الروم الحصن بعد أن نفيَ المقوقس من مصر، بالصلح الذي حدث قبل ذلك في أوان الفيضان بعد بدء الحصار ببضعة أسابيع، وهو الذي عقده المقوقس ولم يقره الإمبراطور. وإنا نستطيع أن نتبين أصل ذلك الخطأ بعد أن انكشف لنا التاريخ الحقيقي كما نستطيع أن نتبين ما نشأ عن الخطأ من خلط آخر لم يكن أقل منه شأناً. فليس في التاريخ مواضع وقع عليها خلاف أشد مما وقع في أمر مصر وهل كان فتحها عنوة أو صلحاً. ويقصد هؤلاء الكتاب بلفظ مصر أحياناً كل البلاد وأحياناً حصن بابليون. وقد أوضحنا فيما سلف أن الحصن يمكن الاختلاف فيه فقد وقع فيه حادثان: أحدهما فتح بالقوة، فإن الزبير علاه وكان ذلك سبباً في تخذيل الروم

وتسليمهم. وأما الآخر فإن الفتح لم يكن كله عنوة بل إن حملة الزبير إنما أدت إلى أن يسلم أهل الحصن ويصالحوا. على أن قصارى الأمر لم يكن غير تسليم عن أمان وصلح، وقد بين الصلح للروم شرط الخروج، وعلى ذلك فلا مناص لنا من أن نفند قول من يقول إن العرب فتكوا بمن كان في الحصن، فما ذلك إلا حديث خرافة أساسه قول من قال إن الحصن أخذ عنوة[1].

ولكن الصلح الذي أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهداً حربياً، ولم يكن عقداً سياسياً، فقد رضي فيه عمرو بأن يشتري الحصن ويدفع ثمناً له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية، وإنما دفع الجزية من بقي من أهل المدينة. وإذ كان ذلك العهد لا يمس إلا مدينة مصر والحصن فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة، فقال مؤرخ إنها كانت ديناراً لكل من جنود العرب ولباساً[2]، وكانوا في أشد الحاجة إليه. وهذا القول يتفق مع ما أورده مؤرخ آخر إذ قال[3]: إنه قد بقي في مصر بعد فتح الحصن جماعة كبيرة من جنود القبط.

---

(١) جاء في كتاب ابن بطريق أنه بينما كان الجنود يتقهقرون إلى الروضة قتل منهم المسلمين وأسروا وغنموا، ويتفق معه المقريزي في أنه «قتل كثير من الناس وأسرت طائفة منهم» ومن المحتمل أن يكون قد حدث قتل ولكن السيوطي يقول «إن المسلمين فتحوا الحصن وقتلوا من فيه» وهذه رواية مختلفة وهو يذكر فوق ما ذكره أبو المحاسن إذ قال: «عندما أخذ الحصن قتل خلق كثير» ولا يمكن تصديق ما جاء في المقريزي والسيوطي أن عدد القتلى من الروم الذي أصابتهم سهام المسلمين بلغ ١٢,٣٠٠ ممن كان بالحصن بعد انتهاء الحصار.

(٢) يذكر المقريزي حديثاً لابن وهب نقلاً عن عبد الرحمن بن شريح جاءت فيه هذه العبارة وهي قريبة إلى الأذهان. وكانت الملابس عبارة عن جبة وبرنس وعمامة وخفين، فإذا قلنا إن عدد العرب كان عند ذلك قد نقص إلى ١٢,٠٠٠ أمكن أن نفسر ما ذكره بعض الكتّاب من أن الجزية قد بلغ قدرها ١٢,٠٠٠ دينار ويخطىء من يقول إن هذا هو مجموع الجزية التي فرضت على مصر جميعها. وسبب ذلك أن اسم مصر يطلق كما هو حادث في كثير من الأحوال على القطر كله فيسمى باسم المدينة.

(٣) المقصود هو الطبري وعندما يذكر الجنود القبط نظن أنه يقصد المصريين الذين كانوا في الجيش الروماني وهم كتيبة «الحرس الوطني» وهي كتيبة كانت موجودة بغير شك كما يدل=

فلما رأى هؤلاء ما كان عليه العرب من الرثاثة قالوا «ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم! ما رأينا مثلنا دان لهم»[1] فلما سمع عمرو مقالتهم دعا جماعة من كبارهم إلى وليمة فنحر جزوراً[2] وصنع لهم المرق بالماء والملح وجعل ذلك أمامهم وقد جلس القبط إلى جانب العرب فجعل العرب ينهشون اللحم نهشاً حتى بشع القبط ذلك وعادوا بغير أن يأكلوا. فلما كان اليوم الثاني أمر عمرو قومه أن يأتوا بألوان الطعام في مصر، وأن يهيئوا منها وليمة عظيمة، ففعلوا ذلك وجاء أهل مصر فجلسوا إلى ذلك الطعام وأصابوا منه فلما فرغوا من أكلهم قال عمرو للقبط[3]: «إنني أرعى لكم من العهد ما تستوجبه القرابة بيننا، وقد علمت أنكم ترون في أنفسكم أمراً تريدون به الخروج، فخشيت أن تهلكوا. فأريتكم

= عليه كتاب حنا النقيوسي وإن العبارة التي ذكرها عمرو مشيراً للقرابة والنسب لا يكون لها معنى إذا قصد بها الروم وإنه من العدل أن نذكر أن الطبري يذكر لفظ القبط في أحوال كثيرة لا يمكن أن يكون المقصود فيها غير الروم وعلى كل حال ليست هذه القصة ذات شأن كبير غير أنها تبين شيئاً من خلق عمرو.

(١) نقلنا هذه الكلمة عن الطبري لأن نصه أقرب النصوص إلى المعنى الوارد في الأصل الإنجليزي على أن المؤلف لم يذكر الموضع الذي نقل عنه تلك القصة. (المعرّب).

(٢) جاء في الطبري «فأمر بجزر فذبحت... إلخ» وهذا أقرب إلى الأذهان بما جاء في الأصل الإنجليزي من أنه «نحر جزوراً» وكذلك يقول الطبري إن الأكل إنما طاف على العرب وحدهم ولم يذكر مشاركة القبط لهم. (المعرّب).

(٣) قد راجعنا ما جاء في الطبري وآثرنا أن ننقل عنه بعض نص الخبر وفيه خلاف كبير وتصرف في اللفظ ولكن لبّ المعنى قريب من الأصل الإنجليزي. وقد جاء في الطبري ذكر يوم ثالث وأن عمراً دعا فيه أهل مصر وعرض عليهم جنوده في السلاح، ولعل هذا أكبر ما في القصة مما قصد إليه عمرو، ولكن المؤلف لم يورد ذكر هذا العرض الحربي.
وأما ما قاله عمرو بحسب رواية الطبري فهو: «إني قد علمت أنكم قد رأيتم أنفسكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا فأحببت أن أريكم حالهم وكيف كانت في أرضهم ثم حالهم في أرضكم ثم حالهم في الحرب. فظفروا بكم وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجع إلى عيش اليوم الأول». (المعرّب).

كيف كان العرب في بلادهم وطعامهم من لحم الجزر، ثم حالهم بعد ذلك في أرضكم وقد رأوا ما فيها من ألوان الطعام الذي قد رأيتم. فهل تظنون أنهم يسلمون هذا البلد ويعودون إلى ما كانوا فيه؟ إنهم يسلمون قبل ذلك حياتهم ويقاتلونكم على ذلك أشدّ القتال، فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وادخلوا في الإسلام، أو ادفعوا الجزية وانصرفوا إلى قراكم»[1].

وهذه القصة عجيبة إذ أنها تظهر جانباً آخر من الخلق يختلف عما سمعناه من قول عبادة بن الصامت من احتقار هذه الحياة ونعيمها، وهو القول الذي عجب له قيرس وردّده. ولتلك القصة شأن آخر وذلك أنها تدل دلالة واضحة على أن بعض القبط أخذوا عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، يسهم لهم في الفيء، ولا يفرض عليهم الجزاء. فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً، وحطم يقينهم باضطهاده. وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم جنود وبعضهم ممن حل في مصر منهم. وفي هؤلاء يقول حنا النقيوسي «قوم ارتدوا عن دينهم المسيحي ودخلوا في دين البهائم». وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشدّ الناس في أمر الدين يدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العرب المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم، وصاروا يستبيحون لعنهم ويصمونهم بأنهم «أعداء الله»[2].

---

(١) يذكر ابن الأثير رواية مخالفة لهذا الخبر فإنه يقول إن عمراً علم أن القبط تكلموا في العرب وفقرهم وخشونة عيشهم فخشي أن يدفعهم ذلك إلى الثورة فعزم على أن يخيفهم بأن يظهر لهم الفرق بين ترف مصر وخشونة عيش العرب ويبين لهم أنهم بهذه الخشونة استطاعوا أن يغلبوا من هم أكثر منهم عدداً من جند عدوهم وقد كان لهذا أثر كبير في المصريين فقالوا إن العرب قوم لا يغلبون وقد وطأونا تحت أقدامهم. فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال إن عمراً يقاتل بالقول ويقاتل غيره بالسيف. (المؤلف).

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٠ وقد جاء في كتاب أبي صالح خبر عجيب وهو أن الجهة =

ولكن هؤلاء الذين أسلموا لم يكونوا إلا قليلاً وبقي جمهور القبط على دينهم يزدرون الذين خرجوا من نصرانيتهم، وينفرون من ذلك الدين الجديد الذي دخلوا فيه، وهذا ظاهر في قول الأسقف المصري «حنا». ويجدر بنا أن نعيد هنا ما سبق لنا قوله، وذلك أن القبط في ذلك العصر لم يكن لهم زعيم يأتمرون بأمره ولا جماعة يلزمونها. فلم تكن بهم قدرة على أن يتعاونوا على أمرهم، فكان الرجل منهم يرى لنفسه وكانت الطائفة منهم يرون لأنفسهم بين حين وحين، ولكن لم يكن فيما بينهم تساند أو تعاون إذ لم يكن لديهم سبيل إلى توحيد قصدهم أو التكاتف في السعي إليه. وعلى ذلك فمن أكبر الخطأ أن يقول قائل إن القبط عامتهم دخلوا في عهد الصلح الذي كتبه عمرو عند فتح بابليون، فإن ذلك العهد إنما دخل فيه أهل ذلك الموضع. على أن شروط ذلك الصلح نفسه عرضت فيما بعد على من كانوا على كثب من تلك الناحية. فإن عبد الله بن حذافة السهمي سيره عمرو إلى عين شمس ليعامل أهل المدينة والكورة التي حولها[1]. وهذا يدل على أن المسلمين عند فتحهم للمدينة أول مرة لم يأخذوا أمرها في يدهم ويقيموا فيها حكم الإسلام.

= القريبة من مصر إلى الجنوب وكانت تسمى «الحمراء» زمناً طويلاً سميت كذلك لأنها موضع الراية الحمراء التي أقامها العرب عند فتحهم لمصر وكان يجتمع حولها من يستأمن إلى المسلمين ويسير خلفهم (صفحة ١٠٢) ولكن ابن دقماق في وصفه أخبار مدينة الفسطاط يقول إن الحمراوات الثلاث كانت تسمى بذلك لأن الروم كانوا يسكنونها فقد كانت فيها خطط بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، وبني بحر وبني سلامات، ويشكر بن لخم وهذيل بن مدركة، وبني نيد، وبني الأزرق؛ وكانوا من الروم (الجزء الرابع صفحة ٥). ولست أدري ما العلاقة بين «الحمراء»[٠١] وبين «الروم». ولكن قد جاء في الكتاب أن هؤلاء الروم ويهودي اسمه «روبيل» ساروا من الشام إلى مصر وكانوا من غير العرب من أهل الشام الذين أسلموا قبل وقعة اليرموك.

(٠١) جاء في المقريزي اسم «بنو سلامان» وليس «بني سلامات» و «بنو نبه» وليس «بني النيد». (المعرّب).

(٠٢) يظهر أن المؤلف لا يعرف أن العرب كانوا يسمون الرومان بالحمر والصفر. (المعرّب).

(١) أخذنا هذا عن البلاذري والخبر بلا شك صحيح وهو أصل الخلط بين أول فتح =

ولكن هذا الصلح أحدث في دولة الروم أثراً كبيراً، مع أنه لم يكن إلا صلحاً مقصوراً على جماعة صغيرة. وسبب ذلك مكانة ممفيس أو بابليون، فإنها وإن لم يبق لها المحل الأول في البلاد إذ مضى عليها زمن طويل وليست هي عاصمة البلاد، كانت لا تزال ذات شأن عظيم إذ كانت باب إقليم الصعيد وإقليم مصر السفلى. وكان حصنها منيعاً لا يكاد ينال، فإذا هو وقع في يد عدو دانت له بلاد الصعيد جميعاً وهابته بلاد مصر السفلى في الشمال. ولسنا ندري ماذا كان قواد الروم يصنعون طول مدة الشتاء وما الذي حملهم على أن يخلوا ما بين المسلمين وبين الحصن حتى استطاعوا على مر الزمن أن ينزلوا من فيه. ولكنا نعلم حق العلم أن الروم ضعفت قوتهم وخارت عزيمتهم عندما فتح العرب ذلك الحصن، في حين أن العرب زادوا قوة وجرأة وأصبح في يد عمرو ملك الفرما وبلبيس وأثريب وعين شمس. فكان باسطاً سلطانه على الجانب الشرقي كله من مصر السفلى، فلما دان له الحصن صار سلطانه ثابتاً على مجمع النهرين، وجمع في يده أزمة وادي النيل الأوسط، وتم له بذلك الشطر من فتح مصر.

وإنا نرى أن عمرو بن العاص بعدما فرغ من فتح الحصن أمر بإقامة الجسر من السفن في النهر، أو بقول آخر أمر بإعادة إقامته بين الحصن والروضة، وبين الروضة والجيزة، فوصل بذلك بين شاطىء النهر واستطاع أن يملك ناصيته ويشرف على ما ينتقل فيه من السفن والبضائع. وهذا على خلاف ما جاء في كتب التاريخ إذ جاء فيها أن عمراً أمر بذلك قبل فتح الحصن. وكان عمرو شديد الرغبة في أن يسير جنوده نحو الإسكندرية، بعد أن طالت مدة إقامتهم بالعسكر في مصر. وكان يعرف أنه لن تمر ثلاثة أشهر حتى يكون النيل قد أخذ يعود إليه مدة وفيضة، فكان الوقت دونه غير متسع وفي ضياعه مضيعة وخسارة، فأرسل

= لهليوبولس وبين خضوعها الأخير وذلك الخلط هو الذي يفسد رواية الطبري وغيره. وقد ذكر أبو المحاسن أن الناس الذين شملهم هذا العهد كانوا قليلين وهم ٦٠٠٠ نفس، ولكنه يروى عن عبد الله بن لهيعة أنه قال إن الذين فرضت عليهم الجزية كانوا ٨٠٠٠ (صفحة ١٩).

إلى عمر بن الخطاب يصف له ما كان ويستمده. على حين شرع يدبر أمر المدينة التي فتحها وما حولها من إقليمها، وأخذ يرمم بناء الحصن وجعل فيه مسلحة من المسلمين عليهم خارجة بن حذافة السهمي[1]. وما كان أعظم سرور عمرو إذ رأى نفسه على ظهر جواده مرة أخرى يسير مع جيشه إلى وجه جهاد، وقد جعلوا الحصن وراء ظهورهم وساروا نحو الشمال يتبعون شاطىء الفرع الغربي للنيل. وتركت خيمة القائد في مكانها، فإنه عندما أزمع السير وأمر الجند أن ينزعوا خيمته وجدوا في رأسها عش يمامة قد باضت. فقال عمرو: «لقد تحرم هذا اليمام منا بمتحرم فأقروا هذا الفسطاط في موضعه حتى يفرّخ ويطير» وقيل ترك على الفسطاط حارساً يمنع تلك اليمامة أن يمسها أحد بأذى[2].

وليس من اليسير أن نصف سير العرب في وقتهم ذاك، فإن ديوان حنا النقيوسي لا يذكر من حوادث تلك المدة إلا قطعاً من الأخبار لا نظام لها، وإذا نحن جمعنا تلك القطع وأردنا أن نجعل منها قصة متصلة كان فيها اختلاف كبير عما يرويه مؤرخو العرب. على أننا نستطيع أن نوفق بعض التوفيق بين تلك الروايات المتضاربة، لا سيما وإنّا نجد اتفاقاً عجيباً بينها في بعض المواضع.

ولا شك أن أول ما قصد إليه عمرو في سيره نحو الإسكندرية كان مدينة نقيوس، وكانت مدينة ذات شأن عظيم وحصناً ذا منعة وقوة[3]، وهي على الشاطىء الشرقي لفرع النيل الغربي الذي هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من

(١) قد سبق أن ذكرنا أن هذه العبارة التي ذكرها المؤرخون العرب قد دعمتها وثيقة تخلفت من ذلك العصر رقم ٥٥٣ من مجموعة «Karabacek» وهي «Paqyrus Ergherzog Rain-er. Fuhrer durch bie ausstellung».

(٢) قد أوردنا رواية ياقوت لهذا الخبر المعروف وهي تتفق مع الوقت الذي ترك فيه عمرو حصن بابليون وهو آخر إبريل. وإنا لنتبين في تلك الرواية صورة الحقيقة والصدق، فقد كان الجوار والاعتصام به مقدساً عند المسلمين ولو كان المستجير عدواً.

(٣) قد بينا في هامش صفحة ٥٩ أن موضع نقيوس القديمة هو القرية الحديثة المسماة (شبشير) وهي في الشمال الغربي من منوف على نهر النيل.

حصن بابليون، وعلى ساعتين من مدينة منوف، وكانت منوف إذ ذاك في ملك العرب. وكانت نقيوس فوق عظمها مدينة قديمة بها الآثار الجليلة من أيام الفراعنة، وكانت مقر أحد كبار رؤوس الدين المسيحي، ولها مكانة حربية كبرى في حفظ الطريق بين حصن بابليون والإسكندرية. فكان لا بد للروم أن يجتمعوا هناك مرة أخرى للقاء العرب.

والظاهر أن عمراً ابتدأ سيره أولاً على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء، ففيها مجال أوسع لخيله لا يعوقها هناك ما يعترض مصر السفلى من الترع الكثيرة[1]. وكان الروم على توقع أنه يفعل ذلك فلاقوه هناك، وكان أول ما التحموا بجيشه عند مدينة قديمة معروفة وهي (طرنوتي) أو (طرنوط) أو كما يسميها العرب (الطرانة). وكان في تلك المدينة فرضة يعبر النيل عندها في الذهاب إلى الإسكندرية[2]، وفيها كذلك بدء الطريق المؤدية إلى أديرة القبط في صحراء لوبيا. فكان لا بد للروم على ذلك من أن يقفوا وقفة في الدفاع عنها.

---

(١) إن اسم وردان الذي لا يزال محفوظاً في قرية على الجانب الغربي للنيل إذا أضفنا إليه ما جاء في المقريزي من الأخبار بدا لنا أن عمراً سار أولاً على الجانب الغربي للنيل في مسيره إلى نقيوس. حقاً إن هذا الطريق كان قليل العقبات وأسهل سيراً من الأرض التي بين فرعي النيل وهي تعترضها الخلجان والترع ما دام واثقاً من أنه يستطيع عبور النيل عند العتريس أو بني سلامة وقد قال المقريزي «وكان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التي تعرف اليوم بخربة وردان واختلف علينا السبب الذي خربت لأجله. فحدثنا سعيد بن عفير أن عمراً لما توجه إلى نقيوس عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفاً أثره فوجدوه في بعض دورهم فأمر بإخرابها وإخراجهم منها (وقيل كان أهل الخربة رهباناً كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو ووجه إليهم وردان فقتلهم وخربها فهي خراب إلى اليوم)». (المؤلف).

ملاحظة: آثرنا ذكر رواية المقريزي بتمامها إلى آخر الرواية الثانية وقد اقتصر المؤلف على الرواية الأولى واختصر الثانية من أول «وقيل كان أهل الخربة... إلخ». (المعرّب).

(٢) انظر كتاب أميلنو «Geog. Copte» صفحة ٤٩٣ وقد جاء فيه «كان هناك الموضع الذي عزم أباتير أن يعبر فيه النيل في مجيئه من الإسكندرية إلى حصن بابليون في مصر» وقد ذكر فيه المراجع الأخرى.

فقاتلوا العرب هناك[1] وأبلوا بلاء حسناً غير أنهم انهزموا واستطاع عمرو أن يستأنف السير إلى مدينة نقيوس.

وقد مر بنا أن مدينة نقيوس على الشاطىء الشرقي للنهر على مقربة من الموضع الذي تتصل فيه بالنيل الترعة التي بين أثريب ومنوف. وكان عمرو لا يستطيع أن يتركها على جانبه ويسير عنها، إذ هي حصن منيع. فعبر النهر إليها حتى إذا ما فتحها عاد إلى الغرب وواصل السير، وكانت تلك فرصة دون القائد الروماني (تيودور) إذا أراد المناجزة، ولكنه لم يغتنمها فلم يخرج للعرب بنفسه في عامة جيشه، بل أرسل القائد الجبان الضعيف (دومنتيانوس) ليذوذ عن نقيوس، ويعث معه كتيبة ضعيفة. وكان عند (دومنتيانوس) كثير من السفن قد أعدَّها لكي يدافع بها عن المدينة، أو لكي يهبط بها على جيش عمرو في أثناء عبوره للنهر، وكان عمرو لا بدّ له من عبور النيل إذا فتح المدينة، وإذا هو فشل ولم يفتحها كان أغلب الظن أنه يحاول العبور. غير أن قائد الروم عندما رأى المسلمين على كثب منه خانه جنانه، وترك جيشه وسفنه ولاذ في سفينة هارباً نحو الإسكندرية. فلما رأى الجنود أن قائدهم يفر عنهم ذلك الفرار وضعوا سلاحهم وهبطوا إلى الترعة سراعاً[2]، وقد أذهلهم الخوف، يريدون أن يقتحموها أو يبلغوا السفن فيها. ولكن عدوى خوفهم أعدت نوتية السفن فلم يأبهوا لشيء إلا لسلامتهم، فحملوا سفنهم مسرعين وهبطوا بها إلى الشمال

(١) قد ذكر ياقوت هذه الوقعة وقال إن عمراً حارب الروم في وقعة عند (طرنوط). وقد أخطأ المقريزي خطأ غريباً في ذلك الأمر فإنه عندما ذكر سير عمرو من بابليون إلى الإسكندرية قال: (الجزء الأول صفحة ١٦٣ طبعة بولاق) «فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط فلقي فيها طائفة من الروم» ثم قال بعد بضعة أسطر من ذلك: إن عمراً بقي في مريوط في حين كانت طلائعه عند كوم شريك! ويمكن أن يصحح ذلك الخطأ بأن نجعل (طرنوط) محل (مريوط) وهو الصحيح. وهذا الخطأ يوضح لنا نوع الخطأ الذي يضلل التاريخ من جراء تحريف الكتاب أو النساخ الذين يجهلون وصف البلاد.

(٢) هذا الوصف يدل على أن الترعة كانت في شمال نقيوس ويثبت أن موضع نقيوس هو شبشير.

يطلبون النجاة، فعمد كل منهم إلى قريته. وعند ذلك طلع العرب على جنود الروم وهم في الماء بغير سلاح فقتلوهم عن آخرهم، فلم ينج منهم إلا رجل اسمه (زكريا) بدت منه شجاعة عظيمة عند ذلك، ولعل نجاته كانت لما بدا منه من الشجاعة. ثم دخل العرب المدينة من غير مقاومة إذ لم يكن فيها جندي واحد يقف في سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة. قال حنا النقيوسي «فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها ولم ينج من دخل في الكنائس لائذاً ولم يدعوا رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً[1]، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صوونا)، وجدوا بها (اسكوتاوس) وعيلته وكان يمت بالقرابة إلى القائد (تيودور)، وكان مختبئاً في حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم. ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس في يوم الأحد وهو الثامن عشر من شهر (جنبوت) في السنة الخامسة عشرة من سني الدورة»[2] ويقع ذلك التاريخ في اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ٦٤١.

وقد أثبتنا هنا نص قول الأسقف القبطي لأنه يدل على ما كان عليه القبط

(١) أغلب الظن أن هذه مبالغة من الكاتب (حنا النقيوسي) دفعته إليها غيرته وعقده على الغالبين من العرب إذ كان من أول أصول العرب في الحرب ألا يقتلوا من استسلم وألا يقتلوا امرأة ولا شيخاً ولا طفلاً، يأمرهم بذلك دينهم ويحضهم عليه أمر خلفائهم الأولين إلى القواد والجنود. (المعرّب).

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٨ ولأجل معرفة التاريخ يرجع إلى الذيل الرابع لكتابنا هذا وقد قال زوتنبرج إن اسم المدينة هو (صا) ولكن صا هي مدينة (سايس) القديمة وهي في الشمال عند دمنهور وكانت لا تصل إليها يد العرب عند ذلك. وقد جاء في عنوان ذلك الفصل أن اسم المدينة هو (صوونا). وقد أخذنا هذا الاسم وأخذنا اسم (Esquâtâos) الذي ذكره زوتنبرج فجعلناه (Scutoeus) فإنه كان لا بد من وجود حرف متحرك في أول الكلمة حتى يمكن نطقها في اللغة العربية وقد نقل كتاب حنا إلى الأثيوبية عن اللغة الغربية.

من قلة حب للعرب الفاتحين، ولكي نظهر أنهم ما كان لهم أن يحبوهم، وقد كان منهم ما كان. وقد كان نقيوس معقلاً من معاقل الدين القبطي، ولا شك أن الناس كانوا مع ما نزل بهم من الاضطهاد لا يزالون على عقيدتهم يضمرونها في قلوبهم، ولو أظهروا الخروج منها تقية لما نالهم من عسف قيرس. وكان العرب في وقعتهم لم يفرّقوا بين قبطي ورومي. وليس فيما وصلنا من أخبار ذلك لفظ واحد يدل على أن القبط كان لهم شأن آخر في معاملة العرب. وكذلك ليس من شك في أن الشقاق والاضطراب قد دهما البلاد واجتاحاها كما يجتاح الطاعون الأرض، فلم يمض طويل زمن حتى عمت الفوضى واندفع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر. فكان ذلك ضغثاً على إبالة فانقسمت مصر السفلى إلى حزبين: حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب. ولسنا ندري إذا كان الفارق بين ذينك الحزبين فارقاً من جنس أو من مذهب أو من تشيع سياسي. على أننا نرجح الرأي الأخير. وقد أصبح من الأمور المعتادة في ذلك النضال بين الحزبين أن يتقاتل الناس وينهب بعضهم بعضاً، أو يحرقوا البلاد في حين كان العرب ينظرون إلى كِلا الحزبين نظرة الازدراء، ولا يأمنون لأيهما ولا يتعاهدون مع أحد منهما.

ولما فتحت مدينة نقيوس[1] وتفرّقت السفن الرومانية التي كانت بالنيل هناك، أصبح الطريق خالياً من العقبات دونهم إذا شاؤوا السير إلى الإسكندرية. وكان جيش الروم عند ذلك يقوده (تيودور) ويتراجع به شيئاً فشيئاً نحو تلك العاصمة.

وأقام عمرو في نقيوس بضعة أيام ثم عبر النيل إلى الغرب، ولكنه قبل أن يستأنف سيره أرسل أحد رجاله وهو شريك ليتتبع العدو المنهزم. وكان الطريق

---

(١) لا يعرف المؤرخون العرب شيئاً عن هذا الحادث وهم يمرون عليه بغير ذكر شيء عنه. وأما موقعة نقيوس التي جاء ذكرها في كتاب ياقوت فهي الموقعة التي حدثت في أثناء ثورة منويل.

على جانب النيل الأيسر مما يلي الصحراء، وكان دهساً للخيل، فلحقت طلائع المسلمين بالروم عند موضع على ستة عشر ميلاً إلى الشمال من الطرانة. ولكن المسلمين وجدوا عدوهم أكثر عدداً مما كانوا يحسبون، فلم يستطيعوا أن يهزموهم بحملتهم الأولى. بل لقد قيل إن القتال استمر ثلاثة أيام، واستطاع الروم مدة أن يردوا العرب ويلجئوهم إلى نهدٍ من الأرض ظلوا عليه حيناً، والروم تحمل عليهم حملات شديدة وقد أحاطوا بهم من كل جانب. فلما رأى شريك ما يحدق بالمسلمين من الخطر بعث مالك بن ناعمة ليخرج على فرس له أشقر لا يشق له غبار، وأمره أن يقتحم العدو أو يدور حوله حتى يأتي عمرو بن العاص فيحمل إليه النبأ، ففعل مالك ذلك، وأراد جماعة من الروم أن يلحقوا به فأعجزهم. ولما بلغ عمراً ما يهدد شريكاً من الخطر أرسل إليه الإمداد سريعاً. وقيل إن العدو فر هارباً عندما بلغه مجيء ذلك الإمداد. ومهما يكن من أمره فقد نجا شريك مما كان فيه، ولم يستطع الروم أن يغلبوا تلك الجريدة العربية، فأضاعوا بذلك فرصة كما أضاعوا من قبل كل فرصة أتاحها الحظ لهم. وقد سميَ ذلك الموضع الذي وقع القتال فيه باسم القائد العربي فهو معروف إلى اليوم باسم (كوم شريك)[1].

وسار عمرو يدفع العدو أمامه، ولعله سار إلى الشمال الغربي على جانب الترعة التي تلي الصحراء حتى بلغ الدلنجات، ومنها سار إلى الشمال في تجاه دمنهور. فوجد الروم مرة أخرى يعترضون سبيله عند سنطيس[2]، وهي على ستة أميال في جنوب دمنهور. ووقعت هناك وقعة شديدة انهزم فيها الروم

(١) نقلنا هذا الخبر عن المقريزي ويظهر أنه ينقل عن ابن عبد الحكم وقد جاء في (Ockley) ذلك الاسم الغريب (كرام الشريك) على أنه اسم الموضع ولكن كل ما ذكره ذلك المؤلف عن فتح العرب خلط وتحريف وتحوير يضارع ما جاء به المؤرخون العرب ويسمي ابن بطريق ذلك الموضع باسم (كرم شريك) ولكن من المستبعد أن يكون قد وجد كرم هناك.

(٢) جاء اسم هذا الموضع في المقريزي هكذا (سلطيس) وجاء ذلك الاسم في ترجمة ابن بطريق هكذا (Salstan) وهو تحريف ظاهر وقد قال (Weil) عند ذكره ذلك الاسم سلطيس =

وتقهقروا أمام العرب. ولم يحاولوا أن يقفوا لعدوهم في دمنهور أو يملكوها، بل تدافعوا نحو الشمال فانتهى بهم الانهزام إلى الطريق الأعظم المؤدي إلى الإسكندرية، فعبروا الترعة وكانت عند ذلك لا يكاد يوجد بها شيء من الماء، ثم ساروا حتى أظلهم حصن (كربون) بعد مسيرة نحو عشرين ميلاً. وكانت مدينة (كريون) آخر سلسلة من الحصون بين حصن (بابليون) والإسكندرية وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح سوى ما كان لها من خطر عظيم في الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التي عليها جل اعتماد الإسكندرية في طعامها وشرابها. ولكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا ما كان عليه حصن نقيوس[1]، مع أن الروم رمموا حصونها وزادوها قوة. ومهما يكن من الأمر فقد عزم (تيودور) على أن يقف هناك وقفته الأخيرة، ولم يكن في وسعه أن يختار مكاناً أليق من ذلك. فكانت حصون المدينة تساعد

= إنه لا بد أن يكون (سمياتيس) أو كما زعم (Ewald) أنه (سنطيس) ولا شك أن الاسم الأخير هو الصحيح وسنطيس قرية كبيرة في نحو منتصف المسافة بين كريون وكوم شريك.

(١) فيما يتعلق باسم كريون انظر أميلنو (Geog. Copte) صفحة ٢١٧ وفيه يذكر الصورة القبطية Ⲭⲉⲣⲉⲩ والاسم اليوناني (انظر) (٢٧*) (كذا) ولكنه لا يذكر الاسم الأشهر وهو (Choereum) وجاء في حنا النقيوسي فصل ٦٧ أن الترعة العذبة (ويسميها في عنوان الفصل ترعة كريون) قد حفرتها كليوبطره ويقول بروكوبيوس في كتابه (The Buildings of Justinian) إن النيل لا يجري إلى الإسكندرية ولكنه بعد مدينة (كيريوم) يعرج إلى اليسار وقد حفر القدماء مجرى عميقاً من (كيريوم) وأجروا فيه جزءاً من ماء النيل ليصل إلى بحيرة (مارية) وليس هذا المجرى صالحاً في أي جزء من أجزائه لسير السفن الكبرى، فالقمح ينقل في (كيريوم) من السفن الكبرى إلى قوارب تحمله إلى الإسكندرية «Pales-tune Pilgrims. Text Soc.» (الجزء الثاني صفحة ١٥٢) ويقول حنا على وجه التخصيص إن ترعة كليوبطره كانت صالحة للسفن الكبار ولكن السير فيها كان بحسب حال الماء. وقال ابن حوقل إن (كريون) كانت في أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط في وقت الصيف إذا علا النيل... وفي المدينة حاكم تحت إمرته مسلحة من الفرسان والمشاة (عن كاترمير «Mem. Geog. et Hist.» الجزء الأول صفحة ٤١٩).

الجنود وتشدّ أزرهم، وكان جنوده أكثر عدداً من العدو، وكانت الترعة تحميهم من بين أيديهم، وكان البطريق من ورائهم يفضي إلى الإسكندرية ومن السهل عليهم حفظه.

وقد قاتل جنود الروم في هذا الوقت قتالاً شديداً حتى شهد بذلك مؤرخو المسلمين أنفسهم، ولم يخذلهم ما أصابهم من قبل من النكبات من سقوط بابليون ونقيوس في يد عدوّهم، ولا ما حل بهم من خيانة بعض قوادهم أو جبنائهم. ولم يكن الروم في قلة إذ أتتهم الأمداد من وراء البحر من (قسطنطينية)، وكان قائدهم (تيودور) غير متهم في شجاعته ولا إقدامه في القتال، غير أنه لم يكن قائداً ذا رأي في الحرب. وقد عرف الناس جميعاً فيما يحيط بذلك الموضع كما عرف الجنود الذين كانوا بالإسكندرية أن ذلك اليوم، يوم كريون، له ما بعده، فأتت الكتائب تترى من كل مكان إلى لواء الروم من سنطيس ومن مدائن أبعد منها، مثل (خيس) و (سخا) و (بلهيب)[1]. ولم تكن

(١) نقلنا هذا عن البلاذري (صفحة ٢١٠) وهو يجمع القبط والروم في معركة كريون. أما سخا فهي بين فرعي النيل على نحو عشرين ميلاً في الشمال الغربي من سمنود ولا نستطيع أن نجد موضعاً في خرائط مصر الحديثة يشبه اسمه اسم بلهيت (أو بلهيب كما جاء في ياقوت وهو أصح) وهذا وفق الاسم القبطي ⲡⲉⲗⲍⲓⲡ لكن الموضع كان معروفاً وحدثت فيه ثورة للقبط سنة ١٥٦ هجرية (كاترمير «Recherches» صفحة ١٩٨) وقد بحث كاترمير في موضعها في (Obs. Sur Quelques points de la Geog. de . L'Eg.) صفحة ٤٥ وما بعدها وهو يبين أن ابن حوقل يجعلها على ست (ساكات) إلى الشمال من سنديون على نهر النيل عند ملتقى فرع صغير بفرع رشيد. فإذا جعلنا الـ (ساك) نحو ميل وربع كانت بلهيب (كما جاء في كاترمير) على مقربة من منطوبس كما يسميها هو) ولكن الاسم الموجود على خريطة الدومين هو (مطوبس) ومن الظاهر أن بلهيب كانت على الجانب الغربي للنهر وليست على الشرقي، وقد زال الفرع الصغير من زمن طويل وصار موضعه مستنقعاً ولكن هناك قرية صغيرة اسمها (دبي) في الموضع المطلوب، ولعل هذا الاسم صدى للاسم القديم (بلهيب) وهي عند ثنية النهر على نحو عشرة أميال أو إثني عشر ميلاً إلى جنوب رشيد وقد أخطأ أميلنو (Geog. Copte) في صفحة ٣١٤ إذ قال إن الملتقى الذي ذكره ابن حوقل كان قديماً عند مدينة (ديروط) فإن ديروط قريبة من (سنديون) ولو أنها على الناحية الأخرى من النهر. ولعل أميلنو لم يحسن قراءة كاترمير. =

تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصير (كريون)، بل كان قتالاً شديداً استمر بضعة عشر يوماً، وحدث في وقت من أوقاته أن وردان مولى عمرو المعروف كان يحمل لواء المسلمين، فأصابت عبد الله بن عمرو جراحة شديدة وكان إلى جانبه، فأجهضته شدة القتال، فسأله أن يرتد قليلاً يطلب الروح. فقال له وردان: «الروح تريد؟ الروح أمامك وليس خلفك» ثم أقبلا على القتال. فلما سمع عمرو بما أصاب ولده بعث إليه من يسأل عن حاله فتمثل عبد الله بأبيات من الشعر[1] يطمئن بها والده، فلما سمع عمرو بذلك قال «إنه ابني حقاً». وحمل المسلمون[2] مرة بعد مرة حملات شديدة، ولكن الفتح أبطأ عليهم، وصلّى عمرو بالناس صلاة الخوف. ويلوح لنا أن تلك الوقعة لم تكن نصراً لإحدى الطائفتين بل تساوت فيها الكفتان، ولكن مؤرخي العرب يقولون إنها كانت نصراً عظيماً للمسلمين. ومهما يكن من الأمر فلا شك في أن المسلمين لاقوا نصراً بعد قتالهم في تلك الأيام العشرة، وذلك أنهم استطاعوا أن يفتحوا مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها. ولا نستطيع أن نقول شيئاً عما حدث بعد ذلك في ارتداد تيودور. فلا ندري أكان ارتداد جنوده انهزاماً لا يلوون فيه على شيء حتى بلغوا أبواب الإسكندرية، أم كان تقهقراً وئيداً في نظام على أن

= وكانت خيس في جوار دمياط . انظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٣٣٧ ، ويذكر ياقوت (فرطسا) أو (قرطسا) بين البلاد التي قاومت عمراً ثم يقول إن عمراً صالح (بلهيب) .

(١) جاء في المقريزي أنه تمثل بهذا البيت وحده.

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... رويدك تحمدي أو تستريحي

ثم ذكر الأبيات التي من بينها هذا البيت ونسبها إلى قائلها عمرو بن الأطنابة. (المعرّب).

(٢) ذكر المقريزي هذا الخبر وهو الذي أخذنا عنه مدة الأيام العشرة للقتال ولم يذكر البلاذري إلا وقعة عند كريون. وأما حنا النقيوسي فمن سوء الحظ أنه قد أجمل هنا واختصر فقال إن عمراً أرسل جيشاً عظيماً من المسلمين إلى الإسكندرية فملكوا كريون فسار من فيها مع قائدهم تيودور إلى الإسكندرية.

ديوان (حنا النقيوسي) يشتم منه أن التقهقر كان وئيداً وهو لعمـري قول لا يتهم صاحبه.

ولا بدّ قد خسرت الطائفتان كلتاهما في ذلك القتال بين الطرانة وكريـون خسارة كبرى، وكـان الروم أقـدر على احتمال تلك الخسـارة من العرب. وإذا نحن حسبنا ما تركه العرب من المسالـح في (بابليـون) وسواهـا من بلاد مصـر السفلى، يتضـح لنا أن عمراً ما كان ليستطيع السير إلى الإسكندرية ما لم تكن قد أتته أمداد عظيمة في الشتاء المنصرم أو في الربيع. فلم يكن ليجروء أن يطلع على الإسكندرية بأقل من خمسة عشر ألفاً. وإنه لأقـرب للحق أن نجعل عـدد جيشه عند ذلك عشرين ألفاً. ولما فتح العرب كريون خلا أمامهم الـطريق إلى الإسكندرية، ولم يبطىء عمرو إلا ريثما يستريح جنده من عناء القتال الأخير، ثم سار في سبيله ولم يلق كيداً حتى بلـغ الإسكندرية.

ولا بدّ أن كثيرين ممن كان في جيش العرب عند ذلك رأوا جميل المدائن في فلسطين والشام مثل أذاسا ودمشق وبيت المقدس وقد يكون منهم من وقعت عينه على أنطاكية الشهيرة أو رأى عجائب تدمر، ولكن ذلك كله لم يكن شيئاً إذا قيس بعظمة المدينة التي تبدّت لهم عند ذلك، وهي عظمة بارعة نادرة، تتجلى لهم إذ يسيرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديـرة الكثيرة بـأرباضهـا. فقد كانت الإسكندرية حتى في القرن السابع أجمل مدائن العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئاً يعدلها، اللهم إلاّ رومة وقرطاجنة القديمتين. فما سرحت العين لا تقع إلا على أسوار وحصون لا نظير لها، بقيت بعد ذلك قروناً وهي مثار إعجاب من رآها من أهل الأسفار. وكانت تشـرف وراء هذه الأسـوار والحصون بدائع من قباب ومن عمد بعضها أسطواني وبعضها مربع (مما يسمى بالمسلات)، تقوم فوق قواعدها، ومن تماثيل ومعابد وقصور تتلألأ وتتألق، فإذا ما تياسرت[1] رأيت دون ذلك معبد السرابيوم، وقد أناف بسقفه المذهّب والقلعة

---

(١) جاء العرب إلى المدينة من ناحية الجنوب الشرقي.

التي كان يشرف فوقها عمود دقلديانوس[1]، فإذا ما تيامنت بـدت لك الكنيسـة العـظمى كنيسة القـديس مرقس تليهـا العمـد المـربعـة التي سميت (مسـلات كليوبتره)[2]، وكـانت عند ذلـك قد عمـرت نيفاً وألفي عـام وذلك ضعفـا عمر المدينة نفسها. وفيما بين يسارك ويمينك كان البناء الجليل يبدو ظـاهره مشـرقاً ويلوح من ورائـه ذلك الأثـر العظيم المعـروف باسم (فـاروس)، وكـان النـاس يعدّونه إحـدى العجائب السبـع في العالم وحق لهم أن يفعلوا. ومـا كان هـذا الجلال الفائق والجمال البارع وما يبدو من عظمته وقوته إلا ليقع من قلوب غزاة الصحراء موقعاً عجيباً، وقد رأوا ما رأوا من المدينة التي جاؤوا يفتحونها[3].

---

(١) البرهان على أن العمود المعروف بعمود بومبي، كان على القلعة ما قام به من البحث حديثاً المسيو (بوتي) مدير المتحف الإسكندري.

(٢) كان مقدوراً لهذه المسلات أن يسلبها البريطانيون والأمريكانيون من مصر: وإحداها اليوم على شاطىء نهر التايمز، والأخرى في نيويورك وكانتا حملتا من هليو بوليس قديماً في أيام أغسطس وكان علو الواحدة منها ٦٨ قدماً فكان أعلاها على الأقل يمكن رؤيته على مسافة من خارج الأسوار.

(٣) تروي قصة أن عمرو بن العاص جاء الإسكندرية قبل ذلك فقد قيل إنه في صغره أنجى حيـاة شمـاس رومي مـرتين: فمـرة أنجـاه بـأن أعـطاه مـاء وقـد أشـرف على الهـلاك عـطشـاً. وأنجـاه مـرة أخـرى بـأن قتـل أفعى كـانت على وشـك أن تلسعَـهُ في نـومـه فـوعـده الشمّاس بـأن يعـطيـه ألفي قـطعـة ذهبيـة (١٠٠٠ جنيـه) جـزاء لـه على إحسانـه إذا هـو جـاء معـه إلى الإسكنـدريـة فصحبـه عمـرو على ذلـك فلمـا كـان في المدينة وجد قومـاً يلعبون بكـرة عليها نقش التـاج في ميدان السبـاق فاشتـرك معهم ووقعت الكرة في كمه. وقد روى مؤرخو العرب أن هذا شيء لم يحدث من قبل لأحد إلا صار حاكم مصر» ولم تكن تلك الجائزة أقل أجزاء القصة نصيباً من الخيال، فإن عمراً قد يكون زار مصر من قبل من أجل تجارته وقد يكون اشترك في لعب بالكرة يسمى فيه الظافر «ملكاً». ويمكن أن نقرأ هـذه القصة في كتـابـي (Weil, Ockley) وهي منقولـة عن ابن عبد الحكم وقد أخذها المقريزي عنـه مفصلة. وتروى روايـة أخرى تجعـل لقاء عمـرو للشمـاس في بيت المقدس وأخـرى تجعل ذلـك بقـرب الإسكنـدريـة، وقـد جـاء في أبـي صالح (صفحة ٧٥) «وقد زار عمرو مصر من قبل في أيام الجـاهلية وعـرف الطرق المؤدية إليها منذ كان يتاجر هناك مع رجل من قريش، وهذا أقرب إلى الحقيقـة. ونجد خبر المقريزي في كتاب الخطط الجزء الأول صفحة ١٥٨.

وكانت مسلحة المدينة عند ذلك نحواً من خمسين ألفاً، وكانت قوات وفيرة فيها إذ هي على البحر، ولم يكن فيه للمسلمين بعد سفينة واحدة تنقص من سلطان الإمبراطور عليه. وكانت الأسوار منيعة تحميها الآلات القوية، وهي الآلات التي رأيناها في زمن (نيقتاس) تفتك بأسطول العدو في النهر وتغرق سفنه. ولم يكن عند العرب شيء من آلات الحصار إذ لم يستطيعوا نقل ما غنموه منها قبل ذلك من الروم، ولم تكن لهم خبرة ودراية في فنون الحصار وحربه. وعلى هذا كان في يد الروم من العدّة والعدد ما يستطيعون به أن يقووا على حرب فرسان المسلمين، وليس لهم من العدة إلا سقيمها. على أن العرب كانوا قبلُ ذلك قد فتحوا الفتوح العجيبة في مصر والشام، فلم تقف دونهم حصونها، فكانوا كلما ذكروا ذلك امتلأ قلبهم إيماناً وقوة ووثقوا من أن العاقبة لهم. ولكن ذلك الإيمان كان بطيء الأثر، فإن عمراً عندما حمل بجيشه أول مقدمة على أسوار المدينة كانت حملته طائشة غير موفقة، فرمت مجانيق الروم من فوق الأسوار على جنده وابلاً من الحجارة العظيمة، فارتدوا باعدين عن مدى رميها، ولم يجرؤوا بعد ذلك على أن يتعرضوا لقذائفها. وقنع المسلمون أن يجعلوا عسكرهم بعيداً عن منالها وانتظروا أن يتجرّأ عدوهم ويحمله التهور على الخروج إليهم.

وليس في أيدينا من الأخبار الموثوق بها ما يدل على وقوع قتال من هذا القبيل، فليس في ديوان (حنا النقيوسي)[1] شيء آخر في وصف القتال بالإسكندرية سوى ما ذكرناه من تهوّر عمرو في حملته الأولى، وما أصاب العرب من فعل المجانيق التي لم يطيقوا عليه صبراً فارتدوا، ولا نستطيع أن نفهم من ذلك الإغفال إلا أمراً واحداً وهو أنه لم يكن ثمة حصار للإسكندرية بالمعنى الصحيح. فقد كان البحر يحمي المدينة من جهة الشمال، وكانت الترعة وبحيرة مريوط تحميانها من الجنوب، وكان إلى غربها ترعة (الثعبان)، فلم يبق من فرج إلا شرقها وجنوبها الشرقي، ولم يستطع المحاصرون أن يقتربوا من الأسوار من

---

(١) صفحة ٥٧٠.

ذلك الفرج، فلم يكن لهم بد من أن يقنعوا بالوقوف والرصد ولم يكن رصدهم تاماً ولا مجزياً. وعلى ذلـك لم يتحقق للعرب حصـار المدينـة حتى من جانب البر. ومع ذلك فقد كـان لوقـوف العرب بعسكـرهم على كثب من المدينـة أثر كبير، إذ كانوا هناك يحادون الروم ويقطعون صلتهم بسائر البلاد. ولسنا نعرف عين الموضع الذي كان فيه عسكرهم، فإن تعيين ذلك من أشق الأمور. فقد قال السيوطي إنه كان «فيما بين الحلوة وقصر فارس وما بعده»، وقصر فارس كان في الجهة الشرقية(١) ولعل الفرس قد بنوه ليستعينوا به على الحصار. فإنا نعرف أن دقلديانوس لم يستـطع أن يحدث أثـراً في حصون المـدينة حتى بنى قلعـة في شرقها(٢)، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقتحم المدينة وأسوارها المنيعة التي لا تكاد تنال إلا بجيش قوي ظل على الحصار زمناً طويلاً، وكان في داخل المدينة خونة يساعدونه. فلا بد لنا من أن نقول إن المسلمين عجزوا عن أن يقوموا بعمل ما وقنعوا بالوقوف والمرابـطة في عسكرهم، ولم يكن عسكـرهم حيث كان إلا مرصداً يرقبون فيه عدوهم. ولعمري إننا لفي شك من أن العرب أقاموا عسكراً في جوار الإسكندرية، فلعلهم لم يبعدوا به عن مدينة كريون.

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيه ولم يكن قائد العرب بالرجل الذي يخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعة فتحها عنوة. فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وإنما كان واثقاً من شيء واحد، وهو أن أصحابـه إذا خرج لهم العدو وناجزهم القتال صبروا وثبتوا وغلبوه، وإن كان أكثر منهم عدداً. وعلى ذلك عول على أن يخلف في عسكره جيشاً كافياً للرباط، وأن يسير هو مع

(١) انظر ما سبق في هامش صفحة ١٢٩ والقول الذي أشرنا إليه من قول ابن العبـري. وقد اتفق أبو الفداء مع السيوطي في حين أن ابن عبد الحكم يقول إن العرب بعد أن أقاموا في الحلوة شهرين ساروا إلى المقس على الجانب الغربـي.

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٤١٧ وأقواله جديرة بالذكر: «ولم ينجـح في أخذ الإسكنـدرية إلا بعد أن بنى قلعة المدينة وأقام هناك مدة طويلة ثم أتى إليه بعض أهل المدينة ودلوه على موضع يدخل منه إليها. ولكنه لم يستطع أن يقضي على مقاومة المدينة إلا بجيش كبيـر بعد عناء شديد».

من بقي من الناس فيضرب بهم في بلاد مصر السفلى، قبل أن يتعذر[1] على المسلمين السير بها إذ كان فيض النيل يقترب أوانه وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء أسوار المدينة فيئاً للعرب، فغنموا منها غنيمة عظيمة وهدموا كثيراً منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك في سفن بالنيل إلى حصن (بابليون) كي يقيموا به جسراً ليعبروا عليه إلى مدينة لم يستطيعوا من قبل أن يعبروا إليها[2].

---

(١) لعلنا لا ينبغي أن نمر على عبارات مؤرخي العرب في قبط هذا العصر بغير أن نقول كلمة فيه. فقد قال ابن عبد الحكم إن القبط ساعدوا العرب في كل ما احتاجوا إليه وإن رؤساء القبط حفظوا الطرق وأقاموا لهم الجسور وفتحوا الأسواق في سيرهم إلى الإسكندرية. وقد نقل عنه المؤرخون الآخرون هذا الخبر. ولكن من سوء الحظ أن ابن عبد الحكم يغير ترتيب الحوادث ولا نستطيع أن نعتمد على هذا القول، ونذهب إلى أنه يدل على حالة عامة كان القبط عليها في هذا الوقت، وفي الوقت عينه نقول كما قلنا من قبل إن تلك المساعدة قدمها مسلمة القبط كما قدمها غيرهم من القبط الذين أرغموا على الخدمة. ولكنا لا نشك في أن هذه العبارة إنما يقصد بها مساعدتهم للعرب في وقت ثورة منويل. والبلاذري أقل جدارة بالتصديق إذ يقول إن العرب منذ جاؤوا إلى الإسكندرية أراد القبط في المدينة أن يصالحوهم فطلب المقوقس هدنة ولكن العرب أبوا ذلك عليه ثم يقول إن المقوقس أراد أن يخيف العرب بإيهامهم أن عدد من المدينة من الجند عظيم فجعل على الأسوار النساء والأطفال وأمرهم أن يتجهوا بوجوههم إلى داخل المدينة وأن يتجه الرجال بوجوههم نحو العدو. فأرسل إليه عمرو عند ذلك يقول: «إننا لم ننتصر بكثرة العدد، فقد لقينا ملككم هرقل وقد علمت بما كان» فعرف المقوقس صدق قوله ونصح الناس بالإذعان فلامه الناس على خوفه وخيانته وأبوا إلا القتال. وكل هذا خيال محض. فقد كان المقوقس منذ زمن في المنفى. وهذه القصة إنما هي صدى ما حدث في حصن بابليون وقد كان بعض الروم والقبط يلحقون بالعرب أفراداً ولكن جماعتهم لم تساعد العرب ولم تنضم إليهم.

(٢) نقلنا هذا عن حنا النقيوسي، الفصل الخامس عشر بعد لقائه. وقد أساء تأويل هذا وصححه زوتنبرج وهو مخطىء (في هامش ١ صفحة ٥٦٢) فقد قال زوتنبرج إن الواجب تصحيح العبارة الآتية «فذهب عند ذلك ولحق بجنده الذين كانوا في حصن بابليون وحمل إليهم الغنائم التي غنمها من الاسكندرية وكان قد هدم مساكن أهل الإسكندرية الذين =

ولم تكن السرية التي سار بها عمرو بن العاص في مصـر السفلى سريـة كبيرة، فما كان يتوقـع كيداً كبيراً ولا قتالاً شديداً اللهم إلا عند البلاد المحصنة، ولم يكن في الوقت متسع لحصارها لو شاء. وكان عمرو إنما يريد القفول إلى (بابليون)، ولكنه أحب أن يعلم أهل مصـر السفلى بقربـه ويشعرهـم شـوكته. فسار إلى كريون ومن ثم إلى دمنهور ثم سار إلى الشرق يجـوس خلال الإقليم الذي يعرف اليوم باسم الغربية، حتى بلغ (سخـا). وكان ذلـك الموضـع إلى شمالي المدينة الحديثة (طنطا) على نحو إثنين وعشرين ميلاً منها، وقد ظل إلى ما بعد ذلك الوقت بزمن طويل وهو قصبة الإقليم، وكان موضعاً حصيناً[1]. ولم يفلح عمرو في تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغتة وأخذهـا على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه. فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهي على نحو ستة أميال في الشمال الغربـي من موضع (طنطا). ومن (طوخ) ساروا إلى (دمسيس)[2]، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم

= هربوا» وجعل لفظ (بابليون) بدلاً من «حصن بابليون» ولكن القول الأخير لا خطأ فيه فقد كان العرب يملكون الحصن. ثم قال إن قـوله: «الغنـائم التي غنمها من الإسكنـدرية» وقوله: «أهل الإسكندريـة» خطآن آخـران في الترجمـة. ولكن الغنائم التي أخـذت من ضواحي الإسكندرية يصح أن يقال إنها أخـذت من الإسكندريـة. وليس من تعسف أن نسمي النـاس الذين يسكنـون ضواحي الإسكنـدرية من «أهـل الإسكندريـة» ونتفق مع زوتنبرج في أن نقول إننا لا نستطيع فهم القول الذي يصف الغرض الذي أخذ له الخشب والحديد فلا يمكن أن يكون المقصود من «مدينة النهرين» هو جزيرة الروضة، بل لا بد أن يكون ذلك بلداً في مصر السفلى ولا بد أن يكون من الضروري للوصول إليها أن تقام جسور.

(١) جاء في ياقوت أن سخا حصن كورة الغربية وفيها مقام الوالي وقد فتحها خارجة بن حذافة عند فتح عمرو لمصر (الجزء الثالث صفحة ٥١) ولكن خارجة كان قـائداً على الحصن «بابليونوقد قال حنا النقيوسي بوضوح صفحة ٥٦١ إن عمراً لم يستطع أن يحدث أثراً ما في سخا عند ذلك ولم يفتحها إلا فيما بعد. وسخا من المواضع القليلة في مصر السفلى التي ذكرها العرب وحنا النقيوسي جميعاً.

(٢) قـال حنا النقيـوسي في وصف هذا الأمـر: «وسار إلى سخـا (طوخـو ـ دمسيس) (ترجمـة =

يستطيعوا فتحهما ولم يجد أهلهما مشقة في صد العرب. ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التي على فرع النيل الشرقي، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة دمياط، ولعل تلك الغزوة كانت على يدي سرية عمرو في هذا الوقت نفسه. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئاً من المدائن في مصر السفلى. ولنذكر أن العرب قضوا في عملهم في هذا الإقليم إثني عشر شهراً[1] إلى ذلك الوقت. وبعد ذلك الغزاة التي أوقع فيها عمرو بالبلاد وغنم منها عاد إلى حصن (بابليون) ومن معه دون أن يجني كبير فائدة، وإن لنا لدلالة في غزاته تلك في مصر السفلى، وما لاقاه فيها من القتال في مواضع كثيرة، وعجزه في جل ما حاوله من الفتح في بلاد الشمال القصوى. فإن ذلك يزيدنا برهاناً على ما تحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب إليهما الناس: أولهما أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو تدافع، وثانيهما أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه.

= روتنبرج) ويزعم أميلنو أن الاسم الأخير تحريف في اللغة الأثيوبية بخلط الإسمين العربيين «طوخ» و«دمسيس» بأن جعل حرف العطف (الواو) آخر حروف الكلمة الأولى (Geog. Copte) صفحة ٥٢٥ وهذا قول مقنع وأما طوخ فإن في مصر السفلى على الأقل ست قرى بهذا الاسم طوخ لا كلام في الدقهلية، وطوخ دلكة، وطوخ بلفظه، وطوخ طبشا في المنوفية، وطوخ الملك في القليوبية، وطوخ مزيد في الغربية؛ ولعل الأخيرة هي المقصودة هنا نظراً لموضعها. وأما (دمسيس) واسمها الآن (ميت دمسيس) فعلى نحو تسعة أميال إلى شرق طوخ مزيد وهي على الجانب الشرقي لفرع دمياط وقد جاء اسمها خطأ في خريطة الدومين (١٨٨٨) للوجه البحري فجعلت هناك (ميت رمسيس) بالراء وهي غلطة عجيبة وقد أوردها (نيبور) على الصورة الصحيحة (ميت دمسيس) انظر كتاب (Voyage en Arabie Etc.) صفحة ٧١ الجزء الأول.

(١) جاء في ديوان حنا النقيوسي أن عمراً «قضى إثنتي عشرة سنة في حرب المسيحيين في شمال مصر السفلى ولكنه أخفق في فتح بلادهم (ترجمة الدكتور شارلس) ويزعم زوتنبرج أن المقصود لا بد أن يكون سنتين بدل إثنتي عشرة سنة، ولكن هذا يكون خطأ في تاريخ الحوادث، ولكنا إذا قرأنا إثني عشر شهراً بدل إثنتي عشرة سنة كان التاريخ صحيحاً فإن الوقت كان عند ذلك شهر يوليه سنة ٦٤١ وقد بدأ القتال في مصر السفلى لفتح بلادها بعد وقعة هليوبولس وكانت في يوليو سنة ٦٤٠.

الفصل العشرون

حوادث القسطنطينية

آخر أيام هرقل ـ قسطنطين وهرقل الثاني يليان الأمر مع الإمبراطورة ـ رجوع قيرس من المنفى ـ موت قسطنطين ـ عصيان فلنتين ـ خطة إرجاع قيرس إلى الإسكندرية ـ البواعث التي دفعت قيرس إلى الاذعان للعرب ـ تولية قنسطانز ـ مرتينه ترى الصلح مع المسلمين ـ تيودور وقيرس يرجعان إلى مصر ـ خطة تيودور في الهرب إلى بنطابوليس وحبوطها ـ نزولهما في الإسكندرية .

فيما كانت هذه الحوادث التي نصفها تجري في مصر كانت القسطنطينية تشهد من الغير أجلها . ولقد أشرنا من قبل إشارة موجزة إلى موت هرقل وقلنا إنه حدث في آخر أيام حصار بابليون . وقد كان منذ وداعه المحزن لبلاد الشام في سنة ٦٣٦ يقيم في عزلة في مدينة (خلقيدونية) ، وجعل يسترجع قوة عقله شيئاً فشيئاً بعد أن كان قد مسه شيء من الخبل من قبل ، حتى لقد استطاع أن يعالج أمور دولته في أوروبا ويحل مشكلاتها، مبدياً في ذلك شيئاً مما عهد فيه من الكياسة وأصالة الرأي في أمور السياسة . ولكن جسمه كان قد اعتل ، وزاد في سقمه وآلام دائه ما كان ينتاب الدولة من المصائب والنكبات تلي إحداها الأخرى . فمصائب في الشام تليها نكبات في مصر ، ورأى الدولة وقد فقدت بيت المقدس ثم أنطاكية وقيصرية ، ثم نزعت كل بلاد الشام عنها وأخذها العدو . فأحب أن يخلص مصر من ذلك العدو لما يعرفه من عظم شأنها في دولته . وكانت الحرب الطاحنة التي استمرت طوال السنين قد استنزفت أموال الدولة ورجالها ، ولكنه كان لا يزال يستطيع أن يبعث من جيوشه وخزائنه

المنتقصة أمداداً كبيرة للدفاع عن النيل . ويقول مؤرخو العرب إنـه كان عـازماً على قيادة تلك الجيوش بنفسه[1] ، غير أنهم إذ يقولون ذلك لا يذكرون أن غزو مصر لم يقع إلا قبل موته بسنة تزيد قليلاً ، وأنه كان عند ذلك صريعاً لدائه الذي قضى عليه ، وقد سلبه السقام قوته ونشاطه إذ لم تقل إنه قد سلبه القـدرة على الحركة ذاتها . ثم مات الإمبراطور في يوم الأحد الحـادي عشر من فبـراير من سنة[2] ٦٤١ بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة ، وكان عمره إذ ذاك ستة وستين عاماً ، وكانت وفاته قبل فتح حصن بابليون بشهرين .

---

(١) مثل السيوطي فإنه يقول: «ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الإسكنـدرية إن ذلـك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية (يقصد عيد الفصح) فقـال الملك لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها، فأمر بجهازه ومصلحته لخـروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاماً لها وأمـر ألا يتخلف أحد من الروم وقـال ما بقي للروم بعد الإسكندرية حرمة. فلمّا فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤونته» (صفحة ٧٠). ونفهم من التاريخ الذي أورده ومن سياق كلامه أنه يقصد هرقل الأكبر.

(٢) يمكن أن نعتمد على ثبوت هذا التاريخ ولكن الاضطراب المعهود ماثـل في هذا الأمـر مثوله في غيره. فقد قال تيوفانز وقيدرينوس إن التاريخ هو ١١ مارس في السنـة الرابعـة عشرة من سني الدورة القسطنطينية بعد أن حكم ثلاثين عاماً وعشرة أشهر وهذا مستحيل لأن حكمه ابتدأ في أكتوبر. والديوان الشـرقي يجعل مـوت الإمبراطـور في ٩ فبرايـر أو (١٥ أمشير) بعد حكم إحدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر، والتاسع من فبراير يقع حقيقة في ١٥ أمشير ولكن مدة الحكم التي ذكرها إذا أحصيناها نجد آخرها في مارس سنة ٦٤٢ ولكن (نيقفوروس) يجعل مدة حكمه ثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام بالضبط وقد وليَ هرقل الأمر في ٥ أكتوبر سنة ٦١٠ «.Later Rom. Emp» (الجزء الثاني صفحة ٢٠٦). فإذا أحصينا تلك المدة التي جاء بها نيقفوروس من أول حكمه كان موته في ١١ فبـراير سنة ٦٤١ وكان هذا يوم أحد وهو ما يقوله الديوان الشرقي في حين أن يوم ٩ فبراير الذي جاء في هذا الديوان كان يوم جمعة وقد جاء التاريخ الصحيح في (ليبو) ولكن ناشر كتابه (Saint Martin) وكتـابه هـو (.Histoire du Bas Emp) علّق تعليقاً في صفحـة ٢٨٣ من =

وهكذا ختمت تقلبات عجيبة الحوادث في حياة عظيمة . وكان هرقل يقصد في حياته قصداً ، وذلك أن يعيد بناء ما تهدّم من الدولة الشرقية . وكان لا أمل في نجاحه عندما ابتدأ ذلك العمل ، غير أنه أتمه أو خيل إلى الناس أنه أتمه ، وكان إتمامه إحدى العجائب التي قد تبلغ حدّ الإعجاز . ولكن فشله ابتدأ حيث كان إنتصاره ، فإن البناء الذي أقامه لم يكن متماسك الأجزاء ، وكانت جريرته فيه أنه أخطأ وضل ، فحل ما كان يجدر به عقده . وقطع ما كان يجب عليه أن يصله من أواصر التعامل والإشتراك بين الناس في حياتهم ، ومن روابط الدين. وكانت تلك لعمري روابط كفيلة بأن تجمع الناس وتوحد كلمتهم لو أحسن الحاكم وتسامح في حكمه ، وأباح للناس ما يشاءون من أمور دينهم . وإن من أعجب ما اتفق وقوعه في التاريخ أن يقع خطأ هرقل في سياسته في الوقت الذي قامت فيه دعوة الإسلام الجديد في مجاهل بلاد العرب . ولكن هكذا جرت مشيئة الله في قدره وقضائه في العالم . وعاش هرقل حتى تبدى له خطؤه الذي قارفه ، أو لقد استطالت به الأيام كي يندب سوء حظه الذي أفسد عليه أعماله وأحاط بثمارها . وقد كان في أمور الدين يسير على ما تعارف عليه الناس في زمنه، وكان في ذلك سوء حظه ، إذ لم يرتفع فوق ذلك ولم يبتدع في سياسة الدين خطة جديدة تصلح لعصره وما جدّ فيه من الأحوال . وإنه لجدير بنا أن لا نلومه بل نرحمه ونعطف عليه لما لحق به من الفشل ، وحسبه ما لا بد قد لاقاه من غصة الندم فوق ما كان به من ألم الداء في آخر أيامه . وقد عهد قبل أن يموت بما يؤول إليه الأمر بعده ، فجعل ابنه قسطنطين يقسم الأيمان على أن يعفو عمن كانوا في السجن والنفي ، وأن يرجع كل طريد طرده[1] . ودفن

= الجزء الحادي عشر فصل فيه التاريخ المخطىء الذي جاء به تيوفانز وقيدرينوس وقال: «ولما كان المؤرخون لم يورد أحد منهم التاريخ الصحيح كان لا بد أن ما جاء في هذا النص تاريخ مخطىء» ويجدر بنا أن نضيف بعد أن حنا النقيوسي يقول إن موته كان في شهر (بكاتيت) وهو فبراير عند الروم، ويقول إنه كان في العام الرابع عشر من سني الدورة وسنة ٣٥٧ للشهداء وهو تاريخ دقيق في كل ما جاء فيه.

(١) سبيوس.

الامبراطور في كنيسة (الرسل المقدّسين) وبقي قبره مفتوحاً ثلاثة أيام . وقد جعل مع جثمانه تاجه الذهبي فنزعه قسطنطين عنه ثم أعاده إليه هرقل الثاني ووهبه للكنيسة[1] .

وُلِيَ الأمر بعد هرقل بعهد منه ولداه ، قسطنطين ولد زوجه (أودوقية) ، وهرقل ابن زوجة الأخرى مرتينه ، وجعلت الإمبراطورة شريكة لهما ، ولكن ذلك الإشتراك لم يكن مما يتيسر الحكم معه ، وما كانت الإمبراطورة مرتينه لترضى بمثل هذا الإشتراك في الحكم وهي من هي ، ذات العزم القاطع التي حكمت الدولة لا يكاد يشاركها أحد في أواخر أيام زوجها . وكان قسطنطين أكبر الأخوين وآثرهما عند الناس ، وكان من حزبه خازن الدولة (فلاجريوس) و (فلنتين) الذي جعل عند ذلك قائداً ، وبعث ليكون قائد الجند في آسيا الصغرى[2] ، وعلى ذلك لم توفق مرتينه في سعيها في أمر ولدها هرقل أو (هرقلوناس) كما كانوا يسمونه تمييزاً له ، بل وجدت في سعيها ذاك مقاومة شديدة . وكان البطريق سرجيوس قد سبق الامبراطور إلى أجله ، واختير لولاية أمر الدين بعده راهب اسمه (بيروس) . ويلوح لنا أنه كان في أوّل أمره مع قسطنطين ممالئاً على مرتينه ، فبايع لقسطنطين بالملك ولم يشرك معه مرتينه ولا أحداً من أولادها[3] . ولكن داود و (مارينوس) عملا على اختطاف (بيروس)

---

(١) نيقفوروس وهو الذي قال إن التاج قدر بسبعين رطلاً من الذهب.

(٢) أخذنا هذا عن سيبوس وقد علق الأستاذ (بيوري) على ذلك بحق بقوله: «ويخيم على تاريخ خلفاء هرقل ستار كثيف من الظلمة، ويأسف لأنه ليس ثمة مؤرخون وممن كانوا يعيشون في ذلك الوقت (Later Rom. Emp.) (الجزء الثاني صفحة ٢٨١) ولكن سيبوس وحنا النقيوسي يكادان يكونان معاصرين وكلاهما يذكر طائفة عظيمة من أخبار هذا العصر، وكان سيبوس بلا شك يكتب على الأكثر أخبار أرمينية. وأما حنا فقد كان ميدان أخباره واسعاً، غير أن معظم عنايته كان بأخبار مصر بطبيعة الحال وكلاهما على أي حال صعب على الافهام.

(٣) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٤ وعبارته واضحة ولكنها تناقض ما يقرره التاريخ . وعلى ذلك كان (بوري) يقول إن «مرتينه كانت على وفاق وثيق مع البطريق المونوثيلي (بيروس) انظر =

وحملاه سراً إلى جزيرة في غرب أفريقيا[1] .

وقد قام قسطنطين بإنفاذ أمر أبيه فأرسل أسطولاً عظيماً ليعيد (قيرس) من منفاه[2] ، وكان يود الإجتماع به كيما يستشيره في أمر مصر ، وكانت مرتينه تلح في إرجاعه إذ كانت عالمة بما ينطوي عليه قلبه من الولاء لها والمواتاة في مقاصدها وأمانيها . ولا نعرف عن يقين متى كان إجتماع قسطنطين (بقيرس) ، ولا ما إنتهى إليه أمر ذلك الاجتماع ، لأننا لا نعرف أين كان منفاه ولا المدة التي استغرقها رجوعه من ذلك المنفى إلى عاصمة الدولة . وقد دعي كذلك (تيودور) من مصر لكي يشير على الامبراطور بما يراه ، واستخلف (أنستاسيوس)[3] على حكم الإسكندرية ومدائن الساحل التي لم يفتحها المسلمون إلى ذلك الوقت . وكان من رأي (تيودور) ألا يدخل الروم في أي

= الكتاب السابق الذكر صفحة ٢٨٢ . ولا بد أن يكون (بيروس) قد غير رأيه ودخل في حزب غير حزبه الأول، فقد أورد حنا نفسه صفحة ٥٧٩ خطاباً قيل إنه أرسل من مرتينه وبيرس إلى داود (المترجويم) يحرضانه على قتال الفرع الأكبر من أسرة هرقل.

(١) لعل المقصود هو (مالطة) أو (جوزو).

(٢) قال المستر بروكس في مقالة له في (Byzantinisehe Zeitschrift) تعليقاً على هذه الفقرة من كتاب حنا (١٨٩٥ صفحة ٤٤١) أن الأسطول إنما أرسل لإحضار قيرس من القسطنطينية إلى خلقيدونية، ولكن كلمات حنا هي «فجمع قسطنطين عدداً عظيماً من السفن وأرسلها بقيادة قيريوس وسار كريوس لإحضار البطريق قيرس إليه» ومن المحقق أن مثل هذه الرحلة القصيرة لا تدعو إلى أسطول كبير فلا بد أن قيرس كان في منفاه وإذا كنا لا نعرف أين كان ذلك المنفى فإنّا لا نشك في أنه كان منفياً. ويعزو حنا استرجاع قيرس إلى مرتينه فهي التي حرضت قسطنطين على ذلك بغير شك.

(٣) لقد تصرفنا هنا بعض التصرف في قول حنا النقيوسي بأن بدلنا موضع الإسمين. فقد جاء في الأصل «أنه أرسل أمره إلى أنستاسيوس ليأتي إليه وترك تيودور على حراسة الإسكندرية ومدائن الساحل» (صفحة ٥٦٤) ولكنا نرى أن هذين الإسمين قد بدل وضعهما: (١) لأن تيودور كان القائد العام ورئيس أنستاسيوس. (٢) لأنه جاء في صفحة ٥٧٤ أن أنستاسيوس كان حاكم الإسكندرية فعلاً قبل عودة قيرس. (٣) لأنه جاء في صفحة ٥٧٣ أن تيودور كان مع قيرس في رودس في طريقه عائداً إلى مصر.

صلح مع العرب ، ومهما يكن من رأي (قيرس) ومشورته في ذلك الأمر فقد استطاع تيودور أن يحمل الامبراطور على أن يعد بإرسال أمداد كبيرة إلى مصر في أثناء فصل الصيف . ثم أمر الملك بتجهيز السفن لنقل الجنود ، وما كاد كل ذلك يعدّ حتى مرض قسطنطين مرضاً مخطراً ، وكان منذ وليَ الملك يضعف جسمه ويعتل ، ثم مات في الخامس والعشرين من شهر مايو من سنة ٦٤١ بعد أن حكم مائة يوم . ولا نعرف هل مات الموت المعتاد أم قد فتك به غدراً على يد الامبراطورة مرتينه ، وإن تهمة الفتك به لتتردّد في أخبار ذلك العصر[١] ، وقد جهر بها ابنه قنسطانز فاتهم الإمبراطورة معلناً .

أما مرتينه فقد اتخذت موت قسطنطين ذريعة توسلت بها إلى المبايعة لابنها (هرقلوناس) بملك الدولة ، وأرادت أن تتملق الناس فأنفذت تعيد البطريق (بيروس) من منفاه . ولكن ذلك النصر الذي صادفته أثار في قلوب الناس حقداً لم يلبث أن أشعل نار العصيان . فما سمع (فلنتين) بما حدث من موت قسطنطين وما تبعه من عزل (فلاجريوس) ، حتى جاء بجيشه إلى (خلقيدونية) . وكانت مرتينه هناك ، وطلب إليها إرجاع (فلاجريوس) . وقد لقي مساعدة على طلبه ومواتاة من جند الإمبراطورة ، ثم رضي به هرقلوناس وأقره في خطاب ألقاه . غير أن فلنتين لم يقنع بما أصاب من النصر ، بل عَبَرَ المضيق مع (دومنتيانوس) وصحبهما جماعة من أعيان الدولة حتى بلغوا العاصمة ، فبايعوا لابن قسطنطين وهو (قنسطانز) الثاني وجعلوه شريكاً (لهرقلوناس)[٢] في الحكم .

---

(١) يقول حنا إن مرض قسطنطين بدأ عند توليته ولكن موته كان من قيء دموي ولعله نشأ من إنفجار عرق . ويوافق نيقفوروس على أن مرضه طالت مدته والظاهر أن تيوفانز يتهم بيروس بتدبير موته مع مرتينه ولكن بيروس كان في منفاه ولم يكن مع مرتينه في تدبيرها ولعل المقصود هو قيرس فإن هذين الاسمين كثيراً ما يختلطان (أنظر هامش زوتنبرج على صفحة ٥٦٤ من كتاب حنا) وأكبر الظن أن هذه التهمة لا أساس لها وقد جاءت في سبيوس عبارة عجيبة إذ قال أن قسطنطين مات وقد خدعته أمه .

(٢) يقول سبيوس أن فلنتين قبض على مرتينه عندما وصل إلى قسطنطينية وقطع لسانها وقتلها=

ويلوح لنا أن هرقلوناس كان قبل تلك الثورة التي ثارها (فلنتين) قد أعدَّ العدَّة لإرجاع (قيرس) إلى حكم الإسكندرية ، ولا بد أن المبايعة لقنسطانز كانت في أوائل سبتمبر من سنة ٦٤١[1] . وذلك بعد أن سافر قيرس في وجهه إلى مصر . وكانت مع قيرس طائفة كبيرة من القسوس ، ولم ينقص شيئاً من سلطانه الدنيوي بل أباح له الإمبراطور أن يصالح العرب ، وأن يقضي على كل قتال بعد ذلك في البلاد ، وأن يعمل على إقرار الأمر فيها وإدارة شئونها . وإنا لنلمح من ثنايا ما تقدم به الإمبراطور إليه أنه كان لا يزال يساوره الأمل في أنه يستطيع الإبقاء على سلطان الدولة في مصر ، ولكنه من غير شك قد حمل الإمبراطور وهو غرير لا رأي له على الإذعان للعرب والتسليم لهم، كما حمل على رأيه هذا مجلس الشيوخ المستضعف ، ورجال البلاط وهم من أهل العجز والخور . ولا ندري أكان في ذلك يصدر عن نية طاهرة أم كان يرمي عن مكر وخديعة . ومن الجلي فوق ذلك أنه استمال الإمبراطورة مرتينه إلى رأيه الضعيف ، لا سيما وقد كان أنصارها ممن يرون مصالحة العرب مهما كلفهم الأمر ، وكانت هي أبداً في سياستها ترمي إلى التسليم والإذعان ، وذلك رأي قيرس الذي ظل يجاهر به في كل حين .

أما ما كان يجول في قرارة نفس ذلك البطريق من مختلف النزعات فأمر لا

= وقتل معها أولادها وألبس قسطنطين الأصغر التاج . ويقول حنا النقيوسي (صفحة ٥٨٠) إن الجند ثاروا في بيزنطة يقودهم تيودور وهو الذي قبض على مرتينه وأولادها الثلاثة ورمى عنهم التيجان وجدع أنوفهم ونفاهم إلى رودس وهاتان الروايتان مختلفتان ولكنهما تصفان ثورة فلنتين الثانية التي حدثت فيما بعد . والظاهر أن سبيوس يقول أن (فلنتيان) و (فلنتين) كانا شخصاً واحداً (الفصل الثاني والثلاثون) ولكن الأستاذ (بوري) يشك في ذلك في كتابه (Later. Rom. Emp.) (الجزء الثاني صفحة ٢٨٧) ولكنا نظن أن أسبابه ليست وجيهة في ذلك .

(١) يدلل المستر بروكس (الكتاب الأول صفحة ٤٤٠ هامش ٢) على أن مجمع رومه الذي عقد في ٥ أكتوبر سنة ٦٤٩ قيل عنه إنه كان في السنة التاسعة من حكم (قنسطانز) ولكن قنسطانز لم يتوج على أنه الحاكم وحده على الدولة إلا بعد ذلك في نوفمبر .

يصل إليه الحدس ولا يبلغه التصور ، فقد أظهر الجبن والضعف إذا لم يكن قد أظهر الخيانة منذ أشهر عدة ، قبل أن ينقسم الناس ويتفرقوا شيعاً في أمر ولاية الملك بعد قسطنطين ، ذلك التفرق الذي كاد يبلغ حد الحرب الأهلية . فماذا كان الدافع له على الفرار من ميدان أعماله ، وإن شئت قلت الهروب من جرائر سعيه . فقد قضى عشر سنين وهو يعسف بقبط مصر حتى بدا منهم ما يشبه الإذعان ، ولكنه كان يعرف أنهم لن يلبثوا أن يعودوا إلى عقيدتهم إذا ما رفع عنهم وطأته . فهل كان قد أدرك عند ذلك أن سياسته في العسف والإضطهاد كانت جناية لم تلق نجاحاً ؟ إنه لا شيء أبعد عن الحقيقة من تصور هذا . وإنه لأقرب إلى الحقيقة أن نقول إنه قد أيس من أمر الدولة في مصر منذ رأى ما حل ببلاد الشام . ومنذ بلغ به اليأس ذلك المبلغ عزم على أن يسعى لكي يباح مذهبه الديني في مصر ، لا بل سعى إلى أكثر من ذلك ، فقد طمع في أن يثيبه المسلمون على مساعدته لهم بأن يبسطوا يده على الكنيسة القبطية في مصر ، ويكون عند ذلك مالكاً للأمر ليس لأحد في القسطنطينية سلطان عليه .

إذن كان (قيرس) يريد أن يزيد في سلطانه الديني بالإسكندرية ، ويقيمه على أطلال الدولة بعد خرابها . ولسنا نجد رأياً آخر أكثر ملاءمة لما بدا منه ، فهو خير رأي نستطيع به أن ندرك ما كان بينه وبين عمرو من صلات خفية ، وما قارفه من خيانة دولته الرومانية . فلنصفه بأنه خائناً للدولة في سبيل ما توهمه صلاحاً للكنيسة .

وقد قنع بأن يتبع خطوات الإمبراطورة أو أن يشير عليها برأيه ، وخالف أمر دينه وهو يحظر أن يلي الملك من ولدوا من زواج غير مباح . والدليل واضح على أن قيرس عاد إلى مصر ومعه جيش قد أعد ليكون إمداداً لجند مصر يساعدهم على قتال العرب ، إذا لم يسفر الأمر عن صلح معهم . ولعل ذلك الجيشُ قد أرسل معه ليكون قوة لحزب الإمبراطورة بين جند مصر . وأرسل معه قائد جديد لمسلحة الشرطة اسمه قسطنطين ليحل محل القائد المعزول (حنا) . وأما (تيودور) فإنه بين أحد أمرين : إما أن يكون قد حل في الوقت عينه إلى مصر ، وإما أن يكون قد ذهب إلى جزيرة (رودس) عند مقدم

(قيرس) وأقام بها حتى يوافيه الجيش فيلحق به . وكانت الإمبراطورة (مرتينه) بتلك الجزيرة كذلك ، ولا ندري علة مقامها فيها أكان ذلك هرباً من وثبة (فلنتين) وظهور أمر ثورته ، أم كان عن ذعر أصابها عندما علمت بمبايعة (قنسطانز) . ولعلها أرادت أن تجتمع (بقيرس) و (تيودور) كي يشير عليها بما يريانه فيما جد من الحوادث . وعلى أي حال فقد كانت قمينة أن يقلق بالها لما كان حولها من اختلال الأمور في العاصمة ، واختلاف الكلمة واضطراب الأحوال بين رجال الحاشية .

وقد كان فلنتين في كيده وغدره عِدلاً (لقيرس) ، لا يتورع في وسيلة ولا يقف عند حد . وكان قد سبر قلوب الجند وفحص عما للامبراطورة فيها ، فألفى أن الكثيرين لا يحملون لها إلا نفاقاً ورياء ، وأن حبها والإخلاص لها لم يتغلغل في نفوسهم . ووضع يده في خزائن (فلاجريوس) فأنفقها في العطاء لجند مصر ليستميله إليه ، وأوقع بينهم الفرقة والعداوة فجعلوا بأسهم بينهم ، وكفوا عن قتال المسلمين . فكانت الحرب الأهلية على ذلك قد اشتعل لهيبها ، ولم تكن بحرب بين القبط والروم[1] ، بل بين طائفتين من جيش الدولة ، وكان (تيودور) ذا شأن عظيم في عين الثائرين ، وكان لا بد لهم أن يستوثقوا من أنه معهم وأنه لن يعين الإمبراطورة . ولم يكن ثمة شيء يستحيل في مثل تلك الحال المضطربة وما فيها من مكائد ومكر . وكان (تيودور) يخفي في نفسه آمالاً يتمنى أن يحققها ، فجاءته في (رودس) رسالة في السر بعث بها إليه (فلنتين) يَحُضُّهُ على أن يخذل الإمبراطورة وينقض ما عقد لها من ولائه ، وعلم أن (فلنتين) قد بعث بمثلها إلى (بنطابولس) وإلى سائر بلاد الدولة ، ورأى أن يد الكيد تعمل في التفريق بين الجنود الذين جاءوا إلى مصر مع (قيرس) ، فأعمل الفكر في أمره حتى استقرّ به على أن يقطع اتصاله بالإمبراطورة ويرحل خفية إلى (بنطابولس) . ولسنا ندري ما الذي دفعه إلى هذا العزم ، فقد يكون أراد الإعتزال والإبتعاد عن العواصف المقبلة ، وقد يكون

---

(١) أنظر ما سبق في صفحة ٣١١ .

أراد التشبه بهرقل في المخاطرة بنفسه في سبيل التاج ، فيقيم دولة جديـدة في قرطاجنة . وقد يكون اعتزم أن يستجم القوة ويجمع المال ويقف بالمرصاد لما تنجلي عنه الحوادث ، فمنذ كره أن يذعن للمسلمين أراد أن يستعد بجيش يهبط به عليهم من قرطاجنة . وكان تدبيره أن ينفصل في ظـلام الليل عن الأسـطول الذي مع (قيرس) ، ولم يعلم بذلك إلا ربان السفينة التي كان فيها . والظاهر أن ذلك الربان وعده بإنفاذ ما أراد ثم ندم على وعْده ، وادعى أن الريـح تصدّ السفينة عن المضي في تجاه بنطابولس . ففشل تدبير (تيودور) ورأى نفسه مع سائر السفن مصاحباً (لقيرس)[1] في ميناء الإسكنـدرية ، قبـل أن يطلع نهـار (يوم الصليب المقدس) ، وذلك في الرابع عشر من سبتمبر من سنة ٦٤١ .

(١) قد عالجنا مسألة تاريخ عودة قيرس ووصوله إلى الإسكندرية في الذيل الذي كتبنـاه عن تاريخ الفتح العربي وقد وجدنا بعد كتابته أدلة جديدة تدعم اعتقـادنا أنـه جاء مـع تيودور في اليوم الذي ذكرناه . ومن المحتمل أن تيودور قد جاء على سفينة أخرى غير سفينة قيرس ولعله تسلل من رودس بغير أن يخبر قيرس بخطته ، فإذا صح ذلك فلا بد أن تكون سفينة قيرس قد لحقته في طريقه .

الفصل الحادي والعشرون

تسليم الإسكندرية

الحرب الأهلية بمصر ـ الإضطراب في العاصمة ـ وصول قيرس ـ موكبه الحافل إلى القيصريون ـ خطبته هناك ـ استئناف إضطهاد القبط ـ رحلة قيرس إلى بابليون في السر ـ أحوال مصر العليا ـ اجتماع قيرس وعمرو ـ يوافق قيرس على تسليم المدينة ـ صلح الإسكندرية ـ شروط ذلك الصلح بحسب الروايات المختلفة ـ رواية حنا النقيوسي ـ النص العربي وتعليق المؤرّخين العرب عليه.

حدث في أثناء غياب قيرس في منفاه أن ثارت بمصر فتنة بين الناس، يتقد لهيبها بين حين وحين، فثار القتال مرة بين أهل كورة مصر وأهل الكور في الشمال، ثم عاد السلام بينهم بعد أحداث كثيرة، وما كاد الأمر يستقر حتى استعر القتال في العاصمة ذاتها. وكان كبار الروم أحزاباً وشيعاً، تباعد بينهم الإحن ويغري بينهم التحاسد. وكان حرص كل من الحزبين الأخضر والأزرق على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على حرب العدو الرابض عند أبواب مدينتهم. فكان (دومنتيانوس) الذي أسلم الفيوم و (نقيوس) يناصب (ميناس) العداء وينافسه في التطلع إلى القيادة العامة في الجيش، وكان (ميناس) يحقد على (أودوقيانوس) أخي (دومنتيانوس) لما كان منه من شنيع الأفاعيل بالقبط الذين كانوا في حصن بابليون[1] في يوم عيد الفصح المشهور،

(١) وهذا يدل بغير شك على أن ميناس كان قبطياً أو أنه كان يميل إلى القبط. وميناس هذا الذي ذكره حنا (صفحة ٥٧٠) لا بد أن يكون غير ميناس حاكم مصر السفلى في أيام هرقل (صفحة ٥٧٧) وقد وصف بأنه كان يكره القبط. وهذا الإختلاف في الميول دليل =

وكان (تيودور) لا يـزال غاضبـاً على (دومنتيانـوس) لما كـان من جبانتـه في الهروب من (نقيوس) تاركاً جيشه ومتخلياً عن واجبـه . وإنه لمن العجيب أن يبقى (دومنتيانوس) في منصبه لم يؤاخذ أو يقتص منه بالقتـل ، فليس غضب رئيسه عليه بالجزاء الوفاق على ما جناه . ولعله لم ينج مما كـان يحق عليه من القصاص إلا لمحاباة الإمبراطورة له ولقرابته من قيرسٍ إذ كان صهراً له بزواجه من أخته . على أن (دومنتيانوس) لم يرعِ في (قيرسٍ) إلاًّ ولا صداقة ، ولم يحفظ له جميلاً ، إذ كان لا يظهر له إلا إزدراءً وحقداً غلب عليه عقله . وكان معه الحزب الأزرق ، فاتخذ من رجاله عصبة استعان بها في نضاله . فلما رأى (ميناس) ذلك استعد له بمثل عدّته فاتخذ من الحزب الأخضر له عصبة .

وفيما كان الأمر على هذا التحرّج المخطر ، نزل إلى الإسكندريـة رجل اسمه (فيلبادس) وكان حاكم الفيوم وأخاً (لجورج) وهو سلف (قيرس) على بطرقة المذهب الملكاني . وكان (ميناس) قـد أحسن إلى (فيلبادس) ولكنـه أساء جزاءه ، وكان (فيلبادس) فوق هذا مقارفاً للخيانة إذ كـان يضع يـده في الأموال العامة ، وكان الجنـد يكرهـونه كـراهة تعـدل حبهم (لميناس) . ولم يمض زمن طويل حتى اشتدّ الأمر وتأزمت الأزمة ، ففيما كان (ميـنـاس) يومـاً يصلي بـإخوانـه الأقباط في الكنيسـة الكبرى كنيسـة (قيصريـون) إذ ثار أهـل المدينة بفيلبادس يريدون قتله . ولكنه فرّ منهم ولجأ إلى منزل صديق له فاختبأ فيه ، فذهب الثائرون إلى بيته فنهبوه وأحرقوه ، وكـانوا من الحـزب الأخضر ، وعنـد ذلك أخـرج (دومنتيانـوس) إليهم عصبته من الحـزب الأزرق ، والتقت العصبتان في قتال شديد في طرق المدينة فقتل منهم ستة وجرح كثيرون ، ولم يستطع (تيودور) أن يقضي على الفتنة إلا بعد مشقـة وعناء . وبعـد أن إنتهى الأمر أعيد إلى (فيلبادس) ما سلب منه ، وعزل (دومنتيانوس) من مـرتبته في الجيش . ولكن يلوح لنا أنه أعيد فيما بعد إلى ما كان عليه ، وذلك بعد أن أمر

= قاطع على أن الأسماء لا تدل على شيء من ميـول الناس بكـونها أسمـاء قبطيـة أو غير قبطية .

(تيودور) بالعودة إلى القسطنطينية . فالحقيقة أن (دومنتيانوس) كان مع عداوته لقيرس يرى رأيه في السياسة ، وكانا كلاهما سواء في تقريب الإمبراطورة والحظوة عندها ، وكان كلاهما يشير عليها ويزين لها رأي الإذعان للعرب .

ولنذكر هنا أن (حنا النقيوسي) يصف نضال الأحزاب في الإسكندرية وكأنما يقرّ بأنه عاجز عن إدراك أسبابه . فإن سياق قوله يدل على أن منشأ ذلك النضال كان بعضه من عداوات خاصة . وبعضه كان من أثر الشيع السياسية . على أنه يذكر بعد ذلك أن بعض الناس يذهبون إلى أن اشتداد ذلك النضال واستعار لهبه إنما يرجع إلى اختلاف المذاهب الدينية . ولكنه لا يوضح الأمر ولا يجلو الظلمة عن حقيقة ذلك النضال ، فلا ندري أكان بين (المونوفيسيين) و (الملكانيين) ، أم كان بين (الملكانيّين) و (المونوثيليين) ، أم بين اليهود والمسيحيين ، فالحق أن الأمر مشكل لا يستبين المرء فيه وجهاً للرأي . ولكنا إذا ذكرنا أن كثيرين من أهل مصر السفلى والصعيد أتوا إلى الإسكندرية لاثذين ، وإذا ذكرنا أن (حنا النقيوسي) يروي لنا خبر اجتماع القبط بكنيسة (القيصريون) للصلاة[1] ، إذا ذكرنا ذلك أمكن أن نقول إن عدد القبط في الإسكندرية زاد في ذلك الوقت زيادة كبرى ، وأنهم استطاعوا أن يتنسموا شيئاً من نسيم الحرية وأن يعود إلى نفوسهم شيء من القوة منذ غاب المقوقس عنهم في منفاه ، وارتفع عنهم عسفه واضطهاده . فلعلهم عند ذلك شعروا من أنفسهم بالقوة فرموا سهمهم مع الرامين ، يناصرون من أحبوا ويحاربون من كرهوا ويلقون بدلوهم في دلاء الإسكندرية ، التي كانت تضطرم من عداوة الأحزاب ونضالها . وإن تعجب فعجب أن يقرأ الإنسان نبأ نزول المقوقس بالإسكندرية في ذلك الصباح من شهر سبتمبر ، وأن أهل المدينة طرا ملكهم الفرح فخرجوا « يظهرون سرورهم ويشكرون الله على عودة بطريق

---

(١) ما كان ليصف أية صلاة أخرى غير الصلاة القبطية بقوله « اجتماع المؤمنين » (صفحة ٥٧١) .

الإسكندرية »[1] وتوافد الناس من كل جانب يحيونه ويكرمونه من رجال ونساء كباراً وصغاراً ، فما كنت تسمع كلمة مخالف ولا همسة خوف . ولكن ما كان للقبط أن يدخل إلى قلبهم فرح بمقدم (المقوقس) ، بل ما كان لهم أن يبقى أمل في قلوبهم من وراء عودته . ولا يسعنا على هذا إلا أن نذهب إلى نتيجة من هذا القول . وذلك أن القبط ما كانوا في الإسكندرية مهما بلغ عددهم إلا فئة قليلة ضائعة بين أهلها الكثيرين لا يحس أحد بهم .

أما قيرس فإنه عمد قبل أن تصحو المدينة ويذيع بين أهلها نبأ مقدمه، فذهب سرًّا مع (تيودور) إلى دير رهبان (التبنيسي) ولعله كان قريباً من الموضع الذي نزل فيه من البحر[2] وأمر بإقفال باب الدير، وأنفذ إلى (ميناس) يدعوه للحضور إلى الدير، فلما جاء جعله (تيودور) قائد مسلحة المدينة وعزل (دومنتيانوس) عن تلك القيادة، فأسرع أهل المدينة إلى إخراجه منها. وكانت عودة قيرس في مثل اليوم الذي أقيم فيه الاحتفال بإعلاء الصليب، وقصد بذلك

---

(١) هذه كلمات الدكتور شارل في ترجمته للنص الأثيوبي . وليس أدل من هذا الوصف لعودة قيرس على نقاء ضمير حنا النقيوسي وقلة تحيزه . ولقد كان من السهل عليه أن يصف مقابلة الناس له بالفتور أو أن يغفل ذكرها ، ولكن حنا يصفها بأنها كانت بحفاوة عظيمة وأن السرور لم يكن سرور بمقدم قيرس شخصه بل بمقدم « بطريق الإسكندرية » صفحة ٥٧٤ . ومن العجيب أن أميلنو يعلق على ذلك القول تعليقاً يلوم فيه الكاتب على وصفه فيقول « وفيما عدا ذلك فإني في عجب عظيم من حنا النقيوسي وهو الأسقف اليعقوبي إذ يصف قيرس بأنه بطريق الإسكندرية وهو الذي كان يجب عليه أن يذمه ويلعنه في حين أن (بنيامين) وهو البطريق الحقيقي في نظره كان في ذلك الوقت طريداً في الصعيد (حياة البطريق القبطي إسحاق صفحة ٧١ XX) ولكنا نرى أن صراحة حنا تزيد من ثقتنا فيه واعتمادنا على أخباره كمؤرخ .

(٢) كان (Tabenneai) موضعاً على عشرة أميال من Tentyria وهي (دندرة في الصعيد) وكان مقر إخوة طائفة (الباخوميين) أنظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨١ وأميلنو (Geog. Copte) صفحة ٢٦٩ وما ذكره هؤلاء من المؤلفات . ولقد كانت هذه الطائفة قبطية محضة . ولكن هذا الدير الذي كان في الإسكندرية استولى عليه قيرس وجعله للملكانيين وإلاَّ فإن من فيه من الرهبان لا بدَّ كانوا بين الألوف الكثيرة التي نزعها الاضطهاد من مذهب القبط .

أن يعيد إلى نفوس جند الروم ما ضاع من قوتها، وبدل الجهد في الانتفاع بتلك الذكرى ما وجد إلى ذلك سبيلاً. ولنذكر عندما بعث حنا قائد الشرطة إلى مصر وقد وجهه إليها هرقل يحمل المذهب الديني الشهير إلى (قيرس) حمل معه إلى البطريق صليباً من أجل الصلبان شأناً ، لعله كانت فيه قطعة من الصليب الأعظم نفسه[1] ، وقد أودع هذا الأثر الثمين في دير رهبان (تبنيسي) . فلا عجب إذا حمله (قيرس) في موكبه إلى الكنيسة العظمى كنيسة (القيصريون)، التي أقيمت فيها صلاة التحية . وقد فرشت النمارق في طريق ذلك الموكب من الدير إلى الكنيسة ، وكانت الرايات والألوية من الحرير تخفق فوق رأس (قيرس) إذ يسير بين عبق البخور وترتيل الأناشيد ، وازدحمت طرق المدينة العظمى بالناس على سعتها حتى ركب بعضهم بعضاً ، ولقيَ الحبر الأعظم مشقة كبرى في السير في ذلك الزحام إلى الكنيسة . ولكن الموكب سار على أي حال سيراً وئيداً حتى بلغ (المسلتين) المصريتين القديمتين فمر بينهما ثم سار في فناء ذي أروقة إلى أن بلغ باب كنيسة قيصريون فولجه داخلاً .

ولما أن صار في الكنيسة أقام الصلاة وجعل عيد الصليب[2] وإعلاءه

---

(١) أنظر ما سبق في صفحة ٢١٥ هامش ١ وصفحة ٢٥٢ هامش ١ .

(٢) لا بد أن هذه الفقرة في كتاب حنا (صفحة ٥٧٤) قد لحقها تحوير أخرجها عن معناها وقد أساء تأويلها زوتنبرج فجعلها هكذا : « وقد فتح (؟) الحوض الذي كان فيه الصليب المقدس الذي جاءه قبل نفيه من القائد حنا . وقد أخذ كذلك الصليب المحترم من دير الـ (Tabennesiotse) » وقد وضع زوتنبرج نفسه علامة الاستفهام بعد عبارة (وقد فتح) فإنه قد رأى أن الجملة كلها صارت بذلك لا معنى لها . وأما الدكتور شارل فيترجمها هكذا « ومدح البئر الذي وجد فيه الصليب المقدس » والكلمات التي تأتي بعد ذلك في نظرنا قد تغير موضعها فإن قيرس لم يبعث إليه حنا بالصليب نفسه قبل منفاه وما كان هرقل ليرسله إلى مصر ولم يرسله إليها وهو أعظم الآثار وأقدسها ؟ فالصليب الذي أتى إلى قيرس كان الصليب الذي حفظه رهبان (Tabennesi) . وعلى ذلك فالعبارة يجب أن تكون هكذا « ثم حمل أيضاً (إلى القيصريون) من دير رهبان (Tabennesi) الصليب الذي كان قد جاءه من القائد حنا » وهذا يصبح له معنى بعد أن كانت العبارة لا معنى لها .

موضوع خطبته كما ينبغي له، وكانت الكنيسة الشرقية في ذلك الوقت ولا تزال إلى وقتنا هذا تحتفل بهما معاً. وإنه لمعنى جليل ذلك المعنى الذي جعله (قيرس) قطباً لخطبته، معنى يخلع على قائله رونقاً إذا أعوزته الفصاحة. فما بالك بقيرس وهو رب البيان والبلاغة. فجعل يذكر الناس بحوادث الماضي وما فيها من عجب، منذ قام هرقل بجهاده في سبيل الصليب حتى ظفر به فأعاده من يد أعدائه الفرس، ثم أقامه في بيت المقدس في ذلك اليوم المشهود يوم النصر والفوز. ولقد كان قيرس يرمي إلى غرض من سوق تلك القصة، فما كان ذلك القصد الذي رمى إليه؟ لقد صار بيت المقدس في أسر المسلمين عند ذلك، وقد صار المسلمون على أبواب الإسكندرية ذاتها، فكان الأمر على مثل ما كان عليه من البلاء والشدة عندما كان كسرى يملك فلسطين والشام ومصر. فهل تجرأ قيرس في خطبته على الإشارة إلى المغزى الذي تدركه الأفهام من قصة جهاد هرقل؟ وهل أثار في قلوب سامعيه الأمل في الخلاص والإيمان بالنصر واستفزهم إلى جهاد عدوهم باسم الصليب؟ إنه ما كان ليجرؤ على ذلك وقد خذل الصليب وعمل على أن يذله للإسلام ويحنيه لألويته. إنه قد يكون تحاشى الاقتراب من أمور السياسة في خطبته، ولكن لا شك في أنه في خطبته ذلك اليوم لم يزح عن قلبه ما كان يثقله من الأسرار.

ولكن تلك الصلاة لم تنته إلا على كدر ونحس. فإن المصلين أقبلوا بعد الخطبة على الصلاة فقرأ الشماس بدل ما كان يجب عليه قراءته من الأناشيد في ذلك اليوم مزمورة أخرى فيها إشارة لرجعة البطريق، يريد بذلك أن يتملقه ويهنئه. فلما سمع الناس ذلك ضجوا قائلين: إنه قد خالف السنن وتطيروا به على البطريق. وجاء في تلك القصة أنهم قالوا إن البطريق لن يشهد عيداً للفصح بعد ذلك[1]. ولا شك أنهم قد رأوا عليه تغيراً

---

(1) قد ذكرنا في ذيل الكتاب عن تواريخ حوادث الفتح العربي أمر إتفاق عودة قيرس وعودة تيودور، وذكرنا فيه تاريخ اليوم الذي غنى القسوس فيه المزمورة التي كانت في غير موضعها.

واعتلالاً إذ كان النفي قد أسقم جسمه، وكان السير في الزحام ذلك اليوم قد أتعبه، ثم أجهدته بعد ذلك الخطبة وما بذل فيها. ولا بد فوق كل ذلك أن وجهه كان ينم عما كان في قلبه من أشجان تجيش به فتمزقه، فقد كان يرى الناس من حوله يثقون به ويرفعون ذكره ويرونه نصيراً لهم ومعيناً في محنتهم، وكانوا جميعاً عند ذلك قد طهرت قلوبهم وامتلأوا إيماناً بالصليب حتى ليجاهدون في سبيله ويلقون النصر على وعده، ولكن فيما كانوا والآمال تطلع عليهم وتملأ نفوسهم، كان الحبر الأعظم يحس في نفسه وكساً ووهناً ويشعر في قلبه الوخز الأليم، إذ كان مقبلاً على خيانتهم بعد قليل مقدماً على خذلان الصليب والإيقاع بدولة الروم. لقد كان في مقامه ذلك بين شجون شديدة تنتابه، ولا غرابة أن يَنِمَّ مظهره الكليل على ما كان يثقله ويبهزهز نفسه العاتية، ولا عجب أن يرى الناس في أمارات وجهه أمارات الموت.

قضى قيرس مدة قصيرة بعد مقدمه يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لا بد فيه من الإسراع بمعالجتها في الإسكندرية، ويلوح لنا أن (أنستاسيوس) كان الحاكم المدني للمدينة في مدة غياب (قيرس). ومن الجائز أن يكون (جورج) الذي استخلفه (قيرس) عند خروجه من مصر على ولاية الدين هو بعينه البطريق الذي كان قبله[1]، وكان (جورج) عند ذلك شيخاً كبيراً. ولكنه كانت له في قومه عزة، وكان كل الناس يظهرون له الإجلال والإعظام لا فرق في ذلك بين حاكم المدينة ومن هم دونه، ولم تكن له يد في اضطهاد القبط. وفي الحق أن القبط تنفسوا الصعداء منذ رحل عنهم قيرس ومنذ انقطعت الصلة بين سلطان الروم وبين قطع كبيرة من بلاد مصر، ولكن (قيرس) لم ينس بعد عودته ما كان في قلبه من الحفيظة على ديانة القبط، فكان يرضى بالإذعان

---

(١) هذا مجرد احتمال. فيقول حنا النقيوسي أن هرقل هو الذي اختاره ولكنه لم يذكر العمل الذي اختاره له ولكنه كان أحد عملين: إما أن يكون بطريقاً أو حاكماً على المدينة وقول حنا يفيد الأمر الأول (أنظر ما سبق في صفحة ٢٠٥ هامش ١) ولكن إذا كان جورج هذا حاكماً أيكون هو جورج الذي ذكر العرب أنه كان الحاكم في سنة ٦٢٧ وقت إرسال النبي كتابه إلى مصر وهو (جورج بن مينا) الذي سمي المقوقس خطأ؟.

للعدو وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليرضى بأن يسالم القبط أو يعفو عنهم. فاستل سيفه مرة أخرى، ولم يلن قلبه لما حل به من مصائب الدهر ونوازله، بل عاد إلى عسفه بالقبط وظلمه لهم بقلب لا رحمة فيه، وجعل يوقع بمن كان منهم في منال[1] يده.

وإنه لمن العجيب أن يرى المقوقس جدوى في العودة إلى اضطهاده وعسفه. فلعله كان يتستر وراء ذلك ليداري عن أهل الإسكندرية حقيقة أغراضه وهي إسلام بلاد مصر جميعها للعرب. ولا شك في أنه كان في ذلك ينفذ أمراً من مليكه، ولكن أي أمر! لقد كان أمراً غصبه من مليك لا حول له ولا طول، وتوصل إليه بالخداع والدناءة، حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة في الإسكندرية، ولا أن يعلنه للناس. فخرج وحده ذاهباً إلى حصن (بابليون)، أو لعله قد استصحب جماعة من قسوسه كانوا على علم بسره، وكان النيل عند ذلك مرة أخرى في أوان فيضه[2]، وذلك في أواخر شهر أكتوبر بعد نحو عام من صلح بابليون الذي لم يتم، إذ مزقه الامبراطور الشيخ (هرقل) في غضب وحنق. وكان عمرو بن العاص عند ذلك قد عاد منذ قليل إلى (بابليون)، ولا ندري فيم قضى الوقت إلى ذلك الحين، أقضاه في قتال بلاد مصر السفلى قتالاً لم يخرج منه بطائل، أم قضاه في غزو بلاد الصعيد يقود سرية إليها بنفسه[3]. وليس أمر السرية ذاتها بموضع للشك، فقد خرجت كتيبة صغيرة من المسلمين إلى الصعيد حتى بلغت مدينة (انطنويه) المعروفة الآن باسم (انصنا) وكانت إذ ذاك عاصمة إقليم (طيبة)، وكانت جنود الروم لا تزال منها بقية في ذلك الإقليم. فذهب الناس إلى حاكم الإقليم وهو (حنا) وكلموه في الأمر وطلبوا إليه أن يقفوا

---

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٦ .

(٢) إذا علمنا أن المقوقس فاوض العرب مرتين في أوان فيضان النيل إتضح لدينا سبب الخلط الذي وقع فيه العرب بين حصار بابليون وحصار الإسكندرية ورأينا في ذلك عذراً لهم .

(٣) جاء في كتاب ابن قتيبة أن عمرا عاد من مصر السفلى في ذي القعدة سنة ٢٠ هجرية (وذو القعدة يقع بين ١٢ أكتوبر ٦٤٠ - ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) ولكن حنا النقيوسي يجعل عودته قبل ذلك ويقول إنه ذهب بنفسه إلى الصعيد صفحة ٥٦٢ .

لقتال العرب، ولكن (حنا) أبى كل الإباء أن يقف للقتال، ثم استولى على الأموال العامة التي جمعت وحملها معه وخرج بجنوده ضارباً في الصحراء إلى الغرب يقصد الإسكندرية، إذ لم تكن به رغبة أن يلقى ما لقيه جنود الفيوم. وكان يرى من نفسه العجز عن مناجزة المسلمين، وعلى ذلك لم يلق العرب مشقة كبرى في فتح بلاد الصعيد. وقال حنا النقيوسي في وصف ذلك الفتح أن المسلمين عندما رأوا ضعف الروم وعداوة الناس للامبراطور (هرقل)، لما أوقعه من الاضطهاد والعسف بأهل مصر كلها ودينهم الصحيح بتحريض قيرس البطريق الخلقيدوني، زادت جرأتهم واشتد ساعدهم في القتال[1]. والحق أن القبط لم يحبّوا العرب، ولكنهم في الصعيد كانوا يحملون في قلوبهم أشد الضغن على من اضطهدهم وعذبهم، حتى أن أهل الفيوم بعد أن استقرت بهم الحال في حكم العرب على دفع الجزية، بلغ الأمر بهم أن صاروا يقتلون من وجدوه من جند الروم. وكان أهل البلاد التي في جنوب الفيوم أقل رغبة من هؤلاء في نصرة الروم.

ولكن القائد العربي كان قد عاد إلى بابليون بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى كيما يستريح بأصحابه في أوان فيض النيل. وفيما كان هناك في ذلك الحصن وافاه (قيرس)، وقد جاءه يحمل عقد الإذعان والتسليم. فرحب به عمرو وأكرم وفادته، ولما علم منه ما جاء من أجله من أمر الصلح قال له: «لقد أحسنت في الشخوص إلينا». فقال البطريق له إن الناس قد عوّلوا على دفع الجزية كيما تقف رحى الحرب. ثم قال: «إن الله قد أعطاكم هذه الأرض فلا تدحلوا بعد اليوم في حرب مع الروم»[2]. ولعل المفاوضة والمشاورة قد استطالت مدّة أيام كعادة أهل الشرق في مفاوضاتهم ثم انتهى

---

(١) حنا النقيوسي (الفصل الأول) .

(٢) جاء في قول آخر قول قيرس في ذلك الكتاب ما يلي : « لم تكن بيننا وبينكم عداوة قبل اليوم » ويضيف زوتنبرج لفظ « طويلة » وصفاً للفظ « عداوة » ولكن هذا لا يصح النص المخطوء ، ولا بد أن النسخة المخطوطة فيها شيء من الخطأ .

أمرها إلى صلح اتفق فيه الجانبان على شروطه جميعاً، وكتب بها عقد في الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١، ولنسم هذا الصلح صلح الإسكندرية كي نميز بينه وبين الصلح السابق الذي عقد في بابليون، فإن هذا الصلح الجديد إنما كان خاصاً في معظم شروطه بالإسكندرية وتسليمها، وقد تم به فتح العرب لبلاد مصر. واختلفت الروايات في ذكر شروط هذا الصلح ولكن حنا النقيوسي أورد أكبرها وهي:

١ ـ أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.

٢ ـ أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهي في أول شهر بابه القبطي الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢[1].

٣ ـ أن يبقى العرب في مواضعهم في مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أي سعي لقتال الإسكندرية وأن يكف الروم عن القتال.

٤ ـ أن ترحل مسلحة الإسكندرية في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوماً ما بقي في أرض مصر في رحلته.

٥ ـ أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردّها.

٦ ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم أي تدخل.

٧ ـ أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

٨ ـ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد.

---

(١) هذا تمام أحد عشر شهراً من الشهور القمرية وهي أقل إذا حسبت بشهور الروم (أنظر ذيل الكتاب عن تاريخ خوادث الحرب). وقد جاء ذكر الهدنة واضحاً في ابن الأثير ولكنه يجعلها مدة قصيرة تكفي لمكاتبة الخليفة عمر ومجيء رده عما سئل عنه في أمر الأسرى.

ولم يورد المؤرّخ القبطي هذه الشروط على هذا الترتيب الذي أوردناها به، فإنما قصدنا بترتيبها هكذا أن نجعلها سهلة المأخذ. ففي الشرط الأول ضمان للقبط في أنفسهم وأموالهم وكنائسهم. وإباحة لهم أن يتدينوا كما شاؤوا بحسب شعائر دينهم، فإن دفع الجزية والأموال جعلهم (أهل ذمة) لهم هذه الحقوق على الفاتحين. وقدّرت الجزية بدينارين على كل رجل إلا على الشيخ العاجز والولد الصغير، وقد بلغت الجزية إثني عشر ألف ألف دينار، وذلك نحو ستة آلاف ألف من الجنيهات[1]. وكان على أهل مصر فوق هذه الجزية أن يدفعوا الأموال على أرضهم وعقارهم. وأما الشرط الثالث فالأجدر بنا أن نجعله خاصاً بالإسكندرية، فإن (قيرس) وإن كان قد صالح العرب بالنيابة عن أهل البلاد كلها ما كان ليضمن أن ترضى بما رضيت به كل مدينة وكل طائفة، وما كان العرب ليمنعوا من قتال من قاتلهم من أهل البلاد ولا سيما قد وقع قتال في مدة الهدنة في بعض المواضع التي لم ترض بالتسليم ففتحت عنوة.

ويلاحظ القارىء أن رواية (حنا النقيوسي) لا تذكر شيئاً عن موعد حلول أول قسط من الجزية، ولا عن مواعيد ما يلي ذلك منها، ولكنه يدل دلالة واضحة على أن العرب طلبوا أول قسط منها عاجلاً، ويتفق معه في ذلك المؤرخ العربي ابن خلدون إذ يذكر ذلك ذكراً صريحاً[2].

---

(١) قد اختلف العرب في تقدير عدد القادرين من الذكور من أهل مصر واختلف تقديرهما للجزية بين ١٢,٠٠٠ دينار وثلثمائة ألف ألف دينار ولكن التقدير الأقرب إلى التصديق هو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ وكان الخراج في أول الأمر يؤخذ عيناً ، وهذا يبرر ما جاء في الأخبار عن أن القبط أمدوا العرب بالمؤونة بعد فتح بابليون . وقال أبو صالح إن عمراً فرض جزية سنوية قدرها $\frac{٢}{٣}$ ٢٦ درهم، ولكنه كان يفرض على أهل اليسار من الناس دينارين وثلاثة أرادب من القمح وقال إن ما كان يؤخذ من الجزية بهذه الطريقة بلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار سوى ما كان يفرض على اليهود من أهل مصر (صفحة ٧٥) ولكنه قال في صفحة ٧٤ غير ذلك وتلك لا شك رواية نقلها عن مصدر آخر .

(٢) يقول حنا إن العرب جاءوا بعد الصلح بمدة وجيزة ليأخذوا الجزية من الإسكندرية . ويقول ابن خلدون عند ذكر شروط الصلح إن أهل مصر كان عليهم أداء الجزية عند =

والآن قد بلغنا مبلغاً نستطيع معه أن ندرك ما وقع فيه مؤرخو العرب من الخلط والاختلاف عند معالجتهم مسألة يحبون الخوض فيها وهي مسألة فتح مصر، وهل كان عنوة أو صلحاً. ولا بد لنا هنا من أن نذكر أمراً وقع بالإسكندرية فيما بعد ونعجل به قبل موضعه، وهو أن الروم عادوا إليها فأخذوها بعد ثلاث سنوات أو أربع من وقت مصالحة قيرس وتسليمه للعرب. ثم فتحها العرب مرة أخرى وكان فتحها هذه المرة عنوة لا صلحاً. فدوننا الآن اتفاق عجيب في حوادث عدة. فقد أراد المقوقس أن يسلم حصن بابليون في أوان فيض النيل وكان ذلك بعقد وعهد. فلم يرض به الإمبراطور وأبى الموافقة عليه، فبقي الحصن إلى أن هاجمه العرب، ولكن قبل أن يدخل فيه الفاتحون خرج أهل الحصن فسلموا لهم ونزلوا على عقد وعهد. ثم سلمت الإسكندرية كذلك في أوان فيض النيل وكان تسليمها صلحاً، وذلك بغير أن تجد كيداً كبيراً من القتال. ولكن الروم عادوا إلى الاستيلاء عليها بعد أن بقيت في حكم العرب مدة، ولم يخرج الروم منها إلا بعد حصار انتهى بفتحها عنوة.

فإذا نحن راجعنا هذه الحوادث العجيبة وذكرنا أن أول من كتب تاريخ الفتح من مؤرخي العرب كتبه بعد نحو مائتي عام منه، وإذا ذكرنا أنه من أشق الأشياء أن تبقى هذه الحوادث على حقيقة صورها وهي صور متشابهة فيها الاتفاقات العجيبة فتبقى مدة قرنين لا حافظ لها إلا الرواية وأكثرها أحاديث شفوية، إذا ذكرنا ذلك لم يكن عجبنا من ذلك الخلط الذي وقع في الرواية والتشويه الذي أصابها، بل كان أعجب العجب أن نجد بقية من الحقيقة لا تزال محفوظة في نتف كثيرة من الأخبار مهما كان اضطرابها وانقطاع نظامها وصلتها، وذلك لأن عهدنا بكتاب العرب لا يحسنون تفهم التاريخ ولا يدركون نظامه ولا يعبأون بأحكام الصلة بين حوادثه. فنستطيع الآن أن ندرك السبب الذي من أجله نجد بعضهم يذكر فتح حصن بابليون صلحاً وبعضهم يذكر أن فتحه إنما كان عنوة، وكذلك ندرك السبب الذي من أجله نجد مثل هذا الاختلاف في فتح

= الإتفاق على العقد وإذا ما إنتهى أوان الفيض وهذا الخبر له دلالة أخرى وهي أن عقد الصلح كان في أوان الفيض.

الإسكندرية. فالواقع أن كلاً من الروايتين صحيح من جانب واحد ولكن صحتهما لا تتم إلا بعد إضافة وتعديل.

وقد رأينا من المستحسن أن نفحص روايات بعض المؤرخين من العرب الذين أتوا في أخبارهم بشيء من التفاصيل شائق لذيذ، ومن هؤلاء (البلاذري) وهو من مؤرخي القرن التاسع. فإنه يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال إن عمراً اجتمع بأصحابه من زعماء المسلمين بعد أن فتح حصن بابليون عنوة، واستشارهم فيما أراده من مصالحة المصريين. ثم عقد معهم صلحاً على أن يفرض دينارين على كل رجل قادر منهم، وأن يجعل على أصحاب الأرضين[1] ضريبة يؤدونها عن أرضهم، واشترط عليهم فوق ذلك أن يأتوا لكل رجل من المسلمين بكسوة كاملة كل عام. وطلب إليه الحاكم (المقوقس) أن يدخل في ذلك العهد كل بلاد مصر ولكن أبيح لمن شاء من الروم أن يخرج من البلاد. ويقول البلاذري وهو مخطىء في قوله إن هذا الصلح قد نقضه الإمبراطور، فإنه من الواضح أن الصلح الذي يذكره هو صلح الإسكندرية. ونجد هذا المؤرخ في موضع آخر يدل على أن مصر إنما فتحت عنوة، فيروي أن عمرو بن العاص خطب مرة على المنبر فقال: «لقد جلست مجلسي هذا في هذا البلد وليس لأحد فيه على عهد ولا عقد، إن شئت قتلت وإن شئت سبيت». وهذه الرواية إذا صحت كانت دليلاً على أن القبط لم يكن لهم من الأمر شيء وأن العقد إنما كان بين العرب والروم. ولقد كان هذا صحيحاً فإن العقد كان بين الروم والعرب، على أن القبط كانوا داخلين فيه. وقد ذهب (البلاذري) إلى هذا الرأي وجعل يدلل عليه، فإنه يذكر أن معاوية كتب إلى وردان يأمره بزيادة الجزية على القبط فأجابه وردان أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، لأن فيه نقضاً للعهد الذي لهم. وكذلك يذكر رواية عن أحد ولد الزبير أنه قال: «لقد أقمت في مصر سبع سنوات وتزوجت فيها وكان الناس فيها يفرض عليهم من الأموال ما لا طاقة لهم

---

(١) ذكر أن هذه الضريبة كانت ثلاثة أرادب من القمح وقسطين من الزيتون وقسطين من العسل وقسطين من الخل، وكان ذلك يجمع ويجعل في بيوت المال (صفحة ٢١٥) .

به، فآذاهم ذلك، مع أن عمرو بن العاص كان قد عقد لهم عهداً جعل لهم فيه شروطاً معلومة». ويقول البلاذري بعد ذلك إن في الأخبار سوى ذلك ما يدل على أنه كان بين العرب والمصريين عهد ولكنه مع ذلك لم يقدر على أن يمحو من ذهنه أن الإسكندرية لم تفتح عنوة مع إقراره «بأن عمرو بن العاص لم يقتل أهلها ولم يسبهم بل جعلهم أهل ذمة». والفتح عنوة لا يتفق بحال مع جعل أهل المدينة أهل ذمة، فإقرار البلاذري بأن أهل الإسكندرية كانوا أهل ذمة دليل على أنه عندما ذكر فتح الإسكندرية وقال إنه كان عنوة إنما كان يقصد الفتح الثاني.

وقد جاء في كتاب الطبري ذكر شروط ذلك الصلح وهو يسميه صلح عين شمس بدل أن يسميه صلح الإسكندرية وذلك خلط عجيب منه[١]. وإليك نصها كما جاءت فيه: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف[٢]. وعليهم ما جنى لصوتهم (لصوصهم) فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم[٣]. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً

---

(١) راجع الذيل السابع الذي ألحق بالكتاب في ذلك الموضوع.

(٢) وهذا بلا شك غير صحيح.

(٣) ترجم المؤلف هذا القول بما يفيد أن الجزية تدفع على ثلاثة أقساط كل منها ثلث مقدار الجزية. وعلق على ترجمته أن هذا ما فهمه من الفقرة الغامضة وهي «وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم».

على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة». وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر[١].

وهذا النص للصلح ليس فيه خلاف عما جاء في كتاب (حنا النقيوسي) وإن كان كلا النصين لا يشمل كل ما جاء في النص الآخر، فالحق أن كلاً من النصين يكمل الآخر. وقد جاء في كتاب ياقوت عن ابن عبد الحكم أن مصر فتحت كلها صلحاً وفرضت الجزية دينارين على كل رجل من أهل مصر، على أن لا تزاد. ثم جعلت على أصحاب الأرض ضريبة يؤدّونها خراجاً من ثمار أرضهم وفرضت على أهل الإسكندرية جزية وضريبة على عقارهم. وأما مقدار تلك الجزية وتلك الضريبة فقد جعل أمره في يد الحاكم لأن مدينتهم فتحت عنوة بلا عقد ولا عهد. ولا شك أن في هذا القول خلطاً بين الفتح الثاني للمدينة الذي كان عنوة والفتح الأول الذي كان صلحاً. وخير ما قيل في هذا الشأن ما جاء في كتاب المقريزي فإنه أثبت الآراء المختلفة وأوضحها إيضاحاً عظيماً وأسند كل رأي إلى صاحبه[٢]، وأقوى الأدلة في كل ذلك هي ما دلت

---

(١) قد وردت هذه الشروط في كتاب ابن خلدون وقد أخذها عن الطبري ولكن الظاهر أنها غير موجودة في وصف فتح مصر في نسخة الطبري الموجودة الآن. أنظر طبعة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤٦١ وما بعدها ومع ذلك فإنه يفهم من الطبري أن الإسكندرية قد فتحت صلحاً.

(١) يرد ذكر هذا العهد في أكثر كتب التاريخ ويجعله المؤرخون صلحاً بين العرب والروم بعد وقعة عين شمس وليس صلح الإسكندرية. ومن العجيب أن المؤلف يزعم أن نسخة الطبري الحالية لا تأتي بذكر هذا الصلح ولكنه موجود فيها وقد أخذنا نصه عنها (المعرب).

وقد ألف المؤلف رسالة جديدة اسمها « The Treaty of Misr in Tabary » وفيها رجع عن رأيه هذا وقد جاء ذكر ذلك في الملحق السابع فليراجع (المعرب).

(٢) الخطط الجزء الأول صفحة ٢٩٤ وقد ذكر بعض مواضع صالح العرب فيها القبط ولكن قيل إن القبط جعلوا في عقدهم العام شروطاً ستة: (١) ألا يخرجوا من ديارهم. (٢) ألا يفرق بينهم وبين أزواجهم. (٣) ألا يطردوا من قراهم. (٤) ألا تنزع منهم أرضهم. (٥) ألا تُزاد عليهم الجزية. (٦) أن يحموا من عدوهم. =

على أن الفتح كان صلحاً . وإن خير ما نلخص به الأمر كله أن نورد ما قاله شيخ من القدماء إذ سمع رجلاً يقول إنه لم يكن لأهل مصر عهد فأجاب : « ما يبالي ألا يصلي من قال إنه ليس لهم عهد »[1] .

= ويظهر أن هذه الشروط غير مترتبة ترتيباً عقلياً وليست دقيقة ولا يذكر فيها شيء عن حرية دينهم ولا بد أن ذلك كان من شروط الصلح .
وقد روي عن زيد بن أسلم أنه قال: إن الخليفة عمر كان عنده صندوق فيه كل عقود الصلح ولم يكن بينها عقد لأهل مصر . وقال ابن شهاب[-1] إن مصر أخذ بعضها عنوة وبعضها صلحاً ولكن عمر جعل أهلها جميعاً ذمة ، فمثلاً لما أراد عبد الله بن سعد أرضاً في مصر دفع ثمنها لأن البلاد كانت فتحت صلحاً ويذكر مالك بن أنس وعبد الله بن لهيعة ونافع بن يزيد أن مصر فتحت عنوة . وأما الليث وعبد الله بن جعفر ويحيى بن أيوب وسواهم فيقولون الحق وهو أن فتحها كان صلحاً .

(-1) قال المؤلف (Ibu Shihah) ويقرأ ذلك الاسم (ابن شيحة) ولكن المقصود بلا شك هو (ابن شهاب) فلا بد أن الاسم قد حرف في الكتابة الإنجليزية بإبدال الباء الأخيرة هاء (h) وإبدال الهاء الأولى حاء (h) لتقارب صورة هذه الحروف (المعرب) .

(1) قد نقلنا هذا النص عن كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (المعرب) .

الفصل الثاني والعشرون

فتح بلاد الساحل

عمرو يرسل إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية ـ تاريخ ذلك الفتح ـ يفضي قيرس بنبأ الصلح إلى زعماء الإسكندرية ـ وصول رسل العرب ـ ذيوع النبأ بين الناس ـ سخط العامة وإقناعهم ـ نقد خيانة قيرس ـ موقع الإسكندرية الحربي ـ أثر موت هرقل ـ إقرار هرقلوناس للصلح ـ بناء مدينة الفسطاط الإسلامية ـ بناء جامع عمرو ـ إعادة حفر ترعة تراجان ـ القتال في شمال الدلتا ـ الاستيلاء على إخنا وبلهيب والبرلس ودمياط وتنيس وشطا وسواها ـ قصة شطا وتاريخ فتحها وأهمية ذلك التاريخ ـ بعض غلطات تاريخية وتفنيدها.

لما انتهى أمر الصلح أوفد عمرو بن العاص معاوية بن حُدَيج الكندي وأمره أن يحمل أنباء ما حدث إلى عمر بن الخطاب[1]، فطلب معاوية منه أن يكتب معه كتاباً فقال له عمرو: «ماذا عساني أفعل بالكتاب؟ ألست امرءاً عربياً تقدر على وصف أمر شهدته؟» فسار معاوية في رحلته الطويلة في الصحراء حتى بلغ المدينة، ووافق مقدمه وقت الظهر فأناخ راحلته عند باب المسجد ودخل.

(١) هكذا ورد اسم الرسول في البلاذري وهو الأصح. وذكر المقريزي أنه ابن خديج وهو يذكر خبر إرساله على أنه وقع عند فتح الإسكندرية الثاني ولكن المقريزي (أو الذي يروي عنه وهو ابن لهيعة) يقول إن إرسال معاوية سبق خطاب عمرو الذي يصف فيه الإسكندرية. وقد كتب ذلك الخطاب عند دخول العرب أول مرة إلى المدينة وفوق ذلك كان عمر قد مات قبل الفتح الثاني إذ دفن في أول المحرم سنة ٢٤ للهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤)، أنظر ابن الأثير الجزء الثالث صفحة ٣٨ فموضع ذلك الخبر حيث وضعناه على الصحيح.

وفيما هو هناك خرجت جارية من بيت عمر، فلما رأت رجلاً غريباً عليه وعث السفر سألته عن اسمه فقاله لها ثم قال إنه جاء يحمل رسالة من عمرو بن العاص. فعادت الجارية إلى الدار فما لبثت أن جاءت إليه مسرعة حتى سمع معاوية خفق نقابها على أقدامها إذ تجري إليه، ثم أمرته أن يتبعها إلى البيت. فلما جاءه سأله عمر عن الأنباء فقال له: «خير يا أمير المؤمنين فتح الله علينا الإسكندرية». فقام معه عمر حتى عاد إلى المسجد وأذن المؤذن للصلاة، فأقام عمر صلاة الشكر لله على ما أولى، ولما عاد مع معاوية إلى داره صلى مرة أخرى ثم طلب الطعام، فقدّم له خبز وزيت يؤتدم به فوضع ذلك أمام الضيف فأصاب منه شيئاً خفيفاً على استحياء، ثم أتى بتمر فوضع له، وكان هذا أكبر ما عند الخليفة من لذائذ الطعام وأطايبه. ثم اعتذر معاوية بأنه لم يبادر إلى حمل نبأ الفتح لأنه ظن عمر نائماً وقت القيلولة، فقال له عمر: بئس ما قلت وبئس ما ظننت[1]، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين؟.

وهكذا أرسل نبأ الفتح إلى المدينة وهكذا تلقاه الخليفة فيها بغير زينة ولا ضجة، وما كان أعظم الفرق بين هذا وبين ما حدث في الإسكندرية عندما أتاها ذلك النبأ.

أمضى عهد الصلح في (بابليون) في يوم الخميس الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١[2]، وكان لا بد له من إقرار إمبراطور الروم كما كان لا بد له من

---

(١) في رواية المقريزي بئس ما قلت (أو بئس ما ظننت) . (المعرب) .

(٢) قد ذكرنا الأسباب التي من أجلها اخترنا ذلك التاريخ في الذيل . وقد ذكر الأستاذ (لين بول) عن الطبرى عبارة زياد وهي أن طلب الصلح جاء إلى عمرو وهو في بلهيب وأنه أرسل إلى الخليفة في ذلك وأن المسلمين إنتظروا رده في ذلك الموضع عينه وهو (بلهيب) . والخبر على هذه الصورة غير محتمل فإنه يخالف ما جاء في ابن قتيبة وحنا النقيوسي وكلاهما يقول إن عمراً جاء إلى بابليون في ذلك الوقت وإنه لمن المستبعد أن يكون جيش عمرو وقد بقي هذه المدة كلها في موضع واحد . فالحقيقة كانت بغير شك أن عقد الصلح كان في بابليون وأن إقرار الخليفة جاء إلى عمرو وهوفي بلهيب .

إقرار خليفة المسلمين عمر، وكان في مدة الهدنة وهي أحد عشر شهراً متسع يكفي لذلك وما يلزم له من الرسوم. ثم عاد قيرس مسرعاً إلى الإسكندرية يحمل معه كتاب الصلح.

وكان أول ما عنى به أن يرسل شروط الصلح إلى (تيودور) وهو القائد الأعلى، ثم إلى قسطنطين وهو قائد الحرس. ومن أعجب الأمور أن (تيودور) لم تكن له يد في مفاوضة الصلح ولم يحضر كتابته في (بابليون)، مع أنه كان حاكم المدينة من قبل الإمبراطور. والحقيقة أن كل ما يمس (تيودور) محير مدهش، فلسنا ندري من أمره شيئاً حتى لنجهل هل كان قد علم بعزم (قيرس) على تسليم المدينة للعرب قبل أن ينفذه. فإذا كان قد علم بذلك فلا بد أنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح مع العرب. وأما إذا كان غير عالم بذلك فمن أعجب الأمور أن يسارع إلى الموافقة على أمر لا يمكن أن نصفه إلا بأنه كان تسليماً شائناً.

وكانت أنباء ذلك الصلح الذي عقد في طي الخفاء تتردد بين رؤساء موظفي الحكومة وبين زعماء الناس في العاصمة، يتناقلها بعضهم عن بعض همساً ووسوسة، يفضي بها الرجل إلى من يأمنه ويطمئن إليه. وأما العامة فإنهم ظلوا في جهالة لا يعلمون من جمره شيئاً، وأرسلت الرسائل إلى الإمبراطور هرقلوناس تفضي إليه بشروط الصلح وطلب إليه أن يقرها. والظاهر أن القائدين كانا كلاهما يعززان ذلك الصلح ويوافقان على طلب إقراره، وإن في تعزيزهما له وموافقتهما عليه لحجة يمكن الاستناد عليها في تبرير ما أتاه قيرس ورفع الوزر عنه بعض الشيء. على أنه من المعلوم ما كان عليه (تيودور) من العجز في قيادة الحروب وضعف الرأي فيها، فموافقته على الصلح على ذلك لا قيمة لها، وحكمه في أمر الحرب مدافع لا يعتمد عليه. ومهما يكن من الأمر فإن (قيرس) عندما أحس بأنه مهد السبيل إلى إعلان الأمر في الإسكندرية، دعا كبار قواد الجيش وعظماء رجال الدولة، ولما انعقد عقدهم جاؤوا وعليهم (تيودور) و(قسطنطين). حتى إذا مثلوا بين يدي البطريق (قيرس) أظهروا له الولاء وأعلنوا

له الطاعة. ولنا أن نصوره لأنفسنا، وقد جلس في أبهته واتخذ زينته وجعل يبين لهم ما تضمنه الصلح من شروط بما أوتي من فصاحة وبراعة، ويسهب في ذكر الضرورة التي استوجبت عقده وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكنه كان فوزاً ما أشأمه.

وبهذا خطا (قيرس) خطوة جديدة في سبيل إنفاذ خطته في الإيقاع بمصر. على أنه ما كان ليستطيع أن يبقي خطته في ستر الخفاء بعد ذلك طويلاً، فعلم الناس بما كان ولكن علمهم لم يأت عن مقولة قالها (قيرس)، ولا إشاعة ترددت وذاعت بينهم، بل علموا بالأمر بغتة وقد فاجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة. فنفخت الأبواق إيذاناً بمقدمهم، وأسرع الناس من كل جهة ليقفوا في أماكن الدفاع من الأسوار والحصون، ولكن العرب ساروا على خيلهم لا يلوون على شيء ولا يعبأون بالضجة، وجاء قواد الروم عند ذلك بعد أن كانوا قد قضوا على حماسة الجنود وإقدامهم، فجعلوا يهدئون من روع الناس وينادون فيهم أن لا جدوى في القتال ولا أمل من ورائه. وقبل أن يقترب العرب حتى يصيروا على مدى رمي المجانيق أبصرهم الناس وهم يحملون أعلام الهدنة والسلام، فأشير إليهم بعلامة الرد فاقتربوا، حتى إذا ما صاروا بحيث يسمعون ويسمع منهم أفضوا إلى جنود الروم بما كان. وما كان أشد عجبهم ودهشتهم مما علموا، إذ عرفوا عند ذلك أن العدو لم يأت ليقاتلهم بل أتى ليحمل الجزية التي اتفق عليها مع (قيرس) المقوقس في عقد الصلح الذي طلبه من العرب وكتبه معهم على تسليم المدينة. فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا، وذهبوا غير مصدقين حتى أتوا قصر البطريق، فاطلع عليهم منه بعد لأي، وكان الخطر في تلك اللحظة محدقاً بحياته، إذ تهافت الناس إليه يريدون أن يحصبوه.

غير أن كبر سنه وعلو مكانته خذلا الناس عنه، وحمياه من الخطر. فأشار إلى الناس إشارة فهدأوا، ثم استطاع الكلام واستعان بما أوتي من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته وتهوين خيانته في مقالته التي قالها بين الناس. وجعل يبرر ما كان منه قائلاً إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطراراً إذ لم

يكن بد منه، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم، فإن العرب قوم لا يقوم لهم شيء إلا غلبوه، وقد أراد الله أن يملكوا أرض مصر، فما كان للروم إلا أن يصالحوهم، فإنهم إن لم يفعلوا جرت الدماء في طرق مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا، ومن بقي منهم حياً خسر ما كان يملك وضاع أمره. ولكن الصلح حقن دماءهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم. ومن أراد أن يعيش في أرض مسيحية كان له الخيار في ترك الإسكندرية، وما كان أمر الخيار بين الهجرة من مصر وبين الإذعان للمسلمين بالأمر الهين. فلم يتمالك البطريق معه، بل بكى وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه إنما بذل جهده في أمرهم، وأن عليهم أن يرضوا بالصلح الذي عقده من أجلهم يقصد به صلاح حالهم.

بهذا استطاع (قيرس) مرة أخرى أن يفوز برأيه المشؤوم، فإذا بالناس وقد عادوا إلى رأي الجيش ورضوا بالتسليم والنزول عن مدينتهم العظيمة للعرب، على شرط العقد الذي تم. وجعل الثائرون يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الحبر الطاهر، في حين كان يسعى جُهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاة. وأخذوا يجمعون قسط الجزية التي فرضت عليهم وزادوا عليها مقداراً كبيراً من الذهب، ووضع ذلك المال في سفينة خرجت من الباب الجنوبي الذي تدخل منه الترعة وذهب به قيرس بنفسه ليحمله إلى قائد المسلمين[1].

وبذلك تم فتح الإسكندرية، وإذا حسبنا تاريخ ذلك وجدنا أن أداء ذلك القسط الأول من الجزية قد يكون في أول المحرم من سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وذلك هو اليوم العاشر من ديسمبر من عام ٦٤١. وليس في مصادر التاريخ ما يثبت ذلك التاريخ وينص عليه صراحة، ولكن الرواية التي تناقلها العرب تجعل فتح المدينة في ذلك اليوم. ولعل منشأ تلك الرواية كان عمن حضر ذلك اليوم وشهد إذعان أهل الإسكندرية بحملهم أول قسط من جزيتهم.

---

(١) لم يرد هذا في متن الكتاب (أنظر صفحة ٥٧٦؟) ولكنه جاء في عنوان الباب العشرين بعد المائة صفحة ٣٥٨ من كتاب حنا النقيوسي .

ومع ذلك فإن مؤرخي العرب يجعلون أول المحرم في يوم الجمعة مع أن أول المحرم لم يقع في يوم جمعة في ذلك العام ولا في عام قريب منه إلا في عام ٦٤٥. وعلى ذلك يكون لنا أن نقول إن الرواية لا يمكن أن تكون صحيحة في كل أجزائها، بل لقد تكون كلها غير صحيحة. ولكنا نتردد في الأمر ونحمل أنفسنا على القول إنها لا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة، لأنها رواية من أثبت الروايات في أخبار الفتح العربي[١]. وعلى أي حال فإنه من المفيد أن نوجه الأنظار إلى إنفاق عجيب آخر يلوح من خلال ما اختلط من تواريخ ذلك العصر، ولعله يفيدنا في بيان أسباب ذلك الخلط بعض التبيين، وذلك أن بعض مؤرخي العرب يقرر أن فتح الإسكندرية لم يقع إلا بعد ثلاث سنين من دخول جيش عمرو في مصر، في حين أن طائفة سواهم تقول إن فتح حصن بابليون وفتح الإسكندرية وقعا كلاهما في عام واحد وهو العام العشرون من الهجرة. ومع ما يظهر من الخلاف بين الطائفتين نقول إن كلاهما على الحق، فقد سلم حصن بابليون في شهر إبريل من عام ٦٤١، وسلمت الإسكندرية في شهر نوفمبر من ذلك العام، وكلا التاريخين واقع في سنة عشرين. ومن جهة أخرى قد دخل عمرو في أرض مصر في عام ٦٣٩ من الهجرة، ولكن جيشه لم يدخل الإسكندرية إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، أي في شهر أكتوبر من عام ٦٤٢ عندما انقضت مدة الهدنة وهي أحد عشر شهراً. وإنه لمما يسر النفس أن تفوز بكشف الحقيقة من وراء هذا الغطاء من خلاف يخمرها.

وماذا عسانا نقول في هذا الصلح العجيب؟ فليس في طاقتنا أن نملك أنفسنا ونلزم القصد في القول إذا ما أردنا أن نصف فعلة المقوقس، وما أتاه ذلك البطريق من المكر السيء، وما كان له من الصلة المريبة بقائد للعرب وحرصه المدهش في كل وقت من أوقات القتال مع المسلمين على أن يسرع بالإذعان

---

(١) يرى المستر (ا . و . بروكس) أن هذا التاريخ يوافق حقيقة الفتح الثاني للإسكندرية وهو يجعله في يوم الجمعة أول المحرم سنة ٢٥ للهجرة (٢٨ أكتوبر سنة ٦٤٥) ولكنا سنورد الحجج التي تنقض هذا الرأي في فصل تال .

والتسليم لهم. فليس مرّ الأيام بمستطيع أن يمحو عن ذكره وصمة جنايته في خيانة دولة الروم والقصد إلى تضييع أمرها بعد أن لطّخته من قبل جزيرة حمقه وقسوته في اضطهاد القبط مدّة أعوام عشرة. فالحق أنه لو كان منذ ولي أمر الدين قد قصر همه على هدم سلطان الروم وتضييع أمرهم في مصر لما سار إلا على سيرته تلك، ولما سلك إلا السبيل الذي سلكه. وإنه ليملؤنا العجب إذ نراه يسارع تلك المسارعة إلى اغتنام فرصة الخيانة والإيقاع بمصر، وهي فرصة ما سنحت له إلا من جرائر أفعاله، وما تهيأت إلا من عاقبة سوء حكمه. ولا يخفف من جرمه أن يقول قائل إنه كان يأتمر بأمر مولاه الإمبراطور هرقلوناس، وقد خوّل له أن يعقد ذلك الصلح. فلقد كان من أهون الأشياء على مثل قيرس أن يحمل مثل هذا الملك على رأيه، وهو ملك مستضعف لا علم له بأحوال مصر، تسير به مشيئة أمه أنّى شاءت.

ولم يكن صلح الإسكندرية أول العهد بخيانته، بل لنا بها عهد منذ أشهر في حصن (بابليون)، وحسبنا بما كان منه في أمر هذا الحصن رداً على من يرقد الدفاع عنه بأنه إنما نزل على حكم الضرورة في الحرب. فإذا كان العرب عند طلوعهم على الإسكندرية قد بسطوا سلطانهم على أكثر بلاد مصر، فإن الأمر لم يكن كذلك وهم واقفون حول حصن (بابليون) في الوقت الذي أراد فيه أن يعقد معهم صلحه الذي أنكره الإمبراطور. وبعد فلم تكن الإسكندرية قد نزل بها من حرب العرب ضيق، وكانت بلاد الساحل جميعها لا تزال بمنجاة عنهم. وقد حاول جيش المسلمين أن يصدم تلك العاصمة في أول الأمر فارتد عنها عاجزاً مخذولاً وقد ذكرنا من قبل أنه ليس في الأخبار ما يحملنا على الظن أن ذلك الجيش قد أقام عسكره وعلى مقربة منها، ويدلنا على ذلك دليلان: أولهما إغفال ديوان حنا لذكر عسكر لهم هناك، وثانيهما قوله إن أهل المدينة عندما رأوا الفئة من المسلمين التي أتت لتحمل الجزية انزعجوا وثاروا. ولو كان المسلمون على مقربة بحيث يراهم أهل الإسكندرية من فوق أسوار مدينتهم كل يوم مدة شهور كما يقول مؤرخو العرب، لما حدث مثل ذلك الانزعاج عند اقترابهم. فالحق أن مؤرخي العرب يخلطون في هذا الأمر بين تسليم الإسكندرية الأول

وفتحها عنوة في المرة الثانية، إذ أنهم في المرة الثانية حاصروا المدينة حصاراً صحيحاً نوعاً ما، وأما تسليمها الأول فلم تكن ثمة ضرورة من ضرورات الحرب تدعو إليه[1].

وإنا نعيد هنا ما سبق لنا قوله إن الإسكندرية كانت من المنعة بحيث لا تكاد تنالها قوة عمرو ومن جاء معه من الجنود، فكان دور أسوارها نحو تسعة أميال أو عشرة، ثلاثة منها مما يلي البحر، وأكثرها ما بقي منها تحميه الغياض والبحيرات والترعة. وإذ كان العدوّ لا يستطيع أن يقترب إلا من جزء يسير من تلك الأسوار فقد كان من السهل على جند المدينة أن تجعل همها دفع حملاته على هذا الجزء. وإن العرب لو استطاعوا إسكات ما على الأسوار من المجانيق القوية المريعة، وقدروا على الاقتراب منها، لما أمكنهم أن يصدعوا الأسوار بما لديهم من الوسائل وما كان أقلها وأضعفها. وإنا لا نكاد نعرف في تاريخ الإسكندرية أنها أخذت مرة عنوة بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها.

---

(١) إنه لمما يؤسف له أن يزيل الإنسان كل هذا النسيج من القصص الذي نسجه خيال العرب في أخبار حصار الإسكندرية ولكنا لا نرى مفراً من ذلك . فالظاهر أن الحق يلوح من ثنايا ما ذكره السيوطي عن كتاب عمرو إلى الخليفة عمر ، وهو يذكر فيه أن عدد من مات من المسلمين في هذا الحصار كان اثنين وعشرين مع أن هذا الخطاب قد قيل إنه كتب بعد فتح المدينة الثاني . والقصة المعروفة عن عمرو ومولاه وردان ووقوعهما أسيرين في أثناء حملة حملها العرب على المدينة وارتدوا عنها ما هي إلا خرافة ، فقد ذكرت هذه القصة عينها عن هذين الرجلين في دمشق ، وقد ذكرهما ابن بطريق كليهما وجعل ختام حصار الإسكندرية أن العرب طردوا الروم منها فهربوا في البحر والبر . وجاء في رواية أخرى مثل وصف هذه القصة وأنها قد وقعت في حصار غزة بفلسطين ، والظاهر أن منشأ هذه القصة ما ذكره ابن عبد الحكم من الأقاصيص الخيالية ، وقد قال المفتي الأكبر للديار المصرية في تعليق له على الطبري أعطاه المؤلف هذا الكتاب « ولم يرد في هذا الوصف أيضاً ذكر لوقعة عند الإسكندرية وقد جاء في الأخبار المروية أن هذه الوقعة لم تقع إلا بعد ثورة في سنة ٢٥ » وهذا هو الحق بغير شك . ولكنه من المفيد أن نذكر ما قاله أبو صالح (صفحة ٧٦) أن عدد المسلمين الذين قتلوا في فتح مصر سوى من قتل منهم في الحصار (ولا ندري أي حصار هذا) كان ٣٠٠، ١٢ وهو تقدير معتدل لمن قتل في المواقع الكثيرة في هذه الحرب الطويلة .

فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذي عقده قيرس لم تكن ثمة من ضرورة في الحرب تدعو إليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه لا يمرّ بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة. قد يقول قائل: إن فتح بابليون قد أوهن الروم وإن جنودهم امتلأوا هيبة من العرب إذ رأوا أنهم لم يصبروا على لقائهم في موطن من المواطن منذ ابتدأت الحرب، وإن الجيش الروماني كان لا يثق في قواده.ولا يرى منهم إلا الجبانة والعجز. وهذا كله صحيح لا شك فيه. ولكن كان في الاستطاعة تغيير الحال بأن ترسل جنود غير تلك الجنود وقواد غير أولئك القواد لا تزال في جنانها شدة وفي قلوبها قوة، غير أن ذلك لم يسع إليه أحد. فإن الدولة منذ مات عنها هرقل لم تجد حاكماً يلم شعثها ويصرف أمورها ويحملها على سبيلها. وكان أهل الإسكندرية شيعاً وطوائف، تقطع ما بينهم الأحقاد والأطماع، فما كانت تخلو من هيعة أو وثبة. وجاء بعد ذلك موت هرقل فزاد الحال سوءاً، إذ شطر حكومة قلب الدولة شطرين ليس بينهما إلا الشحناء والعداوة فالحق أن موته «كسر شوكة الروم» كما قال المؤرخ العربي، ولكنه كسرها كسر أبلغ مما قصده ذلك المؤرخ، فإن الدولة أغفلت بعده همها الأكبر وهو الدفاع عن حياتها. فشغلتها دسائس (مرتينه) ومكائد (فلنتين) فتركت مصر تجري في قضائها، وكانت الإسكندرية إذ ذاك قطب الحوادث يدور عليها أمر مصر ومصيرها، فلم تجد في الدولة من يأخذ بيدها. ولو وجدت نصيراً يمدّها لنجت من عدوها ولناجزته بعد ذلك على سواء حتى تخرجه من أرض مصر.

لسنا ننكر أن الروم عند فتح الإسكندرية لم يكن لهم أمل في أن يهاجموا العرب ويخرجوهم من البلاد، ولكن الإسكندرية كانت تطيق الصبر على الحصار مدّة سنتين أو ثلاث ريثما يلي الأمر حاكم صلب القناة. فإذا ما كان ذلك لم يكن بالمستبعد أن تعود مصر إلى الروم، ولا يمنع من ذلك ما كان من أثر الماضي وجرائره التي أدّت إلى تمكّن العرب في البلاد تمكناً تصعب زلزلته. فالأمر لم يكن بعد قد تفلّت من يد الروم إلى حيث لا يرجع إليهم. وقد كان قيرس صاحب الجريرة في ضياع مصر، لا يجديه دفاعه واعتذاره بأن الجيش

كان خائر النفس، وأن الناس كانوا شيعاً وفرقاً لا تجتمع لهم كلمة. فما كان ينبغي النزول عن الإسكندرية، بل كان أوجب الأمور الاحتفاظ بها مهما كان في سبيل ذلك من مشقة، ولكن قيرس أسلمها للعدوّ خفية وعفواً بغير أن تدعوه إلى ذلك ضرورة.

ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذي حمل أهل الإسكندرية على قبول ذلك الصلح، والمبادرة إلى الرضى عن قيرس بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه لما رأوا من خيانته. فقد كانوا معروفين بالنزق والتقلب في الأحوال، ولكنهم لم يكونوا صادرين عن نزق في انصرافهم عن دولتهم وصدوفهم عنها ورضائهم بالإذعان لحكم الإسلام. وليس ثمة إلا رأي واحد فوق ما سبق لنا ذكره نفسِّر به ما كان منهم، وذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الحدثان وكرهوا فساد الحكم الذي أثقل كواهلهم مدة أربعين عاماً، وقالوا في أنفسهم لعلنا نجد في حكم المسلمين قراراً واطمئناناً نأمن فيه على ديننا فلا نكره على شيء فيه، وعلى أموالنا فلا نتحمل من الخراج والجزية إلا قدراً نطيقه. ولعل أكبر ما حملهم على الرضى بحكم العرب رفع ما كان يبهظهم من الضرائب، فقد كان الروم يجبون من مصر أموالاً يتعذر علينا أن نعرف مقدارها، ولكنها كانت بلا شك كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة شديدة الأذى. فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض، ومهما يكن من مقدارها فقد كانت لها فضيلة البساطة. وكانت ثابتة المقدار محدودة القصد، وكانت أقل في جملتها مما كان يجبيه الروم، أو لقد خيل إلى الناس أنها كذلك. ومنذ كان شعور المصريين الوطني ضئيلاً كان تأثرهم بما يمس أموالهم شديداً. ولعل ما كان الناس يتوقعونه من العرب من تخفيف حمل الضرائب كان من أكبر العوامل على فوز المسلمين في فتوحهم جميعها. وأما في الإسكندرية فلعل هذا الأمر كان أعظم الأمور أثراً[1]. على أن ما طمع فيه أهل الإسكندرية من تخفيف هذه الأحمال لم يتحقق لهم بل خاب أملهم خيبة ما كان أمرها.

(١) ذكر المستر (ملن) في كتابه « Egypt Under Roman Rule » طائفة عظيمة من أخبار =

أقرّ الامبراطور عهد الصلح، ولعل ذلك كان آخر مـا أتاه في حكمـه، إذ انتهى في ذلك الشهر عينه وهو نـوفمبر. ويلوح لنـا أن عمرو بن العـاص كتب شروط ذلك الصلح وأفضى بهـا إلى أهل مصـر، وكانت تلك الشـروط تعدهم بالأمن على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم وصلبهم، وبحمايتهم من أهـل النوبة وسوأهم من أعدائهم متى دفعوا الجزية[1]. ولكن المقاومة لم يخب لهبها ولم يخذلها ما كان من تسليم الإسكندرية العـظمى، ولا ما وعـد به عمـرو من الشروط الحسنة. فقد بقيت بعض البلاد في شمال مصر السفلى ترفع لواء الروم ولا ترضى بالتخلي عنه، مع أن فتح الإسكندرية كان قد قضى على الأمل كله في دولة الروم، وأصبح بعدها من أشدّ الحماقة أن تصر طائفة على القتال وتأبـى الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد. فكان لا بد للعرب من فتح تلك البلاد حتى يتم لهم الأمر، وكان عمرو قد فرغ مما يشغله ويستطيع السير إليها في أي وقت شاء.

وكان عمرو في هذه الأثناء منصرفاً إلى عمل آخر في بابليون، إذ عزم على أن يبني للمسلمين مدينة جديدة في السهل الذي يلي الحصن الـروماني، بينـه وبين جبل المقطم وكان موضع عسكره. وقد روى البلاذري أن الزبير هو الذي اختط المدينة واتخذ فيها لنفسه داراً، وجعل فيهـا السلم الذي صعـد عليه إلى سور الحصن، وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق. وأما ياقوت فـإنه

= الضرائب ولكنه لا يـذكر جملة مقـدار ما كـان مفروضـاً على أهل الإسكنـدرية أو على المصريين في ذلك الوقت ولا يذكر هل كان أهل الإسكندرية لا يزالون على ما كانوا عليه أيام حكم الرومان من الإعفاء من الجزية كما كانت الحال في أيام (يوسفوس) . أنظر صفحة ١٢٢ .

(١) أخذنا هذا الخبر عن أبي المحاسن وهذا نقله عن ابن كثير . وقال ابن كثير إن ذلك كان بعد فتح عين شمس ، ولكن هذا خطأ ، فالشروط التي يـذكرهـا هي عين شروط صلح الإسكندرية ويزيد على ذلك أن أهل مصـر جميعاً دخلوا في ذلـك الصلح ، وهذا على وجه الإجمال يصح قوله عن صلح الإسكندرية ، على أنه لا شك في أنه لا يصح قولـه عن أي صلح آخر ولم يكن ثمة أي صلح عقد في عين شمس . (المؤلف) .
وراجع الذيل السابع . (المعرِّب) .

يذكر أربعة نفر أمرهم عمرو أن يقوموا على اختطاط المدينة وتقسيمها[1] بين أحياء العرب وقبائلهم. ومهما يكن من الأمر فلا شك في أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبط، إذ لم يكن عند ذلك في العرب من له علم بذلك الفن ولا دراية به. ومن الجليّ أن اسم الفسطاط الذي سميت به المدينة اسم أعجمي، وقد اختلف فيه مؤرخو العرب، فهم يقولون إجمالاً إن معناه (الخيمة)[2] تتخذ من الأدم أو من الجلد، وكان عمرو يتخذ لنفسه خيمة منها، أو يقولون إن معناها الموضع حيث يجتمع الناس. وجاء في رواية أن كل مدينة فسطاط. وقد أورد ياقوت ستة أوزان لذلك اللفظ[3]. ويمكننا أن نقول إن علاقة ذلك الاسم بسرادق عمرو وبقصة اليمامة فيها شيء من الصحة، فإن لفظ (فسطاط) يرجع بنا إلى اللفظ البيزنطي (٢٨*) وهو اللفظ الروماني (Fossatum) ، وكان في وقت الفتح لفظاً شائعاً على العسكر. وكان الرومانيون في حصن بابليون بلا مراء إذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه «الفسطاطون» (٢٩*) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ. وإنه لمن أعجب الأمور أن يظهر ذلك الرأي للناس كأنه جديد مستغرب[4].

---

(١) معاوية بن حديج وشريك بن سمي وعمر بن قحزم وجبريل بن ناشرة .

(٢) يشك أبو صالح في هذا التأويل ويقول إنها سميت بالفسطاط وهو مجتمع الناس ولم يقم العرب خيمة إذ لم يكن لهم عهد بذلك (صفحة ٧٤) .

(٣) الفُسطاط والفِسطاط والفُسّطاط والفِسَّاط والفُستاط والفَستاط. ولكي نعرف الأدلة على أن الكلمة مشتقة من اللفظ الروماني (Fossatum) أنظر كتاب سفوكليز « القاموس البيزنطي »*(٣٠) ولعل العرب سمعوا هذا اللفظ في الشام كما سمعوه عند حصن بابليون . وأكثر ما يطلق على ما يتصل بالمدن المحصنة ، (ولعل هذا الإتصال هو الذي جعل العرب يذهب إلى أن الفسطاط معناها المدينة (أنظر خطط المقريزي الجزء الأول صفحة ٢٩٦) والخبر الذي أشرنا إليه في المتن ورد في ياقوت إذ يقول إنه قد جاء في الحديث ما معناه أن عليكم الإجتماع فإن يد الله فوق الفسطاط . ومعنى ذلك المدينة التي يجتمع الناس فيها ، وعلى هذا فإن كل مدينة فسطاط . ويقول ابن الفقيه إن البصرة كان يطلق عليها اسم الفسطاط .

(٤) يقرب الدكتور (وليس بدج) إلى الحقيقة في كتابه الصغير المسمى (النيل) صفحة =

وإنه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند اختطاطها مدينة عظيمة أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين[1]، فقد كان انحصار الجنود في الحصن مما أفسد حالهم ونغص عليهم عيشهم، وما كان من العدل ولا من المستحسن أن يخرج المسلمين أهل مصر من ديارهم ليحلوا محلهم. وعلى ذلك فقد رأى العرب أنهم يستطيعون البناء خارج أسوار الحصن لا يخافون شيئاً، بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأمنوا الكيد أن يأتيهم من جانب ذلك الإقليم. ولكن المدينة وإن ابتدأت صغيرة، نمت نماءً سريعاً بعد سنة من إنشائها منذ أبى الخليفة عمر أن يبيح لعمرو أن يتخذ الإسكندرية عاصمة. فاتسعت عند ذلك فسطاط مصر وكانت تسمى بالإسمين معاً، حتى عمت الفضاء الفسيح الذي نرى به اليوم تلك الأكوام من الأقذار في جنوب القاهرة، ومنذ ذلك الوقت صارت عاصمة مصر. ثم نشأت بعد ذلك ضاحية في ظاهر الفسطاط من قبل الشمال وكان اسمها العسكر، وانتقلت إليها قاعدة الحكم. ثم تلا ذلك بناء القطائع في شمال العسكر، بناها أحمد بن طولون واتخذ فيها الطولونيون

= ١١٢ (ت . كوك وولده لندن سنة ١٨٩٠) ومع أنه يقول في تعليق له إن اللفظ العربي فسطاط صورة أخرى من فسطاط وهو لفظ يوناني بيزنطي* (٣١) فإنه يقول في المتن إن الفسطاط معناه الخيمة وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون العرب قد اتخذوا الخيام في حروبهم في ذلك الوقت . ولكنا مع صرف النظر عن هذا الشك نرى أن القول إن معنى الفسطاط (العسكر) قول قائم على أدلة تاريخية ولغوية فهو في حكم الثابت المقرر .

(١) تاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه طبعاً ، فالظاهر أن البلاذري يزعم أنه كان بعد فتح بابليون في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية عندما أبى عمر أن يبيح لعمرو المقام في الإسكندرية . ونرى أنه من المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الإسكندرية كما ذكرنا في متن الكتاب وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير عندما قضى عمر بعدم المقام في الإسكندرية ، ونرى أن (Weil) قد أخطأ إذ قال إن بناءها كان بعدما دخل العرب الإسكندرية كما أنه أخطأ إذ زعم أن الإسكندرية فتحت عنوة . وقد قال أبو المحاسن صراحة إن عمراً بنى الفسطاط في سنة ٢١ هجرية بعد فتح الإسكندرية وقد وقع شتاء (٦٤١ - ٢) بعد ١٠ ديسمبر في سنة ٢١ للهجرة .

قصوراً[1] لهم. فلما انقضت دولة الطولونيين رجعت العسكر إلى شأنها الأوّل حيناً من الدهر، ثم قضى عليها في أواخر القرن العاشر، إذ جاء الفاطميون إلى مصر وبنوا لهم عاصمة جديدة وهي مصر (القاهرة) أي المنصورة. وقد أخذ أهل البندقية الوصف (القاهرة) ولم يأخذوا الاسم (مصر) ونقلوه محرّفاً إلى لغات أوربا وهو (كيرو).

وإنا نرى إلى اليوم جامعاً عتيقاً في شمال الحصن الروماني المتهدم ويبعد عنه بقليل، وهو أقدم مسجد في مصر يؤمه السفار ويعرفونه، فلا حاجة بنا إلى إثبات وصفه هنا، ونظن أن إنشاءه كان في ذلك الشتاء من سنتي ٦٤١ و٦٤٢[2] وقد اختار عمرو لبنائه الموضع الذي كان فيه لؤلؤه[3]. وصار يعرف باسم مسجد أهل الراية[4]. وكان ذلك الموضع بين بساتين وكروم[5] تلي شاطىء النهر[6]، وقد حل فيه قبل بناء الجامع أبو عبد الرحمن قيسبة بن كلثوم، فلما طلبه عمرو

---

(١) معنى لفظ القطائع ما يقطع من الأرض للأمراء (fiefs) وقد ترجم كاترمير من المقريزي وصفاً بديل لذلك الحي المسمى بهذا الاسم وما كان فيه من الأبنية الجميلة (Mem, Geog, et Hist,) صفحة ٤٥٨ وما بعدها من الجزء الثاني، وجاء قبل ذلك وصفه للعسكر (صفحة ٤٥٢).

(٢) جاء في المقريزي ما يفيد أن ذلك اللواء لم يكن لواء جيش عمرو بن العاص بل كان راية أقامها لبعض البطون إذ لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان، فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته فجعل لهم عمرو راية ولم ينسبها إلى أحد فقال يكون موقفكم تحتها إلخ (المعرب).

(٣) جاء هذا التاريخ (٢١ هجرية) في ياقوت وأبي المحاسن.

(٤) جاء هذا في ياقوت وإن الخبر الذي يذكر أن هذا موضع راية عمرو وليس موضع خيمته هو الأقرب، وهذا يقرر الرأي الذي يقول إن اشتقاق ذلك الاسم (الفسطاط) من اللفظ الروماني (٣٢)*.

(٥) السيوطي عن ابن عبد الحكم.

(٦) أنظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٧١ وما بعدها وقد علق هامكر على الواقدي (Exqugegtis Menphidis) صفحة ١٣٢ من الذيل ففند عبارته التي قال فيها إن المسجد بني في موضع كنيسة مسيحية، وهذا الخطأ ولا شك قد نشأ من أن بعض الأعمدة التي أدخلت في بناء هذا المسجد فيما بعد أخذت من بعض أبنية مسيحية.

منه نزل عنه صدقة للمسلمين. وكان المسجد من أوّل ما يجب على المسلمين اتخاذه. ولقد كان جامع عمرو في الأصل مسجداً ساذجاً، وكان ذرعة خمسين ذراعاً في ثلاثين وسقفه مطأطأ، وكان أمامه فضاء، ولم يجعل لـه صحن، ومدّ الطريق حولـه وجعلت له ستـة أبواب. ثم ظهـر ضيقه بـالمصلين فكان النـاس يصطفون للصلاة في الفضاء الذي أمامـه. وقيل إن الـذين أقامـوا القبلة كانـوا ثمانية[1] من أصحاب الرسول. فيهم الزبير، والمقداد بن الأسود[2]، وعبادة بن الصامت؛ وكانت قبلته منحرفة إلى الشرق انحرافاً أكثر مما هي عليه اليوم. ولما تم بناؤه وضع فيـه منبر، وكـان عمرو يقـوم عليه في خـطبته[3] حتى تقـدّم إليه الخليفة عمر يعزم عليه في كسره، ولامه على أنه يطأ رؤوس المؤمنين إذ يقـوم عليه والمسلمون جلوس تحت عقبيه. وقد زيدت فيه زيادات كان أوّلها ما زاده مسلمة بن مخلد في سنة ٦٧٣ للميلاد[4]، فإنـه مدّه إلى جهـة الشمال وفـرشه بالحصر بدل الحصباء، وبنى فيه صومعة عند كل ركن من أركانـه. وجعل فيـه منائر نقش عليها اسمه، وزاد عدد المؤذنين وأمرهم أن يؤذنـوا للفجر إذا مضى نصف الليل[5]. وأمر ألا يضرب فيه بناقوس[6] عند الفجر كما كان يفعل أوّلاً.

---

(١) هذا عن السيوطي ويقول غيره بل ثلاثين وآخرون يقولون ثمانين.

(٢) جاء في الأصل الإنجليزي القداد بن الأسود وهو تحريف (المعرب).

(٣) يذكر أبو المحاسن نقلاً عن ابن عبد الحكم خطبة طويلة خطها عمرو وهي على الأقـل خطبة بديعة اللفظ.

(٤) يذكر ياقوت والسيوطي سنة ٥٣ للهجرة في حين أن أبا المحـاسن يكتب سنة ٦٣ وهـذا التاريخ الأخير محرف من غير شك.

(٥) هذا مأخوذ عن المقريزي وقد جاء في الأصل الإنجليزي وأمرهم أن يؤذنوا (عند الفجر) ولعله تصـرف من المؤلف لأنـه نقـل هـذا عن المقـريـزي لإتفـاق بـاقي النص معـه. (المعرّب).

(٦) الناقوس هو آلة من الخشب كان يستعمل عند المسيحيين قبل الأجراس ولا يزال إلى اليوم مستعملاً في كثير من بلاد الإسلام حيث تكره الأجراس أو تحرم، وقد ذكر أبو المحاسن خبر إيصال المسلمين في مصر لإستعمالها. وكانت النواقيس تتخذ أحيـاناً من المعـدن وهي عبارة عن قطعة من الحديد أو النحاس معلقة في خيط أنظر كتاب « His. do L'eg- =

وفي حوالي سنة ٦٩٦[١] أمر عبد العزيز بن مروان بهدم جزء منه، ولعله أمر بهدم الزيادة التي زيدت فيه، وأعاد بناءه. ثم أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد ذلك في سنة ٧١١[٢] واليه قرة بن شريك أن يهدم المسجد كله ويعيد بناءه، فصار بعد ذلك إلى صورته التي بقي إلى اليوم محتفظاً[٣] بجلها مع ما دخل عليه من التغيير فيما[٤] بعد.

ولا نعرف إلا قليلاً من وصف البناء الذي بناه الناس في الفسطاط، فقد كانت أكثر المنازل من اللبن، ثم علا فيها البناء حتى صار إلى طبقات أربع أو خمس. فإذا أردنا أن نصوّر لأنفسنا صورة تلك المنازل كان لا بد لنا أن نصورها

= (Vansleb) « lise d'Alex. » (صفحة ٥٩) وكتاب بتلر « Anc. Cop. Ch. » (الجزء الثاني صفحة ٧٩ ـ ٨٠) وكتاب (Pereira) « Vida do Abba Daniel » (صفحة ٥٠ هامش ١)

وكتاب (Hamaker) Expugn. Memph. صفحة ١٦٦ وما بعدها وقد ورد فيه هذا الأمر بتفصيل عظيم.

(١) سنة ٧٧ للهجرة.

(٢) سنة ٩٢ للهجرة.

(٣) هكذا قال السيوطي حوالي سنة ١٥٠٠ للميلاد ومن الثابت أنه لم يدخل بعد ذلك تغيير كبير عليه بعد هذا التاريخ.

(٤) ودخلت عليه زيادة في سنة ٧٥٠ عندما كان صالح بن علي حاكماً على مصر ثم في أيام هرون الرشيد حوالي سنة ٧٩١ زيدت عليه زيادات في سنة ٨٢٦ في زمن عبد الله بن طاهر وفي سنة ٨٧١ في زمن أبي أيوب أحمد بن محمد. ولكن ما زاده عبد الله بن طاهر تهدم سنة ٨٨٤ على أثر حريق فأعاده السلطان المجيد خمارويه وأدخلت عليه تحسينات عدة في القرن العاشر ولكن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله شوهه بأن نزع عنه الفسيفساء وجعل مكانه طلاء أبيض من الجير، وإذا أراد القارىء الزيادة من هذا الوصف فإنا نصف له تاريخاً مفصلاً ووصفاً لمسجد عمرو في مقالة بديعة كتبها المستر (ا. ك كوربت) في جريدة الجمعية الملكية الأسيوية (شهر أكتوبر سنة ١٨٩٠ الجزء ٢٢) وتجد مع ذلك المقال رسوماً وإيضاحات وتجد أيضاً وصفاً دقيقاً بديعاً للمسجد في كتاب ابن دقماق (الجزء الرابع صفحة ٥٩ و ٦٧) وقد وجدت النسخة المخطوطة منه وطبعت بعد ظهور مقال المستر كوربت.

قطعاً عظيمة من البناء، قائمة على غير استواء ولا نظام، تدعمها أعمدة رومانية لا شيء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق، تشبه كل الشبه ما هو موجود أو ما كان لا يزال في مدينة رشيد من البناء منذ عشرين عاماً. وقيل إن بعض هذه المنازل الكبرى كان يسكن فيه نحو مائتي فرد وكانت الطبقة السفلى مما يلي الأرض لا يسكنها أحد إلا قليلاً. وقيل إن خارجة بن حذافة النائب المعروف الذي كان عمرو ينيبه عنه كان أوّل من اتخذ لداره مشربة أو طنفاً، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو أنه ما فعل ذلك إلا ليشرف على من حوله ويطلع على عوراتهم وسرهم، وأمره أن يهدمها. وقد بنيت في الفسطاط حمامات كان يسمي أحدها (حمام الفار) إذ كانت صغيرة حقيرة البناء إذا قيست بحمامات الرومان العظيمة.

وكان لا بد للمدينة فوق مسجدها ومنازلها وحماماتها أن يكون لها مقبرة، وقد رويت في ذلك قصة عجيبة وذلك أن قيرس بعث إلى عمرو أن يبيعه قطعة من الأرض عند سفح الجبل بسبعين ألف دينار، فلما سئل عن سر ذلك الثمن العظيم قال إنه قد جاء في كتبهم أن ذلك الموضع روضة من رياض الجنة. فلما علم عمر بن الخطاب بذلك قال إنما روضة الجنة حيث يدفن المؤمنون وأبى ذلك البيع على المقوقس، وأمر بجعل تلك الأرض مقبرة للمسلمين. وقد دفن فيها فيما بعد عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة.

ثم أقبل عمرو على عمل عظيم آخر وهو حفر خليج تراجان[1]. وكان

---

(١) قد حالفنا الكندي بجعل حفر قناة تراجان في هذا الشتاء من عام (٦٤١ ـ ٢) فإنه يقول إن ذلك كان سنة ٢٣ للهجرة وهي تبدأ في نوفمبر سنة ٦٤٣ ، ولكن من المعلوم أنه قبل موت عمر في ذي الحجة سنة ٢٣ كانت السفن المصرية تأتي إلى بلاد العرب تحمل البضائع إليها ولا يعقل أن كل هذا الخليج يمكن أن يحفر ويجهز لسير السفن في أقل من سنة ، وإنه من الممكن طبعاً أن هذا العمل عمل في الشتاء الذي قبله أي سنة (٦٤٢ ـ ٣) ، ولكن هذا التاريخ غير محتمل فقد كان عمرو عند ذلك مشغولاً في فتح بنطابولس وفوق ذلك نرى أنه لا شك في أن حنا النقيوسي يقصد أن يذكر أن هذا العمل كان في شتاء (٦٤١ ـ ٢) ، فهو يذكر على الأقل أن البدء في حفره كان في مدة حياة قيرس وقيل =

ذلك الخليج يخرج من النيل إلى شمال بابليون بقليل فيمرّ بمدينة عين شمس، ثم يسير في وادي الطميلات إلى موضع القنطرة حتى يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم[1]، وقد أهمل الروم أمره حتى سده الطين. وكان أقدم عهداً من حكم تراجان، وإنما سمي باسمه لأنه أعاد كريه وأصلحه، كما عزم عمرو بن العاص على أن يفعل به عند ذلك. وقد أظهر العلامة (فيل)[2] أن جزءاً منه إن لم يكن

= مسير العرب إلى بنطابولس وهو يقول إن ذلك كان بعد أن استولى العرب على البلاد، ولكن من الواضح أن حنا يعتبر الفتح العربي قد تم قبل موت قيرس أي في هذا الوقت. ولا يوجد شيء من الوجاهة في صحة قول من يقول إن موضع ذكر هذا العمل في كتاب حنا (٥٧٧ ـ ٨) يدل على غير ذلك التاريخ لأن كتاب حنا غير مرتب ترتيباً حسناً، وقد يقال إن العرب لم يملكوا مصر ملكاً تاماً بصلح الإسكندرية وهذا صحيح إذا تقيدنا بالألفاظ، ولكن الأمر الواقع أن فتح مصر كان عند ذلك قد تم تقريباً إلا في أقصى الشمال من مصر السفلى، وفوق ذلك قد جاء في البلاذري ما يعزز التاريخ الأول وهو شتاء (٦٤١ ـ ٢)، فإنه يقول (صفحة ٢١٦) إن في عام المجاعة (سنة ٢١ هجرية) كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يرسل الجزية عيناً (أي من القمح وغيره من الأشياء) إلى المدينة بالبحر، وقد بقيت على ذلك مع إنقطاع في بعض الأحيان إلى أيام أبي جعفر المنصور. وهذا لا يدل على أن الخليج تم حفره في تلك السنة (٢١ هجرية) التي تنتهي في ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢، ولكنه يدل على أن عمراً عرف قيمة مثل ذلك الخليج الذي يجعل طريق البحر متصلاً. فعلى الإجمال نرى أن الدليل قوي على أن بدء حفر ذلك الخليج كان في أوائل سنة ٦٤٢، وذلك على رغم ما ذهب إليه (Weil) ولعله لم ينته قبل سنة ٦٤٣، ولكن (Weil) يذكر أن ابن عبد الحكم ذكر في وصفه المفصل أن عمر ذهب إلى (الجار) وهي فرضة المدينة ليرى مجيء السفن الآتية من مصر، وهذا يدل على أن ذلك الخليج كان تاماً ومستعملاً قبل وفاة عمر (نوفمبر ٦٤٤)، ولعله تم في شتاء (٦٤٣ ـ ٤)، واستعمل في فيضان سنة ٦٤٤ لأول مرة.

(١) أنظر كاترمير « Mem. Geog. et. Hist. » الجزء الأول صفحة ١٧٦ وما بعدها.

(٢) « Geschichte der Chalifen » الجزء الأول صفحة ١٣٠ وما بعدها ويشير (Weil) إلى الجزء الثاني صفحة ١٥٨ من كتاب (Mannert) وهو (Geog. der Cr. und Romer) الجزء العاشر (X. I S.) صفحة ٥٠٣ وما بعدها ومقال (Letronne) في مجلة العالمين (XXVII) ٢١٥، وتجد بعض الأخبار عن ذلك في كتاب أبي صالح صفحة (١٧٢ ـ ٣) =

كله يرجع الفضل في حفره إلى فرعون مصر (نخاو)، وهو الذي حفر خليجاً في برزخ السويس من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، وقد أصلحت الترعة مرة أخرى في مدة بطليموس الثاني (فلادلفوس) ولكنه جعلها تنفصل من النيل عند (فاقوس) بعد أن كانت تنفصل عنه عند (بوبسطة). ولسنا نعرف الوقت الذي حفر فيه جزء الترعة الذي بين بوبسطة وبابليون. على أن هذه الترعة لم تكن ذات غناء كبير لأن الماء لم يكن يجري فيها إلا عند فيض النيل. ولما أهمل أمرها أصبحت من بعد القرن الثاني للميلاد غير صالحة لسير السفن، وكان لا بد للرمل أن يسدها بالسقوط فيها إذا ما قل تعهدها والاعتناء بأمرها. وقيل إنها كانت في ذلك الوقت خفية الأثر حتى احتاج عمرو إلى من يدله على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه. ولكن سرعة حفرها وإعادتها إلى الصلاح تدلنا على أن بعض مجراها الذي طوله تسعون ميلاً كان لا يزال صالحاً. على أن مثل ذلك الإسراع لم يكن عجيباً إذ كان يعمل فيها عدد عظيم من أهل البلاد يساقون إلى ذلك كأنهم أرقاء، يسوقهم من ورائهم مقدّمون وخول على ما جرت به سنة أهل مصر منذ أقدم الأزمان. ويلوح لنا أن العرب لجأوا إلى هذه السخرة بشدة لم تعهد من قبل حتى لقد وصفهم (حنا النقيوسي) وصفاً شديداً وتناولهم بالقول القاذع فقال: «وكان نيرهم على أهل مصر أشدّ وطأة من نير فرعون على بني إسرائيل، ولقد انتقم الله منه انتقاماً عادلاً بأن أغرقه في البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان، ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل»[1] ولكن الظاهر أن هذه الشدّة إنما جاءت عفواً في وقت الفتح ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو في مصر.

وقيل إن عمراً كان ينوي حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط، فيكون بذلك قد قطع البرزخ بالبحر كما هو اليوم، ولكن عمر بن

= وهوامشها وهامش صفحة ٨٨ وقد ردم حديثاً مجرى الخليج الواقع في القاهرة ويجري فيه اليوم طريق الكهرباء .

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٧٨ .

الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره قائلاً إنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج، وليس في هذه القصة شبهة تمنع من تصديقها.

ولم ينصرف القائد العربي كل الانصراف إلى هذه الأعمال السلمية، فلم تشغله عن أمور الحرب والقتال، فإنه رأى البلاد قد صارت إلى الإذعان للعرب منذ عهد الإسكندرية لا ينقص من سلطانهم عليها إلا بعض بلدان في شمال مصر السفلى، ولا سيما ما كان منها على شاطىء البحر، إذ أبت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من العهد. وكان لعمرو أن يسير إليها إذا شاء فيقاتلها ولو كان ذلك في مدة الهدنة. ويلوح لنا أنه قد وجه لقتالها جيشاً في ربيع سنة ٦٤٢؛ ومن العسير أن نصف ما كان من سير جيش العرب لا سيما وأن حنا النقيوسي لا يذكر شيئاً من أمر القتال في هذه المدة، فلا بد لنا من الاعتماد على مؤرّخي العرب وما جاء في أخبارهم، ومن أشق الأمور فهمها أو الربط بين أجزائها.

فلا نجد مع هذا ندحاً من أن نلجأ إلى التصور والحدس، فنقول إن جيش العرب لا بد قد سار من كريون نحو الشرق على ساحل النهر. وكانت في الإقليم الذي كان يعرف بالحوف الغربي مدينة اسمها (إخنا) ليست بعيدة عن الإسكندرية[1]. وكان حاكمها اسمه (طلما) فأتى إليه كتاب من عمرو يعرض عليه فيه شروط الصلح الذي صالح عليه (قيرس)، ولكنه لم يقنع بما جاءه في ذلك الكتاب، فأرسل إلى عمرو يطلب الاجتماع به، فسأله عن مقدار الجزية. فلم يطق قائد العرب احتمال هذه المراجعة وأشار إلى كنيسة قريبة وقال: «لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم»[2]. ولا بدّ أن (طلما) كره هذا الرد وعزم

(١) ياقوت الجزء الأول صفحة ١٦٦ ، ولسنا نستطيع أن نعرف موضع (إخنا) على الخرائط الحديثة ولا بين أسماء القرى .

(٢) هذا القول يخالف كل المخالفة الإتفاق المعقود الذي حدد الجزية وجعلها لا تتغير . وإذا صح أنه قبل عند ذلك كان لا بد ناشئاً من غضب ، ولكن الأقرب إلى العقل أن هذه =

على ألا يذعن، وعلى ذلك سار المسلمون إلى (إخنا) وما لبثوا أن أرغموها على التسليم لهم. وقد أخذوا منها أسرى كُثُر وبعثوا بهم إلى الخليفة عمر في المدينة، مع أن تلك القرية سلمت إليهم صلحاً بعقد وعهد. وقد حدث مثل ذلك لمدينة (بلهيب)[1]، وكانت مدينة منيعة في جنوب رشيد تبعد عنها بضعة أميال. والظاهر أن عمر أتاه هناك رد الخليفة عمر بإقرار صلح الإسكندرية[2]. فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس وقد جاء فيه أن يخير الأسرى، فمن رضي الدخول في الإسلام منهم أطلق سراحه وصار للمسلمين أخاً. فيروى أنه دخلت في الإسلام طائفة كبيرة من الأسرى، وكان المسلمون يكبرون فرحاً كلما أسلم منهم أحد. ولكن لم يقع مثل هذا كثيراً أن يُسلم جماعة مرة واحدة في مقام واحد، بل إن هذا الأمر ليس له نظير في وقت آخر، ولو صح أنه وقع لكان الباعث عليه طمعاً عظيماً في أمر من أمور الدنيا، في قلوب لم تكن عقيدتها ثابتة، ولعل تلك القصة قد داخلها تحريف ومبالغة.

ويذكر مع صلح (إخنا) صلح آخر عقد مع (قزمان) ـ ولعله قزماس ـ حاكم رشيد وصلح مع (حنا) حاكم البرلس[3]. ويلوح لنا أن الغرب ساروا من بعد

= الكلمات إنما قيلت فيما بعد عندما ضيق الحصار على إخنا وكان لا بد لها من التسليم، وفي هذه الحالة يكون قول عمرو له مبرر إذ يكون عمرو غير مقيد بصلح الإسكندرية بعد أن أبته تلك المدينة وقاتلت العرب حتى فتحوها عنوة.

(١) أنظر ما سبق في هامش ١ صفحة ٣١٥، ويسمي البلاذري هذا الموضع بلهيت، وهذا خطأ نقله أبو المحاسن والسيوطي ولكن ياقوت يذكر الاسم الصحيح.

(٢) قد سبق لنا ذكر الأسباب التي دعتنا إلى مخالفة ما جاء في قصة بلهيب التي جاءت في صفحة ١٠ من كتاب الأستاذ (لين بول) «مصر في القرون الوسطى» بأنه من المستحيل من الجهة التاريخية والجهة الجغرافية أن يكون عمرو قد قضى مدة الهدنة هناك.

(٣) كانت رشيد بالطبع مشرفة على مدخل فرع النيل الغربي وبلهيب مشرفة على المجرى الذي بين فرع رشيد والإسكندرية وكانت البرلس مدينة على مصب الفرع السبنيتي للنيل ولا تزال المدينة وإقليمها محتفظين بهذا الاسم إلى اليوم مع أن فرع النيل السبنيتي قد طم منذ زمن طويل وتكون منذ ذلك بحيرة لا يحجزها عن البحر إلا قطعة ضئيلة من الرمل وقد ذكر المقريزي أسماء البلاد أخنا والبرليس ورشيد مجتمعة.

البراس على شاطىء البحر حتى بلغوا دمياط[1] ولم يقف لهم حاكم المدينة (حنا)، وأصبح العرب بفتح دمياط مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر جميعاً. ثم فتحت (خيس) في الإقليم المعروف بالخوف بقرب دمياط[2]، وأكبر الظن أن سلطان العرب صار يمتد عند ذلك على كل بلاد مصر السفلى، اللهم إلا بلاداً قليلة كانت في الجزائر التي في رقاق بحيرة المنزلة الفسيحة.

وكانت الأرض التي تغطيها مياه تلك البحيرة إلى ما قبل الفتح العربي بقرن[3] واحد لا تضارعها في بلاد مصر كلها أرض أخرى في جودة هوائها وخصبها وغناها، إلا إذا قلت بلاد الفيوم فقد تكون عدلاً لها. وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتي من النيل فكانت تنبت نباتاً يانعاً من القمح

---

(١) جاء في البلاذري ذكر فتح دمياط فقال إن البعث الذي أرسل إلى تنيس ودمياط وتونة ودميره وشطا ودقهلة وبنا وبوصير كان أميره عمير بن وهب الجمحي وإنه أقرب من الإحتمال أن يكون عمر وقد وكل قيادة هذا البعث إلى أمير نائب عنه ولا يذكر البلاذري وقوع أي قتال بل يقول إن عميراً صالح أهل تلك البلاد على شروط الصلح العام الذي صالح عليه عمرو.

(٢) يختلف مؤرخو العرب كثيراً في أسماء البلاد التي قاومت العرب فيذكر البلاذري بلهيت (وهي بلهيب) والخيس وسلطيس في موضع ويذكر في موضع آخر كما رأينا أسماء البلاد سخا وبلهيت والخيس وسلطيس ويقول إنها ساعدت الروم في وقعة سنطيس ويضم ياقوت إلى هذه البلاد مدينة (فرطسا) ويقول إن عمرا بعد أخذ الإسكندرية أسر أهل تلك البلاد وبعث بهم إلى المدينة ويعين ياقوت موضع الخيس ويذكر المقريزي عقود صلح مكتوبة مع إخنا ورشيد والبرلس وسلطيس ومسيل وبلهيب وكذلك يقول السيوطي وأما الخيس فيجب أن تكون المدينة التي* يصفها ياقوت في الجزء الثاني صفحة ٥٠٧ بأنها في الحوف الغربي وأن الذي فتحها خارجة بن حذافة وقد وصف الحوف الغربي بأنه دمياط في حين أن الحوف الشرقي كان مما يلي الشام ولكن الخيس في الوصف الذي نقله كاترمير(Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨٧ وما بعدها يظهر أنه في شرق الفرما ولعله موضع آخر.

(٣) في سنة ٢٥١ من التاريخ القبطي وإذا أردت معرفة شيء عن أخبار هذه البلاد التي غمرتها البحيرة فارجع إلى كاترمير(Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨٧ وما بعدها وقد ترجم كاترمير كثيراً من قول المقريزي والمسعودي.

والنخيل والأعناب وسائر الشجر. غير أن البحر طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغياناً عاماً بعد عام حتى عمت السهل الوطيء كله، ولم يبق فوق وجهها إلا عدد من الجزائر بعد أن أكلت المياه ما كان هناك من حقول وقرى، فلم ينج منها إلا ما كان عالياً لا تناله المياه. وأعظم ما نجا من قرى تلك الأرض مدينة (تنيس) الشهيرة، وكانت مدينة لها شيء من الاتساع والكبر، وكانت ذات بناء جميل تجود بها صناعة المنسوجات الدقيقة. وكانت في البحيرة التي تخلفت مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها في النسيج مثل (طونة) و (دميرة) و (دبيق)، ولكن لم تبلغ إحداها مبلغ (تنيس) إذ كانت تضارع دمياط وشطا في دقة منسوجاتها وجودة أنواعها فما كان في البلاد كلها غير (تنيس) و (دمياط) ما يستطيع أن يخرج ثوباً من الكتان النقي يبلغ ثمنه مائة دينار (أي خمسين جنيهاً). وقد ذكر المسعودي في تاريخه أن ثوباً صنع هناك للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألف دينار، وكان مصنوعاً من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من دقيق الكتان. وقد ورد في الأخبار كذلك أن تجارة (تِنيس) مع العراق وحده بلغت من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألفاً في السنة الواحدة، ولكن ذلك كان قبل أن تقضي عليها الضرائب الفادحة.

كانت تنيس على جزيرة[1] فسيحة وكانت تصل إليها من الجنوب ترعة اسمها بحر الروم، ولعلها كانت بقية فرع النيل التنيسي الذي كان يبلغ (الصالحية). وكان الاتصال كذلك سهلاً في الماء بينها وبين الفرما، أو على

(١) يزعم كاترمير أن اسم هذه المدينة مشتق من اللفظ اليوناني (نيسوس) وقد أضيفت في أوله علامة التأنيث القبطية فإذا صح ذلك كان لا بد أن تلك البلاد غمرت من زمن بعيد قبل القرن السادس وفي الحق أن (كاسيان) ـ وكان في مصر فيما بين سنة ٣٩٠ وسنة ٣٩٧ للميلاد ـ يقول على وجه البت إن (Thinnesus) يحيط بها من جميع جهاتها بحر أو منافع ملحة حتى أن أهلها كانوا يعتمدون كل الإعتماد على البحر في الإنتقال من مكان إلى مكان وكانوا يأتون بالطين في السفن إذا أرادوا أن يوسعوا أرضاً ليبنوا عليها بناء .

الأقل بينها وبين (الطينة) وهي ثغر الفرما على ساحل البحر. وقيل إن (تنيس) كان لا يزال بها إلى القرن العاشر آثار قديمة سوى ما كان بها من المساجد وعدتها مائة وستون، تزين كلاً منها مئذنة عالية، ثم ما كان بها من الكنائس وعدتها إثنتان وسبعون كنيسة. وكان بها من الحمامات ستة وثلاثون، وكانت لها أسوار حصينة فيها تسعة عشر باباً مصفحة بالحديد الثقيل[1]. وقيل إن الموتى في الجزائر الأخرى كانت تحمل في الماء إلى جزيرة (تنيس) لتدفن بها والظاهر أن هذه الموتى كانت تحنط هناك. وقد زارها بعد ذلك بقرن الرحالة الفارسي (ناصري خسرو)[2] في عام ١٠٤٧ للميلاد فعجب مما رآه من ثرائها ورواج أسواقها فهو يذكر أنه كانت بها عشرة آلاف متجر وخمسون ألفاً من الناس. وكانت في مراسي جزيرتها ألف سفينة ولم يكن بها شيء من الزرع بل كانت تعتمد في كل أقواتها على تجارتها. وكان النيل إذا علا وفاض طرد ما حول الجزيرة من مياه البحر الملح، وملأ بالماء العذب ما كان فيها من الصهاريج ومخازن الماء الدفينة في الأرض. وكانت تلك كافية لشرب الناس طول الحول. وقد بلغت منسوجات القبط البديعة ذات الألوان شأناً عظيماً لم تبلغه في وقت من الأوقات. فكان للسلطان مناسج خاصة به تنسج فيها الأثواب له وحده. وكان الثوب لعمامته تبلغ نفقته أربعة آلاف دينار، ولكن الأثواب التي كانت تصنع للسلطان لم تكن مما يعرض في الأسواق. وقد طلب إمبراطور الروم أن يأخذ (تنيس) ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته ولكنه لم يجب إلى ذلك. وكان مما يصنع في تلك المدينة سوى هذه الأثواب الملكية نوع من الأثواب اسمه (بوقلمون)، وكان من الحرير المتغير اللون، وكانت لمعته زاهية حتى قيل إنه كان يبدو في ألوان متغيرة في كل ساعة من ساعات النهار. وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التي كادت تبلغ في تنيس مبلغ

(١) كاترمير الجزء الأول صفحة ٣٢٩ ولكنه يقول إن مساحة المدينة كانت ميلاً مربعاً فقط وهذا خطأ ظاهر وقد دمرت (تنيس) في سنة ٦٢٤ للهجرة فلم يبق منها إلا الأطلال ولا تزال الجزيرة تعرف بهذا الاسم عينه ولا تزال عليها آثار قديمة .

(٢) أنظر (السفرنامة) طبعة (C, Schefer) صفحة ١١٠ وما بعدها .

منسوجاتها، فكانت على ذلك مدينة من أعجب المدائن وأعظمها شأناً.

ويروى في القصص أن حاكم (تنيس) كان في وقت الفتح العربي رجلاً من العرب النصارى اسمه (أبو طور)، وأنه خرج لقتال المسلمين على رأس عشرين ألفاً من القبط والروم والعرب، فلقيهم في سيرهم إلى (تنيس) بعد أن فتحوا دمياط[1]، فناجزهم في مواطن كثيرة قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيراً. ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وغنموا أموالها وقسموها ثم ساروا إلى (الفرما). ومهما يكن من أمر تلك القصة ومبلغها من الصدق أو الخطأ فإنها تحوي أمرين لهما قسط وافر من الثبوت وهما أن (تنيس) دخلت في سلطان المسلمين في ذلك الوقت، وأن صناعتها لم يلحق بها أذى من الفتح نفسه. ولم يجد المسلمون ما يحبب إليهم المقام في هذه المدينة ولا في أشباهها من الجزائر التي كانت في وسط هذه البحيرة تساورها المياه الزرقاء مثل (تونه) و(بورا) و(دبيق). وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن هذه الجهات ظلت على دينها النصراني زمناً طويلاً بعد ذلك لا يكاد يمسها دين الإسلام[2]، ثم قضى عليها وزالت أخبارها من التاريخ وكان ذلك في وقت نستطيع أن نعينه.

---

(١) كاترمير الجزء الأول صفحة ٣٠٧ نقلاً عن المسعودي ولا بد أن يكون جيش العرب قد جاء في الماء ومن السخف إن يقال إن حاكم تنيس استطاع أن يجمع ٢٠,٠٠٠ رجل أو ينقلهم في البحيرة ولكن الأرقام في الكتب العربية يجب ألا تؤخذ ويسلم بها بنصها ويجب علينا بغير شك أن نقرأ هذا العدد ٢٠٠٠ فحسب وقد يكون (أبو طور) من اختراع الخيال ولم يذكر اسم سواء من قوّاد العرب النصارى في مصر ولكن هذه القصة جاءت في كتاب تاريخ لكاتب عربي قديم ومع أن ذلك الكتاب إذا كتب بعد هذه الحادثة المذكورة بثلثمائة عام فإن المسعوي نفسه على ما يظهر ينقلها من كتاب تاريخ لمدينة دمياط ولكنه لا يوجد اليوم .

(٢) ذكر في سنة ٨٢٤ للميلاد أن (ديونيسيوس) بطريق أنطاكية ساقته الرياح وهو في السفينة إلى ميناء (تانيس) وقيل إنه قد خرج إليه منها ٣٠,٠٠٠ من المسيحيين للترحيب به فرحين وقد رحب به بطريق الإسكندرية وجماعة من الأساقفة وقالوا إنه لم يأت إلى مصر بطريق من بطارقة أنطاكية منذ أيام ساويرس ولكن ديونيسيوس كان أحفظ منهم للتاريخ فذكرهم بزيارة أثناسيوس .وكانت في أوائل القرن السابع وقال لهم إنه قد تم عند ذلك =

كانت جزيرة (تِنيس) مكشوفة للغزو من البحر على أنها كانت محصنة فيها رباط قوي، وأمر صلاح الدين بإخلائها في سنة ١١٩٢، ثم جاء الملك الكامل في سنة ١٢٢٧ فهدم حصونها وأسوارها حتى تركها أطلالاً[١].

وتتصل بفتح هذه الجهات قصة أخرى يجدر بنا أن نشير إليها فإن المقريزي عند ذكره مدينة شطا يصفها بأنها مدينة بين (تنيس) و(دمياط). ويقول إن اسمها مأخوذ عن رجل اسمه شطا بن الهموك عم المقوقس[٢]، وهذا الاشتقاق لا حقيقة له. وتذكر القصة بعد ذلك أن العرب عندما حاصروا دمياط وفتحوها خرج إليهم حاكمها (شطا) ومعه ألفان من الناس، فأظهر إسلامه، وقد كان من قبل عاكفاً على درسه والنظر فيه زمناً طويلاً. ثم إن ذلك الرجل لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح (تنيس) جمع جيشاً من البرلس ودميره وأشمون طناح وجهزه ولحق بإمداد المسلمين الذي بعث بهم عمرو، ثم سار حتى التقى بالعدو وأظهر من الشجاعة وحسن البلاء ما يظهره الأبطال، وقتل بيده إثني عشر رجلاً من فرسان

= الإتحاد الرسمي بين الكنيستين (أنظر ابن العبري الجزء الأول فصل ٣٦٠) والمقصود بميناء تانيس لا بد أن يكون الميناء الذي عند مصب الفرع التانيتي للنيل وهو بالطبع أقرب إلى تنيس منه إلى مدينة تانيس وهي أبعد منها في داخل الجزيرة والاسم العربي الآن صان أو صان الحجر وأثر موضع الميناء لا يزال موجوداً على الشاطىء بين الفرما وبور سعيد.

(١) نجد وصفاً حسناً للآثار في كتاب Ghillebert de Lannoy وهو « oeuvres receuillies et Publiées » لواضعه (Ch. Potvin) في (Louvain) سنة ١٨٧٨ (صفحة ١٣٨ ـ ٩). وقد نقل عنه (Schefer) في الفصل الأول.

(٢) يسميه الواقدي (الهامرك) ولعله أصح وأنه لا محل لتصديق هذا الخبر عن علاقته بالمقوقس وقد كذب ما قيل من الأقاصيص عن زوجته وابنته إذ كانت لا أساس لها وعلى ذلك يجب أن نكذب أيضاً ما ذكر عن ابن عمه بلا تردّد كما فعلنا بزوجته وابنته فإن قيرس ما كان له أن يكون ذا أهل في مصر إلا إذا كانوا قد جاءوا معه من بلاده. وفي الواقع إن موضع شطا في شرقي دمياط ولكنها بعيدة من تنيس وأما (Tamiatis) القديمة وهي المقصودة هنا فقد كانت أبعد إلى الشمال.

أهل (تنيس) وشجعانهم، وما زال يقاتل حتى قتل في ذلك اليوم، ودفن في ظاهر المدينة. ويقول المقريزي إن قبره لا يزال معروفاً يزوره الناس من كل أنحاء البلاد المجاورة ليتبركوا به في يوم مقتله، وهو يوم النصف من شهر شعبان[١].

وليس من العسير أن ننقض هذه القصة كلها ونفندها. فإن مدينة شطا كانت تعرف بذلك الاسم قبل أن يغزو العرب مصر بزمن طويل، وقد عرفت منذ أزمان بدقة منسوجاتها وجودتها، وفوق ذلك يعرف اسم حاكم دمياط في ذلك الوقت، وقد ذكره حنا النقيوسي في ديوانه فهو حنا[٢] وليس (شطا) كما زعم المقريزي، وإن الصلة المزعومة بين (شطا) والمقوقس صلة ظاهرة البطلان. ولكنا إذا قلنا إن ذلك الرجل (شطا) لم يكن له وجود، فإن في القصة أمراً يجعلنا نرفعها فوق مرتبة الوضع والكذب وهو تاريخ الموقعة، فإن المؤرخ العربي يذكر يوم وفاة ذلك البطل ويقول إنه يوم الجمعة نصف شعبان من سنة إحدى وعشرين للهجرة، وهذا اليوم هو التاسع عشر من شهر يوليه من سنة ٦٤٢ للميلاد، وهو تاريخ لا نستطيع الشك فيه. فإن ذلك العام المذكور - أي عام ٦٤٢ هو العام الذي يتفق ومجرى الحوادث التي وقعت في تاريخ فتح هذه البلاد حقيقة، وإن اليوم المذكور وهو التاسع عشر من يوليه كان حقيقة يوم جمعة، وهذا اتفاق من وجهين يندر وقوعه، فإذا وقع كان التاريخ المذكور حقيقياً لا شك فيه. وزيادة على ما ذكرنا فإن زيارة الناس لذلك القبر إلى أيام المقريزي لدليل يعزز صدق القصة. فلا يسعنا مع هذا إلا أن نصدّق أنه قد وقع قتال في اليوم المذكور في الجزيرة على مقربة من مدينة (تنيس)، وأن رجلاً من الروم جاء من مدينة شطا وقاتل في ذلك اليوم فأبلى مع المسلمين بلاء حسناً حتى قتل.

---

(١) كاترمير الجزء صفحة ٣٣٩ وليس من الواضح هل يقصد المقريزي أن يقول إن ذلك البطل دفن في (تنيس) أو في (شطا) والظاهر أن الموضع الذي قتل فيه هو الذي دفن فيه وهذا أقرب لأن الوقت إذ ذاك كان في الصيف . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن هذه القصة جاءت أيضاً في كتاب الواقدي وصورتها هناك قريبة من تلك الصورة (.أنظر الكتاب صفحة ١٣٠ وما بعدها) وانظر ١٤٧ - ١٤٨ وهوامشها وصيفحة ١٧٩ وصفحة ١٩٠

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦١ و ٥٨٤ .

وهذا التاريخ له قيمة كبرى ودلالة عظمى، فإنه يدلنا على أن مقاومة المصريين للعرب استطال أمرها في بلاد مصر السفلى وظلت إلى ما بعد فتح الإسكندرية. وإذا ذكر أن أهل (تنيس) وما يليها من البلاد الواقعة في إقليم تلك البحيرة كانوا من القبط الخلص، تنبض قلوبهم بما تنبض به قلوب القبط، عرفنا أن وقوع تلك الوقعة في ذلك الوقت دليل جديد على فساد رأيين طالما خدعا الناس وتقادم عليهما الدهر وهما يكفران الحقيقة، وهذان الرأيان هما أن مصر سلمت للعرب بغير قتال، وأن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص مما كانوا فيه.

لقد كانت خيانة قيرس للإسكندرية سبباً في القضاء على آخر آمال المسيحيين بالفوز في مصر، ولكن من العجيب مع ذلك أن تدافع هذه البلاد المتفرقة في مصر السفلى جيوش الغزاة وتقاومهم نحو عام آخر. ففي هذه آية على أن أهلها كانوا قوماً من أولي النخوة والحفاظ بقوا على عهد دينهم وثبتوا عليه، ولكن التاريخ لم يجزهم بذلك ما يستحقونه من حسن الأحدوثة، بل لبث ينكرها عليهم زمناً طويلاً.

الفصل الثالث والعشرون

انقضاء حكم الروم بمصر

خروج الروم من مصر العليا ـ اللاجئون إلى الإسكندرية ـ ما فعله قيرس ـ ذهاب هيبته وخوفه على نفسه ـ ما حل به من الهم وموته ـ قصة الخاتم المسموم ـ بقاء الموظفين من الروم في أعمالهم ـ اختيار خلف لقيرس لولاية الدين ـ تجهم العاصمة ـ خروج جيش الروم من الإسكندرية وعلى رأسه القائد تيودور.

كانت بلاد الصعيد قد تم فتحها ولا سيما إلى حدود إقليم (طيبة) قبل أن تخبو نيران الحرب في بلاد مصر السفلى بزمن طويل، وكان فتح الصعيد على يد سرية أميرها خارجة بن جذافة، وأخرج الروم من بلاد وادي النيل (الصعيد) في عام ٦٤١ حتى لم يبق منهم فيه إلا قليل، وكان من بقي منهم ضئيل العدد خائر الهمة لا يرزأون المسلمين شيئاً ولا ينازعونهم السلطان. فلا تذكر الأخبار شيئاً من القتال في هذا الإقليم بعد ذلك. ولنا أن نقول إن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية.

ولكن التاريخ يذكر شيئاً من أخبار الإسكندرية في المدة الباقية من الهدنة، وإنا موردوه هنا. قد رأينا أن المدينة قد ازدحمت بمن لجأ إليها من جميع أنحاء مصر، وقد جلوا عنها عند مقدم العرب إليهم، فلما عقد الصلح كان من شروطه أن جنود الروم ومن حل بالإسكندرية من الرومان لهم الخيار إذا شاءوا جلوا عنها بحراً وبراً. وأما القبط فلم يذكروا فيه بشيء. فلما رأى اللاجئون بالإسكندرية أن السفن تحمل كل يوم طوائف من الناس إلى قبرص

ورودس وبيزنطة قلقوا وحنوا للرجوع إلى قراهم، فذهبوا إلى قيرس وطلبوا إليه أن يكلم لهم عمراً في ذلك، وكانوا يعرفون صلته الوثيقة بقائد العرب. ولكن الظاهر أن عمراً لم يبح لهم الجلاء، ولا عجب في أن يخيب سعي البطريق في هذا الأمر إذا عرفنا أن طلبه هذا كان قبل شهر مارس، إذ كانت الحرب لا تزال ثائرة في بعض قرى مصر السفلى. وكان أكثر اللائذين من مصر السفلى، فلو أبيح لهم الرجوع إلى قراهم لما أمن أن يقاتلوا جنود المسلمين بأنفسهم، أو أن يمدّوا المدائن التي كانت لا تزال مصرة على القتال ولم يفتحها المسلمون بعد.

غير أن قيرس آلمه ألا يجيبه عمرو إلى طلبه وكان ألمه من ذلك شديداً. فقد كان يطمع أن يستميل إليه القبط، ولعله كان يرمي من وراء ذلك إلى أن ينسيهم شيئاً من حقدهم عليه، فكان هذا الرفض الذي رفضه عمرو لطلبه ضربة شديدة أصابت سياسته في هذا الشأن.

والظاهر أنه يئس قبل ذلك أن يحتفظ بنفوذه عليهم، ذلك الذي أراد أن يقيمه بالاتفاق مع المسلمين ومعاونتهم. فامتلأ قلب المقوقس عند ذلك بالخوف وتوقع المصائب، وكان ذلك يزداد به كلما دنا أجل سلطان الروم في مصر. وكانت الأخبار التي ترد من القسطنطينية لا تبشره بخير، فقد آل أمر مرتينه وابنها إلى زوال، إذ نُحِّيا عن الحكم أو قتلا، وبويع لقنسطانز وحده بالملك في آخر نوفمبر من سنة ٦٤١. ونفى (بيروس) وكان صديقاً لقيرس، ويظهر أن قيرس هو الذي استماله إلى جانب مرتينه وحزبها. وأعيد (فلاجريوس) من منفاه وكان عدواً شديد العداوة (لقيرس). وحاول (فلنتين) أن يثور ثورة[1] جديدة، ولكنه أخفق إذ لم يواته الناس وأظهروا له الكراهة، ثم قبض عليه وجيء به إلى الامبراطور (قنسطانز) ليحاكم على أنه خرج على الدولة وسعى إلى غصب

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٨٢ ويقول زوتنبرج إن تلك الثورة الثانية كانت في سنة ٦٤٤ ولكن هذا التاريخ مستبعد الصحة فقد قال سبيوس إن الثورة حدثت في السنة الثانية من حكم قسطنطين (قنسطانز) وذلك معناه أنها حدثت في سنة ٦٤٢ ـ ٣ إلا إذا اعتبر أول السنة الثانية أول يناير سنة ٦٤٢ وهو ممكن وعلى كل حال فإن حنا النقيوسى واضح إذ يقول إن =

التاج. غير أنه أقسم أغلظ الإيمان على أنه لم يقصد إلى ذلك، وأنه إنما كان يجهز جيشاً يحارب به المسلمين. فقبل الملك اعتذاره وأعاده إلى ما كان عليه وتزوج من ابنته. فأراد (فلنتين) أن يظهر صدق نيته في الإخلاص للملك، فجعل يوقع إيقاعاً بكل من يظنه موالياً (لمرتينه) و (بيروس) وكان من هؤلاء (أركاديوس) كبير أساقفة قبرص، فإن فلنتين اتهمه بالخيانة وأنفذ جماعة من الجند للقبض عليه. فحال الموت دون ذلك، إذ مات (أركاديوس) فنجا من أيديهم.

ولكن ذلك الحادث كشف لقيرس عن الخطر المحدق به، فقد كان (أركاديوس) رجلاً لا تشوبه شائبة، قضى حياة في عيش القديسين ومع ذلك كان على وشك أن يؤتى به إلى القسطنطينية ليحاكم كما يحاكم أهل الريب، فما بالنا بقيرس وماذا عساه يفعل إذا هو أوخذ واتهم بمثل تلك التهمة، تهمة الخيانة؟ وقد اشتهر عنه اتصاله بمرتينه و (بيروس)، وكان الناس يعرفون ما اقترف من السعي في ضياع مصر. وكانت حاشية الملك وحزبها قد أدركوا عند ذلك أن ضياع مصر لم يكن من الهنات الهينات، فأخذ منهم الغيظ مأخذه، وحقدوا على من جر على الدولة ذلك الشر الوبيل، وما لطخ به شرفها من العار والخزي.

لا عجب إذا كان (قيرس) قد استولى عليه الهم وغرق في الحزن، إذ جاءت إليه الأخبار تترى من القسطنطينية بما كان من تلك الأمور، واجتمعت عليه المخاوف، فخشي على نفسه أن يأمر الإمبراطور بنفيه أو بقتله، وكان أمره إلى ذلك الحين نافذاً في الإسكندرية. ثم رأى نفسه وقد عجز عن محو أثر اضطهاده من نفوس القبط واستمالتهم إليه، ورأى أن الناس قد أنكروا سياسته للدين إنكاراً لا أمل معه في عودة الرضى عنه، ورأى سياسته في أمور الدنيا وقد أصابها العار من وراء انتصاره فيها. فأثقل كل ذلك نفسه وأسقم جسمه وألقى كل أطماعه وآماله وكأنها أحلام تبدّدت وأصبح لا يأمن حتى على حياته نفسها.

= «نصر فلنتين ورجوع سلطانه» بعد هذه الثورة كانا من أسباب حزن قيرس وهمه، ولما كانت وفاة قيرس في سنة ٦٤٢ كانت ثورة فلنتين لا بد حوالي شهر يناير من ذلك العام.

وكان كلما رأى الحلقات تتضايق حوله وتساور الهموم حياته، صحا إلى ما كان من أمره، وذكر ما قارف من الذنوب وما أصابه من الفشل والخذلان، فكان قلبه يؤنبه ونـدم على تفريطه في أمر مصر، وبكى على تضييعه لها بالدمع السخين[1]. وظلت الأكدار تغمره والهموم تحيط به حتى أصابه داء (الدوسنطاريا) في يوم (أحد السعف) ومات منه في يوم الخميس الذي بعده في الحادي والعشرين من مارس من سنة ٦٤٢.

ومن الواضح أن وفاته كانت وفاة طبيعية، وأن الموت قد عجل إليه لما أصابه من شقاء الهوان ومذلة العار. وقد ذكر حنا النقيوسي وفاته في موضعين: فقال في الأول إنه «أثقلته الهموم فمرض بالدوسنطاريا ومات منها». وقال في الثاني إنه «بكى بدمع لا ينقطع خوفاً من أن يصيبه ما أصابه من قبل وذلك هو النفي، وفيما كان غريقاً في حزنه مات كما جرت به سنة العالم»[2]، ولكنه في موضع منهما يوصف بأنه حزن لما أصاب مصر وما وقع بأهلها من ظلم العرب. وفي الموضع الآخر يوصف بأن أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته في أمر المصريين. وليس من سبب يحملنا على أن نشك في شيء مما جاء في هذا الوصف لآخرته على أنه قد تخلفت رواية قبطية يرجع عهدها إلى أيام ساويرس[3] وهي تصف موته وصفاً آخر. فتقول: «إن عمراً لما أخذ الإسكندرية واستقر الأمر على يديه في المدينة خاف الحاكم أن يقتله عمرو، وكان ذلك الحاكم رجلاً سيء الظن يلي أمر الدنيا والدين معاً في المدينة، فلما بلغ منه الخوف جعل في فمه خاتماً مسموماً فمات من ساعته». على أننا نعرف

(١) جاء في صلب الكتاب قول النقيوسي صفحة ٥٨٢ ـ ٣ «وكان أعظم سبب لحزنه أن رفض المسلمون ما طلبه منهم لمصلحة المصريين» ولكن عنوان ذلك الفصل أقرب إلى الأذهان وهو «موت قيرس الخلقيدوني ندماً على تسليم الإسكندرية للمسلمين» وهذا بلا شك يدل على ضرورة تصحيح نص الكتاب.

(٢) صفحة ٥٧٨ و ٥٨٢

(٣) نسخة المتحف البريطاني صفحة ١٠٦ أنظر كذلك كتاب (Pereira) حياة «الأنبا صمويل» صفحة ٥٨ وقد اقتبس فيه من تقويم حياة القدّيسين..

أن المقوقس لم يخش عمراً خشيته من الإمبراطور، ولكن القصة أظهرت في سياق عجيب وتأليف بديع أنه كان يخاف خوفاً شديداً، وأن ذلك عجل بموته.
بقي شيء آخر مما له اتصال بقصة موت قيرس ويجدر بنا ذكره، فقد رأينا أن عمرو بن العاص كان يشتد في وقت الفتح[1] شدّة عظيمة في معاملة المصريين، ولهذا نجد المؤرخ القبطي يذكره كلما ذكره بالتقبيح والاستهجان على ما أثقل به قومه من الأحمال. ولهذا فإنه عند وصف الأيام الأخيرة من حياة البطريق نراه يقول إن «عمراً لم تكن في قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذي عقده معهم إذ كان رجلاً من الهمج»[2]. ونراه في موضع آخر[3] يصف ما وقع وصفاً مفصلاً فيحكي قصة رجل اسمه (ميناس) كان هرقل اختاره حاكماً لمصر السفلى فأقرّه العرب في مكانه، وكان رجلاً غراً جاهلاً يكره المصريين كرهاً شديداً. ويذكر رجلاً آخر اسمه (سنوده) أو (سنيوتيوس) أقرّه العرب على حكم الريف و (فيلوخينوس)[4] أقرّوه على حكم (أركاديا) وهي الفيوم. ويصف المؤرّخ القبطي هؤلاء الثلاثة بأنهم كانوا يكرهون المسيحيين ويوالون أعداءهم ويثقلون كاهلهم بالأحمال الباهظة. وكان القبط يكرهون على أن يحملوا للعرب مؤونة لدوابهم وطعاماً لأنفسهم كثيراً من اللبن والعسل والفاكهة والخضر وسوى ذلك من الأشياء فوق ما كانوا يؤدّونه من الطعام المعتاد وهو الضريبة التي كانوا يأخذونها من ثمار الأرض. وكان القبط يؤدّون كل ذلك تحت ظل خوف لا اطمئنان معه.

وهذا الوصف له شأن كبير من وجهين: الأول أن هؤلاء الحكام الثلاثة

---

(١) ما سبق في صفحة ٢٥٤

(٢) صفحة ٥٧٨

(٣) صفحة ٥٧٧

(٤) نجد بين مجموعة البردى التي عند الأرشيدوق (Rainer) كتاباً من ذلك الرجل (فيلوخينوس) حاكم أركاديا يذكر الضريبة التي كان يجب دفعها إلى خارجة في بابليون (قره باسك Fuhrer durch die Ausstellung صفحة ١٣٨ رقم ٥٥٣) وهذا دليل آخر على دقة أخبار حنا النقيوسي.

الذين سماهم المؤرخ كانوا أكبر حكام مصر بعد حاكم الإسكندرية، وكانوا من الروم الملكانيين أتباع قيرس، ولم يكن بهم عطف على القبط لا في دينهم ولا في دنياهم، وهذا يدل على أن الذين دخلوا في الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم، وإنا نكاد يداخلنا الشك في أمر المقوقس وأنه قد فعل ما فعل إذ كان يؤمن سراً بدين الإسلام. وأما الوجه الثاني فإنه قد ثبت أن عمرو بن العاص كان يعامل المصريين قبل فتح الإسكندرية وبعدها أشدّ المعاملة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يردّد قوم تلك الكلمة القديمة الشوهاء وهي أن القبط رحبوا بالعرب وفتحوا لهم ذراعيهم، فإن قول حنا النقيوسي في هذا الصدد يكفي وحده لهدم هذا الرأي وإظهار فساده. أما متأخرو المؤرّخين من العرب وهم الذين يأخذون بهذا الرأي فبين أمرين: إما أن يكونوا على خطأ فيما ذهبوا إليه، وإما أن يكون في وصفهم لعمرو تهمة شنيعة إذ يجعلونه مرتكباً لأعظم الجحود ومجازاة الإحسان بأشنع الإساءة. وكلما أنعم الإنسان النظر في تاريخ هذا العصر وجد أن قيرس لم يكن وحده الخائن الذي أوقع بالدولة الرومانية، وحسبنا دليلاً على ذلك ما كان من هؤلاء الحكام الثلاثة الذين سارعوا إلى افتداء دنياهم وسلطانهم بأن نزلوا عن دينهم، وجعلوا ولاءهم للإسلام ودولته، وانقلبوا على القبط بما صار في يدهم من السلطان الجديد يؤذونهم في دينهم ودنياهم. فالحق الذي لا مراء فيه أن الروم كان فيهم الكثيرون ممن يكيدون لدولتهم، وأن الكائدين كانوا من ناحية يوقعون بالقبط ومن ناحية أخرى يوالون العرب ويعينونهم.

لم يبق بعد ما ذكرنا إلا قليل من القول في وصف الشهور الستة التي مرت على الإسكندرية بين موت قيرس وبين دخول جنود العرب فيها. فإننا لا نعرف شيئاً أكيداً من حوادث هذه المدّة إلا اختيار خلف للمقوقس بطريقاً للمذهب الملكاني، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن مضى نيف وثلاثة أشهر على موت المقوقس. ففي الرابع عشر من شهر يوليه[1] في عيد القديس (تيودور) ألبس

(١) يصحح المستر بروكس تاريخ زوتنبرج وهو على حق في ذلك فيجعله يوم ٢٦ يوليه.

الشماس بطرس لباس البطرقة وجلس على العرش الذي خلا من آخر بطارقة الإسكندرية تحت حكم الروم . ولعل ذلك الإبطاء كان لإستشارة القسطنطينية ، أو لعله كان لتردّد أهل الدين في قبول تلك الولاية بعد أن انشقت الولاية الدينية في مصر عن السلطنة الدينية في الإمبراطورية ، وأصبح أمرها مخوفاً مضطرباً ، منذ يئس الناس من رجوع الأمر إلى الدولة البيزنطية . أما فلنتين وجيشه الذي كان يملأ فمه بذكره ، فلم يغن عن مصر شيئاً ولم يستطع أن يخطو خطوة في سبيلها ، مع أن أهل مصر كانوا قد أخذوا يعرفون بطلان أحلامهم التي كانوا يمنون بها أنفسهم من الاطمئنان إلى حكومة العرب واستقرار الأمور معها ، وثبوت ما يطلب منهم فيها من ضرائب لا تزداد عليهم : إذ جاء أن أهل البلاد جميعاً كانوا يئنون من شقائهم في حكم العرب ، وكان أجل المصاب ما أصاب مدينة الإسكندرية من ذلك ، فقد فسد حال التجارة التي كانت تدر الخير على أهلها ، وخرج منها جماعة من أغنياء أعيانها وتجارها عوّلوا على الهجرة والنزوح عنها ، فصار عبء الضرائب إلى كواهل من بقي في المدينة من الناس فأبهظها . وأخذ الناس يحسون ما في دخول العدوّ في بلادهم من ذل لهم وتضييع لملتهم ، ولم تجدهم في ذلك ألفاظ معسولة وأقوال ناعمة كان قيرس يزجيها إليهم .

فكان الهم والغم يظلان المدينة في الأسابيع الأخيرة من مدّة الهدنة ، وكان كثير من المنازل قد خلا من أهله ، وهدأت ضجة الارتحال من مراسي المدينة بعد أن تحملت سفن يتلو بعضها بعضاً بالنازحين من الروم ومتاعهم وأثاثهم ، وسارت بهم إلى الشمال إلى حيث لا عودة . ولم يبق إلا أسطول كبير يتجمع في مرفأ الإسكندرية ليحمل من بقي من جنود الروم . والظاهر أن الذي كان يقوم على ترحيل جنود الروم من بلاد مصر السفلى إثنان من القادة وهما (تيودور) الذي أصبح حاكم مصر بعد موت قيرس ، و(قسطنطين) الذي أصبح القائد الأعلى لجيش الروم بعد (تيودور)، وكانا يقومان به بالاتفاق مع العرب[1].

(١) انظر زوتنبرج (صفحة ٥٨٣ هامش ٢) وهو على حق فيما ذهب اليه من أن وجود تيودور =

وكان النيل عند ذلك قد أخذ يزداد ، وصارت الترع صالحة لسير السفن ونقل الأشياء ، ولهذا السبب وقع الاختيار على ذلك الوقت لخروج الروم . فما أن حل حتى ركبت بقية جيش الروم في السفائن مع (تيودور) و (قسطنطين) ، وهبطوا نحو الإسكندرية ، وعند ذلك أطلق سراح من كان في يد العرب من الرهائن الذين أودعوهم حصن بابليون ، أو لقد ذهب العرب بهم حتى لحقوا بأصحابهم في العاصمة[١].

دار الفلك دورته وعاد عيد الصليب ، وكان من عجائب المقدور أن اتفق في ذلك اليوم الرابع عشر من سبتمبر من العام المنصرم مجيء المقوقس رئيس الأساقفة الخائن في رجعته إلى مصر ، ثم عاد اليوم بعد عام ليشهد آخر مشهد من زوال ظل السلطان المسيحي عن مصر . فكانت صلاة إعلاء الصليب تتردّد أصداؤها في الكنيسة ، في حين كانت السفن تتجهز آخر جهازها في الميناء ويؤذن لها بالسير . فما طلع اليوم الثالث بعد هذا[٢] وهو اليوم السابع عشر من

= وقسطنطين في الداخل كان ناشئاً عن الهدنة ولم يذكر في ذلك الوقت شيء عن تجدد القتال وأما زوتنبرج فإنه لا يبدى أي رأي في سبب غيابهما عن الإسكندرية ولعل السبب الذي ذكرناه في متن كتابنا هذا فيه كفاية .

(١) من العجيب إطلاق سراح الرهائن قبل دخول الإسكندرية ولكن ذلك يدل على قوة المسلمين وضعف الروم في ذلك الوقت وأغلب الظن أن أكثر جنود الروم كانوا قد جَلوا عن البلاد قبل ذلك.

(٢) يبرهن المستر بروكس على أن عبارة «بعد عيد الصليب» التي وردت في ترجمة زوتنبرج لديوان حنا النقيوسي قد جاءت في غير موضعها وإني موافق على رأي المستر بروكس في مجمله ولكنا نرى أن السطرين التاليين قد وضعا موضعاً خطأ وأنهما يجب أن يقدما إلى أول الفقرة قبل قوله (ثم أن تيودور) والسطران هما من أول قوله «في العشرين من شهر (حمله)». . . الى قوله «مقر الرئاسة الدينية» واذا تم ذلك لم يكن ثم موجب لتغيير موضع قوله «بعد عيد الصليب» بل إن ذلك يسير مع القول التالي سيراً طبيعياً وهو قوله «في اليوم العشرين من شهر مسكرم».

سبتمبر حتى كان أسطول (تيودور) يحل قلاعه ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص[1] بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليهم الأسى . ولم تبق بعد ذلك إلا أيام قلائل لأهل المدينة ، وما كان أشقاهم ، ليصلحوا فيها من أمورهم . فإن الهدنة انقضى أمدها في اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر إذ مضت أشهرها الأحد عشر ، وفتحت في ذلك اليوم أبواب المدينة فدخلها عمرو يقود من معه من شعث جنود الصحراء ، فساروا بين صفوف مما كان في الإسكندرية العظمى من أعمدة براقة وقصور منيفة ، وانتهى بذلك حكم دولة الروم في مصر .

(١) جاء في السيوطى أنه قد كان في المدينة ٠٠٠ , ٢٠٠ من رجال الروم وكان منهم ٣٠٠٠٠ من الجنود هربوا في مائة سفينة كبيرة بكل ما كان معهم من المتاع الذي أمكنهم حمله وأما من بقي منهم فقد دفع الجزية وسياق القول يتفق بعض الاتفاق مع رأي من يقول إن هذا القول يقصد به فتح الإسكندرية في المرة الثانية ولكن أكثر الأدلة على غير ذلك وأنه ليظهر من ثنايا كلماته أن المقصود هو الجلاء عن المدينة صلحاً ولنذكر أن الصلح قد نص على أن الروم كان لهم أن يحملوا معهم متاعهم في حين أن الفتح في المرة الثانية لم يدع متسعاً من الوقت لمثل ذلك وعلى أي حال فليس من الغريب أن يكون ٣٠٠٠٠ من الجنود قد سافروا معاً في وقت واحد ولو أن عدد السفن المذكورة كاف لنقلهم ولا بد أنه عندما انتهى أمر الجلاء كان عدد الجنود قد قل قلة عظمى والظاهر أن السيوطي نقل خبر هذا الجلاء عن المقريزي وهو يروي عن أبي قابيل.
وقد جاء أن السفن المائة حملت الروم بأموالهم ومتاعهم وأضيف إلى ذلك أن ٦٠٠٠٠٠ من الناس بقوا في المدينة ودفعوا الجزية سوى النساء والأطفال ولا بد أن هذا فيه مبالغة.

الفصل الرابع والعشرون

وصف الاسكندرية عند الفتح

رسالة عمرو إلى الخليفة عمر ـ ما بهر الأبصار من سنا الإسكندرية ـ أعمدتها ـ صهاريجها ـ البروكيون ـ كنيسة القيصريون ـ صفتها وتاريخها ـ مسلات كليوبترة ـ الخلط بين المسلات والمنارة ـ جعالين البرونز والزجاج ـ إثبات شهادة العرب ـ وصف السرابيوم ـ رسمه الأول وبناؤه ـ مكان المكتبة ـ عمود دقلديانوس ـ أقاصيص العرب ـ الملعب (الأمفيتياتر) ـ المنارة ـ ما جاء عنها في أخبار القدماء والعرب ـ بناء البرج ـ المرآة العجيبة ـ قصة تخريبها ـ هدم المنارة ـ بناء مآذن القاهرة على رسمها .

أرسل عمرو إلى الخليفة كتاباً مشهوراً يصف فتح الإسكندرية ، والرواية المتداولة عنه هي « لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى ، واثني عشر ألف بائع للخضر ، وأربعين ألفاً من اليهود أهل الذمة ». ونرى أن هذه الأعداد فيها مبالغة ، ولعلها لم تكن كذلك في الكتاب الذي بعث به عمرو بل نقلها النساخ خطأ[2] . ومع ذلك فإنها

(١) إذا قرأنا ذلك ٤٠٠ قصر وحمام و ٢٠ ملهى و ١٢٠٠ بائع للخضر و ٤٠,٠٠٠ يهودي لم يكن في التقرير شيء غير ممكن. فقد ذكر زكريا المتليني (وهو دقيق الإحصاء) أن رومه كان بها ١٧٩٧ بيتاً للعظماء (أو قصراً) و ٩٢٦ حمام (صفحة ٣١٧ ـ ٨) وقد جاء نص كتاب عمرو في ابن عبد الحكم وفي ابن بطريق والمقريزي ومكين. وقد ذكر المقريزي مبالغة على عادته رواها عن أبي قابيل وهي أنه كان بين الحمامات ١٢٠٠٠ بناء بعقد وأن أصغرها كان فيه ١٠٠٠ غرفة للجلوس.

(٢) الإصطخري (Bibl. Geog. Arab. Ed. de Coeje) الجزء الأول صفحة ٥١ .

تدل دلالة واضحة على ما كان للمدينة من الأثر العظيم في نفوس الفـاتحين ، وقد أدهشتهم عظمها وفخامتها ، ولكن لقد برهم فوق ذلك منها تألقها وسناها ، فقال أحد من وصفهـا . « إن الإسكندرية مدينة يكثر المرمر في أرضها وبنائهـا وعمدها » . وقال آخر إن المدينة تبدو بيضاء لامعة في النهار والليل[1] . وقال في موضع آخـر إن أهلها جميعـاً كانـوا يلبسون الثيـاب السود والحمـر لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض وكان تألق الرخام سبباً في اتخاذ الرهبان السـواد في لباسهم . وكان من المؤلم أن يسير الإنسان في المدينة بالليل فإن ضوء القمر إذا وقع فيها على الرخام الأبيض جعلها تضيء حتى كان الحائك يستطيع أن يضع الخيط في الإبـرة بغير أن يستضيء بمصبـاح وما كـان يستطيـع أحد أن يـدخل المدينة إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه يقيهما بهر الطلاء والمرمر . وقـال مؤرخ عربي آخر[2] في القرن العاشر إن الناس كانوا يتخذون ستراً من الحرير الأخضر يغطون به الطرق يتقون بذلك وهج الضوء على الرخام[3] .

وقال المؤرّخ نفسه إن الطرق كلها كانت تكتنفها العمد وكان هذا ولا شك صحيحاً في الطريقين العظيمين الذين وصفناهما من قبل وهما يقطعان المدينة من أطرافها ، فكان أحدهما من أوّل المدينة في الشرق إلى آخرها في الغـرب

---

(١) السيوطي (حسن المحاضرة) وكان رهبان سرابيس يلبسون السواد ولكن من المشكوك فيه أن يكون هذا هو السبب (انظر كتاب الدكتور Botti صفحة ٣٧ هامش ٢) . (Fouilles a la Colonne Theodosienne)

(٢) المسعودي (صفحة ٤٢٩) .

(٣) يظهر الأثر العام الذي أحدثته الإسكندرية في نفوس المسلمين مما جاء في ابن دقمـاق (الجزء الخامس صفحة ١١٧) فقد جاء فيه أن عبد الملك بن جريج قال إنه غزا ستين مرة وإن الله إذا مدّ في أجله شهراً حتى يصل إلى شواطىء الإسكندرية كان هذا الشهـر أعز عليه من الغزوات الستين التي غزاها . وقال في صفحة ١١٨ إنه قد جـاء في التوراة أن الإنسان إذا طاف حول الإسكندرية في الصباح جعل الله له تاجاً مـرصعاً بـاللؤلؤ معطراً بالمسك والكافور يضيء من الشرق إلى الغرب .

يصل بين باب الشمس وباب القمر[1] ، وكان الثاني يجري في المدينة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وكانا يتلاقيان ويقطع أحدهما الآخر في ميدان فسيح به الحدائق وتحيط به القصور الجميلة . وكان لكثير من القصور في وسط المدينة حدائق غناء فقد قال السيوطي والظاهر أنه يرى ذلك عن ابن عبد الحكم[2] إن الاسكندرية كانت تشمل مدائن ثلاث : إحداها إلى جانب الأخرى وكان لكل منها سور قائم بها وحول الجميع سور يحيط بها . ولعله يشير بهذا إلى الأحياء الثلاثة : حي المصريين ، وحي الروم ، وحي اليهود؛ ولكنا نشك في دقة هذه الرواية وقد روى عبد الله بن ظريف أن المدينة كان بها سبع قلاع وسبعة خنادق ، وكانت قلعة الفرس بلا شك تعدّ إحدى عجائب الاسكندرية .

وما كانت دهشة العرب من رسم المدينة بأعظم من دهشتهم مما كان تحت أرضها من المباني ، فقد رأوا بها عدداً عظيماً من الصهاريج العجيبة تحت الأرض كان لبعضها طبقات يلي بعضها بعضاً أربعة أو خمسة وكان في كل طبقة منها عدد عظيم من الحجرات والأعمدة ، حتى لقد قال السيوطي إن الاسكندرية مدينة قائمة على مدينة ، وإنه ليس في البلاد مثلها على وجه الأرض . وكان بها عدد عظيم من الأعمدة لم ير مثلها في موضع آخر في علوّها وعظم حجمها .

---

(١) يخطى بعض المؤرخين في وصف موضع هذين البابين فيقول إنهما كانا في شمال المدينة وجنوبها ولئن كان ثمت شك في ذلك فإن قول حنا النقيوسى كفيل بإزالته فهو قول صريح (صفحة ٤١٠٥) إذ يقول إن (أنطونيوس بيوس) بنى (باب الشمس) في الشرق و (باب القمر) في الغرب والظاهر أن أميلنو كان من بين الذين أخطأوا إذ قال «وكان باب الشمس في جنوب المدينة بقرب الخليج الذي يأتي من النيل (Geog Copte) صفحة ٣٢ وقد كان باب الشمس هو باب عين شمس (انظر الكتاب السابق صفحة ٤٢) ولكن الطريق إلى مدينة عين شمس يسير من الباب الشرقي ولم يكن يخرج من الباب الجنوبي طريق واضح اللهم إلا طريق للسفن ومقالة أميلنو عن الإسكندرية قصيرة ولا تشفي غلة.

(٢) قال حنا مسكوس (إذ أنها كانت جنات في وسط المدينة في بيوت العظماء) * (٣٣) (مسارح الأرواح فصل ٢٠٧).

وكانت هذه الحجرات الدفينة تستخدم لخزن المياه توصل إليها في قنوات تجري من الترعة الحلوة التي كانت تشق المدينة في حي المصريين ، وكانت تملأ في أوان الفيضان فيشرب الناس منها مدة الحول[1] .

وكان أفخم أحياء أنحاء المدينة فيما مضى جهة اسمها (البروكيون)، وكان إلى شمالها ميناء الإسكندرية وإلى جنوبها الشارع الأعظم الآتي من باب الشمس إلى الحدائق الوسطى بالمدينة . ولا شك قد هدم أورليان جانباً عظيماً من ذلك الموضع ، ولكنا نظن أن أخبار ما حل به من التخريب فيها مبالغة[2] . وما كانت آثار ذلك التخريب لتبقى فيه بغير أن تصلح ويعاد بناؤه إلى سابق عهده . وعلى أي حال فقد كانت فيه قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التي كانت فيها جثة الاسكندر في غشاء من الذهب ، وكان فيه المتحف وتتصل به مكاتبه العجيبة التي كانت مقرّ العلوم في العالم أجمع . وكان في ذلك الحي إلى الشرق معبد مكشوف اسمه (التترابيلوس)، وهو إيوان به أربعة صفوف من الأعمدة تحيط به . وقيل إن الإسكندر دفن هناك النبي (أرميا) فكان ذلك الموضع مشهداً يحترمه الناس احتراماً بالغاً[3] . وإلى جانب ذلك المشهد كنيسة

(١) بقيت بعض هذه الصهاريج إلى الآن أنظر المقال الذي عنوانه «صهاريج الاسكندرية» للدكتور (يوتى) في مجلة جمعية الآثار بالاسكندرية رقم ٢ سنة ١٨٩٩ صفحة ١٥ وما بعدها وبها بعض رسوم هامة. وقد ذكر (قيصر) هذه الصهاريج (De Bell. Civ. IV) وذكر القناة الموصلة إليها.

(٢) أميانوس مرقلينوس XXII16 ويفهم منه أن المدينة فقدت أكبر جزء فيها وهو (البروكيون) عقب التخريب الذي أحدثته الثورات في وقت أورليان ولكن حنا النقيوسي يدل دلالة قاطعة على أن مساحة المدينة لم تقل تلك القلة المذكورة وأن الأسوار الشرقية كانت لا تزال على عهدها من القوة. وقال (أنطونيوس مارتير) وقد زار المدينة قبل الفتح بقرن (حوالي سنة ٥٦٥ للميلاد) «إن الإسكندرية مدينة عظيمة» وما كان ليذكر ذلك الوصف عنها إذا كان أجمل حي بها وأجلها قد تهدّم وتخرّب (Pal. Pil. Text Soc) (الجزء الثاني صفحة ٣٥).

(٣) حنا مكسوس في «مسارح الأرواح» الفصل ٧٧ وقد نقل أميلنو في (Geog Copte) صفحة ٢٩ عن نسخة خطية قبطية تذكر أن التترابيلوس كان في وسط المدينة ويستنتج من ذلك أنه =

القديسة (ماريا دروثيا) بناها (أولوجيوس)، وإلى شرقها فيما يلي الأسوار على مقربة من البحر الكنيسة الكبرى كنيسة القديس (مرقص)[1]، وكانت عند ذلك لا تزال ماثلة وفيها مدفن من المرمر به جثمان ذلك الرسول . وقد قال (أركولفوس)[2] « إذا أتيت من بلاد مصر ودخلت المدينة ألفيت عند جانبها الشمالي كنيسة كبرى فيها جثمان مرقص الإنجيلي وترى قبره أمام المحراب في الجانب الشرقي وقد أقيم فوقه شاهد من المرمر »، وكان في الحي نفسه كنيستا القديسين (تيودور) و(انستاسيوس)[3].

ولم تكن كنيسة القديس مرقص في القرن السابع أكبر كنائس المدينة وأعظمها شأناً ، بل كان أعظم منها كنيسة القيصريون ، وكانت في الحي نفسه عند ثنية المرفأ الأعظم وقد بلغت من عظم الشأن أن كادت تحل محل الكنيسة الكبرى ، فقد كان بناؤها جليلاً ولها مسلتان قديمتان في فنائها ، فكانت تشرف فوق أسوار المدينة أظهر الأشياء التي يراها الرائي أول واهلة في صدر ما يراه[4]

= كان في الميدان الأعظم ولكن هذه العبارة مبهمة لا يمكن أن يستند إليها مثل هذا الاستنتاج.

(١) يقول حنا النقيوسي (صفحة ٥٢٤) إنها كانت قريبة من البحر (وفي صفحة ٥٤٨) إنها كانت بقرب باب من أبواب المدينة والظاهر أنه قد كان بالإسكندرية كنيسة أخرى بهذا الاسم (انظر أميلنو (Geog, Copte) صفحة ٣٧ ـ ٨) .

(٢) كان (Arculfus) في مصر حوالي سنة ٦٧٠ للميلاد (Pal. Pil. Text. Soc) الجزء الثالث صفحة ٥٢ وقد اضمحلت المدينة بعد مائتي عام حتى أن (برنار الحكيم) حوالي سنة ٨٧٠ يقول: «ووراء الباب الشرقي دير القديس مرقص ويعيش الرهبان في تلك الكنيسة التي كان فيها مدفنه ولكن البنادقة أتوا في البحر وحملوا إلى جزيرتهم (الكتاب نفسه صفحة ٥) وفي سنة ١٣٥٠ كانت الكنيسة التي استشهد فيها القديس مرقص «على نحو ميلين شرق الإسكندرية» (انظر الكتاب نفسه الجزء السادس صفحة ٣٣ ومن هذا يتضح مقدار اضمحلال المدينة.

(٣) حنا النقيوسي ٥٤٣.

(٤) وقد أثبت هذا استرابو وفيلو وبليني أنظر مقالاً هاماً للمنسنيور Kyrillos II وعنوانها (هيكل القيصريون) في مجلة الجمعية الخديوية الجغرافية المجموعة الخامسة رقم ٦ فبراير سنة ١٩٠٠ (القاهرة ١٩٠٠) وقد أخذنا كثيراً من الأخبار عن هذه المقالة. قال أميلنو وقد

إذا أتى من الميناء داخلاً مما يلي المنارة . فكانت في هذه الجهة لها مظهر يعدل مظهر (الاكروبولس) والسرابيوم وعمود (دقلديانوس) في نهاية المدينة من الجانب الآخر . وكانت كنيسة القيصريون في مبدأ أمرها معبداً للأوثان بدأت كليوبترة في بنائه إعظاماً لقيصر ثم أتمه أغسطس . وإنه لجدير بنا أن نرى ما جاء من صفته في كتاب (فيلو) إذ قال[1] « وكان هذا المعبد معبد قيصر ، الذي يعرف في الاسكندرية باسم سبستيان (أغسطس) ، أثراً لا مثيل له . وكان على ميناء فسيحة ، عظيم البناء عجيب الصناعة عالي السمك يعدّه الناس علماً من أعلام البحر ، وقد زانته أبدع الصور والتماثيل ، تقدم إليها جليل الهدايا والقرابين . وكانت تجمله كله حلية من الذهب والفضة ، فكان نموذجاً في جمال تنسيقه وإبداع أجزائه التي كان يشملها من متاحف ومكتبات وقباب وساحات وأبهاء ومماشي وخمائل من أشجار ظاهرة ، قد وضع كل شيء في موضعه اللائق به ، وأبدعت فيه يد الصناعة فأبرزته في حلة أنيقة من الرونق ، بذل في سبيلها المال لم يدخر باذله ثميناً ولا غالياً . وكان فوق ذلك جلاء عين أهل الأسفار في البحر إذا وقعت عليه في روحاتهم وغدواتهم » .

وقال فيه حنا النقيوسي « إنه القصر الجليل » . وقد غيره قسطنطين الأكبر فجعله كنيسة مسيحية وأهداه إلى اسم القديس ميخائيل[2] . ولكنه كان عند

= نسي ما قاله المؤرخون العرب والقدماء جميعاً هذا القول العجيب «ولا ندري أين موضع القيصريون فإنه لا يوجد وصف لذلك مطلقاً» (Geog. Copte) صفحة ٣٢ ولكن ما دام موضع المسلتين معروفاً فإن موضع القيصريون لا يمكن أن يشك فيه كما سنرى فيما بعد .

(١) رسالة فيلو من يهود الإسكندرية إلى (كاليجولا) في كتاب (يوسفوس) انظر طبعة السير (R. L'Estrange) (لندن سنة ١٧٠٢) (fol. P. 1087) .

(٢) جاء في تاريخ القديسين عن ١٢ بؤونة (عيد الملك الأكبر ميخائيل) قول عجيب وهو «والسبب الذي من أجله يقيم عيد القديس ميخائيل في هذا اليوم هو أنه قد كان بالإسكندرية معبد كبير بنته كليوبتره إبنة بطليموس للاله زحل (ساتورن) وكان عيده يقام هناك في هذا اليوم وهو ١٢ بؤونه وبقيت هذه العادة بين الناس إلى أيام البطريق الإسكندر =

الفتح العربي لا يزال محتفظاً باسمه الأول «القيصريون» ولم يصر كنيسة بطريقية عظمى إلا حوالي سنة ٣٥٠ للميلاد، ولكن في سنة ٣٦٦ في أيام أنستاسيوس جاء جمع عظيم من قوم هائجين ثائرين من الوثنيين وأتباع المذهب الآري المسيحي، ودخلوا فناءها ثم اقتحموها وأحرقوا المذبح والعرش وما كان فيها من النمارق والستر، وسوى مما وصلت إليه أيديهم، ولئن كان قد بقي شيء من المكتبات التي ذكرها فيلو فإنها لا بد قد أحرقت عند ذلك. ثم أعيد بناء الكنيسة وأصلحت في عام ٣٦٨؛ وإن الذين يقرأون قصة (هيباشيا) يعلمون أنها وقعت في كنيسة القيصريون فيما بعد هذا العصر بنحو خمسين عاماً. فإن غوغاء المسيحيين وعامتهم ممن أعماهم التعصب للدين[١] أتوا بتلك الفتاة الحكيمة فمزقوا جسمها تمزيقاً، فكان وثوبهم هذا وما فيه من خروج وعنف جديراً بالمعبد القديم معبد زحل (ساتورن). وقد جاء في الأخبار أن تيموثي إيلوروس فر إلى بئر المعمودية في هذه الكنيسة لاجئاً إليها بعد نحو خمسين سنة

= في أيام الامبراطور قسطنطين) واستمر التقويم بعد ذلك يقول إن الاسكندر عول على هدم ذلك الوثن ولكن الناس أبوا أن يتركوا ما اعتادوه قديماً ورفضوا أن يبطلوا عيدهم فيه فرأى البطريق أن يبقي العيد وأن يبقي الناس على أجازتهم في البطالة ذلك اليوم وأن يضحي فيه بالأضاحي ويطعم الفقراء لوجه الله الحق بدل أن يكون ذلك قرباناً للوثن وأبدل اسم اليوم فجعله باسم القديس ميخائيل فقبل الناس رأيه وهدموا الوثن ولكن اسم القيصريون بقي علماً على الموضع وبقيت الكنيسة إلى أن جاء المسلمون فهدمت. وهذا ختام ما جاء في ذلك الخبر. ويقول سعيد بن بطريق إنه قد صنع صليب من البرونز الذي كان التمثال مصنوعاً منه ثم قال «إن الكنيسة دمرتها النيران عندما أتى أهل الغرب وأغاروا على الإسكندرية وخربوها» وهذا القول غامض ـ وقد ظل القبط على عادتهم في إقامة عيد في هذا اليوم ينحرون فيه القرابين. (أنظر كتاب Pat. Gr. Migne الجزء ١١١ المجموعة ١٠٠٥)

(١) أخذنا هذا الخبر عن سقراط وقد كتبه بعيد الحادثة (Hist. Eccl. VII) صفحة ١٣ ـ ١٥، وقد ذكر حنا النقيوسي (صفحة ٤٦٤ ـ ٦) خبراً يتهم فيه هيباشيا بالسحر ويوافق على قتلها ولكنه يوضح أنها عريت في القيصريون ثم جرت في الشوارع حتى ماتت ثم أحرقت في موضع اسمه (الفينارون).

من ذلك العهد فدخل إليه الناس وأخرجوه منها ثم نفوه ، فلما عاد (تيموثي) إلى الاسكندرية بعد أن أقام في منفاه عشرين عاماً « لقيه الناس في موكب حافل توقد فيه المشاعل وتنشد فيه آيات المديح يرتلها قوم مختلفو الأجناس واللغات » فسار في موكبه هذا يحدوه النصر إلى أن بلغ تلك الكنيسة عينها كنيسة القيصريون[1] .

ولم يبق شيء من وصف ما في تلك الكنيسة من داخلها ، ولكن الذي لا شك فيه إنها كانت على طراز الكنائس البيزنطية (البازليكية)، وأنها بقيت على ما كان بها من الحلية الجليلة والزينة البديعة . وكان آخر ما عهدته تلك الكنيسة من مشاهد المجد في عهد الإمبراطورية صلاة الفرح بعودة قيرس ، ولا بد أن خطبته إذ ذاك كان لا يزال يذكرها من شهد دخول عمرو بجيشه إلى المدينة . ولكنها لم تبق مدة طويلة بعد فتح العرب ، فلم يبق إلا اسمها في صورته العربية وهو القيصرية . وكان يسمي به في أول الأمر نوع من القصور أو الأبنية العامة ، ثم وصل إلينا بعد أن دخل على دلالته تغيير[2] .

وقد عجب العرب أشد العجب من المسلتين من الصخر المحبب الأحمر (الجرانيت) اللتين كانتا في صدر الكنيسة ، وكان مؤرخوهم يكثرون من

---

(١) ديوان زكريا المتليني (صفحة ١١٠) ويذكر زكريا «الكنيسة العظمى» هنا وكذلك في صفحة ٦٧ ولكنه في صفحة ٦٤ يقول صراحة «وكانت الكنيسة العظمى تسمى كنيسة قيصريون» وهذا يدل على أن القيصريون هي «الكنيسة العظمى» والترحيب بعودة (تيموثي) يشبه الترحيب الذي كان بعودة قيرس شبهاً عجيباً وذلك عند عودته من منفاه .

(٢) لا يزال الطريق الأعظم في مدينة عربية يسمى الآن «القيصرية» وقد جاء في كتاب شمس الدين المقدسي ما قد يفهم منه أن المسلمين كانوا في أول الأمر يطلقون ذلك اللفظ على مساجدهم الكبرى (Bibl. Geog. Arab. Part III) (صفحة ١٩٧) وقد كان يطلق بلا شك للدلالة على الموضع المربع الذي تحيط به الأعمدة وقد يكون ذلك الموضع مسجداً وقد يكون والاستعمال الحديث لهذا اللفظ مأخوذ عن الأمر الأخير (انظر أبا صالح صفحة ١١٦ هامش ١) والطريق الأعظم هو بالطبع الموضع الذي يجري فيه البيع والشراء والتبادل في المدن الشرقية .

وصفهما ، فقال اليعقوبي (وهو من كتاب القرن التاسع) إنه قد كان هناك مسلتان من الحجر الملون تحتهما قاعدتان من البرونز على شكل الجعل وعليهما نقوش قديمة[1] . وقال مثل ذلك ابن رستاه (وهو من كتاب القرن العاشر) فوصف أثرين كل منهما على شكل منارة مربعة تحتهما قاعدتان على صورة العقرب من النحاس أو الشبه ، وعليهما نقوش ، وقيل إن صورة العقرب قد صهرت بنار أوقدت تحتها فوقع الأثران[2] . وجاءت قصة في كتاب ابن الفقيه (وهو ممن كان يعيش في أيام ابن رستاه) وفي هذه القصة بدأ الخطأ العجيب الذي خلط بين هاتين المسلتين وبين (الفاروس) وهي التي كان العرب يسمونها منارة الإسكندرية ، قال إن منارة الإسكندرية قائمة في البحر على قاعدة من الزجاج على شكل الجعل . وقال : ولها عمودان قائمان على قاعدتين إحداهما من الزجاج ، والأخرى من الشبه ، وكانت قاعدة الشبه على صورة العقرب وقاعدة الزجاج على صورة الجعل[3] . فما أن أتى عهد المسعودي حتى كانت هذه القصة قد اتخذت صورة ثابتة وأصبحت خرافة يبتهج العرب بذكرها ، فقال المسعودي : وكانت المنارة قائمة على أساس من الزجاج له صورة السرطان ، وكان بناؤها على لسان من الأرض بارز في البحر ، وكان على رأسها صور من معدن الشبه : إحداها تشير بيمناها إلى الشمس وتدور معها في السماء ، فإذا غربت الشمس وضعت يدها ، وصورة أخرى تشير إلى البحر في الجهة التي يأتي منها العدو ، فإذا ما اقترب من المدينة خرج منها صوت هائل يسمع على بعد ثلاثة أميال فينذر أهل المدينة بالخطر[4] .

---

(١) (Bibl. Geog. Arab. part VII) صفحة ٣٣٩

(٢) نفس الكتاب صفحة ١١٧ ، انظر كذلك (Athenoeum يوليه سنة ١٨٨٧ وما كتبه De Goeje) تعليقاً على هذه العبارة.

(٣) نفس الكتاب الجزء الخامس صفحة ٧٠ و ٧١

(٤) قد آثرنا ترجمة ما جاء في الأصل الانجليزي لمخالفته لنص المسعودي ونظراً لأهمية هذه الفقرة قد أتينا بعضها من كتاب المسعودي (مروج الذهب الجزء الأول صفحة ٢٣٢ طبعة المطبعة البهية بمصر) قال «وإن الذي بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة =

ومن المعلوم أن (الفاروس) أو المنارة كانت أثراً غير المسلتين وهي بناء متين من الحجر شاهق العلو ، وأنـه لمن المضحك أن يتصـوّر أحد أن بنـاءها العظيم يقوم على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان ، ومع ذلك فإنه مما يسر النفس أن يصل الإنسان إلى أصل هذه الخرافة التي تظهر في مبدأ الأمر سخيفة لا معنى لها . فإنها إنما نشأت من سوء فهم لما ذكره مؤرخو العرب الأوائل من الحقائق التاريخية وتحرّوا في ذكره الدقة العظيمة . فلا شـك في أن المسلتين اللتين كانتا أمام كنيسة (القيصريون) عند دخول عمرو في الاسكندرية كانتا على قاعدتين على هيئة السرطان كما وصفهما العرب الأوائل . فقد قام الدليل على هذا عند نقل إحدى المسلتين إلى نيويورك ، إذ وجد أن هذا الحجر الهائل كان قائماً على أربع صور من المعدن على هيئة السرطان ، وكانت هذه تفصـل بين المسلة وبين القاعدة . وكانت القاعدة من قطعة واحدة من صخـر (الجرانيت) وكان من تحتها ثلاث طبقات مدرجة من الحجر. ولم يكشف سند نقل المسلة إلا تمثال واحد من التماثيل الأربعة التي على هيئة السرطان ، لأن القاعدة كانت قد مضى عليها زمن طويل وهي مدفونة تحت الأرض . وكان ذلك التمثال نفسه

= السرطان في جوف البحر وعلى طرف اللسان الذي هو داخـل في البحر من البـر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره فيها تمثال قـد أشار بسبـابته من يـده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك وإذا علت في الفلك فأصبعه مشيرة نحوها فإذا انخفضت انخفضت يده سفلاً يدور معها حيث دارت. ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العـدو منه على نحو من ليلة فإذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافـة سمع لـذلك التمثـال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ويرمقونـه بأبصارهم. ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة سمعوا له صوتاً بخلاف مـا صوت في الساعة التي قبلها وصوته مطرب» (المعرب).

(١) نقله المقريزي في خططه الجزء الأول صفحة ٢٥٥ وقد سار السيوطي خطوة أخرى فنقل عن كتاب «مباهج الفكر» فقال «المنارة مبنية بحجارة مهندمة مضببة بالرصاص على قناطر من الزجاج والقناطر على ظهر سرطان من نحاس» (حسن المحاضرة الجزء الأول صفحة ٥٣) وقد بين ابن رستاه ذلك الخلط عندما قال إن المنارة كانت مبنية على أربعة سرطانات من الزجاج.

مشوّهاً ، ولكن لم يكن ثمت شك في الغرض من تلك التماثيل إذ قد وجدت كتابة باللغتين اليونانية واللاتينية على المعدن ، وكانت لا تزال ظاهرة وفيها مصداق لما رواه كتاب العرب[١] . وهذا مثل من الأمثلة الظاهرة التي كانت فيها أعمال الحفر والتنقيب مساعدة للتاريخ مصدقه له .

وقد يقول قائل وماذا كان من أمر الجعلان أو العقارب الزجاجية التي تحت المسلة الأخرى ، وما تحسب ذلك القول إلا إحدى الأقاصيص . وليس شيء أشد خطأً من مثل هذا القول ، لأننا إذا سمعنا وصف أمرين متصلين اتصالاً وثيقاً وصدق أحدهما صدقاً لا شبهة فيه وكان من آيات الدقة ، فإن أعجب العجب أن نقول إن الأمر الآخر مكذوب لا صدق فيه . فما يكون قولنا هذا إلا تكذيباً لا مبرر له للتاريخ كله . وليس في وصف هذه المسلات ما يجعلنا في حيرة بين ما يقتضيه العلم وما يقتضيه التاريخ . لا جرم أننا لا نصدّق أن تقوم قطعة عظيمة من الصخر في حجم تلك المسلة التي نسميها مسلة كليوبترة على جَعالين من الزجاج مما يصنع في أيامنا هذه ، وما كان في الزجاج قطع تبلغ من الحجم ما يكفي لمثل هذا القصد . ولكنا نعلم في المعادن معدناً عظيم الصلابة والرونق وهو الحجر الأسود (الأبسيدي) الذي يشبه الزجاج ، ويعرف بالزجاج الطبيعي . ولعل الجعالين التي كانت تحت المسلة الثانية ـ وهي القائمة اليوم في لندرة ـ كانت من ذلك الحجر الأسود . وإذا كان هذا غير ممكن فلعلها كانت من حجر آخر متين شديد الصقل . وإنا نؤثر أن نصدّق ما قاله كتاب العرب بنصه

(١) نجد رسماً للسرطان في صورة (٧) من كتاب (L. Col. H. H. Gorringe) وهو كتاب Egyptian Obelisks (لندن ١٨٨٥) وتوجد به صور أخرى للبناء وقد وصف (Neroutsos Bey) في كتابه (L'Ancienne Alexandrie) صفحة ١٦ و ١٧ وضع المسلة الأصلية ولم تبق إلا دعامة واحدة من الدعامات الأربع التي كانت على هيئة السرطان وكان من النحاس القديم (Cuivre reputé Aurifere) «وكانت هذه الدعامة على هيئة السرطان البحري راقداً على بطنه فوق قطعة من حجر الجرانيت وفوق ظهره فتحة تدخل إلى ما تحت جرم المسلة» وكانت الدعامات الثلاث الأخرى على الصورة عينها وبذلك كانت المسلة منفصلة كل الانفصال عن جسم البناء الذي تحتها.

كما جاء في قولهم ، على أن نكذبهم فيه بعدما ظهر من صدقهم فيه صدقاً جلياً . فإنا لا نشك في أن المصريين كانوا فوق براعتهم في صناعة الزجاج يعرفون من عظيم أسرار صناعته ما تجهل ، وليس بالمستبعد أن يكونوا قد استطاعوا صناعة صنف من الزجاج يبلغ من المتانة أن يحمل مثل تلك الكتلة الصخرية العظيمة . ومن المفيد هنا أن نقول إن المسلة التي حملت إلى لندن كانت قد وقعت على الأرض قبل الأخرى بزمن طويل .

إذن نقول إن أثرين عظيمين كانا قائمين أمام القيصريون على قاعدتين ذواتي طبقات . وكان أحدهما قائماً على أربع سرطانات من النحاس أو الشبه ، وكان الثاني قائماً على أربع تماثيل من الزجاج المتين أو الحجر الأبسيدي على صورة العقارب . وإذا نحن أزلنا ما طرأ من الخلط على هذا الوصف بين المنارة والمسلتين عرفنا أن التماثيل النحاسية التي يذكرها المقريزي لم تكن في أعلى المنارة حيث لا تكون ظاهرة لرأي العين ، ولكنها كانت في أعلى المسلات . وكان التمثال « الذي يشير إلى الشمس » بغير شك تمثالاً ذا جناحين يمثل «هرميس» أو «نيكي» (Nike) (إلٰهة النصر عند اليونان) وأغلب الظن أنه كان قائماً على قدم واحدة فوق قمة المسلة[١]. يمد يده اليمنى على عادة اليونان ، في تصوير تماثيلهم ، وكان التمثال الآخر الذي « يشير إلى البحر » صورة أخرى لا يقصد بها إلا التجميل والزينة ، وإيجاد التماثل في المنظر . ولا بد أن هذه الأعمدة العظيمة القديمة كانت باهرة الرونق والجمال في صنعها ورسمها الذي أبدعته يد الصناع في عصر أغسطس ، وأنها كانت ذات أثر عظيم في النفس إذا ما وقعت العين على قمتها الشاهقة إذ تمر بها السفن في دخولها إلى المرفأ أو خروجها منه .

وأما المتحف فلا نجد له ذكراً باقياً إلى يومنا هذا ، ولا بد لنا أن نقول إنه تخرّب وزال قبل ذلك بزمن طويل . ولعل زواله كان في الحريق الكبير الذي

(١) قام الدليل على أن المسلات كان لها غطاء على قمتها من المعدن .

أحدثه يوليوس قيصر عندما حاصره المصريون في ذلك الحي تحت قيادة (اخيلاس)[١] ، أو لعل ذلك وقع في النضال الأخير الذي كان في أواخر عهد الوثنية والاضطراب الذي حل بها عند احتضارها[٢].

حسبنا ما تقدم من ذكر الكنيسة ، ولنصف بعد ذلك (السرابيوم) وهو طائفة من الأبنية ذات جمال رائع كان لها أثر عظيم في نفوس العرب . وكان في حي آخر من أحياء المدينة في الموضع الذي به اليوم عمود (دقلديانوس). وكان هذا الحي معروفاً بالحي المصري الذي لم يضع اسمه في وقت من الأوقات ، وذلك الاسم هو (رقوتي). فإن القبط لم يسموا فيما بينهم مدينة الإسكندرية باسم بانيها العظيم ، بل كان أكثر حديثهم عنها باسم القرية التي كانت لبعض الصيادين قبل الإسكندر بزمن طويل . وهذا دليل على شدّة احتفاظهم بقديمهم لا يعبأون في ذلك بمرّ الزمن . وقد عرف موضع السرابيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء في وصفه في الكتب القديمة ، ومما أسفر عنه البحث الأثري في العصور الحديثة . ويقرن ذكر السرابيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذي سماه العرب (عمود السواري) وكان على مقربة من الباب الجنوبي للمدينة وهو الذي يسميه العرب باب الشجرة[٣]. ولا يتفق أهل الآثار على أنه كان قائماً على ربوة تشبه (الاكروبولس) في أثينا، وليس سطح الإسكندرية في الوقت الحاضر مما يسهل تحقيق هذا الأمر . ومهما يكن من شيء فقد كان حصناً معظمه من صنعة الإنسان مع علوه وإشرافه فوق المدينة . فقد كان قائماً

---

(١) أنظر ما جاء بعد في صفحة ٤٢٥ ـ ٤٢٦ وما بعدها وقد عالجنا فيها هذا الأمر .

(٢) يقول (Matter) إن المتحف لا يذكر بعد القرن الخامس Ecole d'Alexandrie الجزء الأول صفحة ٣٣١؛ والدكتور (Botti) يقول إن المتحف زال من زمن قديم قبل ذلك التاريخ « ولم يبق المتحف بعد زمن كركلا » (Fouilles à la colonne Theodosienne) (صفحة ١٣٨ وهذا البحث الذي بحثه الدكتور (Botti) ذو قيمة عظمى لتاريخ الإسكندرية ووصف سطحها ويقصد بقوله (العمود التيودوسي) ما يعرف عادة بعمود دقلديانوس وأما اسم (عمود بومبي) فناشىء عن خطأ في قراءة النقوش التي تحته .

(٣) يذكر ياقوت والقزويني هذا الاسم.

على تهد له نواة من الصخر الطبيعي ، ولكن سائره كان من صنع الإنسان . وكانت أسواره المنيفة تحيط بآزاج معقودة تحت الأرض طبقات بعضها فوق بعض[1] ، فكان حصناً عظيماً مربع الشكل أعلاه مسطح تزينه أبنية بديعة . والظاهر أنه كان يدخل إليه من طريقين : أحدهما تسير عليه العجلات ، والآخر سلم له مائة درجة . على أننا لسنا نعرف القصد الذي من أجله بني ذلك السلم[2] وكان موضعه في الجهة الشرقية من البناء ، وفي أعلاه المدخل وتدعمه

---

(١) لا تزال النواة الصخرية ظاهرة الى اليوم وإن وصف (روفينوس) لا يدع مجالاً للشك في أن القلعة كانت بوجه عام كوماً عظيماً من البناء ويقول:

«وليس في ذلك الموضع ربوة طبيعية ولكنه واقع على قمة مائة درجة أو تزيد وهي من صنع الانسان وهو منعزل وحوله مربعات متسعة من كل جانب وكل الممرات الى القمة واقعة تحت أورقة ذات قباب. . . . والأجزاء الخارجية من السور المحيط فيها مخادع ومحاريب وأبنية عالية يسكنها القسوس أو أولئك الذين يسمونهم النساك الذين يريدون أن يتطهَّروا وفوق ذلك كان ذلك السور محاطاً من الداخل بأورقة تزينها مربعات من الحجارة وفي وسط المساحة كلها كان يوجد معبد فيه أعمدة عالية ثمينة ويغطي واجهته المرمر البديع وكان فيه تمثال (لسرابيس) بلغ من عظمه أنه كان يلمس بيده اليمنى جداراً من الجدران وبيده اليسرى الجدار الآخر وقد قيل إن ذلك المعبد استعمل في بنائه كل أنواع المعادن والأخشاب».

ولا يذكر روفينوس المكتبة ولكنه رأى هدم الصنم وقد يكون لحق بذلك هدم المعبد كله وقد ذكر أونابيوس أن هدم البناء كان تاماً. قال «وألقوا مراسيهم في السرابيوم وحاربوا الأماكن المقدسة ولم يتركوا غير أرض السرابيوم لثقل الحجارة لأنها كانت لا يمكن نقلها وقد خلطوا الأشياء وخربوها الخ». ٣٥* وكان هذا في حكم تيودوسوس عندما كان تيوفيلوس بطريقاً للاسكندرية وورمانوس قائداً لحاميتها.

(٢) الظاهر أن الدكتور (بوتى) لم يلتفت إلى طريق العربات في بحثه الأول في هذا الأمر (L'Acropole d'Alexandrie) صفحة ٧ إذ لم يكن أمامه كل ما قاله (أفطونيوس) فقال «وعلى ذلك لم تكن له طرق يولج إليه منها إلا طريقاً واحداً وهو السلم الأثري ذو الدرجات المائة ولم تكن له طريق لسير العربات» ولكنه في كتابه Colonne) (Theodosienne صفحة ٢٤ قد فصل الأمر فيما كتبه وتفصيله يدل على أنه قد كان هناك طريق للعربات في أحد جوانبه وقد ترجم الدكتور (بوتى) في كتابه الأخير (صفحة ٨٢) قول أفطونيوس ترجمة عجيبة فجعلها «فإذا ما دخل الإنسان القلعة (لم يجد إلا) هضبة =

أربعة أعمدة عظيمة في كل جانب إثنان منها ، وكان للمدخل أبواب من معدن الشبه[1].

وأما شكل البناء الذي على القمة وترتيبه فليس من السهل أن ندركه مما بقي لدينا من وصفه ، ولكن يلوح لنا أنه كان على ما نحن موردون فيما يلي : فقد كان شكله مستطيلاً طوله خمسمائة ذراع في عرض مائتين وخمسين[2] . ويحيط بأعلى النهد من كل جانب صف من البناء المنيف البديع يتصل في مواضع كثيرة بحرم المعبد ، وكان في داخل هذه الجوانب الأربعة من البناء فناء يحيط به صف عريض من الأعمدة : وكان فيه كذلك من الوسط أربعة صفوف من الأعمدة يذهب كل صف منها من وسطه إلى جانب من جوانبه ، فكانت هذه الأعمدة على هيئة قريبة من صليب في الوسط يحيط به إطار مستطيل الشكل . ولكن وسط هذا المستطيل وهو قلب الحصن كله كان فيه معبد (سرابيس) وكان

= واحدة مقسمة إلى أربعة أجنحة متشابهة ونظامه المستطيل يشبه قالب من الآجر » (٣٦*) ومن المؤكد أن قوله معناه «إن الشكل العام لبنائه مستطيل» (٣٧*) وأما ما قبل ذلك فمعناه أن الفضاء الذي فيه هذا المستطيل مقسم إلى أربعة أضلاع متساوية الطول أي أنها أعمدة على شكل الصليب كما وصفناها في متن كتابنا.

(١) قد جاء وصف القلعة ومدخلها في كتاب (Polybiuse) عند ذكره ثورة (Cleomenes) فقال «فحص قائد القلعة باب الدخول» (٣٩) ولو ذكر (Matter) هذه القطعة لما شك في قول أفطونيوس إذا استعمل لفظ (القلعة) (Ecole d'Alexandrie) الجزء الأول صفحة ٣٢٥.

(٢) أخذنا هذا القياس عن المسعودي ووصف البناء مأخوذ من مقارنة دقيقة لما جاء في كتاب (Ruffinus) و (Aphthonius) ولكن الأخير بعيد كل البعد عن الوضوح حتى في المواضع التي يقصد فيها الدقة وقد زار (أفطونيوس) الإسكندرية حوالي سنة ٣١٥ بعد الميلاد وقد أورد في كتابه (Progymnastmáta) موازنة بين (أكروبوليس) مدينة أثينا و(أكروبوليس) الاسكندرية وهي موازنة شائقة على ما فيها من غموض انظر ما كتبه الدكتور (Botti) في (Colonne theodosienne) صفحة ٢٤ وما بعدها ولكن يحسن قراءة كل هذا المؤلف وكذلك قراءة ما كتبه في (L'Acropole D'Alex. et La Serapium) ونحن مدينون لكلا هذين الكتابين ديناً عظيماً .

من سوء الحظ أن هذا المعبد قد تهدّم قبل فتح العرب بمدّة طويلة ، ولكن لا شك في أنه قد كان بناء من أروع الأبنية وأعظمها . وكان حرمه مستطيلاً في وسطه بهو له أعمدة من أثمن المرمر ، وكانت جدرانه من الرخام من داخلها وخارجها . وكان في وسط ذلك البهو تمثال عظيم للمعبود (سرابيس) من الخشب الملبس بالذهب والعاج ، له ذراعان ممدودتان تكاد كل منهما تلمس الحائط الذي يليها . وكان في يسراه سيف وتحت يمناه صورة مروّعة للأعجوبة (قربروس) لها رؤوس ثلاثة : رأس أسد ورأس كلب ورأس ذئب ، وقد التف حولها جميعاً أفعى عظيمة[1] . وكانت تزين المعبد جميعه زينة باهرة من النقوش التي لا تقدّر بثمن ، وكانت من المرمر والشبه ، وكان أظهر ما فيها سلسلة من نقوش تمثل حروب (برسيوس). وكان حول جدران ذلك المعبد صف من جليل الأعمدة تجري موازية لصف الأعمدة المحيطة بالفناء جميعه ، وتصلها به الصفوف الأربعة التي على هيئة الصليب ، والتي سبق لنا ذكرها . وكانت الأبواب العظيمة التي تحيط بالمعبد لا مثيل لها في الفخامة والجلال . وكانت رؤوس الأعمدة من معدن الشبه تغطيه طبقة من الذهب وأما السقوف فكانت يغطيها الذهب والألوان الزاهية في حين كانت الجدران والأرض من أثمن المرمر[2] .

---

(١) Macrobius الكتاب الأول الفصل ٢٠ وقد وصف (Pseudo Callisthenes) في كتابه «حياة الإسكندر» (٣٨*) هذا التمثال بقوله « يحمل في يده اليمنى حيواناً برياً له أوجه كثيرة وفي يده اليسرى سيفاً » (٣٩*) .

(٢) وان وصف اميانوس لمما يستحق الاقتباس إذ قال :

«وبعد هذه كانت معابد قائمة على قوائم عالية وكان السرابيوم أظهرها وإن اللفظ ليعجز عن تصوير صورة حقيقية له فقد كانت أبهاؤه ذات العماد وتماثيله التي كأنها من الأحياء وسوى ذلك مما كان به من آثار الفن ـ كانت كلها تميزه وتخلع عليه بهاء يجعله فذاً في العالم لا يزيد عليه شيء فيه جمالاً اللهم إلا بناء الكابتول ذلك الفخر الخالد الذي تفخر به رومه العظيمة». ومن المحتمل أن رمم معبد ايزيس وسيرابيس في رومة إذا أظهرناه بحسب ما نتخيله من وصفه يمكن أن يقرّب إلينا صورة البناء الذي كان في الإسكندرية =

لكن أهم من ذلك كله أن عقود هذا المعبد كانت لها أبـواب تفضي إلى حجرات في البناء الأعظم كان في بعضها مكتبة الإسكندرية الكبرى[1] ، وكان في البعض الآخر مشاهد لآلهة مصر القديمة . وكان في بعض مواضع من حرم هذا المعبد مسلتان قديمتان ، وحوض ماء عظيم من المرمر فائق الجمال . وكان العمود العظيم المعروف بعمود دقلديانوس في وقت فتح العرب قائماً فوق القلعة مشرفاً عليها[2] ، على أننا لسنا نعلم في أي وقت أقيم . وكان في مـوضع من السرابيوم كنيسة بإسم القديس (يوحنا المعمدان) ، وكان فيه سوى هذه كنائس أخرى كانت لا تزال عند ذلك قائمة منها كنـائس القدّيسين (قـزمان) و(دميـان) و(الانجيليون)[3] . وقد بقيت الكنيسة الأخيرة إلى ما بعد الفتـح ولكنها كـانت

= (انـظر كتـاب Lafaye وهـو .Hist. des Cultes des Divinités d'Alex) بـاريس سنـة ١٨٨٣ والصورة المقابلة لصفحـة ٢٢٤؛) وأن لغة (Tacitus) فيهـا كثير من التحفظ (Hist. IV) صفحة ٨٤ فانه لا يقول سوى إن المعبد كان مناسباً لحجم المدينة في عظمه وقد أسـاء (Matter) فهم هذه الجملة فذهب إلى أن (Tacitus) يشبه مجموعة هذا البناء بمدينة (Ecole d'Alex. t. i. p. 323) وقد ورد هذا الخطأ نفسه في كتاب (Saint Martin) إذ يقـول وقد بلغ من عـظمه كمـا قال (تـاسيت) إنه كـان مثل مـدينة Histoire du Bas) (.Emp تأليف (Lebeau) الجزء الرابع هامش صفحة ٤٠٦ .

(١) لعل هذا هو المعنى المحقق لقول (Aphthonius) «كانت المخادع مبنية في داخل الأروقة وكان بعضها متخذاً للكتب توضع عليها وتفتح لمن شاء أن يكلف نفسه بالعناية بالفلسفة وإعادة القوة إلى الحكمة، وكان البعض الآخر متخذاً مشاهد للآلهة القديمة (٤٠*) .

(٢) قال الدكتور (Botti) في كتابه السالف الذكر أنه أنشىء بعد هدم السرابيوم الذي حدث في سنة ٣٩١ ويسميه (العمود الثيودوسي) .

(٣) بحسب رأي الدكتور (Botti) كـان اسم (الانجيليون) في أول أمـره (الأركاديـون) وكان أصـل اسم (الأركاديـون) (الكلوديون) وهـو يقول فـوق ذلك إن (الأركـاديون) كـان هو (الهادريانون) (انظر الكتاب السالف الذكر صفحات ١٣٥ و ١٣٨ و ١٣٩) ويظهر لنا أن قوله هذا غير ثابت فقد كان (الهدريانون) معبداً ثم جعل موضعاً للسجـلات تحفظ فيه الدواوين والوثائق (انظر ما كتب في ذلك في أوراق بردى (Oxyrhynchus) الجزء الأول صفحة ٦٨ و ٧٢ والجزء الثاني صفحة ١٨٢، ومن المشكوك فيه أن هذا البناء كان على =

يخشى عليها التهدّم فأعيد بناؤها في أواخر القرن السابع وقام على ذلك البطريق إسحاق[1].

بقي علينا أن نذكر بناء آخر وهو البناء الملاصق لمدخل السرابيوم ، وَيُعَدُّ جزءاً منه وهو (الأقوس) ومعناه البيت . ويمتاز عن سائر بناء القلعة بأن كانت له قبة مذهبة عالية قائمة على دائرة مزدوجة من الأعمدة . ولم يتضح لنا القصد من هذا البناء ولعله لم يقصد منه غير الزينة والظاهر أنه بقي بعد أن تهدم المعبد ، ويرد ذكره في أخبار العرب مع (عمود السواري)[2] . وقد قيلت في ذلك العمود

= نجد السرابيوم وليس ثم من سبب لأن يحول إلى كنيسة إذا كان قد استخدم لذلك الغرض النافع وقد أخذ (Gregorovius) قوله عن تحويله إلى كنيسة عن كتاب (Haeres XIX 2me) (Epiphanius) (الإمبراطور هادريان صفحة ٣٥٨) ويقول سعيد بن بطريق (انظر مبنى الجزء ١١١ المجموعة ١٠٢٥ ـ ٦ والمجموعة ١٠٣٠) إن تيوفيلوس بنى كنيسة عظيمة باسم الإمبراطور (تيودوسيوس) وغطاها بالذهب وذلك سوى ما بناه من كنائس أخرى كثيرة مثل كنيسة العذراء وكنيسة القديس يوحنا وأما عن الأركاديون فانه يقول «المعبد الإسكندري الأعظم الذي أنشىء تخليداً لاسم أركاديوس».

ولا شك أن هذا كان قبل سنة ٣٩٨ وهذا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء في كتاب حنا النقيوسي وهو أقدم من ذلك بكثير فقد قال في صفحة ٤٥٠ إن البطريق (تيوفيلوس) بنى كنيسة كبرى سماها باسم الإمبراطور (تيودوسيوس) وبنى أخرى سماها باسم ابنه (أركاديوس) وحول أيضاً معبداً في السرابيوم إلى كنيسة سماها باسم (هونوريوس) ثم قال إن تلك الكنيسة المسماة باسم هونوريوس كانت تطلق عليها اسم القديسين (قزماس) و (دميان) وكانت مقابلة لكنيسة القديس بطرس وإذا لم يخطىء حنا فان الأركاديون كانت بناء جديداً في أواخر القرن الرابع ولكن هذا الأمر محير فإن قول Sozomen (Hist. Eccl .V) صفحة ١٥ يفهم منه أن معبد سرابيس هو الذي حول إلى كنيسة فقد قال: «إن الذي كان عند ذلك معبد السرابيوم قد أخذ وبعد قليل حول إلى كنيسة الأركاديوس لقب الملك (٤١*)» ولكن لفظ سرابيوم (٤٢*) يجب أن يفهم منه هنا الاكروبولس وليس المعبد فقط ولفظ (٤٣*) لا بد يقصد به (أعيد بناؤه) وليس (حول) فإن (Sozomen) يذكر بوضوح أن المعبد قد هدم.

(١) أميلنو (حياة البطريق القبطي إسحق صفحة ٥٧ ـ ٨) .

(٢) الظاهر أن هذا هو ما عناه السيوطي عند ذكره قبة مغطاة بالنحاس وأنها تلمع كالذهب =

قصص عجيبة فقيل إنه كان جزءاً من معبد بناه سليمان وهذا ما ذهب إليه أصحاب الرأي السائد ، وقال ابن الفقيه : إن الإنسان إذا رمى عليه قطعة من الخزف أو الزجاج وقال عند ذلك « باسم سليمان بن داود تكسري » انكسرت ، ولكنه إذا لم يذكر ذلك الطلسم لم تنكسر . وقيلت قصة أخرى وهي أن الإنسان إذا أقفل عينيه وسار إلى ذلك العمود لم يستطع أن يبلغه . وقال السيوطي في سذاجة إنه قد جرب ذلك الأمر بنفسه مراراً وظهر له صدقه . وقال ذلك المؤرخ إن « أهل العلم في الإسكندرية » يذكرون أن هذا العمود كانت عليه قبة جلس تحتها أرسطاطليس وهو ينظر في علم الفلك ، وهذه بقية من ذكر القبة والمكتبة . وقد روى المقريزي عن المسعودي وصفاً للسرابيوم وهو وصف لا بأس به فقال : « وكان بالإسكندرية قصر عظيم لا يماثله قصر في بلاد العالم قائم على تل عظيم تجاه باب المدينة ، وكان طوله خمسمائة ذراع في عرض مائتين وخمسين ، وله باب عظيم كل جانب منه قطعة واحدة من الصخر ، وكذلك أعلاه حجر واحد . وكان في ذلك القصر مائة عمود وفي صدره عمود عظيم لم ير مثله في الحجم وله قمة كالتاج ». ويقول الكاتب نفسه إن ذلك العمود يهتز عند هبوب الريح عليه . وكان الاعتقاد السائد أن هذه الأبنية أقامها الجن والعمالقة من البشر الأوائل . قال السيوطي إنه قد بنى الجان لسليمان في الإسكندرية إيواناً للاجتماع ، به ثلثمائة عمود علو كل منها ثلاثون ذراعاً ، وكانت من المرمر المجزع بلغ من صقله أن صار كالمرآة يرى الإنسان فيه من يسير خلفه ، وكان في وسط الإيوان عمود علوه مائة ذراع وأحد عشر ذراعاً ، وكان سقفه قطعة واحدة مربعة من المرمر الأخضر نحته الجن[1] ، وكان هؤلاء الجان على صورة الإنسان لهم رؤوس كالقباب وعيون تمزق الأسود . وقد ورد عن ذلك رأي آخر وهو أن الأحجار كانت في الأزمان السالفة لينة كالطين ، أو

= ولكن المقريزي يذكر قبة قطعة واحدة من الرخام الأبيض بديعة الصنع وقد يكون المقصود بهذا كله شيئاً واحداً .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي صفحة ٥٥ .

كما قال كاتب آخر : « وكان من السهل أن يعمل الناس قبل الظهر في محاجر المرمر إذ يكون المرمر كأنه العجيبن في لينه ولكنه يصير بعد الظهر صلباً يتعذر اقتلاعه ».

وهذه القصص تظهر دهشة العرب مما رأوا من الأبنية التي صارت ملكاً لهم . وإنه لمن المؤلم أن يقرأ الإنسان أخبار تخريبها وهدمها ، ولكن العدل يقضي علينا أن نذكر أن أكثر ذلك التخريب كان من فعل الزلازل ، فما أتى القرن الحادي عشر حتى كانت المدينة كلها أطلالاً خربة . ولكن العجب أن يذكر كتاب ذلك العصر أن الأعمدة كانت لا تزال قائمة[1] ، ويقولون إن عدتها كانت خمسمائة ، وقد رآها الإدريسي بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وقال في وصف ذلك إن العمود الأكبر كان حوله قضاء فيه ستة عشر عموداً عند كل من جانبيه الضيقين وسبعة وستون عموداً عند كل من طرفيه العريضين[2] . وقال بنيامين (التودلي)[3] وقد زار المدينة في عام ١١٦٠ إنه رأى بناء عظيماً جميلاً فيه أعمدة من المرمر تفصل بين حجراته الكثيرة ». وقال إن ذلك كان في « مدرسة أرسطو » . وذلك مثل ما يقوله الكتاب المسلمون إذ يسمونه «قبة أرسطو» أو «بيت الحكمة» . غير أنه حدث في عام ١١٦٧ أن حاكماً جاهلاً للإسكندرية اسمه (قراجا) وكان من وزراء صلاح الدين أمر بهدم هذه الأعمدة وحمل أكثرها إلى البحر فألقاها فيه ليحول بين العدو وبين النزول إلى البر[4] .

---

(١) الدكتور Botti (Colonne Theodosienne) صفحة ١ و ٢ .

(٢) نفس الكتاب السابق صفحة ١٢

(٣) نفس الكتاب ولكن هذه الأعمدة كانت في الصفوف الخارجية وأما أعمدة المعبد فقد زالت أو كانت على الأقل قد هدمت في أيام تيودوسيوس.

(٤) خطط المقريزي الجزء الأول صفحة ١٥٩ ولكن عبد اللطيف يقول إنه رأى ٤٠٠ من الأعمدة الكبرى مكسرة وملقاة على الشاطىء وهو يقول إن (قراجا) قصد إلى أحد أمرين: إما أن يمنع أثر الموج في الشاطىء إذ كانت تحفر ما تحت أسوار المدينة ، وإما أن يدفع =

ومنذ ذلك الحين بقي عمود (دقلديانوس) وحده في مجده ، بقية مما كان في قلعة الإسكندرية[1] من الأبنية التي لم يكن لها مثيل .

ولنترك الآن معالجة مسألة المكتبة وما حل بها فسنجعل لذلك موضعاً آخر ولنمض إلى ذلك أثر آخر أو أثرين جديرين بالذكر . كان الملهى الذي ذكره العرب في غرب القلعة على ما يلوح لنا . وكان هناك من غير شك ميدان لسباق الخيل في خارج المدينة مما يلي الباب الشرقي . وقيل إن[2] ذلك الميدان كان يتسع لألف ألف من النظارة ، وكان بناؤه يجعل كل من فيه يرى ما يجري به سواء في ذلك من كان في أعلاه أو في أسفله . وكانوا يسمعون كل ما يقال بغير ازدحام أو مشقة . وأما دار التمثيل فقد كانت في موضع من حي (البروكيون) وكانت بناء عظيماً قائماً بنفسه.

ولكن المنارة كانت موضعاً لأعظم إعجاب العرب وأكبر دهشتهم . وقد كان ذلك البناء الضخم كما هو معروف قائماً في الشمال الشرقي من جزيرة (فاروس) . وكانت تلك الجزيرة متصلة ببر المدينة بطريق طويل قائم على عقود اسمه (الهبتاستاديوم) وكانت الجزيرة في وقت الفتح العربي يحيط بها مرسى السفن وفيها أبنية مختلفة كان أكبرها كنيستان : إحداهما (للقديسة صوفيا) ، والأخرى (للقديس فوستوس) وبينهما نُزُل للأغراب[3] . وكانت بتلك الجزيرة في أيام قيصر قرية كبيرة وكان أهلها قوماً لا خلاق لهم . وقد قال قيصر عن

سفن العدو ثم قال وعلى أي حال فقد كان هذا عبثاً سيئاً يشبه عبث الأطفال (صفحة ١١٣).

(١) وقد أفصح ياقوت عن الأثر الذي احدثه ذلك في نفسه بقوله إنه لما زار الاسكندرية طاف حول المدينة فلم يجد بها شيئاً يستحق الاعجاب أو يثير الدهشة إلا عموداً اسمه عمود السوارى بقرب الباب المسمى (باب الشجرة).

(٢) المقريزي الكتاب السالف صفحة ١٥٨

(٣) هذه التفاصيل مأخوذة من كتاب (Moschus) «مسارح الأرواح» الفصل ١٠٥ و ١٠٦

المنارة إنها قطعة عجيبة من البناء[1] ، ووصفها سترابو بأنها برج ذو بناء عجيب من الحجر الأبيض وله طبقات عدة[2] ، وقد كان بناؤها على يد (سوستراتوس الكنيدي) في أيام بطليموس فلادلفوس)، وكان القصد منها هداية السفن . وقد أصابها هدم من فعل البحر ومن أسباب أخرى ، ولكنها كانت ترمم كلما دعت الحال[3] إلى ترميمها ، فكانت في أيام فتح العرب صالحة لم يفسد منها شيء ، تلمع في النهار في ضوء الشمس وتضيء بنورها في الليل على البحر إلى بعد عدّة فراسخ من الإسكندرية . وكان شاطىء تلك الجهات ضحلاً لا مرفأ له ، وكانت السفن الآتية إلى الإسكندرية تعبر إليها بحراً فسيحاً لا معالم فيه من البر ، فكان من أكبر النعم أن يقام علم ظاهر في النهار والليل على مسافة ستين ميلاً أو سبعين .

وقد كتب كتاب العرب شيئاً كثيراً عن هذه المنارة فقال الإصطخري [4] إن المنارة قائمة على صخرة في البحر وبها أكثر من ثلثمائة غرفة لا يهتدي فيها الزائر إلا إذا هداه دليل . وقال ابن حوقل[5] : إنها مبنية من صخور منحوتة قد جمع بعضها إلى بعض وشدت بالرصاص ولا يشبهها شيء على وجه الأرض . وقد وصفها الإدريسي مثل ذلك الوصف[6] مع تفصيل أعظم فقال إن المنارة

(١) والفاروس برج شاهق العلو على الجزيرة مبنيٌّ بناء عظيماً واشتق اسمه من اسم الجزيرة . (Bell. Civ. iii Sub, fin)

(٢) (Geog, XVII. i 6) .

(٣) جاء ذكر مثل هذا الإصلاح في الديوان اليوناني (Epid 647) وقد ترجمنا تلك الأبيات من (Amaranth and Asphodel) كما يلي :

أنا صرح أغيث البحارة في اليم، أضيء عليهم بمصباحي الهادىء فأضيء الليل. كنت اهتز إذا عصفت العواصف المدوية، حتى تداركني أمون بحوله فأعاد قوتي .

فإذا ما جاز البحارة تلك الأمواج الثائرة رفعوا أيديهم إليه إذا ما صاروا على الأرض، كما يرفعونها للاله العظيم الذي يهز الأرض . .

(٤) (Bibl. Geo. Arab) الجزء الأول صفحة ٥١

(٥) الكتاب نفسه الجزء الثاني صفحة ٩٩

(٦) (Geographia Nubiensis) صفحة ٩٤ و ٩٥

لا يماثلها شيء في بلاد العالم في قوّة بنائها ونظامهـا فهي من أصلب الصخور صب بينها الرصاص المنصهر حتى أن حجارتها لا ينفصـل بعضها عن بعض . ويصل ماء البحر إليها من جهة الشمال ، وعلوها نحو ثلثمائة ذراع كل ذراع ثلاثة أشبـار فطولهـا مثل قـامة مـائة رجـل : منها سبعـون قامـة بين الأرض والطبقـة الوسطى ، وست وعشرون قامة بين الطبقة الوسطى والقمة وعلوّ المصباح الذي بها أربع قامات[1] . وهيئة بناء برج المنارة معروفة لا شك فيهـا ، فقـد كانت ذات طبقات أربع كل منها أضيق قطراً من الطبقة التي أسفلها . وكانت الطبقـة الأولى ممـا يلي الأرض مربعـة والتي تليها ذات ثمـانية أضـلاع وكانت الثـالثة مستديرة . وأما الطبقة العليا فكانت مصباحاً مكشوفاً ، وبها مواضع للنـار التي يهتدي بها ، ومرآة عجيبة . وكان في أعلى الطبقة الأولى المربعة طنف عريض عنـد قـاعـدة الـطبقـة الثـانيـة المثمنـة يشـرف على المـدينـة والبحـر ، وكـان بين الـطبقة المثمنـة والطبقـة الدائـرية التي فـوقها طنف آخـر أقل اتسـاعـاً من

---

(١) لسنا ندري ما هو القياس المقصود بالدقة ولكنا إذا قدرنا القامة بخمسة اقدام لا أكثر كان علو البرج خمسمائة قدم. وأكثر الكتاب المسلمين يـذهبون إلى أن علوهـا ٣٠٠ ذراع ولسنا نخطىء إذا نحن جعلنـا ذلك ٥٠٠ قـدم انجليزي. ومن العجيب أن الإدريسي لا يفرق بين الطبقة الأولى والطبقة الثانية من البرج. ويقول اليعقـوبي إن علوها ١٧٥ ذراعاً ويقول المسعودي وكان في وقته إن علوه الآن (في القرن العاشر). ٢٣٠ ذراعاً ولكنه كان فيما مضى ٤٠٠ ذراع ثم هدمتها الزلازل ومر الزمن. وقال القزويني إن الطبقتين الأولى والثانية كانتا متساويتين في العلو (ويقول إن كلا منهما كانت ٩٠ ذراعاً). فإذا كان الأمر كذلك فإن قياس الأدريسي يجعل علو كل من الطبقتين الأوليين ١٠٥ ذراع وعلو الثالثة ٧٨ ذراعاً و ١٢ ذراعاً للمصباح ويلوح لنا أن هـذا تقـديـر قـريب إلى الأذهـان. وأمـا المقـريزي فـإنه يـذكر قيـاسـاً آخـر وهـو ١٢١ ذراعاً للطبقـة المـربعـة و ٨١ ½ ذراعـاً للمثمنة ٣١ ½ ذراعاً للمستديرة. ويقـول ابن الفقيه إن جمـاعة ذكـروا أن الأذرع كانت أذرعاً سلطانية فكانت ٣٠٠ ذراع منها تساوي ٤٥٠ من أذرع اليد وقال عبد اللطيف إنه قرأ نسخة مخطوطة من كتاب أحد أهل الأسفار فوجد به أن علو الطبقات هو ١٢١ و ٨١ ½ و ٣١ ½ ويزيد عليها ١٠ أذرع للمصباح (أو المسجد الذي فوق القمة). ويقول (Holm) في كتابه (Hist,of Greece ترجمة (F. Clarke) (الجزء الرابع صفحة ٣٠٤) إن علوه ٦٥٠ قدماً ولكن هذا بعيد عن التصديق لأسباب فنية في علم الحيل.

الأوّل[1] ولكنه يشبهه. وكان الصعود إليها على سلم يغطيه سقف من الحجارة[2] يصل بين جدرانها. وكان تحت السلم غرف عدّة. ويضيق ما بين السلم من الفراغ بعد الطبقة الثانية حتى يتضاءل الفضاء الذي بداخل المنارة فلا تبقى إلا فرجة صغيرة كالبئر في وسطه . وكان الضوء يصل إليها من نوافذ في جدارها كله من أعلاه إلى أسفله[3] .

وقد عجب العرب من عدد غرف المنارة ومن تداخلها فقال المقريزي : ويقال إن كل من دخل المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف العدّة والطبقات والمماشي . وقيل إن المغاربة عندما جاءوا إلى الإسكندرية في خلافة المقتدر دخل جماعة منهم إلى المنارة على ظهور الخيل فضلوا طريقهم حتى جاءوا إلى شق في كرسي الزجاج الذي على هيئة السرطان[4] وهو الذي يقوم

(١) المسعودي في (Bibl,Geog,Arabe) الجزء الثامن صفحة ٤٦ وكذا سواه من الكتاب.

(٢) ياقوت الجزء الأول صفحة ٢٥٦ وما بعدها.

(٣) ليس من الواضح أكانت هناك درجات أم طريق منحدر يصعد عليه إلى البرج فبعض الكتاب يذكر درجات. وأما المسعودي فيقول إنه كان يصعد إليه من طريق منحدر لادرج له. وقال غيره إن الخيل كانت تصعد بأحمالها إلى كل غرفة وإنه لما يهم الإنسان أن يعرف كيف كان يصعد بالوقود إلى قمة البرج لإيقاد نار المصباح ولعله كان يرفع من الفتحة المتوسطة في البناء بواسطة بكرة.

(٤) قد بينا أصل هذه القصة فيما سلف في صفحة ٣٩٤ وليس أوضح من ابن الفقيه في الدلالة على ما حدث من الخلط بين المنارة والمسلتين فانه بعد أن قال (Bibl, Geog, Arabe) الجزء الخامس صفحة ٧٠) ان منارة الاسكندرية قائمة على سرطان من الزجاج في البحر قال في الصفحة التي بعدها إن منارة الإسكندرية كان لها عمودان قائمان على صورتين: إحداهما من النحاس، والأخرى من الزجاج، والصورة من النحاس على هيئة العقرب، والتي من الزجاج على صورة السرطان والمرصد بجوارهما ويسمى المنارة. وقد روى السيوطي عن غيره من الكتاب عبارة تفيد أن المنارة كانت قائمة على عقود من الزجاج قائمة فوق سرطان من النحاس. ويفسر ياقوت سبب عمل الأساس من الزجاج بقصة خرافية هي أن الاسكندر كذا) عندما أراد بناء المنارة ألقى في البحر بحجارة وآجر وصخر محبب وذهب وفضة ونحاس ورصاص وحديد وزجاج وسائر انواع المعادن لكي يجربها ثم أخرجها وفحصها فوجد أن الزجاج وحده لم ينقص ولم يفسد فاختاره للبناء.

عليـه البناء ، فـوقع كثيـر منهم فيه وهلكـوا[١] . ولكن قيلت في المرآة قصص أعجب من هذا وقد أجمع كتاب العرب على أنها كانت في ذاتها بصرف النظر عن المنارة التي كانت هي قائمة عليها ، إحدى عجائب العالم . فقيل قد كان في مدينة (راقـوتي) قبة مـذهبة على أعمـدة من الشبه ، وكـان فوقهـا منارة في أعلاها مرآة من معدن مركب يبلغ قطرها خمسة أشبار[٢] . وكانت تلك المـرآة تتخذ لإحراق سفن العدوّ . وقد قلدت هـذه المرآة في مـدينة الاسكنـدر فأقيم مثلها على رأس المنارة ، ولكنها كانت تستخـدم في رؤية العـدوّ من بعد « إذا أقبل من بلاد الروم » . وقد دخلت المبـالغة على وصفهـا بعد قليـل فرويَ عن عبـد الله بن عمرو أنـه قال «ومن عجـائب بلاد العـالم المـرآة التي على منـارة الإسكندرية وهي تكشف ما يجري في القسطنطينية[٣] » ولكن المسعودي يصفها بأنها « مرآة عظيمة من الحجر الشفاف يمكن أن ترى فيها السفن الآتية من بلاد الروم وهي بعيدة عن مدى البصر » وقال كاتب آخر مثل هذا المعنى ولكنه يذكر أن هذه المرآة كانت من « زجاج مدبر » أي محكم الصنعة[٤] . وقال كاتب ثالث إنها كانت من « الحديد الصيني » أو الصلب الثقيل[٥] . وقد أجمع الكل على أنها كانت تظهر السفن وهي أبعد من مدى البصر فكان الإنسان إذا جلس تحتها رأى كل شيء من مكانه إلى القسطنطينية .

---

(١) المقريزي. ويبدأ وصف المنارة في الجزء الأول صفحة ١٥٥ من الخطط .

(٢) ينقل المقريزي هذا عن ابن وصيف شاه في كتابه (تاريخ مصر) ويتفق معه المرتضى إذ قال إنهم بنوا برجاً صغيراً في وسط المدينة على أعمدة من النحاس المذهب وجعلوا عليه مرآة متخذة من مواد مختلفة طولها خمسة أشبار في مثلها وكان علو البرج مائة ذراع وكانت المرآة تستعمل لاحراق العدو وكذلك فان المنارة لم تبن إلا لإقامة مرآة كانت فوقها (تاريخ مصر صفحة ١٠٢).

(٣) ابن الفقيه في (Bible Geog. Arab) الجزء الخامس صفحة ٧١ .

(٤) هذا هو اللفظ الذي استعمله المقريزي «الزجاج المدبر» .

(٥) عن السيوطي وهو يقول إن عرض المرآة كان سبعة أذرع وإنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد أوربا وإنها كانت تستعمل لإحراق العدو. وقال إنهم كانوا يـديرون المـرآة نحو الشمس وهي مائلة للغروب فتنعكس عليها الأشعة وتحرق سفن العدو.

وأما الغرض الـذي من أجله أقيمت المرآة فمختلف فيـه ، فهل لـم تكن تتخذ إلا لتنعكس عليها أشعة الشمس في النهار وضـوء النار في الليـل لهدايـة السفن ؟ وهل كانت مرآة مما اعتاد الناس اتخاذها أم كان لها سطح يختلف عن ذلك له قدرة على كسر الضوء ، فلذلك كانت حقيقة تتخـذ لإحراق السفن إذا ما سطعت عليها أشعة الشمس القوية في مصر ؟ والجواب على هذا موكول إلى العلماء ولكن من أعجب الأمور أن يذكر مؤرّخو العرب في القرن العاشر للميلاد من وصف هـذه المـرآة مـا يمكن أن نعـدّه تنبؤاً بـاستعمـال المنـظار المقـرِّب (التلسكوب) . وإنه من العجيب كذلك أن يجمـع كل هؤلاء الكتـاب على أنها كانت من مادة شفافة ، فيقول بعضهم من الزجاج المدبـر ، ويقول البعض من حجر شفاف . فإن هذا القول وصف لعدسة ضوئية وليس لمرآة . أليس إذن من الممكن أن تكون مدرسـة الإسكندريـة العظمى التي فـاقت في علوم الريـاضة والحيل قد كشفت سر العدسة الضوئية وصنعتها ، ثم نسي أمـر هذا السـر بعد تخريب المنارة ؟

وإنه من الثابت أن المنارة كانت تتخذ علماً للإشارة، كما كانت تستخدم لهداية السفن، ولكن ليس من الواضح عندنا أكانت النار توقد بهـا في الليل والنهـار، فإن الإدريسي إنما يذكر النار بالليل «وسحابة من الدخان في النهار». ولكن جاء في وصف آخر للمنارة أن الديادبة كانوا يقيمون بها على استعداد لإبقاء النيران بالليل[1]. ولكن من سوء الحظ أنا لا نجد دليلاً على ما جرت به العادة في أول الأمر لأن المنارة لحقها كثير من الهدم والتخريب في مدّة القرن الأول بعد الفتح العربي . ولذلك التهديم قصة ، وذلـك أنه في خـلافة الـوليد بن عبـد الملك في القرن الثـامن

(١) ذكر (Arculfus) حوالي سنة ٦٧٠ ميلادية هذا « البرج الشاهق العلو » فقال « إنه كـان يخدم فيه قوم يوقدون المشاعل وقطع الخشب التي تجمـع لذلـك الغرض لكي تهـدي السفن إلى البر وتدلها على مدخل المضيق » ثم قال « وكان حول الجزيرة كذلك عروق كبيرة الحجم قد وضعت لتحمي الأساس من الانهيار من جراء فعل مـاء البحر » (Pal. Pil. Text Soc) الجزء الثالث صفحة ٥٠ .

للميلاد ، رأى الروم فعل المنارة وضايقهم من أمرهـا أنها كـانت مرقبـاً يساعـد المسلمين على ردّ غارات البحر ويحميهم من المباغتة ، فعوّلوا على الاحتيـال في تخريبها . فذهب رجل من خواص[1] ملك الروم إلى الخليفة يحمل الهدايا النفيسة ، وتظاهر بأن الملك قد وجد عليه موجدة عظيمة وسعى في قتله ؛ وأنه جاء راغباً في الإسلام ، فصدّقه الخليفة ورحب بإسلامه وقرّبـه وتنصح الـرجل إلى الخليفة في دفائن استخرجت من بلاد الشام ، فشرهت نفسـه إلى الأموال فمال إلى تصديق ما وصفه ذلك الرومي الـداهية من كنـوز عظيمـة من الذهب والجوهر كانت من قبل لملوك مصر القديمة وقال إنها مدفونة في آزاج ومخـادع تحت المنارة . فأرسل الخليفة جماعة من جنده ليستخرجوا ذلك فهدموا نصف المنارة وأزالوا المرآة ، وتم ذلك قبل أن يفطن أحد إلى المكيدة . فضج الناس وعزموا على منع ذلك الهدم وبعثوا إلى الخليفة بخبرها ، فنذر الخـائن بالأمـر فهرب في الليل إلى بلاده ، وكانت حيلته قد تمت وهـدم من المنارة نصفهـا أو على الأقل ثلثها ، وبلغ الخائن ما أراد إذ هدم المرآة السحرية . وعرف العرب أنهم خدعوا بعد أن انقضى الأمر ، « وبنوا مرآة من الآجر ولكنهم لم يستطيعوا أن يعيدوها إلى علوها السابق ، فلما وضعوا المرآة عليها لم تفد شيئاً[2] .

وليست ثمت سبب يدعو إلى الشك في جوهـر هذه القصـة ، وليس من العجب أن يتعذر إصلاح ما تلف من المنارة . فلا شك أنها كانت من آيات البناء إذ بقيت قائمة مدة قرون وهي شاهقة العلو ناهدة في أطباق الفضاء . ومـا كان البناءون في مدة حكم العرب ليبلغوا ما بلغه سلفهم في عهد البطالسة . ولم يرد في كتاب المسعودي ذكر لسعي العرب في إعادة بنائها بل يفهم من قوله أنهم لم يفعلوا شيئاً في سبيل ذلك ، ولكن لعله مخطىء . ولا نعرف بعد ذلك إلا قليلاً

---

(١) جاء في رواية أخرى أنه كان بعض قسوس النصارى وأنه جاء بكتاب قديم فيه سر الكنز الدفين .

(٢) السيوطي الكتاب السابق صفحة ٥٣ ، ولكن جمهور كتاب العرب يذهبون إلى أن المرآة تحطمت وهذا هو الأقرب .

من أخبار المنارة فقد ورد أن أحمد بن طولون[1] جعل على قمتها قبة من الخشب ، حوالي سنة ٨٧٥ للميلاد . وفي ذلك ما يدل على أن هذا البناء لم يكن يعدّ منارة على سابق عهده بل صار مرقباً لا يستخدم لغير ذلك . ولكن هذه القبة لم تبق مدّة طويلة ولما أن أزالها الريح أقيم في موضعها مسجد في مدة الملك الكامل . وقد حدث بعد مدّة ابن طولون ببضع سنين أن تهدَّمت إحدى قوائمها من جهة الغرب مما يلي البحر فبناها خمارويه[2]. وفي القرن الذي بعد ذلك لعشر من رمضان لعام ٣٤٤ للهجرة (وذلك يوافق الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ٩٥٥) للميلاد تهدّم نحو ثلاثين ذراعاً من قمتها في زلازل شديدة أحس بها الناس في كل بلاد مصر والشام وشمال أفريقيا ، وكانت لها هزات عنيفة بقيت تتوالى إلى نحو نصف ساعة[3] ، وفي عام ١١٨٢ ذكر ابن جبير[4] أنه رأى مسجداً آخر على رأسها ويقول ذلك الكاتب إن علوها كان نيفاً ومائة وخمسين ذراعاً وفي ذلك دلالة على مقدار نقصان البناء عما كان عليه في أول عهده . وبعد ذلك الوقت بنحو أربعين عاماً كتب ياقوت وصفاً للمنارة ورسم لها رسماً مربعاً « كالحصن» له طبقة ثانية قصيرة من فوقها قبة صغيرة . واستطرد من ذكر ذلك إلى أن قال : إن أخبار عظم تلك المنارة وما ورد من تعظيم شأنها لم تكن إلا « أكاذيب وأضاليل ». ولقد كان حكمه ذلك وليد التسرع ، فالظاهر أنه لم يفطن إلى ما أحدثه الدهر فيها من التغير . ولقد جاء في قوله « وبحثت عن موضع المرآة فلم أجد له أثراً ». وكيف يرجو أن يراها على مثل ذلك الطلل المتهدّم المشوّه وهو كل ما كان باقياً في وقت زيارته[5] . ولكن ما حدث بها من التلف بعد ذلك كان أعظم وأبلغ فقد وصفها كاتب عربي في أيام قلاوون بأنها

---

(١) عن مؤلف « مباهج الفكر » الذي نقل عنه السيوطي .

(٢) المسعودي .

(٣) قال المسعودي إن ذلك حدث عندما كان في الفسطاط .

(٤) نقله المقريزي .

(٥) يمكن أن تقرأ وصف ياقوت للمنارة في كتاب (Wustenfeld) (Geographisches Worterbuch) الجزء الأول صفحة ٢٨٦ وما بعدها .

« طلل بال »[1] ، مع أن السلطان (بيبرس) كان قـد رممها قبـل ذلك وأصلح منها . وقد سعى من جاء بعد ذلك في إصلاحهـا غير أنـه يلوح لنا أن الـزلزال الـذي وقع في عـام ١٣٧٥ دمر معـظمها فلم تبقَ منهـا إلا الطبقـة السفلى من البرج[2] .

ولئن ذهبت منارة (الفاروس) وتطاول على زوالها أمد الدهـر فقد بقيت منهـا هيئتها وجمـال منظرهـا ، وما كـانت مستعملة من أجله ، وذلك أن منـائر المساجد المصرية إنما رسمت على رسمها[3] ونسجت على منوالها وقد سميت باسمها . وإن منائر القاهرة وإن اختلفت أشكالها وتباينت رسومها لا تزال الكثرة منها على رسم منارة (سوستراتوس) لا فرق فيما بينها ، فهي برج قاعـدته عنـد الأرض مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مثمنة الأضلاع وتدق في حجمها ، ثم تدق بعد ذلك ويستدير شكلها ، ثم يعلوها عند القمة مصباح .

إن تاريخ آثار الإسكندرية لم يكتبه أحد بعد ، وإن مـن أراد كتابتِه لا بد له من بحث كثير لا يتيسر اليوم في كثير من المواضع ، وهو بحث لا غنى عنه في إثبات ما يراد إثباته . على أن وصفنا الذي نصفه الآن على ما فيه من نقص قـد

---

(١) عن ابن فضل الله وقد نقله عنه السيوطي .

(٢) لا يكاد يوجـد شك في أن قلعـة فاروس (الفنـار) التي تهدمت عنـد رمي القنابـل على الإسكندرية هي في موضع المنارة القديمة ويظهر أن بعض أجزائها قديمة ، ولكن يلوح أن علماء الآثار القديمة لم يفحصوا هذا الموضع فحصاً جدياً ليعرفـوا رسم ما يستحق الرسم وحفظه ، ويزعم المستر (Kay) الكـاتب الأمريكي أنـه قد كشف آثـار الأساس الأصلي تحت جدران الحصن الموجود الذي بناه قايتباي (حوالي سنـة ١٤٨٠) (The American Architect And Building News) الجزء الحادي عشر صفحة ١٠١ ـ ٢ الصادرة في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، ولكن سواء يجعلون الموضع في شرق الحصن في مكان يغطيه البحر اليوم .

(٣) قد عالجنا هذه النظرية في الـ (Athenaeum) ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٠ ولا نزال على رأينا في ذلك ، أما من حيث الاسم فلفظ المنارة لا يستخدم الآن للمئذنة ولكنه كان يستخدم في الأصل لذلك الغرض كما أخبرني الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية .

يفيده في بيان ما وقعت عليه أنظار العرب من تلك الآثار عند أول دخولهم في المدينة .

ولم يكن مظهر العاصمة من خارجها بأقل أثراً أو أحقر منظراً فكانت الأسوار في شمال المدينة تساير الشاطىء في إنحنائه كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وكانت الأسوار في جنوبها تتبع الترعة حتى تدخل إلى المدينة وتجري فيها ، وكان كل ذلك بناء متيناً بارع الصناعة تنهض فيه بروج وحصون ، فتجعل له هيئة منوّعة ظلت يعجب بحسنها السفار الذين كانوا يرونها في السنين الغابرة من أيام الفتح حتى العصور الوسطى[1] .

---

(١) يخطىء جل الرسوم التي تمثل الإسكندرية القديمة ، إذ تجعل فضاء عظيماً بين الأسوار والترعة وهذا الخطأ قد دل عليه الدليل القاطع : أولاً بشهادة حنا النقيوسي في وصف القتال بين (نيقتاس) و (بونوسوس) وقد أوردنا ذلك في الأبواب الأولى من كتابنا هذا . وثانياً بأن (أركولفوس) قد ذكر ذلك الأمر ذكراً صريحاً إذ يقول : « وتحيط بالمدينة دائرة عظيمة من الأسوار تحصنها البروج الكثيرة المقامة على شاطىء النهر ومنحنى ساحل البحر » (الكتاب المذكور صفحة ٥٢) ثم قال في موضع آخر « ويحيط بها من الجنوب مصبات نهر النيل ويحف بها من الشمال البحر ، وعلى هذا فهي من كلا الجانبين يحيط بها الماء » (نفس الكتاب صفحة ٤٩) ولا شك أننا عالمون أن المدينة قد ضاقت رقعتها وضاقت بضيقها دائرة أسوارها ، فلم تكن الأسوار التي تحيط بها في العصور الوسطى هي التي كانت تحيط بها في أول أيامها (أنظر كتاب H, de Vaujany) « Recherches sur les anciens Monuments situés sur le Grand Port d'Alexandrie » صفحة ٧٤ و ٨٤ (الإسكندرية ١٨٨٨) ولكن الشكل العام لتلك الأسوار كان في أغلب الظن لا يزال على عهده وقد كان لها بغير شك أثر عظيم في نفوس السفار حتى بعد الفتح بسبعة قرون أو ثمانية ففي سنة ١٣٥٠ كتب (Ludolph Von Suchem) يقول « والإسكندرية اليوم أول مدينة بحرية في مصر ومن أعظم مدائن السلطان فهي من جانب على نهر النيل نهر جنة الفردوس إذ يصب في البحر وهي من الجانب الآخر على البحر وهذه المدينة الجميلة منيعة تحيط بها الأسوار العالية والصروح الباسقة التي يخالها الرائي أمنع من أن ينالها نائل . . . ولا تزال بها إلى اليوم كنيسة عظيمة بديعة البناء لم ينقص منها شيء وقد حلتها النقوش المختلفة من الفسيفساء والرخام والحق أن الإسكندرية لا يزال بها كنائس أخرى كثيرة فيها أجساد من القديسين «Description of the Holy Land » . tr, by Au- =

....

= (brey Stewart (صفحة ٥٤ ـ ٤٦ لندن ١٨٩٥) وكذلك يذكر (Breydenbach) حوالي سنة ١٤٨٦ أنه رأى « مدينة الإسكندرية العظيمة يحيط بها البحر الأعظم من جانب والحدائق اليانعة من الجانب الآخر » . ثم قال بعد ذلك إن كثيرين من زملائه السفار صعدوا على السور الخارجي ورأوا دائرة الحصون والخنادق ثم وافقوا على رأيه « وأنهم لم يروا مدينة أبدع منها ولا أحصن لما بها من الآطام والأسوار العالية والبروج الشاهقة » ولكنهم لم يروا في داخلها سوى الخراب والدمار اللهم إلا كنائس قليلة (Descriptio Terrae Sanctae) صفحة ١٠٢ ويمكن أن ترى رسماً للإسكندرية القديمة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وتاريخها سنة ١٦٠٠ وهي تمثل دائرة تامة من الأسوار وتكون الأسوار في بعض المواضع مزدوجة ولكنه رسم غير دقيق بغير مقياس ولا تناسب وخير منه رسم (D'Anville) عند صفحة ٥٢ من كتابه (Memoires sur L'egypte) وبه رسم الأسوار القديمة والجديدة معاً وتجد رسماً تقريبياً في كتاب Janssonius وهو « Theatrum Urbium » الجزء الرابع (Ams, n, d,) وتجد في كتاب Wheite « Aegyptiaea » (1801 Oxon) رسماً وطائفة عظيمة من الأخبار وكذلك في كتاب (Porthey) «Alexandrinisches Museum » (برلين سنة ١٨٣٨) وأكثر دوائر المعارف تورد بعض الرسوم كما يفعل كتاب Tozer « Selections from Strabo » وكل هذه الرسوم صغيرة وأكثرها يسلم بأمور ليست من المسلم بها وأما الرسم الذي في كتاب Matter « Ecole d'Alexandrie » فإنه أكبر قليلاً ولكنه غير دقيق وناقص في التفاصيل وقد أورد كذلك (Neroutsos Bey) في كتابه (L'ancienne Alex,) رسماً على مقياس أكبر ولعله خير الرسوم على أنه في بعض المواضع يظهر كأنه لا يفرق بين الأسوار البيزنطية والأسوار العربية ولا شك أنه مخطىء في جعل كنيسة القديس مرقص والترابيليس في جنوب القيصريون ولكنه أحسن في تصوير المواني‌ء التي على الترعة ونجد في المتحف الحديث بالإسكندرية رسماً للمدينة قديماً وحديثاً على مقياس كبير جداً ولا شك أن البحوث القائمة في الوقت الحالي ستكشف بعد قليل عن رسم المدينة القديم ولكن انخفاض الأرض في كل مساحة الإسكندرية القديمة وإغارة البحر عليها يجعلان إعادة الرسم من أشق الأمور أنظر مقال الدكتور (Hogarth) عن أبحاثه الحفرية في (Eg. Eplor. Fund Report) سنة ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ .

الفصل الخامس والعشرون

مكتبة الاسكندرية

القول في أن العرب أحرقوها ـ قصة أبو الفرج ـ الأدلة المأخوذة من القصة نفسها والتي تنقض هذا الزعم ـ لم يكن (حنا فليبونوس) حياً عند فتح العرب ـ هل كانت المكتبة موجودة عند ذلك ـ المكتبة الأولى الملحقة بالمتحف ـ لعلها أحرقت في أيام يوليوس قيصر ـ المكتبة التي أتت من (برجاموس) المكتبة الصغرى في السرابيوم ـ تخريب معبد السرابيوم ـ مدى ذلك التخريب عن المصادر المختلفة ـ ملحقات المكتبة وتدميرها ـ ماذا آل إليه أمر المكتبة ـ إغفال الكتاب ذكر ذلك مدة قرنين ـ أثر معاهدة الإسكندرية في ذلك الأمر ـ إغفال الكتاب بعد الفتح ذكر ذلك ـ ملخص المسألة والخاتمة التي يوصل إليها البحث.

لقد كثر الجدل في أمر مكتبة الإسكندرية العظمى وطالما احتدم الخلاف في شأن إحراقها ، وهل كان للعرب يد في ذلك عند فتحهم للمدينة ، أم أنهم لم يقارفوا شيئاً من ذلك. وما دام أهل البحث والعلم لا يزالون على اختلاف في ذلك الأمر ولم يهتدوا إلى كلمة فصل فيه فلا بد لنا في كتابنا هذا أن نعالجه ، إذ لا يستطيع أن نغفله في كتاب جعلناه لمعالجة تاريخ فتح العرب لتلك البلاد .

والقصة كما أوردها أبو الفرج[1] كما يلي : قد كان في ذلك الوقت رجل

(١) طبعة (Pococke) صفحة ١١٤ في الترجمة ٢ صفحة ١٨٠ في الأصل . ويروي (Renaudot) أن القصة فيها عنصر من عناصر عدم الثقة وقد ناقشها جبون بشيء من =

اشتهر بين المسلمين اسمه (حنا الأجرومي) وكان من أهل الإسكندرية ، وظاهر من وصفه أنه كان من قسوس القبط . ولكنه أخرج من عمله إذ نسب إليه زيغ في عقيدته ، وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد في حصن بابليون . وقد أدرك ذلك الرجل فتح العرب للإسكندرية واتصل بعمرو ، فلقي عنده حظوة لما توسم فيه من الذكاء بصفاء ذهنه وقوة عقله ، وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم . فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الإقبال قال له يوماً : « لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف ، ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به بل شيئاً لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » .

فقال له عمرو : « وماذا تعني بقولك » فقال: « أعني بقولي ما في خزائن الروم من كتب الحكمة » فقال له عمرو : « إن ذلك أمر ليس لي أن اقتطع فيه رأياً دون إذن الخليفة ». ثم أرسل كتاباً إلى عمر يسأله في الأمر فأجابه عمر قائلاً : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأحرقها » . فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات للأسكندرية لتوقد بها فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر ». ثم قال المؤلف : « فاسمع وتعجب ».

هذه هي القصة كما جاءت في اللغة العربية وقد كتب أبو الفرج ما كتبه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، ولم يذكر المورد الذي نقل عنه قصته ، ثم نقله عنه أبو الفداء في أوائل القرن الرابع عشر ، ثم المقريزي[1]

= الإيجاز ثم رفضها ولم يترجم (Pococke) إلا المختصر العربي لأبي الفرج . وفي عدد أكتوبر سنة ١٨٩٤ من مجلة القرن العشرين مقالة عن الموضوع بقلم (Vasudeva Rau) وهو يقول (صفحة ٥٦٠) أن القصة ليست في الأصل السرياني ولعلها أدخلت فيما بعد . وأما المختصر فقد كتبه أبو الفرج نفسه وليست فكرة الإدخال إلا محض ظن ولو ثبت ذلك لما كان أمراً هاماً وقد بنيت هذه المقالة على حجج سلم بها جدلاً ولم تبن على بحث ولذلك ليست ذات قيمة كبرى .

(١) هذا المؤلف مثل عبد اللطيف يذكر الخبر تلميحاً ويسلم به جدلاً فعندما ذكر السرابيوم قال « ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاليس الذي كان =

بعد ذلك . حقاً قد ذكر عبد اللطيف (وقد كتب حوالي سنة ١٢٠٠) إحراق مكتبة الإسكندرية بأمر عمرو ، لكنه لم يفصل في ذكر ذلك ويلوح أنه روى ذلك الخبر مصدّقاً ، وهذا يدل على أن تلك القصة كانت متداولة في أيامه . ولكن لم يردها ذكر مكتوب قبل مضى خمسة قرون ونصف قرن على فتح الإسكندرية ، ويمنع من تصديقها إغفال كل الكتاب لذكرها من (حنا النقيوسي) إلى (أبي صالح) . ولعل قائلاً يقول إنها ظلت تلك القرون تتناقلها الألسُن وإن هذا الرأي يعززه أن القبط لا تزال بينهم تلك القصة يتناقلونها مع بعض خلاف فيها، إذ يجعلون مدة الإيقاد بالكتب سبعين يوماً بدلاً من ستة شهور . ولكن ليس من دليل يدل على أن أصل هذه الرواية أقدم من أيام أبي الفرج . ومعنى ذلك بقول آخر أن هذه القصة وإن كانت متداولة بين الناس تكون أخذت عن كتاب القرون الوسطى . فتداولها لا يمكن أن يكون دليلاً على شيء ، كما أنه لا يمكن أن ينقض شيئاً . ولكن الشك الذي يحيط بتلك القصة يجعلها غير وثيقة في الدلالة ولا كافية بذاتها في البرهان.

إذن علينا أن نفحص القصة كما وردت ، فهي بلا شك قصة خلابة المظهر . وإن رد عمر على كتاب ابن العاص أشبه القول بما اعتاده أهل الشرق في ردودهم . وهذا التشابه في الأسلوب هو أقوى ما تعزز به القصة . ولكن من سوء الحظ أنه قد ورد عن عمر مثل هذا الرد في شأن إحراق كتب الفرس[1] ، وهذا نظير قصة أخرى تذكر عن عمرو إذ وقع في الأسر ثم أنجاه مولاه وردان بضربة على وجهه كانت سبباً في خلاصه من الموت إذا هو انكشف أمره، فأخذت

= يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه » (الخطط الجزء الأول صفحة ١٥٩) .

(١) أنظر طبعة الأستاذ (Bury) لكتاب جبون الجزء الخامس صفحة ٤٥٤ حيث أخذت الرواية عن الحاج خليفة عن ابن خلدون ويصح لنا أن نضيف إلى ذلك أن شعور المسلمين نحو كتب الفرس الوثنيين لا بد يخالف شعورهم نحو كتب المسيحيين فقد كان المسلمون على الأقل في أول أيامهم يكرهون إتلاف ما كتب عليه اسم الله .

تلك القصة من موضعها ونقلها الكُتَّاب المسلمون إلى وقت حصار الإسكندرية. فلعل قصة المكتبة تكون كذلك قد عزيت إلى الإسكندرية مع أنها قد تكون في أصلها قائمة على حادثة أخرى وقعت وقد يكون عمر عناها بذلك القول وقضى فيها بذلك القضاء الشديد. ولكن في القصة مواضع أخرى لا تثبت إذا حملنا عليها بالنقد، وذلك أننا لو سلمنا أن المكتبة قد أحرقت كما قيل، لكان الأقرب إلى الأذهان أن تحرق فوق ربوة القلعة، ولكن القصة تريدنا على أن نقول إن تلك المكتبة قد كلفت الناس مشقة حملها في عيب ليفرقها بين الحمامات العدّة، لتتخذ وقوداً مدّة ستة أشهر. وما كل ذلك سوى نسيج من الباطل، فإن تلك الكتب إذا كان قد قضي عليها بالحرق لأحرقت حيث هي، وما كان عمرو بن العاص وقد أبى أن يعطيها لصديقه (فليبونوس) ليجعلها في أيدي أصحاب الحمامات في المدينة، فإنه لو فعل ذلك لاستطاع (حنا فليبونوس) أو سواه من الناس أن يستنفذوا عدداً عظيماً منها بثمن بخس في تلك الشهور الستة التي قيل إنها جعلت وقوداً للحمامات فيها. وبعد فَمِمَّا لا شك فيه أن كثيراً من الكتب في مصر في القرن السابع كانت من الرق[1]، وهو لا يصلح للوقود، وما كان أمر الخليفة ليجعله يصلح لذلك. فلنسائل إذن أنفسنا ماذا كان من أمر تلك الكتب المخطوطة على الرق. وإذا نحن استبعدناها فكيف يتصوّر أحد أن ما يبقى من سواها يكفي لوقود أربعة آلاف حمام[2] مدة مائة وثمانين يوماً. إن إيراد القصة على هذه الصورة مضحك، وإنه ليحق لنا أن نسمع ما فيها ونعجب.

---

(١) قد أظهر الدكتوران «غرنفل» و«هنت» أن استعمال ورق البردى في الكتب كان لا يزال متبعاً ما دامت اللغة اليونانية تكتب في مصر وذلك عكس ما يذهب إليه الرأي الشائع - على أن الرق كان يفضل عليه ولا سيما عند القبط (أنظر مجموعة بردى (Oxyrhynchus) الجزء الثاني صفحة ٣٠٢ ومع ذلك فقد كان أكثر الكتب القديمة التي كانت في مكتبة السرابيوم مكتوباً على الرق.

(٢) قد سبق لنا أن بينا في هامش صفحة ٣٨٦ أن هذا العدد الذي ذكره مؤرخو المسلمين لا شك مبالغ فيه ولكنا مهما قللنا منه فإن عبارة أبي الفرج لا يمكن أن تحتمل التمحيص الحسابي البسيط.

وقد يقول قائل إن هذه الشبهات الصغيرة ليس من العدل أن يؤخذ بها وإننا إذا أنعمنا النظر في الأمر واستقصينا ما ذكر عنه وفحصناه فحصاً دقيقاً لم نجد مندوحة من الإنتهاء إلى أن حريق المكتبة أمر صحيح على وجه الإجمال . ولا يسعنا مع مثل هذا القول إلا أن ندع القصة ونقدها في ذاتها ونلتمس دليلاً مما هو خارج عنها لنرى هل يعززها في الجملة أو ينقضها . ولا بد لنا من النظر في أمرين نرى لهما شأناً عظيماً فيما نحن بصدده ، أولهما هل كان (حنا فليبونوس)[1] على قيد الحياة في وقت فتح العرب. وثانيهما هل كانت المكتبة باقية إلى ذلك الوقت. فأما الأمر الأول فإنه أمر مقرر لا يكاد يكون فيه شك . فإن حنا لم يكن حياً في عام ٦٤٢، ولا حاجة بي إلى سرد كل ما يؤيد هذا الرأي ، فمن المعروف أن حنا كان يكتب في عام[2] ٥٤٠ ولعله كان يكتب قبل تملك جستنيان أي قبل عام ٥٢٧ ، وقد يكون أدرك القرن السابع وعاش بضع سنين في أوله . وأما لو قلنا إنه عاش إلى عام ٦٤٢ فإن سنه لا تكون عند ذلك أقل من مائة وعشرين عاماً . فمن الجلي على ذلك أن يكون (حنا فليبونوس) قد مات منذ ثلاثين أو أربعين عاماً قبل أن يدخل عمرو في الإسكندرية .

---

(١) جاء اسم حنا في القصة العربية (جراما تيكوس) وقد عرب أبو الفرج ذلك الاسم بنصه ولا شك أن المقصود هو (فليبونوس) انظر مثلاً (نيقفوروس كاليستوس) إذ يقول « الكاتب حنا الذي يدعى فليبونوس » (٤٤*) (٤٥ XVIII) .

(٢) قد سبقت لنا الإشارة إلى (Nauck) بهذه المناسبة ولكن الحقائق مبينة بياناً أوضح وأقرب إلى التناول في كتاب « Dict. Christ. Biog. » Johannes Philoponus S. V. والبرهان قاطع على أن حياة حنا كانت في القرن السادس إن لم تكن قد انتهت في أثنائه وذلك على رغم الوثيقة المشكوك فيها التي أخذ عنها جبون نقلاً عن Fabricius على أنها مؤرخة في سنة ٦١٨ وعلى رغم العبارة التي تعزى إلى نيقفوروس ومعناها أن حنا كان يعيش في وقت (جورج البيسيدي) في حكم هرقل فإن نيقفوروس المذكور إنما هو كاليستوس الذي كتب في القرن الرابع عشر ولم يكن حجة فيما يكتب ولكنا نعترف أن الناقل عنه قد أخطأ في النقل على ما يظهر . ويلوح أن ما جاء فيه ينقض قول من يقول إن فليبونوس كان حياً في سنة ٦٤٢ فإن حنا يقرن بذكره Severus, Gaius, Dioscorus. =

وأما المكتبة ذاتها ووجودها عند الفتح ، فبحث شائق ومن أشق الأمور الانتهاء إلى قول فيه . فإن أول مكتبة كانت بالإسكندرية هي المكتبة الشهيرة ، وكانت في حي البروكيون كما هو معلوم . ولئن كان إنشاء هذه المكتبة العظمى التي اجتمعت فيها أجل مؤلفات العالم يرجع الفضل فيه إلى (بطليموس سوتر) ، فإنها لم تتحقق ولم يتم تجهيزها ويكمل نظامها إلا على يد خلفه (بطليموس فلادلفوس) . والظاهر أنها كانت في جزء من مجموعة الأبنية الفخمة التي كانت تعرف بالمتحف[1] . وقد قال (سترابو) عن ذلك المتحف إنه كان في جوار قصور الملك العظيمة التي كان بناؤها على ربع مساحة المدينة . وكان بناء المكتبة له بهو عظيم في وسطه من حوله عمد مصفوفة تحيط به ، وأفنية ذات آزاج . وكانت هذه الأبنية تتصل بسواها مما كان فيه مدرسة الطب والتشريح والجراحة ومدرسة الرياضيات والفلك ومدرسة القانون والفلسفة ، وكان يتصل بالبناء بستان كبير وحديقة لعلم النبات ومرصد[2] . وفي ذلك كما ترى جهاز

= الانطاكي ويقول إنهم جميعاً كانوا يكتبون ضد مجمع خلقيدونية وإنهم كانوا غالبين حتى « ولِي جستنيان الملك سنة ٥٢٧ ميلادية » وعند ذلك حمل هؤلاء القادة في الإلحاد مذاهبهم إلى الجحور والأركان Hist XVIII ٤٥ في Part. Gr. 147 Migne صفحة ٤٢٢) وفوق ذلك قد وصف حنا بأنه (نبه ذكره في أثناء الحكم الحاضر) (٤٥*) وهذا النص يدل على أن المقصود هو حكم جستنيان وليس هرقل ولم يقل أحد أن حنا كان معاصر الجورج البيسيدي فقد قرأنا العبارة فإذا هي تفيد أن جورج كان يعيش في وقت حياة (Laontius Monachus) وكان أصغر منه بكثير والظاهر أن (ليونتيوس) مات في أوائل القرن السابع فإن ديوانه الذي أثبت فيه أسماء بطارقة الإسكندرية انتهى عند ذكر (Eulogius) سنة ٦٠٧ ويفهم مما كتبه (ليونتيوس) أن حنا فليبونوس كان قد مات عندما كان يكتب كتابه (ميني الجزء ٨٦ المجموعة ١١٨٧) وقد عالج (Matter) هذا الموضوع وهو تعيين التاريخ الذي كان فليبونوس يعيش فيه ولكن بحثه غير واف « Ecole d'alex. » الجزء الأول صفحة ٣٣٩) .

(١) الأستاذ (Mahaffy) يشك في هذه المسألة وإذا شئت معرفة أسباب ذلك فارجع إلى كتاب (Emp. of the Ptolomies) صفحة ٩٨ .

(٢) أنظر مقالاً شائقاً عنوانه « مكتبة البطالسة » لنوريسون بك والعبارة المقصودة في النص في=

جامعة من أكبر الجامعات . ولسنا نستطيع أن نعين على وجه الدقة الموضع الذي كانت فيه المكتبة ولا هيئة بناء المتحف ، بل قد اختلف العلماء في تعيين موضع ذلك المتحف . ومن المؤلم أن سترابو لا يذكر شيئاً عن المكتبة ، فإنه لو ذكر عنها شيئاً لكان دليله قاطعاً في هذه المسألة ، ولعرفنا الحقيقة عما رواه بعض المؤرخين القدماء من ضياع المكتبة في حريق سنة ٤٨ للميلاد أي قبل زيارته ببضع سنين . فقد كان قيصر عند ذلك محصوراً في حي البروكيون يحيط به المصريون من كل جانب وعليهم قائدهم (أخيلاس)، فأحرق السفن التي في الميناء وقيل إن النار امتدت من هناك وأحرقت المكتبة فأفنتها . أما قيصر نفسه - وذلك إذا كان هو كاتب وصف ذلك الحادث - فإنه لا يشير إلى شيء من أمر نكبة كهذه ، بل إنه يقول إن الإسكندرية لا تكاد النيران تسري فيها[1] إذ كان بناؤها لا خشب فيه ، بل كان قائماً على عقود وآزاج ، وسقوفه من الحجر والبلاط المتجمد[2] . وإن إشارة مثل هذه لا يكون القصد منها إلا التضليل والإيهام إذا

= صفحة ٨ ولكن الواجب علينا الإعتراف بما للكاتب علينا من فضل في مواضع كثيرة وقد أخذنا عن مراجع أخرى غير كتاب (Parthey) « Alexandrinisches Museum. » وكتاب (Ritschi) Alexandrinisches Bibliotheken in Opuscula 1866,) وتلك المراجع هي كتاب (Alexandrinisches Museum) (Weniger) سنة ١٨٧٥ وكتاب « History of Greece » الجزء الرابع وكتاب « Geschischte der Griechischen litteratur in der Alexanderzeit » (Susemihl) (سنة ١٨٩١ - ٢) وقد دحض جستاف لوبون في كتابه (La Givilisation des Arabes) (باريس سنة ١٨٨٤) قصة إحراق مكتبة الإسكندرية ولكن كتابه أقرب إلى أن يكون للقارىء العام وليس بحثاً علمياً قيماً . وأما كتاب (Histoire Générale des Arabes) (Sedillot) الطبعة الثانية بباريس سنة ١٨٧٧) فقد شك في هذا الخبر ولكنه لم يفحصه فحصاً دقيقاً وهو يشير إلى مجلة (La Revue Scientifique de la France) (٢٩ يونيه سنة ١٨٧٥ رقم ٥١ صفحة ١٢٠٠ وما بعدها) لمقال جاء فيها عن هذا الموضوع ولكنا لم نستطع الاطلاع عليه .

(١) إذا كان كاتب مقال (De Bello Alexandrino) هو (Asinius Pollio) كما يزعم الكتاب المحدثون سهل علينا أن نفهم السبب الذي نشأ عنه إغفال ذكر هذا الحادث .

(٢) أنظر (De Bello Civil IV ad init) ولكنه بعد ذلك بقليل ذكر أن المصريين عندما هزموا =

كان الكاتب يداري في أمره ويتستر على أنه شهد إحراق مكتبة الإسكندرية ، وأنه كان السبب في إحراقها . وإنه من أشق الأمور أن ننتهي إلى نهاية في أمر قيصر فنتهمه أو نبرئه . أما (بلوتارك) فلم يكن به شك في الأمر إذ قال « ولما رأى أسطوله يقع في يد عدوّه اضطر أن يدفع الخطر بالحريق فامتدت النار من المراسي في الميناء فأحرقت المكتبة»[1]. وواضح أن سنيكا قد صدق هذه القصة إذ قال: «لقد أُحرقت في الإسكندرية أربعمائة ألف كتاب»[2]. وما أغرب ما قاله (ديوكاسيوس)[3] إذ قال « وامتدت النيران إلى ما وراء المراسي بالميناء فقضت

= في البحر هزيمة عظيمة أعدوا كل سفنهم القديمة التي أمكنهم أن يجمعوها وجاءوا كذلك بسفن الحراسة في النيل وكان ينقص تلك السفن مجاديف فلجأ المصريون إلى « تجريد الأروقة والمدرسة والمباني العامة من سقوفها كي يحصلوا على الخشب لعمل المجاديف » وهذا التناقض في الخبر يستحق الالتفات وفوق ذلك قد ذكر حنا النقيوسي أن دقلد يانوس أحرق المدينة « وأسلمها للنار كلها » صفحة ٤١٧ ووصف (Orsius) نصر دقلد يانوس بقوله « وأسلم المدينة للتخريب » وهو قول يعادل قول حنا في القوة وإن كان لم يذكر النار (Hist. VII 25. 8) وقد أرسل قسطنطين (Eulogius) أخا الشهيد مقاريوس الأنطاكي وأرسل معه جيشاً إلى الإسكندرية « فأحرق كل معابد الإسكندرية ودمرها واستصفى أملاكها » أنظر كتاب (Actes des Martyres) (Hyvernat) صفحة ٧٤ وهذه الأمثلة تدل على أن رأى قيصر مخطىء أو مبالغ فيه .

(١) أنظر (.Plut) (قيصر) صفحة ٤٩ « ولما انكسر الأسطول اضطر إلى درء الخطر بالنار فأحرق المكتبة الكبرى بأن اتصلت النار بها من الموضع الذي كانت فيه سفن الأسطول » (٤٦*) .

(٢) اقتبس الأستاذ (Mahaffy) ما كتبه (سنيكا) يسخر من ليفي ويظهر من قوله أنه يسلم برأي سنيكا إذ يقول إن تلك الكتب كانت تقدر لأنها تزين بهو الأكل أكثر من تقديرها لأنها تعمل على تقدم العلم (Emp. of The Ptolomies) صفحة ٩٩ ولعلنا نفضل رأي جبون إذ يقول « وقد سمي ليفي تلك المكتبة زينة الملك » . وهذا مدح عظيم انتقده عليه سنيكا نقداً فاحشاً لما كان متصفاً به من التشدد في مذهب الرواقيين الذين لا يعبأون بشيء يسر ولا يحزنون لشيء يؤلم (الفصل ٥١) .

(٣) XIII صفحة ٣٨ « وقد جعل طعمة للنار كما يقولون مخازن القمح ومخازن الكتب وفيها الكثير والمختار » (٤٧*) ويمكننا أن نفهم معنى قولهم « مخازن القمح » ولكن ما معنى =

على أنبار القمح ومخازن الكتب ». وقيل إن هذه الكتب كانت كثيرة العدد عظيمة القيمة » وليس بنا من شك فيما كان معروفاً بين الناس في القرن الرابع ، فإن قول (اميانوس مرسلينوس)[1] واضح جلي إذ وصف «مكاتب الإسكندرية التي لا تقوم بثمن والتي اتفق الكتاب الأقدمون على أنها كانت تحوي سبعمائة ألف كتاب بذل في جمعها البطالسة جهداً كبيراً ولقوا في سبيل ذلك عناء كبيراً وقد أحرقتها النيران في حرب الإسكندرية عندما غزاها قيصر وخربها ». وقد كتب (أورسيوس) ما يعزز هذا القول وذلك حيث يقول « وفي أثناء النضال أمر بإحراق أسطول الملك وكان عند ذلك راسياً على الشاطىء فامتدّت النيران إلى جزء من المدينة وأحرقت فيها أربعمائة ألف كتاب كانت في بناء قريب من الحريق . فضاعت خزانة أدبية عجيبة مما خلفه آباؤنا الذين جمعوا هذه المجموعة الجليلة من مؤلفات النابغين »[2]. وخلاصة القول إننا نرى الأقرب

= « مخازن الكتب » إذ لا يمكننا أن نتصور كوماً من الكتب القيمة في بعض المخازن على استعداد للتصدير ولا أن مخازن الكتب تكون بين ما يوجد عادة على المرسى كسائر معدات التجارة وإن الفرق في اليونانية بين قولهم « مخازن الكتب » (٤٨*) وقولهم « المكتبة » (٤٩*) لأقل مما هو في الانجليزية بين لفظ « مخزن الكتب » ولفظ « المكتبة » .

(١) XXII صفحة ١٦ ؛ ويذكر (Aulus Gellius) نفس هذا العدد للكتب ولكن التقدير يختلف وذكر (Epiphanius) أن العدد هو ٥٤٨٠٠ وقد كتب أيضاً في القرن الرابع أنظر كتاب (Parthey) (Alexandrinisches Museum) صفحة ٧٧ والحقيقة أنه لم تكن هناك مكتبة واحدة بل مكاتب عدة وقد ورد في (Ammianus) عبارة « مكاتب كثيرة » وهذه العبارة تفسر السبب في اختلاف التقدير وقد ذكر (Susemihl) أن عدد الكتب في أيام (Callimachus) كان ٤٢٨٠٠ في المكتبة الخارجية (وقد قيل إنها هي مكتبة السرابيوم وهذا على ما نظن قول مشكوك فيه) في حين أن المكتبة الملكية كانت تحوي ٤٠٠٠٠٠ كتاب أو لفافة من ذات أجزاء ، ٩٠٠٠٠ من ذات الجزء الواحد . (Geschrchte der Griechischen litteratur in der Alex. Zeit.) الجزء الأول صفحة ٣٤٢ وما كتبه (Susemihl) ان ترتيب المكتبة العام يستحق العناية (صفحة ٣٣٦ وما بعدها) .

(٢) « وفي نفس الوقعة أصدر الأمر بإحراق الأسطول الملكي إحراقاً تاماً فلما اتصل اللهب =

إلى العقل أن نصدّق ما جاء من أخبار ضياع المكتبة في حريق الإسكندرية على يد قيصر لا أن نكذبها .

ولكن بعد سبع سنوات أو ثمان من ذلك الحادث الذي وقع لقيصر أرسل (مارك أنطون) إلى الإسكندرية[1] مكتبة ملوك (برجاموس) ، ولا نقدر على البت في موضع هذه الكتب أكان المتحف لا يزال صالحاً لأن يكون لها مقراً ، أم وضعت في السرابيوم ، فكان ذلك منشأ مكتبة السرابيوم المتأخرة ، فإن هذا الأمر لا يزال موضع الخلاف والبحث بين العلماء[2] . وإنا نرى الأقرب إلى الصواب تكذيب هذين الرأيين كليهما . فقد رأينا فيما سلف أن المعبد الكبير معبد القيصريون كان من بناء كليوبتره أنشأته تكريماً لقيصر[3] ، وأن «أغسطس» أتمه بعد ذلك . وذكر أنه كان من أجل ما يحليه مجموعة كتبه . فإذا كانت مكتبة

= بالمدينة في بعض الجهات أحرقت أربعمائة ألف كتاب اتفق وجودها في الأبنية المجاورة فأحرقت بذلك أثار الدرس ونتائج التعب المتواصل الذي بذله من قضوا تلك المدة الطويلة في جمع هذه المؤلفات الشهيرة العظيمة » . (Hrst. VI 15. 31) والظاهر أن (Orsius) كان أمامه أحد شيئين : إما ما كتبه ليفي ، وإما قول سنيكا . وعبارة (Proximis forte Aedibus Condita) معناها (وكانت بالصدفة في أبنية مجاورة) فيظهر منها عند أول نظرة أنها تعزز قول بعض النقاد الذين يزعمون أن هذه الكتب اتفق عند ذلك وجودها في مخزن قريب من الشاطىء وإن عدم احتمال مثل هذا الأمر وحده يكاد يكون كافياً لدحض هذا الرأي ولا يفيد لفظ (Condita) معنى (مخزن) مؤقت من ذلك النوع . وإن الصعوبة لا تلبث أن تزول إذا نحن جعلنا لفظ (forte) وصفاً للفظ (Proximis) وهذا ما ذهبنا إليه في ترجمتنا وفي نفس الوقت يلوح لنا أن (Orsius) ، و (Dio Cassius) كلاهما كانا ينقلان عن أصل واحد غير واضح العبارة .

(١) جاء في كتاب (بلوتارك) « حياة أنطون » أن أنطون أهدى إلى كليوبترة المكاتب التي كانت في (برجاموس) وكانت تحوي ٢٠٠,٠٠٠ لفة من ذات الجزء الواحد .

(٢) يرى (Susemihl) أنه من المحتمل أن مجموعة (برجاموس) كانت مخزونة في أروقة معبد (Athene Polias) (الكتاب المذكور الجزء الثاني صفحة ٦٦٦) ولكن أين كان ذلك ؟

(٣) ذكر ذلك (Pilo Judaeus) انظر ما سبق في صفحة ٣٩٢ - ٣٩٣ .

المتحف قد أحرقت ، كان أقرب الأمور إلى العقل أن يجعل معبد القيصريون مقراً لمكتبة (برجاموس) وإن لم يكن مقراً لجميعها فلا أقل من أن يجعل جزء منها فيه ، ولعل ما يبقى بعد ذلك يجعل في معبد السرابيوم .

ومهما يكن من ذلك الأمر فإن أمرين يكاد أن لا يكون شك فيهما : أولهما أن جزءاً من بناء المتحف كان لا يزال باقياً صالحاً إلى أيام (كراكلا) الذي أسال الدماء في المدينة أنهاراً ، وأقفل الملاهي بها ، وأمر بمنع الناس من الذهاب إلى (السيسيتيا) وهي القاعة العامة في المتحف ، وكان ذلك في عام ٢١٦ للميلاد . وثاني الأمرين أنه في أوائل التاريخ المسيحي أنشئت مكتبة كبرى بدل مكتبة المتحف التي ضاعت ، وجعلت في معبد السرابيوم على قلعة (الأكروبوليس). وقيل إن أورليان هدم أبنية المتحف وسواها بالأرض[1] في عام ٢٧٣ ، وذلك عندما أوقع بحي البروكيون فخرّبه انتقاماً من أهل الإسكندرية على ثورتهم مع (فيرموس). وهرب عند ذلك أعضاء المتحف الذين كانوا ينتسبون إليه فلجأوا إلى السرابيوم ، أو خرجوا في البحر فراراً . وكانت مكتبة السرابيوم تعرف «بالمكتبة الصغرى » أو «المكتبة الوليدة»[2]، ولكنا لا نستطيع أن نعين تاريخاً لنهاية « المكتبة الأم »[3] ، ولا لابتداء « المكتبة الوليدة ». على أنه قيل في الأخيرة إن الذي أنشأها (بطليموس فلادلفوس). ولكن هذا أمر

---

(١) ولكن (Eusebius) ينسب تدمير حي البروكيون إلى كلوديان وقد يكون على حق . أنظر التعليق في صفحة ٤١٥ من الجزء الثاني من كتاب Heinechen « Eusebuis » .

(٢) أنظر كتاب Epiphanius « De Pond et Mens » الجزء XII وكان ابيفانيوس أسقفاً . ولمعرفة عصره أنظر صفحة ٣٥٥ هامش ٣ .

(٣) نرى أنفسنا مضطرين إلى إيراد رأي الدكتور (Botti) وهو « بعد سبتيموس سفيروس لم يصبح محل لقول شيء عن المكتبة الكبرى فإن المتحف القديم صار لا وجود له من بعد أيام (كراكلا) ولكن الكلوديوم بقي ثابتاً إلى أيام أورليان » « Colonne Theodosienne » صفحة ١٣٨ وكان الكلوديوم شبه مدرسة للتاريخ أنشأه كلوديوس متصلاً بالمتحف ولكنه لم يلق توفيقاً كبيراً والظاهر أن الدكتور (Botti) يرجع أصل « المكتبة الوليدة » إلى « تراجان » أو « هدريان » ولكن يحسن أن نرجع إلى كتاب الأستاذ Mahaffy « Emp. of The Pto-lomies » صفحة ١٦٧ .

لا شأن له ببحثنا هذا ، فحسبنا أن نعرف أن المكتبة الأولى القديمة كانت في القرن الرابع قد قضيَ عليها وفنيت ، وأن المكتبة الثانية الصغرى كانت عند ذلك قد مضى زمن ما على إنشائها .

إذن قد سار معهد السرابيوم على سنة الماضين في تحصيل العلم ، وأنشئت جامعة بها عدد عظيم من الكتب ، وبقي اسم أرسطو متصلاً بالعلم الإسكندري في معهد السرابيوم[1] ، كما كان من قبل متصلاً بمعهد المتحف . ومعنى ذلك أن دراسة الفلسفة والعلوم بقيت على عهدها بالإسكندرية وهي التي جعلت تلك المدينة من قبل مقر العلوم في العالم ، ولم يتغير إلا شيء واحد وهو أن مقر الدراسة أصبح السرابيوم بعد أن كان المتحف .

ولكن كان مقدوراً على السرابيوم أن يقضي عليه في أواخر القرن الرابع على يد المسيحيين يقودهم (تيوفيلوس) . وقد رأينا فيما سلف كيف خرب القيصريون ونهبوا في سنة ٣٦٦ في أثناء نضال ديني ، وأغلب الظن أن المكتبة التي كانت فيه قد ذهبت ضحية في ذلك النضال . وكان نضال المسيحيين مع عبدة الأوثان يزداد شدة وهولاً كلما زاد المسيحيون قوة ، وكان السرابيوم بلا شك

---

(١) وهذا يفسر كثرة اقتران اسم ارسطاليس ببناء السرابيوم في مؤلفات المسلمين أنظر ما سبق في صفحة ٤٠٦ وقد أخطأ (Matter) إذ زعم أن أول مرة وجد فيها هذا الاقتران في كتاب بنيامين التوديلي فقال « وإلى ذلك الحين لم يكن أحد من الكتاب قد أثبت تلك الرواية » (مدرسة الإسكندرية الجزء الأول صفحة ٣٢٧ ـ ٨) والحقيقة أن هذه من العبارات الشائعة في الكتب العربية والقبطية على السواء . أنظر مثلاً النسخة الخطية القبطية التي بباريس الجزء ١٢٩ صفحة ٩٢ وما بعدها وقد ترجم جزءاً منها المستر (W. E. Crum.) وقام البرهان على أن منشأها كتاب (Eusebius) « Proceedings of Soc. Bibl. Arch. » (١٢ فبراير سنة ١٩٠٢) وقد جاء ذكر مدرسة أرسطاليس وعلم الإسكندرية في الصفحة الثانية عشرة من رسالة المستر (Crum) وهذا انتقال سهل من استعمال لفظ « المدرسة » للدلالة على مذهب علمي إلى جعله يدل على الموضع الذي يتلقى فيه العلم وقد نشأ عن الدراسة المتوارثة لمذهب أرسطاليس هناك اعتقاد الناس أن أرسطاليس كان هو نفسه يعلم في المتحف والسرابيوم .

حصن الوثنية وملاذها ، وظل الوثنيون مدة يغيرون من هناك على المدينة ، ويقتلون أشد المسيحيين عليهم ، وقد انتفعوا في ذلك بمناعة موقع السرابيوم . فثأر المسيحيون بأن حاصروا (قلعة الاكروبولس)، ولكن قبل أن يصل النضال إلى نهايته ، اتفق الجانبان على تحكيم الامبراطور فيما بينهم . فقضى (تيودوسيوس) للمسيحيين وقرىء حكمه على الناس من الحزبين في ساحة السرابيوم فهرب عبدة الأوثان المصرية القديمة ، وأهوى المسيحيون إلى المعبد العظيم معبد (سرابيس) وعلى رأسهم (تيوفيلوس) وجعلوا يهدمونه ويخربون فيه وكان ذلك في عام ٣٩١ ولا يختلف فيه اثنان .

فلنمض الآن إلى بحث آخر لنرى هل ضاعت المكتبة في ذلك التخريب . وإنا لا نستطيع أن نقول على وجه البت إنها ضاعت[1]، فإن ذلك أمر مختلف فيه ، ولا بد لنا من فحص ما يتاح لنا من أدلة بتراء لعلنا ننتهي منها إلى حكم . وأول شيء نثبته أن المعبد ذاته قد تهدم في عام ٣٩١ وكان هدمه تاماً إذ سوى بناؤه بالأرض ونقض من أساسه كما قال (أونابيوس) ، ولعله كان مبالغاً في قوله بعض المبالغة . وقد بنى في موضعه كنيسة أو أكثر من كنائس المسيحيين ، ولكن لم يذكر أحد أن المكتبة قد ضاعت فيما ضاع عند ذلك .

---

(١) ولكن بعض الكتاب يجرؤون على إبداء آراء قاطعة في ذلك فمثلاً يقول نوريسون بك في كتابه (La Bibl. des Ptol. صفحة ٢١) إنه عندما استولى المسيحيون على السرابيوم (وقال إن ذلك كان في سنة ٣٨٩) نهبت المكتبة نهباً منظماً وأرسلت الكتب إلى رومة والقسطنطينية وكان تيودوسيوس إذ ذاك يجمع الكتب لمكتبة عظمى . ولسنا ندري إلى أي مرجع يستند هذا الخبر ولكن الأستاذ (Bury) يرى رأياً مخالفاً لذلك كل المخالفة في طبعته لكتاب جبون (الجزء الثالث صفحة ٤٩٥ الذيل) إذ قال « وقد استخلصنا أنه لا يوجد دليل على أن مكتبة السرابيوم لم تبق إلى أيام فتح العرب » . أما جبون نفسه فإنه يعتقد طبعاً أنها دمرت على يد المسيحيين بقيادة تيوفيلوس وليس على يد العرب بقيادة عمرو ويتفق الدكتور (Botti) مع نوريسون بك على الأقل في أنه يثبت أن المكتبة نقلت قبل سنة ٣٩١ إذ قال « وأما المكتبة الوليدة » فإنها وقعت في قبضة (جورج القبادوقي) فاستولت عليها الحكومة المركزية في القسطنطينية في سنة ٣٦٢ ولنا أن نتساءل هل احترقت بأمر « Jovien » (« Colonne Theodosienne » صفحة ١٣٨) .

فلا بد لنا إذن من إثبات أحد أمرين إذا أردنا أن نثبت ضياعها : إما أن نبرهن على أن المكتبة كان مقرها ذلك المعبد ، وإما أن نبرهن على أن أبنية (الأكروبولس) قد خربت جميعها في الثورة إذ هدمها المسيحيون مع (تيوفيلوس)[1] . ولكن أحد هذين الأمرين محقق وهو الأمر الثاني ، فإن المسيحيين لم يهدموا أبنية (الأكروبولس) جميعاً ، ومن السهل إثبات هذا ، فقد سبق لنا البرهان على أن بقية عظيمة ذات جلال رائع كانت لا تزال باقية من بناء السرابيوم إلى القرن الثاني عشر . ولكننا نجهل كل الجهل موضع هذه البقية كما أنا نجهل الغرض من إنشائها أولاً[2] ، وبقاء هذه البقية إنما يدل على أن المكتبة

---

(١) قال (Matter) بحق « ولكي يكون التدمير تاماً يجب أن لا يقف الهدم عند معبد سرابيس بل يجب أن يشمل أيضاً ملحقاته الواسعة من أفنية وأبواب ومخادع وكذلك المكتبة التي كانت موجودة هناك منذ أكثر من ستة قرون » (Ecole d'Alex.t.t. صفحة ٣٢١) ولكن قوله « هناك » في الحقيقة استناد على ما يجب البرهان عليه فإنه يزعم أن التخريب الذي لحق بالبناء كان يسيراً وسرعان ما أصلح وخرج من ذلك إلى أنه لما تقادم العهد على ذكرى المتحف القديم وعفا أثره حل محله السرابيوم في الأخبار وفي الحقيقة ، وصارت « المنشأة الجديدة من النجاح بحيث أنه في وقت فتح العرب كان السرابيوم لا يزال يحوي مكتبة عظمى » .

(٢) يجب علينا أن نحتج على ما استخلصه (Matter) من قول بنيامين التوديلي الذي رواه (راجع القول المذكور في كتابه صفحة ٣٢٧ ـ ٨) وكلمات بنيامين هي « وخارج المدينة مدرسة أرسطاليس معلم الإسكندر وهي بناء عظيم بديع مزين بأعمدة المرمر التي تفصل بين المدارس وعدد تلك المدارس عشرون تقريباً وكان الناس يذهبون إليها من جميع بلاد العالم ليتلقوا حكمة أرسطاليس » وهذا القول قاطع الدلالة على أنه قد كان بين ما بقي من الأبنية البديعة في القرن الثاني عشر عشرون ساحة أو حجرة تتصل برواق ذي عمد . لكنه لا يدل ولا يمكن أن يدل على أن هذه الحجرات كانت هي بعينها التي استعملها طلاب الفلسفة فقد كانت الأخبار تقرن اسم أرسطاليس بأبنية السرابيوم بوجه عام . وعلى ذلك كان يقترن اسمه بما بقي منها في أيام كتابة بنيامين ولكن هذا لا يمكن أن يؤخذ دليلاً على أن الأبنية الباقية كانت تستخدم لطلاب العلم ومن باب أولى أنها لم تكن المقر الذي أودعت فيه المكتبة . ثم نلاحظ أن قول بنيامين لا يتفق مع قول مؤرخ سابق له إذ يقول عن السرابيوم إنه طلل وإنه « لم يبق منه الآن إلا الأعمدة التي لا تزال كلها =

قد تكون بقيت سليمة إذا كانت في البناء الباقي الذي لم يصل إليه الهدم في ثورة المسيحيين ، ولا يدل على أكثر من ذلك . ولكن بين أيدينا براهين تدل على موضع المكتبة ومقدار ما لحقها من التلف على يد المسيحيين ، وأول هذه الأدلة ما قاله (أفطونيوس) وقد زاد السرابيوم في القرن الرابع قبل تدميره بزمن[1] . وثاني هذه الأدلة ما قاله (روفينوس) وقد شهد ذلك التخريب وكتب ما كتبه بعده . وقول كل من هذين الكاتبين يكمل قول الآخر ويصدّقه ولكن من العجيب أن أحدهما لا يذكر المعبد في قوله ولا يشير إليه في حين أن الثاني لا يذكر المكتبة ولا يشير إليها . ولكن مع ذلك لا شك في أن (أفطونيوس) يلحق المكتبة بالمعبد ولا يلحقها بأي بناء آخر من أبنية (الأكروبولس)[2] ، كما لا شك في أن المكتبة كانت في وقت زيارته للاسكندرية قائمة هناك مفتوحة الأبواب كعادتها لمن يقصدها من طلاب العلم والقراءة .

= قائمة ولم يسقط أحدها » (النسخة الخطية العربية المكتوبة في سنة ١٠٦٧ للميلاد في باريس ونقل عنها الدكتور (Botti) في (« Colonne Theod. » صفحة ١) فإذا علمنا أنه في القرن الرابع كان المعبد الأوسط تام التدمير وأنه في القرن الحادي عشر وصف بعض الأعمدة بأنه كان قائماً مكانه اتضح لنا أن تلك الأعمدة المذكورة هي أعمدة (الأكروبوليس) الخارجية وأنها ليست أعمدة المعبد .

(١) يحاول (Matter) (راجع النص في صفحة ٣٢٤) أن يجعل زيارة أفطونيوس بعد سنة ٣٩١ ولكنه لم يقدر أن يتحاشى الصعوبة التي أوقعته فيها لغة أفطونيوس فإن ذلك الكاتب السوري يقول بوضوح إن ملحقات المعبد مبنية في جوار الأورقة من جهة الداخل وكان بعضها مخصصاً للمكتبة ومفتوحاً لطلاب العلم وكان البعض الآخر مخصصاً لخدمة الآلهة القديمة فإما أن يكون أفطونيوس قد كتب قبل تدمير مشاهد الوثنيين وإما أن المسيحيين بعد أن خربوا معبد سرابيس تركوا المشاهد الوثنية الأخرى وأباحوا بقاءها . وقد اضطر Matter إلى اختيار الرأي الأخير ولكن كثيراً من العقول الصريحة لا تقبل هذا الرأي وليس ثمت من دليل يدعمه وقد قال Sozomen عكس ذلك إذ زعم أن السرابيوم بقي في يد المسيحيين منذ وقع لهم إلى أيامه .

(٢) عندما وصف صفوف الأعمدة الأربعة التي بني كل منها من وسط جانب من جوانب =

فإذا نحن آمنا بأن المكتبة كانت ملحقة بالمعبد ، وبأن المعبد قد خرب ودمر ، فكيف يمكن أن نقول إن المكتبة قد نجت ولم تصر إلى ما صار إليه المعبد ، لا سيما وقد كان خراب المعبد كاملاً إذ نقض من أساسه وسوى بالأرض . قال (أونابيوس)[1] « إنهم خربوا السرابيوم وحطموا أوثانه . . ولم تبقَ إلا الجدران ذاتها ، إذ عجزوا عن إزالة تلك القطع العظيمة من الحجارة » . وقال (ثيودوريت) في وصف هذه الحوادث عينها « ونزعت محاريب الأصنام من

= المعبد على رسم عمودي يلاقي صف الأعمدة الخارجي قال (الصحن الذي في وسطه أعمدة كثيرة) (٥٠*) وإذا راجعنا نص الكتاب ولغة روفينوس وجدنا أن معنى لفظ (الصحن) (٥١*) لا يمكن إلا أن يكون (المعبد نفسه) فإن قول روفينوس ليس فيه موضع للشك (في وسط فضاء البناء كله) فلفظ (الصحن) (٥١*) على ذلك يقصد به (المعبد) وكان حوله سور من الأعمدة وعلى كل جانب من ذلك السور صف من الأعمدة يلقاه في زاوية قائمة . وبعد ذلك تأتي الفقرة التي ذكرناها من قبل (انظر ما سبق في صفحة ٤٠٣ هامش ٣) (وقد بنيت المخادع في داخل الأروقة (٥٢*) . وهذه الفقرة توضح كل التوضيح أن المخادع التي خصصت للمكتبة والمقاصير التي كانت للآلهة القديمة كلها كانت في داخل سور الأعمدة المحيط بالمعبد أو يمكن أن نقول إن أبوابها كانت تنفذ إلى الأروقة المحيطة بالمعبد وإذا كان ثمة شك في هذا فلن تبقى عليه النقوش التي وجدها الدكتور (Botti) في ذلك الموضع وهي (مع سرابيس وسائر الآلهة التي في المعابد نفسها وذلك إكراماً للإمبراطور المعظم قيصر تريانوس أدريانوس) (٥٣*) وهذه الكتابة تذكر بصراحة أن الآلهة الأخرى كانت في نفس المعبد (صفحة ٢٢ L'Acropole.d'Alex) وفوق ذلك قد كانت هذه المشاهد إما في المعبد وإما في الصف العظيم من الأبنية الخارجية ولكن روفينوس يذكر تلك الأبنية ويقول عنها إنها كانت تحوي حجرات للدروس أو مخادع للكهنة أو للسدنة والحفظة أو للرهبان والزهاد ومن شابههم فلسنا نشك على ذلك في أن نقول إن الكتب كانت فعلاً في بناء ذلك المعبد وهذا يتفق مع كل ما نعرفه عن مثل هذه المعاهد . وقد يوجد شيء من الشك في أمر المتحف ولكنا قد بينا من قبل أن (الهدريانون) و (القيصريون) (٥٤*) كان في كل منهما مكتبته ولعلنا نقطع القول بأن نورد قول (أوروسيوس) « راجع هامش ١ صفحة ٣٦٥ » . (Hist. VI 15 . 31) .

(١) انظر ما سبق في صفحة ٣٩٩ هامش ٢ .

أساسها »[1] . وقال سقراط « وأمر الإمبراطور بهدم كل معابد الوثنيين في الاسكندرية ». ثم قال « فهدم (تيوفيلوس) معبد سرابيس ». وقال « وهدمت المعابد وصهرت الأوثان التي من معدن البرونز واتخذت منها الأواني »[2]. وقال في موضع آخر « إنه قد كشفت حجارة عليها نقوش بالحرف المصري القديم عندما كان الناس يهدمون معبد السرابيوم » وقال مثل ذلك (سوزومن)[3] وهو يقول إن المسيحيين استولوا على السرابيوم منذ أخذه (تيوفيلوس) إلى وقته الذي كتب فيه . وكل هؤلاء الكتاب كما ترى ممن كتب في النصف الأول من القرن الخامس ، وعلى ذلك يكادون يكونون كلهم ممن عاشوا في وقت واحد . ومما يؤسف له أنهم لم يقولوا في المكتبة قولاً صريحاً ، فنعلم مصيرها على غير شك ، ولم يذكروا شيئاً عن تخريب أبنية (الأكروبولس) الأخرى ، ولم يرد شيء من الإيضاح إلا فيما كتبه (روفينوس) ، فإنه يذكر أن الأبنية التي كانت تكتنف الربوة من خارجها لم يمسها ضر ، وكل ما لحقها أن عبدة الأوثان أخرجوا منها . ويقول إن هذه الأبنية هي التي بقيت بما كان فيها من قاعات الدرس وأروقة البيت . في حين أن معبد سرابيس الأكبر وما كان فيه من عمد لم يبق فيه حجر على حجر بل سوّي بالأرض[4] .

---

(١) (Hist. Eccl.) الجزء ٢٢ (واقتلعوا معابد الأوثان من أساسها) وهو يذكر معبد سرابيس بلهجة الأسف قائلاً (وهو كما يقول الكثيرون أكبر وأحسن ما على وجه الأرض) (٥٥*) .

(٢) (Hist. Eccl.) الجزء ١٦ « ولكي يقلل الكنائس في الإسكندرية يكرس معبد المترايوم ويهدم معبد السرابيوم (٥٦*) » وكان المترايوم (Mithraeum) معبداً تقام فيه شعائر الفرس الملطخة بالدماء وليس ثمة ما يدل على أنه كان على الأكروبولس ولكن الإمبراطور وهب لذلك الموضع هبة خاصة وجعل البناء كنيسة وعلى ذلك يقول (Sozomen) عند ذكر معبد ديونيسوس (Dionysus) (وحوّل معبد ديونيسوس إلى كنيسة (٥٧*)) ومعنى ذلك « أنه أعيد بناؤه في شكل كنيسة » وهذه عبارة تخالف لفظ (٥٧*) الذي معناه « طهر وأهدى إلى » .

(٣) الجزء ١٥ (إن هذه الكنيسة قد دنست) (٥٨*) أنظر الهامش السابق وكذلك ما سبق في صفحة ٤٠٣ هامش ٢ .

(٤) سبق أن نقلنا العبارة من (Rufinus) (أنظر ما سبق في صفحة ٤٠٠ هامش ١) ولكن =

إذن فالأمر كما يلي : قد ثبت أن المكتبة كانت في حجرات متصلة ببناء المعبد ، شأنها في ذلك شأن المشاهد التي كانت للأصنام المصرية القديمة . وثبت أن بناء ذلك المعبد كله قد هدم وخرب ، فلا بدّ أن تكون المكتبة قد لحقها الخراب نفسه(١) .

وقد يقول قائل لعل الكتب قد أنجيت من ذلك الدمار الذي لحق البناء الذي كانت فيه ، بل لقد قيل إن تلك الكتب قد نقلت جميعها إذ نقلها (جورج القبادوقي) من هناك ، قبل ثورة المسيحيين بقيادة (تيوفيلوس)، وقبل أخذهم المعبد بثلاثين سنة ، وقيل كذلك إنه عندما أخذ المسيحيون (الأكروبولس) أرسلت تلك الكتب إلى القسطنطينية(٢). وإنه لمما يشك فيه أن يكون الناس

= الدكتور (Botti) لم يجد دونه النص اللاتيني فنقل ترجمة (La Faye) وهي ترجمة صحيحة وقد أظهر بحق أن (Rufinus) شهد تدمير المعبد وإن الأفعال التي يستعملها في قوله ماضيها ومضارعها يجب أن تؤخذ على أنها تميز ما بقي وما لم يبق عندما كتب ديوانه وعلى ذلك فإن الدكتور (Botti) يرى أن (Rufinus) يبرهن على أن التمثال والمعبد كلاهما هدم وأن الباب المربع للفناء الأوسط قد هدم كذلك وعبارة (Rufinus) في ذلك الموضع هي : « Porticus quoque Post heac omnem » ambitum quadratis ordinibus distinctae intrinsecus circumibant » .

ولعل هذه اللغة فيها شيء من الغموض ولكنا نترجمها هكذا « ويلي (الصف الخارجي) أروقة ذات أعمدة كانت تحيط بالفناء الداخلي وتقسمه إلى مربعات » وهذا يتفق مع الرسم الذي كشفه أفطونيوس ولكنا إذا صدق رأينا في هذا التفسير كان الهدم شاملاً ما وراء سور الأعمدة المحيط بالمعبد مع أن الدكتور (Botti) يزعم فيما نظن أن الهدم كان مقصوراً على ما في داخله (Colonne Theodosienne) صفحة ٣٥ .

(١) لنا أن نلاحظ هنا أن أبا الفرج يزعم أن (John Philoponus) يقول إن الكتب كانت مخزونة في « الخزائن الإمبراطورية » وهذا الوصف فاسد وهو في الوقت عينه ذو دلالة . فأما فساده فلان حجرات السرابيوم لا يمكن أن نسمي « خزائن إمبراطورية » مهما توسعنا في دلالة اللفظ . وأما دلالته فلأنا نظن أن هذه الجملة تحمل صدى الخزانة القيصرية « Fiscus Caesaris » التي يقترن ذكرها باسم المتحف القديم .

(٢) أنظر ما سبق في هامش صفحة ٤٢٨ .

الثائرون قد أبقوا على تلك الكتب وأشفقوا على تلك الكنوز أن تضيع ، وهي في نظرهم كتب الوثنيين قد وضعوها هناك وديعة عند الوثن الأكبر . إنهم خليقون ألا يفعلوا ذلك وهم الذين حطموا أوثان (سرابيس) وأحرقوا حطامه[١] ، ولم يبقوا في معبده حجراً قائماً ، ذلك المعبد الذي كان آية العظمة والإبداع في بلاد العالم . وإنا لنعجب من إغفال كتاب العصر ذكر هذا الحادث ، ولكنا مع ذلك نجد الأقرب إلى الأفهام أن تلك الكتب قد ضاعت طعمة اللهيب[٢] الذي أحرق وثن (سرابيس) ، وأنها لم تنزع من براثن ذلك التخريب الذي مزق المعبد كله ، ولم ترسل في البحر إلى موضع آخر . وقد نقل عن (أوروسيوس) أنه رأى الرفوف أو الصناديق في السرابيوم فارغة ليس عليها شيء من الكتب . فإذا صح ذلك لكان دليلاً على أن الكتب لم يكن لها وجود منذ سنة ٤١٦ ، وذلك هو العام الذي كتب فيه (أوروسيوس) ، ولكان ذلك دليلاً على أن بناء المكتبة بقي إلى ذلك الوقت قائماً . ولكن ذلك قول غير دقيق ولفظ الرواية لا يبرره[٣] ، فإن (أوروسيوس) لا يذكر بناء السرابيوم بل يذكر حريق مكتبة

---

(١) انظر كتاب Theodoret . « Hist. Eccl » الجزء ٢٢ فهو ينص بوضوح على أن التمثال جرى له ذلك وكان جله مصنوعاً من الخشب ولكن رأسه وحدها سحبت في طرق المدينة وهذا يتفق مع ما قاله ميخائيل السوري إذ يقول « وكسر الوثن ورمي في النار ثم سحبوا رأسه في الطرق » .

أنظر صفحة ٣١٨ من (ed. Chabot. Tom. 1. Fasc. II.) .

(٢) يلوح أن الدكتور (Botti) أميل إلى الرأي أن مكتبة (Trajanum) التي ذكر « Suidas » أنها أحرقت على يد (Jovian) يمكن أن تكون مكتبة الإسكندرية على أن ظاهر العبارة يفهم منه اقتران ذلك الحادث بمدينة أنطاكية صفحة ١٣٩ ـ ١٤١ (Colonne . Theodosienne.)

(٣) (Hist. VI 15. 31) قال أوروسيوس بعد وصفه لتدمير المكتبة الأولى في حريق قيصر (أنظر ما سبق اقتباسه في صفحة ٤٢٦ هامش ٢) وقوله فيه شيء من الغموض ولكن معناه يمكن أن يترجم ترجمة قريبة من الأصل فيما يلي : « وأما هذا الأمر فمهما صدق قول القائل أننا نجد اليوم رفوفاً للكتب فارغة في بعض المعابد (وقد رأيتها بنفسي) وإن تلك الرفوف قد عريت وأن كتبها دمرها الناس في زماننا (وهذا هو الحق) (٥٩*) فإن الرأي =

المتحف ويدلي بحجته على النحو الآتي بوجه التقريب : « إذا فرض أننا نرى اليوم رفوفاً مما توضع عليها الكتب (في بعض المعابد) وإذا فرض أنهـا فارغـة ليس عليها شيء قد خلت من الكتب لما أصابها من أيامنا هذه ، إذا فرض ذلك ثبت منه أنه قد كانت في تلك المواضع مكاتب في الأزمان القـريبة من عهـدنا ولكن لا يثبت منه أن مكتبة قد بقيت وكانت جـزءاً من مكتبة المتحف القـديمة وأنها نجت من النيران بأن وضعت في بناء آخر بل إن الذي نستطيع أن ننتهي إليه أنه قد جمعت كتب أخرى تقليداً للمكتبة القديمة وكان جمعها بعد الحريق » .

هذه حجة (أوروسيـوس) يريـد بها أن يبـرهن على أنه لم ينـج شيء من المكتبة القديمة التي أنشأها البطالسة ، ولم يشر فيها إلى مكتبة السرابيوم[1] .

= الأقرب إلى العدل هـو أنه بعـد وقوع الحـريق قد جمعت كتب غيـر تلك الكتب الأولى تضارع ما عرف عن القدماء من حب المؤلفات وأنه لم يوجد من أول الأمر مكتبـة ثانيـة منفصلة عن المكتبة الكبرى التي كانت تحوي ٤٠٠,٠٠٠ مجلد وأن تلك المكتبة الثانية بقيت بفضل انفصالها عن المكتبة الكبرى » .

(١) معـالجة (Matter) لهـذه المسألـة غير مقنعـة إلى حد عـظيم (أنظر صفحـة ٣٣٦ وما بعدها) (L'Ecole d'Alex. T. i) فهو ينقل عن حنا فليبونوس (ad. Arist. Analyt. Pr. i, fol. 2 B) إنه يقول « (في المكاتب القديمة) (٦٠*) قيل إنه قد كان هناك أربعون كتاباً في علم التحليل » . ويستنتج (Matter) من ذلك وجود مجموعات جـديدة من الكتب ولكنه عندما نقل عن اميانوس (Comment in Arist Categ. ap. ald fol 3 A) أنه يقول إنه لا بد قد كان بالمكتبة أربعون كتاباً في علـم التحليل وكتابـان في القواعـد (في المكتبة الكبرى) (٦١*) قال وصدق في قوله إن هذه العبارة لا تدل على شيء سوى اختفاء مكتبة المتحف قبل القرن الخامس وإنها لا تدل على عدم وجود أية مكتبة أخرى وقد حق لماتر أن يصر على قوله إن أوروسيوس لا يذكر شيئاً عن السرابيوم ولكنه لا يكاد يقدر نتائج هذه الحجة . وقد قال الأستاذ (Bury) في ذيل كتاب جبون الذي سبقت الإشارة إليه إن عبارة جبون الخاصة بتدمير مكتبة الإسكندرية مأخوذة عن أوروسيوس وحـده وقد بـرهنا على وجود طائفة كبيرة من الأدلة لا علاقـة لها بـأوروسيوس وقـد قال الأستـاذ (Bury) « ويغلب على الظن أن أوروسيوس لم يكن مكتبة الإسكندرية أو السرابيـوم حينما ذكـر الرفوف الفارغة وإنا نوافقه على قوله .

وقد عزز هذا الرأي كتاب آخرون من بينهم (ماتر) ، وهذا هو الحق بعينه ، ولكن ذلك القول له دلالة من وجهتين فإنه إذا كان لقول (أوروسيوس) معنى لا يختلف فيه اثنان فهو إنه لم تكن في عصره مكتبة قديمة عظيمة في الإسكندرية ، إذ لو كان في عصره مكتبة كبرى بمعبد السرابيوم لما أغفل (أوروسيوس) ذكرها في أثناء قوله الذي بيناه آنفاً . وعلى ذلك يمكن أن نقول إن (أوروسيوس) وإن لم يشهد تدمير مكتبة السرابيوم في عام ٣٩١ قد شهد أنها لم تكن في الوجود في عام ٤١٦ .

ولكنا لم ننته بعد من برهاننا على النقطة التي نحن بصددها ، وهي أن المكتبة لم يكن لها وجود في القرن السابع . فإنه لا يستطيع أحد أن يقول إن كل كتب الإسكندرية قد ضاعت في أثناء تلك الحروب الشعواء التي شنت على المكاتب ، أمثال حرب (دقلديانوس) على مؤلفات المسيحيين ، وحرب (تيوفيلوس) على مؤلفات الوثنيين . فلا بد أنه قد بقيت بعد تخريب المكاتب العامة الكبرى بقية كبرى من تلك الكتب في ملك أفراد الناس ، أو في مكاتب الأديرة البعيدة . وإن بقاء العلم في الإسكندرية لم تنطفىء أنواره ليقوم وحده دليلاً على بقاء الكتب وانتفاع الناس بها ، غير أننا نستبعد كل الاستبعاد أن تكون مكتبة السرابيوم الكبرى قد بقيت إلى القرن السابع ، من غير أن نجد في كتابة أحد من كتاب القرنين الخامس والسادس ما يدل على وجودها دلالة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام . ولنذكر من ذلك مثلاً واحداً وهو (حنا مسكوس) وقد سبق لنا ذكر زيارته لمصر مع صديقه (صفرونيوس) قبل فتح العرب بسنين غير كثيرة . وقد بينا ما كان عليه هذان الرجلان من محبة العلم ، وشغفهما بالكتب وما يتصل بها[١] ، وقد كتبا مقداراً عظيماً وسافرا إلى كثير من بلاد مصر ، وأقاما فيها زمناً طويلاً ، ولكنا لا نرى في كتاب من كتبهما إذا قلبناها واستوعبنا قراءتها ذكراً لمكتبة عامة في البلاد ، اللهم إلا لمكاتب أفراد الناس . وعلى ذلك يكون قد مر قرنان لا تذكر فيهما تلك المكتبة ، وجاء في آخر هذين القرنين كاتبان

---

(١) أنظر ما سبق صفحة ١٣٤ وما بعدها .

مكثران وهما (حنا مسكوس) و (صفرونيوس)، وهما لا يذكران عنا شيئاً . ولا يتأتى مع كل هذا أن يقول قائل إن الإسكندرية كانت مكتبة عامة كبرى عندما فتحها العرب .

بقي علينا أن نثبت أمراً أو أمرين . فإننا إذا سلمنا بأن كل ما سبق إيراده من الحجج لم يكف لأن يزعزع رأي من يذهبون إلى بقاء مكتبة السرابيوم ، ثم سلمنا بأن تلك المكتبة بقيت على عهدها حتى فتح العرب الإسكندرية ، إذا سلمنا بذلك كان أبعد الأمور أن يكون العرب قد أتلفوها ودمروها . ولذلك سبب نورده . فإن العرب لم يدخلوا المدينة إلا بعد أحد عشر شهراً من الفتح ، وقد جاء في شروط الصلح أن الروم في مدّة الهدنة لهم أن يخرجوا من البلد إذا شاءوا وأن يحملوا معهم كل ما استطاعوا نقله من متاعهم وأموالهم[1] ، وكان البحر في كل هذه المدة خالياً من العدّو لا يقف شيء فيه بين الروم وبين القسطنطينية أو سواها من ثغور البحر ، فلو كانت مكتبة السرابيوم عند ذلك باقية لطمع الناس في ثمن كتبها وأغراهم ذلك بنقلها إن لم يغرهم شيء آخر، إذ كانت كتباً قيمة عظيمة القدر يقبل على شرائها كثير من الناس الذين لهم شغف بالعلوم وطلبها ، وكان لا بد لمثل هؤلاء أن يكونوا على مثال الشخص الذي جاء في القصص وهو (حنا فليبونوس)، فيسعوا إلى نقل تلك الكنوز العلمية في وقت الهدنة إذا كانت الفرصة ممكنة ، وما كانوا ليتركوها تقع لمحاربي الصحراء الذين لا علم لهم بقيمتها وهم على وشك أن يدخلوا المدينة .

وبعد فإن الصمت الذي يلزمه كتاب القرنين الخامس والسادس وإغفالهم ذكر تلك المكتبة بقي إلى ما بعد الفتح ، فلم يكن بين العرب مؤرّخون كتبوا عن تاريخ مصر في القرنين السابع والثامن . وقد يقال إن متأخري الكتاب تعمدوا إغفال ذكرها ، ولكننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن (حنا النقيوسي)

---

(١) أنظر ما سبق صفحة ٣٤٣ الفقرة الرابعة من معاهدة الإسكندرية وراجع حنا النقيوسي صفحة ٥٧٥ .

الأسقف المصري ، وقد كان رجلاً من أهل العلم ، وكانت كتابته قبل
القرن السابع ، وقد كتب في ديوانه الأخبار المفصلة وأحاط فيه بمخ
الأحداث وفي هذا دلالة على أنه كان عظيم الاطلاع ، واسع العلم بالأخ
ولم يفصل بينه وبين فتح العرب إلا خمسون عاماً . وإن أبا الفرج نفسه (
صاحب القصة التي يتهم فيها العرب) ليشهد بأن الإسكندرية بقيت مقه
لطلاب العلم إلى حوالي سنة ٦٨٠ للميلاد ، فإنه يذكر أن (يعقوب الأذاسي
ذهب إلى الإسكندرية ليتم تحصيله للعلم بعد أن أتم درس اللغة اليونـ
والكتاب المقدس في أحد الأديرة بالشام[١] ، وهذا يدل على أن بعض المك
كانت لا تزال باقية بمصر عند أفراد الناس وفي الأديرة بعد الفتح ، كما كـ
قبله . وإلا فلو كان في المدينة مكتبة عامة كبرى قبل الفتح ثم أحرقها الع
عند فتحهم لها ، لما أغفل ذكر هذا الحادث رجل مثل (حنا النقيوسي)
كاتب قريب العهد بالفتح ، قد أفاض في ذكر الإسكندرية ، وفصَّلَ في وص
فتحها . وما كان ليبيح لنفسه أن يدع للنسيان حادثة كان لها عظيم الأثر إذ ذه
بما كان يمكنه الاعتماد عليه في كتابة تاريخه ، وحرمت العالم أجمع من كنز
أكبر كنوز العلم حرماناً أبدياً .

ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجملنا فيما يلي أدلة حجتنا ، فإن قص
أن نبين حقيقة أمر مكتبة الإسكندرية ومقدار نصيب قصة إحراق العرب لها
الصحة أو الكذب . وقد بينا فيما سلف الأمور الآتية :

(١) إن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من و
الحادثة التي نذكرها .

(٢) إننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فألقيناه سخافات مستبعدة ينكر
العقل .

(٣) إن الرجل الذي تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزوة العر
بزمن طويل .

---

(١) ابن العبري (Chron. Eccl. t. i. c 290) .

(٤) إن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين : الأولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي أحدثه قيصر ، وإن لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب ، وأما الثانية وهي مكتبة السرابيوم ، فإما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ ، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت ، فتكون على أي حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن .

(٥) إن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

(٦) إن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد (قيرس) صلحه مع العرب على تسليم الإسكندرية ، لكان من المؤكد أن تنقل كتبها ، وقد أبيح ذلك في شرط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدّة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب في المدينة ، وقدر ذلك أحد عشر شهراً .

(٧) لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل (حنا النقيوسي) ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفاً عنه .

ولا يمكن أن يبقى شك في الأمر بعد ذلك فإن الأدلة قاطعة وهي تبرر ما ذهب إليه (رينودو) من الشك في قصة أبي الفرج وما ذهب إليه (جبون) من عدم تصديقها ولا بد لنا أن نقول إن رواية أبي الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس في التاريخ[١] .

---

(١) لم نقصد في هذا الأمر سوى إثبات الحقيقة ولم نقصد الدفاع عن العرب . وليس الدفاع بضروري ولو كان ضرورياً لما تعذر أن شيئاً يليق الإعتذار به عن ذلك . فلا شك أن العرب عنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع في أيديهم وعنوا بحفظها وترجموا منها في كثير من الأحوال . وفي الحق أنهم أقاموا مثلاً يجدر بفاتحي هذه الأيام أن يحذوا حذوه فقد نقل Sedillot (Hist. Gen. des Arabes t. i P. 185) أن الفرنسيين عندما فتحوا مدينة قسطنطينة في شمال أفريقيا أحرقوا كل الكتب والمخطوطات =

. . . .

= التي وقعت في أيديهم « كأنهم من صميم الهمج » ووجد الانجليز عند فتح مدينة مجدلة مكتبة كبرى من الكتب الحبشية فحملوها معهم ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها في كنيسة على جانب الطريق إذ وجدوا في حملها عناء لم يقووا على احتماله ولقد كان اختيارهم للكتب التي أبقوا عليها خبطاً وسيراً مع الصدفة ولكن قيمة الكتب التي أنجبت وحفظت تدلنا على فداحة الخسارة التي لحقت العلم بضياع ما ترك منها فقد كانت النسخة الخطية من كتاب حنا النقيوسي التي حفظت بالمتحف البريطاني إحدى تلك الكنوز التي أنجبت بهذه الطريقة الاتفاقية .

الفصل السادس والعشرون

فتح (بنطابولس)

إرسال البعث إلى المغرب ـ يلقى كيداً قليلاً ـ فتح برقه صلحاً ـ فتح طرابلس وسبرة عنوة ـ عودة عمرو إلى الإسكندرية ثم إلى بابليون ـ بناء الحصن في الجيزة ـ إنفاذ بعث إلى بلاد النوبة واضطراره للرجوع ـ وصف عمرو لمصر وخطبته ـ قصة العذراء والنيل.

رأى عمرو بن العاص أنه بفتح الإسكندرية قد قضى على سلطان الروم في مصر ، ولكنه لم ير أنه قد أتم ما كان ينبغي له من الفتح . وقد خرج جيش الروم من مصر وشرط عليه ألا يعود إليها ، ولم تبق من المقاومة في مصر إلا جذوة صغيرة في أقصى أرض مصر السفلى ، وقد اعتصم أصحابها بموانع من طبيعة أرضهم من نهر أو بحيرة . ولكن تلك المقاومة لم تكن لتحدث في مصير البلاد أثراً ، فبقيت مدينة المنزلة كما رأينا على نضالها أشهراً عدّة بعد دخول العرب الإسكندرية ، وجاءت الأمداد تترى إلى مصر منذ جاء أولها من فرسان العرب مع الزبير ، فأدركوا عمرو بن العاص ، وأغاثوه وهو بين عيني الخطر ، فكانت تلك الأمداد تحل محل من يلقى الشهادة من المسلمين في الحرب ، وزادتهم فوق ذلك عدداً فأصبح عمرو وقد صار معه جيش عظيم فوق ما كان من المسالح في الحصون والمدائن الكبرى ، وما كان من الجند في قتال البلاد التي كان العدو لا يزال يناجز فيها ويقاوم .

وكان عمرو يميل إلى التوسع في الفتح بطبعه ، وكان الإسلام في نشأته يرى أن ينشر علمه على الآفاق ، فما أن أمن العرب على مصر ولما ينقض فيها

القتـال كله ، حتى عوّل قـائدهم على إنفـاذ بعث إلى بنطابـولس ، وهو الإقليم الذي يلي مصر غرباً من بلاد الدولة الرومانية . ولا بدّ أن يكون عمرو قد أقـام نـظام الحكم في وادي النيل في مـدّه شهـور الهـدنـة الأحـد عشـر ، حتى إذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب الإسكندرية لم يبق عليه إلا أن يقيم للمدينة وحدها نظامها . ولو كان الأمر غيـر ذلك لما استطاع عمرو أن ينفذ بعثة إلى بلاد المغرب بعد مثل ذلك الزمن القصير من فتح العاصمة ، فإنه في تاريخ لا يمكن أن يقع بعد أوّل عام ٦٤٣[1] بزمن طويل .

وقد بينا من قبل عند الكلام عن ثورة هرقل على فوكاس ، أنه قد كان في القـرن السـابـع سلسلة من المـدائن والمنـازل على الـطريق بين الإسكنـدريـة

---

(١) جاء في ابن الأثير (الجزء الثالث صفحة ١٩) أن غزو برقة كـان في سنة ٢٢ للهجـرة (أي من ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ إلى ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣) وجاءت في الكتاب نفسه (صفحة ٣٨) ذكر التاريخ الصحيح لوفاة عمر وهو أجدر بالتصديق من ياقوت وابن خلدون إذ يذكران أن الغزوة كانت في سنة ٢١ للهجرة . وقد ذكرنا في موضع آخر أن ذلك الخلاف قد يكون ناشئاً عن أن عمراً بدأ سيره بعد أوّل السنة الهجرية بزمن يسير. ولقد أرسلت بلا شك سرية أخرى إلى بنطابولس في سنة ٢٥ للهجرة ولكن كلتا الغـزوتين مميزة عن الأخـرى على الأقل في ابن الأثير . وقد خلط بينهما ساويرس كما نتوقع فقال في بعض أخباره إن غزوة وقعت بعد عودة بنيامين إلى ولاية البطرقة وأغفل أن يوضح أنه لا يشير إلى الغزوة الأولى بل إلى الثانية . ولكن الأمر ليس فيه شبهة من الشك لأن الغزوة الثانية تتفق كل الاتفاق مع ترتيب تاريخ الحوادث المعروفة في حين أننا لو ذهبنا إلى أن المقصود هو الغزوة الأولى لحدث اضطراب في نظام حوادث أخرى معروفة التاريخ وفوق ذلك فإن ابن بطريق يفيدنا هنا فائدة كبرى فإنه يقول «إن عمراً فتح طرابلس الغرب في سنة ٢٢ للهجرة في السنة الثـانية والعشـرين من حكم هرقل والسنة العاشرة من خلافة عمر» فأما تاريخ هرقل فيجب علينـا إغفالـه لأن (ابن بطريق) لا يفتأ يخطىء في ذكره ولكن سنة ٢٢ للهجرة تتفق مـدّة نصف عام مـع السنة العاشرة من خلافة عمر فقد بدأت خلافتـه في ٢٤ يوليـه سنة ٦٣٤ فـالسنة العـاشرة من خلافته تبدأ في أوائل الصيف من عام سنة ٦٤٣ في حين أن سنة ٢٢ للهجرة تنتهي في نوفمبر سنة ٦٤٣ ولعل فتح مدينة طرابلس كان في مايو أو يونيه من ذلك العام .

و(قيرين) ، وأن أكثر الطريق كان في أرض خصبة ذات زرع[1] . وإذا قلنا إن السير في ذلك الطريق كان سهلاً على جند الروم فإنه كان نزهة لفرسان العرب[2] ، ولم يلقوا في سيرهم هذا كبير كيد ، فلا يذكر أنه قد وقع قتال حتى بلغ العرب (برقة) . والظاهر أنها سلمت لهم صلحاً ، على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام[3] .

وقد جاء في شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان : الأول أنه أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة ، والثاني أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية إلى مصر حتى لا يسمح بدخول جباة لجزية إلى بلادهم . وقد قال ياقوت إن أكثر أهلها أسلموا . وسار عمرو بعد فتح برقة إلى طرابلس وكانت أمنع حصوناً وأعز جيشاً ، فقد كانت بها مسلحة كبيرة من الروم ، فأقفلت أبوابها وصبرت على الحصار الذي وضعه العرب عليها بضعة أسابيع[4] وكان البحر من ورائها خالياً من العدوّ ، ولكن لم يأتها إمداد منه حتى إذا ما كاد جيشها يهلك من جهد القتال وشدّة الجوع ، عرف العرب أن المدينة كانت غير محصنة من قبل

(١) أنظر ما سبق في الفصل الأول .

(٢) يذكر السيوطي أنه لم يذهب إلا الخيل (حسن المحاضرة صفحة ٨٦) .

(٣) يتفق ابن الأثير وياقوت وابن خلدون في أن عمراً صالح على هذه الشروط ولكنهم لا يذكرون قتالاً .

(٤) يذكر ياقوت أن مدة الحصار كانت ثلاثة أشهر وابن خلدون يجعلها شهراً على أن ابن خلدون يذكر أن السكان « أجهدهم الحصار » وروايته كلها أحسن أسلوباً ويلوح عليه أنه أصدق وصفاً مما جاء في ياقوت ويقول ابن عبد الحكم إن فتح طرابلس كان في سنة ٢٣ للهجرة حسب قول Weil (الجزء الأول من « Geschichte der Chalifen » هامش صفحة ١٢٤) ولكن ذلك يجعل فاصلاً طويلاً بين فتح برقة وبين هذا الفتح ويذكر حنا النقيوسي أن أغنياء الإقليم لجأوا مع الحاكم (أيوليانوس) وجنوده إلى مدينة حصينة يسميها (دوشيره) صفحة ٥٧٨ ولكن الظاهر أن حنا يقصد أن يقول إن العرب عجزوا عن فتح (دوشيره) فإنهم بغير شك لم يكن معهم إلا قليل من عدة الحصار إن كان معهم من ذلك شيء .

البحر ، وأنهم يستطيعون النفوذ إليها من هناك . فدخل جماعة منهم بين أسوار المدينة والبحر وقاتلوا عدوّهم من هناك ، وصاحوا صيحتهم : « الله أكبر » فترددت أصداؤها في طرق المدينة . ولمعت سيوفهم المهندة ، فذعر المدافعون عن المدينة وحملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وأسرعوا إلى السفن وحلوا قلوعها ، وفي أثناء ذلك ترك الحرّاس الأبواب ودخل عمرو بجيشه إلى المدينة .

سار عمرو مسرعاً كما اعتاد السير فطلع بغتة على مدينة سبرة[1] ، وهاجمها في أوّل الصباح ، وأخذ الناس على غرة إذ كانوا يظنون أن العرب لا يزالون في شغل من حصار طرابلس . ولهذا فتحت المدينة عند أوّل حملة حملوها عليها ، وكان أخذها عنوة . فأعمل فيها العرب النهب وكان هذا ختام تلك الحرب السريعة ، فعاد عمرو إلى برقة وجاءت إليه من قبائل البربر قبيلة لواته[2] فدانت له ، وهي جل من كان يسكن تلك البلاد . فلما تم له ذلك عاد بجيشه المنصور إلى مصر[3] ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدار كبير من الغنائم .

وقيل إن عمرو بن العاص أحب أن يتخذ الإسكندرية مقراً له ، ولا سيما وأنه وجد بها قصوراً كثيرة من أجل القصور خالية من أصحابها . ولكن عمر بن الخطاب كان قد عزم على أن يجعل الفسطاط عاصمة مصر المستقبلة ، فإنه لم

---

(١) يذكر المستر (Alex. Graham) في آخر كتابه « Roman Africa » (لندن سنة ١٩٠٢) ثبتاً يبين الأسماء القديمة وما يقابلها من الأسماء الحديثة وفيه ورد ذكر سبراته وأنها هي مدينة (زرارة) في الوقت الحاضر (ولعلها هي نفس المدينة العربية سبرة) وأن برقة هي مدينة (طلميتة) الحالية وفي صفحة ١٥٦ تجد وصفاً للآثار الرومانية في طرابلس والكتاب مليء بالصور التي توضح العمارة الرومانية وهي تبدأ بلا شك قبل ذلك العصر ولكنها لم يطرأ عليها تغيير جوهري قبل الفتح العربي .

(٢) يقول مؤرّخو العرب إن هذه القبيلة (لواته) أتت من فلسطين في أيام جالوت وهذا الخبر جدير بالذكر ويرجع ذكره إلى أيام كاتب قديم وهو ابن عبد الحكم .

(٣) ذكر (Weil) والظاهر أنه ينقل عن ابن عبد الحكم أن عمراً أراد أن يستمر في فتوحه إلى ما =

يشأ أن يجعل الأمير الذي أقامه يتخذ عاصمته في مدينة عظيمة على ساحل البحر ، جاعلاً بينه وبين صحراء العرب مجاري الترع المتشبكة الآخذة من النيل . ولعل عودة عمرو إلى حصن بابليون كانت في صيف سنة ٦٤٣ ؛ وكان جسرا النيل قد أعيدا هناك فأقيما بين الروضة وبابليون على الشاطىء الشرقي ، وبينها وبين الجيزة على الشاطىء الغربي[١] . ولكن الشاطىء الغربي ومدينة منفيس التي كانت عليه كانا عرضة للغارات المباغتة من قبائل الصحراء الضاربة فيما وراء الأهرام ، فأمر عمرو ببناء قلعة في الجيزة تدفع المغيرين من قبلها ، وتمكن للعرب في جانب النيل الآخر ، فيكون سلطانهم مبسوطاً على الضفتين معاً . فتم ذلك قبل حلول شهر نوفمبر من ذلك العام[٢] .

= بعد ذلك غرباً ولكن عمر دعاه منذ رأى في ذلك الفتح خطراً أعظم مما يرجى فيه من الخير وفوق ذلك قد كتب « المقوقس لعمرو يقول إن الروم قد يحاولون استرداد مصر » والعبارة الأخيرة لا شك في أنها غير صحيحة فقد مات المقوقس قبل ذلك الوقت إذا كان (قيرس) هو المقصود ولكن إذا قصد بذلك الاسم بنيامين (والظاهر أن ابن عبد الحكم يقصده) فقد كان لا يزال مختبئاً في الصعيد .

(١) هذه الجسور كانت من القوارب أو السفن يربط بعضها إلى جانب بعض ورؤوسها في وجه تيار النهر وتتصل بعضها ببعض من فوقها بألواح الخشب وكانت موجودة قبل فتح العرب وكان من شروط تسليم بابليون أن يقوم القبط على صلاح الجسرين (انظر هامش ١٩ صفحة ١٢٩ من كتاب) « .Expugnatio Memphidis » « Hamaker » .

(٢) جاء في كتاب أبي صالح صفحة ١٧٣ أن الحصن بني في سنة ٢٢ للهجرة (وآخرها ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣) وقال ياقوت إن العرب الذين حلوا في الجيزة كانوا من الحميريين الأحباش وبطون همدان ورعين والأزد (ابن حجر الجزء الثاني صفحة ١٧٧) ولسنا نعرف موضعاً آخر ذكر فيه الأحباش وأنهم كانوا في جيش الفتح ولا يذكر أبو صالح غير همدان ونرى أن ياقوت لا بد قد وهم فإن البلاذري يذكر أن الأحباش كانوا أعداء فقال إن المسلمين لما فتحوا مصر سار جيش من الحبش من (البياما) وقاتل العرب وبقي يقاتلهم سبع سنين ثم قال بعد ذلك عبارة عجيبة وهي أنهم احتموا في ذلك الوقت بإغراق الأرض (ed. de Geoje) صفحة ٢٢٣ وبالطبع يمكن أن يكون ذلك الاسم مستعملاً في الحالين استعمالاً غير دقيق ويقصد به جماعة من السودانيين أو جماعة من أهل اليمن في جنوب بلاد العرب .

أصبح السلام سائداً عند ذلك في كل بلاد مصر السفلى وبلاد وادي النيل إلى حدوده الجنوبية عند أسوان ، ولكن السودان كان عند ذلك قذى في عين حكام مصر ، وهو لا يزال كذلك في كل العصور ، وذلك لأن قبائله لا يسهل قيادها . وكانت في جبالها أو صحرائها لا ترضى بدين المسيح بدلاً ولا تحب الدخول في الإسلام ، ولا تزال تنظر إلى بلاد مصر ذات الخيرات أنها غنيمة لها كما كانت لآبائها وأجدادها لا تدع الإغارة عليها . وقد أرسل عمرو إلى بلاد النوبة جيشاً يغزوها ولكن لم يستطع أن يهزم أهلها بل اضطر إلى العودة[1] ، بعد أن لحقت به خسارة عظيمة مما أصاب الناس من سهام رماة النوبة الذين سماهم العرب بعد ذلك رماة الحدق . وبقي القتال بعد ذلك ينشب بين حين وحين مدة بضع سنين إلى أيام خلافة عثمان ، فعقد صلحاً مع أهل النوبة على أن يدفعوا كل عام جزية من العبيد إلى والي مصر ، وشرط لهم العرب أن يرسلوا إليهم خلعة ومؤونة . ومن ذلك يظهر أن الصلح كان صلح ندين إذ لم يكن الوقت قد حان لفتح بلاد السودان[2] .

كانت بلاد مصر في أثناء هذا آخذة في الاستقرار والاطمئنان تحت حكم عمرو بن العاص ، وكان عادلاً في حكمه لين الجانب لرعيته ، بدا ذلك منه بعد أن هدأت سورة الفتح وذهبت إحن القتال والنضال التي عصفت بالبلاد زمناً . وقد أرسل إلى الخليفة وصفاً لمصر إذ طلب عمر ذلك منه ، وهذا الوصف آية دالة على عمرو ، يبدو فيها شاعراً معسول القول وحاكم عظيم الكياسة . وهو

---

(١) هذا هو قول ابن الأثير وقد تكون تلك الحرب هي التي ذكرت في الهامش السابق منسوبة إلى البلاذري ولكن ابن الأثير لا يذكر شيئاً عن إغراق الأرض وأما اليعقوبي فإنه يذكر أن غزو النوبة بقيادة عقبة ابن نافع كان قبل إنشاء الجيزة ولكنه يوافق على أن العرب لقوا مقاومة شديدة .

(٢) كان تمام فتح النوبة في سنة ٦٥٢ وقد أورد المقريزي شرط الصلح مع أهلها ويمكن أن نجد ذلك الشرط مترجماً في كتاب الأستاذ Lane Poole « Eg. in the Middle Ages » صفحة ٣١ - ٣٣ .

في نثر مسجوع ننقله فيما يلي[1] :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه فلم يكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل . فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدا في جريته ، وطما في ذرته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة وذمة مخفورة[3] ، يحرثون بطن الأرض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ، فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقرّ قاطنيها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألّا يستأدي خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل » .

وتبدو حكمة فاتح مصر عينها في خطبته التي قالها في مسجده ، وهو

---

(١) نقلنا هذا النص عن رواية أبي المحاسن وهي تختلف بعض الاختلاف عما ورد في كتاب جبون في الفصل الحادي والخمسين نقلاً عن ترجمة (Vatier) لرواية المرتضى .

(٢) استعمال عمرو هذا اللفظ يثبت طبعاً أن علاقة الحماية والتعاقد بين العرب والمصريين كانت قائمة على عهد الصلح .

(٣) آثرنا نقل نص الخطاب كله عن « النجوم الزاهرة » مع أن المؤلف لم يترجم كل الخطاب (المعرّب) .

الذي يسمى جامع عمرو ، إلى يومنا هذا ، وذلك في يوم الجمعة من أيام عيد الفصح من عام ٦٤٤[١] ، وقد رواها عنه رجل ممن سمعه كان عند ذلك مع أبيه في المسجد ، فرأى رجالاً يزجرون الناس بالسياط عند ازدحامهم ، وسمع المؤذن يقيم الصلاة ، ثم رأى عمرو بن العاص قام على المنبر . وقد أثرت هيئة عمرو في نفس ذلك الشاب المسلم إذا كان ربعة قصير القامة وافر الهامة ، أدعج أبلج ، ورأى عليه ثياباً موشية كان بها العقيان يأتلق[٢] .

فلما قام عمرو حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم أمر الناس

---

(١) أخذنا هذا التاريخ عن سلسلة استنتاجات فابن عبد الحكم الذي أخذ عنه هذه الخطبة يذكر روايتها عن (يحيى بن ذاخر المغافري) وهو يقول « ذهبت مع أبي لصلاة الجمعة وذلك في آخر الشتاء بعد الخميس الكبير للنصارى بأيام يسيرة » فإذا كان الخميس الكبير معناه خميس العهد كما نظن كان هذا إثباتاً لتاريخ اليوم وأما تاريخ السنة فأقل ثبوتاً ولكن سنة ٦٤٤ هي السنة الوحيدة التي يلوح لنا أن عمراً قضاها في الفسطاط طول هذه المدة وكان فيها قادراً على أن يخطب في أصحابه أن يتنعموا بحياة الريف في وقت الربيع وهم وادعون وقد أورد السيوطي كذلك هذه الخطبة ولكنه يسمي من رواها) بحير بن داجر المغاري) وهذا مثل طيب لأخطاء النساخ ويرى المستر (Corbett) في مقالة على جامع عمرو في مجلة (Roy. Asiatic Soc. Jour. Oc 1890 صفحة ٧٦٨ أن المقصود هو عيد الغطاس . ولكن الشتاء المصري لا يمكن أن يقال إنه انتهى في وسط يناير .

(١-) أكثر هذه النصوص مأخوذة من « النجوم الزاهرة » .

(١ء) هذا التعليق السابق (هامش ١) مبني على ما نظن على خطأ فقد راجعنا النسخة المطبوعة في دار الكتب من « النجوم الزاهرة الجزء الأول » فإذا فيها هامش بتعليق على قوله « وذلك في آخر الشتاء بعد « حميم » النصارى بأيام يسيرة » وجاء في الهامش « كذا في تاريخ ابن عبد الحكم والمقريزي والحميم الغطاس الذي يقع في ١١ طوبة وفي «م» (خميس) وظاهر تحريفه » وإذن فلفظ « خميس » تحريف ولا يصح أن نبني عليه استنتاجاً ما بل إن تاريخ اليوم ثابت وهو يوم الغطاس ١١ طوبة وهذا يتفق مع رأي المستر كوربت وقد أخطأ المؤلف في اسم الراوي الذي روى خطبة عمرو وقد جاء اسمه في النجوم الزاهرة نقلاً عن ابن الحكم « بحير بن ذاخر المغافري » (المعرب) .

(٢) ما يأتي بعد ذلك لا يزيد كثيراً على كونه صورة من رواية أبي المحاسن للخطبة المأخوذة عن ابن عبد الحكم .

بالإحسان والصدقة وطاعة الوالدين ، وأمرهم بالقصد ونهى عن الإفراط والفضول ، وحذر المسلمين مما يسبب لهم النصب بعد الراحة والضيق بعد السعة والذلة بعد العزة . وهذه الأمور التي حذرهم منها هي كثرة العيال وإخفاض الحال والقيل بعد القال . ثم بين لهم أن الإفراط في الفراغ واتباع الشهوات أكبر أسباب الضياع والفساد إذ هي تقضي على فضائل النفس . ثم قصد عمرو بعد ذلك إلى معنى آخر فقال : « يا معشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء وارتفع الوباء ، وقل الندى وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر ، فحي لكم على بركة الله إلى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، وإياكم والمسومات والمعسولات ، فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم. حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة ». فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم[1]، ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوق قلوبهم إليكم ، وإلى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض »: فقال له أبو بكر : « ولم يا رسول الله ؟» قال :

(١) يبرهن ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر بالأحاديث والروايات الإسلامية على أن القبط كان لهم حق عظيم في حسن معاملة المسلمين لهم وأن النبي ﷺ قد أوصى المسلمين بذلك وأكد توصيته وقد أخذ أبو صالح هذه الرواية عن ابن عبد الحكم (أنظر صفحة ٩٧ - ١٠٠ مع هوامش (Evett) وما كان أجدر المسلمين أن يذكروا أكثر مما فعلوا في تاريخهم وصية النبي وهو على فراش موته .

« لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة »(١). فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس الزرع وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته .

أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم » .

ويروي المسلمون رواية عجيبة وهي أن من أول ما صنعه عمرو بمصر أن أبطل عادة كان المصريون يتبعونها كل عام ، بأن يضحوا بفتاة عذراء يلقونها في النيل حتى يفيض . ويقال إن النيل لما امتنعت هذه العادة القديمة بأمر عمرو لم يعل وأبى أن يفيض، حتى كتب الخليفة عمر كتاباً ألقى فيه فعلاً وفاض(٢) . وهذه ولا شك قصة من أقاصيص الخرافة ، فليس فيما اعتاده مسيحيو مصر ما يدعو إلى تصديق أنهم كانوا يبيحون التضحية بالبشر ، وليس من سبب يدعونا

---

(١) ليست هذه الرواية كما أوردناها هنا واضحة كل الوضوح فهي في العادة تروى بصورة أخرى وهي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال قبل موته ثلاث مرات « استوصوا بالأدم الجعد » ثم غشي عليه . فلما أفاق سئل عن معنى قوله فقال « قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم . فلما سئل عن معنى قوله أنهم سيصيرون أعوانهم في الدين قال : « يكفوكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة فالراضي بما يؤتي إليهم كالفاعل بهم والكاره لما يؤتي إليهم من الظلم كالمستنزه عنهم » (المؤلف) .

(١-) أخذنا نص الحديث من كتاب « حسن المحاضرة » ونقلناه كاملاً إتماماً للمعنى . (المعرب) .

(٢) نجد هذه الرواية في ابن الفقيه (Bibl. Geog. Arab Part V. صفحة ٦٥) وهو يذكر أن تاريخ التضحية بالفتاة كان في ١٢ بؤنه (٦ يونيه) وأن إمتناع النيل عن العلو بقي إلى « اليوم الذي قبل الصليب » أي إلى يوم ١٣ سبتمبر الذي ألقى فيه خطاب الخليفة في النهر وهذا التاريخ يظهر فساد هذه الرواية وقد وردت ترجمة انجليزية لذلك في كتاب « Hist. of the Califs. » في مجموعة (Bibliotheca Indica) (الجزء XVIII المجموعة III صفحة ١٣٠) .

إلى تصديق سر كتاب عمر وقوّته العجيبة . على أن هذه القصة تشبه أكثر أمثالها من الأقاصيص في أن لها أساساً من الحقيقة التاريخية كما يلوح ، فقد كان من عادة أهل السودان حقيقة في أقصى انحائه الجنوبية أن ترمي قبائله الهمج في النهر بفتاة عذراء في زينة الزفاف[1] ولعل عادة كهذه كانت متبعة في بعض جهات الهمج من بلاد النوبة التي فتحها الإسلام في أول أمره ، ولعل عادة التضحية بفتاة ترمى في النهر كانت متبعة في مصر في أيام الفراعنة ، وإنه من المحقق أن الاحتفال بالنيل والدعاء من أجل زيادته وفيضه كانت تقع فيه أعمال خرافية كثيرة تخلفت من العصور القديمة ، ولكنها لم يكن فيها شيء مثل ذلك الجرم من التضحية بالعذراء . وقد بقيت بقية كبيرة من هذه الخرافات القديمة العهد في الاحتفال بالنيل إلى أيام القرن الرابع عشر[2] ، ولكنه من أكذب الكذب أن يتهم المسيحيون بأنهم حافظوا على مثل هذه العادة الشنيعة التي لا ترضى عنها ديانتهم ولا تقرّها ملتهم .

وإن قول عمرو الذي اقتبسناه فيما لف من قولنا ليدل دلالة واضحة على طريقته في الحكم ، وعلى ما أراد أن يصله من الصلة بين الغزاة الفاتحين وأهل البلاد . وعندنا دليل أكبر دلالة على هذا الميل وتلك النزعة فيما كتبه عمرو في أمره الذي أمره بتأمين البطريق بنيامين وإعادته إلى سابقة ولايته . وقد حدا به إلى انتهاج تلك الخطة أنه رأى أن أمور السياسة لا تستقر في هذا البلد إلا إذا استقرّت معها أمور الدين .

---

(١) ثبت بقاء هذه العادة في (بورنو) إلى الأيام الحاضرة من كتاب رحلات (Harnemann) (الجزء الأول صفحة ١٤٣) وكتاب (Burckhardt) (ذيل « Travels in Nubia » II) صفحة ٤٤٤ وقد نقل عنه (Hamaker) في كتابه (Expugnatio Memphidis) صفحة ١٣٣ : ويشير (Hamaker) إلى يوميه (Rich) في مجلة (Quarterly Review) سنة ١٨٢٠ صفحة ٢٣٢ وتعليقه كله جدير بالقراءة .

(٢) أنظر كتاب (Hamaker) صفحة ١٣٤ وهو يثبت على الخصوص استعمال بعض آثار (مارجرجس) لإحداث الفيضان وقد هدمت كنيسة مارجرجس التي كانت تلك الآثار بها وأحرقت وذرى رمادها في النهر في سنة ٥٥٧ للهجرة (أو سنة ١٣٤٤ للميلاد) .

الفصل السابع والعشرون

إعادة بنيامين

حال الكنيسة القبطية عند موت قيرس ـ عودة الحرية ـ دعوة عمرو إلى بنيامين ـ عودة البطريق من منفاه ـ لقاؤه لعمرو ـ نشور الكنيسة ـ إصلاح أديرة الصحراء ـ فرح القبط ـ رأيهم في خروج الروم من مصر .

لما مات البطريق الروماني (قيرس)، ورحلت عن مصر جيوش الروم التي كان سلطانه يعتمد عليها ، حدث تغير كبير في حال الأحزاب الدينية إذا انقضى بذلك أمد البلاء الأكبر ، الذي حل طويلاً بالناس من جراء الاضطهاد . وقد أقيم خلف لبطريق الرومان في الاسكندرية ليقوم على ولاية أمر المذهب الملكاني ، ولكن ولايته كانت لا تتعدى أسوار المدينة ، وذهب عنه سلطانه وانفض من حوله كثير من أتباعه . ولكن بطريق القبط كان لا يزال على اختفائه طريداً يضرب في أنحاء الصعيد ، ويهيم على وجهه فيه . فكان يخيل إلى الناس أن مذهبه قد بات صريعاً لا تكاد الحياة تدب فيه ، مما أصابه من الوطء والعسف في محنته التي تطاولت به مدّتها نحو عشر سنوات على يد قيرس الذي كان لا يعرف الرحمة ، ولا تخطر على قلبه هوادة . وقد أصبحت مصر بعد وليس دينها دين المسيح ، إذ وضعت عليها حماية الإسلام تعلو أحزابها جميعاً ، وأصبح سيفه بينها فيصلاً حائلاً . فأدّى ذلك إلى تنفس الناس في عباداتهم واختيار ما يشاءونه في تدينهم ، فلم يكن بالمسلمين اهتمام لمنازعات الأحزاب في شأن مجمع خلقيدونية ، واختلافهم في صدق ما أقرّه ذلك المجمع أو كذبه ، وأصبح القبط في مأمن من الخوف الذي كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية

ومداراة. فعادت الحيـاة إلى مذهب القبط في هـذا الجوّ الجـديد جـو الحريـة الدينية ، وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذي يحق له أن يكـون مذهب الأمـة السائد . وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك ، وأنفذ قضاءه بأن كتب أماناً لبنيامين وأقر عودته .

وقيل إن الذي حدا بعمرو إلى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه إياه رجل اسمه سنوتيوس (أو هو شنودة)، وكان من قبط مصر، إلا أنه كان مع ذلك من بين قـواد جيش الـرومان[١] . ولكن المـوضع الـذي كان بـه (بنيامين) كـان مجهـولاً[٢] لا يعلم به أحد ، ولا يعرفه (شنودة) نفسه . وعلى ذلك كان لا بد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه ، وكانت صورته كما يلي :

« أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله ، فليأت البطريق إلى هاهنا في أمان واطمئنان ليلي أمر ديـانته ويـرعى أهل ملتـه »[٣]. وليس بالمستبعد أن يكون سعي (شنودة) هذا كان في الوقت الذي جاء فيه رهبان وادي النـطرون إلى عمرو يـظهرون لـه الـطاعـة لحكم المسلمين . فقـد روى المقريزي نقلاً عن بعض مؤرخي المسيحيين أن سبعين ألفاً من الرهبان خرجوا من تلك الأديرة للقاء عمرو بن العاص ، وكان كل منهم يحمل في يده عصا . فلما دانوا له بالطاعة أعطاهم كتاباً لا شك أنـه كان (عهـد أمان)، ولعله كـان العهد الذي نذكره الآن وهو عهد بنيامين[٤] . وقد دخلت مبالغة كبيرة على عدد

---

(١) ساويرس النسخة الخطية بالمتحف البريطاني صفحة ١٠٦ سطر ١٠ وأكثر الحقائق التي أوردناها هنا مأخوذة عن ذلك المصدر.

(٢) هذا برهان جديد إذا احتاج الأمر إلى برهان على فساد الـرأي الذي يجعـل بنيامين هـو المقصود بالمقوقس عند الفتح .

(٣) جاء في كتاب أبي صالح أنه كتب في ذلك الكتاب قوله: «فليأت الشيخ والبطريق آمناً على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين في سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة وهلم جرا (صفحة ٢٣١) وهذا يكاد يكون كالنص المذكور في معناه ولو أنه ليس في مثل دقة النص الذي أورده ساويرس السابق له في التاريخ .

(٤) يذكر المقريزى ذلك الخطاب ويقول إنه لا يزال موجوداً في وادي النطرون، ويذكر كتاباً =

الرهبان كما جرت عادة العرب في إخبارهم ، إذ يزيدون في العدد زيادة تخرج به عن تصور الأفهام . ولا يمنعنا شيء من أن نصدق أن جماعة من الرهبان قد خرجوا إلى عمرو في نحو سبعين أو سبعمائة منهم فأحسن لقاءهم ورحب بهم ، فإنا لا نجد بأساً بمثل هذا الخبر ويمكن للتاريخ أن يسيغه .

ولم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين فعاد من مخبئه ودخل إلى الإسكندرية دخول الظافر ، وفرح الناس برجوعه فرحاً عظيماً بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثة عشر عاماً منذ هجر مقره وهرب إلى الصحراء الغربية عند مقدم (قيرس) . ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر ، والثلاث الباقية كانت في مدة حكم المسلمين[1] . وكان بنيامين في كل هذه المدة يتنقل

= آخر من عمرو عن خازن الأقاليم الشمالية ويقول إنه محفوظ في دير مقاريوس (أنظر ذيل كتاب أبي صالح صفحة ٣٢٠) ولا يذكر ساويرس شيئاً عن الوفد، بل يكتب أنه كان «سينوتيوس القائد المؤمن الذي سعى في عودة البطريق وحصل له على الأمان من قائد المسلمين». وقد جاء ذكر وجود هذا الخطاب في دير مقاريوس في كتاب اميلنو (Hist. des Monastères de la Bass Egypte صفحة XXXII) .

(١) اتفق المؤرخون في مدّة نفي بنيامين وتقسيمها فيقول ساويرس إنه رجع بعد «غياب ثلاثة عشر عاماً: عشرة منها في حكم هرقل، وثلاثة في حكم المسلمين» ثم قال وهو خطأ «قبل فتح العرب للاسكندرية». ويقول حنا النقيوسي (الفصل CXXI صفحة ٥٨٤) إنه عاد بعد «ثلاثة عشر عاماً من هروبه تخلصاً من يد الروم» على أن عنوان الفصل يجعل مدة النفي أربعة عشر عاماً: منها عشرة تحت حكم ملك الروم، وأربعة تحت حكم المسلمين. ويذكر مكين أن المدة كانت ثلاث عشرة سنة. ونظن أنه لا شك في أن عودة بنيامين كانت قرب الخريف من سنة ٦٤٤ أي في آخر سنة ٢٤ هـ. ولكن مكين يجعل ذلك في سنة ٢٠ للهجرة وهو خطأ. وأما ساويرس فإنه يقرن عودة بنيامين بغزوة عمرو إلى بنطابولس، وهو خطأ أيضاً، ولعلنا نستطيع التوفيق بين ساويرس وحنا النقيوسي إذا جعلنا مدة النفي أربعة عشر عاماً فتكون عودة بنيامين في سنة ٢٥ للهجرة وهي السنة التي كانت فيها غزوة بنطابولس الثانية. ولكن هذا إخراج لقول ساويرس عن قصده، إذ الظاهر أنه يقصد الغزوة الأولى ولو أنه مخطىء في ذلك فالحقيقة هي أنه لا جدوى من محاولة التوفيق بين هذه الفروق والخلافات التي لا أمل في التوفيق بينها.

خفية بين أصحاب مذهبه ، أو يقيم مختبئاً في أديرة الصحراء . وإنه لمن الجدير بالالتفات أن هذا البطريق الطريد لم يحمله على الخروج من اختفائه فتح المسلمين لمصر واستقرار أمرهم في البلاد ، ولا خروج جيوش الروم عنها . وليس أدل من هذا على افتراء التاريخ على القبط واتهامهم كذباً بأنهم ساعدوا العرب ورحبوا بهم ورأوا فيهم الخلاص ، مع أنهم أعداء بلادهم . ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب لكان ذلك عن أمر بطريقهم أو رضائه ، ولو رضى بنيامين بمثل هذه المساعدة وأقرها لما بقي في منفاه ثلاث سنوات بعد تمام النصر للعرب ، ثم لا يعود بعد ذلك من مخبئه إلا بعهد وأمان لا شرط فيه . ولو لم يكن في الحوادث دليل على كذب هذه الفرية غير هذا الحادث لكان برهاناً قوياً ، وإن لم يكن برهاناً قاطعاً فهو حلقة تضمه إلى سلسلة ما لدينا من الأدلة ، وقد أصبحت سلسلة لا يقوى على نقضها شيء .

ولما أبلغ شنودة عمرو بن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو بإحضاره إليه ، وأمر بأن يقابل بما يليق به من الترحاب والتكريم . وقد كان بنيامين ذا هيئة جميلة تلوح عليه سيما الوقار والجلال . وكان عذب المنطق في تؤدة ورزانة ، فكان لذلك أثر عظيم في نفس عمرو ، حتى قال لأصحابه : « إنني لم أر يوماً في بلد من البلاد التي فتحها الله علينا رجلاً مثل هذا بين رجال الدين » . وقد قيل إن بنيامين قال عند ذلك «خطبة جليلة » . ولا شك أن عمراً لم يفهم من ذلك حرفاً . ولكنه عندما عرف ما يقصده وفهم مراميه أحسن تلقيها وقبولها ، وجعله أميراً على قومه لا يدافع فيهم أمره ، وجعل له ولاية أمر دينهم .

ولقد كان لعودة بنيامين أثر عظيم في حل عقدة مذهب القبط وتفريج كربته ، إن لم تكن عودته قد تداركت تلك الملة قبل الضياع والهلاك ، إذ لم يكن قبط مصر في وقت من الأوقات أشدّ حاجة منهم في ذلك الوقت إلى ذي رأي حصيف وخلق متين يقودهم ويلي أمرهم ، فقد كان منهم من خرجوا من عقيدتهم وهم ألوف ، ورضوا باتباع مذهب (خلقيدونية) خوفاً من اضطهاد قيرس . ولا شك أن الخروج من الدين كرهاً أو خوفاً لا يكون في مبدأ أمره

حقيقياً ، ولكن لقد مضى على ذلك الأمر عشر سنين واعتاد النـاس السير على ما دخلوا فيه ، وما كان بناء عشر سنين ليتهدّم في لحظة ويزول . ولقد كان أشدّ خطراً على القبط من كان يخرج منهم إلى الإسلام ، وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها . فإنه مما لا شك فيه أن كثيراً منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفـاتحين ، حتى يكون له ما لهم ، وينجو من دفع الجزية . ولكن هذه المطامع ما كانت لتـدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية . وأما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كـان منها من عصيـان لصاحبهـا ، إذ عصت مـا أمر بـه المسيح من حب ورجـاء في الله ، ونسيت ذلك في ثـوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها . ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته .

ولم يكن من اليسير أن يعاد من خرج من المسيحية إلى حظيرتها بعد أن قـطع أسبابهـا، فإن ذلـك كـان لا رجـاء فيـه. ولكن الأمـر كـان على غيـر ذلـك في أكثر من اضطر إلى اتبـاع مذهب الملكـانيين خوفـاً أو كرهـاً. وقد كـان لعودة بنيامين إلى عرش الإسكنـدرية وأبنـائها رنـة طرب في قلوب أهـل مصر جميعـاً، فعـاد جل العـامة إلى راعيهم القـديم والفرح يملؤهم، «ونـالـوا على يـديـه تـاج الاعتراف»[1]. ونادى البطريق المطارنة الذين اتبعوا مذهب الدولة أن ارجعـوا إلى سابق عهدكم وملتكم . فعاد بعضهم يذرفون الدمع السخين ندمـاً ، ولكن قيل إن واحداً منهم أبى أن يعود حتى لا يلحقه العار خوف أن تعرف عنه الردّة الأولى . وفعل الكثيرين كانوا مثله في هذا . ومهما يكن من الأمر فقد نمـا أمر القبط وزاد أتباع ملتهم . وكان هم بنيامين في أول الأمر أن « يقـدح فكره ليـلاً ونهاراً في أمر رعيته وإرجاع من ضل منهم في أيام هرقل » . فلما أن تم له جمع قومه ولمّ شعثهم اتجهت همته إلى إصلاح ما تهدم من الأديرة ، ولا سيما ما كان

(١) ساويرس، الكتاب الأول، صفحة ١٠٧ .

منها في وادي النطرون ، وقد لحقها من التخريب في أوائل القرن السابع ما لم تعد معه إلى سابق عهدها .

واستطاع بنيامين أن يجد ما يلزم لذلك الإصلاح من المال ، ثم أتمه على ما أراد، وقد وصف (ساويرس) ما يتصل بهذا الأمر من الحوادث وصفاً شائقاً فقال إن جماعة من الرهبان وفدوا إلى الإسكندرية حتى دخلوا «باب الملائكة»[١]، وكان بنيامين عند ذلك يصلي بالناس صلاة عيد الميلاد. فطلبوا إليه أن يذهب معهم ليبارك الكنيسة الجديدة التي بنيت في الصحراء وهي كنيسة القدّيس (مقاريوس)، فأجابهم إلى ما طلبوا وسافر معهم إلى (المنى) و(جبل البرنوج) حتى بلغ (دير البراموس)، وذهب بعد ذلك من هناك لزيارة الأديرة الأخرى . وجاء في اليوم الثاني من شهر يناير إلى (دير مقاريوس)، فلقيه هناك المعلم الأكبر (بازل) مطران نقيوس ، ورحب به في موكب حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل . وفي اليوم التالي وهو الثامن من شهر طوبة احتفل بمباركة الكنيسة واتفقت له عند ذلك ـ كما قال ساويرس ـ آيات وكرامات لا محل لذكرها هنا . ولعله من المستحسن أن نذكر هنا كلمات (بازل) الذي شكر الله على ما أولى البطريق من زيارة الصحراء المباركة مرة ثانية ، وأن يرى من فيها من الآباء المقدّسين والإخوة الطيبين الأبرار ، ويشهد بها شعائر الدين القويم ثم شكر الله على أن أنجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر الذي شرده ، فعاد إلى أبنائه يراهم ملتفين حوله مرة أخرى[٢] .

وإن هذا القول لا ينم عن قوم يشعرون بأنهم في قيد الذل ، بل ينم عمن يبتهج بالنجاة والخلاص . وقد جاء في غير هذا الموضع من كتاب الكاتب عينه

---

(١) اللفظ المستعمل هو (Stoa Angelion) وهو نقل عن اللفظ اليوناني ويشير إلى الكنيسة التي اسمها الانجيليون. ولعل هذا دليل على أن اسم (Angelion) أصح من (Euangelion).

(٢) ساويرس الكتاب الأول صفحة ١١١ الأسطر ١٥ ـ ٢٠

ما يؤيد هذا المعنى ويوافقه . قال على لسان بنيامين : « كنت في بلدي وهو الاسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم »[1] وقد وصف قومه بأنهم «فرحوا كما يفرح الأسخال إذا ما حلت لهم قيودهم وأطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم » وكتب (حنا النقيوسي) بعد الفتح بخمسين عاماً ، وهو لا يتورّع عن أن يصف الإسلام بأشنع الأوصاف ويتهم من دخلوا فيه بأشدّ التهم ، ولكنه يقول في عمرو إنه « قد تشدد في جباية الضرائب التي وقع الاتفاق عليها ، ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئاً من النهب أو الغضب . بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة حياته »[2] .

إذن فما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه ، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم ، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان . وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فك من قيدهم في أمور الدنيا ، وأرخى من عنانهم . وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حرّ وأمر طليق . وقد يقال إن حكامهم الجديدين قد أدخلوا إلى الأرض ديناً غريباً غير دين المسيح ، وهذا حق . غير أنهم لم يروا في ذلك إلا عدلاً من الله إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا : « ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس . فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر »[3] .

---

(١) نفس الكتاب صفحة ١١٠ سطر ٥ وصفحة ١٠٨ سطر ١٨ .

(٢) صفحة ٥٨٤ ويقول (Vansleb) إنه رأى على جدران المعلقة في قصر الشمع (أو بابليون) عهداً كتبه عمرو بن العاص بيده لحماية الكنيسة وهو يلعن من يسعى من المسلمين إلى حرمان القبط منها ويقول إن القبط دفعوا لعمرو فدية عن تلك الكتب (Nouvelle Relation d'un Voyage fait en Egypte) (صفحة ٢٣٧) .

(٣) نفس الكتاب.

هكذا كان الناس يرون ، وهكذا كانوا يحكمون . غير أن التاريخ لن يحكم مثل حكمهم هذا الذي دفعهم إليه الميل إلى ملتهم وحزبهم ، ولكنه لن يستطيع إلا أن يحكم بأن العسف وسوء الحكم هما اللذان هويا بدولة الروم بغير شك إلى الضياع وزوال السلطان .

الفصل الثامن والعشرون

الحكم الإسلامي

المساواة بين المسيحيين في حكم القانون ـ حالة أهل الذمة ـ الأحوال الدينية ـ النظام السياسي ـ إبقاء الموظفين الروم ـ خراج الأرض والجزية ـ صفتها ومقدارها ـ حكم عمرو العادل وغضب الخليفة عليه ـ ما تردد بينهما من المكاتبة ـ عثمان يطلب الزيادة أسوة بفعل عمر ـ قصة بطرس القبطي ـ إعفاء من أسلم من المسيحيين من الجزية وما نشأ عن ذلك ـ قلة موارد المال ـ الاشتداد في مطالبة المسيحيين .

لم يكن عجباً من أمر القبط أن يسعوا إلى الإيقاع بأتباع المذهب الملكاني والاقتصاص منهم ، بعدما ذاقوه من الروم وبطريقهم قيرس من سوء العذاب . ولكن ما كان عمرو ليبيح لهم مثل هذا الأمر إن دار في خلدهم أن يفعلوه ، فإن عمراً كان في حكمه يسير على نهج الاعتدال والتسامح ، ولم يكن له هوى مع أحد المذهبين الدينيين . ولدينا كثير من الأدلة على صدق هذا الرأي ، فمثلاً يذكر ساويرس أن أسقفاً ملكانياً بقي على مذهبه حتى مات لم يمسسه أحد بأذى ، وذكر أن بنيامين كان يستميل الناس إلى مذهبه بالبرهان والاقناع . وقد ورد ذكر كثير من كنائس الملكانيين بقيت إلى ما بعد ذلك من العصور[١] . وورد ذكر الملكانيين وأن عدداً كبيراً منهم كان باقياً في مصر إلى ما بعد الفتح

(١) بقيت إلى اليوم كنيسة من هذه الكنائس على قمة برج قصر الشمع في قلب مكان القبط ومعقلهم.

بخمسين عاماً[1]. وعلى هذا لا بد لنا من أن نقول إن المذهبين كليهما قد بقيا جنباً إلى جنب في مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونهما جميعاً بحمايتهم .

والظاهر أن حماية المسلمين لأهل الذمة كانت في ذلك الوقت الأول من حكم الإسلام لا تقيدها القيود التي دخلت فيما بعد على أحكامه في أمر أهل الذمة ، فإن شرط الصلح مع المسيحيين في مصر قضى بأن يدفعوا الجزية ، على أن يأمنوا في بلادهم ، ويدفع عنهم من أراد غزوهم من عدوهم ، فكان هذا عهد أهل الذمة الذي استقروا عليه . ولكنا نجد تغيراً طرأ على هذا العهد ، فنجد منذ القرن العاشر أن دفع الجزية تقيد بنوعين من الشروط : فالنوع الأول من هذه الشروط ما يجب لزومه واتباعه في كل الأحوال ، والنوع الثاني ما يكون لزومه واتباعه بحسب شرط العقد إن وجد . والشروط التي لا بد من لزومها واتباعها هي :

(١) ألا يعتدى على القرآن ولا تحرق مصاحفه .
(٢) ألا يقال عن النبي إنه كذاب ولا يحقر في القول.
(٣) ألا يسب دين الإسلام ولا يرد عليه بالتكذيب.
(٤) ألا يتزوج مسيحي من مسلمة.
(٥) ألا يغرر بمسلم أو يغرى على أن يرتد عن الإسلام ولا أن يؤذي في ماله ولا في نفسه.
(٦) ألا يوالى أعداء الإسلام ولا ينصروا ولا يكرم أغنياؤهم.

وأما الأمور التي يتبع فيها شرط العقد فهي :

(١) أن يلبس أهل الذمة لباساً يميزهم ويعقدوا الزنانير على أوساطهم.

---

(١) جاء في وثيقة كتبت في ذلك الوقت (أنظر كتاب (Vie du patriarch Isaac) (ترجمة أميلنو صفحة ٥٢) أن البطريق «أرجع عدداً عظيماً عن كفرهم فقادهم إلى الإيمان الصحيح فعمد بعضهم وتلقى الآخرين وجعلهم يرجعون بأنفسهم عن إلحادهم وينكرونه » إلخ . ولا بدَّ قد كان أكثر ذلك الكفر إن لم يكن كله معناه اتباع مذهب الكنيسة البيزنطية ، مذهب خلقيدونية .

(٢) ألّا يعلوا في بنيانهم على المسلمين .
(٣) ألّا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم[١] ولا بترتيلهم في صلاتهم ولا بما يرون في عقائدهم سواء في ذلك اليهود والنصارى.
(٤) ألا يبدوا صلبانهم ولا يشربوا الخمر جهاراً ولا يظهروا خنازيرهم.
(٥) أن تقام مآتمهم بغير احتفال وتدفن موتاهم كذلك.
(٦) أن يركب أهل الذمة البراذين والخيول المعتادة وأن يتجنبوا ركوب الأصائل[٢].

وليس في كل هذه الشروط ما لا يقبله العقل ، ولكنا نشك في أنها كانت مشترطة عند أول دفع الجزية وقت الفتح . فإن كثيراً من الأمور التي جرت عليها العادة أصبحت في حكم القانون وصار الناس ينظرون إليها فيما بعد كأنها من أصل الدين ومن أحكام الإسلام . فقال الماوردي مثلاً : « إنه لا يحق لأهل الذمة أن يتخذوا لأنفسهم كنائس أو بيعاً جديدة في دار الإسلام ، فإذا بنوا لأنفسهم ذلك هدم . ولكن لهم أن يعيدوا بناء ما تهدَّم من كنائسهم أو بيعهم ». وهذا التفريق لم يكن في أول عهد حكم الإسلام في مصر . فقد ورد أن القائد (سنوتيوس) أرسل إلى بنيامين مقداراً عظيماً من المال لبناء كنيسة القدّيس مرقص في الاسكندرية[٣] . وورد أيضاً أن البطريق (حنا السمنودي) بنى كنيسة

---

(١) الناقوس بالمعنى الدقيق هو الناقوس الخشبي وليس المعدني. (أنظر ما سبق في هامش ٦ صفحة ٢٥٢) .

(٢) أخذنا هذه الأخبار عن الماوردي وقد كتب في النصف الأول من القرن الحادي عشر ومات في سنة ٤٥٠ هجرية أي سنة ١٠٥٨ ميلادية وكتابه «كتاب الأحكام السلطانية» أكبر حجة في موضوع الضرائب في العصور الأولى. وقد رجعنا إليه كثيراً في هذا الفصل وقد جاء أول ذكر جباية الأموال في صفحة ٢٤٥ وهو عن الجزية ثم في صفحة ٢٥٣ وهو عن الخراج.

(٣) ساويرس الجزء الثالث صفحة ١٠٨ سطر ١٠ وليس من الواضح إذا كان بنيامين قد أفلح في الحصول على المال الكافي وليس في النص ما يثبت رأي من يقول إن النية قد اتجهت عند ذلك إلى إعادة بناء الكنيسة الأصلية كنيسة القديس مرقص.

وكرسها باسم ذلك القدّيس عينه[1] ، فلما جاء بعده البطريق إسحق قيل إن حاكم مصر نفسه عبد العزيز بن مروان أمر أن تبني كنيسة في مدينته الجديدة حلوان[2] . فالظاهر من هذا أن القبط نالوا في أول الأمر كل ما يتصوره العقل ويبيحه من الحرية.

وليس من المستطاع أن نحدّد النظام السياسي الذي سارت عليه البلاد عند ذلك بمثل هذه السهولة ، غير أن الحكم المدني كان على وجه الإجمال على عهده الأول لم يغير فيه شيء ، إذ كان العرب رجال حرب وسيف ، لم يتعوّدوا حكم البلاد ولم يحذقوا فنونه . ولم يكن بينهم نظام معروف قد يتخذونه في مصر أو يدخلون منه شيئاً في إدارة أمورها ، ومصر عريقة في الحضارة ذات نظام مقرر مشعب . بيد أن العرب كانوا أهل ذكاء وفهم سريع ، فكان في استطاعتهم أن يتناولوا أعنة الحكم التي وجدوها دونهم ويديروا بها الأمور على ما كانت سائرة عليه من قبلهم . وقد بينا فيما سلف أن بعض أكابر حكام الروم قد بقوا في أعمالهم ، ولعل طائفة كبيرة من عامة الروم ساروا في ذلك على منهاجهم ، غير أنه لا بد قد خلت أعمال كثيرة إذ نزح عمالها الروم الذين لم يرضوا أن يكونوا من رعية الإسلام ، فجعل العرب في مكانهم عمالاً من القبط ، فما مرّ إلا قليل زمن حتى صار عمال الدولة يكادون جميعاً يكونون من المسيحيين . وهذا أمر كان لا بد منه في مثل تلك الحال ، إذا كان العرب قوماً لا عهد لهم بالمدينة ، وفتحت لهم بلاد ذات حضارة عالية . وقد تنبأ بذلك الرسول نفسه بثاقب نظره ، وأقرّه في قوله إقراراً صريحاً . وعلى ذلك خلا المسلمون من أعباء الحكم وانصرفوا إلى أمور الدين ، إذا لم تشغلهم عنه مشاغل الدنيا . ومن العجيب أن نجد كثيراً من أسماء الروم وألقابهم باقية في حكم الإسلام ، ورغم تطاول الزمن ، فقد بقي القبط إلى آخر القرن السابع

(١) (Ed. Amelineau) Vie du patriarche Codte Isaac صفحة ٤٤ وتاريخ حنا هو سنة ٦٨٠ ـ سنة ٦٨٩ للميلاد (أنظر الذيل السادس).

(٢) (Vie du Pat. Copte. Isaac) صفحة ٧٨ ، ولا شك في أن تاريخ ذلك يكون سنة ٦٩٣.

يسمون المسجل أو الناموس باسمه الروماني «الخرتولاريوس» ويسمون رئيسه باسم «الأرباخوس» أو «الأرخون» ويسمون مقرّ الحاكم باسم «البريتوريوم». وكانوا يسمون حاكم الإسكندرية باسم «الأغسطل»[1] . وقد ورد لقب «دقس» في كثير مما كتب في القرن الثامن[2] ولا سيما في الحجج الشرعية ، وقد استعمله الكاتب «ساويرس » وكان في القرن العاشر[3] .

ولكن الظاهر أن العرب وإن حافظوا على طرق الروم في تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم ، كانوا على ما يلوح لنا أخف منهم وطأة في جباية الأموال ، إذ كان مقدار الجزية والضرائب الذي اتفقوا عليه في عهد الصلح أخف حملاً على الناس وأقل إحراجاً لهم . وإنه من الصعب أن يعرف الإنسان حقيقة مثل هذا الأمر ، فليس دوننا إلا ما كتبه العرب ، واختلافهم يبلغ معظمه في إحصاء الأعداد وذكر الأرقام . فابن عبد الحكم مثلاً[4] يقول إنه لما استقرَّ الأمر لعمرو بن العاص جعل القبط يدفعون من الجزية مثل ما كانوا يدفعون للروم ، غير أنها كانت تتغير بحسب غناهم ورواج أمورهم . وليس لهذا في نظرنا إلا معنى واحد ، وهو أن عمراً سار على ما كان الرومان يسيرون عليه في جباية خراج الأرض ، لأن الجزية التي فرضها العرب على القبط كان مقداراً معلوماً ، في حين كان خراج الأرض يتغير بحسب علو الفيضان وبحسب حال الزراعة . ويقول ابن عبد الحكم بعد ذلك : إن زعماء الناس في القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا في حال الزراعة ، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك . فكانوا في ذلك بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يجبى من الأموال ، فإذا اجتمع من ذلك المال شيء فوق ما فرض على قريتهم أنفق في إصلاح أحوالها . وكانت تجعل في كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح

(١) (Vie du Pat. Copte. Isaac) صفحات ٥ و ٧ و ٧٣ .

(٢) أنظر كتاب المستر (W. E. Crum) «Coptic Ostra » رقم ٢٥٦ .

(٣) يذكر المستر ملن أن النظام الروماني للحكومة في مصر قد احتفظ المسلمون بمجمله في حكومتهم حتى يومنا هذا (أنظر كتاب «Eg. Under Rom. Rule » صفحة ٢١٦).

(٤) نقله عنه السيوطي في صفحة ٨٧.

الابنيـة العامـة وصيانتهـا ، وذلك مثـل الكنائس والحمـامات . وكـانوا كـذلك يقدرون ما يفرض على الناس من المـال لضيافـة العرب ، وكـان هذا حقـاً من حقوق العرب عليهم ، وكذلك ما كان يفرض من المال لضيافة الحاكم وإكرامه إذا وفد عليهم .

هـذا وصف لا بأس بـه لحال الضـرائب وجبايتهـا على الأرض ، ولكنا لا نعلم هل وقع الاتفاق عليها في شرط الصلح عند الفتح ، أم أنها بقيت على مـا كانت عليـه يعدّونهـا ضريبـة على ملك الأرض . وكذلـك ليس من الجلي ما يقصده مؤرخو العرب إذ يذكرون خراج مصر ، أيقصـدون كل مـا يجبى من أموالها ، أم يقصدون الجزية وحدها ، أم الخراج وحده . غير أنه يلوح لنا أنهم إنمـا يقصدون الخـراج ، فقد جـاء عنهم أن عدد من فـرضت عليهم الجـزيـة دينارين : ستة آلاف ألف نفس ، وجاء بعد ذلك أن مقدار المال الذي جبي من مصر كان اثني عشر ألف ألف دينار[1] . ويقول مؤرخو المسلمين إن هذا المال

(١) نقل السيوطي عن عبد الله بن صالح هذه الأرقام وأبو صالح (صفحة ٨٢) يذكر عبارة هامة وهي أن عمراً في سنة ٢٠ للهجرة جبى ألف ألف دينار. وفي سنة ٢٢ للهجرة جبى اثنى عشر ألف ألف دينار. ومعنى ذلك أنه في السنة التي فتح فيها حصن بابليـون بلغ مقدار الجزية ألف ألف ثم زاد ذلك المقدار إلى اثني عشر ألف ألف بعد عام الفتح ، وهذا يلوح لنا قريب الاحتمال. وقد ذكر ابن حوقل المقدار نفسه أي اثني عشر ألف ألف دينار وذلك نقلاً عن أبي حازم القاضي(Bibl. Geog.Arabe Part II) صفحة ٨٧ وهو يذكر صراحة أن المقدار المذكور هو الجزية وحدها. وأما البلاذري فإنه عندما ذكر خراج مصر الذي جباه عمرو جعله ألفي ألف دينار (صفحة ٢١٦) ولا بد من أن نعـزو هذا الخـلاف إلى خطأ النساخ وقد تكرر هذا الخطأ مرة أخرى إذ جاء فيه أن الخراج الـذي جمعه عبـد الله بن سعد كان أربعة آلاف ألف بدل أربعة عشر ألف ألف. ويذكر اليعقوبي (الكتاب السابق الذكر الجزء السابع صفحة ٣٣٩) أن عمـراً جبى أربعة عشـر ألف ألف دينار في السنـة الأولى من ولايته ثم عشرة آلاف ألف في السنة التي تليها ولكنا لا نستطيـع تعليل هـذا الاختلاف بسهولة والظاهر أن تواتر الأدلة يثبت أن الجزية كانت اثني عشر ألف ألف دينار وهذا مع أن المقريزي ذكر في الخطط صفحة ٧٦ من الجزء الأول أن أهل مصر الـذين فرضت عليهم الجزية بلغ عددهم ثمانية آلاف ألف.

أقل مما كان يجبيه المقوقس ومقداره عشرون ألف ألف دينار[١] . فإذا صح لنا أن نصدّق هذه الأعـداد ونثق في أنها قـدّرت على أساس واحـد في الحالين ، وأنها تصلح لأن تكون أساساً للمقارنة ، كان لا بدّ لنا أن نتخذها دليلاً على أن حكم العرب كان بركة على المصـريين خفف عنهم وطأة الضـرائب . على أن الأمر كان على غير ذلك ، إذ أن المال الذي يذكره العرب لا يقصد منه إلا مال الجـزية ، في حين أن مـا يذكـر عن أموال الـروم لا يُقصد بـه في أغلب الظن الجـزية وحـدها ، إذ أن الـروم كانـوا يجبون من مصـر جزيـة على النفـوس ، وضرائب أخرى كثيرة العدد[٢] . ومع كل هذا فإنه مما لا شك فيه أن ضـرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجري بين الناس على غيـر عدل ، إذ كـانت تعني منها طائفة ممتازة من أفراد أو جماعات[٣] . وكذلك لا شك في أن الدولة في أيام هرقل كانت في أشدّ الحاجة إلى المال ، وذلك في السنوات التي قبل الفتح ، فليس ثمة من سبب يحدو بنا إلى تكذيب ما ذكره مؤرخو المسلمين من خفة وطأة الضرائب على المصريين بعد فتح العرب . هذا إلى أن العرب أزالوا ما كان مقرراً من التفريق بين الناس في جباية الضرائب ، وإعفاء بعضهم منها ، غير أن النفس بها شيء من الشك في أمر الإسكندرية ، إذ من المحقق أن أهلها كانوا شديدي الضجر من الحكم الجديـد . ولعل هـذا الضجر قـد لحقهـم لما أصابهم من زوال بعض امتياز كان لهم ، إذ لعلهم كانوا من قبل لا تفرض عليهم

---

(١) نجد اضطراباً في قول أبي صالح فالظاهر أنه يذكر (صفحة ٨١) أن الروم كانوا يجبـون عشرين ألف ألف دينار ويذكر في الوقت عينه أن هرقل طلب من قيرس أن يجبي له ثمانية عشر ألف ألف ولعله يقصد أن قيرس احتفظ بما زاد من ذلك المقدار الذي جباه.

(٢) أنظر كتاب ملن (Eg. Under Rome. Rule) صفحة ١٢١ ـ ١٢٢ وكل هذا الفصل جدير بأن يقرأ لأنه يظهر أن الضرائب كانت كثيرة الأنواع وغير عادلة كما أنه يـظهر أن العـرب ساروا على نهج الروم ولزمـوه في كثير من تفـاصيل نـظامهم (أنظر مثـلا صفحة ١١٩ و ١٢٥).

(٣) يذكر المستر ملن (في الكتاب السالف الذكر) نقلاً عن يوسفوس أن أهل الإسكندريـة كانوا معافين من الجزية ولكنه لا يذكر المدة التي بقوا فيها على ذلك الإعفاء .

جزية على الأنفس ، أو لعلهم قد لحقهم ضرر لما أصاب المدينة في أرزاقها من فادح الخسارة في تجارتها ، وكساد أسواقها في مدة الحرب الطويلة التي حلت ببلدهم ، ومما فقدته من الخير عندما هاجر منها كثير من أغنياء التجار والأعيان عند الفتح وتسليم المدينة . وإذا صح أن عهد الصلح شرط على المدينة أن تفقد ما امتازت به قديماً وهو الإعفاء من جزية الأنفس ، كان من العسير علينا أن ندرك كنه ذلك الصلح . وأغلب الظن أن مدينة الإسكندرية قد حرمت من ذلك الامتياز قبل فتح العرب بحين من الدهر .

وقد رأينا فيما سلف أن الضريبة التي كان العرب يسمونها الجزية كانت دينارين على كل رجل ، ليس على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، ولا الشيخ الفاني . ولم تفرض على النساء ولا على الرقيق ولا على المجانين أو المساكين المعدمين . على أن الجزية وإن كانت في مجموعها على عدد الرؤوس عن كل رجل دينارين ، لم تكن على ما يظهر لنا واحدة على كل فرد ، بل كانت تختلف . وذلك لأن الدينارين لا يتكلف الغني في حملهما شيئاً ، في حين أنهما يبهظان الفلاح الفقير. فلعل الحاكم كان له الخيار أن يقسم من تفرض عليهم الجزية إلى ثلاثة أقسام : الفقراء وأوساط الناس والأغنياء ، فكان يضع على كل فئة قسطاً من الجزية خلاف ما يضعه على غيرها[1]. وهذا أمر لا يأباه

---

(١) ذكر المقريزي عن يزيد بن أسلم أن عمر كتب إلى قواده يأمرهم أن يجعلوا الجزية بحيث يدفع الغني أربعة ويدفع الفقير أربعين درهماً، ولكن يلوح أن هذا التقسيم غير مدرج. غير أن الماوردي يقول إن الفقهاء اختلفوا في مقدار الجزية، فقال أبو حنيفة إن الجزية مقادير ثلاثة: (١) يؤخذ من الغني ثمانية وأربعون درهماً. (٢) ويؤخذ من الأوساط أربعة وعشرون درهماً. (٣) ويؤخذ من الفقراء اثنا عشر درهماً. ويذكر أن هذه المقادير هي الحدود التي ينبغي للولاة أن يتجاوزوها أو يخرجوا عنها باجتهادهم. ولا يسعنا إذا قرأنا الماوردي إلا أن نعجب بروح العدل ومراعاة القصد التي تسري في كل نظام الضرائب الذي يصفه. ولنأت من ذلك بمثل وذلك قوله إنه إذا نقض بعض أهل الذمة عهدهم بأن أبوا دفع الجزية لم يحل للمسلمين قتلهم ولا أخذ أموالهم أو أولادهم ما داموا لا يقاتلونهم على أنه يجب أن يؤمن هؤلاء الناقضون حتى يخرجوا من أرض الإسلام فإذا =

العقل ولا يرى فيه ظلماً ، غير أنه كان بلا شك عرضة لأن يفسد . وقد تطرق إليه الفساد ، فمكن الحكام أن يزيدوا مقدار الجزية ويمزقوا بذلك عهد الصلح . فإنك إذا نظرت إلى الأمر في ذاته لم تجد بأساً بأن تكون الجزية على الناس بحسب طاقاتهم مع بقاء جملتها واحدة لا تتغير وكذلك لا تجد بأساً في أن تكون خراج الأرض في جملته متغيراً بحسب السنة وخصبها، وأن يتغير ما يفرض على صاحب الأرض من الخراج بحسب خصب أرضه ومقدار ثمرتها ، ولكن ليس في طاقة البشر أن يبقى مثل هذا النظام ثابتاً لا تفسده الأطماع . فكان لا بد له من عدل كامل لا شائبة فيه كما يبقى على صلاحه، غير أنه كان عرضة لأن يداخله الفساد وتعصف به الأطماع ، ولم يكن بالعجيب أنه قد فسد بعد حين من العمل به.

وإن هذا لموضع لذكر ما رواه ابن عبد الحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب تقدّم إلى عمرو بن العاص في أن يستشير البطريق بنيامين[1] في خير وسيلة لحكم البلاد وجباية أموالها ، فأشار عليه البطريق بالشروط التالية :

(١) أن يستخرج خراج مصر في أوان واحد عند فراغ الناس من زروعهم.
(٢) أن يرفع خراجها في أوان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم.
(٣) أن تحفر خلجانها كل عام .
(٤) أن تصلح جسورها وتسدّ ترعها.

= أبوا الخضوع والخروج وجب إخراجهم قسراً - ولا شيء أدل من ذلك على رأي المسلمين في دوام العقد بين الحامين وبين أهل الذمة المحميين.

(١) يذكر ابن عبد الحكم أن المقوقس هو الذي استشير ولكنه بلا شك يرى أن المقوقس هو بنيامين وقد ذكر ذلك في مواضع عدة ولا شك أن عمراً قد يكون سأل قيرس السؤال عينه ولكن ابن عبد الحكم يجعل المقوقس حياً في أيام ثورة منويل وفوق ذلك فالظاهر أن الاستشارة هي نفسها التي سبق نقلها عن ساويرس مع أن ساويرس يذكر أن نصيحة بنيامين كانت بوجه عام ويورد المقريزي صيغة أخرى للجواب تختلف عن هذه بعض الاختلاف فإنه يجعل من شروط الحكومة الطيبة : (١) أن يجبى الخراج من غلة الأرض، (٢) الا يباح مطل أهلها. (٣) أن يعطى العمال أرزاقهم بغير انقطاع.

(٥) ألا يختار عامل ظالم ليلي أمور الناس[١].

وكان ذلك الشرط الخامس أشق الأمور وأصعبها تحقيقاً ، فإن السادة التي جرى عليها الحكام في اختيار العمال كانت لا بد أن توجد فيهم تلك الصفات التي تفسد نظام الحكم وتجعله مشئوماً .

إنا لا نشك في أن عمرو بن العاص كان في أول حكمه لا يقصد إلا العدل والرأفة بأهل البلاد ، ولكن الخليفة لم يواته في هذا ولم يوافقه عليه . فقد رأى الخليفة أن عمراً قد ملأ أنباره بالقمح من مصر ودر على خزائنه الذهب ، ومد سلطان العرب على فسيح البلاد ، ولكن الخليفة عمر لم يجزه بذلك إلا هواناً وجحوداً . وقد بقيت صيغة بعض كتب مما تردد بين الخليفة وواليه ، وإنا لا نشك في صحتها[٢] ، وهي تظهر لنا ظهوراً جلياً ما كان عليه الرجلان في صلتهما . فقد كتب الخليفة عمر مرة إلى عمرو[٣] : « أما بعد، فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة بر وبحر ، وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوِّهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق فترفع إليَّ ذلك فإذا أنت

(١) ذكر المقريزي الشرط الخامس هكذا: «ولا يقبل مطل أهلها يريد البغي» وذكره في موضع آخر على هذه الصورة: «ولا يقبل مطل أهله ويوفى لهم بالشروط ويدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا ويرتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوة لهم» (المعرب).

(٢) أنظر كتاب Weil «Geschichte der Chalifen» الجزء الأول هامش صفحة ١٢٥ وقد رأى ابن عبد الحكم هذه الكتب بنفسه وهو يورد نصها. ونقل عن (De Sacy) أنه يسلم بصحتها كل التسليم مستنداً في رأيه هذا على قدم أسلوب لغتها وقد اتبعنا ترجمة (Weil) اتباعاً تاماً.

(٣) نقلنا هذا النص عن المقريزي رواه عن ابن عبد الحكم (المعرب).

تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نَفسي . لست قابلاً منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة وإن كنت مضيعاً نطعاً إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبتلي ذلك منك في العام الماضي(١) رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفاً وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فإنه قد برح الخفاء والسلام(٢) .

فردّ عمرو على ذلك بأن قال : إن الخراج كان من قبله أوفر وأكثر والأرض أعمر لأن الفراعنة على كفرهم كانوا أرغب في عمارة أرضهم من العرب مذ كان الإسلام(٣) ثم وجه إليه شكوى مما وجهه إليه من شديد التأنيب وقال : « ولقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم

---

(١) يظهر من هذا أن تاريخ هذه المراسلة كان حوالي أول سنة ٦٤٤ .

(٢) وقد آثرنا نقل الكتاب كله حتى يتم المعنى . وأما المؤلف فقد اقتضب فيه ولم يذكر إلا إلى قوله «عما أسألك فيه» وقد حذف من وسطه جزءاً من أول «ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي» إلى قوله «وقد تركت أن ابتلي منك في العام الماضي» . وفي ترجمة المؤلف للكتاب شيء من الإجمال (المعرب) .

(٣) ذكر ابن رستاه(«Bibl. Geog. Arabe» الجزء السابع صفحة ١١٨) أن خراج مصر في مدة الفراعنة كان ستة وتسعين ألف ألف دينار . وقال أبو صالح إنه في مدة فرعون موسى بلغ المال تسعين ألف ألف . وقال المقريزي إن الخراج كان تسعين ألف ألف ثم قال إن ابن دحية قال : إن الدينار كان في ذاك الزمن يقوم بثلاثة دنانير إسلامية . وذكر الشريف الحراني أنه وجد بالصعيد مكتوباً بلغة الصعيد مما نقل إلى العربية جاء فيه أن خراج مصر في مدة يوسف بلغ أربعة وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف دينار وقدر ذلك ثلاثة وسبعون ألف ألف دينار إسلامية (أنظر تعليق المستر Evett على صفحة ٨٠ من كتاب أبي صالح) .

(-٣) لم نذكر من نص كتاب عمر إلا منذ ابتداء الموضع الذي اختاره المؤلف (المعرب) .

الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شيناً فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والإجتراء على كل مـأثم فامض عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخاً . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشـد غضباً لنفسي ولهـا إنزاهـاً وإكرامـاً ، وما عملت من عمـل أرى علي فيـه متعلقاً ، ولكني حفظت ما لم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت . يغفر الله لك ولنا . وسكت عن أشياء كنت بها عالماً وكان اللسان بها مني ذلولاً ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل ».

ولكن هذا الرد السهل في أسلوبه الجليل في معناه لم يكن له أثر في عمر فإنه رد عليه في جفاء فقال[١] : « أما بعد ، فإني قد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إليَّ بثنيات الطرق ، وقـد علمت أني لست أرضى منـك إلا بـالحق المبين ، ولم أقـدمـك إلى مصـر[٢] أجعلهـا لـك طعمـة ولا لقومك ، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام » .

وقد طلب عمرو أن ينتظر به على الناس حتى تدرك غلتهم ـ متبعاً في ذلك مشورة بنيامين وقال لعمر إنـه لا يستطيـع أن يزيـد الخراج على النـاس بغير أن يؤذيهم ، وإن الرفق بهم خير من التشديد في أمرهم وإكراههم على أن يبيعـوا ما هم في حاجة إليه في أمـور معيشتهم[٣] . لكي يؤدّوا ما يـطلب منهم . وقد اتهمه (فيل) في مراجعته هذه بالنفاق ، وأنه إنما كان يضن بالمال كي يحتفظ به لنفسه، غير أنا لا نجد ما يدعونا إلى مثل ذلك الظن فإنا لو آمنا بأن الطمع والجشع

---

(١) آثرنا كتابة الخطاب من أوله نقلاً عن المقريزي (المعرب).

(٢) اقتبس المؤلف عمر من أول هذه الجملة (المعرب).

(٣) ترجمنا هـذه الجملة عن المقريـزي الخطط الجـزء الأول صفحة ٧٨ وقـد جاءت هـذه المراسلة في كتاب البلاذري صفحة ٢١٩ (المؤلف).

قد دبا في قلبه لم يكن لنا أن نذهب إلى أنهما قد ملكا عليه لبه فأنسياه العدل ، وجعلاه يتخلى عن أداء أمانته نحو المصريين . غير أن عمر جعل كل قوله وراء ظهره ودبر أذنه فلم يستشعر رحمة في جباية الأموال[1] فأرسل محمد بن مسلمة إلى مصر وأمره أن يجبي منها ما استطاع من المال فوق الجزية التي أرسلها عمرو من قبل . وقيل في رواية أخرى إنه إنما أوفده إلى عمرو لكي يقاسمه ماله . وقد اتهم ابن مسلمة عمرو بن العاص بأنه كان يتستر بالدفاع عن أهل مصر لحاجة في نفسه يريد قضاءها ، كما اتهمه عمر بن الخطاب بالخيانة والتفريط . ولكن عمراً كان يدافع عن المصريين كما أقرّ ابن مسلمة فإذا أضفنا إلى هذا ما قاله في الدفاع عن نفسه رجح عندنا صدقه وإخلاصه ، واستبعدنا إتهامه . وفي الحق أن عمر بن الخطاب أولى بأن يتهم بالحرص ، فقد روى البلاذري أنه كان كلما استعمل عاملاً على بلد أثبت مقدار المال الذي عليه جبايته منه ، فإذا زادت الجباية على ذلك شيئاً قاسم العامل فيه أو أخذه في بعض الأحيان كله ولهذا لم ينج منه البطل خالد ابن الوليد نفسه فإنه بعث إليه في الشام بمن يحاسبه على ماله ، وأمره أن ينزل عن نصفه ، حتى لقد قيل إنه قد أخذ إحدى نعليه . وقد أشار بعضهم على عمر بأن يرد عليه ما أخذ منه فقال : « والله لا أرد شيئاً فإنما أنا تاجر للمسلمين »، ولكنه كان إذا قال المسلمين لم يقصد إلا نفسه أو تلك الفئة القليلة التي كانت معه في مكة . وقد كان ذلك وبالاً عليه ، فإن ذلك الرأي الذي كان يراه في أداء أمانته نحو المسلمين وملء بيت المال مما يجمعه من البلاد التي فتحها المسلمون منذ حين ، كان كل ذلك سبباً في القضاء على حياته .

وقد حذق خلفه ذلك الدرس وهو لعمري درس وبيل ، فإن عثمان عزل عمراً عن ولاية مصر واستعمل عليها عبد الله بن سعد ، وكان عمر قد استعمله

---

(١) إنا ننقل هنا ما ذهب إليه المؤلف من رأيه في عمر ولنا رأي يخالفه كل المخالفة إذ أن عمر وسائر الصحابة كانوا في كل اقوالهم وأفعالهم صادرين عن رغبة في الخير لم يوفق المؤلف إلى تفهمها واكتناهها (المعرب) .

مع عمرو بن العاص على الصعيد والفيوم . فزاد في جباية الأموال ألفي ألف دينار حتى بلغ ما جمعه أربعة عشر ألف ألف دينار . فقال عثمان لعمرو عند ذلك : « إن اللقاح بمصر بعدك قد درّت ألبانها » فأجابه عمرو « ولكنها أعجفت فصيلها » . وكانت زيادة الجزية فوق ذلك نقضاً للعهد فقد بينا فيما مضى أن معاوية عندما أمر وردان أن يزيد الجزية على القبط قال له إن ذلك غير ممكن وإلا نقض عهد الصلح[1] . وقد روينا عن عروة بن الزبير أنه قال : « إن الناس كان يفرض عليهم ما لا طاقة لهم به فآذاهم ذلك مع أن عمرو بن العاص كان قد عقد لهم عقداً جعل لهم فيه شروطاً معلومة » .

وذلك الوصف يحملنا على أن نحمد لعمرو عدله ، غير أن ابن عبد الحكم روى رواية إن صحت كانت ناقضة لذلك ، فقد قال إن عمرو بن العاص أنذر القبط أن من أخفى منهم كنزاً من الكنوز اقتص منه بالقتل . فسعى إليه بأحد قبط الصعيد اسمه بطرس أنه يخفي كنزاً. فلما مثل بين يديه أنكر ذلك وأصر على الإنكار ، فسجنه عمرو ، وسأل بعد حين فقال هل ذكر بطرس اسم أحد من الناس ، فقيل له إنه لم يذكر إلا اسم راهب في الطور . فأمر عمرو فأخذ خاتم بطرس وكتب كتاباً إلى ذلك الراهب فقال فقه «أرسل إليّ ما عندك » ثم ختمه بذلك الخاتم. فجاء إليه بعد مدّة رسول يحمد قدراً مقفلة عليها خاتم من رصاص ففتحه عمرو فوجد فيه رقعة كتب عليها «إن مالك تحت الحوض». فأمر عمرو بالماء الذي في الحوض فأفرغ ونزعت الأحجار التي في قاعه فوجدت غرفة فيها اثنان وثلاثون[2] مدّاً من نقود الذهب ، فأمر عمرو بضرب

---

(١) البلاذري صفحة ٢١٧ ويتفق ذلك مع رواية المقريزي وقد جاء رد وردان في المقريزي هكذا «كيف نزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يزاد عليهم شيء» ولكنه يزيد على ذلك قوله إن أمر معاوية كان أن تزاد الجزية قيراطاً وذلك جزء من ثمانية وأربعين جزءاً أو هو نحو ٢٪.

(٢) ذكر ابن دقماق أنها اثنان وخمسون.

(٢-) ورد في كتاب المقريزي نقلاً عن ابن عبد الحكم «فوجد فيها اثنين وخمسين اردباً ذهباً مصرية مضروبة» (المعرب).

عنق بطرس عند باب مسجده في بابليون . ولا يسعنا أن نمرّ على قصة كهذه بغير كلمة نقولها ، فإنها غير جديرة بالتصديق ولا تحتمل النقد فما هي إلا قصة من تلك القصص التي خلقها الخيال ، وكان ذلك المؤرخ مغرماً بإيراد أمثالها يحلي بها كتابه . فإنه من الثابت أن القبط كانوا أجدر الناس بأن يأسفوا مر الأسف عندما عزل عنهم عمرو بن العاص .

لم يبق إلا الشيء اليسير فوق ما قلناه في أمر الضرائب ، غير أن أمراً واحداً يجب أن نذكره لما له من الشأن . وذلك أن المسلمين في أول الأمر لم يبح لهم أن يملكوا الأرض ، وكان إقطاع الأرض في ذلك الوقت قليلاً[1] ، إذ كان الرأي أن يبقى العرب على رباطهم لا يشتغلون بالزرع ولا يحلون بالبلاد كأهلها . فلما أن اطمأنوا في البلاد ، أخذ ذلك المنع يرتفع عنهم ، وأبيح لهم أن يملكوا الأرض ، وكانوا إذا ملكوا أرضاً دفعوا عنها الخراج كسائر الناس . ولم يتغير نصيب أرض من الخراج إذا ملكها مسلم من قبطي ، بل بقي على حاله ، والناس فيه سواء . ولهذا كان القبطي إذا دخل في الإسلام لم يرتفع عنه خراج أرضه ، ولكن الجزية كانت على غير ذلك ، إذ كانت الجزية سمة لأهل الذمة وعلامة لغير المسلمين ، فكان الدخول في الإسلام كافياً لزوالها إذ تزول بذلك صفتا الذمة واختلاف الدين . وهذا أمر قد أجمع عليه مؤرّخو العرب ، فإن المقريزي يأخذ على عمر بن عبد العزيز (وكانت وفاته في شهر يناير من عام ٧٢٠ للميلاد) أنه حكم بأن الذميّ إذا مات استحقت الجزية من ورثته . ويقول المقريزي « يحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح فذلك الصلح ثابت على من بقي منهم وإن موت من مات منهم لا يجعل على خلفه[2] مما صالحوا عليه

---

(١) ذكر ابن عبد الحكم أن عمر لم يقطع إلا ألف فدان في منية الأصبغ لابن سندر وكان أقطاعاً عظيماً .

(٢) نص قول المقريزي فيه خلاف عن هذا المعنى فهو نقيضه إذ قال «وإن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئاً» فهو على ذلك يبرر أن يطالب ورثة الميت بجزيته ولا يخالف رأي عمر بن عبد العزيز في ذلك والواقع أن أول سياق الرواية يدل =

شيئاً ». ولكن روي عن عمر بن عبد العزيز نفسه أنه « وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر ، وألحق في الديون صلح من أسلم منهم في عشائر من أسلموا على يديه ، وكانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم ». وأول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف الثقفي ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز ابن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة ، فكلمه ابن جحيرة في ذلك فقال : « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أوّل من سن ذلك بمصر ، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك »[1].

وقيل إن ابن شريح[2] وهو الذي جاءه أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز كتب إلى الخليفة يقول إن الإسلام قد أضر بالجزية حتى لقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء أهل الديوان ، فكتب إليه الخليفة كتاباً شديداً قال فيه « أما بعد ، فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً . فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً . ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه »[3].

= على أن المقريزي إنما يروي رأي عمر نفسه فقد جاءت القصة في المقريزي هكذا: «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم وهذا يدل على أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة وأن الجزية إنما هي على القرى فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم وإن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئاً. قال: ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح وذلك الصلح ثابت على من بقي منهم وإن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئاً».
وهذا بالطبع معناه أن المقريزي إنما يورد حجة عمر بن عبد العزيز في تبرير جعل الميت من القبط على ورثته في كل حال سواء قيل إن مصر فتحت عنوة أو صلحاً (المعرب).

(١) أخذنا هذا النص عن المقريزي (المعرب).

(٢) جاء في الأصل الإنجليزي (ابن شريك) وهو تحريف (المعرب).

(٣) قد أثبتنا رواية المقريزي كما وجدناها نحن، ولكن المؤلف في الأصل الإنجليزي ظن أن =

وعلى ذلك قد كان الدخول في الإسلام ربح وغنم . ولقد كان عهد الصلح مع القبط كفيلاً من الوجهة النظرية بأن يكونوا آمنين في دينهم ، غير أن الأمر صار بعد حين إلى خرق العهد ونقضه . فالحق أن الأمن في الدين إذا كان مقترناً بأن يكون الرجل مهيناً بين الناس ، وأن يحمل ثقلاً في ماله ، لم يكن أمناً حقيقياً ولا باقياً . فلما انتشر الإسلام بين الناس زادت وطأته اشتداداً على القبط ، وأصبح عبء الجزية ثقيلاً لا ترضاه النفوس ، وأصبح أصحاب الجزية من اليهود والنصارى بعد حين وقد صاروا في قلة ظاهرة بسبب من كان يسلم منهم عاماً بعد عام . فكان هذا الأمر فاسداً إذ هو بمثابة رشوة لتحريض النصارى على الخروج من ملتهم ، فوق ما كان من أثره في نقص مقدار الأموال نقصاً ظاهراً ، وكان نقص الجزية سريعاً ، فبينا كان مقدارها في أيام عمرو اثني عشر ألف ألف دينار ، وفي أيام خلفه الظالم عبد الله بن سعد أربعة عشر ألف ألف ، إذا بها في خلافة معاوية خمسة آلاف ألف بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط ، ثم إذا بها في خلافة هارون الرشيد أربعة آلاف ألف ثم ثبتت الجزية على ثلاثة آلاف إلى أواخر القرن العاشر[٢] . ولما حدث هذا النقص في الأموال التي

= الجملة الأخيرة من قول المقريزي نفسه، وترجمة الأصل الإنجليزي هكذا «ويعلق المؤرخ العربي على ذلك وله في ذلك الحق بقوله. (ولعمري إن أكبر ما كان يرجوه عمر أن يدخل الناس كلهم في الإسلام) ولما كان تصحيح الرواية لا يذهب بشيء من المعنى الذي قصده المؤلف آثرنا تصحيحها (المعرب).

(١) راجع كتاب الخطط. الجزء الأول صفحة ٧٨ والصفحتين السابقتين لذلك.

(٢) ذكر ذلك الخبر اليعقوبي (مات في سنة ٢٦٠ للهجرة) Bibl. Geog. Arabe. Part VII (صفحة ٣٣٩) ولا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء في كتاب أبي صالح إذ يقول إن الجزية كانت خمسة آلاف ألف دينار في زمن أحمد بن طولون وإنها كانت أربعة آلاف ألف في مدة يعقوب بن يوسف وإنها نزلت بعد ذلك إلى ثلاثة آلاف ألف (صفحة ٨٢) ولكن من الجلي أن الواجب تفضيل المؤرخ الأسبق في التاريخ . حقاً إن ابن رستاه يقول إنه في مدة عبد الله بن الحبحاب كان الخراج الفي ألف درهم وسبعمائة ألف درهم وسبعة وثلاثين وثلثمائة درهم لكنه قل في أيام موسى بن عيسى حتى صار ألفي ألف درهم ومائة وثمانين ألف درهم وكان ذلك حوالى سنة ١٨٠ هجرية أو نحو آخر القرن الثامن -Bi =

كانت تجبى من الجزية استحدث الحكام وسائل جديدة يعوّضون بها ما نقص من مال الجزية ، وليس ثمت من شك في أن الحكام عندما استحدثوا تلك الضرائب الجديدة فرّقوا فيها بين معاملة المسلمين وأهل الذمة ، فميزوا المسلمين فيها . فأكبر الظن على ذلك أن المسيحيين قد آل أمرهم في حقيقته ومظهره إلى زيادة فيما يحملون ، وكان عبؤهم يزيد عليهم ثقلاً كلما قل عددهم ، فلا عجب إذن أن يخضع كثير من القبط ، فيسوقهم أتيّ الحوادث إلى الإسلام ، بل العجب أن يبقى عدد عظيم منهم ثابتاً في جرية ذلك الأتي ولم تستطع عواصف الحدثان التي توالت عليهم ثلاثة عشر قرناً أن تزعزعهم عن عقيدة قائمة في قلوبهم على صخرة .

على أننا إن قلنا ذلك فلسنا ننسى أن التاريخ لم يحو بين صفحاته ما هو أعجب من العرب وفتحهم ، إذ جاءوا إلى مصر فئة قليلة من الصحراء فانتصروا بها ، ثم نقول إجمالاً إنهم أقاموا لأنفسهم بنياناً مما هدموه فيها من ديانة مسيحية ، ومدنية بيزنطية ، قد اجتمع بها ضعف ورقة ، إلى جمال وروعة ، منذ امتزجت بها أكبر المدنيات القديمة الثلاث ، المدنية المصرية والمدنية اليونانية والمدنية الرومانية .

= ble. Geog. Arab صفحة ١١٨) غير أنه من الصعب أن نعتقد أن مثل هذا التغير العظيم يمكن أن يحدث في ١٥٠ سنة والحق أن الأستاذ (Stanly Lane Poole) في كتاب (The Story of Cairo) صفحة ٦٠ يرى أن التغير لم يأت إلا بطيئاً فقال: «وبعد أن مضى على الفتح تسعون عاماً يئس أحد الولاة من تزايد المسلمين تزايداً كبيراً فاضطر إلى إحضار خمسة آلاف عربي إلى مصر السفلى ولم تصر مصر بلاداً إسلامية إلا بخطوات بطيئة وبعد الامتزاج بالمصاهرة والتكاثر بالمهاجرة» والظاهر أن هذا الرأي يستهين بالضغط على القبط وما نشأ عنه . .

الفصل التاسع والعشرون

ثورة الاسكندرية بقيادة منويل

موت عمر ـ عثمان يعزل عمرو عن ولاية مصر ـ صفة عبد الله بن سعد ـ يتآمر أهل الإسكندرية مع القسطنطينية ـ يبعث منويل إلى مصر ليستعيدها ـ الترحيب به في الإسكندرية ـ بيان منشأ خطأ المؤرخ (جبون) وتصحيحه ـ عودة عمرو إلى ولاية الحرب في مصر ـ موالاة القبط للعرب ـ مسير جيش الروم إلى نقيوس ـ وقوع قتال شديد هناك ـ هزيمة الروم وارتدادهم إلى الإسكندرية ـ يفتح العرب المدينة عنوة ـ ما طلبه بنيامين من عمرو ـ ما لهذا الحادث من شأن ـ منشأ بعض غلطات التاريخ .

ظهر بعد أن فتح مصر لم يتم ، فإن الحرب عادت جذعة بعد أن ظن الناس أنها قد وضعت أوزارها ، إذ جاء الروم يسعون سعي المستميت لكي يسترجعوا ما فقدوه من ملكهم ، ولا يسعنا إلا أن نصف هذا السعي ولو على وجه الإيجاز .

وقد أخطأ عمر بن الخطاب في أنه كان مع عماله جميعاً على سوء الظن يتوقعون منه العزل والمحاسبة ، ويأخذ أموال بلادهم كلها لا يدع لهم فيها شيئاً . وقد كان لهذه الخطة أثر في التعجيل به ، فقتل لبضعة أيام بقيت من ذي الحجة من عام ٢٣ للهجرة ، ودفن في غرة المحرم من عام ٢٤ للهجرة[١] ، وفي ذلك اليوم أختير عثمان خليفة له . على أن عمر وإن أخطأ في بعض أمره لم تلق دولة المسلمين خيراً بوفاته وولاية خلفه، فإنه إن كان يضايق خير ولاته ويسيء

(١) ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤.

إليهم فقد كان عثمان الذي جاء بعده يعزلهم . وكان من آخر ما أتاه عمر في حياته أن قلل من سلطان عمرو بن العاص ، وذلك بأن ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح حكم الصعيد والفيوم وجعل إليه جباية الخراج. فأتم عثمان ما شرع فيه عمر بأن عزل ابن العاص عن ولاية مصر ، وجمع ولايتها جميعاً لعبد الله بن سعد ، فجاء هذا ليلي أمره من مدينة شطنوه في إقليم الفيوم وكان مقيماً بها .

وقد اختلفت الآراء في هذا الوالي الجديد فقال عنه النواوي : « كان من أعقل قريش وأشرفهم »[1] في حين أن عمرو بن العاص نعى عليه ضعفه وقلة كفايته في حكم البلاد وفي قيادة الجيوش ، ويصفه الطبري بأشنع الصفات فيقول عنه : « لم يكن في وكلاء عثمان أسوأ من عبد الله والي مصر »[2] . وكانت ولايته هذه في وقت ساء فيه حكم الولاة وثارت ثورة الناس عليهم وعلى الخليفة لجورهم في الحكم . والظاهر أن من وصف عبد الله وصفاً حسناً إنما يدل على سخافته وحماقته ، وليس لوصفه قيمة في التاريخ فإنه لا مراء فيما ارتكبه في مصر من الظلم . وقد ولاه الخليفة قصداً لكي يزيد في جباية الجزية . وإن لدينا من الأسباب ما يحملنا على أن نقول إن عبد الله قد جعل أوّل همه زيادة الضرائب على أهل الإسكندرية ، إذ لا شك أنهم كانوا عند ذلك يرزحون تحت عبء ثقيل من الضرائب . ولقد كان من أثر هذا العبء الثقيل أن

---

(١) ياقوت طبعة (Wustenfeld) صفحة ٣٤٥ .

(٢) أنظر طبعة (Zotenberg) الجزء الثالث صفحة ٥٨٣ وما بعدها. ولما دعا عثمان ولاته ليشيروا عليه فيما ينكر الناس منه تكلم عبد الله بصراحة عظيمة تشوبها سخرية فقال «يا أمير المؤمنين إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم» ولكن هذا لم يكن قول عمرو بن العاص فإن استقامته التي لا تعرف الهوادة أو الخوف تظهر في قوله «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً» فجزاه عثمان على ذلك بأن قال له «قمل فروك، أهذا الجد منك» غير أنه اتبع مشورته في ذلك الحين (المؤلف).

(٢) أخذنا النصوص في الهامش السابق عن الطبري وفي قول عمرو خلاف مع الأصل الانجليزي فآثرنا أخذ رواية الطبري إذ ليس فيها اختلاف عظيم في المعنى عما جاء في الأصل الانجليزي ولا سيما أن المؤلف لم يذكر الأصل الذي نقل عنه (المعرب).

جماعة من زعمائهم أنفذوا كتباً إلى الإمبراطور (قسطانز) في قسطنطينية ، يسألونه أن يخلصهم من ظلم المسلمين . وقالوا له إن الإسكندرية ليس فيها إلا مسلحة ضعيفة لا تقوى على دفع جيش روماني .

فأثرت هذه الكتب في الإمبراطور ، إذ أنه لم ينس ما أصابه في عزته وما لحق دولته من الضرر من ضياع مصر ، فأمر بإعداد قوّة عظيمة وكتم أمرها كتماناً شديداً . وكان الروم إلى ذلك الحين لا يزالون على سلطانهم في البحر غير مدافعين ولا معاندين . وكان عمر يسمع بحروب البحر فكتب إلى عمرو بن العاص يسأله عن ذلك وقال له : « صف لي البحر وراكبه » فكتب إليه عمرو كتاباً عجيباً قال فيه : « إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، إن ركن خرّق القلوب وإن تحرّك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق »[١]. فكان وصفه هذا باعثاً لعمر على الاشفاق منه ، على ما كان عليه من إقدام وشجاعة ، فلم يبح لمعاوية أن يجهز السفن[٢] ، ولم يجرؤ أحد على خوضه حتى آلت الخلافة إلى معاوية ، فأخذ العرب عند ذلك في سبيله ، وعرفوا قيمة السيادة عليه .

وعلى ذلك لم يكن للعرب في الوقت الذي نصفه سفينة واحدة تأتيهم بأنباء أسطول الروم الذي بعث به الإمبراطور بقيادة منويل للاستيلاء على الإسكندرية . فما فجأ العرب إلا أسطول عظيم يدخل ميناء الإسكندرية في عدة ثلثمائة سفينة ، وألقى فيها مراسيه غير مدافع[٣] . ولم يكن بالمدينة إلا ألف

---

(١) أخذنا هذا النص عن كتاب الطبري الجزء الخامس (طبعة المطبعة الحسينية بمصر) ولفظ برق كفرح ونصر تحير حتى لا يطرف أو دهش فلم يبصر عن المحيط (المعرب) .

(٢) عن تاريخ الخلفاء للسيوطي ترجمة (H. S. Jaerlt صفحة ١٦٠) .

(٣) اختلفت المصادر على عادتها في هذا الأمر فقال ابن خلدون إن الأسطول بقي بعيداً عن الشاطىء لأن المقوقس منع الروم أن ينزلوا بالأرض ولكن المقوقس كان قد مات طبعاً . وقال ابن عبد الحكم إن الأسطول رسا في الاسكندرية وإن الروم الذين كانوا في المدينة انضموا إلى جنود الامبراطورية . وأما غيرهما من مؤرخي العرب فيقولون بوضوح إن الروم أخذوا المدينة وقتلوا حاميتها .

رجل من العرب للدفاع عنها ، فغلبهم الروم وقتلوهم جميعاً إلا نفراً قليلاً منهم استطاعوا النجاة ، وعادت بذلك الإسكندرية إلى ملك الروم.

وهذه الحادثة منشأ الرواية العجيبة التي رواها (جبون) وسواه من الكتاب ، وذلك أنهم قالوا إن الروم عادوا بعد ثلاثة أيام أو أربعة من فتح الإسكندرية الأول بعد أن كانوا قد سافروا في البحر ورحلوا عن مصر ، فأخذوا العرب على غرة وهم متفرقون ، فملكوا المدينة مرة ثانية ، ولبثوا يحكمونها بعد ذلك حيناً قصيراً . وليس ثمت من حقيقة لهذه الرواية فإنما منشؤها خطأ في التأويل ، وذلك أنهم خلطوا بين فتح الإسكندرية في المرة الأولى وفتحها في المرّة الأخيرة ، ومزجوا بين وصفي الحادثين . فهم يقولون مثلاً إن فتح الإسكندرية كان في المرّة الأولى عنوة وجعلوا بناء روايتهم كله على أنها فتحت عنوة ، في حين أنا قد بينا بياناً واضحاً لا نزاع فيه أن فتح الإسكندرية في المرّة الأولى كان صلحاً ، وأن العرب جعلوا لأهلها هدنة مدّتها أحد عشر شهراً ، ثم دخلوا بعد ذلك إلى المدينة مسالمين ، وظلوا بعد ذلك على ملك المدينة لا يحدث لهم حدث حتى جاء منويل في بعثه[1] .

(١) تثبت هذه القصة من قول السيوطي إذ قال «لما هزم الله الروم وفتح الاسكندرية وهرب الروم في البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم» (حسن المحاضرة صفحة ٧٣) ولكن هذا خلط ناشيء من مؤلف يجمع الأخبار وهو يجهل ترتيبها التاريخي الصحيح وهذا ليس الا ترجيع ما حدث فيما بعد في أيام غزوة منويل ونقول كذلك ان هذا الخبر الذي يذكر فيه نزول الروم على الاسكندرية مرتين يرد في كتاب ابن بطريق (راجع كتاب مينى Part. Gr. T 111 Col. 2111) وهذا دليل بغير شك على أن كلا المؤلفين نقل عن مصدر واحد وهو مصدر فاسد فإذا ما قام الدليل كما فعلنا من قبل على أن فتح الاسكندرية الأول كان صلحاً نقضت هذه القصة من أساسها فمجمل القول إن القصة لا يقوم عليها دليل صحيح وهي تعارض حقائق قام البرهان عليها وثبتت بغير شك . ومما يجدر بالذكر أن حنا النقيوسي لم يذكر شيئاً عنها وعلى ذلك يجب علينا أن نبعدها عن حقائق التاريخ .

وقد اتفق مؤرخو العرب اتفاقاً يقل مثله على أن استرجاع الروم لمدينة الاسكندرية قد وقع في أوائل السنة الخامسة والعشرين للهجرة وذلك نحو آخر سنة ٦٤٥ للميلاد[١] . ولكنهم لم يتفقوا مثل هذا الاتفاق في ذكر المكان الذي كان فيه عمرو بن العاص عند ذلك فإذا صحت رواية الطبري ، وروايته جديرة بالتصديق ، كان عمرو عند ذلك في مكة[٢]. معزولاً ، فلما جاءت أنباء هذه الثورة أمر بأن يعود إلى قيادة الجيش بمصر . وعلى أي حال فالظاهر أنه عزل قبل مجيء الروم ، ولم يلتفت خلفه العاجز إلى حماية البلاد فأهمل تحصينها ، حتى بدا عجزها واشتدّ خللها . ولم يقف جيش (منويل) عند الإسكندرية بعد أن ملكها وخلصت له ، بل سار إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ينهب فيها

---

(١) ذكر البلاذري هذا التاريخ (صفحة ٢٢١) ثم ذكر احتمال أن يكون ذلك سنة ٢٣ هجرية وأما ابن الأثير (صفحة ٦٢) فإنه يذكر أن ذلك كان سنة ٢٥ للهجرة ويتفق معه في ذلك ياقوت وأبو المحاسن. وأما المقريزي فانه يذكر أن فتح الروم للاسكندرية كان سنة ٢٤ هجرية وأن فتح العرب لها وقع سنة ٢٥ للهجرة. وذكر ذلك أبو المحاسن وقال إن هزيمة الروم كانت في ربيع الأول وهو يوافق يناير سنة ٦٤٦ ولكن هذا لا يكاد يترك وقتاً كافياً لحوادث ذلك القتال.

(٢) أنظر طبعة (Zotenberg) الجزء الثالث صفحة ٥٥٩ قال إنه في أول السنة الخامسة والعشرين للهجرة أخذ عثمان في عزل عمال عمر ولكنه لما سمع بثورة الإسكندرية جعل عمراً (يسافر إلى مصر) وهذا يفيد أن الفتح الثاني كان بعد أول سنة ٦٤٦ بمدة طويلة. ويذكر البلاذري أن عمراً عزل من الولاية في سنة ٢٥ للهجرة وحل محله عبد الله بن سعد (صفحة ٢٢٢). وقال النواوي إن استعماله كان في تلك السنة (صفحة ٣٤٥) ولكن ابن الأثير يذكر أن ذلك كان في سنة ٢٦ للهجرة (صفحة ٧٦) وأما ابن عبد الحكم فإنه عند ذكر الثورة يقول إن عثمان قد عزل عمراً في ذلك الوقت وقد نقل عنه المقريزي هذا (الخطط الجزء الأول صفحة ١٦٧). وقال المقريزي في موضع آخر عند ذكر عبد الله بن سعيد بين ولاة الفسطاط: إن منويل الخصيَّ هاجم الإسكندرية فطلب الناس من الخليفة أن يستعمل عمراً لقتال الروم. وبالاجمال يظهر أنه من الثابت أن عمراً قد عزل قبل الثورة ولكنه ليس من الجلي إذا كان قد ترك مصر. فأما ابن بطريق فانه يذكر صراحة أنه كان لا يزال في مصر. وأما أبو المحاسن فانه يقول إن عثمان أزال عنه أعباء الولاية حتى يفرغ لقتال منويل (صفحة ٧٣).

ويغصب القمح والخمر والأموال من أهل قراها ، لا يدافعه مدافع . والظاهر أن الروم لم يعبأوا بمن تودّد إليهم فكان جندهم أينما حَلَّ أو سار في البلاد يعامل الناس معاملة عداء قد فتحت بلادهم [١] . على أنه قد يكون الأمر على غير ذلك في بعض الأحوال ، فإن جيش الروم ما عاد إلى امتلاك البلاد إلا بمساعدة من في الإسكندرية من الروم وكانوا لا يزالون على مكانة عظيمة فيها ، وكان هؤلاء يعتمدون على مساعدة بعض الناس في بلاد مصر السفلى وميلهم إلى الروم . وقد ذكرت في الأخبار بعض قرى قامت على بكرة أبيها وانحازت إلى جانب الروم . غير أن القبط كانوا على وجه الإجمال لا يرجون خيراً من وراء رجوع سلطان الروم ، إذ كانت ذكريات قيرس وعسفه لا تزال منقوشة على قلوبهم . وكانوا غير ساخطين على ما هم فيه مع ما أخذ يظلهم عند ذلك من خوف العرب وظلمهم ، إذ كانت لهم طمأنينة على دينهم ودنياهم ما كانوا ليحتفظوا بها إذا عاد حكم الروم . ولهذا لاذ القبط بالعرب في هذه المحنة وساعدوهم ، ولو فعلوا غير ذلك لكانوا أحمق الناس وأجهلهم ، إذ يكونون كأنهم يسعون إلى وضع أيديهم في أغلال الروم وكشف أجسامهم لجلد سياطهم . ولسنا نعلم علم اليقين أبقي البطريق بنيامين عند ذلك في الإسكندرية أم هرب قبل مجيء جيش الروم ، على أننا نرجح هروبه وغيابه عن العاصمة في ذلك الوقت . والأدلة على ذلك قوية ، ولكن لا شك في أنه وقف مع قومه من القبط يشدون أزر المرب ويساعدونهم ، ويظهرون لهم الود حافظين بذلك عهدهم الذي تعاهدوا عليه في صلح الإسكندرية .

وفيما كان الروم يتمتعون بما في مصر من ملاذ ويضيعون الفرصة على عادتهم في تضييع ثمين الفرص إذا ما سنحت لهم ، عاد عمرو إلى قيادة جيش العرب في بابليون . وقد دعاه العرب لذلك وألحوا فيه منذ رأوا أنه رجل داهية لا يُدانيه مدان في مكيدة الحرب ، ولا يثق الناس في أحد ثقتهم فيه لما اعتادوا من النصر على يديه ، وشعروا بأنهم في أشدّ الحاجة إليه في ذلك الوقت

---

(١) ذكر ابن الأثير أن الروم كانوا يغصبون الأموال والأطعمة من الناس الذين في جوار =

العصيب الذي لم يأت عليهم وقت أشدّ منه منذ غزوا بلاد مصر . ولو لم يضع الروم وقتهم في بلاد مصر السفلى بل ساروا لا يلوون على شيء قاصدين إلى الفسطاط لما بعد عليهم أن يهزموا عبد الله ويأخذوا حصن بابليون ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل تهاونوا حتى استطاع عمرو أن يحضر إلى مصر ويجهز جيشه بها ، ولم يكن من رأي عمرو أن يسرع في أمره وهذا غير ما كان يراه خارجة بن حذافة الذي كان عند ذلك قائد مسلحة حصن بابليون ، إذ كان يرى أن التأخر ضارّ بالمسلمين مصلح لأمر الروم ، وأشار على عمرو أن يبادر إلى العدوّ قبل أن يأتيه المدد أو يثب أهل مصر جميعها وينقضّوا على العرب . ولكن عمراً كان يرى خلاف ذلك فقال : « ولا ولكن ادعهم حتى يسيروا إليّ فإنهم يصيبون من مروا به فيخزي الله بعضهم ببعض » . وإنه لمن الجدير بالذكر أن قوّاد العرب في هذا الوقت لم يميزوا بين قبطي ورومي بل ظنوا أن الفئتين معاً إلب على قتالهم . وهذا يدل على أنه لم يكن ثمت ما يدعوهم إلى توقع محبة القبط لهم ولا حيادهم في قتال الروم . ولو صح أن القبط رحبوا بالعرب عند أول مجيئهم إلى مصر ورأوا فيهم الخلاص لركن قوّاد العرب في هذا الوقت إلى ولاء القبط ومحبتهم ولتوقعوا منهم الودّ والمساعدة .

وعلى هذا سار الروم على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس[1] ، وهناك

= العاصمة ولم يفرقوا بين موال منهم ومعاد (صفحة ٦٢) . وأما المقريزي فانه ذكر أنهم جعلوا يفتحون القرى ويشربون خمرها ويأكلون طعامها ويفسدون في البلاد .

(١) أنظر كتاب (Weil) «Geschichte der Chalifen» (الجزء الأول هامش صفحة ١٥٨) وأنه لا يستطيع البت في اسم المدينة التي قال ابن عبد الحكم إنه كان (نفيوس) و (تقيوس) و (تيوس) و (نفويس) الخ وهذا كله تحريف بسيط وسهل للاسم الأصلي وهو (نقيوس) وهو ناشىء من تغيير النقط وأما المقريزي فانه يذكر الاسم الصحيح ويقول «إنه قد وقع قتال هناك في الأرض والنهر» وهذا وحده كاف لازالة الشك وفوق ذلك يقول ياقوت (الجزء الرابع صفحة ١٨٠) إنه قد وقع في نقيوس قتال بين عمرو والروم عندما عصوه وهذا بلا شك يشير إلى ثورة منويل ولكن (Weil) لم ير طبعاً كتاب حنا النقيوسي ولم تكن عنده صورة واضحة من وصف أرض مصر في وقت الفتح .

لقيتهم طلائع العرب . ولعل جيشهم كان إذ ذاك خمسة عشر ألفاً [1] . ولم يذكر التاريخ هل استولى الروم على مدينة نقيوس ، غير أنه يذكر أنه قد وقع قتال شديد بين الجيشين تحت أسوار حصنها فيما يلي الخليج أو النهر الذي يجري على كثب من المدينة . وقد قاتل الروم في تلك الوقعة قتالاً عظيماً وأبدوا فيه شجاعة لا مثيل لها ، وحارب عمرو في صفوف الناس ، وعقر تحته فرسه إذ أصابه سهم ، فاقتحم عنه وحارب راجلاً . وانهزم العرب في بعض ذلك القتال وولوا الأدبار ، وكان أظهر الروم يومئذ في شجاعته وحسن عدّته رجل فارس عليه سلاح مذهب ، فلما تنازع الناس القتال دعا العرب إلى البراز ، فبرز إليه رجل من زبيد يقال له «حومل» ، فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان بغير أن يغلب أحدهما الآخر . ثم ألقى الرومي رمحه وأخذ السيف فألقى حومل رمحه وأخذ سيفه ، وكان الجيشان في أثناء ذلك وقوفاً يرى جندهما ذلك البراز وهم في صفوف على الجوانب . ثم حمل الرومي حملة شديدة فضربه العربي بسيفه ضربة في ترقوته فأثبته . وأما حومل فقد أصابته جراحة مات منها بعد أيام قليلة ، فأرسل عمرو جثته إلى الفسطاط على سرير ودفنه عند المقطم [2].

ولما قتل البطل الرومي رجع القتال بين الناس واشتد ، وانتهى أمره بهزيمة جيش منويل وفرّ الروم لا يلوون على شيء نحو الإسكندرية . فبلغت فلول جيشهم العاصمة والعرب في آثارهم ، فأقفل الروم الأبواب واستعدّوا للحصار [3] . وكان عمرو في أثناء سيره في بلاد مصر السفلى يلقى مساعدة من

---

(١) يقول البلاذري إن جيش عمرو كان عدده ١٥٠٠ ولكن لعل ذلك تحريف عدد ١٥٠٠٠ ولا شك أن جيش الروم كان أكثر من ذلك عدداً.

(٢) جاء في المقريزي في وصف آخر هذا النضال «ثم حمل عليه البطريق فاحتمله وكان نحيفاً فاخترط حومل خنجراً كان في منطقته أو في ذراعه فضرب به نحر العلج أو ترقوته فأثبته ووقع عليه فأخذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه الله . ورؤى عمرو يحمل سريره بين عمودي نعشه حتى دفنه بالمقطم» (المعرّب) .

(٣) لا يذكر البلاذري مدينة نيكيو (نقيوس) ولكنه يذكر أنه وقع قتال بقرب الإسكندرية حيث هاجم الروم الذين كانوا يعيشون في تلك الجهات وقد ثبت العرب لهجومهم نحو ساعة =

قرى القبط حيث سار ، فكانوا يأتون إليه بمن يقيم له الجسور ويقدّمون له ما كان في استطاعتهم تقديمه بعـدما حل بهم من نهب الروم وغصبهم . فلما بلغ جيش العرب أسوار الإسكندرية ورأى عمرو ما عليه المدينة من المنعة اشتـد به الألم لأنه رأى أنه أخطأ في ترك أسوارها قـائمة ، ولم يجعـل بها من الجنـد مسلحة قوية ، وحلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسوارها حتى تكون مثـل بيت الزانيـة يؤتى من كل مكان . وجعل عسكر العرب في الجانب الشرقي من المدينة وهو الجانب الذي كان الحصار منه ممكناً ، وقيل إنه أقام آلات الحصار وصدع بها الأسوار ، غير أن ذلك لا يتفق مع ما هو معروف عن أسوارها من القوّة ، وإنـه لأقرب إلى الأفهام أن نصدق رواية أخرى تجعل مـرجع فتـح المدينـة في هذا الحصار جله إلى الخيانة من داخلها ، كما وقع لها في حصار دقلديانوس . فقد قيل إنه كان في الإسكندرية بواب اسمه (ابن بسامة)، سأل عمراً أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه ويفتح له الباب ، فأجابه عمرو إلى ذلك[1] .

ومهمـا يكن من الأمر فقـد أخذ العـرب المدينـة عنـوة ودخلوهـا يقتلون ويغنمون ويحرقون حتى ذهب في الحريق كل ما كان باقياً على مقربة من الباب في الحي الشرقي ، ومن ذلك كنيسة القدّيس مرقص . واستمرّ القتل حتى بلغ العـرب وسط المدينـة ، فأمـرهـم عمرو أن يـرفعوا أيـديهم ، وبنى مسجـد في الموضع الذي أمر عمرو فيه برفع السيف وهو « مسجد الـرحمة ». وقـد لاذت طـائفة من جنـد الروم بسفنهم فهـربوا في البحـر ، ولكن كثيـراً منهم قتـل في

= وراء الخنادق ثم حملوا عليهم وهزموهم فهرب الروم مسرعين لا يلوون على شيء حتى دخلوا الإسكندرية (صفحـة ٢٢١) وقد يجـوز طبعاً أن يكـون قد وقـع قتال آخـر بقرب الإسكندرية وهذه العبارة على أي حال هامة لأنها تدل على أن العرب كانوا قد أخذوا من الروم طريقتهم في الخندقة على عسكرهم.

(١) جاء هذا الخبر في كتاب السيوطي ويظهر أنه يذكر ذلك مع الفتح الاول وهو مخطىء على أن القصة قد تكون وقعت في الفتح الثاني وهذا الخلط بين حوادث الفتحين الأول والثاني لا دواء له.

المدينة . وكان منويل بين من قتل ، وأخذ العرب النساء والذراري فجعلوهم فيئاً .

وكان هذا الفتح الثاني في صيف سنة ٦٤٦ ، وكان عنوة بالسيف ، وبهذا يكون بين الفتح الأوّل والفتح الثاني فروق تميز بين وقت وقوع كل منهما وحوادثه . ولكن من سوء الحظ أن كتاب العرب لم يفرّقوا بين الفتحين ، وإنه لمن أصعب الأمور وأشدّها استعصاء أن يعيد باحث إلى الحوادث نظامها في كل من الحالين ، إذ يجد بعضها داخلاً في بعض مختلطاً به اختلاطاً من كل وجه . وإنا نرى أن هذا الوصف موضع لذكر حادثة قد وضعت في غير موضعها في وصف الفتح الأوّل فنشأ عن ذلك خلط عظيم ، وتلك الحادثة هي الزيارة التي قيل إن المقوقس زارها لعمرو ليعرض عليها فيها أموراً عجيبة . ولا شك أن المقوقس قد مات منذ زمن طويل غير أن العرب كانوا يطلقون ذلك اللقب خطأ على أشخاص عدّة ، فقد سموا به الحاكم الذي كتب إليه النبي كتابه قبل فتح العرب لمصر ، ثم أخطأوا فسموا به بعد الفتح بطريق القبط بنيامين[١] . وعلى ذلك فإنا إذا قرأنا أن المقوقس جاء إلى عمرو في وقت الحصار ووعده أن يساعده على شروط ثلاثة ، كان لا بدّ لنا أن نعزو تلك القصة إلى (بنيامين) ، وما كان منه عند ثورة الإسكندرية واستيلاء منويل عليها .

وإن تحريف هذه القصة ووضعها في غير موضعها له أثر كبير في تاريخ

---

(١) انظر الملحق الذي افردناه للمقوقس وقد وردت حقيقة موت المقوقس في قصة الخاتم المسموم مع أن القصة في ذاتها كما بيناها مشكوك فيها وقد أحس البلاذري بصعوبة الأمر إذ قال المقوقس كان حياً في هذا الوقت وعبارته (صفحة ٢٢٢) تفيد أنه قيل إن المقوقس ترك أهل الإسكندرية عندما ثاروا وأن عمراً بعد ذلك أبقاه وأصحابه في أعمالهم وأن البعض يذكر أن المقوقس كان قد مات قبل تلك الثورة وإنا نرى أن الحقيقة هي أن بنيامين كان عند ذلك هو البطريق وزعيم أهل مصر. وأما قيرس فقد كان بطريقاً وكان زعيم طائفة الروم والمصريين فليس من العجيب إذن أن ينقل بعض المؤرخين لقب الأول إلى الثاني. ولكن هذا الخلط بين الشخصين أحدث بالطبع خلطاً في الحوادث والتواريخ.

الفتح ، فإن ذلك منشأ الخلط الذي بنيت عليه روايات كثيرة . فإن المؤرخين لم تسبق لهم كتابة تاريخ للفتح نفذوا فيه أخباره وبحثوها ، فلا نجد في كتب تواريخ العرب إلا سرداً لحوادث اختاروها ورووها عن مصادر مختلفة ، ولكنهم في اختيار ما يروون من أخبار تلك الحوادث لا يفرّقون بين أشياء كان يجب عليهم التفريق بينها ، فيجمعون من أخبار الحوادث ما وقع في أوقات مختلفة لا يتحرّون في ذلك ترتيبها ولا تاريخ وقوعها ، فإذا ما صار الخبر في غير موضعها لا يتناسب مع السياق والقرائن حوّروه لكي يلائم ذلك السياق الجديد . وقد يصير الخبر بذلك التحوير في كثير من الأحوال سخيفاً أو باطلاً فاسداً . وهذا ما كان في تاريخ هذا الحادث الذي نحن بصدده ، فقد روى[1] المقريزي ثلاثة شروط اشترطها المقوقس على عمرو ، وهي :

(١) ألا ينقض القبط «وأن يدخله معهم ويلزمه ما لزمهم » .
(٢) ألّا يصالح الروم أبداً .
(٣) أن يأمر به فيدفن في جسر الإسكندرية[2] .

وإنا نرى أن هذه الرواية عما اشترطه المقوقس بعيدة لا يسيغها العقل ، وهي فوق ذلك قلب للخبر الأوّل الذي نقلت منه فهي تصوّر المقوقس كما هو ظاهر كأنه رجل من الروم يسأل العرب أن يفوا للقبط بعهدهم وألا يصالحوا الروم ، ومن ثم نشأت قصة القبط وأنهم وحدهم انفصلوا عن الروم وصالحوا العرب عند أوّل هبوطهم مصر . ومن تلك الرواية كذلك نشأت قصة أخرى وهي أن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص. على أن المؤرّخ نفسه يورد الشروط[3] عن مصدر آخر وهو ابن عبد الحكم ويجعلها كما يأتي :

(١) ألا يبذل للروم ما بذل للقبط لأنه نصحهم فاستغشوه.

---

(١) الخطط : الجزء الأول صفحة ٢٩٣

(٢) ورد في كتاب السيوطي قوله في أبي حنش وهو تحريف للفظ «يوحنس» إذ كان الجسر يسمى جسر القديس يوحنا (أو يوحنس).

(٣) الخطط : الجزء الأول صفحة ١٦٣ .

(٢) ألا ينقض القبط فإن النقض لم يأت من قبلهم.
(٣) أن يدفن المقوقس في كنيسة يحنس.

وهذه رواية أقرب إلى عهد الحادث فهي لذلك أقرب إلى الحقيقة. ومما يستحق الذكر أن هذه الرواية ليس فيها قوله «وأن يدخله معهم (أي المقوقس مع القبط) ويلزمه ما لزمهم». ونرى أن ذلك القول الذي عزاه المؤلف إلى المقوقس وهو سؤاله لعمرو أن يدخله مع القبط قول لا مبرر له، وإنما أراد به المؤلف أن يوضح أمراً لم يجد إيضاحاً له غير ذلك، فهو يريد أن يعزز بقوله هذا أن المقوقس كان يميل مع القبط (وهو قول بعيد عن الصواب)، وأنه كان يأخذ لهم من العرب ميثاقاً وعهداً.

ولكن من حسن الحظ إنّا نجد في تاريخ البلاذري رواية عن المقوقس وما طلبه من عمرو. وهي تدل دلالة قاطعة على أن هذا الأمر لا علاقة له بفتح الإسكندرية أول مرة، بل إنه حدث عند ثورة الإسكندرية وحرب (منويل). وعلى هذا لا يمكن إلا أن يكون المقصود من (المقوقس) هو بنيامين بطريق القبط. وجاء في هذه الرواية أن بنيامين سأل عمراً فقال:

(١) ألا تبذل للروم من شروط الصلح مثل ما بذلت لي.
(٢) ألا تسيء إلى القبط لأن نقض العهد لم يأت من قبلهم.
(٣) إذا مُتُّ فأْمُرْ بدفني في كنيسة كذا[1].

وقوله «إذ أن نقض العهد لم يأت من قبلهم» توضح الأمر كله وتجلوه فإن القبط لم تكن لهم يد في ثورة الإسكندرية التي نقض بها الصلح الذي عقده

(١) قوله «فإن النقض لم يأت من قبلهم» قول واضح ومعنى لفظ «النقض» لا يفيد إلا نقض العهد وقد أخذنا هذه العبارة من نبذة اقتبسها لنا الأستاذ مفتي الديار المصرية من نسخة خطية بالقاهرة ولكن ترجمة De Goeje (صفحة ٢١٥) تورد الشروط بصورة مختلفة بعض الاختلاف وهي: (١) إن الروم الذين شكوا فيما عرضه المقوقس من السلم ورفضوه لا يبذل لهم إلا أقل مما بذل للقبط من الشروط. (٢) ألا ينقض عهد القبط وأن يبقى على ولائهم للعرب. (٣) مثل السابق ذكره. أما =

قيرس (المقوقس)، ولم يكن لهم ضلع في تلك المؤامرة التي كان يقصد بها عود سلطان الروم . وعلى ذلك ذهب كبيرهم ـ وكان عند ذلك بنيامين ـ فعرض على عمرو مساعدة القبط له على شرط أن يجازوا على ولائهم بأن تحسن معاملتهم ، ولا يكال لهم بكيل الروم الذين ثاروا بالمسلمين . فإذا نحن وضعنا هذا الخبر في موضعه بدا لنا واضحاً بيناً عظيم الدلالة بعد أن كان وهو محرّف في غير موضعه غامضاً محيراً . ولقد استبحت الإطالة في ذكر هذا الخبر لما له من عظيم الشأن بين أخبار التاريخ ، ولأنه مثل يظهر منه ما يلاقيه الباحث من المشقة في بحثه ، وما يعانيه من الصعاب في سبيل جلاء الحقيقة .

هذا ما عرضه البطريق على عمرو فلما سمع عمرو ذلك منه قال ـ يقصد الشرط الثالث ـ « هذه أهونهن علينا »، فقد كان من السهل عليه أن يعد بنيامين بأن يدفن في كنيسة القديس يحنس ، ولكن لم يكن من السهل عليه أن يفرق في كل الأحوال بين القبط وبين الروم فيما كان منهم ، أو أن يحكم في أمر القبط ومبلغ اشتراكهم في ثورة الإسكندرية ، ولسنا نعرف على وجه اليقين الموضع الذي لقي فيه بنيامين عمرو بن العاص ، ولعلّ ذلك كان في بابليون قبل أن يسير

= أميلنو فانه عند ذكر هذا الحادث (وهو يقرنه بالفتح الأول) يذكر الطلب الثالث ألا وهو طلب الدفن في الكنيسة ويقول إن ذلك دليل على أن المقوقس المعني بذلك كان بلا شك البطريق وقال «كان بطريقاً لأن البطارقة وحدهم كان لهم امتياز أن يدفنوا في كنيسة ـ ولم نجد في وثيقة قبطية أي ذكر لأسقف أو راهب قديس أو شهيد دفن في كنيسة أبرشيته أو ديره أو قريته وعلى عكس ذلك لا نجد أكثر من الأحوال التي ذكر فيها دفن البطارقة في الكنائس» (Journal Asiatique. Nov - Dec. 1888 ـ صفحة ٤٠١)ولكن حجة أميلنو لا تصح في حالة الملكانيين لأن أبا صالح يذكر صراحة أن الملكانيين والأرمن والنساطرة «يدفنون في الكنائس» صفحة ١٣٦ فإذا قلنا إن قول أميلنو صحيح في حالة القبط ولو أن ذلك يحف به شيء من الشك لم تكن حجته لتؤدي إلا إلى أن ذلك الذي جاء إلى عمرو كان بطريقاً قبطياً ولم يكن رومياً وأنه كان في الواقع بنيامين وليس قيرس وهذا يعزز رأينا أن هذه القصة حدثت في وقت ثورة منويل وكان عند ذلك قد مات وبنيامين قد عاد إلى ولايته للدين. ولا يزال عند القبط إلى يومنا هذا امتياز لأساقفة القبط بأن يدفنوا في الكنائس ولكننا لا نستطيع أن نقول متى بدأ هذا الامتياز واعترف لهم به.

عمرو إلى لقاء الروم وقبل أن يعرف نصيب القبط من تلك الثورة . وأغلب الظن أن القبط من أوّل الأمر أعرضوا عن منويل ولا شك في أنهم سهلوا على العرب السير في بلاد مصر السفلى ، ولا بدَّ أن ذلك كان راجعاً إلى فعل بنيامين واتفاقه مع قائد العرب .

ففي هذا الوقت إذن نرى أن القبط يمالئون العرب راغبين وهم على عهد معهم ، وما زالوا على ذلك حتى هزم الروم وتشتت شمل جيشهم ، وفتحت الاسكندرية مرة أخرى . وهذا هو المنشأ الحقيقي لقصة ترحيب القبط بالعرب وممالأتهم لهم منذ هبطوا مصر ، وهي قصة لا صدق فيها ، وقد بينا بطلانها مرة بعد مرة في تاريخنا هذا . غير أنا نرى مما أوضحناه هنا أن تلك القصة قائمة على أساس قد اختلط به الحق والباطل ، وإلتبست فيه الأخبار واستغلقت على الرواة . فهي بالاختصار تروي خبراً صحيحاً ولكنه وقع في القتال الذي انتهى بفتح الإسكندرية للمرة الثانية لا في أي قتال قبله ، وهي تصدق على ثورة الإسكندرية ولكنها لا تصدق على فتح مصر الأول . وهي صورة تاريخية صحيحة ولكنها قد ألبست إطاراً كاذباً[1] .

وبعد فثم قصة أخرى كان لها حظ عظيم من تضليل المؤرخين وتحييرهم ، وهذا موضع تفنيدها فقد ذكرنا فيما مر من القول قصة وجدناها في

---

(١) بعد كتابة ما سبق قد وجدنا عبارة في كتاب ابن دقماق تعزز حقيقة الشروط الثلاثة التي طلبت من عمرو وأنها كانت في وقت ثورة منويل وإنا موردوها هنا تفصيلاً وذلك أنه روى عن ابن وهب أنه قال: قال الليث بن سعد: إن المقوقس الرومي الذي كان ملك مصر صالح عمراً على شروط أن الروم إذا شاءوا الخروج من مصر أبيح لهم ذلك وأن يدفع القبط عن كل رجل ديناراً. ولكن هرقل أبى إقرار هذه الشروط «وأرسل في غضبه منويل لحرب العرب». ولما كان عمرو يحاصر الإسكندرية خرج إليه المقوقس وقال له إني أسألك ثلاثة أشياء فسأله عمرو وما تلك؟ قال: (١) ألا تبذل للروم ما بذلت لي فقد نصحتهم بالإذعان فلم يسمعوا مشورتي. (٢) وألا تنقض عهد القبط فانهم لم ينقضوا عهدهم معك. (٣) أن أدفن إذا مُتُّ في أبي يحنس .

ولا شك في أن هذه العبارة فيها ما فيها من خلط إذ يظهر أنها تشير مثلاً إلى أن بعث =

كتاب (ساويرس) وكتاب (تيوفانز)، وهي أن (قيرس) دفع للعرب الجزية قبل غزوهم مصر مدة ثلاث سنين أو تزيد ، وكان يقصد بذلك أن يدفع عن مصر غزوتهم . وقد قلنا إن هذه القصة غير جديرة بالتصديق[1] ، ولكنا لم نبين كذبها . وقد ظهرت لنا الآن حقيقة منشئها جلية ، فما هي إلا زعم فاسد توهمه من قرأ أخبار الفتح في كتاب مجمل مبتور ، ولا شك عندي في أن منشأ تلك القصة كتاب يوناني مثل (تيوفانز) سرد أخبار عدة سنين في جمل قليلة مجملة مختلطة ، لم يتحر فيها ترتيب التاريخ . فقد قال (تيوفانز) إن العرب لما غزوا مصر صالحهم قيرس على أن تدفع مصر لهم جزية مائتي ألف دينار ، ثم قال[2] : «فحفظ قيرس بذلك مصر من الضياع ثلاث سنين ، غير أنه اتهم عند الإمبراطور بأنه يدفع أموال مصر إلى العرب فعزله الامبراطور وغضب عليه ، وأقام مكانه (منويل) الأرمني ليكون قائد جيش الروم ، فلما مرّ العام أرسل العرب في طلب الجزية فأجابهم (منويل) « لست بالعاجز المستضعف (قيرس) فأدفع لكم الجزية فما لكم عندي إلا السيف » ولم يعطهم شيئاً . فتجهز العرب لغزو مصر وجاءوا لحربها وهزموا منويل ، فهرب مع فلول جيشه إلى الإسكندرية

= منويل جاء عقب رفض هرقل لشروط الصلح الأول وتخلط بين قيرس والى هرقل وقد مات قبل مجيء منويل بمدة طويلة وبين بنيامين. ولكنها على أي حال تظهر الصلة بين الشروط الثلاثة وحرب منويل (أنظر طبعة الدكتور (Wallers) لابن دقماق الجزء الخامس صفحة ١١٨).

(١) انظر ما سبق صفحة ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) Corp. Hist. Script. Byzant. الجزء ٤٤ صفحة ٦٧ ولا يمكن أن يكون هذا الاتفاق غير صلح الإسكندرية ولكنه اختلط بصلح بابليون. وأما قوله «الثلاث السنوات» فذلك أثر من ذكر المدة التي بين فتح الإسكندرية فعلاً سنة ٦٤٢ وبين غزوة منويل سنة ٦٤٥، ولسنا ندري ما يقصد بلفظ «العام». وأما طلب الجزية فلا يمكن أن يكون قد بلغ منويل إلا في الإسكندرية، ولكن قد ذكر بعد ذلك أن منويل هزم ورجع إلى ذلك الموضع. ويقول تيوفانز إن قيرس كان حياً بعد هذه الحادثة كما يقول بعض مؤرخي العرب إن المقوقس كان حياً بعدها. وذلك بغير شك خطأ، فانهم يخلطون بين قيرس وبنيامين، وخلاصة القول أن ذلك الخبر من أبعد الأخبار عن الصحة وأقلها تحملاً للفحص.

وفرض العرب الجزية على مصر مرة أخرى . فلما سمع الامبراطور بذلك بعث (قيرس) ليحمل العرب على الخروج من مصر على الشروط التي عقدوها معه ، فجاء (قيرس) إلى عسكرهم وقال لهم إنه لم يأت النقض من قبله ، وإنه يقسم أن يعيد معهم العهد الذي عقده من قبل ، فأبى العرب ذلك كل الإباء . وإنه لمن أشق الأشياء أن يعين الإنسان مواضع الخلط والخطأ في هذه الرواية فما هي إلا نسيج من التحريف ، ولكن من قرأها لا يسعه إلا أن يقول إن العرب عندما غزوا مصر في أول الأمر لقيهم (قيرس) فأعطاهم مالاً على أن يرجعوا عن مصر ، فلما سمع هرقل بذلك أرسل إلى مصر (منويل) على الفور ، فلما هزم (منويل) أبى العرب أن يعودوا إلى عهد الصلح الأول الذي اشترط عليهم فيه الخروج من مصر . هذا ما آل إليه الخبر من التحوير ؛ ومن ثم نشأت قصة الجزية ، ولا حاجة بنا أن نقول بعد ذلك كلمة في إظهار فسادها[1]. ومع ذلك فإننا نرى اليوم من بين الكتب الكبرى من يأخذ بهذه القصة ويراها رواية صحيحة[2].

(١) الظاهر أن تيوفانز يذهب إلى أن تلك الحوادث وقعت في السنة الخامسة والعشرين من حكم هرقل. وقد ذكر (Von Ranke) نقلا عن كتاب ميخائيل السوري طبعة (Langlois) المنقولة عن الأرمنية إثباتاً لتلك القصة عن الجزية ولا شك في أن ميخائيل أخذ عن تيوفانز أو عن المرجع الذي أخذ عنه تيوفانز إلى سنة ٧٤٦ على الأقل. ولو كان (Von Ranke) نقل بعد ذلك جملة أو جملتين لعرف فساد رواية ميخائيل لأنه يجعل (عمر) يغزو مصر قبل فتح مدينة بيت المقدس أو قبل تسليم البطريق صفرونيوس لها. ويمكننا أن نغفر له الخلط بين (عمر) و (عمرو) ولكن المؤرخ الذي يقول إن دفع قيرس الجزية إلى العرب كان قبل دخولهم إلى مصر يجب أن يحكم عليه بما يستحق لقوله في الصفحة عينها إن فتح العرب لمصر كان قبل فتح بيت المقدس.

(٢) أنظر مثلا كتاب الأستاذ Bury (Later Rom . Emp.) الجزء الثاني صفحة ٧٦٩ هامش ٣.

الفصل الثلاثون

خاتمة

معاملة الإسكندرية ـ قصة طلما ـ إعادة الأسرى ـ شكوى القبط الذين بقوا على ولائهم ـ وإنصافهم ـ إقرار عبد الله على مصر وسفر عمرو عنها ـ إحباط العرب آخر مساعي الروم ـ ختام هذا التاريخ ـ المسائل الكبرى التي يمكن البحث فيها ـ موت بنيامين ـ موت عمرو وموضع قبره .

لقد لقيت الإسكندرية جزاء مدينة مقهورة ، وكانت بذلك جديرة إذ أنها أجرمت بالثورة على العرب واستدعاء الروم لمساعدتها عليهم. ولو نجحوا فيما شرعوا فيه لبرر النجاح مسعاهم ولكنهم خابوا فكان خطؤهم مضاعفاً . ذلك بأنهم فجروا في عهدهم ثم عجزوا في أمرهم ، فلم يفتحوا أرض مصر . ولسنا ندري أكانوا على حق في نقضهم العهد ، وما كان ذلك ليحقَّ لهم إلا إذا كان العرب قد بدأوا بنقضه . ولقد قيل إن الأمر كان كذلك لأن العرب زادوا الجزية المفروضة عليهم ، ولكن ذلك زعم لا يقوم عليه برهان . وأما الإمبراطور فلا نجد له مبرراً ولا عنه دفاعاً ، فقد قبل العهد وجعل عليه خاتمه ، وقبل فيه أن يخرج جنده من مصر لغير رجعة ، فلا يعيد إليها من بعد ذلك جيشاً . ولو زعم أن العرب قد نقضوا عهدهم معه لبرىء من عهده معهم ، وأخلى نفسه منه ، ولكنه خرق شريعة الحرب إذ جهز أسطولاً عظيماً وبعث به خفية واستولى على عاصمة مصر ، ولم يقم وزناً لما تعاقد عليه[1] . وعلى ذلك كان العرب على

(١) كان العرب شديدي المحافظة على الشرف في مثل هذا الأمر فإن جند مصر عندما حاصر =

حق في التشدّد مع الثائرين ، ولم يكن في وسعهم وقد دخلوا المدينة ووضعوا فيها السيف والنار ، أن يميزوا بين صديق وعدو ، أو بين قبطي ورومي . ولكن الأمر كان على غير ذلك في القرى . وما انتهت ثورة الاسكندرية وقضي على لهيبها حتى برّ عمرو بقسمه . وهدم الأسوار الشرقية حتى سواها بالأرض ، ثم توجه إلى من اشترك جهاراً في الثورة من مدن مصر السفلى . والظاهر أن طلما[1] حاكم أخنا أو حاكمها المعزول كان من أوّل من أوقد الثورة ، وكانت أخنا قرية من قرى الساحل بين الإسكندرية ورشيد . وقد سافر ذلك الرجل إلى القسطنطينية وعاد مع الأسطول الروماني ، فلما هزم الروم بقي وحده لا ناصر له ، فوقع في يد المسلمين وجيء به إلى عمرو . فقيل لعمرو أن يقتله ، ولكنه لم يكترث به ونظر إلى عمله نظرة استهزاء ، إذ أمر به فألبس سوارين وتوّجه وكساه برنساً أرجوانياً ، وقال له ساخراً : بل انطلق فجئنا بجيش آخر من جيوش الروم . ولقد فرح طلما في آخر الأمر بأن أبيح له أن يبقى في مصر ، وأن يدفع الجزية[2] . وأما البلاد الأخرى التي ساعدت الروم في ثورة منويل فكان أكثرها

= الخليفة عثمان بعد ذلك في داره ومنع عنه الماء أثار ذلك حفيظة المسلمين . ويقول الطبري « إن ذلك أمر محرم في الحصار حتى عند الروم : وهذه عبارة تسترعي النظر على الأقل .

(١) أنظر ما سبق في صفحة ٣٦٩ وليس لدى (Weil) حجة تثبت ما قاله من أن طلما كان قبطياً بل على عكس ذلك لقد كان بلا شك عاملاً من الروم . ولقد كانت الثورة كلها من الحزب الروماني أو الملكاني في مصر ولم يكن للقبط يد فيها ولا ميل إليها . فذكر القبط أنهم كانوا يودون رجوع الروم في ذلك الوقت وأنهم وعدوا بأن يساعدوهم بكل ما لهم من قوة قول فيه قلب عظيم لحقيقة التاريخ .

(٢) يقرن مؤرخو العرب طلب (طلما) الخاص بالجزية بهذه الحادثة (أنظر ما سبق في موضعه) وإنه لمن أشق الأشياء أن نقول أي هذه الحوادث المذكورة المتصلة بثورة منويل متصل بالفتح الأول للإسكندرية وأيها متصل بالفتح الثاني ، ولكن هناك دليلاً قوياً على أن العرب كتبوا لطلما عهداً خاصاً وهذا لا يمكن أن يكون إلا في الفتح الأول ولا نكاد نشك في أن العرب أبقوه في عمله ولكنه خان أمانته بالتحريض على الثورة . وأما في الحالة الثانية عندما كان ثائراً أسيراً تحت رحمة عمرو فلم يكن العرب ليعطوه عهداً خاصاً . وقد ذكر المقريزي وسواه خبر معاملة عمرو له .

مـا قـاوم العـرب في الفتـح الأوّل ، وهي بلهيب ، وخـيس ، وسلطيس ، وقـرطسـا[1]. وسخـاً . وقـد أخـذت من تلك القـرى أسـارى كمـا أخـذ من الإسكندرية وبعث بهم إلى المدينة . ولكن الخليفة عثمان عنـدما نـظر في أمر البلاد التي ثارت هـداه حسن رأيه إلى أن يعيـد من أسر من أهلهـا ويعفو عمن

---

(١) نجد بعض الصعوبة هنا أيضاً في الوصول إلى الحقيقة فإن ياقوت مثلاً إذا قال إن عمراً صالح بلهيب في طريقه إلى الإسكندرية على دفع الجزية والخراج (الجزء الأول صفحة ٧٣٣) لا يمكن أن يقصد سوى سير عمرو الأول إلى الإسكندرية ، ولكنه يقول بعد ذلك إن أهل مصر ساعدوا عمـراً في قتالـه لأهل الإسكنـدرية إلا بلهيب والخيس وسنـطيس وقرطسا وسخا ، فإنها ساعدت الروم ، وعلى ذلك لما فتح عمرو الإسكندرية أسر أهل تلك القـرى وأرسلهم إلى المدينـة وسـواهـا . ولكن الخليفـة عمـر ردهم إلى بـلادهـم وأدخلهم في العهد الذي مع أهل مصر عامـة ـ ولا يمكن أن يطلق هـذا القول إلا على وقت الثورة ـ حقاً إن اسم عمر ذكر في ذلك الخبر خطأ في موضع اسم الخليفة عثمـان ولكن هذا الخطأ يسهل تفسيره ومن السهل تصحيحه في حين أن التناقض عظيم بين قوله إن بلهيب صالحت العرب صلحاً خاصاً وقوله إن بلهيب بقيت على عداوتها حتى فتحت عنوة ، فذلك قول لا يقبل توفيقاً . فالحق في رأينا أن ذلك الموضع دخل في عهد الصلح في مبدأ الأمر ثم اشترك في ثورة منويل . وكذلك يقال عن الخيس فإن ياقوت يذكر (في الجزء الثاني صفحة ٥٠٧) أن خارجة بـن حذافة فتحها وأن أهلها ساعدوا الروم في قتال عمرو فإن القول الأول يقصد بـه الفتح الأول . وأمـا الثاني فتقصـد به الثـورة . ويروي المقريزي عن مؤرخين سابقين أن سنطيس ومصيل وبلهيت (بلهيب) ساعدت الروم في قتال العرب ، ولكن هذا القول لا يفيد القارىء شيئاً . على أن لغة السيوطي تزيل كل شك إذ يقول : « كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا فسبوا : منها قرية يقال لهـا بلهيت ، وقرية يقال لها الخيس . وقرية يقال لها سلطيس وقرسطا وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب (يريد عثمان) رضي الله عنه إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة هي والإسكندرية وقرى أخرى » وهذه الكلماتَ لا معنى لها إلا إذا قصد وصلها بثورة منويل مع أنه من المؤكد أن المؤرخي العرب نقلوا ذلك الخبر من الموضـع الذي وجـدوه فيه وجعلوه خـطأ في خبر فتـح الإسكندريـة الأول وكل الخبـر الذي يـذكـر أن الإسكندرية فتحت عنوة في أول الأمر ناشىء من مِثل هذا الخلط وقد يـزول بعض هذا الخلط ويتضح إذا ما جلاه النقد ولكن بعضه معجز لكل مداواة .

اشترك منهم في الثورة ، وأعادهم إلى ذمة المسلمين على شرط الجزية[1] التي حدّدت من قبل . ومعنى ذلك أنه نزل عن حقه في جعل الإسكندرية وسواها من المدن الثائرة غنيمة ، واتخاذ أهلها عبيداً في ملك يد الفاتحين . والظاهر أن جماعة من جند عمرو وكانوا يرغبون أشدّ الرغبة في قسمة الإسكندرية والبقاء فيها . ولقد قيل إن عمراً نفسه كان يريد أن يتخذ الإسكندرية مقرّاً له ولكن الخليفة لم يرض بذلك كما قد أباها عليه الخليفة الذي قبله . ولم يبق عمرو في مصر بعد استقرار الأمر إلا شهراً واحداً ثم خرج عنها لعبد الله بن سعد .

ولا يسعنا إغفال قصة ذات دلالة تذكر هنا ، وذلك أن القبط من أهل قرى مصر السفلى جاءوا إلى عمرو بعد فتح الإسكندرية وشكوا إليه ما حل ببلادهم من النهب الشنيع على يد جند الروم ، وقالوا قد كنا على صلحنا موالين للعرب وما حل لك ما صنعت بنا . كان لنا أن نقاتل عنا لأنا في ذمتك وقد أصابنا من وراء ذلك ما أصابنا . وكانوا على حق في شكواهم هذه ولكن قلما ترى بين القوّاد المظفرين من يعبأ بمثل تلك الشكوى . غير أنه قد روي عن عمرو أنه ندم وقال : « يا ليتني كنت لقيت الروم حين خرجوا من الاسكندرية » وأعظم من هذا في أمره أنه أمر بتعويض القبط مما فقدوه ، فكان هذا إقراراً صريحاً من عمرو بما عليه من فرض واجب ، فألزم نفسه في صراحة بأن يعوّضهم عما لحق بهم ، وإن في ذلك لدلالة على ما كان عليه عمرو من حسن الرأي في الحكم وما كان متصفاً به من نبيل الشيم .

ولكن هذه المكارم كانت نقائص في عين الخليفة ، إذ كان بها مرض من سخطه . وقد علم غناءه في الحرب فأحب أن يكافئه على ما أدّى من عمل عظيم بأن يجعله قائد جند مصر ، على أن يكون عبد الله الظالم حاكمها وعاملاً

(١) نستطيع الآن أن ندرك معنى قول يحيى بن أيوب وخالد بن حامد إذ يقولان إن مصر فتحت صلحاً إلا الإسكندرية ، ومع أن القرى الثلاث التي ذكرت حاربت مع الروم فإن عمر (عثمان) أمر أن تدخل هي والإسكندرية مع عامة بلاد مصر . وهذا يشير إلى ثورة منويل وليس إلى غزوة العرب الأولى لمصر .

على ولاية خِراجها . وما كان مثل ذلك الرأي ليلقى من عمرو غير إباء المزدري ، وقد بقي ردّ عمرو على صفحات التاريخ ردّاً شديداً لاذعاً لما رآه من عبث الخليفة به ، إذ قال : « إنّا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » ولكن الخليفة لم يبق عليه إذ قد فرغ من غرضه منه ، وقضى به على ثورة مصر ، وكان في حاجة عند ذلك إلى من يستخرج له الأموال من أهلها . فوجد طلبته في عبد الله[1] وخرج عمرو على ذلك من البلاد .

وهنا يليق بنا أن نختم قصة فتح العرب ، فإن القضاء على ثورة منويل واستعادة الإسكندرية مهّدا ملك وادي النيل ، ومكّنا المسلمين فيه . ولقد أراد الإمبراطور قسطانز بعد ذلك بتسع سنين أن يعيد الكرة على مصر، فأعد لذلك أسطولاً ثانياً ، ولكن القضاء سبق بما شاء ، فإن العرب كانوا عند ذلك قد عرفوا شيئاً من فن البحر وأعدوا أسطولاً استطاع أن يقف للروم ويحول بينهم وبين ما أرادوا من النزول ببر مصر ، مع أنه كان أقل من أساطيل الروم عدداً وأضعف سطوة في القتال . وأصابت أسطول الروم بعد خيبته في القتال عاصفة شديدة حتى لم تبق منه إلا حطاماً ، بعدما كان من عظيم شأنه ، وصارت بقاياه لعبة للأمواج تعبث بها وتشتتها. ومنذ ذلك الحين لم يخش المسلمون شيئاً اللهم إلا غزوات مفردة ، إذ لبث بحارة الروم ولصوصهم زمناً طويلاً يهبطون على مدن الساحل يغيرون عليها ، ولكن غاراتهم كانت عقيمة ترتد خائبة .

وقد يكون مما يطلبه الباحث أن يعرف ما آل إليه حال الناس بعد الفتح ، وما طرأ من التغيير على أحوالهم الاجتماعية وغيرها ، وأن يرى كيف أسرع الإنحلال إلى الحضارة الرومانية الإغريقية التي كانت بالبلاد وحلت محلها حضارة جديدة عربية تسير بخطى وئيدة ، وأن يتبين ما بقي ثابتاً من أحوال

---

(١) قال ساويرس عنه « كان يحب المال وجمع كنوزاً لنفسه في مصر وكان أول من بنى ديواناً في مصر وأمر أن تجمع الأموال كلها هناك » (نسخة المتحف البريطاني الخطية صفحة ١٠٨ سطر ٢٠) ويقرن بحكمه كذلك قحطاً عظيماً وهو أشد ما عرف في مصر منذ أيام كلوديوس .

القدماء ومن آرائهم ، لم تغيره السنون ولم تزعزعه الغِيَر . وإن دوننا لميادين للبحث والوصف ، فدوننا وصف علوم القدماء ، فنبين كيف حاولت أن تبقى في مكانها في مدينة الإسكندرية بعد الفتح ، ثم كيف أنها زالت شيئاً فشيئاً حتى لم تبق منها إلا بقية طريدة في أديرة الصحراء وصوامعها ، وظلت هناك ضعيفة ذابلة حتى ذبلت لغة القبط ذاتها وانمحت . ثم دوننا أن نبين كيف ذاعت لغة العرب وفشت في البلاد ، فبدأت منقوشة على النقود في أواخر القرن السابع ، ثم اتخذت في الدواوين وكتابة الحكام[1] ، ثم زاحمت لغة القبط وطردت لغة اليونان من ميدان التخاطب والتعامل إلا كلمات قليلة بقيت وقد صبغت بلون عربي ، أو عبارات وألفاظ لا تزال دفينة في كتب القبط . وكذلك علينا أن نبين كيف اضمحلت تلك المدن العظيمة التي كانت في آخر عهد الرومان مزدهرة . فإن الإسكندرية وإن كانت أعظم مدائن الشرق إن لم تكن أعظم مدائن العالم ، لم تكن سوى واحدة من مدائن كثيرة يلي بعضها البعض فيما بين بحر الروم[2] وأسوان . ولو وصفنا هذا الإضمحلال لرأينا كيف كانت المعابد العظيمة والقصور الجليلة تتهدّم وتتخرّب بغير أن يصلح من أمرها أحد ، وكيف كان المرمر الثمين ينزع من مواضعه لكي تبنى به الأبنية أو لكي يصنع منه الجير ، وكيف كانت تماثيل البرونز تصهر لكي تتخذ منها النقود أو لتصنع منها الآنية ، وكيف بقيت مع كل هذا التخريب المحزن والاضمحلال البالغ بقية من آثار

---

(١) يظهر أن السيوطي يقصد أن النقود العربية أول ما ضربت في سنة ٧٥ هجرية وأن أول كتابة الدواوين باللغة العربية كان في سنة ٨٦ ، ٩٠ للهجرة (حسن المحاضرة الجزء الثاني صفحة ٢٢٦ وصفحة ٨) .

(٢) فمثلاً بنيت (أنصنا) بناء فخماً وكان تخطيطها على صورة مستطيل يقسمه شارع عظيم تقطعه ثلاثة طرق كبرى وكانت تلك الطرق ذات عمد كما كانت طرق الإسكندرية وكانت تزين مواضع تقاطعها التماثيل ، وكان عند مرفأ النيل قوس من أقواس النصر له أبواب ثلاثة وكان قائماً على أعمدة على الشكل الكورنثي وعلى كلا جانبيه تماثيل فرسان وكان خارج المدينة حمامات وميدان للسباق ومدرسة (أنظر كتاب « The Emperor Hadrian » (Gregorovius) صفحة ٣٥٧) .

ورسوم في الصناعة حرص عليها صناع القبط ، ومنها نشأ مذهب جديد في الفن والبناء بعد أن مزجها العرب بروحهم وأدخلوا عليها مما ساغ في ذوقهم ، وصار من ذلك كله مذهب في الزخرفة خالٍ من كل صورة للإنسان ، ومع ذلك فقد أبدعت فيه الصنعة آيات تمتاز بالجمال والجلال وحسن الرونق ، كما تمتاز بأنها بدعة في الفن لم يسبق إليها الماضون . وقد سبق كثير من البحث الذي يدل على سبيل نشأة فن العرب من الفن البيزنطي[١] ، ولا نرى أن مثل هذا البحث داخل فيما نحن فيه من القول في كتابنا هذا .

وفوق هذا لا يزال دوننا ميدان القول في القبط ومذهبهم ، فقد سبق لنا القول في البواعث القوية التي كانت تحدو بالقبط إلى أن يمتزجوا بالإسلام كل الامتزاج في معيشتهم وفي دينهم . فإن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمراً أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقي صلباً يأبى كل الإباء أن يترك ما كان عليه آباؤه من الدين والعادات ، وقد بقي على دينه لم تفتنه أشد المظالم ولم يزعزعه أشنع الاضطهاد . فكان أحدهم إذا ابتليَ صبر على بلائه ، وفي صدره من حرارة إيمانه مايثبت فؤاده ، ولم يفتنهم أنهم عاشوا وهم كل يوم يحسون مرارة الذلة ومضض الهوان ، فلم تخضع نفوسهم ولم تلن . ولقد كان بقاء المسيحية بغير شك راجعاً إلى الأديرة وأثرها ، وكانت الأديرة آمنة لبعدها في الصحراء أو شعاب الجبال ، غير أنه قلما نجد في تاريخ مصر ما ترتاح إليه النفس ارتياحاً أعظم مما نحسه إذا قرأنا أخبار ما كان بين بعض الخلفاء وبين بعض الديرانيين من القبط ، وما كان يجده الخلفاء من اللذة في زيارة أديرتهم البديعة والتمتع بمحاسنها[٢] . ولكن هذه الأخبار لا ترد إلا عن العصور المتأخرة فليست مما نتناوله هنا .

---

(١) أنظر كتاب الأستاذ (Lane Poole) « Art of the Saracens in Eg. » وكتاب المستر Gayet « L'Art Copte » .

(٢) انظر مثلاً كتاب أبي صالح صفحة ١٤٩ ـ ٥٠ و٣١٢ ـ ٣ وتجد صورة فيها شيء من =

ولعل قائلاً يقول إنه لا يجمل بنا أن نغفل ذكر فاتح مصر وما آل إليه أمره ، وليس في ذلك مشقة ولا عناء ، فإنا إذا خرجنا من عصر الفتح وولجنا عصر الحكم العربي وقد استقر الأمر واطمأنت الأحوال ، خرجنا من ظلمة الخلاف والتناقض إلى نور اليقين والإجماع في التاريخ . ولكن القارىء لا بد قد أحاط علماً بأخبار عمرو في وقت النزاع بين أحزاب الإسلام بعد عزله عن مصر ، وما كان منه في وقت مقتل عثمان ، وما ثار بعد ذلك من النضال بين علي ومعاوية ، ثم سيره إلى مصر وانتصاره فيها وعودته إلى حكمها ، فإن أخبار كل ذلك تحويها تواريخ الخلافة ، وقد مر عليها زمن كبير وهي في متناول القراء .

وقد دخل عمرو إلى مصر لولايته الثانية في شهر ربيع الأول من عام ٣٨ للهجرة ، (ويوافق ذلك شهري أغسطس وسبتمبر من عام ٦٥٨ للميلاد). ولم يمض عليه زمن طويل حتى ذللها وأقرّ الأمور فيها ، ثم جازى جنوده وأقبل على خيراتها وأموالها فنال منها ما شاء إذ جعلها معاوية طعمة له . ولقد خرج من مصر حيناً قصيراً لأمر التحكيم العجيب بين المتنافسين على الخلافة وهما علي ومعاوية ، ثم عاد إليها ونجا نجاة عجيبة من القتل غيلة ، وكان جماعة قد اتفقوا على قتل أكبر زعماء الإسلام الثلاثة وهم : علي ومعاوية وعمرو ، وأخذ أحدهم واسمه يزيد على نفسه أن يذهب لقتل عمرو وهو يؤم المصلين في يوم الجمعة في المسجد حتى إذا كان اليوم الذي عزم القاتل فيه على إنفاذ أمره عرضت علة لعمرو منعته من الخروج للصلاة ، فصلى بدله القائد المعروف خارجة بن حذافة ، ولم يفطن القاتل إلى ذلك التغيير فشدّ على خارجة فضربه بخنجره حتى قتله ، ولما جيء بيزيد إلى عمرو قال له في شجاعة « أما والله ما أردت غيرك » فقال له عمرو « ولكن الله أراد خارجة » .

= الغرابة لما بقي بين القبط والعرب من علاقات الود نسخة خطية فهرسها (Cat. (Zoega Codd. Copt ص ٨٩. وقد ذكر فيها قبطي من أهل إقليم طيبة واسمه الشماس حنا بن مرقص « وكان يعيش مع الإسماعيليين والعيلاميين إذ كان تاجراً في سلع ملابس النساء أو الزينة » وهذا كان بعيد الفتح في مدة خلافة عثمان .

وفي اليوم الثالث من شهر يناير من عام ٦٦٢ مات البطريق بنيامين بعد أن قضى زمناً طويلاً في اعتلال وضعف . وقد لبث بطريقاً للاسكندرية مدة تسع وثلاثين سنة ، كثرت في خلالها العواصف وتتالت فيها الحوادث العظيمة ، من أمم تتحرك ، وشعوب تناضل على سيادة بلاد الشرق ، وديانة تقاتل أخرى لتفوز بالسلطان على النفوس . وقد بدأت ولاية بنيامين في مدة حكم الروم ، ثم رأى الفرس في أيام كسرى يملكون مصر ويبسطون سلطانهم على معظم بلاد القياصرة ، ثم رأى هرقل في وثبته الجليلة وقد كافح وناضل حتى انتصر ، فاضطر الفرس إلى استدعاء جنودهم من وادي النيل ، وعادت إليه جيوش الروم ، فجاء معها قيرس الذي سلط على الناس عذابه وعسفه ، فهرب منه بنيامين ولاذ بالصحراء ، فبقي بها ثلاثة عشر عاماً حتى ذهب أمر الروم وانقضت مدة سلطانهم انقضاء لا عودة له في مصر . وقد رأى فوق كل هذا دولة جديدة وديناً جديداً ، يخرجان من فيافي بلاد العرب فيقهران المجوس والمسيحيين جميعاً ، ويبسطان سلطانهما على الشام وفارس ومصر ، ثم مات بعد كل ما شهده من الغِيَرِ والحروب وقد ترك كنيسته في أمن لا بأس به ، تحت ظل المسلمين الفاتحين وقائدهم العظيم عمرو بن العاص .

وقد عاش عمرو بعد تمام سنتين أو نحو ذلك ، وكان البربر من أهل بنطابولس لا يزالون يعكرون صفاءه . وقد أرسل إليهم أكثر من بعث واحد فيما بين عامي ٦٦١ و٦٦٣ . ولما عاد قواده في آخر سنة ٦٦٣ ، بعد أن تم لهم النصر ألفوا عمرو بن العاص في الفسطاط في مرضه الأخير . وقد روي أن ابن العباس[1] دخل عليه وهو في فراش موته فقال « لقد كنت تقول أشتهي أن أرى رجلاً عاقلاً يموت حتى أسأله كيف يجد فكيف تجدك ؟» فقال له عمرو « أجد السماء كأنها مطبقة على الأرض وأنا بينهما كأنما أتنفس من خرت إبرة » . ولما دخل عليه ابنه عبد الله أشار إلى صندوق وقال : « هذا لك » فقال له عبد الله

(١) لم يذكر المؤلف اسم الكتاب الذي أخذ عنه هذه الرواية وقد وجدناها في كتاب الكامل للمبرد الجزء الأول صفحة ١٥٦ (المعرب) .

« لا حاجة لي به » فقال عمرو « خذه فإن فيه مالاً » ولكن عبد الله أبى أن يأخذه[1]، وكانت آخر كلمات قالها عمرو هي : « اللهم أمرتنا فعصينا ونهيتنا فما انتهينا . اللهم لا بريء فأعتذر ولا قويّ فأنتصر » . ومات في يوم الفطر من عام ٤٣ للهجرة ، وذلك يوافق السادس من شهر يناير من سنة ٦٦٤ للميلاد ، وكان عمره فوق السبعين[2] فحمله ابنه عبد الله إلى المسجد وصلى عليه ، ثم صلى عليه كل من حضر الصلاة من الناس .

ودفن عمرو في سفح المقطم « بقرب مدخل الشعب » ولكن موضع قبره قد نسي وأغفل . ولقد مرت قرون على ذلك الجبل والناس يحفرونه ويقتلعون منه الحجارة حتى لقد أنمحى أثر «الشعب» الذي كان هناك من زمن طويل ، وبذلك لم تبق علامة تدل على قبره ، وأصبح اليوم لا تذكره الأخبار . ولقد بنى عمرو مدينة الفسطاط ثم علا شأنها حتى صارت مدينة جليلة ، ثم عصف بها الدهر فهي الآن لا أثر لها ، وقد سويت بالأرض ، ولا يبق منها شيء سوى المسجد الذي يحمل اسم عمرو ولا يزال قائماً في الموضع الذي كان فيه بناؤه الأوّل ، وهذا كل ما بقي منه وإلى جانبه « دير أبي سيفين » و« قصر الشمع » وفيهما كنائس لا تزال قائمة يرجع وضع أساسها وإن لم يكن بناؤها إلى زمن الدولة الرومانية . وأما أسوار حصن بابليون فقد كانت لا تزال قائمة منذ عشرين عاماً ، وكاد بناؤها عند ذلك يكون سليماً تاماً ، ولكن لم تبق منها اليوم إلا قطع في بعض المواضع ، ولعله من الممكن أن يكشف عن أساسها إلى عمق عظيم

---

(١) يقول مؤرخو المسلمين إن رفض عبد الله كان لأنه خشي أن تكون ثروة عمرو وقد جمعها من غير وجوه الحلال وهذا إتهام شنيع للأب والابن كليهما وليس ثمة من دليل على أن عمراً جمع المال من طرق خبيثة أو أن ابنه كان يرى مثل ذلك الرأي . ولا شك أن الابن قد ملكه الحزن الطبيعي عند احتضار أبيه فكان ماله آخر ما يفكر فيه .

(١)لا نرى رأي المؤلف في هذا ، فإن عبد الله بن عمرو كان ممن يتحرجون للشبهة وقد جمع عمرو ثروة عظيمة فيها شبهة من حقوق الناس ، وليس من البعيد أن يكون عبد الله قد أبى أخذها لذلك المعنى (المعرّب) .

(٢) أنظر الذيل الخامس للكتاب « عن سنّ عمرو » .

فتوجد كاملة تحيط بالحصن كما قد كشف باب من أبواب الحصن من قبل عند حفر ما حوله . ولكن الإنسان إذا بحث في السهل حتى بلغ جانب الجبل لم يستطع أن يجد حجراً يدله على قبر عمرو ، فإن المسلمين لم يحتفظوا بأثر من فاتح مصر ولم يبقوا في قلوبهم ذكرى مقرّه الذي دفن فيه .

تم بحمد الله تعالى .

والصلاة والسلام على نبيه المصطفى

عن الأثر الذي اسمه الصليب المقدّس

قصة وجود الصليب في مايو سنة ٣٢٨ قصة معروفة حق المعـرفة ، ومن المحقق أن الخشب الذي وجدته الامبراطورة (هيلانة) بقي مدة قرون . وقد ذكر سقراط (راجع Eccl. Hist.,I.XVII) أن هيلانة وضعت قطعة منه في صندوق من فضة وجعلته في بيت المقدس وأرسلت القطعـة الأخرى إلى الامبـراطور . والدليل تام غير منقطع على تاريخ ذلك الصليب فيما بعد ذلك من الأيام .

فلنبدأ بما كان في القرن الرابع فإنا نجد في الرسالة المكتوبة عن (كنائس قسطنطين في بيت المقدس) في الجزء الأول ممـا نشرتـه جمعية Palestine) (Pilgrims Text Society صفحة (٢٣ ـ ٥) اقتباساً من كتاب الصلوات يبين أن في كنيسة قسطنـطين مذبحـاً من الفضة والـذهب قائمـاً على تسعة أعمـدة وأن الصليب كـان مزينـاً بالـذهب والجواهـر . ويـذكـر تيـودوسيـوس De Terra) (Sancta « المخـدع الذي فيـه صليب السيد المسيـح والصليب نفسـه مـزين بالذهب والجوهر ومن فوقه السماء وحوله قضبان متقاطعة من الذهب ». وكذلك تذكر (القديسة سلفيا الأكيتانية) (حوالي سنة ٣٨٥ للميلاد) استعمال البخور في كنيسة القيامة في عرض قولها وهي تذكر الاحتفـال بيوم (الجمعـة الطيبـة) وقد شهدت فقالت « ثم أحضر صندوق مغطى بالفضة وفيه الخشب المقدّس خشب الصليب ثم فتح وأخرج ما فيه ووضع خشب الصليب بما عليه من النقوش فوق منضدة » ثم أقبل الناس فقبلوه (نفس الكتاب صفحة ٦٣)

وقد زار (أنطونيوس الشهيد) الأماكن المقدّسة حوالي سنة ٥٦٥ للميلاد ، ورأى هناك ذلك الأثر لا يزال باقياً في مدخل كنيسـة قسطنـطين وكان محفـوظاً

هناك في مخدع أو مشهد وهو لا يذكر شيئاً عن الصندوق بـل يذكـر الإسفنجة والقصبة وقد قيل إن نيقتاس أنجى تلك القصبة في القرن السابع .

وقد رأينا أن الصليب قد أخذه الفـرس في سنة ٦١٥ عنـدما فتحـوا بيت المقدس وبعثوا به إلى كسرى مع سائر الغنائم ثم أعاده هرقل في سنة ٦٢٨ فأتى إلى القسطنطينيـة في ذلك الشتـاء ثم أعاده إلى مـوضعه في كنيسـة قسطنـطين باحتفال عظيم سنة ٦٢٩ ثم أرسل إلى القسطنطينية بعد ذلك ببضع سنين حوالي سنة ٦٣٦ لكي يحفظه من الوقوع في يد الفاتحين المسلمين .

وقد رآه في قسطنطينية نحو سنة ٦٧٠ الحاج (أركولفـوس) وكان قـد زار بيت المقدس ورأى الكنائس الكبرى كما كانت بعد أن أعاد بناءها مودستوس ، وهـذا دليل هـام لأنه يـدل على مقدار تسـامح المسلمين في معـاملة الكنـائس المسيحية نحو آخر القرن السابع . ولكن (أركولفوس) يـذكر أن الصليب كـان محفوظاً في كنيسـة أيا صـوفيا في صنـدوق من الخشب محفوظ في مخـدع أو مشهد فسيح في منتهى الجمال . وكان ذلك الأثر يوضع فوق مذبح من الذهب في ثلاثة أيام في العام وهي يوم خميس العهد والجمعة الطيبة والليلة التي تسبق يوم عيد الفصـح ، ففي اليوم الأول كـان الإمبراطـور وجيشه يـدخلون فيقبلون الصليب يتقدمهم الإمبراطور ثم أكابر رجال الجيش حسب درجاتهم ، وفي اليوم التالي كانت الملكة تدخل مع وصيفاتها وسائر نساء الأعيان ليقبلنه ، وفي اليوم الثالث كان البطريق ورجال الدين يدخلون ليفعلوا مثل هذا مع تقديم الأكابر . ثم كان الأثر يـوضع بعـد ذلك في صنـدوق ويعاد إلى مشهـده (أنظر الكتـاب المذكور الجزء الثاني صفحة ٥٥ ـ ٦) .

وقد ذكر بورفيروجنيتوس مثل هذا الخبر عن الصليب في القرن العاشر . على أنه يظهر أن الصندوق الذي كان موضوعاً فيه كان عند ذلك في موضع آخر من الكنيسة . ويحيط شيء من الظلام بما آل إليه أمر الصليب في النهاية وما آل إليه أمر سـائر الآثار التي كانت محفوظة في كنيسة أيا صوفيا . وقد أفـاض في وصف هذا الأمر المستر (ليتابي) والمستر (سوينسن) في كتاب ممتع وهو (St. Sophia, Constantinople) صفحة ٩٢ و٩٣ و٩٧ وما بعدها الخ .

الملحق الثاني

في تواريخ الفتح الفارسي

مما يشك فيه أن نستطيع اليوم أن نعرف على سبيل البت تاريخ الحوادث المتصلة بالفتح الفارسي لمصر ؛ فقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك الحادث كان بعد سنة ٦١٦ للميلاد . ويقول (جلزر) ، وقد كتب رسالة غزيرة العلم عن هذا الأمر (Leontius Von Neapolis صفحة ١٥١) إن الإسكندرية لا يمكن أن يكون فتح الفرس لها قبل سنة ٦١٩ وهو يخالف في ذلك رأي (فون جوتشمت) الذي يذهب إلى أن ذلك الحادث كان قبل ذلك بسنة أو سنتين .

والحجج التي يوردها (جلزر) هي كما يلي : أن تيوفانز يجعل الفتح الفارسي في سنة ٦١٦ ، ويقول ابن العبري إنه كان في السنة السابعة من حكم هرقل آخذاً ذلك عن البطريق ميخائيل إذ يقول (طبعة بيت المقدس صفحة ٢٩٣) إن شاه ـ ورز غزا مصر في السنة السابعة من حكم هرقل . ويذهب إيزيدور (Roncalli. Chron, Min الجزء الثاني ٤٦١) إلى أن الفتح كان في سنة ٦١٦ ، ويقول الطبري إن مفاتيح الإسكندرية أرسلت إلى كسرى في السنة الثامنة والعشرين من حكمه أي سنة ٦١٧ ـ سنة ٦١٨ « وهو في ذلك يثبت التاريخ الذي سبق أن روى عن ميخائيل » .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن السنة السابعة من حكم هرقل هي من أكتوبر سنة ٦١٦ إلى أكتوبر سنة ٦١٧ في حين أن السنة الثامنة والعشرين من حكم كسرى تقع من منتصف سنة ٦١٧ إلى منتصف سنة ٦١٨ ، ولا يقع أي جزء منها

في سنة ٦١٦ . وعلى ذلك فليس الاتفاق واضحاً بين خبر الطبري وخبر ميخائيل ، وفوق ذلك أن ابن العبري (أو أبا الفرج) يذكر بوضوح في موضع آخر His. Dyn (طبعة پوكوك) صفحة ٩٩ أن فتح الفرس لبيت المقدس كان في السنة الخامسة من حكم هرقل وهو في ذلك يناقض نفسه كما فعل في مواضع كثيرة .

ويقول (جلزر) فوق ذلك إن (فون جوتشمت) قد بين بياناً دقيقاً («Kleine Schriften» الجزء الثالث صفحة ٤٧٣ وما بعدها) إن غزوة الفرس لا يمكن أن تكون وقعت قبل سنة ٦١٧ لأن « المراجع السورية تدل على أن زيارة أثناسيوس الأنطاكي للبطريق أنستاسيوس المونوفيسي بالاسكندرية كانت في سنة ٦١٦ » في حين أن المعروف أن البطريق الذي كان على ولاية الدين عندما فتح الفرس الإسكندرية كان أندرونيكوس . وفوق ذلك لقد كان (نيقتاس) هو المساعد على توحيد الكنيستين وصاحب الفكرة في هذا كما يقول ابن العبري وقد هرب نيقتاس مع حنا الرحوم عند مقدس الفرس . ويذهب (فون جوتشمت) إلى أن وفاة أنستاسيوس كانت في ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ ، وقد أقام خلفه أندرونيكوس (كما أسلفنا في متن كتابنا هذا) في المدينة واستطاع ذلك . ويقول (جلزر) إن هذا يدل دلالة واضحة على أن الإسكندرية كانت على الأقل في أوّل ولاية أندرونيكوس للبطرقة (آخر سنة ٦١٦ لا تزال تحت حكم الروم . وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون فتح الفرس قبل صيف سنة ٦١٧ كما يذهب إليه (فون جوتشمت) .

وإنا نرى على وجه الإجمال أن تواريخ (فون جوتشمت) صحيحة على أنها لا تخلو من الصعوبة . وأوّل اعتراض هو أنه ليس من الثابت أن السنة التي يوردها المؤرخون السوريون تتفق مع سنة ٦١٦ وذلك لأن هؤلاء المؤرّخين ولو أنهم يتبعون التقويم اليوناني أو (السلوخي) في تاريخهم يختلفون عنه عادة في حسابهم بسنة إذ يجعلون بدأه من سنة ٣١١ قبل الميلاد بدلاً من سنة ٣١٢ (راجع Trésor de Chronologie المجموعة ٣٦) . وعلى ذلك فمن المحتمل

أن يكون الدليل المستند إلى الكتاب السوريين أميل إلى سنة ٦١٥ لا إلى سنة ٦١٦ ، وفي هذه الحالة يتفق ذلك التاريخ مع ما جاء في (الديوان الشرقي) إذ يذهب إلى أن زيارة أثناسيوس لمصر كانت في السنة التي فتح الفرس فيها بيت المقدس عنوة . وفوق ذلك يقول الكاتب المصري ساويرس الأشمونيني : إن وفاة البطريق المصري أنستاسيوس في ٢٢ كيهك (١٨ ديسمبر) من سنة ٣٣٠ للشهداء ، وقد أخطأ (رينودو) إذ ذهب إلى أن ذلك يوافق سنة ٦١٤ لأن كيهك يقع في سنة ٦١٣ وهذه الأخبار لا يمكن التوفيق بينها ، ولكن لا يمكن على الأقل أن نجعل فتح بيت المقدس في سنة ٦١٣ .

على أنه يجدر بنا أن نذكر أدلة سوى هؤلاء من المؤرخين السوريين، إذ من المعلوم أنه توجد نسخ مخطوطة سورية من الإنجيل تاريخها في القرن السابع وقد كتبت في دير الهانطون بقرب الإسكندرية كتبها توما الهركلي وبولص التلوي ، وأمر بكتابتها البطريق أثناسيوس نفسه وهو في زيارته لمصر . وكانت هذه المخطوطات جزءاً من مراجعة شاملة للنص السورياني على النص اليوناني نص (Philoxenus) فتاريخ هذه المخطوطات ذو أهمية عظمى .

«ومن المعلوم أن توما الهركلي أتم ترجمته لنص العهد الجديد إلى السوريانية في سنة ٩٢٧ من التاريخ اليوناني »[١] وسنة ٩٢٧ هذه إن لم تكن موافقة لسنة ٩٢٦ المعتادة كانت من ابتداء أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر ٦١٦ ؛ وتوجد أيضاً نسخة مخطوطة أخرى (سوريانية ذات ست روايات) في المتحف البريطاني (Add. Mss. 144, 379) وقد كتب فيها أنها تمت في السنة عينها سنة ٦١٥ - ٦١٦ والنسخة الخطية للكتاب الثالث للملوك مؤرخ في شباط سنة ٩٢٧ ، وذلك يوافق فبراير سنة ٦١٦ ، ونسخة الكتاب الرابع للملوك كتب بها ما يدل على أن بولص وأثناسيوس كانا يقيمان في الإسكندرية في سنة ٩٢٨ وهي تقع بين أكتوبر سنة ٦١٦ وأكتوبر سنة ٦١٧ ، وهذا يحدّد وقت زيارة البطريق السوري في

(١) أنظر « Dict. Christ. Biog. » ترجمة توماس الهركلي وبولص التلوي .

خريف سنة ٦١٦ ، وقد ذكر في نسخة أخرى خطية من النسخ السريانية ذات الروايات الست وجدت في ميلان أن تاريخ تمامها كان في سنة ٩٢٨ وذلك في سنة ٦١٦ ـ ٦١٧.

ففي كل هذه النسخ الخطية ذكر دراسة علمية تجري في سلام في دير الهانطون مدة سنتين بين سنة ٦١٥ و٦١٧ ، وهذا يحدد عرضاً وقت زيارة البطريق السوري ويجعلها في أكتوبر سنة ٦١٦ لأن مضيفه البطريق القبطي توفي في ديسمبر من ذلك العام . وقد كان حساب تلك التواريخ على ما اعتاده الناس من التاريخ بالحساب اليوناني. على أننا إذا ذهبنا إلى أن حساب تلك التواريخ كان على حسب التاريخ السوري الخاص كان لزاماً علينا أن نجعل وقت تلك الزيارة في سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ وأن نجعل العمل من سنة ٦١٤ إلى سنة ٦١٦ ، فإذا ذهبنا هذا المذهب وقع الاتفاق بين قولنا وبين قول ابن العبري إذ يقول في كتابه (تاريخ الكنائس ـ صفحة ٢٦٧ ـ ٩) « إن أثناسيوس ذهب إلى الإسكندرية وكان بطريقها أنستاسيوس وعقد معه وفاقاً واتحاداً ووقع هذا الاتحاد بين كنيستنا السورية وكنيسة مصر في سنة ٩٢٧ من التاريخ اليوناني » (وهي من أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر سنة ٦١٦) إذ أن ابن العبري لا يتبع الطريقة السورية التي تخالف التاريخ المعتاد . ولا يمكن التوفيق بين وجوه هذا الخلاف إلا إذا سرنا على طريقة أخرى في حساب التاريخ . ولما كان سريان بابل خاصة هم الذين قدموا حسابهم على التاريخ اليوناني بسنة لم يكن بعيداً أن يكون توما الهركلي وبولص التلوي قد سارا على تلك الطريقة . وإذن يقع الاتفاق بين الديوان الشرقي وبين النسخ الخطية من الإنجيل وأبي الفرج ، وكل هؤلاء يجعلون تاريخ توحيد الكنيستين في أكتوبر سنة ٦١٥ ويلوح لنا أن هذا حل عادل قريب إلى الأذهان .

ونرى أنه لا يزال من الضروري أن نجعل وفاة البطريق القبطي في ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ وليس في سنة ٦١٥ ، وذلك لأننا لا نجد طريقة أخرى نجعل بها ولاية خليفته أندرونيكوس توافق التواريخ المعروفة في مدتها وفي تاريخ

انتهائها، فإن مدتها معروفة بأنها كانت بضعة أيام وست سنوات آخرها ٨ طوبـه (٣ يناير) . فإذا قلنا إن يوم ٣ يناير من سنة ما هو تاريخ وفاة أندرونيكوس وبدء ولاية بنيامين لم نجد سنة فيها كل الشروط المطلوبة إلا سنة ٦٢٣ ، فمن جهة لا شك في أن أندرونيكوس شهد بدء غزوة الفرس ، ونرى أنها كانت في أواخر سنة ٦١٦ ؛ ومن جهة أخرى لا شك في أن هذا البطريق كان حياً في أول أمـر الإسلام ، فإن الديوان الشرقي يجعل مدة ولاية أنـدرونيكوس بين سنـة ٦١١ ـ ٦١٧ ، ولكنه يذكر بعد ذلك « أن في مدته علا أمر المسلمين » وذلك في يوليه سنة ٦٢٢ . ويوافق على هـذا مكين إذ يجعل اختيـار بنيامين في السنـة الأولى للهجرة سنة ٦٢٢ ـ ٦٢٣ وشهادة أبي صالح كذلك واضحة صريحة فإنه يذكر أن أندرونيكوس كان بطريقاً « في أول ظهور المسلمين في السنة الثانيـة عشرة من حكم هرقل»(طبعة Butler, Evetts صفحة ٢٣١) وهذا التواتر في الأدلة على أن تاريخ ولاية بنيامين كان في شهر يناير سنـة ٦٢٣ برهـان قوي لا يكـاد شيء يقف لـه . وأما (Le Quien) فـإنه يتبـع تـاريـخ سـاويـرس إذ يقـول إن ولايـة أندرونيكوس كانت من سنة ٦١٩ ـ ٦٢٢ .

فإن تم لنا إثبات أن وفاة أندرونيكوس كانت حوالي ٣ يناير سنة ٦٢٣ وأن مدة ولايته كانت ست سنوات تزيد قليلاً أولها ١٨ ديسمبر ، ويخيل إلينا أننا قد أثبتنا ذلك ، كان أول ولايته في سنة ٦١٦ ، وكانت وفـاة أنستاسيـوس في ١٨ ديسمبـر سنة ٦١٦ ، وهـذا التاريخ يوافق مـا أثبته (فـون جـوتشمت) (راجـع Kjeine Schriften. ii صفحة ٤٧١ ـ ٤) .

ولقد ساقنا هذا الكلام إلى الاستطراد والبعد عما كنا فيه من ذكـر النسخ المخطوطة من الإنجيل التي كتبت في دير الهانطون ولكن من الضروري أن نعود إلى ذكرها حيناً .

فهذه النسخ المخطوطة تدل على : (١) أن توما الهركلي كـان يعمل في الترجمة مـدة سنتين على الأقل قبـل زيارة البـطريق السوري . (٢) إن الـزيارة نفسها يغلب أن تكون وقعت في أكتوبر سنة ٦١٥ . (٣) إن بولص التلوي بقي

يعمل مدة ثلاثة أشهر على الأقل بعد الزيارة أي إلى يناير سنة ٦١٦ .

وهنا تقوم صعوبة إذ ذكر عرضاً أن أثناسيوس ذهب مع خمسة من الأساقفة السوريين ، في حين أن سياق قول ابن العبري يدل دلالة قاطعة على أن توما الهركلي طرد من أسقفيته في (مابوج) وهرب إلى مصر لاجئاً . ولا موضع للشك في أن توما وبولص كانا في مصر وقت تلك الزيارة ولا في أن ثلاثة أساقفة آخرين إما جاءوا مع أثناسيوس ، وإما طردوا ولجأوا إلى مصر هاربين من فتح الفرس لفلسطين . ولدينا عبارة صريحة ذكرها حنا مسكوس وهي أن أساقفة كثيرين هربوا إلى مصر لاجئين ، ولكن الأقرب إلى الاحتمال أن هؤلاء العلماء السوريين بمقامهم في الاسكندرية واتصالهم الناشيء من ذلك بالبطريق القبطي قبل زيارة بطريق أنطاكية ، قد مهدوا السبيل إلى الاتحاد الرسمي الذي تمّ سريعاً بعد اجتماع البطريقين .

وبعد فقد بقي جزء واحد من الدليل الذي يمكن أن نستخلصه من هذه النسخ المخطوطة وذلك أنه من أكبر الأمور دلالة أن كل الكتب الأخرى من الإنجيل التي تنسب إلى بولص التلوي ليس بينها كتاب واحد يذكر فيه تاريخ . وآخر تاريخ هو كما بينا أوّل سنة ٦١٦ ، ويلوح لنا أنه ليس من المقبول عقلاً أن يقال إن العمل مع ذلك قد تم في الدير نفسه دير الانطونيين[1] (Antonians) في الظروف نفسها ، وأن نجعل غزوة الفرس على ذلك فيما بعد سنة ٦١٦ ، بل إن الأمر على عكس هذا فإن هؤلاء العلماء السوريين الذين رأوا أو سمعوا بما أحدثه الفرس من التخريب العظيم ببلادهم كان لا بد لهم أن ينزعجوا عند أوّل نبأ يصلهم عن مقدم الفرس إلى مصر ، وإنه لمن أقرب الأمور أن يكونوا قد هربوا في البحر في صيف سنة ٦١٦ ومعهم رهبان دير الهانطون بما معهم من ثمين المتاع ، ومن ذلك النسخ المخطوطة اليونانية للكتاب المقدّس . ولكنا

---

(١) عجيب أن يسمى دير الأنطونيين « Antonines » في قاموس (Dict. Christ. Biog) والمقصود طبعاً أن رهبانه كانوا يسيرون على مذهب مار أنطونيوس .

بغير أن نأخذ بهذا الرأي نرى دوننا رأياً آخر محتملاً في تفسير ما كان ، وهو يتفق مع استمرار العمل في مصر . ويدفعنا ذكر ذلك إلى القوم في أمر أهمل إهمالاً عجيباً ، ويجمل بنا على ذلك أن نؤكده بعض التأكيد ، فإن من عادة الكتاب الذين كتبوا عن هذا العصر أنهم دائماً يذكرون فتح الفرس كأنه حادث واحد يجعلون له تاريخ سنة واحدة . ومعنى هذا أنهم « يعجزون عن أن يميزوا بين غزو مصر وبين فتح الإسكندرية ». وهذان الحادثان لا بد كان بينهما سنة على الأقل . ومما لا شك فيه أن الكتاب القدماء كانوا أحياناً يذكرون لفتح الفرس تاريخ أحد الحادثين وأحياناً يذكرون له تاريخ الحادث الآخر وهذه الحقيقة تفسر كثيراً مما يسود ذلك الأمر من الخلط والاختلاف .

ويمكننا أن نقول إنه قد صار من المدلل عليه أن الفرس لم يكونوا قد ساروا إلى مصر في أوّل سنة ٦١٦ ، ولئن قلنا إنهم كانوا يستطيعون أن يدخلوا في حرب جديدة عقب فتح بيت المقدس فإنه ليس من المحتمل أن يقدموا على عبور الصحراء في فصل الصيف . فيمكن على ذلك أن نذهب إلى أن سيرهم إلى مصر بدأ في خريف سنة ٦١٦ ، وأن جيشهم فتح الفرما ونهب الأديرة فيها قبل آخر تلك السنة . ثم كان عليهم بعد ذلك أن يسيروا إلى منفيس وإلى فتح الحصن المنيع حصن بابليون ، وأن يحاربوا الروم في طريقهم على فرع النيل الغربي مارّين بمدينة نقيوس ، (ونعلم أنهم فعلوا ذلك) ، حتى بلغوا الاسكندرية . ونعرف كذلك أنهم قضوا وقتاً طويلاً في حصار المدينة قبل أن تسلمها إليهم الخيانة . ولا يُمكن أن يكون ذلك قد استغرق أقل من سنة . وعلى ذلك فمن المحال أن نجعل فتح الاسكندرية قبل آخر سنة ٦١٧ ، أو أوّل سنة ٦١٨ ، على أي مذهب من مذاهب التاريخ .

وعلى ذلك فمن السهل أن نقول إن العلماء السوريين بقوا في عملهم في دير الهانطون حتى قربت جيوش الفرس ثم هربوا إلى المدينة ، وكان الهرب منها في البحر ممكناً في كل وقت ، وبهذا كان يمكنهم أن يبقوا سنتين أخريين قد تكونان كافيتين لإتمام عملهم .

حسبنا ما ذكرناه عن المراجع السورية ولكن يجدر بنا أن نتنبه إلى أن تلك الحجة التي ساقتنا إلى القول إن شتاء سنة ٦١٧ ـ ٦١٨ هو الوقت الذي لا يمكن أن تكون الاسكندرية قد فتحت قبله تسوقنا كذلك إلى اتفاق دقيق مع التاريخ الذي ذكره الطبري وهي كذلك تسوقنا إلى قريب من الاتفاق مع ما ذهب إليه فون جوتشمت ولو أننا سلكنا مسلكاً مخالفاً لما سلكه وكانت الحقائق التي بنينا برهاننا عليها فيها شيء من التضارب مع حقائقه . فقد ذهب إلى « أن الإسكندرية كانت في ديسمبر سنة ٦١٦ لا تزال مع الروم وأنه لا يمكن أن يكون الفتح الفارسي قد وقع قبل صيف سنة ٦١٧ » (إذا كان يقصد بقوله « الفتح الفارسي » فتح الإسكندرية)، والطبري يتجاوز هذا التحديد قليلاً إذ يقول إن مفاتيح الإسكندرية لم ترسل إلى كسرى قبل الشتاء ، وإنا نتفق معه في هذا الرأي . فنقول على ذلك إجمالاً إن التواريخ كانت كما يلي :

(١) فتح بيت المقدس كان في آخر مايو سنة ٦١٥ .
(٢) زيارة أثناسيوس للاسكندرية كانت في أكتوبر سنة ٦١٥.
(٣) سير الفرس إلى مصر كان في خريف سنة ٦١٦.
(٤) موت البطريق القبطي كان في ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ .
(٥) فتاح بابليون كان في ربيع سنة ٦١٧ .
(٦) فتح الإسكندرية كان في آخر سنة ٦١٧ .
(٧) إخضاع مصر جميعها كان في سنة ٦١٨ .

ولعلنا نقول فوق ذلك إن فتح الصعيد لا يمكن أن يكون قد تم قبل شتاء سنة ٦١٨ بزمن طويل ، لأننا نعرف من ورقة بردى قبطية مؤرّخة أن (أرسنويه) أو الفيوم كانت لا تزال في ملك الروم في التاسع من يونيه سنة ٦١٨ (Corpus Papyrorum Raineri) الجزء الثاني صفحة ٢٢ Koptische Texte (ed. J. Krall.) ولكنا نقول على وجه الإجمال إن هذا البيان يدل على أنه قد وقعت بين فتح بيت المقدس وتمام فتح مصر مدّة ثلاث سنوات وهو يوافق كل الموافقة ما ذكره أبو الفرج (طبعة Pococke راجع ما سبق) .

وهـذا النظام يمكننـا من أن نقول إن بعث حنـا الرحـوم لمسـاعـدة بيت المقدس كان في شتـاء سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ فـإن من بعثهم ذهبوا عن طـريق البر وما كانوا ليستطيعوا ذلك لو كانت جيوش الفرس في طريقها إلى مصـر . وعلى ذلك يكون هروب حنا الرحوم مع نيقتاس في خريف سنة ٦١٦ ، إذا كـانا قـد هربا عندما جاءهما نبأ غزوة الفرس . على أن قول Leontius يفيد أنهما هـربا قبيل فتح الإسكندرية أي بعد ذلك التاريخ بعام ولٰكنا فوق كل هذا نرى أن هذا النـظام في التاريـخ يتفق مع تـأريخ مؤرخي العـرب في ذكـرهم تـاريـخ حيـاة البطارقة ، وفي ذكرهم مدّة احتلال الفرس لمصر ، وهذه المدة كما يقول جلزر كانت عشر سنوات وهو حق .

وأما البطارقة القبط فنرى أن تواريخهم كما يلي :

(١) انستاسيوس من يونيه سنة ٦٠٤ إلى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ .
(٢) اندرونيكوس من ديسمبر سنة ٦١٦ إلى ٣ يناير سنة ٦٢٣ .
(٣) بنيامين من يناير سنة ٦٢٣ إلى ٣ يناير سنة ٦٦٢ .

وأما البطارقة الملكانيون فتاريخهم كما يلي :

(١) تيودور قتل في سنة ٦٠٩ .
(٢) حنا الرحوم من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٦١٦ أو سنة ٦١٧ .
(٣) جورج من سنة ٦٢١ إلى سنة ٦٣٠ أو سنة ٦٣١ .
(٤) قيرس من سنة ٦٣١ إلى سنة ٦٤٢ .

فـإذا نحن اتبعنا (جلزر) فيمـا ذهب إليه معتمـداً على حجة واحـدة وهو (Thomas Presbyter) من أن اتحاد الكنيستين المصرية والسورية قد وقـع في سنة ٦١٨ وجب علينا أن نغير كل نظامنا في تتابع تواريخ بـطارقة القبط ووجب علينا فوق ذلـك أن نجعل ولايـة بنيامين على الأقـل في سنة ٦٢٥ في حين أن المؤرخين المصريين يكررون أن ولايته بدأت في سنة ٦٢٢ ـ ٣ وهي سنة هجرة النبي وظهوره. وأما نحن فنرى أن هذا الاتفاق برهان قاطـع ولو لـم يكن لـدينا برهان غيره على تاريخ ولاية بنيامين . ولكنه من أمهـل الأمور أن نـورد براهين

كثيرة من المؤرخين المصريين على تفنيد قول من قال إن ولايته كانت في سنة ٦٢٥ .

وأما احتلال الفرس لمصر مدة عشر سنوات فقد ذهب (جلزر) إلى أن تلك المدة انتهت سنة ٦٢٩ أي بعد سنة على الأقل من صلح هرقل وشيرويه . ولكنا نرى ثلاث حجج قوية تنقض ذلك الرأي :

(١) إن القصد من كل خطة هرقل في سنة ٦٢٢ والسنوات التي بعدها كان تخفيف ضغط الفرس عن عاصمته وعن مصر ، وإنه لمن أقرب الأمور أن تكون مصر قد أخليت من الفرس بسبب هذا الضغط منذ ربيع سنة ٦٢٧ حتى ولو لم يقم على ذلك برهان وعلى هذا تكون مدة الفتح الفارسي منذ أول الغزو عشر سنوات تزيد قليلاً .

(٢) ولو لم يكن الأمر كما ذكرنا فقد ذكر سبيوس أن شيرويه في صلح فبراير سنة ٦٢٨ رضي أن يخلي في الحال كل ما كان يملكه من بلاد الروم وأخرج جيوشه منها .

(٣) إن النبي محمداً بعث رسله إلى الأمراء في صيف سنة ٦٢٧ أو خريفها على الأكثر كما روى الطبري لأنه يذكر أن الرسل الذي أرسلهم كسرى إلى اليمن حجزوا هناك بضعة أشهر حتى أتت أنباء موت الملك وكان موته في فبراير سنة ٦٢٨ ولا شك في أن النبي عندما بعث رسوله إلى مصر كانت مصر قد عادت إلى دولة الروم وكان يحكمها والي هرقل «المقوقس» كما يسمونه خطأ.

وليس اعتماد (جلزر) على (نيقفوروس) مما يدعم اتخاذه تاريخ سنة ٦٢٩ فإن نيقفوروس يقول « إن سارباروس بعد أن سمع بموت كسرى وشيرويه وقباذ وهرمزداس رجع من بلاد الروم » ثم قال « ولما تم الصلح أعاد سارباروس مصر وسائر بلاد الشرق إلى الروم وأخرج منها مسالح الفرس وبعث بالصليب ـ واهب الحياة إلى الإمبراطور » ولكن الشاه ـ ورز لم يصر ملكاً باتفاقه مع هرقل إلا في آخر سنة ٦٢٩ على الأقل (Journal Asiatique 1866) صفحة ٢٢٠) في حين

أنه من المؤكد أن هرقل استعاد الصليب في سنة ٦٢٨ وفوق ذلك إن نيقفوروس نفسه قال بعد أن ذكر عدّة حوادث أخرى إن الصليب أخذه هرقل بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم أعاده إلى القسطنطينية وتلقاه فيها البطريق سرجيوس » وقد كان حدوث ذلك في الخمس عشرة سنة الثانية (أي في سنة ٦٢٩) . وإذا كان لنا أن نستخلص شيئاً من هذا الخبر المفكك استخلصنا أن الفرس خرجوا من مصر قبل استعادة الصليب أي قبل سبتمبر سنة ٦٢٨ ، ولكن ذلك الخبر لا يدل على شيء سوى أن نيقفوروس هذا شاهد غير عدل لا يُعوَّل على قوله .

والحقيقة هي أن مدّة احتلال الفرس وهي السنين العشر يمكن أن يعدّ أوّلها إما عند دخول الفرس إلى مصر ، وإما من أول فتح الإسكندرية ، وإما من إتمام فتح مصر إلى أسوان ويختلف مدى تلك المدة باختلاف الوقت الذي يعتبر الابتداء منه .

ولقد سعينا في هذا التعليق أن نظهر أن كثيراً من الخلط ناشيء عن إغفال التمييز بين غزو مصر وفتح مصر فهما معنيان غير مترادفين وحادثان لم يقعا في وقت واحد . ولذلك الخلط سبب آخر وهو إغفال التفريق بين السنة الميلادية (التي أوّلها أول شهر يناير) وبين السنة اليونانية من تاريخ الإسكندر (التي أوّلها أوّل سبتمبر)، وهي تقع في جزأين من سنتين من سني الميلاد . وفوق ذلك سبب ثالث وهو إغفال الانتباه إلى طريق حساب السنة اليونانية عند السوريان فإنها أحياناً تختلف عن التاريخ اليوناني المعتاد بسنة وفيها تبدأ السنة في أوّل أكتوبر بدل إبتدائها في أوّل سبتمبر والسبب الأخير في الخطأ يصح لنا أن نذكره وهو الاعتماد في حساب التواريخ على أساس غاية في الضيق . ويحدث هذا من طريقين : إما بالمبالغة في تضييق الفترة التي يستمد الدليل منها ، وإما بتضييق المجال الذي يستمد منه الدليل فإنه لا يكفي أن نبحث في تواريخ فترة نحو عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة ثم ننتهي من ذلك البحث إلى نهاية بغير أن ننظر إلى ما ينشأ عن ذلك من النتائج أعني بغير أن ننظر إلى علاقة هذه التواريخ بما قبلها وبما بعدها من التواريخ ونتحقق من أن ما ينشأ عن ذلك من النتائج

يخرج ثابتاً بعد التمحيص والنقد . ويجمل كذلك أن نذكر أننا إذ نعالج هذه الحوادث التي وقعت في القرن السابع نعتمد على مراجع تاريخية مختلفة الأنواع كثيرة العدد ففيها اليوناني والأرمني والسرياني والعربي والمصري وفي كل منها شيء يجب الرجوع إليه ، وليس من العدل أن نضع نظاماً للتاريخ نستمده من طائفة أو اثنتين من هؤلاء الكتاب بغير أن نأبه كما ينبغي بالآخرين . وإنا ونحن نكتب هذا نشعر أعمق الشعور بالصعاب التي تحيط بمثل هذا السعي إلى التوفيق بين المراجع التي قد تكون في الحقيقة كما هي في الظاهر غير قابلة للتوفيق ، ولكن لعلنا غير مغرورين إذا نحن بينا بعض الصعاب التي تعترض طريق الباحثين في بحثهم . ويجمل بنا أن نقول إننا وإن اختلفنا مع (جلزر) نفعل ذلك وفي نفوسنا كل الإعجاب بمؤلفه النفيس الغزير العلم الدقيق البحث . ولسنا ندعي أن نظام التاريخ الذي وضعناه خال من الصعاب ، ولكنا قد ندعي أننا قد وضعناه على أسس واسعة وأننا قد وفقنا به بين عدد عظيم من مراجع كل منها منفصل عن الآخر كل الانفصال ومباين له أكبر المباينة .

الملحق الثالث

في شخصية المقوقس(1)

روجعت وصححت من رسالة
(Proceedings of the Society of Biblical Archaeology)

ليس في كل تاريخ مصر شخص جمع بين الشهرة والخفاء مثل الشخص الذي يطلق عليه الاسم العربي المقوقس أو المقوِقس . ولا خلاف في أن ذلك الشخص كان أعظم الروم أثراً في أزمة الفتح العربي وأنه كان العامل على تسليم مصر . ولكن هذا كل ما لايختلف فيه . وأما حقيقة شخصه واسمه وجنسه وعمله الذي كان يعمله في الدولة وبلاؤه الذي أبلاه ومعنى لقبه نفسه الذي يعرف به ، كل تلك الأمور مختلف فيها ، وطالما تكلم فيها الباحثون وذهب كلٌّ مذهباً في الإجابة عنها ، ولكن تلك الإجابة تنم عن تباين في الآراء لا يمكن التوفيق معه بينها . وما كنا لنعجب من ذلك الاختلاف فإنه من الجلي أن مؤرخي العرب أنفسهم كانوا من أوّل الأمر في حيرة عظيمة ودهشة من هذا الأمر . ومن الكتاب المحدّثين نجد (Von Ranke) في صفحة ١٤٢ وما بعدها من كتابه (Weltgeschichte V.i) يزعم أن المقوقس كان حاكم مصر وأنه كان قبطياً . ولكن يلوح لنا أنه كان يشك في حقيقته التاريخية . وأما (De Geoje) في كتاب « Etudes dediés à Leemans » في كتاب « De Mokaukis Van Egypte »

(1) قد كتب المؤلف رسالة بعد كتابة هذا الكتاب بنحو عشر سنوات وهي « The Treaty of Misr in Tabari » وأدخل فيها بعض التعديل على آرائه وقد بينا هذا في الملحق السابع (المعرّب) .

فإنه يذكر أن الظاهر أن مؤرخي العرب قد خلطوا في بعض المواضع بين المقوقس وقيرس البطريق الإمبراطوري في الإسكندرية مع أنه كان شخصاً آخر وله عمل غير عمل المقوقس . وأما الأستاذ (Karabacek) في مقاله « Der Mokaukis Von Aegypten » Mitheilungen aus der Sammlung der) Papyrus Erzherzog Rainer الجزء الأول صفحة ١ ـ ١١) فإنه يذهب إلى أن اسم المقوقس هو جورج بن مينا برقبيوس (Barkabios) وبهذا يفسر اسم (فرقب) أو (قرقب) الذي يسمي به بعض المؤرّخين أبا المقوقس . ويزعم (Karabacek) أن المقوقس كان حاكماً لإقليم ، ويزعم أن لقبه تحريف عربي للفظ اليوناني (٦٢*) ويأخذ ذلك اللفظ على أنه كان لقباً تشريفياً يعادل لفظ (٦٣*) وسواه مما يوجد في أوراق البردى المختلفة من القرن السابع . وأما المستر (ملن) في تعليقه عن (جورج المقوقس) في كتابه -Egypt under Ro) man Rule) صفحة ٢٢٤ فإنه يذهب إلى أنه كان جورج حاكم الإقليم الذي ذكره حنا النقيوسي والذي يظن أنه كان حاكم (Augustamnica) أي أثريب . انظر كتاب (Hyvernat) « Actes des martyres de L'Egypte » (الجزء الأوّل صفحة ٢٩٦). على أن أثريب لا يصح أن تعدّ « على الحدود الشرقية لمصر » . كما تستلزمه حجة المستر (ملن). وأما الأستاذ استاتلي لين بول في كتابه (Egypt in the Mid. Ages) صفحة ٥ هامش ٢ فإنه يميل إلى ترجيح مذهب أن ذلك الاسم تحريف للقب اليوناني السابق الذكر (٦٤*) ويتبع رأي المستر (ملن) في زعمه أنه كان (جورج حاكم الإقليم الشرقي) مخالفاً في ذلك ما جاء في الأخبار العربية من أن المقوقس كان « حاكم مصر كلها وأنه كان يقيم في الإسكندرية » .

ثم إنه يقبل القصة المتداولة التي تجعل المقوقس قبطياً . وهكذا نرى الأستاذ (بوري) يسميه « الحاكم القبطي » لمصر وذلك في كتابه .Later Rom) Empire) الجزء الثاني صفحة ٢٧٠ وترى أن أخبار هؤلاء المؤرّخين جميعها لا يمكن وصفها بخير من أنها جزئية وغير تامة ، لأنهم لم يعالجوا ذلك الأمر

معالجة كافية ولم يبينوا آثاره في تاريخ الفتح ، ثم لم يفحصوا رأيهم بمقابلته بالصعاب التي تنشأ من إطلاقه ، وما يلقي الباحث عند اتباع ذلك الرأي من المشاكل . وفوق كل ذلك ليس المقوقس بالشخص الأوحد الذي اختلف في حقيقته ، فإن جل كبار قادة تلك الحرب من روم ومصريين يحيط بهم ظلام وإبهام ، وكثيراً ما يختلط بعضهم ببعض . فإذا نحن وفقنا إلى معرفة كنه المقوقس لم نصل إلا إلى نصف حل العقدة ، فلا بد لنا من أن نفحص أشخاصاً آخرين في الوقت عينه ونعرف حقيقتهم . ولكنا نرى أن هذه الضرورة لم يدركها أحد إلى الآن حق إدراكها ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن هذه المشكلة في مجملها لم يعالجها أحد علاجاً وافياً . فالحقيقة أن الخلط في الأسماء والأشخاص متسرب في كل تاريخ مدّة الفتح تسرباً عظيماً لا يدرك عظم المشكلات التي به حق الإدراك إلا من يعاني كتابة ذلك التاريخ أو يحاول كتابته . ونرى أن الأجدر بنا أن نبدأ بذكر ما قاله أكبر مؤرّخي العرب . ونرى ما في قولهم من الأخبار التي توضح هذا الأمر الذي نحن بصدده أو تساعد على حل إشكاله .

البلاذري : (المولود سنة ٨٠٦ للميلاد) يذكر المقوقس ويقول إنه صالح عمراً وإنه كان في جانب القبط بعد أن أبى هرقل أن يقرّ صلحه . ويذكر عند وصف ثورة منويل أن بعض الرواة يذهبون إلى أنه ساعد العرب ويذهب بعضهم إلى أنه كان قد مات قبل ذلك .

الطبري : (٨٣٩ ـ ٩٢٣) يفرِّق بين حاكم الإسكندرية وبين حاكم منفيس ويذكر أن الأخير كان المقوقس وأنه كان عظيم القبط وأنه أرسل إلى منفيس جيشاً تحت قيادة « الجاثليق الذي كان كبيرأساقفة النصارى واسمه ابن مريم ».

سعيد بن بطريق : (المولود سنة ٨٧٦ للميلاد) وكان ملكانياً ويذكر أن المقوقس كان عاملاً على الأموال في مصر لهرقل ، وكان يعقوبياً في الباطن ، ولكنه كان في الظاهر ملكانياً وأنه منع الجزية التي كان عليه أن يرسلها

للإمبراطور منذ حصار الفرس للقسطنطينية ولم يذكر للمقوقس اسماً وذكر أنه كان حياً إلى ما بعد ثورة منويل .

النسخة الخطية من كتاب ساويرس الأشمونيني : (أوائل القرن العاشر) وهي غاية في عظم الشأن فقد جاء فيها « لما استعاد هرقل بلاده استعمل عمالاً عليها فأرسل إلينا في أرض مصر قيرس ليكون حاكماً وبطريقاً معاً » . ويقول عن اضطهاد السنوات العشر ومدة هروب بنيامين « وكانت هذه هي السنوات التي كان فيها هرقل والمقوقس يحكمان مصر » ثم قال « ولما انتهت مدة السنوات العشر لحكم هرقل وولاية المقوقس » ثم قال في وصفه « الحاكم الكافر الذي كان بطريقاً وحاكماً للاسكندرية » وفي الختام روى عن بنيامين أنه قال : « مدة الاضطهاد الذي نزل بي عندما طردني المقوقس » وقد كان ساويرس هو الذي ذكر أن بنيامين هرب من ولايته عند مقدم قيرس . ومن هذا يرى أن ساويرس يذهب إلى أن قيرس هو المقوقس .

تأتي بعد هذا فترة تقرب من قرنين إلى أن يجيء ابن الأثير (المولود في سنة ١١٦٠ للميلاد) وهو يذكر أبا مريم وأبا مريام وأن الأول كان جاثليق منفيس (ولنلاحظ خطأ ذلك اللقب)، وأن الثاني كان أسقف ، وأن المقوقس أرسلهما ليقاتلا عمراً ولكنهما فاوضاه وصالحاه على شروط رفضها المقوقس . وأن المقوقس كان يقود الجيش بنفسه في وقعة عين شمس . ثم ذكره بعد ذلك على أنه حاكم الإسكندرية في وقت الحصار وأنه صالح عمراً وكان حياً عند ثورة منويل .

وابن الأثير مضطرب في ترتيب الحوادث في أوّل مدّة الفتح .

أبو صالح : (كتب حوالي سنة ١٢٠٠ للميلاد) يذكر أن « محمداً بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم الإسكندرية » أي في سنة ٦ للهجرة (وأولها ٢٣ مايو سنة ٦٢٧). ويقول بعد ذكر عودة مصر إلى الروم « إن هرقل استعمل على مصر جريج بن مينا المقوقس » ثم ذكر ديراً في الصعيد فقال « إن

بنيامين اختفى هناك في حكم الإمبراطور الروماني هرقل الخلقيدوني ، وحين كان جريج بن مينا المقوقس حاكماً على مصر حتى تمت مدة السنوات العشر ، وكان ذلك هرباً منهما كما أنذره الملك » ثم قال المؤلف بعد ذلك إن تلك كانت السنوات العشر التي قاسى فيها المؤمنين (القبط) الاضطهاد . ولكن أبا صالح ينقل من كتاب (الجناح) أن أسقف الروم في مصر والإسكندرية كان اسمه قيرس (صفحة ٧٣).

ياقوت : (المولود حوالي سنة ١١٧٨ للميلاد) يعقد الأمور تعقيداً أشدّ فهو يذكر أن حصن بابليون كان حاكمه (المندفور) الذي اسمه الأعيرج نائباً عن المقوقس ابن قرقب اليوناني الذي كان يقيم في الإسكندرية » .

مكين : (المولود حوالي سنة ١٢٠٥ للميلاد) يذكر أن عامل هرقل على مصر هو المقوقس وأنه هو وعظماء القبط صالحوا عمراً .

ابن خلدون : (المولود سنة ١٣٣٢ للميلاد وكتب في أواخر القرن الرابع عشر) يتبع ابن الأثير ، ولكن له خلطاً خاصاً به وهو يجعل المقوقس قبطياً .

ابن دقماق : (كتب حوالي سنة ١٤٠٠) يذكر المقوقس الرومي عامل هرقل .

المقريزي : (المولود سنة ١٣٦٥ ميلادية) يروى عن يزيد بن أبي حبيب عبارة أن المقوقس الرومي كان والياً على مصر وصالح عمراً . ويروي عن ابن عبد الحكم خبر حياة المقوقس في وقت ثورة منويل وابن عبد الحكم مؤرّخ قديم (مات سنة ٨٧٠ للميلاد) وكتابه موجود في نسخة خطية ولكنه قصصي كما أنه مؤرّخ غير أنه ذو قيمة عظيمة في كثير من الأحيان وقد نقل (Weil) عنه كثيراً.

ويتفق المقريزي مع ياقوت في ذكر (الأعيرج) وفي أن المقوقس بن قرقب (أو قرقت) كان يونانياً، ويذكر أن القبط كان لهم في الإسكندرية أسقف اسمه (أبو ميامن) وأن المقوقس صالح العرب غير أن هرقل لم يقر صلحه وعنفه على

أنه كان كالقبط في الجبن والخسة . وذكر قيرس فقال إن هرقل « أقام قيرس بطرك الإسكندرية » (وأخطأ فذكر فيرس بالفاء بدل قيرس بالقاف) .

وأما كتاب الواقدي (وهو كتاب قصصي غير ثابت التاريخ) فقد جاء فيه أن ملك القبط كان عند ذلك المقوقس بن رعيل .

أبو المحاسن : (المولود سنة ١٤٠٩) يجعل بنيامين القبطي أسقف الإسكندرية ، ويقول إن قائد قصر الشمع كان الأغيرج (بالغين) وكان تحت أمر المقوقس . وجاء في نسختين خطيتين أن اسم المقوقس جريح (بالحاء) بن مينا وهذا تحريف ظاهر لاسم (جريج ابن مينا) . وقد ذكر المؤرخ نفسه في موضع آخر أن قائد الحصن كان المندفور المسمى الأغيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني . ويروي هذا المؤلف عن ابن كثير قصة (منقولة من ابن اسحاق وغيره) أن المسلمين عندما دخلوا مصر قابلهم أبو مريم جاثليق مصر وأبو مريام الأسقف ثم ذكر هذين القسين العظيمين عند بناء الفسطاط .

السيوطي : (المولود سنة ١٤٤٥ ميلادية) يكاد يتفق مع أبي المحاسن وهو يذكر أن الحصن كان يقوده المندقول المسمى الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني ويذكر أن مقام المقوقس كان في الإسكندرية وأنه صالح عمراً ، ولكن هرقل لم يقرّ صلحه وأن اسم الأسقف القبطي (أبو ميامن) .

وهذا العرض لكبار المؤرخين العرب يظهر وجوه اختلافهم الكثيرة ولكن من الجلي أنهم يذكرون ثلاثة أشخاص يجب معرفة حقيقتهم ، وهم : المقوقس، وأبو مريم، والأعيرج ؛ وسنذكرهم بادئين بالأخير ثم الذي قبله فالذي قبله :

(١) الأعرج ـ الأعيرج ـ الأغيرج . ويظهر أن هذا الاسم جاء أوّلاً في ياقوت (أول القرن الثالث عشر) على أنه اسم قائد حصن بابليون وأن لقبه كان المندفور ويجوز أن ذلك كان تحريفاً للفظ (المندتور) وهو تعريب اللقب البيزنطي على أن ذلك اللقب لا يظهر أنه استعمل في غير ذلك الاستعمال وقصد

به القائد . وقد أخذ أبو المحاسن ذلك عن ياقوت وكذلك أخذ عنه السيوطي ، على أن السيوطي جعل ذلك اللقب (المندقول) وهو تحريف في النسخ . ويقول الأستاذ (لين بول) إن الأعرج والأعيرج هو (أرطبون) أحد قوّاد الروم وأنه كان كذلك يسمى بن (قرقب) أنظر (Eg. in The Middle Ages صفحة ٥ هامش ٢) ولكن ليس ثمة مرجع حقيقي لذلك الرأي في شخصيته ولا في نقل اسم « ابن قرقب » من المقوقس إلى الأعرج . ولكنا نرى أن الأعرج ما هو إلا قلب ناشيء من النقل الكثير للفظ « جرج » أو « جريج » وأن اسم قائد الحصن في الواقع هو « جورج » ولعله شخص غير « جورج الحاكم للإقليم » الذي ذكره حنا النقيوسي .

(٢) أبو مريم . وصف الأستاذ (لين بول) هذا الشخص بأنه « جاثليق » مصر وأنه انضم إلى جيش عمرو ولفظ جاثليق لا معنى له إلا (بطريق) وأول من ذكره من مراجعنا « الطبري » فقد جعلته معلوماته الفارسية يذكر ذلك اللفظ على أنه اسم كبير أساقفة مذاهب النسطوريين والأرمن ويكثر ذكره في كتب سبيوس وسواه ويعرفه (DU Cange) حق المعرفة والحقيقة أن الطبري نفسه يقسر ذلك اللفظ بأنه كبير أساقفة النصارى ولكنه يقول بعد ذلك عبارة محيرة وهي أن اسمه كان « ابن مريم » . ويمكننا أن نسلم بأنه قد كان في مصر رئيسان للأساقفة أو بطريقان في وقت الفتح وهما قيرس وبنيامين ، ونزيد على ذلك أنه قد يجوز أن بطريقاً ثالثاً كان موجوداً عند ذلك وهو بطريق مجهول (للجاليانيين) ولكن ذلك غير هام فيما نحن فيه وابن مريم لا يمكن أن يكون هو (قيرس) ، ولكنه يمكن أن يكون المقصود به (بنيامين) ونرجو أن نستطيع البرهان على أن ذلك هو المقصود . فإنه في مدّة ابن الأثير كان الاسم قد حرف إلى (أبو ميامين) في حين أن أبا المحاسن يذكر ـ وهذا طبعاً صحيح ـ أن الأسقف القبطي في الإسكندرية كان اسمه بنيامين ، ويذكر السيوطي أن الأسقف القبطي هو (أبو ميامين) وليس على الإنسان إلا أن يقرن هذه الحقائق بعضها إلى بعض فيرى لأولّ نظرة أنه من أسهل الأمور تحريف اسم (أبا بنيامين) إلى (أبو ميامين) ثم إلى (أبو مريم) في حين أن (ابن مريم) يجوز أن يكون تحريفاً للاسم

بنيامين ، فإن كتاب العرب كانوا يعرفون أن اسم مريم اسم يجله النصارى إجلالاً عظيماً فأخطأوا في لفظ (أبا) فظنوا أنه اللفظ العربي (أبو) في حين أن نزع الجزء الأول من (بنيامين) وهو (بن) وخلط باللفظ العربي (ابن) ونشأ من ذلك الخلط أسماء عجيبة زادها تحريف النساخ خطأ فذهبوا إلى تسمية الأسقف باسم (أبو مريم) و (ابن مريم) ونستطيع الآن أن نستبعد اسم (أبو مريم)[1] ونحن واثقون من أن ذلك الاسم لم يكن . وكذلك أسماء (أبو مريم) و (ابن مريم) و (أبو ميامين) وأن نجعل مكان هذه الصور الغريبة اسم (بنيامين) الذي كان كبير أساقفة القبط في الإسكندرية . غير أنه لا يكفي أن نستبعد هذه الخيالات فإنا إذا سلمنا أن الشخص التاريخي المقصود هو بنيامين فإنه من المحال أن نقبل ما قيل عنه من أنه اشترك مع عمرو أي اشتراك فيما ذكر عنه فلم يحاربه ولم يفاوضه . وأما ما ذكره الطبري ومن اتبعه كابن الأثير عن بنيامين فإنه قول سخيف فقد جعلوه قائداً حربياً تحت حكم المقوقس ، وقد سعى الطبري إلى جعل خبره مقبولاً لا تناقض فيه فجعل المقوقس أميراً للقبط ولكن كل الأدلة المستمدة من المؤرخين المصريين تدل على أن هذين الرأيين غير صحيحين (وكان الطبري غريباً عن مصر وإن كان قد زارها) . فالمؤرخون المصريون مجمعون على أن بنيامين بقي مختفياً في الصعيد مدة عشر سنوات قبل الفتح العربي وثلاث سنوات في مدة الفتح ولو لم يكن لدينا غير ما كتبه ساويرس « حياة بنيامين » لكان ذلك كافياً للبت في هذا الأمر . غير أن كل المؤرخين من حنا النقيوسي إلى ما بعده متفقون في هذا الرأي . فكيف لنا إذن أن ندرك علة ما

---

(١) من المفيد أن نذكر هنا أن المؤلف قد عاد في رسالته « The Treaty of Misr in Tabari » فقال إنه من الجائز أن يكون هذا الاسم تحريفاً لاسم قائد أرسله هرقل لمساعدة قيرس وهو (مارينوس) أو (ماريانوس) . وعلى ذلك يمكن أن نقول إن مؤرخي العرب لم يقصدوا (بنيامين) بمن سموه (أبا مريم) أو (أبا مريام) بل كانوا يقصدون قائداً حربياً وبذلك تبطل حجة المؤلف في تجريح مؤرّخي العرب وحمل قولهم هنا على الخلط . (المعرّب) .

يعزوه مؤرخو العرب إلى بنيامين من الاشتراك في الأمور عند الفتح؟ والتعليل هو ما يلي : أنهم وجدوا في الأخبار القديمة أو الروايات السابقة أن زعيم المدافعين والرئيس الذي فاوض في شروط الصلح مع الغزاة هو كبير أساقفة الإسكندرية ، ووجدوا بعد الفتح وفي التاريخ القبطي أن كبير الأساقفة في الإسكندرية المعترف به هو بنيامين وفوق ذلك لقد كان بنيامين هو الذي جاء إلى عمرو وصالحه في وقت الفتح الثاني للإسكندرية عند ثورة منويل . فاختلط هذا الخبر بالصلح الذي كان مع قيرس وعلى ذلك اختلط الشخصان وعزيَ إلى بنيامين فعل ما فعله قيرس عند الفتح . ولكن لا بد لنا أن نعالج الأمر الفاصل ألا وهو حقيقة شخصية المقوقس حتى لا يقال إن تفسيرنا هذا تفسير شيء غامض بمثله .

(٣) المقوقس : يذكر جل مؤرخي العرب شخصاً يطلق عليه ذلك اللقب ، ولكن مما يسترعي النظر أن من بين من ذكرنا من المؤلفين لا يذكر الآتون اسماً لصاحب ذلك اللقب وهم البلاذري والطبري وسعيد بن بطريق وساويرس ولا ابن الأثير نفسه . حقاً إن الواقدي يسميه (ابن رعيل) ولكن هذا اسم من الأسماء العجيبة الخيالية التي ترد في قصص العرب قبل التاريخ لتسمية الملوك والسحرة ومن إليهم . فلا نجد أن المقوقس اسمه جريج بن مينا حتى نأتي إلى عام سنة ١٢٠٠ للميلاد إذ يطلق عليه ذلك الاسم (أبو صالح) في حين أن ياقوت الذي كان في نفس عصره يسميه (جريج بن قرقب اليوناني) وهذا الاختلاف يدل على وجود روايتين مختلفتين أو مصدرين منفصلين للخبر . ومن العجيب أن هذا استنتاج يدل عليه ما نجده بعد مدّة من ذلك العصر إذ نجد مؤرخاً واحداً وهو أبو المحاسن ينسب ذلك الشخص (جريج) إلى النسبتين في مواضع مختلفة فيسميه تارة (ابن مينا) وتارة (ابن قرقب اليوناني) ويكفي أن نقول أولاً إن هذين الإسمين لا يمكن التوفيق بينهما وإنهما يرجعان إلى مرجع في عصر متأخر ولا يمكننا بهما أن نعرف شيئاً عن حقيقة المقوقس . فيجب علينا إذن أن ندعهما وأن نسعى إلى اكتناه حقيقته من نواح أخرى لا علاقة لها

بهذين الإسمين فإذا تم لنا ذلك نظرنا فيما وصلنا إليه من بحثنا لنرى هل نستطيع بعد أن عرفنا حقيقة المقوقس أن نفهم سبب هذين الإسمين . ولنعد الآن إلى مراجعنا فإن البلاذري لا يفيدنا كثيراً في بحثنا ، وأما الطبري فإنه بلا شك يضلله ويعميه فإنه يجعل المقوقس « أمير القبط » ، وفوق ذلك يجعله الزعيم الذي يفاوض العرب في التسليم وهو في داخل حصن بابليون وهو مخطىء في هذا خطأً مزدوجاً ، فإن المقوقس لم يكن من القبط ولم يكن في الحصن عند فتحه . على أن البلاذري يذكر أن المقوقس حاكم الإسكندرية . ويقول سعيد بن بطريق إنه كان مراقب الأموال من قبل هرقل، ويجب أن نذكر أن سعيد بن بطريق كان ملكانياً . وقد ذكر أن المقوقس كان ملكانياً ولكنه ذكر أنه كان يبطن الاعتقاد في مذهب القبط ، وتلك عبارة فاسدة اخترعها لكي يفسر ما كان من المقوقس . فلا نستطيع أن نجد حلاً للغز المقوقس وحقيقته حتى نأتي إلى ساويرس فإن الحل فيه واضح لا إبهام فيه ، وقد كان ساويرس قبطياً ولم يكن به ما يحدوه إلى إخفاء ما أتى به المقوقس ، وفوق ذلك قد كتب تاريخه مستنداً إلى وثائق بعضها قبطي وبعضها غير قبطي كانت محفوظة في مكتبة دير مقار وفي دير (نهيا) وفي مجموعات أخرى عند أفراد الناس ، ولقد تجد فيه بلا شك في بعض الأحوال أخباراً غير دقيقة وأخرى مستحيلة ولكنه مع ذلك يذكر طائفة كبيرة من الأخبار لا نجدها في التواريخ القديمة التي ذكرناها آنفاً . وإليك ما جاء في كتاب ساويرس : « استعمل هرقل قيرس بعد استعادة مصر من الفرس وجعل له ولاية الدين والحكم في الإسكندرية » ، ونعلم أنه بقي في عمله عشر سنين اضطهد القبط في أثنائها اضطهاداً عظيماً ، وقد وصف بنيامين مدة هذا الإضطهاد بأنها « عشر سنين كان هرقل وقيرس يحكمان فيها مصر » ثم نجده يذكر قيرس فيسميه « الحاكم الكافر الذي كان حاكماً وبطريقاً للإسكندرية مدّة حكم الروم » ، وفوق ذلك يذكر ساويرس أن بنيامين هرب عند قدوم قيرس لأن ملكاً حذره ثم ذكر أن بنيامين قال « إن المقوقس طردني وشردني » وعلى ذلك فليس ثمت بقية من الشك في أن ساويرس يذهب إلى أن المقوقس هو قيرس ويفرق بينه وبين بنيامين .

وسنحاول أن نبرهن على أن ساويرس على الحق وأن كل مؤرّخي العرب على خطأ فيما خالفوه فيه .

فمن الحقائق التي لا يختلف فيها عن هذا العصر أن قيرس كان ذا سلطان في أمر الدنيا وأمر الدين معاً . وحقيقة أخرى وهي أنه لما استعمله هرقل بطريقاً ووالياً اضطهد القبط مدّة عشر سنوات . ويذكر حنا النقيوسي « الإضطهاد الذي شهره هرقل في بلاد مصر جميعها على أتباع مذهب السنة (القبط) وذلك بتحريض البطريق الخلقيدوني (قيرس) » . وتاريخ القبط مملوء بذكر هذا المعنى .

فكل تاريخ الفتح في كتاب حنا قائم على أن قيرس كان والياً على مصر ولا خلاف في ذلك ، ولكن أبا صالح يذكر أن هرقل استعمل على البلاد المقوقس وأن هروب بنيامين بقي عشر سنوات كما أوحى إليه الملك وأن تلك كانت مدة حكم المقوقس في مصر . حقاً إن أبا صالح يسمي المقوقس جريج بن مينا ولكنا سنتكلم في ذلك بعد حين وجيز ويتفق ابن دقماق ومكين في أن عامل هرقل على مصر كان المقوقس . ويذكر المقريزي أن المقوقس هو الذي صالح العرب وأن مولاه هرقل أبى إقرار صلحه وقد تبعه في ذلك أبو المحاسن والسيوطي . وعلى ذلك فثمت إتفاق بين مؤرخي العرب في العمل الذي كان يعمله المقوقس ولكنهم لا يتفقون في ذكر الاسم الذي كان به يسمى ولو لم يكن لدينا من المراجع غير هؤلاء لما بلغت حجتنا من القوّة ما بلغته . على أن حجتنا قد تستند على دعامة قوية من قول ساويرس وحده .

لكننا نجد دوننا بعض وثائق قبطية وأخرى عربية قليلة العدد لها علاقة بهذا الأمر فلدينا « تاريخ حياة شنودة » الذي نشره أميلنو وهو عن أصل قبطي كتب في القرن السابع وقد جاء فيه الخبر الآتي على صورة نبوءة وهو « ثم سيظهر المسيخ الدجال ويمثل بين يدي ملك الروم فيجمع له ولاية الدين والدنيا وسيجيء إلى مصر ويناصب فيها كبير الأساقفة بالإسكندرية العداء وسيهرب منه هذا إلى أرض تيمان » وهذا بغير شك وصف لقيرس وما كان منه من معاملة بنيامين . ولكن

ثمت قطعة من وثيقة أخرى في المكتبة البودلية (Mss. Copt. Clar. Press.) وقد نشرها كذلك أميلنو تحت عنوان حياة « صمويل القلموني » .

وقد ذكر في هذه القطعة خبر زيارة شخص إلى الدير واسم ذلك الشخص ⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ أو ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ ⲡⲉⲛⲥⲉⲩⲧⲟⲁⲣⲭⲏⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ « البطريق الكاذب » وقد ذكرنا هذه القصة في متن كتابنا هذا (الباب الثالث عشر) ولا حاجة بنا إلى إعادتها هنا . ولكن الـ ⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ لم يقتصر على تسميته في ذلك الخبر بالبطريق بل من الجلي أنه سمي كذلك « مراقب خراج أرض مصر » (ⲧⲁⲝⲓⲁⲣⲭⲏⲥ ⲉϫⲛ ⲇⲏⲙⲟⲥⲓⲟⲛ ⲛⲧⲉⲭⲱⲣⲁ ⲛⲕⲏⲙⲉ) وعلى ذلك فقد جاء في وثيقة[1] مما تخلف عن ذلك العصر ذكر البطريق « الخلقيدوني : (أي الملكاني) وهو لا يعترف له القبط بالسلطان بل إنهم يوالون بطريقهم بنيامين . على أن ذلك البطريق الخلقيدوني قد جمع له السلطان الديني والدنيوي على بلاد مصر وفوق هذا يسمى ذلك الشخص باسم ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ.

ولا حاجة بنا إلى بيان مقدار الإتفاق الوثيق بين هذا الوصف وبين ما جاء في كتاب ساويرس عن عمل قيرس البطريق الخلقيدوني ووالي هرقل وهو فوق ذلك متفق بعض الإتفاق مع ما جاء في كتاب (سعيد بن بطريق) ومكين وابن دقماق والمقريزي . ولكن أكبر ما يهم المطلع على هذه القطعة أننا نجد فيها اسم المقوقس في الصورة الأصلية القبطية وأنه يطلق على شخص لا نجد بعد شكاً في أنه هو بعينه قيرس .

ولكن أميلنو قد أخطأ الصواب فيما ذهب إليه فإنه إضطر إلى أن يذهب إلى أن المقوقس كان بطريقاً ملكانياً ، ولكنه لم يفكر في أنه هو قيرس بعينه فهو يقول في الحقيقة إنه من أصعب الأمور تعيينه فإن قيرس كان قد ترك البلاد في سنة ٦٣٩ ثم قال « ولعل المقوقس قد اختير ليحل محل قيرس عند ذلك بل لعله

---

(١) ذهب (Hyvernat) إلى جعل تاريخ النسخة الخطية التي في مكتبة (Bodleian) حوالي القرن العاشر .

كان عدواً لقيرس » ولكن من أعظم الخدمات التي خدمها ذلك العالم الفرنسي للآداب المصرية أنه لا يدّعي أنه بحث بحثاً خاصاً في تاريخ الفتح العربي وعلى ذلك فإنه كتب مقالاً عن المقوقس بعنوان « قطع قبطية » في جريدة (Journal Asiatique) شهر أكتوبر ـ ونوفمبر سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٨٩ ـ ٤٠٩ وهو مقال ذو قيمة حقيقة ولكنه لم يبحث فيه بحثاً مستفيضاً واسع النطاق ولم يرتب المراجع التي أخذ عنها ترتيباً راعى فيه ترتيب التواريخ أو القيم ، وكذلك قد أخذ في مقاله ذاك برأي بعض من سبقه من المؤرخين بغير أن يفحصه فحصاً نقاداً . فمثلاً عندما ذهب إلى أن المقوقس كان بطريقاً ملكانياً كان دونه اعتراض وهو أنه « إذا صح ذلك فكيف لم يذكر شيئاً عنه المؤرخون القبط الذين كتبوا باللغة العربية مثل سعيد بن بطريق ومكين وأبو الفرج » ويلوح أن هذا اعتراض قوي ، ولكنه لا يلبث أن يختفي إذا ما مسه النقد وقد أجاب أميلنو عليه بقوله « ويجب أن نجير ببساطة أننا لا نعرف شيئاً عن ذلك فإن المؤرخين الأخيرين لم يكتب أولهما وهو مكين غير سطرين اثنين عن المقوقس ولم يذكره ثانيهما وهو أبو الفرج ، وقد كتب فيه سعيد بن بطريق فحاباه ، ولو قلنا إنه عرف ذلك الأمر فمن الجائز أنه غفره له لما كان منه فيما بعد ، ولكنه إذا لم يعرفه كان جهله به سبباً قوياً في أنه لم يذكره وفوق ذلك فقد كتب سعيد كتابه بعد هذه الحوادث بما لا يقل عن ستمائة عام » .

يقول إن ابن بطريق قبطي وإنه كتب بعد الفتح بما لا يقل عن ستمائة عام وما أغرب هذا من قول ! فإن المؤرخين الثلاثة الذين ذكرهم أميلنو : أحدهم أبو الفرج لم يكن قبطياً البتة ولم يكن كذلك مصرياً بل كان سورياً ، وأما الثاني فهو سعيد بن بطريق ولم يكن قبطياً بل كان بطريقاً ملكانياً مع أنه لا يقول إن المقوقس كان هو بعينه قيرس . وقد كتب سعيد بن بطريق بعد الفتح بأقل من ثلثمائة عام وليس « بما لا يقل عن ستمائة عام » . وقد قال سعيد بن بطريق فوق ذلك صراحة إن المقوقس كان مراقب الخراج من قبل هرقل وهو يكاد في ذلك يتفق في النص مع وثيقة أميلنو ، وأما الثالث مكين فقد كان مسيحياً ويجوز أنه كان قبطياً ولكنه مؤرخ متأخر وليس له قيمة كبرى . ومن هذا يظهر أن اعتراض

أميلنو الخاص بمن سماهم مؤرخي القبط لا يدعمه أساس . على أنه ثمة مؤرّخ قبطي من المتقدمين ومن أكبر المؤرخين شأناً ، وقد كتب بالعربية ودليله كما سبق القول كاف وحده إذا لم يدعمه دليل آخر للدلالة على حقيقة المقوقس دلالة لا شك فيها ، وهو ساويرس ، ولكن أميلنو لا يأخذ عنه . ولنوجز هنا النتائج التي استخلصها أميلنو ، وهي :

(١) إن خبر إرسال النبي محمد ﷺ إلى المقوقس كتاباً في عام ٦٢٧ خبر غير حقيقي .

(٢) إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا . وأما اسم « ابن قرقب » فإنه تسمية أخرى (٦٥*) .

(٣) إن المقوقس كان أحد أبويه قبطياً إن لم يكونا قبطيين كلاهما . وإنه كان في خدمة الإمبراطور وإنه كان في أول الأمر على المذهب الملكاني .

(٤) إنه كان بطريقاً ملكانياً ، ولكن تاريخ ولايته غير معروف إلا بالظن والحدس .

(٥) إن لفظ المقوقس كان لقباً لقب به وهو مشتق من لفظ (٦٦*) أو من (٦٧*) وهو اسم قطعة صغيرة من النقود البرونزية كانت تتداول منذ أيام جستن .

والآن قد بلغنا موضعاً نذكر فيه مؤلفاً عظيماً في ذلك البحث للأستاذ العلامة البرتغالي (F.M.E. Pereira) وهو (Vida da Abba Samuel do Mosteire do Kalamon) وهو ترجمة عن اللغة الأثيوبية من كتاب « حياة صمويل » وبه تعليقات ورسائل قيمة من بينها رسالة قصيرة عن المقوقس (صفحة ٤١ ـ ٥٣) ولا يأخذ هذا المؤلف شيئاً عن النسخة المخطوطة من كتاب ساويرس وهو في ذلك مثل أميلنو وهو يتبع أميلنو في كثير من المواضع وهو مثله لا يتحرّى الدقة في تصنيف مراجعه ولا يرتبهم بحسب قدورهم ، ولكنه يظهر مقدار القرب بين الخبر في النص الأثيوبي وبين الخبر في النص القبطي . على أنه من أعجب الأمور أن ذلك النص الأثيوبي مثل كل مراجعنا لا يذكر اسم أكبر عامل في تلك الحوادث بل يسميه

« الحـاكم » وتسميـه القـطعـة القبـطيـة πκολχιος و (بطـريقـاً) والنتـائـج التي استخلصها (Pereira) مخالفة بعض المخالفة لما استخلصه أميلنو كما يلي :

(١) إن صاحب الإضطهاد شخص عرف باسم πκαυχιος, أو المقوقس .

(٢) إنه كان من أصل يوناني .

(٣) إنه كان بطريق الإسكندرية وحاكم مصر ومراقب الأموال .

(٤) إن اسمه كان قيرس .

(٥) إن اسم المقوقس مشتق من لفظ (٦٨*) أو من لفظ (٦٩*) .

لم يبق علينا إلا أن نقول كلمة أخرى في أن المقوقس هو قيـرس . فقد نقل أميلنو عن التقويم القبطي للكنيسة ما ذكره التقويم عن يوم ٨ طوبة وهو يوم وفاة بنيامين ما يأتي : « قاسى بنيامين شدة عظيمة على يد المقوقس فهرب إلى الصعيد حيث قضى مدَّة عشر سنوات كاملة . . . وكان المقـوقس رئيس مذهب خلقيدونية ، وقد استعمل والياً وبطريقاً على مصر » ويتفق التقويم الأثيوبي مع هذا إتفاقاً تاماً وقد نقله (Pereira) بتمامه ، وقد جاءت فيه هذه الكلمات (راجع أصل الكتاب صفحة ١٧٣ والترجمة ١٨٠) « والمقوقس أي (الحاكم والبطريق في الإسكنـدرية وكـل أرض مصر)» . حقـاً إن النسخـة الخـطيـة لهـذا التقـويم يلوح أنها مؤرّخة في القرن الخامس عشر (أنظر فهرس النسخ الخطية الأثيوبية في المكتبة الأهلية سنة ١٨٧٧ صفحة ١٥٢) ، ولكنها مع ذلك ترجع إلى أصل قديم جداً وعلى كل حال فما يسترعي النظر مقدار الدقة العظيمة التـي بقيت فيها الرواية الصحيحة لهذا الخبر محفوظة في هذه السجلات التي للكنيستين (وكانتا طبعاً على إتصال وثيق) في حين أن المؤرّخين العاديين قد خلط معظمهم هذه الأخبار وجعلوها غامضة حتى ضاع فيها الحق .

ولكن لقد صار من المحقق المقطوع به أن قيرس هو المقوقس بعينه وأن المقوقس كان قيرس الذي استعمله هرقل حاكماً وبطريقاً في الإسكندرية . وإنه لمن العجيب أن حنا النقيوسي لا يذكر لقبـاً يشبه المقـوقس أو πκαυχιος ولكن

تاريخه لهذا العصر حافل بالأدلة على أن قيرس البطريق هو الذي قام بالإضطهاد مدّة السنوات العشر وأنه كان حاكم بلاد مصر . وأما ما قيل من أن المقوقس قد ورد ذكره في سنة ٦٢٧ على أنه كان حاكم مصر إذ أرسل النبي محمد كتابه إلى ذلك الحاكم يدعوه فيه إلى الإسلام فإنه اعتراض يسهل الجواب عليه فإن من أوضح الحقائق أن مؤرخي العرب الذين يذكرون اسم المقوقس ليس عند أحدهم أي إدراك لمعنى ذلك اللفظ ولا لاشتقاقه وقد استعمل اللفظ وقصد به حاكم مصر في سنة ٦٢٧ خطأً فقد كان عند مؤرخي العرب أمران :

(١) إن النبي محمداً أرسل رسولاً إلى حاكم مصر في سنة ٦٢٧ .

(٢) إن حاكم مصر في وقت فتح مصر كان اسمه المقوقس وهو الذي كان أكثر الناس ذكراً في تاريخ ذلك الفتح فاستنتجوا من ذلك خطأً أن الحاكم السابق كان اسمه المقوقس كذلك ، وهذا خلط كان وقوعه من أسهل الأمور ويكاد يكون لا بد منه في عقول لم تكن بطبعها نقادة . فليس ثمة ما يبرر تكذيب خبر بعث النبي للرسول إلى مصر كما فعل أميلنو إذ أنه خبر قد قام عليه من الدليل ما قام على أي خبر مصدق من أخبار تاريخ الإسلام . وقد حدث مثل هذا الخلط وفسرنا به إطلاق لقب المقوقس في وقت ثورة منويل على بنيامين . وخلاصة القول إن لفظ المقوقس يطلق على ثلاثة أشخاص :

(١) على الحاكم الذي جاءه كتاب النبي محمد قبل الفتح بسنوات .

(٢) على الحاكم الذي كان في وقت الفتح .

(٣) على عظيم القبط في وقت ثورة منويل .

وهذا يدل على أن العرب لم تكن عندهم صورة واضحة عنه . ولكن دلت الأدلة كلها على أن ذلك اللقب كان يطلق على الحاكم الذي كان على مصر في وقت الفتح ، فإن كل المؤرّخين العرب يدلون على أن قطب الحوادث التي أحدثها المقوقس هو تسليم مصر . وقد دل حنا النقيوسي دلالة قاطعة على أن الذي سلم مصر وخانها هو قيرس . .

بقي علينا أن نظهر كيف أصبح قيرس يدعى جريج بن مينا أو جريج بن قرقب فإن حنا النقيوسي كما رأينا ذكر رجلاً اسمه (جورج) حاكم الإقليم الذي أمره عمرو أن يقيم جسراً على الترعة عند قليوب ، وعلى ذلك قد كان (جورج) هذا شخصاً تاريخياً كان له مكان عظيم في وقت الفتح العربي ، ولعله الشخص نفسه الذي نلقاه تحت اسم (الأعيرج) وإنه من السهل أن نعتقد أن مؤرخي العرب قد خلطوا بينه وبين قيرس ، ولسنا نقدر أن نقول أكان جورج هذا هو (جريج بن مينا) أو (ابن قرقب) ولسنا نرى لهذا كبير قيمة ، ولكنا لا نقدر أن نوافق (Karabacek) على أن والده كان يدعى بالاسمين معاً ولو أنه من الجائز أن (قرقب) صحتها (فرقب) بالفاء وأن (فرقب) تعريب الاسم اليوناني (٧٠*) .

فإن لفظ (قرقب) لم يذكر في الكتب العربية إلا في عصر متأخر جدّاً[(1)] ، فأحرّ به ألا يكون أكثر من تحريف أو سلسلة من التحريف عند النسخ ، وقد قال أبو صالح صفحة ١٥٦ إن اسم (قرقر) مشتق من (جريجوريوس) فإذا ذهبنا إلى أن لفظ (قرقر) قد حرف فصار (قرقب) وهو احتمال قريب كل القرب ـ بدا لنا تفسير سهل قريب وهو أن (ابن قرقب) ليس إلا تحريف (ابن قرقر) وأن معناه (ابن جريجوريوس) . ولنلاحظ كذلك أن (جريجوريوس) تكتب في لغة الأرمن (جريجر) وأن ذلك الاسم من الأسماء الشائعة في تلك البلاد والصورة المعتادة بين القبط والأرمن اليوم من اسم (جريجوريوس) هي (كركور) وعلى ذلك فإنه من أقرب الأمور أن قيرس كان (ابن جريجوريوس) وأن جورج كان (ابن مينا) وقد نبهنا المسيو (كازانوفا) إلى أن (ابن قرقب) إن هو إلا تحريف بسيط لاسم (أبو قرص) وعلى ذلك نرى في الحقيقة اسم (قيرس) مختفياً تحت لفظ (ابن قرقب) وهذا الإقتراح وجيه كما أنه ينم عن ذكاء .

---

(١) رأينا واجبنا التنبيه إلى أن هذا الاسم ورد في الطبري (الجزء الرابع صفحة ٢٢٨ طبع المطبعة الحسينية بمصر) وقد جاء فيه قوله : « فأبى أرطبون أن يجيبهم وأمر بمناهضتهم . . . فلم يفجأ عمرا والزبير إلا البيات من (فرقب) وعمرو على عدة فلقوه فقتل ومن معه » (المعرّب) .

وأما البحث في معنى لفظ المقوقس واشتقاقه فأصعب وأعسر . فقد جاء في المراجع المتأخرة أمثال كتاب (الدميري) « حياة الحيوان » (حوالي سنة ١٤٠٠) و « القاموس » الذي يأخذ عنه (في القرن الخامس عشر) ما يدل على أن لفظ المقوقس معناه (الحمامة المطوقة) وقد ذكرت عدة أقاصيص في تفسير ذلك اللقب ، ولكن لا يكاد أحد يشك في أن هذا الاشتقاق مسخ للحقيقة وهي أن اسم المقوقس قد أطلق في العصور المتأخرة على (الحمامة المطوّقة) على وجه الدعابة والاستظراف . وكذلك لا نستطيع أن نقبل ما ذهب إليه Karabacek من أن ذلك اللفظ مشتق من اللفظ اليوناني (٧٠*) فليس ثمة من دليل على ما يظهر على وجود مثل ذلك اللقب وإن قرب الشبه بين اللفظ اليوناني واللفظ العربي هو في الحقيقة هادم لذلك الرأي فإنه لا يتصور أن يكون العرب قد حكوا ذلك اللفظ اليوناني على صورته بغير تحريف .

وقد رأينا أن لقب المقوقس قد ذكر في النصوص القبطية القديمة هكذا πκαυχιος وأن (أميلنو) و (بريرا) قد اتفقا في أنه مشتق من لفظ بيزنطي قيل إن معناه قطعة من النقود البرونزية صغيرة مثقوبة كما اتفقا في أن ذلك الاسم قد أطلق على قيرس على سبيل السخرية من عمله وهو مراقبة الأموال أو الضرائب أو الجزية . وهذا التفسير وإن كان بعيداً وفيه تكلف عظيم قد يكون أقرب إلى الأذهان لو صح الدليل على أن لفظ (٧١*) أو لفظ (٧٢*) كان مستعملاً في مصر أو سواها من البلاد في ذلك الوقت أو في أي وقت آخر . وأما نحن فلا نعرف ثمة هذا الدليل ، ولسنا ندري أين وجد أميلنو مثل هذه الألفاظ ، فهو يشير إلى (Du Cange) إذ يذكر أن لفظ (٧٣*) معناه إناء صغير أو قدح ، كما أنه يذكر مثلا استعمل فيه ذلك اللفظ بمعنى قطعة مخروقة من النقد . وقد ذكر أن المرجع في ذلك كان (نوفمبر ١٠٥ جستن) وقد احترس (Du Cange) فذكر بعد ذلك أن قراءة لفظ (٧٤*) في ذلك المرجع مشكوك فيها، وقد يكون المقصود هو لفظ(٧٥*) ، ومثل هذا القول هو الذي اعتمد عليه (أميلنو) في إثبات وجود ما زعم وجوده من « قطعة من النقد البيزنطي كانت مستعملة منذ أيام جستن » وقد أخذ (بريرا) هذا الاشتقاق بغير أن يشك فيه فقال : « إن هذا اللفظ مكتوب على

صورة (٧٦*) وصورة (٧٧*) وهو اسم لقطعة من النقود مخروقة كانت مستعملة منذ أيام (الإمبـراطور جستن) » (صفحـة ٥٣) ولكن هذا الـدليل قـائم على أسـاس واه ويجب علينا أن نـرفضه ، وعلى ذلـك فليس دوننا إلى الآن تفسيـر مقبول للقب المقوقس . ولعلنا لن نستطيع أن نجد حـلاً لتلك المسألـة ، ومع هذا فإنا مقدمون على إيراد رأيين في حلها سنعرضهمـا على علاتهمـا كما عنـا لنا :

(١) إن كتاب العرب الذين ذكروا (المقوقس) ضبطوا اللفظ بكسر القاف الثانية وهو ضبط اللفظ الذي أطلق في العصور المتأخرة على الحمامة المطوقة . ولعلهم كتبوا اللفظ على هذه الصـورة ليظهـروا التشابـه بين الاثنين . على أن اللفظ مضبوط بلا شك في اللغة الأثيوبية بفتح القاف الثانية . ولا نكاد نشك في أن ذلك الاسم نقل إلى اللغة الأثيوبية في عصر متقدّم جداً . وبعد فإن الكتاب الذين عالجوا هذه المسـألة لم يعن أحـد منهم بأن يبحث عن البـلاد التي جاء قيرس منها . ولا عن أصله ومنشأه . ولنذكر أنه لم يكن مصرياً وأنه لم يكن من أهل القسطنطينية . ومما لا شك فيه أن موطن قيرس وأصله كانا من أكبر مواضع التساؤل بين أهل الإسكندرية الـذين اعتادوا الفضـول والاهتمام بـالأمور . ولا شك أن الجواب على تساؤلهم في هذا الشـأن كان (قفقـاسيوس) وذلـك لأن هرقل قد نقل قيرس من ولاية الدين في (فاسيس) ببلاد (القوقاز) وعلى ذلك فإنه من أقرب الأمور أنـه كان يسمى (قفقـاسيوس) بـاللغة اليـونانيـة وأن هذا اللفظ اليوناني نقل إلى اللغة القبـطية : إمـا على صورة ⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ, (٧٨*) (قفقيـوس) وإما على صورة ⲕⲁⲩⲕⲁⲥⲓⲟⲥ (قلخيوس) . ونشأ من هذه الصورة القليلة التحريف الاسم العربي (المقوقس) في القرن السابع أو الثامن فبقي إلى القرن العاشر في صورة أكثر تحريفاً وهي ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ, في الوثيقة الخطية في المكتبة الـ (بودلية) وحرف (م القبطي) في اللغة القبطيـة من السهل التعبيـر عنه في اللغـة العربيـة بحـرف (ميم مضمومـة) وقد يسـاعـد على ذلـك وجـه الشبـه بين ذلـك اللفظ المنحوت في العربية وبين صيغة اسمي الفاعل والمفعول . وهذا التفسيـر وإن كان غير خال من وجوه الاعتراض قائم على أساس من التاريخ على الأقل وإذا

كان التغيير من لفظ قفقاسيوس إلى لفظ قفقيوس يعدّ انتقـالاً كبيراً لا يبـرره مرُّ الزمن ولو كان مرّ قرنين كان الناس في أثنائهما يتكلمان القبطية ويكتبان بها ، فإنا نقول إن مدينة (فاسيس) كانت في إقليم قلخيس (colchis)ولعل قيرس قد لقب بلقب (القلخي) والانتقال سهل جداً من هذا اللفظ إلى πκατχιος (٧٩*) .

(٢) وأما التفسير الثاني فهو كمـا يلي : ـ جاء في تفسيـر .(Du Cange) للألفاظ المستعملة في كتابه أن لفظ (٨٠*) بمعنى (Amatus) و (Amasius) ومؤنثه (٨١*). ومعناه (Concubina)وهو لفظ يدل على نوع من الرذيلة. ومن السهل والطبيعي أن يشتق من ذلك اللفظ صفة (٨٢*) إذا لم تكن تلك الصفة موجودة ويكون إطلاقها على الشخص الذي يتصف بتلك الرذيلة. وهذه الصفة (٨٣*) تنقل إلى اللغة القبطية على صورة πκατχιος مع عدم تغيير الصفة ومع تغيير أداة التعريف، وذلك على قياس اشتقاق لفظ آخر من لفظ (٨٤*) استعمل أكثر من مرة في الوثيقة نفسها التي ورد فيه اللفظ السابق، وهو كذلك لفظ يقصد به الشخص عينه أي قيرس. ولكن قد يقال إن وصف قيرس بهذه الأوصاف القبيحة لا يستند إلى حقيقة في التاريخ فلنسلم بهذا، ولكن ليس معنى ذلك أن القبط لم يصفوه بتلك الأوصاف ، بل على عكس ذلك إنه من أقرب الأمور أن يكونوا قد فعلوا ذلك إذ أن اضطهاد قيرس لهم مـدّة السنوات العشـر قد بـذر في قلوبهم كراهة عظيمة كانوا ينفسون عنها بسببه وقذفه بالتهم . فقد وصف قيرس في هذه الوثيقة عينها بأنه «الفاجـر» و«اليهودي» و«الكـافر» و«ابن الشيطان» و«المسيخ». وبأن مذهبـه كان «شيـطانياً» وعقيـدته « مـدنسة » وبـأنه « ملعـون أكثر من لعنـة الشيـطان وشيعته من الجن ». فهـل من المنتظر أن يـطعن قيرس في دينـه هذا الطعن ثم ينجو خلقه من التجريح والقذف؟ فإذا جعلت حياتـه الخاصـة هدفـاً لمثل هذا السباب المقذع فأولى به أن يتهم بالرذيلة التي يدل عليها لفظ (٨٥*) وإن كـانت تلك التهمة لا حقيقـة لها. وقـد أبدينـا هذين الـرأين ويلوح أنهمـا منفصلان ولا توفيق بينهما، ولكنا نقول إنهما قد يكونان متصلين اتصالاً وثيقاً، فإنه من السهـل أن نتصوّر أن المقـوقس كان في أول الأمـر يدعى قفقـاسيوس (٨٦*) أو قلخيقـوس (٨٧*) أو قلخيـوس (٨٨*) ، ثم تلقف المصـريـون في

دعايتهم بما هم عليه من سرعة البديهة ذلك اللفظ وحوّلوه إلى الـوصف القبيح (٨٩*). وعلى هذا تحوّل لفظ مشتق في أصله من اسم إقليم جغرافي فأصبح شتماً قذراً وبقي الاسم بعد ذلك مدّة قرون بعـد أن نسيت دلالته الحقيقيـة كل النسيان.

تعليق جديد للمؤلف في موضوع المقوقس

تردّدت المكاتبة بين المعرّب وحضرة الدكتور الفاضل مؤلف هذا الكتاب (Dr. A. J. Butler) في موضوع المقوقس وقد تفضل بتعليق جديد يثبت رأيه في أن المقوقس لم يكن سوى (قيرس) البطريق الملكاني بالإسكندرية . وهـا نحن موروده هنا .

«وقد وجدنا دليلاً جديداً على أن المقوقس كان (قيرس) بعينه، وجدناه في كتاب منسوخ باليد في بـاريس (منسوخـات عربيـة رقم ١٥٠ ـ صفحات ٢٠ ـ ٣١) . وقد جاءت في هذه النسخة قصة عن (الأبا صمويل القلمـوني) وفيها يروي عن صمويل أنه يبدي أشد الكـراهة والإنكـار للمقوقس الفـاجر (الـذي يجب ألا يذكر اسمه) وقد سماه على وجه التعيين باسم (كبيرس المقـوقس) وذلك بلا شك خطأ من الناسخ لاسم (كيـرس المقوقس) كمـا يقول الأستـاذ (جاستون فيت) . وهذه النسخة المخطوطة منقولة من أصل قبطي وصفحـاتها بـالفعل مـرقومـة باللغـة القبطيـة . وهذا التعـزيز المستقـل لرأينـا في شخصية المقوقس له دلالة كبيرة » .

الملحق الرابع

في تواريخ الفتح العربي

ما أكثر الصعاب التي تعترض الإنسان إذا عالج التواريخ في ذلك العصر ، حتى ليخيل إلينا أن الوصول إلى الحقيقة فيها يكاد يكون مستحيلاً ، فليس على الكاتب فيها أن يقابل مسألة واحدة بل عليه أن يقابل عدة مسائل متشابكة متداخلة يلوح للإنسان أنه إذا حل عقدة منها في ناحية دعا ذلك إلى تعقد جديد في ناحية أخرى. ولكن المستر (E. W. Brooks) قد عمل كثيراً على تسهيل الأمور ، فإن مقاله الغزير العلم في ذلك الموضوع بمجلة (Byzan-tinische Leitschrift) (١٨٩٥ صفحة ٤٣٦ ـ ٤٥) يمكن أن يقال إنه أخرج ذلك العصر من حيز الظن وجعله قائماً على أساس علمي ، فبحثه يجب أن يكون أساس أي دراسة سواء أكانت دراسة للتواريخ أم كانت لترتيب الحوادث في ذلك العصر وإني أبادر بأن أقر بما أنا مدين به لذلك البحث.

والمراجع اليونانية لا قيمة لها كما دل على ذلك المستر بروكس فلا يذكر تيوفانز ولا نيقفوروس فتح الاسكندرية ، ولو أن الأخير يذكر أن هرقلوناس أعاد قيرس إلى بطرقةالاسكندرية بعد موت أخيه من أبيه قسطنطين في مايو سنة ٦٤١، وهذا يفيد أن المدينة لم تكن عند ذلك قد فتحت ولا قربت من الفتح . وتاريخ نيقفوروس ينتهي إلى سنة ٦٤١ ولا يبدأ بعد إلا من سنة ٦٦٨، ولكن نيقفوروس وتيوفانز لا يوثق بهما فيما يتعلق بأول جزء من تاريخ الفتح فتاريخهما مليء بالمتناقضات وكلاهما في ترتيب الحوادث لا بد أن يؤدي فعلاً إلى تضليل المؤرخين الذين يعتمدون عليهما تضليلاً كبيراً.

وأما مؤرخو السوريين والأرمن فيلوح أنهما لا يفضلون اليونانيين، فمثلاً

اليشع النصيبي (نسخة المتحف البريطاني الخطية ٧ ـ ١٩٧ صفحة ٢٩ ، وقد نقل عنها المستر بروكس) يجعل فتح الاسكندرية في سنة ٢٠ للهجرة (ديسمبر ٦٤٠ ـ ديسمبر ٦٤١). وأما أبو الفرج فإنه لا يذكر شيئاً إلا ما ذكره عن القصة المعروفة قصة إحراق مكتبة الإسكندرية . وكذلك سبيوس فإنه لا يذكر شيئاً .

وأما المؤرخون العرب فإنهم مثل اليونانيين في إغفال ذكر الحوادث والخلط والتناقض ، ولكن لا يخلو درس كتبهم من فائدة .

ابن عبد الحكم ـ نقل عنه (Weil) في كتاب (Geschichte der Chalifen) وهو يقول إن عمراً كان عند العريش في يوم الأضحى أي عاشر ذي الحجة سنة ١٨ للهجرة (١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩). ويذكر أن حصار الإسكندرية بقي تسعة أشهر بعد موت هرقل . ونقل السيوطي عن ذلك المؤرخ أنه قال إنه بعد فتح مصر أرسل عمرو جرائد الخيل إلى القرى والمدائن التي في جوار مصر وبقيت الفيوم لا يعرف عنها شيئاً مدة سنة .

البلاذري ـ يذكر أن غزوة مصر كانت في سنة ١٩ للهجرة (وهي تبدأ في ٢ يناير سنة ٦٤٠) ويذكر أن وقعة عين شمس وغزوة الفيوم كانتا بعد فتح حصن بابليون . ويقول إن عمراً سار إلى الشمال أي إلى الاسكندرية في سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢) بعد أن مكث مدّة في حصن بابليون وإنه في السنة عينها عام الرمادة كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو يأمره بإرسال الجزية بالبحر ، ويذكر كذلك عبارة أن مصر قد فتحت في سنة ٢٠ للهجرة . وقد جرت العادة أن تفهم معنى «مصر» على أنها القطر المصري كله ، في حين أن المقصود بها هنا بغير شك مدينة مصر (أو منفيس) التي سبقت الفسطاط .

ابن قتيبة ـ يذكر أن وقعة (باب اليون) قد انتصر فيها عمرو في سنة ٢٠ .

الطبري ـ يذكر أن الأمر بفتح مصر بلغ عمراً في أوائل سنة ٢٠ للهجرة (أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٤٠). ويذكر أن فتح بابليون كان على وجه التعيين

في ربيع الثاني من السنة عينها (من ٢٠ مارس ـ ١٧ أبريل سنة ٦٤١) وإن هاتين العبارتين لتناقضاً، فإنه من المحال أن يكون حصن بابليون قد فتح بعد ثلاثة أشهر من ورود الأمر إلى عمرو وهو في فلسطين بأن يغزو مصر، ولكن لقد عززت المراجع الأخرى صحة التاريخ الثاني ، وعلى ذلك فالتاريخ الأول لا بد أن يكون غير صحيح ، ولكنا إذا جعلنا أول الغزوة في أوائل سنة ١٩ بدلاً من أوائل سنة ٢٠ وقع الاتفاق تقريباً على تاريخ أول الفتح بين ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري. وفي الحقيقة نرى أنه من المؤكد أن الطبري لا بد قد كتب سنة ١٩ لأنه عندما ذكر خبر وفاة عمرو قال إنه قضى أربع سنوات على ولاية مصر في مدة عمر بن الخطاب . وكانت وفاة عمر في سنة ٢٣ للهجرة . وعلى ذلك فلا بد أن تكون ولاية عمرو قد بدأت في ذي الحجة من سنة ١٩ للهجرة وأنه لا يعقل أن يقال إن مدّة ولايته تبدأ قبل ابتداء الغزوة.

وقد ذكر الطبري أيضاً أن الإسكندرية سلمت بعد حصار خمسة أشهر وأن الثورة (التي نسميها ثورة منويل) كانت في أوائل سنة ٢٥ للهجرة.

أوتيكيوس ـ (وهو ابن بطريق) وأما عبارة أوتيكيوس فهي كما يلي : فتحت الفرما (وهي بلوز) بعد حصار شهر وفتح حصن بابليون بعد حصار سبعة أشهر وخرج المقوقس من الحصن في وقت الفيضان وحدثت ثلاث وقعات بين بابليون والاسكندرية وفتحت (المدينة العظمى) في يوم الجمعة مستهل شهر المحرّم من سنة ٢٠ للهجرة وهي السنة العشرون لحكم هرقل والثامنة من خلافة عمر.

ثم تلا ذلك فتح برقة وفتحت طرابلس سنة ٢٢ . للهجرة فإذا كان يقصد بيوم الجمعة من محرّم أول يوم في ذلك الشهر من سنة ٢٠ وافق ذلك يوم ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠ ولكن أول يوم في المحرّم من السنة الثامنة لخلافة عمر كان يوافق العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ ولم يقع أي هذين اليومين في يوم الجمعة ، والتاريخ الأول لا يقع إلا في السنة الحادية والثلاثين من حكم هرقل وكان هرقل قد توفي قبل ذلك التاريخ . وحسبنا هذا من ابن بطريق.

ساويرس الأشمونيني ـ يذكر أن أمير المؤمنين أرسل جيشاً بقيادة عمرو في سنة ٣٥٧ للشهداء وأن جيش المسلمين هبط إلى مصر في قوة عظيمة في ١٢ بؤونه أي في شهر ديسمبر الروماني . وفي هـذا أيضاً خطأ ، فإن يـوم ١٢ بؤونه (أو بايني) يوافق ٦ يونيه في حين أنه إذا كان المقصود هو ديسمبر سنة ٣٥٧ للشهداء كان ذلك ديسمبر سنة ٦٤٠ وليس سنة ٦٤١ وقد جاء في « الديوان الشرقي » أنه « في ١٢ بؤونه ٣٥٧ للشهداء جاء عمرو إلى مصر وفتحها » ولكن ١٢ بؤونه سنة ٣٥٧ للشهداء توافق ٦ يونيه سنة ٦٤١ ويذكـر المقريـزي على وجه التعيين أن القبط يذكرون أن تاريخ فتح (الحصن) هو ١٢ بؤونه. ويذكر ساويرس أيضاً أن المسلمين فتحوا الاسكندرية في سنة ٣٦٠ للشهـداء (وهدمـوا أسوارهـا) وهذه الإضافة تدل على أنه يقصـد الفتح الثـاني بعد ثـورة منويـل. وفي الحقيقة أن تواريخ ساويرس لا تساعد على جلاء الظلمة.

أبو صالح ـ لا يزيد على ما نعـرف إلا قليلاً، فـإنه يـذكر نقـلاً عن كتاب الجناح أن عمراً فتح مصر في سنة ١٩ للهجرة (٢ يناير ـ ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠) وأنه عسكر خارج موضع اسمه « جنان الريحان» (صفحة ٧٣). ويقول أيضاً إن عمـراً فتح مصـر في غرة المحـرم من عام ٢٠ للهجـرة وينقل (أو يسيء نقـل) التاريخ الذي ذكره ساويرس.

ياقوت ـ هذا كاتب عظيم الشأن وهو يذكر أن عمراً طلب إلى الخليفة عمر أن يأذن له في فتح مصر سنة ١٨ للهجرة (من ١٢ يناير سنة ٦٣٩ ـ ٢ يناير سنة ٦٤٠) وأن الروم لقوا عمراً أول مرة في مصر عند الفرما واستمر القتال شهـرين وبعد ذلك لم يلق العرب كبير كيد حتى بلغوا بلبيس ثم قاتلوا الروم هنـاك مدة شهـر قتالاً متصـلاً . ثم ساروا سيـراً سهلاً إلى أم دنين أو المقس وبقـوا هناك يقاتلون نحو شهرين.

ومعنى هذا أن القتال استمر ستة أشهر من أول الغزو مـع حساب المـدة اللازمة للسير وهذا يوصلنا بدقة عظيمة من ١٢ ديسمبر إلى ٦ يونيه.

وقال ياقوت : إن عمراً عند ذلك أرسل يطلب الإمـداد وإن فتح الحصن كان مدّة فيضان النيل أي في سبتمبر أو بعد ذلك بقليل . على أن ذلك الكاتب يقول بعد صفحة أو قريباً من ذلك إن فتح بابليون كان في يوم الجمعة أوّل المحرّم من سنة ٢٠ للهجرة (٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠) وهو التاريخ الذي يذكر عادة أن الاسكندرية قد فتحت فيه وفي هذا ما فيه من التضليل . وقد قال ياقوت بعد ذلك إن عمراً سار إلى الإسكندرية في ربيع الأول من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ فبراير - ٢٠ مارس سنة ٦٤١) - ولعل هذا تحريف وأنه يقصد ربيع الثاني - ثم قال إن عمراً لما بلغ الإسكندرية حاصرها مدّة ستة أشهر وقال في موضع آخر إن فتح الإسكندرية كان في سنة ٢٠ (وآخرها ٩ ديسمبر سنة ٦٤١) وإن عمراً صالح أهل برقة سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ - ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢).

أما (ابن خلدون) : فإنه ذكر أن عمراً استأذن في فتح مصر عقب فتح بيت المقدس وأن ذلك كان في سنة ٢١ للهجرة وأن عمراً سار إلى أفريقية (برقة) في سنة ٢١ نفسها!

وأما (المقريزي) : فقد أفاض في القول ، فقد كرر أن عمراً كان عند العريش في يوم الأضحى . وأنه قضى شهراً في الفرما وأن المقوقس خرج من الحصن في مدة فيضان النيل وأن مدة الفيضان كانت لم تنقض عندما فتح العرب الحصن . ولكنه روى عن الكندي أنه قال إن عمراً سار إلى الإسكندرية بعد فتح حصن بابليون وأن ذلك كان في ربيع الأول سنة ٢٠ للهجرة . وروى عن آخر أن ذلك كان في جمادى الثانية (أول ربيع الأول في ٢٠ فبراير، أول ربيع الثاني في ٢٠ مارس وأول جمادى الأولى في ١٧ أبريل سنة ٦٤١ ، وأول جمادى الثانية في ١٨ مايو والتاريخ الصحيح هو جمادى الأولى كما سنرى). وقال إن موت هرقل كان في سنة ١٩ للهجرة وهو غير صحيح . ويقول المقريزي إن ذلك شجع المسلمين فضيقوا الحصار على الحصن ، ولكنه روى عن الليث تاريخاً آخر وهو سنة ٢٠ للهجرة وهو الصحيح ، وقال إن فتح الإسكندرية كان بعد موت

هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام وإنه كان في يوم الجمعة أول المحرم سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ولكن ذلك اليوم كان يوم اثنين). ويذكر الليث أن الفتح الأول كان في سنة ٢٢ للهجرة (وأولها ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢) ويورد المقريزي أسماء جماعة من المؤرخين روى عنهم تواريخ لها علاقة بالفتح وهم يختلفون بين سنة ١٦ وسنة ٢٦ للهجرة . ويقول بعد ذلك إن الأرجح أن سنة ٢٠ هي الصحيحة وهي التي يقبلها أكثر المؤرخين.

أبو المحاسن ـ ينقل عن الذهبي أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو يأمره بغزو مصر في سنة ٢٠ للهجرة (أولها ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠). وينقل عن ابن عبد الحكم أن حصار بابليون بقي سبعة أشهر . أما هو فيذكر أن فتح مصر (ولعله يقصد بها مدينة مصر) كان في أول المحرم سنة ٢٠ للهجرة . وينقل عن ابن كثير والواقدي وأبي معشر أن فتح مصر كان في ذلك العام نفسه . ويذكر الواقدي أن فتح الإسكندرية كان في السنة نفسها . أما أبو معشر فيذكر أنه كان في سنة ٢٥ للهجرة . وأما سيف فإنه يذكر أن مصر والإسكندرية فتحتا في سنة ١٦ للهجرة وأن ولاية عمرو على مصر تبدأ في سنة ٢٠ للهجرة.

السيوطي ـ بعد أن ذكر نقلاً عن الليث أن موت هرقل كان في سنة ٢٠ للهجرة قال إن حصار الإسكندرية استمر تسعة أشهر بعد ذلك إلا أنه ابتدأ قبل وفاة هرقل بخمسة أشهر، ولكنه قال مع ذلك إن فتح الإسكندرية كان في أول المحرم سنة ٢٠ للهجرة، وهذا سهو لأن السيوطي يذكر بعد صفحات من هذا أن فتح الإسكندرية الأول كان في سنة ٢١ للهجرة وأن الفتح الثاني كان في سنة ٢٥ للهجرة ، وينقل عن القضاعي نقلاً عن ابن قتيبة أن عمراً عاد من الإسكندرية (أي إلى بابليون) في ذي القعدة سنة ٢٠ للهجرة (أكتوبر ـ نوفمبر سنة ٦٤١).

وحسبنا هذا من المراجع العربية الكبرى . وإن ما بينهم من الخلاف عظيم ، ومن الواضح أنه لا يمكن التوفيق بينهم فيه ولكن من السهل أن نعين بعض أسباب هذا الخلط الذي يقع فيه هؤلاء الكتاب جميعاً وهو الذي ضلل

المؤرخين المحدّثين وحيرهم، فلعله ليس في التاريخ عصر في مثل قصر تلك المدة وفيه مثل هذا العدد الكبير من المساقط التي يقع فيها من أراد البحث في ترتيب التواريخ ، فإن دوننا هذا عصراً مدته ثلاث سنوات وهي مثل مدة الفتح الفارسي . ويذكر لنا من غير تدقيق تاريخ واحد على أنه تاريخ الفتح ، ولكن يقصد به أحياناً أول غزو البلاد وأحياناً تمام فتحها ، ثم إن اسم مصر يقصد به أحياناً مدينة مصر (وهي منفيس بقرب بابليون من الجنوب) وأحياناً يقصد به القطر المصري، وهذا مما يؤسف له.

وعلى ذلك فذكر « فتح منفيس » في كثير من الأحيان لا يمكن التفريق بينه وبين «فتح بلاد مصر» ثم إن فتح بابليون كان حادثاً مخالفاً لفتح مدينة مصر في حين أن هذين الموضعين قريبان كل القرب، وكان لا مناص من الخلط بين حوادثهما، ثم إن الاسكندرية لم تفتح مرة واحدة بل مرتين . وقد وجد المؤرخون حتى أقدمهم من الذين كتبوا بعد الفتح بمائتي عام أن أخبار الفتح غير جلية وقد نسي ترتيب الحوادث فيها ، وعلى ذلك فنحن أميل إلى أن نعد أخطاءهم وتناقضهم أمراً يؤسف له وأنه ليس عجيباً ولا غير متوقع .

ولكن قد أشرق على تاريخ العرب وترتيب حوادثه نور جديد لم يسبق للناس عهد به، وذلك من كتاب حنا الأسقف القبطي لمدينة نقيوس وقد كان حاضراً تولية البطريق إسحق في سنة ٦٩٠ للميلاد (انظر ما يأتي صفحة ٥٦٩) ولعله قد ولد قريباً من وقت الفتح ، ولكن لا بد له أن يكون قد سمع أخبار ذلك الفتح ممن شهده فشهادته على ذلك ذات قيمة كبرى فيما يشهد فيه . حقاً إن بعض أجزاء ذلك التاريخ ناقصة لا ذكر لها في ذلك الكتاب وهو أمر مؤسف له ، كما أن أجزاء أخرى منه قد دخلها كثير من المسخ وتغيير الترتيب فلا نكاد نستبين لها معنى ، ولكن مع كل ما في النسخة الخطية الأثيوبية قد جاء فيها بعض تواريخ جديدة تسترعي النظر بدقتها العظيمة وهذه التواريخ بمثابة معالم ثابتة نستطيع أن نستدل بها على نظام علمي في ترتيب التواريخ .

لقد رأينا فيما سلف أن كتاب حنا قد أغفل فيه ذكر كل ما يتعلق بمدة

الفتح الفارسي وهذا النقص يبدأ من استيلاء هرقل إلى ما بعد ذلك بثلاثين عاماً أي من حوالي سنة ٦١٠ إلى حوالي سنة ٦٤٠، ولا يرد فيه ذكر لدخول العرب إلى مصر وأول استئناف لذلك التاريخ بعد ذلك هـو عندمـا علم (تيودور) قـائد جيوش الروم في مصر بهزيمة (حنا) قائد فرقة الخفر في الفيوم وموته . وذكر بعد ذلك أن جيوش الـروم اجتمعت عند حصن بـابليون وقـد عوّلت على أن تلقى العرب قبل أوان فيضان النيل والنيل يبدأ مدّه في أواسط الصيف ويبلغ جمامه في الاعتدال الخريفي ، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن وقعة هليوبـولس كانت في (يوليه) أو في (أغسطس). فإذا نحن اتبعنا قول ابن عبد الحكم أو البلاذري أو الـطبري في أن دخـول العرب كـان في شهر ديسمبـر سنـة ٦٣٩ كـانت وقعـة هليوبوس في يوليه أو أغسطس من عام ٦٤٠ . وكان من القريب أن أول أمداد جيش العرب أبصرها الروم من بروج حصن بابليون في ٦ يونيه وهو اليوم الذي قـام الدليـل من قول سـاويرس وغيـره على أنه كـان من أثبت الأيام ذكـراً عند القبط ، على أنه لم يكن يوم حادث خطير من حوادث الفتح . والمستر بروكس محق بغير شك في أنه اعتبر البابين الرابع عشر بعد المائة والخامس عشر بعـد المائة من تاريخ حنا في غير موضعهما ، فعنوان الباب الخامس عشر بعد المائة هكذا « كيف استولى المسلمون على مصر في السنة الرابعـة عشرة من الـدولة القمرية واستولوا على حصن بابليون في السنة الخامسة عشرة » في حين أنه مما يؤسف له أن الوصف الذي يصدق عليه هذا العنوان ساقط من الكتاب . وقد ورد في الفصل السادس عشر بعد المائة أن مـوت هرقـل كان في « السنـة الحاديـة والثلاثين من حكمه في الشهر المصري (يكاتيب) وهو يـوافق الشهر الـروماني (فبراير) في السنة الرابعة عشرة من الدورة وهي سنة ٣٥٧ للشهـداء) . وقد جاء في الباب السابع عشر بعد المائة أن تسليم حصن بابليون كان في يـوم الفصح (الاثنين). وجاء في الباب الثامن عشر بعد المائة «أن فتح (نقيوس) كان في يوم الأحد الذي بعده (١٨ جنبوت) في السنة الخامسة عشرة من الدورة » . وقد قال المستر (بروكس) متبعاً في ذلك رأي (زوتنبرج) إن تاريخ موت هرقل هو التاريخ الوحيد بين هذه التواريخ الذي يمكن أن نفحصه وهو مذكور في ذلـك الكتاب

في منتهى الدقة ، فإنا نعلم أن هرقل قد مات في ١١ فبراير سنة ٦٤١ وقال إن هـذه الحقيقة دليـل قوي على أننـا يمكن أن نعتبر التـواريخ الأخـرى صحيحة دقيقة . ولكن كلا هذين المؤرخين وجد نفسـه مضطراً بعـد هذا القـول إلى أن يظهر أن التواريخ الأخرى صحيحة بعض الصحة لا كل الصحة ، فقال المستر بروكس في عرض ذكره سني الدورة التي ورد ذكرها في عنوان الباب الخامس عشر بعد المائة « ولا نظن أننا نستطيع أن نثق ثقة كبرى بهذه التواريخ » (صفحة ٤٣٩) ثم أظهر بعد ذلك أن يوم (١٨ جنبوت) الواقع في يوم الأحد لم يكن في السنـة الخامسـة عشرة من سني الـدورة كما قـال حنا . وقصـارى قولـه هو أن الواجب أن نغير التاريخ الذي ذكره حنا وهو (١٣ مايو سنة ٦٤٢) فنجعله (١٣ مايو سنة ٦٤١) . ومعنى هذا أن الواجب أن نبرهن على خطأ جزء من قول (حنا النقيوسي) .

وبعد فإنا نجرؤ أن نقول إن هذا الرأي لا حاجة بنا إليه ولا ضرورة تدعو إليه . فإن الخطأ إنما نشأ من خطأ في فهم ما قصده حنا بقوله « سني الدورة » فإن ناقديه أخذوا ذلك على أن المقصود منه سني الدورة التي ابتدعها قسطنطين (وكل منها خمسة عشر عاماً)، ولكن حنا نفسه يسميها بوضوح (الدولة القمرية) وليس يقصد دورة قسطنطين . حقاً إن التأريخ بتلك الدورة القسطنطينية كان في عصر حنا غير مهمل بـل كان لا يـزال مستعملاً في مصـر، ولكن المقصود هـو الدورة الديونيسية (Dionysian) وكل منها تسعة عشر عاماً ، وقد بقيت مستعملة إلى يومنا هذا وتسمى أعدادها عادة (الأعداد الذهبية) ويزعم (زوتنبرج) أن هذه الـدورة لم تكن مستعملة في التـاريـخ المـدني ولكن مـا دام التـاريــخ بـدورة قسطنطين كان غير شائع في مصر فقد كان حنا معذوراً كل العذر في أنه يعمـد إلى التاريخ بالتقويم الديني الخاص بالكنيسة وقد كان على تمام الإلمام بـه إذ كان رجلاً من علماء الأساقفة، وعلى ذلك فإنا مـوردون ما جـاء في كتابـه فيما يلي :

(١) فتح مدينة مصر في السنة الرابعة عشرة من سني الدورة .

(٢) موت هرقل في السنة الرابعة عشرة من الدورة في ١١ فبراير سنة ٦٤١ .
(٣) فتح حصن بابليون في السنة الخامسة عشرة من الدورة في الاثنين (الفصح) أي في ٩ أبريل سنة ٦٤١ .
(٤) فتح نقيوس في السنة الخامسة عشرة من الدورة في ١٣ مايو سنة ٦٤١ .

ويظهر من هذا البيان أنه إذا كان قد نقل ما كتبه حنا على حقيقته كانت سنة الدورة التي يؤرّخ بها تتغير فيما بين ١١ فبراير و٩ أبريل ، وهذا هو الأمر الواقع بالدقة ، فإن الدورة القمرية الديونيسية كان أولها ٢٣ مارس (راجع كتاب (S. Butcher) في (Calendar Ecclesiastical) صفحة ٧٣ وكتاب -Handy) (book of Dates تأليف Bond صفحة ٢١٨) والسنة الرابعة عشرة من الدورة تقع ما بين ٢٣ مارس سنة ٦٤٠ و٢٢ مارس سنة ٦٤١ وكذلك السنة الخامسة عشرة فإنها تبدأ من ٢٣ مارس سنة ٦٤١ وتنتهي في ٢٢ مارس سنة ٦٤٢ . فإذا صح رأينا هذا ثبت أن تواريخ حنا صحيحة لا خطأ فيها فليس فيها شيء يجب البرهان على فساده بل إن ثقتنا في تواريخ هذا المؤرّخ تزداد زيادة عظمى .

ويجدر بنا أن نزيد على هذا إن الدورة القسطنطينية التي كانت تستعمل في مصر قبل الفتح كانت قد صارت لا قيمة لها في التاريخ إذ أنها كما دل عليه «Wilcken» في كتابه (Hermes) ١٩ صفحة ٢٩٣ وما بعدها) بدل أن تبدأ من شهر توت وهو أوّل السنة المصرية فتكون بذلك متفقة مع أول سنة من سني التقويم كانت تبدأ أحياناً من أوّل حكم الإمبراطور الحاكم وأحياناً أخرى من أيام أخرى مختلفة من أيام الصيف متبعة في ذلك نظاماً لا يستطيع أحد أن يفهمه وهو نظام أشبه شيء بالفوضى المطلقة . ولهذا كان الأجدر بنا أن نحمد كاتباً قديراً مثل حنا على أنه استعمل تاريخاً ثابتاً لا يطعن أحد في قيمته .

بلى إنه قد وردت عبارة أخرى في تاريخ حنا وذكر فيها تاريخ سنة من سني الدورة يخيل إلى من يراها أن رأينا الذي ذكرناه غير صحيح فقد جاء في الباب الحادي والعشرين بعد المائة قوله « وفي السنة الثانية من الدورة القمرية جاء حنا من دمياط ، وساعد المسلمين كيما يمنعهم من تخريب المدينة » وهذه السنة

يكون أولها ٢٣ مارس سنة ٦٤٦، وآخرها ٢٢ مارس سنة ٦٤٧، وعلى هذا فلا بد أن يكون هذا الحادث قد وقع بعد ثورة منويل ولم يذكر عن تلك الثورة لفظ واحد في كل تاريخ حنا . ومع ذلك فإنا نرى ذلك التاريخ صحيحاً لأن وجود فجوة أخرى في آخر ذلك الكتاب أمر غير مستغرب فإذا نحن لم نذهب إلى هذا الرأي واعتبرنا أن المقصود هو السنة الثانية من الدورة القسطنطينية كان التاريخ المقصود هو عام (٦٤٣ ـ ٤) ولكن هذا في حكم المستحيل إذ لم يرد أي خبر عن حادث وقع في ذلك العام يمكن أن يحدو بالعرب إلى تخريب الإسكندرية في حين أنه قد جاء في كل الأخبار أن ثورة منويل وعودة الروم إلى الإسكندرية كانتا حوالي نوفمبر سنة ٦٤٥ ولم تهزم جيوشه إلّا بعد عدّة أشهر ولا يكاد يشك في أن فتح العرب للإسكندرية ثانية وقع بعد ٢٣ مارس سنة ٦٤٦. ونعلم كذلك أنه عند الفتح الثاني للمدينة أحرق جانب كبير فيها وهدم عمرو جانباً من الأسوار فلا يبعد أن يكون قد فكر في تخريب المدينة كلها . وفوق ذلك يظهر أن (زوتنبرج) أغفل في ترجمته كلمة ذات شأن فإنه قال في ترجمته « وبعد أن استولى (عمرو) على الاسكندرية جفف الترعة التي توصل الماء إلى المدينة » في حين أن الدكتور شارل يقول في ترجمة هذه العبارة عينها « ولما استولى عمرو على مدينة الإسكندرية كان كثيراً ما يجفف الترعة » وهذه الكلمات تدل على أن الكاتب كان وهو يكتب هذه العبارة التي ورد فيها ذلك التاريخ يسبح بفكره فيما بعد الفتح الأول للمدينة بمدّة طويلة وسنرى أن ذلك الفتح الأول كان في سنة ٦٤٢، وعلى ذلك يكون التاريخ الذي نحن بصدده يوافق رأينا في أن المقصود هو التأريخ بالدورة الديونيسية القمرية ، ولهذا نجرؤ على أن نعدّ هذا الرأي ولا وهن فيه ولا وجه للطعن .

نقبل الآن على ذكر تاريخ من أهم التواريخ على أنه تحيط به عقد يحار المرء فيها وذلك تاريخ عودة البطريق قيرس إلى الإسكندرية من قسطنطينية . فقد دعاه هرقل حوالي نصف نوفمبر سنة ٦٤٠ بعد أن صالح العرب على تسليم بابليون ذلك الصلح الذي لم يتم ويلوح أنه نفيَ عند ذلك ثم أعاده قسطنطين الثالث خلف هرقل إلى الحظوة وكان عازماً على أن يعيده إلى مصر فعاجلته

المنية بعد أن حكم مائة يوم فمات ذلك الإمبراطور في مايو سنة ٦٤١ ، وخلفه على الملك هرقلوناس ولكن ثورة فلنتين في ذلك الصيف نفسه عملت على أن يشرك معه في الحكم أخاه من أبيه وهو قنسطانز . وقريباً من ذلك الوقت أرسل قيرس إلى مصر ومعه الأمداد وقد كان في (رودس) في أوائل سبتمبر ـ ولعله كان يأخذ ما كان هناك في دار الصناعة البحرية (الترسانة) من الذخائر. وكان (تيودور) قائد جيوش مصر في رودس كذلك وخلع بيعة الإمبراطورة (مرتينه) إذ حرضه على ذلك فلنتين وأراد أن يسافر إلى بنطابولس ولكنه نزل إلى الإسكندرية مع قيرس في فجر يوم ١٧ (مسكرم) أو (توت) وهو عيد الصليب أي في ١٤ سبتمبر.

هذا ما يمكن أن نستخلصه من تاريخ حنا الذي تغيرت معالمه تغيراً يؤسف له وهذه الأخبار يعززها ما جاء في تاريخ نيقفوروس إذ يقول إن (قيرس) أعاده هرقلوناس إلى مصر ، ولكنا الآن آتون إلى خبر من تلك الأخبار التي كتبت بعد حدوث حوادثها على صورة النبوءة وهي كثيرة في تواريخ القبط وهي تستلزم أن تكون عودة قيرس في عيد الفصح . فقد روى حنا أنه بعيد عودته (راجع الفصل العشرين بعد المائة) أقيم احتفال في الكنيسة العظمى كنيسة القيصريون في عيد الفصح واختار القمص للصلاة ترتيلاً غير ما كان يجب أن يختاره لذلك اليوم أي المزمورة التي مطلعها « وهذا هو اليوم الذي جعله الله » الخ (راجع المزمورة الثامنة عشرة بعد المائة ٢٤ ـ ٢٦) وقد عدّ هذا التغيير فألاً سيئاً وذاعت كلمة قالها القسوس وهي أن قيرس لن يشهد بعد ذلك اليوم عيداً آخر للفصح . فلما مات قيرس بعد ذلك في يوم الخميس المقدس (٢٥ مجابت) أي قبل عيد الفصح التالي بثلاثة أيام تذكر الناس النبوءة وقالوا إنها قد تحققت . وقد قال المستر بروكس بوضوح مقنع إن يوم (٢٥ مجابت) أو (فامنوت) يوافق ٢١ مارس ، وليس ٢ إبريل ، كما زعم زوتنبرج في حسابه ، ثم قال إن عيد الفصح في سنة ٦٤٢ كان في يوم ٢٤ مارس من ذلك العام وإنه في ذلك العام وحده قد وقع يوم الخميس المقدّس في (٢٥ مجابت) وعلى ذلك « فقد ثبت تاريخ وفاة قيرس ثبوتاً لا شك فيه وأنه كان يوم الخميس ٢١ مارس من سنة ٦٤٢ » وينتج

من ذلك أن يوم الفصح الذي ذكر في ذلك الخبر أن قيرس قد عاد فيه كان يوم الفصح من عام ٦٤١ وهو يوم ٨ أبريل.

فإذا أجملنا ما قاله حنا كان كما يلي :

(١) نزل قيرس في مصر ١٤ سبتمبر بعد موت هرقل أي سنة ٦٤١ .
(٢) أنه أقام عيد الفصح سنة ٦٤١ وهو يوم عودته.
(٣) أنه مات في ٢١ مارس سنة ٦٤٢.

وهذه الأخبار ظاهرة التناقض ولا يشك زوتنبرج في أن قيرس نزل في أرض مصر في يوم ١٤ سبتمبر . ويرى أنه من الغريب أن تقام صلاة بمناسبة عودته بعد سبعة أشهر منها ولكنه مع ذلك قبل هذا الأمر الغريب هذه الغرابة وجعل موت قيرس في سنة ٦٤٣، وأما المستر بروكس فإنه يرى رأياً آخر فإنه برهن برهاناً قاطعاً على أن قيرس مات في يوم الخميس الذي قبل عيد الفصح من سنة ٦٤٢ ثم برهن على أن زوتنبرج مخطىء فيما ذهب إليه من أن عودة (تيودور) وعودة (قيرس) كانتا في وقت واحد وجعل عودة قيرس في عيد الفصح من عام ٦٤١ وهو يدرك ما يواجهه من الصعوبة في تكذيب تاريخ حنا وهو أن عودة قيرس كانت بعد وفاة قسطنطين الثالث وما يعززها من قول نيقفوروس، ولكنه يميل إلى أن يقول إن كتاب حنا قد داخله شيء من الخطأ في ذلك الموضع ثم يقول في ختام حجته « وأما البت في مسألة عودة قيرس وأنها كانت قبل عيد الفصح من عام ٦٤١ فأمر يجب أن يبقى موضعاً للنظر والبحث ، وأما ما قصده حنا فلا شك عندنا في أنه كان يقصد أن يقول إن قيرس قد عاد في ذلك الوقت المذكور وإنه لمن المحتمل أن التاريخ قد غُيِّرَ قصداً لإدخال ذكر النبوءة » (راجع موضع ذكر ذلك في الملحق الثاني).

ولسنا نوافق على هذه الآراء كل الموافقة فإن التاريخ الذي ذكر زوتنبرج أن قيرس قد مات فيه لا يؤيده شيء[١]. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنا

(١) يتبع (Pereira) في كتابه (Vido do Abl a Daniel) (صفحة ١٨) رأي زوتنبرج في=

نرى أن المستر بروكس مخطىء في قوله إن عودة قيرس لم تقع مع عودة تيودور في وقت واحد وإن عودة تيودور كانت وحدها في ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١ ، ويقول المستر بروكس إن هذين الحادثين « منفصلان كل الانفصال » ولكن نص الكتاب فيه ما يلي: « فدخل الإسكندرية (تيودور) في ليلة السابع عشر من شهر (مسكرم) في عيد الصليب وخرج أهل الإسكندرية أجمعين من نساء ورجال وهم بين شبان وشيب ليلقوا البطريق قيرس وهم فرحون يشكرون الله على عودة بطريق الإسكندرية ، وصحب تيودور البطريق خفية إلى كنيسة (التبيوبيسيين) وأقفلا الباب وراءهما ». وإنا إزاء هذا القول لا يسعنا إلا أن نرى أنه من المحال أن يكون هذان الرجلان قد أتيا في وقتين متفرقين أو أنه عندما أتى (تيودور) كان قيرس قد مضى عليه في الإسكندرية خمسة أشهر أو يزيد . وفوق ذلك فإنا لو قلنا إن قيرس قد عاد في يوم الفصح من سنة ٦٤١ لنشأت من ذلك صعاب أخرى، فأوّل شيء يجب علينا أن نكذب كل ما ذكره حنا من حوادث القسطنطينية بعد موت هرقل أو على الأقل أن نكذب نصيب قيرس من تلك الحوادث، كما أنه يجب أن نكذب ما جاء في كتاب (نيقفوروس). وفوق كل ذلك يجب علينا أن نكذب عبارة أخرى في كتاب حنا وهي في منتهى الوضوح فإنه ذكر بعد وصفه الصلاة في القيصريون أن قيرس عاد (حينذاك) إلى بابليون والمستر بروكس يقبل هذا القول ويضيف إليه أن حصن بابليون « كان قد صار قبل ذلك بقليل إلى يد العرب » إذ أنه قد فتح كما برهن هو على ذلك في ٩ أبريل سنة ٦٤١ . غير أنه عاد في الصفحة التالية لذلك فقال إن تسليم الإسكندرية الذي اتفق قيرس عليه مع عمرو في بابليون وهو بغير جدال القصد الذي قصد إليه من زيارته لحصن بابليون قد حدث في الشهر الذي بين ١٢ أكتوبر و١٠ نوفمبر من سنة ٦٤١ . فكيف لنا أن نوافق بين هاتين العبارتين ؟ وفوق ذلك فإنا نعرف من كتاب حنا ومن سواه من المراجع أن عمراً غادر حصن بابليون عقب فتحه فكان في مدينة نقيوس في ١٣ مايو، ولم يكن في فترة مقامه

= ترتيب التواريخ بغير فحص كما يتبع رأي أميلنو في تاريخ اسحق (صفحة ٢٩) .

بالحصن متسع لزيارة قيرس ومفاوضته. ثم إننا إذا قلنا إن تاريخ تسليم الإسكندرية كان في تلك الفترة كنا بذلك عاملين ـ كما لا بد أن يقرّ المستر بروكس ـ على نقل التواريخ من مواضعها واضطرابها.

وعلى ذلك فإنا إذا وافقنا زوتنبرج على أن قيرس نزل بأرض مصر مع تيودور في يوم الصليب أي في يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١، وإذا وافقنا المستر بروكس على أن قيرس مات في يوم خميس العهد التالي أي في يوم ٢١ مارس سنة ٦٤٢، كان لا بد لنا من التوفيق بين قولنا هذا وبين ما جاء في كتاب حنا. وإنا نستطيع أن نجد المفتاح الذي يفتح لنا ما استغلق من هذا الأمر بدرس ما جاء بذلك الكتاب فإنا إذا فحصنا ما جاء به اتضح لنا من خلاله أن العيد الذي أقيمت فيه الصلاة بمناسبة عودة قيرس ورتلت فيه المزمورة التي في غير موضعها لم يكن عيد الفصح بل كان عيد إعلاء الصليب أي العيد الذي نرى أن قيرس نزل إلى أرض مصر في يومه، وذلك لأسباب أوّلها أن الخبر يذكر لنا صراحة أن الخطبة التي خطبها قيرس كانت كلها عن الصليب[1] وأنه قد احتفل في موكب يحمل القطعة من الصليب المقدّس أو الصليب الذي أحضره إليه القائد حنا قبل منفاه، وسار بذلك الموكب من دير التبيونيسيين. وكل هذه التفاصيل تكون لا موضع لها إذا كان المقصود هو عيد الفصح، وهي كلها في موضعها الصحيح إذا كان المقصود هو يوم الصليب المقدّس. وفوق ذلك فقد ذكر أن قيرس جاء من دير التبيونيسيين إلى كنيسة القيصرون لحضور الاحتفال بعيد الفصح المزعوم، كما قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن تيودور قد عاد عقب نزوله إلى البر إلى

(١) وقد أخطأ زوتنبرج في فهم معنى هذه العبارة فقد ترجمها كما يلي « وأمر بفتح (؟) الحوض الذي كان فيه الصليب المقدّس الذي جاءه قبل نفيه من القائد حنا » وعلامة الاستفهام من وضع زوتنبرج نفسه ولكن ترجمة الدكتور شارل كما يلي « وعندئذ (مدح البئر التي وجد فيها الصليب المقدس مدحاً كثيراً) وقد كان جاءه هذا الصليب قبل منفاه من القائد حنا » وكان قيرس بغير شك يعيد قصة العثور على الصليب في سنة ٣٢٦ ولا يبقى شك إذا ذكرنا أن ذكر العثور على الصليب وعيد إعلاء الصليب يقام الاحتفال بهما معاً في يوم واحد في الكنيسة الشرقية وذلك اليوم هو يوم ١٤ سبتمبر.

ديـر التبيونيسيين في صحبـة قيرس، وإذا كـان ذلك الحـادث قد وقـع في يـوم عيد الفصح حقيقة لما كان لوجوده في دير التبيونيسيين في ذلك الوقت معنى في حين أنه إذا كان المقصود هو عيد الصليب كما نرى نحن كان الـوجود بـالديـر حينئذ ضرورة من ألزم الضرورات إذ يكون قيرس عندما نزل إلى البر ذهب إلى الدير ثم ذهب من هنـاك في موكب إلى كنيسـة القيصريـون . ثم إن المزمـورة « هذا هو اليوم الخ » هي التي كانت تستعمل « في الأعياد السيدية وكامـل أيام الفطر ». ولسنا نستطيع أن نعرف إذا كان استعماله في الترتيل في الصـلاة يدل دلالة واضحة على أن اليوم المقصود هو يوم الفصح أو هو يوم آخر . وإنا نرى على وجه الإجمال أنه لا شك في أن تلك الصلاة التي حضرها قيرس عند عودته كانت صلاة عيد الصليب أي أن عودته كانت في يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١.

ولكن إذا كان الأمر كذلك فما القول في النبوءة ؟ وجوابنا على ذلك يتناول أمرين : (١) إن تلك النبوءة تبقى على مـا لها من القيمة فإذا كانت قد قيلت في وقت صلاة عيد الصليب كـان المقصود منهـا عيد الصليب الـذي بعده أو كـان المقصود منها يوم الفصح المقبل وقد صحت على كلا الحالين. (٢) إن التفسير المقبول عقلاً هو أن قيرس عندما عاد رأى الناس عليه إمارت المرض أو التغير وأولوا حادث الترتيل بما أحسوه من التطير في نفوسهم فقد كانت عبارة النبـوءة كما يلي « إنه لن يشهد عيداً آخـر للفصح » فلمـا مضت بِضع سنين على ذلك أصبحت وفاته قبيل عيد الفصح قطب تلك القصة فحوّرت عبارتها بعد أن نسيت تفاصيل الحادث الذي حدث وعزى أصل النبوءة إلى يوم عيد الفصح ما دامت وفات قيرس قد وقعت قبل يوم عيد الفصح الذي بعده . وذلك تجـوز لم يراع معه ترتيب التواريخ والحوادث . وعلى ذلك قد كان من الـطبيعي أن تزاد على عبارة حنا العبارة الآتية « في يوم عيد القيامة » وذلك في موضع يظهـر فيه هـذا القول غريباً في غير موضعه[1]. وهذه العبارة بغير شك زيادة من بعض النساخ

(١) جاء في كتاب زوتنبرج « ولما بدأوا الإحتفال بالصلاة (في يوم عيد القيامة) بدلاً من أن يرتلوا المزمورة الخاصة بذلك اليوم إلخ » .

أدخلها على النص الأصلي وإذا نحن حذفناها زالت كل أسباب الحيرة واتضح سياق الحوادث واستبان بعد أن كان مختلطاً خفياً

وتسير عبارة حنا بعد ذلك سيراً طبيعياً فإنه بعد يوم الصليب بقليل ذهب قيرس إلى بابليون يطلب لقاء عمرو وقد أثبت ابن قتيبة أن عودته من غزوته في الدلتا كانت في ذي القعدة من سنة ٢٠ (١٢ أكتوبر - ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) وهي الغزوة التي لم يتم فيها شيئاً من الفتح . وهذا معناه أن ذهاب قيرس إلى بابليون كان نحو آخر أكتوبر ، وعلى ذلك لا يمكن أن نجعل تاريخ الصلح في ١٧ أكتوبر كما يزعم المستر بروكس فإن عمراً إذا كان قد عاد إلى بابليون في أوائل ذي القعدة (وهو أمر لم يذكر) كان لا بد من مضى أيام عدّة قبل أن يستقر الأمر على شروط الصلح ، ولهذا لا نرى أن الصلح قد تم قبل آخر ذي القعدة . ونرى في الحقيقة أن الصلح الذي اتفق قيرس مع عمرو عليه قد وقع في ٨ نوفمبر على وجه التعيين. وقد كان من شرط هذا الصلح أن تباح مدّة هدنة قدرها أحد عشر شهراً وكان على جنود الروم أن تجلو عن الإسكندرية في أثنائها . وقد اختار المستر بروكس لذلك تاريخ ١٧ أكتوبر لأن هذا التاريخ يقع قبل يوم ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ بأحد عشر شهراً إذ أنه يزعم أن ذلك التاريخ الأخير هو يوم إخلاء الإسكندرية للعرب . ولكن ليس ثمة من سبب يحدو بنا إلى أن نقول إن جيش الروم قد بقي في الإسكندرية إلى آخر يوم من أيام الهدنة ، إذ كانوا قد تجهزوا قبل ذلك للسفر . وإنا إذا حسبنا مدّة الهدنة بالشهور العربية من يوم ٨ نوفمبر كانت نهايتها يوم ٢٩ سبتمبر . وأما المستر بروكس فإنه يؤكد أن تاريخه (أي ١٧ أكتوبر) « يتفق كل الاتفاق مع ما ذكره ابن عبد الحكم من أن الحصار استمر تسعة أشهر بعد موت هرقل ». وكانت وفاة هرقل في يوم الأحد ١١ فبراير سنة ٦٤١، فإذا نحن عددنا المدّة بالحساب العربي وقع آخر أجل الهدنة في شهر نوفمبر. ولكن المقريزي قد ذكر أن فتح الإسكندرية كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام ، واليوم الحادي عشر من شهر فبراير سنة ٦٤١ يوافق يوم ٢٣ صفر ، فإذا حسبنا تسعة أشهر وخمسة أيام من هذا التاريخ بلغ بنا

الحساب يوم ٢٨ يوم ذي القعدة وهو يوم الخميس ٨ نوفمبر.

هذا ما نراه التاريخ الصحيح . وقد لاحظ المستر بروكس أن الصلح لا يمكن أن يكون قد وقع بعد نوفمبر لأن قيرس عند عودته من بابليون إلى الإسكندرية طلب من تيودور أن يحمل ذلك الصلح إلى الإمبراطور هرقل (أي هرقلوناس)، وقد كانت وفاته في انتهاء هذا الشهر (نوفمبر) . ولكن من الأمور التي تستحق البحث أن نرى هل مؤرخو العرب إذ يوردون المدة الصحيحة بين وفاة هرقل الأوّل وتسليم الإسكندرية يجعلون وفاته في يوم ١١ فبراير أو في ١١ مارس. فقد ذكر تيوفانز وقيدرينوس خطأ أن وفاته كانت في ١١ مارس، ولعل هذا قد ضلل مؤرخي العرب فإنه من العجيب أننا إذا حسبنا مدّة الأشهر التسعة والأيام الخمسة بادئين من ١١ مارس (أو ٢٢ ربيع الثاني) بلغ الحساب بنا يوم ٢٧ من ذي الحجة (أي ٧ ديسمبر) وهذا اليوم السابع من ديسمبر كان يوم جمعة وهو قريب من أوّل المحرم (١٠ ديسمبر) الذي ثبت في أخبار العرب أنه كان يوم فتح الإسكندرية.

وبعد فقد برهن المستر بروكس برهاناً قوياً على أن التواريخ الباقية إلى الآن من التواريخ التي ذكرها حنا إذا فسرت على حقيقتها تنص على أن ولاية البطريق بطرس خلف قيرس على بطرقة الملكانيين كانت في ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ وعلى أن الروم أخلوا الإسكندرية في السابع عشر من سبتمبر من ذلك العام نفسه (صفحة ٤٤٣) ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن عودة بنيامين من منفاه في الصعيد كانت في سنة ٦٤٤ ولعلها كانت أقرب إلى نهاية العام منها إلى أوّله[1].

ولكنا مضطرون إلى أن نخالف المستر بروكس في أمر أو أمرين في رأيه ذاك فإنه ينقل عن (ابن بطريق) وابن عبد الحكم ومكين أنهم اتفقوا على أن مدة

---

(١) يجعل أميلنو عودة بنيامين في سنة ٦٤١ (Vie du Patriarche Isaac) (صفحة VIX) ولكن هذا القول معناه أن مدة النفي كانت عشرة سنوات بدلاً من ثلاث عشرة سنة وهو المتفق عليه عند جل المؤرخين .

حصار الإسكندرية كانت أربعة عشر شهراً وعلى ذلك جعل بدأ ذلك الحصار في أواخر أغسطس من سنة ٦٤٠، وكذلك ينقل عن (ابن بطريق) أن حصار بابليون بقي سبعة أشهر، ولما كان فتح بابليون قد وقع في ٩ أبريل سنة ٦٤١ كان أوّل الحصار في أوائل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ وعلى ذلك يكون العرب قد حاصروا المعقلين في وقت واحد تقريباً وذلك أمر غير ممكن من الوجهة الحربية المحضة، فإن عمراً لم يكن معه في وقت من الأوقات جند كاف لحصار الحصنين معاً. وفوق ذلك ليس ثمة مؤرخ يدعم حجة المستر بروكس فيما ذهب إليه بل إن المراجع كلها تنقض رأيه فإن حنا نفسه يقول إن عمراً غادر حصن بابليون بعد فتحه في ٩ أبريل سنة ٦٤١ وإنه فتح نقيوس بعد ذلك بشهر. وإذا نحن أرّخنا سقوطها بشهر جمادى الأولى وهو وسط بين ربيع الأوّل الذي ذكره الكندي وياقوت وبين جمادى الثانية وهو الذي ذكره المؤرخ الذي نقل عنه المقريزي كان ذلك موافقاً كل الموافقة لما جاء في كتاب حنا. وسار جيش عمرو بعد فتح نقيوس إلى الشمال وإنه لمن القريب أن يكون قد حاصر الإسكندرية في آخر شهر يونيه أو في أوائل شهر يوليه من عام ٦٤١. ومن هذا الوقت تبدأ مدة الحصار الأربعة عشر شهراً وليس من شهر أغسطس ولا من شهر سبتمبر سنة ٦٤٠. ذلك إذا أردنا الأخذ بما جاء في تواريخ ابن بطريق (أوتيكيوس) وابن عبد الحكم ومكين. أي أن مدة الأربعة عشر شهراً يجب أن تحسب من وقت تسليم المدينة في أواخر سبتمبر سنة ٦٤٢ راجعة إلى أوّل الفتح لا أن تحسب من تاريخ الصلح الذي كان في سنة ٦٤١.

هذه النتيجة تفضي بنا إلى اتفاق يكاد يكون تاماً مع ما جاء في الطبري إذ يقول إن مدّة الحصار كانت خمسة أشهر (قبل التسليم). وإذا حسبنا ما بين أوّل يوليه و٨ نوفمبر كان ذلك تمام أربعة أشهر ونصف من الشهور العربية. ويلوح أن هذا الاتفاق يعزز التاريخين اللذين أخذنا بهما وهو في نفس الوقت يبين لنا سبب ذلك الاختلاف الكبير بين المؤرخين في تقدير مدة الحصار. فمن الواضح أن بعضهم بدأ حسابه من أوّل وقوف العرب دون الاسكندرية إلى

معاهدة التسليم وبعضهم حسب المـدّة إلى وقت إخلاء الـروم للمدينـة فعلاً . والظاهر أن عبارة السيوطي التي نقلناها آنـفـاً فيها خلط بين ما جاء في الطبري وما جاء في أوتيكيوس وهي خطأ واضح . وأما اليعقوبي والبلاذري وابن خلدون وسواهم من المؤرخين فإنهم يذكرون أن مدة الحصار كانت ثلاثة أشهر وظـاهر أنهم يقصدون أنه قد مضت ثلاثة أشهر من الحصار قبل معـاهـدة الصلح ، فإذا أضفنا إلى تلك المدة مدّة الهدنة وهي أحد عشر شهراً رجعنا إلى أن المدّة بين أوّل مجيء العرب أمام المدينة ودخولهم فيها كانت أربعة عشر شهراً . ومن ذلك يتضح أن هذه الأخبـار وإن ظهر عليهـا شيء من الاختلاف يمكن التـوفيق بين مواضع الخلاف فيها أو التقريب بينها تقريباً يسترعي الأنظار .

وكذلك نخالف ما ذهب إليـه المستر بـروكس من أن « فترة الأحـد عشر شهراً قضاها عمرو في غزو بنطابولس » (يقصد مدة الهدنة) . فإنا نسلم بأن نص عبـارة كتاب حنـا كما هي تسـاعد على الأخـذ بهذا الـرأي ، وذلك لأن الفقـرة القصيرة التي ذكرت فيها هذه الغزوة جاءت قبل ذكر موت قيرس مباشرة . ولكن قد جاء ذكر موت قيرس في موضع آخر بعد ذلك وظاهر أن ذلك الباب ممسوخ الترتيب فلا يمكن أن تقوم حجة على ترتيب أخباره . وإن الأسباب الحربية بغير شك كانت تمنع عمراً من أن يغامر بالقيام بغزوة بعيدة قبل أن يملك الإسكندرية وهي القاعدة الوحيدة التي كان يمكن أن تبدأ منها مثل هذه الغزوة . وأمـا ابن الأثير فإنه يورد قولاً قاطعـاً في ذلك التـاريخ فيجعـل تلك الغزوة في سنـة ٢٢ للهجرة. وأما سـواه من مؤرّخي العرب فـإنهم مهما اختلفـوا في ذلك التـاريخ متفقون على أن فتح برقة إنما كان بعد سنة من تملك الإسكندرية (راجـع ابن بطريق وياقوت). وعلى هذا فإنا جعلنا تاريخ غزوة بنطابولس في الشتاء الذي أعقب إخلاء الإسكندرية . وقد بدأت السنة الثـانية والعشـرون للهجرة في ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢، فإذا كانت الغزوة قد وقعت بعد أوّل السنـة بقليل كـان ذلك إيضاحاً سهلاً لما وقع فيه مؤرّخو العرب من الاختـلاف بين سنة ٢١ وسنـة ٢٢ للهجرة.

ولسنا نشك في أن عمراً كان كثير الأعمال في بابليون ، ولعله كان يتجهز لإتمام فتح الصعيد أو إخضاعه . وقد كان بغير شك يستعد لإعادة حفر قناة تراجان ، فقد جاء في البلاذري أن عام القحط في بلاد العرب كان سنة ٢١ للهجرة (وأولها ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١) . وجاء في تاريخ ابن الأثير أن عمراً أرسل في ذلك العام القمح إلى المدينة في الخليج الذي حفره ولعل ذلك كان في أغسطس أو سبتمبر من عام ٦٤٢ .

وما كان حفر ذلك الخليج بممكن إلا في الشتاء في وقت انخفاض النيل كما أنه ما كان سير السفن فيه ممكناً في غير فصل الصيف عند فيضان النيل ، وكان عمرو في شتاء (سنة ٦٤٠ ـ ١) مقبلاً على حصار بابليون مشتغلاً به فلم يكن من الممكن حفر ذلك الخليج إلا في شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢) كما يفهم من تاريخ ابن الأثير . وقد جاء في ذلك التاريخ عينه أن تاريخ غزو عمرو لبرقة كان على وجه التعيين في سنة ٢٢ للهجرة وهي تبدأ من يوم ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ وتنتهي في يوم ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣ .

وعلى ذلك فإنا موردون التواريخ الآتية :

(١) كان جيش عمرو في العريش في ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ وقد ذكر هذا اليوم في كتاب ابن عبد الحكم ، ولكن البلاذري والطبري وياقوت ومكين يكادون يتفقون في إيراد تاريخ الغزوة .
(٢) فتح الفرما حوالي ٢٠ يناير سنة ٦٤٠ وقد اتفق ابن بطريق وياقوت وغيرهم على أن المدينة فتحت بعد حصار شهر واحد .
(٣) غزوة عمرو لإقليم الفيوم في مايو سنة ٦٤٠ ولا يذكر هذا التاريخ غير حنا النقيوسي وحده .
(٤) وصول أمداد العرب في ٦ يونيه سنة ٦٤٠ وهذا مأخوذ من ساويرس ولكنه مشكوك فيه .
(٥) وقعة هليوبولس في يوليه سنة ٦٤٠ وقد تبع ذلك فتح مدينة مصر .

(٦) بـدء حصـار حصن بـابليـون في سبتمبـر سنـة ٦٤٠ وهـذا يتفق عليـه ابن عبد الحكم وابن بطريق (أوتيكيوس) .

(٧) معاهدة قيرس المقوقس التي رفضها هرقل في أكتوبر سنة ٦٤٠ .

(٨) تسليم حصن بابليون في ٩ أبريل سنـة ٦٤١ وقد جـاء ذكر هـذا اليوم في كتاب حنا النقيوسي . وهذا اليوم هو تاريخ «فتح مصر» أو بعبارة أصح تاريخ فتح مدينة مصر. وأوثق المؤرّخين يجعلون ذلك في سنة ٢٠ للهجرة ، كما ذكـر المقريـزي ومن بين هؤلاء الثقاة ابن قتيبـة وابن بطريق ويـاقوت وأبـو المحاسن وابن كثير والواقدي وأبو معشر الخ . على أنهم لا يتفقون جميعاً في قصدهم من عبارة «فتـح مصر» فبعضهـم يعني بهـا فتح حصن بـابليون وبعضهم يقصد بها فتح الإسكندرية ، ولكن الطبري يجعل فتح بابليون في ربيع الثاني من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ مارس ـ ١٧ أبريل سنة ٦٤١)، وعلى ذلك فهو متفق كل الاتفاق مع ما جاء في كتاب حنا النقيوسي .

(٩) فتح نقيوس في ١٣ مايو سنة ٦٤١ .

(١٠) الهجوم على الإسكندرية في آخر يونيه سنة ٦٤١ .

(١١) عودة قيرس في ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١ .

(١٢) تسليم الإسكندرية في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ .

(١٣) حفر خليج تراجان في شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢) .

(١٤) موت قيرس في ٢١ مارس سنة ٦٤٢ .

(١٥) ولاية خلف قيرس في ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ .

(١٦) إخلاء الروم للإسكندرية في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ .

(١٧) غزوة بنطابولس في شتاء (سنة ٦٤٢ ـ ٣) .

(١٨) عودة بنيامين في خريف سنة ٦٤٤ .

(١٩) ثورة منويل في أواخر سنة ٦٤٥ .

(٢٠) فتح العرب الثاني للإسكندرية في صيف سنة ٦٤٦ .

وهذه التواريخ وإن جاءت في ذيل كتابنا قد اضطررنا إلى استخلاصها قبل كتابة هذا التاريخ فإن تسلسل الحوادث كما هو ظاهر متوقف على البت في أمر

هذه التواريخ ولقد كان ذلك أمـراً عسيراً بـل هو سلسلة من المشكـلات، وقد اضطررنا أن نعرض طريقنا في حلها تفصيلاً وإنا آسفون للإطالة في هذا المقال، وقد خالفنا المستر بروكس في عدّة مـواضع ذات شـأن من هذه التـواريخ التي ذكرناها ، ولكننا لا يجمل بنا أن نختتم هذا القول بغير أن نعود إلى الإقـرار بما على الباحثين طراً من دين لأبحاثه وآرائه .

في سن عمرو بن العاص

اختلف مؤرّخو العرب بعض الاختلاف في سنة عمرو بن العاص عند موته ، على أنه اتفاقهم يكاد يكون تاماً في تعيين تاريخ وفاته فإنه في حكم المسلم به أنه توفي في يوم عيد الفطر من عام ٤٣ للهجرة ويوافق ذلك يوم ٦ يناير ستة ٦٦٤ . وقد قيل إن عمره إذ ذاك كان تسعين سنة وقيل كان ثلاثاً وسبعين وقيل كان سبعين . ونرى أن الرأي الأخير هو الصحيح وعلى كل حال لم تكن سنه تسعين سنة .

وقد ذهبنا في حسابنا إلى أن مؤرّخي العرب يعدّون بالسنين القمرية ، وعلى ذلك فنحن إذا حسبنا عدد السنين اعتبرنا الفرق بين طول السنة القمرية والسنة الشمسية . وقد قال ابن قتيبة (وهو من كتاب القرن التاسع) عند ذكره عمرو بن العاص (انظر طبعه (Wustenfeld) صفحة ١٤٥ وما بعدها) إنه مات وهو في سن الثالثة والسبعين وذلك في عام ٤٢ أو ٤٣ للهجرة. على أنه يقول إن بعض الرواة يذكر أنه مات سنة ٥١ ثم يقول بعد ذلك إن ابنه عبد الله مات وله من العمر اثنتان وسبعون سنة في سنة ٦٥ للهجرة وكان أصغر من أبيه باثنتي عشرة سنة لا أكثر. فإذا اصبح ذلك كان ميلاد عبد الله بن عمرو حوالي سنة ٦١٥ للميلاد، وعلى ذلك يكون ميلاد عمرو في عام سنة ٦٠٣ وتكون سن عمرو عند موته في سنة ٦٦٤ نحو ثلاث وستين سنة هجرية . ومن ذلك يظهر تناقض ابن قتيبة فيما ذهب إليه. وأما ابن خلكان فيذكر أن سن عمرو بن العاص كانت تسعين سنة وقد روي ذلك عن الواقدي .

ويروي ابن حجر روايته عن يحيى بن بكير أنه قال إن عمراً عاش تسعين سنة ثم قال إن عمراً كان ابن سبع سنين عندما ولد عمر بن الخطاب واتفق معه السيوطي في ذلك فقال إن عمراً مات في سن التسعين في سنة ٤٣ للهجرة . وقد مات عمر بن الخطاب في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة من سنة ٢٣ للهجرة (وذلك يوافق يوم ٣ نوفمبر سنة ٦٤٤) وكان عمره إذ ذاك خمساً وخمسين سنة. وعلى ذلك فقد ولد عمر حوالي سنة ٥٩٠ للميلاد . فإذا كان عمرو بن العاص ابن سبع سنين عند مولد عمر بن الخطاب كان ميلاده حوالي سنة ٥٨٣ للميلاد أي أن عمراً لم يكن عمره عند موته تسعين سنة بل كان ثمانين. على أنه قد اختلف بعض الاختلاف في سنة عمر بن الخطاب عند موته فقد ذكر ابن قتيبة مؤكداً أن سنه كانت عند موته خمساً وخمسين سنة (صفحة ٩١)، ولكنه يروى أن الواقدي روى عن عامر بن سعد أنه مات وله من العمر ثلاث وستون سنة . فإذا نحن قلنا إن عمر بن الخطاب عاش ثلاثاً وستين سنة كان ميلاده حوالي سنة ٥٨٢ للميلاد وكان ميلاد عمرو بن العاص حوالي سنة ٥٧٥ للميلاد وعلى ذلك تكون سن عمرو في سنة ٦٦٤ فوق التسعين بالحساب العربي وينتج أيضاً أنه كان عند الفتح له من العمر أكثر من أربع وستين أو خمس وستين من السنين الميلادية وهذا قول مستبعد جداً.

وقال النواوي إن وفاة عمرو كانت حقاً في يوم عيد الفطر من عام ٤٣ للهجرة وإنها لم تكن في وقت آخر مما ذكره المؤرّخون وهو يذكر أن سن عمرو عند وفاته كانت سبعين سنة (صفحة ٤٧٨ من طبعة (Wustenfeld) ومعنى هذا أن مولد عمرو كان حوالي ٥٩٥ وأن عمره كان حوالي أربع وأربعين سنة في وقت فتح مصر.

وبعد فإن علينا أن نفصل أحد أمرين : وهما أن قائد الجيوش العربية وقت الفتح كانت سِنُّهُ أربعاً وأربعين سنة أو أنه كان ابن أربع وستين سنة. وإنا نرى بغير البحث الطويل أن الأمر غير محتاج إلى شك كثير فإن روحاً وثابة مقدامة ليس من الممكن أن تكمن في رجل جاوز منتصف الحياة وبعد عنه مثل هذا

البعد ، وليس من القريب إلى التصوّر أن يكون عمرو قد دخل فيما دخل فيه من فتح مصر وما تلا ذلك من الحوادث في مصر والشام وهو في سن الرابعة والستين . فمثلاً لو كان عمرو في سِن التسعين في سنة ٦٦٣ لكان في سن الخامسة والثمانين في وقعة صفين في عام ٦٥٨ والمعروف أنه قد أبلى في ذلك الوقعة بلاء عظيماً وأظهر فيها المدهش من الرأي والعمل . وحسبنا هذا الدليل وحده لتفنيد العبارة وإظهار سخفها. على أنه من أسهل الأمور أن نكشف عن منشئها فإنه لا شيء أسهل من أن يخطىء الناقل في العربية عند قراءة سبعين فيجعلها تسعين ، وليس شيء أقرب إلى التوقع من أن يحرف لفظ سبعين عند النسخ فيصير تسعين، و يؤيد هذا أن المتأخرين من المؤرّخين هم الذين ذكروا العدد الأكبر. وعلى ذلك يمكننا أن نبت في الأمر فنقول إن عمراً مات وهو في سن السبعين.

في تواريخ بطارقة القبط بعد بنيامين في القرن السابع

قد اضطرتنا معالجة المسائل التي لها علاقة بتاريخ الفتح العربي إلى أن نشير أحياناً إلى خلفاء بنيامين وإن في إثبات تواريخهم لشأناً يذكر فيما نحن فيه وليس أقل هذه المسائل شأناً إثبات التاريخ الذي كتب فيه حنا النقيوسي كتابه. وإثبات ذلك لا يكون إلا من طريق غير مباشر كما هي العادة ، ولكن ذلك الإثبات قائم على الأكثر على إثبات التاريخ الذي تولى فيه البطريق إسحق إذ كان حنا أحد من شهدوا الاحتفال بتوليته وكان إسحق البطريق الثالث بعد بنيامين وكان البطريقان المتوسطان بينه وبين بنيامين هما (أجاثو) وحنا السمنودي. ويلوح لنا أنه من الممكن أن نثبت تاريخ تولية إسحق على وجه الدقة ، ولهذا نرى أن خير طريق نسلكه هو إثبات هذا التاريخ ثم الرجوع منه إلى التواريخ السابقة.

والمرجع الأكبر لنا في استمداد الأخبار هو الكتاب القبطي « حياة إسحق » وقد نشره مع ترجمة له العلامة أميلنو في كتاب (His. du Patr. Copte Isaac) . وقد أظهر ذلك الكاتب في مقدّمته القيّمة أن تلك الوثيقة القبطية لا تذكر أن إسحق توفي في التاسع من هاتور (هو يوافق ٥ نوفمبر وليس ٦ نوفمبر كما ذكر هناك).

قال الكاتب « وقد اقتصرت كل الأخبار التاريخية على ذكر ذلك التاريخ ومعنى ذلك أنها لا تفيدنا بشيء مطلقاً »، ولكن مكين يذكر في تاريخه أن تاريخ وفاة إسحق سنة ٦٩ للهجرة ومن ذلك يستخلص أميلنو أن إسحق مات في ٦

نوفمبر سنة ٦٨٨ . وأما فون جوتشمت فإنه يذكر أن وفاته كانت في الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٢ .

على أن أميلنو قد أخطأ الصواب إذ قال إن الوثيقة القبطية لا تذكر شيئاً آخر من الأخبار التي تحدّد التواريخ إذ أنه قد أغفل عبارة لها شأن كبير . فقد جاء في تلك الوثيقة (في صفحة ٥٠) أن إسحق احتفل بولايته في ٨ كيهك « وكان ذلك يوم أحد » وهو اليوم اللائق بهذا الاحتفال ـ ولم يقع يوم ٨ كيهك حوالي هذا العصر في يوم أحد إلا في سنة ٦٨٤ وسنة ٦٩٠ ، فأما سنة ٦٨٤ فإنه من المحال أن تكون هي المقصودة وعلى ذلك فإن إسحق قد احتفل بتوليته في (٨ كيهك ـ الموافق ٤ ديسمبر سنة ٦٩٠). وعلى ذلك فهذا هو التاريخ الذي شهده حنا النقيوسي . وقد قال ساويرس في مدّة ولاية إسحق أقوالاً مختلفة في النسخ المخطوطة المختلفة ، فهو يجعلها بين سنتين وتسعة أشهر وبين ثلاث سنوات ، ولكنا إذا علمنا أن إسحق قد مات في ٥ نوفمبر وإذا قلنا إنه توفي في الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٣ كانت مدّة ولايته سنتين وأحد عشر شهراً وهي المدّة التي ذكرها المقريزي .

وقد يكون من السهل أن نقرأ مقدّمة أميلنو كلها ثم نظهر السبب في أنه أخطأ الخطأ كله في إثبات تاريخ ميلاد إسحق إذ يجعل ذلك التاريخ قبل الفتح العربي ، ويجعل إسحق في نحو الثمانية عشرة من عمره في وقت ذلك الفتح (ويذكر أن الفتح كان سنة ٦٤٠). فهو يجعل تاريخ ميلاده سنة ٦٢٢ وقد ساقه إلى هذه النتيجة على الأخص ما ذكر من أن إسحق كان في صباه ملحقاً بقريب له اسمه (Meneson) وكان هذا القريب ناموساً لجورج حاكم أرض مصر « ⲡⲭⲁⲣⲧⲟⲗⲁⲣⲓⲟⲥ ϧⲁ ⲣⲁⲧϥ ⲛⲅⲉⲱⲣⲅⲓⲟⲥ ⲉϥⲟⲓ ⲛⲉⲡⲁⲣⲭⲟⲥ ⲉϯⲭⲱⲣⲁ ⲛⲧⲉ ⲭⲏⲙⲓ » وهذا اللقب عجيب إذ أنه يظهر كيف بقيت الألقاب اليونانية مستعملة في مصر بعد الفتح العربي ولسنا نشك لحظة في أن تلك الألقاب قد بقيت في مصر بعد ذلك الفتح فقد جاء في الوثيقة عينها ذكر عامل بلقب (Augustal) صفحة ٧٣ وأنه كان متصلاً اتصالاً مباشراً مع « ملك العرب » (عبد العزيز) . وقد

ذكر اسمه قبل ذلك ببعض صفحات (صفحة ٤٣ و٦٤) فوجود هذا اللقب على ذلك لا يدل على أن إسحق قضى صباه تحت حكم الروم. والحق أنه قد ثبت أنه هرب في الصحراء وكان بعد لا يزال في سِن الصبا وكان ذلك بعد الفتح إذ إنا نجد أهله بعد ذلك بقليل يستشيرون بطريقاً قبطياً في الإسكندرية في أمره.

وليس من الممكن أن يكون هذا قد وقع بين سنة ٦٣١ ـ سنة ٦٤٤ إذ لم يكن ثمة في الإسكندرية بطريق قبطي وقتئذ كما أنه ليس من الممكن أن يقع هذا قبل سنة ٦٣١ إذ قد ذكر عنه عقب هروبه أنه حادث قسيساً من قسوس الريف. وقد جاء في ذلك الخبر (في صفحة ١٢) «أنه قد شهد الكثيرون أن ذلك القس كان من القدّيسين أهل الإيمان وأنه كان ممن أحضر بين يدي قيرس فحكم عليه بأن يجلد عدّة جلدات لأنه أظهر إيمانه»[1] وهذا القول يدل على أن مدة الاضطهاد الذي أنزله قيرس كانت قد انقضت وهي بين سنة ٦٣١ ـ سنة ٦٤١، وعلى ذلك فإن لجوء أهل إسحق إلى البطريق كان ولا بدّ بعد سنة ٦٤٤، وعلى ذلك نقول إن البطريق كان بنيامين.

وليس ثمت من دليل يدل على تاريخ لجوء أهل إسحق إلى البطريق وفي أي عشوة من عشرات السنين كان، ولا ندري أكان حوالي سنة ٦٥٠ أو حوالي سنة ٦٦٠ أو حوالي سنة ٦٧٠ على أننا نميل إلى ترجيح التاريخ الأوّل، وذلك لأننا نهتم أكبر الاهتمام بالعبارات المتكررة التي تنص على صبا إسحق إذ ذاك ونحن في ذلك نخالف ما ذهب إليه أميلنو فإنه مثلاً لا يجد صعوبة في تأويل معنى (Jeune Garçon) (صبي صغير) على أنه كان رجلاً متوسط السن مع أن هذا اللفظ قد ورد نقيضاً للفظ «الهرم» (صفحة ٢٥ ـ ٦) فإذا ذهبنا إلى أن ذلك التاريخ المقصود كان حوالي سنة ٦٥٧ كان ميلاد إسحق إلى سنة ٦٤٠. وكانت

---

(١) وقد ترجمها أميلنو «أنهم أحضروه إلى محكمة قيرس» وقد أخبرني المستر (كروم) أن هذه الترجمة لا تؤدي معنى الزمن (الماضي السابق) الذي في الأصل القبطي ⲉⲁⲧⲧⲁϩⲟϥ.

سنه عند وفاته ثلاثاً وخمسين سنة، وكان البطريق الذي استعمله ناموساً مدّة من الزمن بغير شك البطريق (أجاثو) مع أن البطريق الوحيد الذي ذكر حنا النقيوسي اسمه هو (حنا السمنودي) صفحة ٤٢ وهو الذي رشح إسحق لولاية الدين بعده. ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن أميلنو إذا كان مصيباً فيما ذهب إليه من ترتيب التواريخ أي أن ميلاد إسحق كان في سنة ٦٢٢ فإن مدّة الاضطهاد الأكبر وهي بين سنة ٦٣١ وسنة ٦٤١ تقع إذ كانت سن إسحق بين التاسعة والتاسعة عشرة ولكنا قدّمنا أنه لم يكن للقبط إذ ذاك بطريق في الإسكندرية كما يستلزمه ذلك الخبر في حين أننا إذا ذهبنا كما فعلنا إلى أن مولد إسحق كان حوالي سنة ٦٤٠ وأنه هرب إلى الصحراء حوالي سنة ٦٥٧ استوى لنا القول وأصبح طبيعياً فإن بنيامين قد عاد إلى الإسكندرية قبل ذلك بثلاث عشرة سنة، وكانت هذه المدّة في الحقيقة أكثر مدّة صبا إسحق.

وبعد أن أثبتنا تاريخ الاحتفال بولاية إسحق وموته نقول إن سابقه حنا السمنودي توفي في أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) من إحدى السنين بعد أن وُلِيَّ أمر الدين تسع سنين ، وعلى هذا تكون وفاته في ٢٧ نوفمبر سنة ٦٩٠ ولكن ذلك لو صح لوجب علينا أن نسلم أن الاحتفال بتولية إسحق حدث بالضبط بعد أسبوع من موت سلفه في حين أن تاريخ حياته القبطي يحتوي على ذكر مفصل لما وقع من الخلاف في المدة التي كانت ولاية الدين فيها شاغرة بعد موت سلفه وما وقع من المسعى لتولية رجل آخر اسمه (جورج) إذا إدعى أنه هو الذي وقع عليه الإختيار الصحيح . على أن كبير الشمامسة أمر أن لا يولى (جورج) حتى جاء أمر من قبل الحاكم العربي فاجتمع الأساقفة عنده في بابليون ليعرضوا عليه الأمر ، فلما فحص تاريخ (جورج) في حياته الماضية وجد أنه لم يكن على ما يجب أن يكون عليه. وقد جاء الناس من جميع البلاد ليسمعوا حكم «عبد العزيز» في ذلك الأمر فلما حكم بما أرادوا من إحقاق أمر إسحق طربوا ورقصوا جميعاً وعمَّ السرور البلاد من بابليون إلى الإسكندرية (صفحة ٤٤ - ٩). ومن الجلي أن ذلك لا بد يحتاج إلى وقت طويل ، فنحن مضطرون إلى القول إن وفاة حنا السمنودي كانت في أول كيهك (٢٧ نوفمبر) سنة ٦٨٩ مع أننا نقول إن

الاحتفال بتولية إسحق كان في ٨ كيهك سنة ٦٩٠ ، أو بقول آخر إن ولاية الدين بقيت شاغرة مدة عام . وهذا الاستنتاج يؤيده ما جاء في الديوان الشرقي إذ جاء فيه أن حنا مات في أول كيهك وكان ذلك يوم السبت ، وقد رأينا أن يوم ٨ كيهك كان في سنة ٦٩٠ يوم أحد فيكون أول كيهك من ذاك العام يوم أحد أيضاً ، ولكن أول كيهك كان يوم السبت كما هو المطلوب في عام سنة ٦٨٩ .

فإذا نحن حسبنا مدة ولاية حنا تسع سنين رجع بنا الحساب إلى أن أول تلك الولاية كان في سنة ٦٨٠ . وقد مات سلفه (أجاثو) في ١٣ أكتوبر وعلى ذلك يكون الاتفاق قريباً كل القرب بين حسابنا والتاريخ المذكور . وكانت وفاة أجاثو في ١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠ بعد أن وليَ أمر الدين مدة تسع عشرة سنة كما جاء في الأخبار . ولكنا رأينا أن وفاة بنيامين كانت في ٨ طوبة (وذلك يوافق ٣ يناير سنة ٦٦٢) ، والمدة بين التاريخين ثمان عشرة سنة وعشرة أشهر تنقص قليلاً وذلك تقريب شديد القرب ، وعلى ذلك نرى أن حساب التواريخ يتفق بعضه مع بعض إتفاقاً وثيقاً .

وإنا نستطيع الآن أن نورد التواريخ مرتبة ، وقد كان جل اعتمادنا فيها على ما جاء في كتاب ساويرس . وقد راجعناها على ما جاء في تاريخ حياة إسحق وسوى ذلك من المراجع ، فاتفقت إتفاقاً عظيماً يجعلنا نستعبد احتمال الخطأ فيها ، وقد اتفق فون جوتشمت معنا فيما أثبتناه من تواريخ وفاة بنيامين رأجاثو ، ولكنه يخالفنا في تاريخ وفاة حنا السمنودي فيجعلها في ٢ مايو سنة ٦٨٩ (Kleine Schriften II) صفحة ٥٠٠ .

ولكن ذلك لا يعتمد على مرجع كاف ، وهو فوق ذلك يجعل الاحتفال بتولية إسحق في فبراير سنة ٦٩٠ ووفاته في ٥ نوفمبر سنة ٦٩٢ ، ولكن هذين التاريخين قد ظهر فسادهما مما جاء في تاريخ حياته القبطي ، فالتواريخ

الحقيقية على ما يلوح لنا هي الآتية :

البطريق	تاريخ التولية	مدة الولاية	تاريخ الوفاة
(١) بنيامين	يناير سنة ٦٢٣	٣٩ سنة	٣ يناير سنة ٦٦٢
(٢) أجاثو	يناير سنة ٦٦٢	١٩ سنة	١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠
(٣) حنا السمنودي	أكتوبر سنة ٦٨٠	٩ سنوات	٢٧ نوفمبر سنة ٦٨٩
ثم جاءت مدة سنة بقيت فيها الولاية شاغرة .			
(٤) إسحق	٤ ديسمبر سنة ٦٩٠	٣ سنوات	٥ نوفمبر سنة ٦٩٣
(٥) سيمون	يناير سنة ٦٩٤	$7\frac{1}{2}$ سنوات	١٨ يوليه سنة ٧٠١

ويمكن أن تقرأ التواريخ الخاصة بسيمون والسبب الذي من أجله تأخرت توليته في كتاب (رينودوه) .

الملحق السابع

وفيه بحث جديد للمؤلف في شخصية المقوقس

لم تزل النفس غير قانعة بما قيل في المقوقس وشخصيته. وكل ما جاء في مؤلفات العرب والفرنجة خاصاً لا يزيد النفس إلا تساؤلاً . فلا تزال حقيقته وصفته واسمه مجالاً لمختلف الأقوال . غير أن مؤلف هذا الكتاب الدكتور بتلر قد وفق لحسن الحظ إلى حل أكثر غوامض هذا الأمر ، وهو الجزء المتعلق بإثبات أن المقصود بالمقوقس في وقت غزو العرب لمصر هو (قيرس) بطريق الإسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر . وقد ترددت المكاتبة بين المترجم والمؤلف بهذا الشأن ، وظهر من أثنائها أن أكبر المعارضين لرأي المؤلف في شخصية المقوقس كان الأستاذ (استاتلي لين بول) إذ كان له رأي آخر وهو أن المقوقس لم يكن سوى حاكم الإقليم الشرقي من مصر . غير أنه عاد عن رأيه ومعارضته للدكتور بتلر على أثر بحث قيم طبعه في سنة ١٩١٢ وهو (The Treaty of Misr in Tabary)

قال مؤلف الكتاب في أحد خطاباته للمترجم إن الأستاذ (استاتلي لين بول) عندما قرأ ذلك البحث عاد عن رأيه وأرسل إليه يعلن صراحة أنه قد رجع عن رأيه في المقوقس وأنه آمن بما قال به الدكتور بتلر . ولم يكن على الأستاذ (استاتلي لين بول) في ذلك من غضاضة فشيمة العلماء حب الحقيقة وحب الرجوع إليها لا تأخذهم في ذلك عصبية لرأي .

وقد أشار المؤلف على مترجم هذا الكتاب أن يلحق بآخره ملحقاً جديدا يضمنه الفصل الذي جاء في بحثه الأخير عن المقوقس ، وهو عبارة عن خطاب

نقدي موجه خاصة إلى الأستاذ (لين بول) قارع المؤلف فيه بالحجة الدامغة حتى أظهر حقيقة المقوقس وأنه لم يكن سوى (قيرس) .

على أنه لا تزال سحب من الشك تحوم حول نواح أخرى من ذلك الموضوع ، فما معنى المقوقس ؟ وهل كان لقباً خاصاً لقيرس أم كان لقباً لحاكم مصر ؟ وما كان اسم ذلك الحاكم ؟ ولماذا سمي جريج بن مينا أو ابن قرقب أو ابن فرقب ؟ وهل أطلق لقب المقوقس على سوى قيرس ؟ وإذا كان كذلك فمن الذي أطلق عليه اللقب قبل قيرس ومن الذي أطلق عليه بعده ؟ كل هذه أسئلة لا تزال الإجابة عنها تحتاج إلى بحث . على أننا إذا لم نستطع أن نجيب عن هذه الأسئلة إجابة باتة فإنا نستطيع أن نلمح إلى مذاهب الباحثين فيها .

وقد رأينا أن نلخص بحث المؤلف الذي سبق لنا ذكره حتى إذا ما أوجزنا تلخيصه ترجمنا الجزء الخاص بالمقوقس بنصه ، إذ هو المقصود من ذلك البحث .

ويتلخص ذلك البحث في معالجة المسائل الآتية :

(١) البحث في وقت « معاهدة مصر » ومكانها .

(٢) البحث فيمن كانا طرفي هذه المعاهدة .

(٣) البحث في معنى المعاهدة .

(٤) البحث في مبلغ صحتها .

(٥) البحث في شخصية المقوقس .

(١) البحث في وقت « معاهدة مصر » ومكانها

كان للمؤلف رأي ذهب إليه في كتابه هذا « فتح العرب لمصر » وهو أن المعاهدة التي يسميها مؤرخو العرب « معاهدة مصر » لم تكن في الحقيقة معاهدة عقدت في مصر ، بل كانت « معاهدة الإسكندرية » ، ولكنه في رسالته الأخيرة التي سماها باسم هذه المعاهدة وهي « معاهدة مصر في كتاب الطبري » عدل عن رأيه السابق وسلم بصحة ما ذهب إليه الطبري من أن تلك المعاهدة إنما كانت في مصر . غير أن المؤلف يحتفظ برأي خاص في المكان الذي

عقدت فيه فيقول إنها لم تكن المعاهدة التي عقدت عند تسليم حصن بـابليون (قصر الشمع) بل هي أن تكون المعاهدة التي عقـدت عند فتـح مدينـة مصر (قبل سقوط الحصن) وإما أن تكون المعاهدة التي تفاوض المقوقس مع عمرو في عقدها في أول حصار الحصن ، ولكن الإمبراطور هرقل رفضها ولم يـرض بها . ويذهب المؤلف إلى أن الرأي الأول هو الأقرب إلى الحقيقة في نظره .

(٢) البحث فيمن كانا طرفي هذه المعاهدة

ناقش الدكتـور بتلر رأي من يقولـون إن المعاهـدة كانت بين العـرب من جانب وبين القبط من جانب آخر ، وخرج من بحثه على أن المعاهدة إنما كانت بين رجال الدولة الرومانية بمصر من جانب والعـرب من الجانب الآخـر ، وأن رجال الدولة الرومانية بمصر كانوا يتعاقـدون مع العـرب عن أهل مصـر جميعاً سواء في ذلك القبطي والرومي واليهودي وسوى هؤلاء ، إذ كانت المعاهدة بين طرفين متحاربين ، وكان الجيش المدافع عن مصر جيش الدولة الرومانية ، وأما القبط فلم يكونوا أصحاب الدولة والجيش والحصون .

(٣).البحث في معنى المعاهدة

ليس في هذا البحث تعليق على موضوع من موضوعات كتابنا بـزيادة أو نقص أو تعديل ولهذا آثرنا تركه .

(٤) البحث في صحة المعاهدة

استعـرض المؤلف رأيين متـاقضين: الأول رأي الـدكتور (لـين بـول) وهـو يؤمن بما يقوله الطبـري إيمانـاً لا شك فيـه، والثاني رأي (ولهـاوزن) و(كايتـاني) وأولهما يشك في كل ما رواه (سيف) رواية الطبري، وثانيهما يرى أن معاهدة مصر على وجه الإجمال مشكوك فيها . ثم أبدى المؤلف بعد ذلك رأيه الشخصي إذ قال : « ولعل الصواب بين هذين الرأيين المغاليين » وجعل يبين أن المعاهدة إذا كانت صادقة فموضعها ليس عند تسليم حصن بابليون (قصر الشمع) كما يقول الطبري (وكان ذلك في ٩ أبريل سنة ٦٤١) لأن هرقل كان عند ذلك قد مات

ولم يكن المقوقس في مصر . وخلص من بحثه إلى أن تلك المعاهدة « في مجملها صحيحة ، ولكن تعيين موضعها الحقيقي في التاريخ من أصعب الأمور » ثم انتهى بعد ذلك كما سبق ، إلى أن المعاهدة « إما أن تكون المعاهدة التي كانت في شهر أكتوبر في وقت فيضان النيل وهي المعاهدة التي رفضها الامبراطور ، وإما أن تكون المعاهدة التي تمت عند تسليم مدينة مصر » .

(٥) البحث في شخصية المقوقس

لا حاجة بنا إلى الإعتذار عن ترجمة كل حجة المؤلف في هذا الباب كما أسلفنا ، وعلى هذا ندع الكلمة للمؤلف :

« قد سبق أن تكرر في بحثنا هذا اسم المقوقس في عرض الكلام عن طرفي المعاهدة ولم نخرج عن قولنا عند ذلك للكلام عن شخصيته . ولكن الدكتور (لين بول) قد تحدى مذهبنا الذي ذهبنا إليه من أنه هو (قيرس) البطريق الإمبراطوري وحاكم مصر من قبل الدولة الرومانية . وقد آن لنا أن نناظره ونقابل تحديه . وقد قبل كثيرون من صفوة العلماء في أوربا وفي مصر رأينا في المقوقس وإن لم يقبلوه كله فقد قبلوا منه جانباً ، ولكنا لا نريد أن نحتمي بظلهم ولا أن نقول إن رأيهم أرجح وزناً في نظرنا من انتقاد الدكتور (لين بول) ، ولهذا نرى أن نصمد لرأيه فنفحصه . قال الدكتور (لين بول) ما يأتي بعد أن عرض أدلتي التي أخذتها عن مؤلفات القبط وهي (كتاب ساويرس . وتقويم حياة القديسين . وحياة صمويل القلموني) :

« فإذا ذهبنا إلى أن ترجمة هذه النصوص صحيحة دقيقة ، وإذا قلنا إن هذه النسخ المخطوطة ، وأكثرها متأخر العهد ، منقولة نقلاً صحيحاً عن الوثائق الأصلية الأولى التي يعتمد عليها ، وليس لي أن أقول في هذا الأمر رأياً ـ إذا سلمنا بذلك كله خرجنا على أن هذه النصوص مجتمعة تدل على أن قيرس والمقوقس كانا في نظر هؤلاء الكتاب شخصاً واحداً . وهذا رأي لا يكاد ينازع فيه أحد ، غير أن دوننا سؤالاً واحداً وهو هل كان هؤلاء الكتاب ممن يعتمد على قولهم ؟ .

وقـال : « وكل المسـألة تـدور حول قـطب واحد ألا وهـو مقدار تصديق كـاتبين أو ثـلاثـة من كتـاب القبط من جهـة وسلسلة مؤرخي العـرب من جهـة أخرى . وإنا إذا لم يكن لدينا غير هذه النصـوص القبطيـة والأثيوبيـة لكان من المحتمل أن نقول إن البرهان قد تم على أن شخص المقوقس هو قيرس ، ولكنا إذا نظرنا إلى سلسلة كتب المؤرخين من العـرب تلك السلسلة الطويلة التي لا يزال بعضها باقياً ، في حين أن بعضها ضاع ولم يبق منه إلا ذكره فيما تخلف من الكتب الباقية ، وإذا رأينا أن تلك السلسلة لا توجد في أي فرد منها أقل إشارة إلى أن المقوقس هو قيرس، إذا رأينا ذلك لم يسعنا إلا أن نرى دليلهم قاطعاً ولو أنه دليل سلبي . إذ كيف لا يذكر واحد من هؤلاء المؤرخين أن المقوقس كان قسيساً بل رئيس أساقفة ؟ ولم يسمونه باسم (جريج بن مينا) أو (ابن قرقب) إذا كان اسمـه الحقيقي قيـرس ؟ ولم يـذكـر أبـو صـالـح أن هـرقــل جعـل على مصـــر (جـريج بن مينـا المقـوقس) ؟ وأبـو صـالـح كـاتب مسيحي كتب حـوالي سنـة ١٢٠٠ للميلاد . ولم نراه ينقل عن كتاب « الجناح » أن أسقف الروم في مصر والإسكندرية كان اسمه قيرس ؟ وكيف لا نجد مؤرخاً ممن كتب عن مصر سواء أكان مسلماً أم مسيحياً يذكر صراحة أن لفظ المقوقس كان لقباً أو نعتـاً نعت به البطريق المقوقس ؟ » .

وقد أطلنا في إيراد هذه النبذ لأنا حريصون على أن نعرض حجة الدكتور (لين بول) عرضاً تاماً لا مواربة فيه ولا مواراة . فمجمل قوله إذن أنه يريد أن يجرح الدليل الذي أخذناه عن الموارد القبطية بأن يورد دونها نتـائج سلبيـة من كتب العرب ، ويصل إلى تلك النتائج من سكوت هذه الكتب وإغفالها وخلطها في ذلك الموضوع .

فلنبـدأ بذكـر المؤرخين العرب . فـإن ذلك الـدليل السلبي المتخـذ من سكوتهم له قيمة كبرى في البرهان ولكنه لا يدل عـلى أكثر من أن المؤرخـين العرب ليس لديهم عن هذا الأمر شيء سوى شك وخلط ، وأنهم في ذكرهـم لأخبـاره يبـدون أكبر الإضـطراب والتناقض . وليس خلطهم في ذكـر الأخبار إلا نتيجـة

لاختلاط الأمر عندهم واستغلاقه عليهم ، ولئن كان ثمت شيء مؤكد فهو أن مؤرخي العرب تلقفوا المقوقس سماعاً أو رواية نقله بعضهم عن بعض بغير أن يفهموا له معنى وأن الاسم بقي بينهم دون سواه واختلط عليهم الاسم الحقيقي للشخص الذي كان يلقب به ، فحسبوا ذلك لقباً مبهماً أصله غير عربي يطلق على حاكم مصر . فهم يسمون حاكم مصر في زمن النبي المقوقس ويسمون حاكمها في زمن الفتح المقوقس . ولا يهمنا كثيراً فيما نحن بصدده من الحجة أن نبحث في أول ما استعمل العرب ذلك اللقب له ، أأطلقوه على حاكم مصر في وقت رسالة النبي ثم أطلقوه بعد ذلك من باب التوسع والتمثيل على حاكم مصر في زمن الفتح أم قد سمعوه (كما نظن نحن) أولاً في زمن الفتح ثم أطلقوه خطأ على الحاكم الذي جاءته رسالة النبي ؟ وعلى أي حال فقد كان ذلك اللقب يطلق على العامل على مصر من قبل إمبراطور الروم أي على الحاكم العام لمصر[1] . على أن الدكتور (لين بول) عندما رأى ما ينبني على التسليم بهذا الأمر حاول أن يتخلص من ذلك على النحو الآتي :

قال : « هذا هو الدليل الإيجابي للدكتور بتلر فإن الإتفاقات التي يبني عليها حكمه أيضاً هي أن قيرس من جهة والمقوقس من جهة أخرى كان كلاهما حاكماً على مصر من قبل هرقل ، وأن مؤرخي اليونان وحنا النقيوسي كلاهما يذكرون أن قيرس صالح العرب ، وأن مؤرخي العرب يذكرون أن المقوقس صالح العرب . ولكن هذه الإتفاقات يمكن أن نفسرها تفسيراً آخر بأن المقوقس كان حاكماً تابعاً قام بمصالحة العرب ، وأن قيرس البطريق والحاكم الأعلى أقر ما قام به تابعه وبعث بذلك إلى الإمبراطور » .

فأنت ترى أنه أراد أن يتحاشى أن يقول إن المقوقس كان هو قيرس عينه فلجأ إلى أن قال إنه لم يكن بالحاكم الأعلى على مصر بل كان حاكماً تابعاً . وقد مضى في رأيه هذا فخلص إلى نتيجة وهي « ولا يدلنا ما نجد من الأدلة في

---

(١) قول المؤلف هنا ذو دلالة عظمى لأنه قد غير رأيه الأول في معنى لفظ المقوقس على ما يلوح وسلم بأنه يقصد به الحاكم العام على مصر إطلاقاً . (المعرّب) .

تواريخ العرب إلا على أن المقوقس قد يكون تيودور ، لا يقف في سبيل ذلك إلا الاسم » . ويقصد بتيودور حاكم الإسكندرية الحربي . وفي الحق أن المقوقس إذا كان هو تيودور فإنه لا يكون (جريج بن مينا) ، والحقيقة أن اسم (جريج بن مينا) لا يناسب شخصاً من أشخاص هذا التاريخ العجيب المليء بالحوادث ولا يتفق مع نظرية من النظريات التي أقيمت لتوضيحه ويجب أن نعده اسماً مغلوطاً[1] . فلنمضِ الآن إلى فحص أقوال مؤرخي العرب لنرى بأي وصف يصفون المقوقس ولنبدأ بالطبري . فلا ينكر أحد أنه يفرق في رواية من رواياته بين المقوقس وبين جاثليق مصر . فلننظر فيما هو المقصود من لفظ جاثليق مصر . فهو لفظ لا يطلقه أحد إطلاقاً صحيحاً على عظيم من عظماء رجال الكنيسة ولم يستعمله أحد لذلك المعنى فهو إصطلاح أرمني أو سوري أو نسطوري ، وقد عرفه الطبري في طبرستان أو في بغداد ثم أطلقه خطأ في مصر ، ولا شك في أن معناه (المترانوس) ، ولكن ليس من اللازم أن يقصد به البطريق . وفوق ذلك قد رأينا أن لفظ مصر له مدلولان إما قطر مصر وإما مدينة مصر ، وعلى ذلك فجاثليق مصر قد لا يكون معناه سوى (مترانوس مدينة مصر) ، في حين أن الدكتور لين بول وسواه يفسرونه عادة تفسيراً غير ممكن إذ يجعلون معناه (بطريق القطر المصري) ، وإنه من المحتمل أن يكون قد وجد بمدينة مصر (مترانوس) غير بطريق القطر كله ، فإنه من المعروف أنه قد كان لمدينة مصر أسقف ، وقد ورد اللقب كثيراً في التاريخ القبطي ، وقد كان في بابليون أسقف وهو أسقف حصن بابليون ، وكان في منفيس أسقف وفي حلوان أسقف ، وقد كان أسقف مصر مقدّماً على سائر أساقفة ذلك الإقليم . وكان لقب

(١) إذا جاز لنا إبداء رأي عن لنا مما رأيناه من عرض الآراء المختلفة في ذلك الأمر أمكن أن نقول إن اسم (جريج بن مينا) قد يكون اسم حاكم مصر في الوقت الذي بعث فيه النبي عليه الصلاة والسلام بكتابه إلى مصر وقد كان الحاكم الأعلى والبطريق الملكاني في مصر قبل قيرس هو (جورج) الذي ذكره الدكتور بتلر في كتابه هذا « فتح العرب لمصر » فيكون هو الذي أتاه كتاب النبي عليه الصلاة والسلام . وقد يكون العرب أخذوا اسمه وأطلقوه خطأ على الذي جاء بعده .

(مترانوس) يطلق فوق ذلك على أسقف دمياط وإنه من العسير أن نتصوّر أن أسقف مصر ـ وقد كانت العاصمة الثانية بعد الإسكندرية ـ يكون أقل شأناً وأحط مقاماً من سواه ، وذلك إذا لم يكن (مترانوس) . ويجمل بنا أن نذكر هنا أننا نرى أنه من المحال أن يقال بطريق مصر لأن هذا يكون لقباً غير ممكن الوجود . فقد كان البطريق يقال له (بطريق الإسكندرية) ، ولم يطلق عليه غير ذلك اللقب أبداً ، ولم يذكر مرة لقب (بطريق مدينة مصر) أو (بطريق القطر المصري) . وإنا إذا استعملنا ذلك اللقب كنا في الخطأ كمن يذكر في بلاد الإنجليز (كبير أساقفة إنجلتره)[1] . ولقب (مترانوس مصر) ليس مستمداً من الظن والحدس إذ قد وجدناه مستعملاً حوالي سنة ٧٥٠ للميلاد إذ وصف رجل اسمه تيودور بأنه كان (المترانوس أسقف مصر) .

فإذا نحن ذهبنا مع هذا الرأي زالت من أمامنا كل الصعاب التي نشأت من التمييز بين الجاثليق والمقوقس ، فقد كانا شخصين متفرّقين ولم يقل أحد مرة أن أسقف مصر كان هو المقوقس . وكذلك إذا اتبعنا ذلك الرأي زالت الصعوبة الناشئة من اسم (أبو مريام) ، فإنا لا نقول عند ذلك أن هذا الاسم غير ممكن ـ وهذا خطأ وقعنا فيه واتبعنا فيه الدكتور لين بول ـ بل نكتفي بأن نقول إن وجود هذا الاسم في الموضع الذي يذكر فيه مشكوك في صحته ، ويصح لنا أن ننبه إلى أمر نظن أنه لم يتنبه له أحد من قبل وذلك أن هذا الاسم يطلق على المسيحي الذي أسلم في بلهيب كما ذكره الطبري في روايته عن أخبار تسليم الإسكندرية إذا قال إن اسمه عبد الله عبد الرحمن أبو مريام ، ولا شك في أن الإسمين الأوّلين إضافتان من المسلمين على الاسم الأصلي فذلك الاسم على ذلك ممكن . غير أن إطلاقه على (أبو مريام المترانوس) و (أبو مريام الأسقف) ثم (أبو مريام الذي أسلم) ـ نقول إن إطلاقه على كل هؤلاء دليل قاطع على الخلط الذي لا يمكن معه التأكد من تلك التسمية . على أننا إذا قلنا إن أسقف مدينة مصر وأسقفاً آخر هما اللذان قابلا عمراً لم يكن في ذلك شيء

(١) يقال دائماً في انجلتره « كبير أساقفة (كنتر بري) » .

يتعارض مع رأينا في معنى عبارة الطبري فإنها تفيد أنهما قد أرسلا من قبل المقوقس ثم عادا إليه . والحق أن هذا التفسير يتفق مع رأينا إتفاقاً حسناً .

وقبل أن ننتقل من القول في عبارة الطبري يجب علينا أن ننبه إلى تناقض في قوله فبينا هو يقول في رواية إن عمراً عندما جاءه الزبير ممدّاً قابله أبو مريم وأبو مريام وقاتلاه ، إذا به يقول في رواية أخرى إن عمراً والمقوقس إلتقيا في عين شمس والتحم جيشاهما في القتال . ولسنا نرى موضعاً للشك في أن هاتين العبارتين تشيران إلى حادثة واحدة ، وهذا مثل من الأمثلة التي تدل على ضرورة درس روايات الطبري مفردة ثم قرن بعضها إلى بعض ودرسها معاً . فإذا سلمنا بأن الحادثة المقصودة واحدة وأن رواية من الروايتين تشير إلى أن جاثليق مصر هو الذي قابل عمراً ثم أعقب ذلك وقعة عين شمس ، وأن الثانية تشير إلى أن المقوقس هو الذي فعل ذلك أمكن أن نقول إن المقوقس هو جاثليق مصر وأن ذلك الجاثليق قد يكون جاثليق القطر المصري أي أنه قد يكون هو البطريق قيرس . وإذا صح ذلك كانت الرواية التي تميز قيرس وتجعله شخصاً آخر غير المقوقس رواية مخطئة . ويجب أن نذكر أنه لا يصح أن نثق بمختلف الروايات ثقة متساوية إذا كانت روايات متناقضة ، فيجب علينا أن نميز بينها ونوازن بين دلالاتها لنرى أيها أوثق وأصدق .

وإن قول الطبري إذا فسرناه على وجهه يتفق مع رأينا الذي نريد البرهان عليه لا بل إنه يعززه ويدعمه ويصح لنا أن نزيد هنا أننا لا نجد كلمة واحدة في تاريخه تشير تلميحاً أو تدل صريحاً على أن المقوقس كان تابعاً من أصاغر العمال في الدولة .

والآن فلننظر إلى المؤرّخين الآخرين لنرى إذا كان أحدهم يعزز حجة الدكتور (لين بول) . فقد جاءت في تاريخ ابن عبد الحكم (حوالي سنة ٨٥٠ للميلاد) عبارة ذات شأن ، ونرى بحسب علمنا أنه لم يلتفت إليها أحد في هذا الصدد ، فقد جاء فيه قوله : « فوجه هرقل ملك الروم المقوقس أميراً على مصر وجعل إليه حربها وجباية خراجها ونزل الإسكندرية » . فما معنى هذا القول

سوى أنه كان الحاكم الأعلى بمصر ؟ وإذا كان ابن عبد الحكم يذكر أن المقوقس كان على جباية الخراج في مصر فقد ذكر ذلك أيضاً سعيد بن البطريق (٨٧٦ ـ ٩٣٩) كما أن قوله هذا يوافق ما جاء في وثيقة قبطية متخلفة من القرن السابع وفيها ذكر زيارة (المقوقس البطريق الكاذب) لدير القلمون وفيها يوصف ذلك البطريق بأنه « مراقب الخراج في أرض مصر » . ولا شك في أن هذا الدليل ذو خطر عظيم . وقد ذكرت هذه الحادثة عينها في النسخة العربية من التقويم القبطي لحياة القدّيسين فقد جاء فيه صراحة أن الشخص الذي حاول أن يجعل صمويل يعترف بالعقيدة الخلقيدونية أو الملكانية كان اسمه المقوقس . وهذا دليل واضح على أن لفظ ⲡⲕⲁⲩⲭⲓⲟⲥ، هو الأصل القبطي للفظ (المقوقس) . وفوق ذلك جاء في وثيقة مخطوطة أخرى وصف (البطريق) بعد اسم المقوقس . وعلى ذلك فقد قام الدليل من هاتين الوثيقتين القبطيتين على أن الشخص الذي كان مراقباً للخراج في مصر هو المقوقس كما قال ابن عبد الحكم وكذلك كان هو البطريق الملكاني وكبير الأساقفة ، أي قيرس .

ولكنا نجد فوق ذلك اتفاقاً آخر يسترعي النظر بين ابن عبد الحكم ومؤرخ آخر مستقل عنه : فقد ذكر المؤرخ العربي عبارتين عن المقوقس : إحداهما تنص على عمله الحربي ، والأخرى تنص على عمله في جباية الأموال . فأما فيما يخص جبايته للمال فلدينا دليل واضح يعزز ذلك في وثيقة قبطية : وأما فيما يخص عمله الحربي فإنا موردون هنا تعزيزاً عجيباً نأخذه من وثيقة سريانية تخلفت من القرن السابع ولم يمض على كشفها إلا زمن قصير ألا وهي (الديوان المجهول الكاتب) (Chronicon Anonymum) وقد ترجمها وعنى بنشرها الأستاذ جويدي وطبعها بين مجموعة الدواوين الصغرى (Chronica Minora) وكانت كتابتها في القرن السابع بعيد فتح العرب لمصر. وقد جاء فيها أن العرب قد عاقهم عن الفتح في أوّل الأمر أن حدود مصر كان يدافع عنها جيش قوي كبير حشده بها بطريق الإسكندرية . وهذه العبارة إذا سمعها الإنسان أوّل مرة أنكرها ولم يكد يصدقها إذا هو سمعها وحدها . فأنى لبطريق أن يدبر هذه الأمور الحربية المحصنة؟ ولكنا إذا عرفنا أن البطريق كان عند ذلك قيرس، ولا ينكر

أحد أنه قد كان، وإذا كان قيرس هو المقوقس، كانت عبارة هذه الوثيقة السريانية القديمة متفقة كل الاتفاق مع وصف ابن عبد الحكم لحاكم مصر وأنه كان صاحب الحرب المطلق فيها.

حسبنا هذا من ابن عبد الحكم. ومن الواضح أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أنه يذكر أن المقوقس أرسله هرقل الى مصر وجعل له حربها وجباية خراجها، ولا يمكن أن يكون هذا وصف عامل تابع من الأوساط. وقد قام البرهان على أن قول هذا المؤرخ العربي قد عززته وثيقتان: إحداهما قبطية، والأخرى سريانية تكادان تكونان مما كتب في عصر الفتح العربي أو قد كتبتا فيه.

البلاذري (٨٠٩ ـ ٨٩٢ للميلاد) ـ ليس قوله في المقوقس شديد الدقة فهو يذكر أنه صالح عمراً على عهد ثم رده هرقل، ونحسب المقصود بذلك معاهدة مصر، ثم يذكره بعد ذلك قائداً في الإسكندرية في مدة حصار العرب لها، ثم يذكر أنه فاوض عمراً في تسليم المدينة. ولم ترد في تاريخ هذا المؤرخ كلمة واحدة تعزز قول من يقول إن المقوقس كان عاملاً تابعاً. وفي الحقيقة يتفق ما جاء في تاريخ البلاذري في هذا الشأن مع ما جاء في كتاب حنا النقيوسي من أخبار قيرس.

اليعقوبي ـ (المتوفى سنة ٨٧٣ للميلاد) ولم يكن من أهل مصر وهو يذكر أن المقوقس صالح عمراً وأن هرقل رد ذلك الصلح.

ابن الأثير ـ (١١٦٠ ـ ١٢٣٢ للميلاد) والظاهر أنه ينقل عن الطبري ولكنه يصف (أبو مريم) بأن المقوقس أرسله ليقابل عمراً ويصفه بأنه جاثليق منفيس، وهذا يدل على أنه فهم من لفظ (جاثليق مصر) أنه يقصد به أسقف مدينة مصر وليس بطريق الإسكندرية. وعلى ذلك فليس في قول ابن الأثير ما يناقض الأدلة على أن المقوقس كان هو قيرس بعينه. ويصح لنا هنا أن نزيد على ذلك أن مؤرخي العرب لم يميزوا تمييزاً واضحاً بين الأسقف وبين كبير الأساقفة. فإن أبا المحاسن يذكر (أبو مريم) بأنه كان جاثليق مصر ثم يذكر (بنيامين) بأنه كان أسقف الإسكندرية. وكذلك ليس لفظ (أسقف رومة) باللفظ الغريب عن عرف

التاريخ. بل إنه يرد في الأخبار هكذا (ويقصد به بابا رومة)، ولكن ابن الأثير يذكر أن المقوقس أمر بالقتال في عين شمس متبعاً في ذلك رأي الأطربون الحربي. ويذكر كذلك أنه فاوض في الصلح في الإسكندرية. وعلى ذلك فليس في قول هذا المؤرخ ما يعزز قول من يقول إن المقوقس كان عاملاً تابعاً.

ياقوت - (١١٧٨ - ١٢٢٨ للميلاد) يذكر أن المقوقس هو صاحب الصلح الذي عقد باسم القبط والروم وأنه صالح على شرط أن ينفذ بالعهد إلى الإمبراطور ليقره وهذا دليل على أن هذا المؤرخ كان يعده حاكم مصر.

المكين - (١٢٠٥ - ٧٣ للميلاد) يذكر أن المقوقس كان حاكم مصر من قبل هرقل - أي أنه كان نائب الملك فيها.

ابن دقماق - (حوالى ١٣٥٠ - ١٤٠٦ للميلاد) يروي عن ابن وهب أنه روى عن الليث بن سعد أن المقوقس الرومي الذي كان ملك مصر صالح عمراً.

المقريزي - (١٣٦٥ - ١٤٤٢ للميلاد) يروي عن يزيد بن أبي حبيب أنه قال إن المقوقس الرومي كان والياً على مصر وأنه صالح عمراً، ويقول إن قائد الحصن (أي بابليون) كان (الأعيرج) من قبل المقوقس، ويذكر بعد ذلك أن المقوقس كان حاكم البلاد من قبل هرقل. ويذكر أنه عقد صلح مصر وأن الامبراطور رده ولم يقره. وأنه لام ذلك الحاكم النائب عنه على أنه رضي «أن يكون ومن معه من الروم في حال القبط أذلاء» الخ. وليس ثمت ظل من الشبهة في أن المقريزي يعد المقوقس نائب الملك في مصر.

أبو المحاسن - (١٤١١ - ١٤٦٩ للميلاد) وهو يذكر أن قائد قصر الشمع (أي حصن بابليون) كان (الأعيرج) من قبل المقوقس.

ويقول هذا المؤرخ مرة أخرى: «ثم بدأ حصار الحصن وكان قائده المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليوناني» ثم يذكر بعد ذلك عظماء المصريين وحاكمهم المقوقس، فلم يكن ثمت شك في أمره ولم يظن أبو المحاسن أنه كان عاملاً تابعاً.

السيوطي - (١٤٤٥ - ١٥٠٥ للميلاد) وكان مثل أبي المحاسن متفقاً معه في الرأي فقال إن الإمبراطور هرقل رد صلح المقوقس مع العرب وأمثال ذلك القول.

وها نحن قد عرضنا أدلة مؤرخي العرب واخترنا ما بها من تعريف بسلطة المقوقس وعمله في مصر مبتدئين بابن عبد الحكم إلى أن انتهينا بالسيوطي، وذلك كيما نقابل العبارة التي أوردها الدكتور (لين بول) وهي أن أقوال مؤرخي العرب وأدلتهم يؤخذ منها أن المقوقس قد يكون حاكماً من الأتباع أو عاملاً من العمال من قبل الحاكم العام بمصر. وإذ قد فرغنا من عرضنا هذا فماذا نحن واجدون؟ إنهم جميعاً لا يشذ منهم أحد يصفونه بأنه ملك أو أمير أو يصفون عمله في عبارات لا يمكن أن تفيد إلا السلطان الأعلى في مصر، وعلى هذا لا يمكن أن يقال شيء عن المؤرخين العرب سوى أن قولهم إنما يدل على أن المقوقس كان الوالي على مصر من قبل هرقل. ولا يمكن أن تعزز عباراتهم رأياً آخر يذهب إلى أن عمله كان عمل تابع في المحل الثاني. وإذاً فقد كان المقوقس حاكم مصر من قبل الإمبراطور كما قال عنه ابن عبد الحكم.

هذا الذي قلناه يلوح لنا ثابتاً ثبوتاً لا بأس به - ولكن الدكتور (لين بول) إذا كان قد لجأ إلى رأيه ذلك فقال إن المقوقس كان عاملاً تابعاً إذ لم يجد رأياً سواه يلجأ إليه كي يتخلص من أن يقول إن المقوقس كان هو قيرس بعينه، فقد صارت حجته الآن واهية لا يقوم لها قائم بعد أن ثبت أن هذا الرأي لا يتفق مع دلالة المؤرّخين العرب الذين اعتمد على اقوالهم وبنى رأيه على دلالتهم.

غير أن حجته كانت ذات شعبتين. الأولى إن قول المؤرخين العرب ينقض قول من يقول إن المقوقس كان هو قيرس. والثانية إن قول المؤرخين القبط لا يصح تصديقه ولا الأخذ به. وقد بينا في قولنا السالف فساد الشعبة الأولى من حجته وأظهرنا بطلانها فلنمض الآن إلى الشعبة الثانية لنرى محاولته تجريح المؤرخين القبط وإثبات فساد قولهم. حقاً لسنا ننكر أننا قلنا في مقدّمة كتابنا «فتح العرب لمصر» إن بعض وثائق قبطية سميناها ليس لها كبير قيمة.

ولكن هذا القول قد اتخذ في الحجة سلاحاً لحربنا وكان في ذلك بعض شيء من الظلم لنا، فإنما أوردنا سبباً لرأينا هذا الذي قلناه وهو أن أولئك المؤرّخين القبط «كانوا يستطيعون أن يدلونا على كثير لكنهم لا يوردون إلا النذر اليسير من الأخبار، ويلمحون تلميحاً عرضياً إلى تاريخ عصرهم»، ولكن من الواضح أنه ليس من العدل في شيء أن تغفل كل الأخبار التي يوردها المؤرخون القبط بحجة أنهم لا يوردون أكثر منها. فإن الإشارة التي في هذه الوثائق والتلميح الذي يبدو منها إلى حوادث التاريخ يجيء فيها عرضاً بغير قصد. وإذا كانت تلك الإشارة يقصد بها أولئك المؤرخون الحوادث التي تجري في عصرهم كانت ذات قيمة لا تنكر ولا يجحد فضلها. وقد سبق لنا أن أظهرنا أعظم التقدير للوثيقة القبطية المخطوطة التي تخلفت من القرن السابع وهي الوثيقة (البودلية) التي تحكي قصة زيارة البطريق الملكاني لدير القلمون، وبينا أنها تتفق مع ما جاء من ذكر هذا الحادث في النسخة العربية من تقويم حياة القدّيسين (وفيها يذكر اسم الزائر أنه المقوقس). فهل كنا لنرفض مثل هذه الحجة ونغفلها؟ لا بل لقد فعلنا عكس ذلك إذ بينا أن وثيقة أخرى سريانية متخلفة عن القرن السابع تثبت أن قيرس كان صاحب السلطة الحربية في مصر. ولنا أن نزيد هنا أن جمع السلطة العليا في أمور الدين والدنيا معاً في شخص واحد لم يكن بدعة جديدة، بل كانت له سابقة واضحة في القرن السادس. فقد عرض جستنيان على تيودوسيوس أن يكون بطريق الإسكندرية وحاكم مصر معاً إذا هو قبل كتاب ليو ومذهبه الديني. وإذا كان الأمر كذلك لم يكن عجباً من هرقل أن يجمع الرياستين في شخص قيرس. وقد أورد ساويرس هذين الخبرين أو لعلهما وردا في تاريخه ـ فإن ديوان تاريخه وما أضيف إليه بعده مجموعة قيمة من الأخبار يُقرُّ أهل البحث والدرس لها اليوم بالفضل ولسنا ننكر أننا لم نذكر ذلك الكتاب من قبل بما يليق به من الإكبار، ولكنا عندما ذكرناه من قبل لم نكن على علم كامل به إذ كان عند ذلك نسخة مخطوطة. غير أنه الآن قد أصبح جله منشوراً وقد قال عنه المستر (Evetts) وهو الذي ينشره مع ترجمة له: « إن تاريخ بطارقة الإسكندرية هو الكتاب العمدة في تواريخ البطارقة للكنيسة القبطية والجزء الأول

منه مجموعة جمعها ساويرس أسقف الأشمونين بالصعيد نقلها عن وثائق يونانية، وأخرى قبطية، وجدها في الأديرة التي في بلاده فترجمها بمساعدة بعض القسوس القارئين. وقد صار كتاب تاريخ البطارقة أتم وأكثر فائدة وأكبر قيمة منذ القرن السابع، ولا سيما في وقت فتح العرب، فنجد فيه سلسلة من تواريخ حياة حقيقية كتبها كتاب من أهل عصرها». وليس يخالف أحد هذا الرأي إذا كان ممن درس كتاب ساويرس حق دراسته. ولما كنا نر أحد سبق إلى بحث في هذا الأمر دعمه بالحجة وعزَّزه بالرأي كان لنا أن نجرؤ على بيان بعض الأسباب التي تبرر إجلالنا لساويرس وإكبارنا له كحجة في التاريخ. يظهر أنه قد جرت العادة منذ أقدم الأزمان على أن تكتب أخبار الكنيسة القبطية في صورة تراجم للحياة على الأكثر، وعلى أن تحفظ في مكتبة الدير المعروف دير مقاريوس في وادي النطرون، ولم يكن مأمن أصلح لذلك الغرض من ذلك المكان وراء أسوار ذلك الدير المحصن البعيد في الصحراء. وقد حفظت في ذلك الدير الوثائق المخطوطة التي استمد منها ساويرس تاريخه وقد وجدت فقرة مؤرّخة في أوّل يونيه من سنة ١٠٨١ للميلاد قد أضيفت إلى ذلك الديوان وفيها ما يلي: « إلى هنا انتهى الفصل السادس عشر الذي تم به تاريخ الآباء إلى سيمون الثاني واربعين من البطارقة وسيلي ذلك ما ترجمناه عن الوثائق في دير القدّيس مقاريوس وهو تاريخ البطارقة من ميخائيل الأخير الى سنوتيوس الأوّل. وقد ترجمنا في هذا الدير تاريخ حياة تسعة آخرين من البطارقة في سنة ٧٩٦ للشهداء (سنة ١٠٨٠ للميلاد). وقد كتب هذا (أبا قيروس) الدمنهوري بمشيئة الله التي أعانتنا على أن نجد هذه الأخبار في دير القديس مقاريوس بمساعدة الأخ تيودور الخازن بن بولص في يوم الأحد السادس من شهر بؤونة من عام ٧٩٧ للشهداء الأكرمين. وقد قارنا الوثائق بعضها إلى بعض ووجدنا أنها تتفق مع ما لدينا من الصور فاقتنعنا بصحتها».

وهذا خبر يدل على دراسة المصادر الأصلية بعناية ودقة ومحاسبة للنفس. وفي استطاعتنا أن نرى مثل هذا السعي الدقيق متصلاً إلى ما قبل هذا التاريخ بنحو أربعة قرون. فإننا نجد نبذة أخرى نعلم منها أن الحوادث التي وقعت إلى

أيام خلقيدونية و «ديوسكوروس» (حوالي سنة ٤٥٠ للميلاد) كانت «تدوّن في الجزء الثاني عشر من دواوين تاريخ الكنيسة» ثم إذا أردنا أن نطّلع على تاريخ الحوادث من أيام (قيريل) إلى أيام الإسكندر «أمكن أن نجد ذلك في كتاب المعلم الكاتب جورج كبير شماسي البطريق سيمون وكاتبه» (٦٨٩ ـ ٧٠١ للميلاد) وقد كتب ذلك الرجل كذلك تاريخه في دير القديس مقاريوس ـ ويقول الكاتب بعد ذلك «وعلى ذلك فأنا العبد المخطىء الذليل أرجوكم أن تدعوا لي السيد المسيح أن يفك عقدة لساني الضعيف وأن يشرح قلبي المظلم وأن يهب لي من البيان ما أستطيع به أن أبين لكم أيها الإخوان وأيها الأب ما سألتموني بيانه. ولست أرجو أن أبين لكم شيئاً أكون فيه معلماً لكم أو مرشداً أتعالى به عليكم بل أكون فيه باحثاً دارساً إذ قد رأيت بعيني ما كتبت. وإن عظم الحوادث التي رأيتها تجعل من واجبي أن أدونها ـ ذلك عدا ما سمعته ممن هم أكبر مني سناً من أصحابي الذين أثق في قولهم واعتمد على صدقهم. والسيد المسيح يعلم أننا لم نزد شيئاً على الحقائق بل قد ذكرنا ما وقع إلى أيام وفاة الأب المرْحوم تيودور بطريق الإسكندرية، وما جرى من أمور الدول في أيامه إلى آخر الفصل السابع عشر من التاريخ الذي أتممناه آنفاً» (أي إلى سنة ٧٤٣ للميلاد). ثم قال المؤرخ «والآن فإنا كاتبون الفصل الثامن عشر من تاريخ الكنيسة». ثم بعد بضعة أسطر من هذا تراه يعلق على عبارة من عباراته فيقول «إذ قد شهدنا بأعيننا مرار عدّة» ثم قال أيضاً «وأقاموا ملكاً اسمه قرياقوس (في بلاد النوبة) وبقي ملكاً إلى اليوم الذي نكتب فيه هذا التاريخ». وفي هذا دليل على أن الكاتب يكتب عن عصره في القرن الثامن من الميلاد. وقد كان ذلك المؤرخ كاتباً لموسى أسقف أوسيم بالقرب من الجيزة وهو يتكلم دائماً عن نفسه في ذكر الحوادث فيقول مثلاً «فذهبنا إلى القصر وكان معنا الأباتيودور أسقف مصر»، إلى غير ذلك ويقتبس قطعة من مذكرات البطريق ميخائيل (في موضوع دير مينا بقرب مريوط) وقد أرسلت تلك المذكرات إلى كاتب عبد الملك. ونرى ذلك المؤرّخ من جهة أخرى يدافع عن نفسه لحذف بعض الحوادث بقوله «وقد ذكرنا هذه الأمور في كتاب تاريخ حياة (ميخائيل) وهو منفصل عن هذا التاريخ». ولكنه يذكر بعد

ذلك حوادث تاريخية مثل موت مروان فيقول «وقد قتلوه ومثلوا به ونكسوا رأسه بعد أن أسروه وقد كنا من شهود هذا الحادث».

وفي القرن السابع كتب كاتب في ذلك التاريخ ترجمة حياة حنا الثالث (٦٧٧ ـ ٨٦ للميلاد) ووصف قصة رحلة حنا الأخيرة إلى الإسكندرية فقال: «وكان كاتب هذا الخبر معه فإنه كان ابنه في الله». ويمضي الكاتب بعد ذلك في ذكر تفاصيل دقيقة لا يستطيع أن يورد مثلها إلا كاتب من أهل العصر نفسه.

وبعد فإن كثيراً من الأمور التي يشير إليها الكاتب في تاريخ ساويرس يمكن تحقيقها وقد ظهرت صحتها ظهوراً جلياً، فمثلاً جاء في أخبار سيمون الأول قوله: «وفي يوم من أيام الأحد جاءت الأخبار إلى الأمير أن جيش الروم ثار بالملك جستنيان وعزله وولى مكانه (ليونتيوس)». وقد كانت ولاية سيمون للبطرقة من ٦٨٩ إلى ٧٠١ للميلاد أو هي إلى سنة ٧٠٠ للميلاد وكان عزل جستنيان الثاني في سنة ٦٩٥. ومثل آخر قوله: كانت مملكة الروم في ذلك الحين تتخبط تخبط الصبية في لهوهم، فإن الروم بعد أن عزلوا ملكهم جستنيان جعلوا مكانه (ليونتيوس) ملكاً عليهم ولكنه قتل قبل أن يتم السنة الثالثة من حكمه ووليَ بعده (أبيماروس) ويسمى (تيبريوس) وبعده ولي (فليبيكوس) وبعد سنتين ولي (انستاسيوس) ملكاً على الروم ولا يزال يلي الملك. (وقول الكاتب «ولا يزال يلي الملك» يقصد به الوقت الذي كان يكتب فيه تاريخه).

ونرى أنه يكفينا مثل آخر بعد هذه الأمثلة ـ وذلك عندما كان قرّة الظالم والي مصر ـ فقد جاء عنه أنه عسف بالناس عسفاً شديداً وابتزّ أموالهم واستصفى أملاكهم الخاصة وأراضيهم وأرزاقهم وأوقافهم حتى صار الناس إلى الفقر المدقع؛ قال الكاتب: «فجعل الناس يهربون من مكان إلى آخر ولكن لم يعصمهم منه مكان» فإن قرّة كان يرسل رسله وراء الهاربين. قال الكاتب عن هؤلاء الرسل إنهم يجمعون الهاربين من كل مكان ويرجعونهم إلى بلادهم مقيدين ويعاقبونهم. وهذه الأخبار كلها تذكر على أنها وقعت في أيام بطرقة الإسكندر الثاني (٧٠٥ ـ ٣٠ للميلاد) وهذه الحقائق قد ثبتت بغير شك عندما

كشفت ورقة البردى المسماة (أفروديتو) إذ جاء نفس الخبر ـ عن هروب الناس ـ في تلك الوثائق اليونانية وتاريخها (٧٠٨ ـ ٧١٠ للميلاد). وهذا الاتفاق بين الخبرين دليل قوي على دقة كتاب «تاريخ البطارقة».

حقاً إنه لا يمكن في بعض الأحوال أن نعرف الكاتب الحقيقي لخبر من أخبار ذلك الديوان، وسبب ذلك أن التراجم والوثائق الأخرى التي أدخلت فيه قد كتبها كتاب مختلفون في مدّة حياة البطارقة المتعاقبين أو بعد موتهم بقليل. وعلى ذلك فإن حكاية الكاتب عن نفسه يقصد أشخاص مختلفون، فمثلاً قال المصنف في آخر ترجمة حياة ميخائيل الأوّل: «وقد بقي البطريق على كرسي الكرازة ثلاثاً وعشرين سنة ونصف سنة، كما وجدنا ذلك في مكتبة دير القدّيس مقاريوس إلى سنة ٧٦٨» ولا يمكن أن يكون هذا المصنف هو عين الكاتب الذي يذكر (أنستاسيوس) أنه صار إمبراطور الروم وأنه كان لا يزال على عرش الدولة إلى وقته مع أن هذا الكاتب لا بد أن يكون هو الكاتب الذي علق على قوله «لا يزال» ، فالحقيقة أن النسخ المخطوطة التي كانت في المكتبة كانت تنقل حرفاً حرفاً ولفظاً لفظاً عن أصحابها وهي ترجع إلى أقدم الأزمان وأكثرها كتب في وقت حدوث الحوادث التي تصفها وهذه الحقيقة تجعل لتلك الوثائق أكبر قيمة. حقاً إن تلك الدواوين لا تخلو من ذكر خوارق المألوف والمعجزات كما أنها لا تخلو من الأخطاء كما لا يخلو ديوان مؤرّخ عربي منها، ولكنا إذا استبعدنا من وثائق التاريخ القديم كل ما تشوبه الخرافات أو تتخلله الأخطاء، وإذا نحن اغفلنا تلك الوثائق فلم نعتد بدلالتها لم يبق لنا إلا القليل في أي باب من أبواب التاريخ ـ وإنا نقول إجمالاً غير وجلين ولا موارين إن أخبار دواوين تراجم البطارقة صادقة في جملتها فيما تنص عليه من أخبار التاريخ وقد ثبت ذلك وخلص من كل شك.

لقد خرجنا عما كنا فيه وطال بنا القول في سواه، غير أنه لم يكن لنا بد من ذلك لكي ندحض حجة الدكتور (لين بول) في تجريح دلالة ساويرس. وقد تمسك الدكتور (لين بول) بكلمة خيل إليه أن ساويرس قالها وهي اعتراف بعدم

معرفة اللغة اليونانية أو القبطية. حقاً لقد حدث هذا الاعتراف وصاحبه هو كاتب المقدمة الثالثة للكتاب، ولكن قام الدليل القوي على أن اسم ساويرس قد ألصقه الناسخ خطأً بتلك المقدّمة ولم يكن في الإمكان أن يكون ساويرس كاتبها. فإذا نحن فحصنا الأمر لم نجد إلا تبريراً ضعيفاً ـ أو لعلنا لا نجد تبريراً لقول من يقول إن ساويرس لم يعرف اللغة اليونانية ولا اللغة القبطية، وإذا أمعنا النظر وجدنا كل ما يدل على أن تاريخه كان تصنيفاً بالغاً مبلغاً عظيماً من الدقة قائماً على أساس من الوثائق الصحيحة. فمن الخطأ على ذلك أن نجرح دلالته. وفي الحق إنا لا نعلم أن مؤرخاً واحداً من المؤرخين العرب يمكن أن نظهر أن تاريخه يعدل كتاب ساويرس في أنه قائم على سلسلة غير منقطعة من الأخبار المدوّنة التي كتب أكثرها كتاب عاشوا في عصرها، فإن المؤرخين العرب يروون أخباراً عدة عن العصور القديمة، ولكنهم قلما ينقلون عن الوثائق الأصلية نصوصها أو يسندون أخبارهم إليها. ومعنى هذا القول إن التاريخ القبطي قائم على أساس أقرب إلى العلم وأمتن في الدلالة، ألا وهو أساس الوثائق المخطوطة.

وبعد فإن ما ذكرناه آنفاً يدل على أن لكتاب ساويرس قيمة عظيمة بين مصادر التاريخ، وعلى أن قوله في المقوقس وشخصيته لا يجوز أن يغفل بغير روية ولا فحص. فلنمض الآن إلى قول ساويرس أو بقول أدق لنمض إلى قول المؤرّخ الذي ترجم حياة بنيامين لنرى ما فيه. قال:

«ولّى هرقل قيرس حاكماً على مصر وجعل له ولاية الدين والحكم معاً» فلما جاء قيرس إلى الإسكندرية أنذر بنيامين فهرب إلى دير بالصحراء في الصعيد وبقي به مختفياً مدّة عشر سنوات. قال المؤرّخ: «وكانت تلك السنوات هي التي حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر» ثم قال بعد ذلك عن قيرس إنه «حاكم الإسكندرية الكافر الذي كان بطريقاً وحاكماً من قبل الروم» وهذا القول يؤكد أن قيرس كان هو المقوقس تأكيداً لا إبهام فيه. وقد بينا أن هذا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء في النسخة العربية من تقويم القديسين إذ جاء فيها: «كان

المقوقس كبير المذهب الخلقيدوني وقد جعل حاكماً على مصر وبطريقاً لها» كما أنه يتفق مع النسخة الأثيوبية من ذلك التقويم إذ جاء فيها: «المقوقس أي الحاكم والبطريق في الإسكندرية وفي جميع بلاد مصر». وقد أظهرنا كذلك الاتفاق التام مع ما جاء في الوثائق المخطوطة (البودلية)، وهي مما تخلف عن ذلك العصر، وفيها نص على أن المقوقس كان يجمع الرئاستين رئاسة الدين ورئاسة جباية الأموال في مصر. كما أننا أظهرنا أن وثيقة مخطوطة سريانية تختلف عن زمن قريب من ذلك العصر وهي الديوان المجهول الكاتب (Chron-icon Anonymum) قد جاء فيها أن بطريق الإسكندرية هو الذي دافع العرب عن مصر في حين أن أبن عبد الحكم يصف عامل هرقل على مصر بأنه كان يجمع سلطة الحرب الكاملة وسلطة جباية الأموال ويسميه بالمقوقس.

وقول مؤرخي اليونان يوصلنا إلى النتيجة نفسها فإن نيقفوروس يذكر أن هرقل أرسل (ماريانوس) إلى الإسكندرية ليشترك مع قيرس بطريق الإسكندرية في الاستقرار على خطة يسيران عليها مع العرب ثم يقول في موضع آخر إن قيرس كان أسقف الإسكندرية.

وتيوفانز أصرح قولاً إذ يقول «ولما مات جورج (البطريق الملكاني أو الخلقيدوني) أرسل قيرس ليكون أسقف الإسكندرية بعده» ولما ذكر العرب قال «فغزوا مصر واتهم قيرس بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل إليه الإمبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر».

فالحقائق التي يدل عليها قول هذين المؤرّخين هي أوّلاً أنهما على أن قيرس كان بطريق الإسكندرية. ويقول نيقفوروس إن (مريانوس) كان قائداً حربياً أرسله هرقل وأمره أن يشترك مع قيرس في الاحتيال في أمر العرب خاصة وهذه عبارة تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا، كما كان له أمر الدين في مصر في حين أن تيوفانز يقول إن قيرس عندما رضيَ بدفع الجزية للعرب غضب عليه هرقل وأمره بالعودة من مصر وهذه العبارة كذلك تدل على أن قيرس كان له أمر

الدنيا إذ كان نائباً عن هرقل ولا شك أن تيوفانز يعني بقوله هذا معاهدة مصر التي رضي بها قيرس ثم ردّها هرقل غاضباً.

وما أقرب الصلة بين قول هذين المؤرخين اليونانيين وبين قول مؤرخي العرب اللهم إلا في أمر واحد وهو أن العرب يذكرون اسم المقوقس في المواضع التي يذكر فيها اليونان اسم قيرس, فإن مؤرّخي العرب متفقون على أن الذي صالح عمراً هو المقوقس وأن ذلك الصلح كان مشروطاً فيه الرجوع إلى هرقل لموافقته وأن هرقل غضب وردّه حانقاً ـ حقاً إن العرب لا يذكرون أن هرقل أمر المقوقس بالعودة من مصر، ولكن المؤرّخ الذي كان قريباً من ذلك العصر وهو حنا النقيوسي ذكر أن قيرس أمره هرقل بالعودة والخروج من مصر.

بقي علينا أن نذكر باختصار ما قاله مؤرّخان مسيحيان من مؤرخي العرب وهما أبو صالح وسعيد بن البطريق (أوتيكيوس) فقد قال أبو صالح إن المقوقس ولاه هرقل على مصر وقال كذلك إن السنوات العشر التي كان فيها البطريق بنيامين طريداً في منفاه كانت السنوات التي حكم فيها المقوقس مصر. ولسنا ننكر أن أبا صالح يقول إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا ولا ننكر أن سواه من المؤرّخين يذكرون له أسماء أخرى، ولكن حسبنا أن نقول إنه لم يورد أحد من المؤرّخين الأوّلين اسماً ما لحامل ذلك اللقب المقوقس فإذا جاء ذكر اسم له بعد موت المقوقس بخمسة قرون أو ستة لم يكن ذلك دليلاً يقاوم الأدلة المتراصة المتراكمة التي تدل على أن المقوقس هو قيرس، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن أبا صالح الأرمني يتفق مع مؤرّخي القبط واليونان والمصريين في ذكر العمل الذي كان يعمله المقوقس ويتفق مع ساويرس في أن المقوقس كان المضطهد الخلقيدوني الذي اضطهد القبط وطرد بنيامين إلى منفاه.

وأما سعيد بن البطريق (سنة ٨٧٦ ـ ٩٣٩) فقد كتب قبل أبي صالح بنحو ثلاثة قرون ويجب أن نذكر أنه لم يكن خلقيدونيّاً فحسب، بل قد كان بطريقاً ملكانياً لمصر وهو يقول «وبعد هرب جورج صار قيرس بطريق الإسكندرية وكان مارونياً على مذهب هرقل» وقال في موضع آخر «وكان العامل على الخراج

بمصر المقوقس من قبل هرقل الملك» ثم قال «وكان يعقوبيـاً (أي قبطيـاً) يكره الروم ولكنه كان يخشى أن يظهر عقيدته اليعقوبية خوفاً من أن يقتله الروم».

ولا شك في أن ذلك المؤرّخ الذي كان بطريقاً ملكانياً كان شديد الحرص على أن يزيل عن قيـرسّ معرّة تسليم مصـر إلى العرب فـاضطره ذلـك إلى أن يتورّط في أقوال عجيبة، فلما قال إن قيرس جاء إلى مصر عند تولية هرقل ليكون بـطريقاً لـلإسكنـدريـة، قـال في نفس الصفحـة إنـه لم يـول بـطريق ملكـاني للإسكندرية لمدّة سبع وتسعين سنة بعد هروب جورج وهذا قلب جريء ومسخ لحقائق التاريخ فالظاهر من هذا أن ابن البطريق لا يرضى بأن يسلم بأن قيرس كان بطريقاً ملكانياً وهو في الـوقت عينه يتهم المقـوقس بأنـه كان قبـطياً يخفي عقيدته في قلبه وهذه التهمة اعتراف منه بأن المقوقس كان ملكانياً في ظاهره ـ حقاً إن ابن البطريق لا يقول صراحة إن قيرس كان المقوقس ولكنه هذا الاتفاق في قوله ذو دلالة عظمى ـ ولقد قال إن المقوقس كان العامل على الخـراج من قبل هرقل فهو بذلك يتفق مع ابن عبد الحكم ومع الوثائق القبطية (البودلية) وابن البطريق مثل سائر مؤرّخي العـرب يذكـر أن المقوقس كـان حاضـراً في حصن بابليون عند الحصار ثم خرج منه إلى الروضة لمفاوضة عمرو وأنه صالح عمراً بعد ذلك على معاهدة مصر. ولكنا نرى أن ابن البطريق لم يذكر أن قيـرس هو المقوقس لأنه كان يجهل ذلك الأمر لا لأنه كان يقصد التضليل والتـدليس ولقد ظهر جهله بذلك الأمر في موضع آخر إذ قال إن المقوقس كان حيّاً في وقت ثورة منويل.

إلى هنا قد بينا ما هنالك من أدلة بينها اتفـاق عجيب في بعض الأحايين واختلاف واسع في أحايين أخرى وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصلية ومنها ما تخلف عن العصر الذي نصفه وهي من أصول متباينة: منهـا اليونـاني والقبطي والسرياني والعربي، وكلها تدل على أن المقوقس إنما هو قيرس بطريق الإسكندرية والعامل على الخـراج والحاكم العـام على مصر في وقت الفتـح. وليس ينقض هـذا الرأي أن يقـول قائـل إن مؤرّخي العرب قـد يـطلقـون لقب

المقوقس أحياناً على شخص يسمونه ليس هو قيرس، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ولكنا ننكر كل الإنكار تلك النتيجة التي يذهب اليها أصحاب ذلك القول وهي أن لقب المقوقس لم يكن علماً على شخص معين واحد وحجتهم في ذلك أنه قد أطلق خطأ في بعض الأحوال على أشخاص متعدّدين. ويلوح لنا أن العلامة (كايتاني) من بين من يذهبون هذا المذهب. وأما الحقيقة التي نراها فهي أن المؤرخين العرب إنما كتب أكثرهم وليس عنده عن المقوقس أكثر من صورة ضئيلة مبهمة عن المقوقس وأنه كان حاكماً على مصر فليس من العجيب أن نجدهم يصورّونه أحياناً مشتركاً في أعمال أو حوادث لم يكن مشتركاً فيها بنفسه أو لم يحضر حدوثها. ولا شك أنهم قد ضلوا في أمر اسمه وشخصه ولذلك فهم يخطئون فيها. ولكن المسألة التي نحن بصددها باقية وهي أن يكشف خلافهم عن حقيقة شخصية المقوقس وأن نعرف من كان بين الناس. ولم يذكر مؤرخ عربي وما كان له أن يذكر أن ذلك اللقب قد أطلق على ثلاثة أشخاص كلهم حق له أن يلقب به ـ وليس في طاقة المنطق أن يبيح لقائل أن يقول إن وجود الخلاف يجعل ذلك اللغز متعسراً على العقول لا تستطيع حله بل إن واجب النقد التاريخي أن يصفي ما هنالك من خلاف وأن يزيح ما تراكم منه على الحقيقة فيكشفها ويجلوها ولعلنا يحق لنا أن نعتقد أنه إذا عرضت الأدلة عرضاً لا ميل فيه ولا تحيز أمكن أن نصل إلى نتيجة مؤكدة ليس فيها شك وهي أن المقوقس لم يكن سوى (قيرس) وأنه لا ينبغي لذلك اللقب أن يطلق على سواه من الناس.

تمَّ بحمد الله تعالى
والصلاة والسلام على نبيه المصطفى

الحوادث التاريخية

الثورة على هرقل في بنطابولس	سنة ٦٠٩م
النضال من أجل مصر	سنة ٦٠٩ ـ سنة ٦١٠
تولية هرقل امبراطوراً	٥ أكتوبر سنة ٦١٠
إغارة الفرس على الشام	سنة ٦١٤
حصار الفرس لمدينة دمشق	نهاية مايو سنة ٦١٥
زيارة أثناسيوس لمدينة الإسكندرية	أكتوبر سنة ٦١٥
مسير الفرس لمصر	خريف سنة ٦١٦
فتح الفرس لبابليون أو تسليمها لهم	ربيع سنة ٦١٧
فتح الفرس لمدينة الإسكندرية	نهاية سنة ٦١٨
إخضاع مصر نهائياً	سنة٦١٨
بدء حرب هرقل الكبرى مع الفرس	ربيع سنة ٦٢٢
هجرة الرسول ﷺ	١٦ يوليو سنة ٦٢٢
جلاء الفرس عن مصر	سنة ٦٢٧
كتاب الرسول إلى الحكام	٦٢٧ ـ ٦٢٨
هزيمة كسرى النهائية وموته	فبراير سنة ٦٢٨
الاحتفال بإعلاء الصليب في دمشق	١٤ سبتمبر سنة ٦٣١
بعث قيرس بطريقاً للإسكندرية	سنة ٦٣١
الاضطهاد الأعظم للقبط	٦٣١ ـ ٦٤١

وفاة الرسول	سنة ٦٣٢
فتح فلسطين والشام على يد العرب	٦٢٩ - ٦٤٠
وداع هرقل للشام	سنة ٦٣٦
تسليم بيت المقدس لعمر بن الخطاب	سنة ٦٣٧
غزو مصر ووصول عمرو إلى العريش	١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩
الاستيلاء على بلوز (الفرما)	يناير سنة ٦٤٠
غارة عمرو إلى الفيوم	مايو سنة ٦٤٠
وصول الأمداد بقيادة الزبير	٦ يونيو سنة ٦٤٠
موقعة هيليوبوليس وفتح مصر	يوليو سنة ٦٤٠
بدء حصار حصن بابليون	سبتمبر سنة ٦٤٠
معاهدة بابليون الأولى مع قيرس ورفض هرقل	أكتوبر سنة ٦٤٠
استدعاء قيرس	نهاية سنة ٦٤٠
موت هرقل	١١ فبراير سنة ٦٤١
تسليم بابليون والمعاهدة الثانية	٩ أبريل سنة ٦٤١
الاستيلاء على نيقيوس	١٣ مايو سنة ٦٤١
الهجوم على الإسكندرية	نهاية يونيو سنة ٦٤١
عودة قيرس إلى مصر	١٤ سبتمبر سنة ٦٤١
تسليم الإسكندرية	٨ نوفمبر سنة ٦٤١
إعادة حفر ترعة تراجان بناء الفسطاط	شتاء ٦٤١ - ٦٤٢
موت قيرس	٢١ مارس سنة ٦٤٢
تعيين من يخلف قيرس	١٤ يوليو سنة ٦٤٢
جلاء الروم عن الإسكندرية	١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢
بعث عمرو إلى بنطابولس	شتاء ٦٤٢ - ٦٤٣
عودة بنيامين	خريف سنة ٦٤٤
ثورة الإسكندرية بقيادة منويل	نهاية سنة ٦٤٥

موقعة نيقيوس الثانية	آخر فصل الربيع سنة ٦٤٦
إعادة فتح العرب لمدينة الإسكندرية	صيف سنة ٦٤٦
استدعاء عمرو من مصر	خريف سنة ٦٤٦
تولية عمرو حاكماً لمصر	أغسطس سنة ٦٥٨
موت بنيامين	٣ يناير سنة ٦٦٢
موت عمرو	٦ يناير سنة ٦٦٤

البطارقة الملكانيون

البطريق	تاريخ التولية	تاريخ الوفاة
تيودور	–	٦٠٩
حنا الرحوم	٦٠٩	٦١٦ أو ٦١٧
جورج	٦٢١	٦٣٠ أو ٦٣١
قيرس	٦٣١	٢١ مارس ٦٤٢
بطرس	١٤ يوليو ٦٤٢	غير معلوم

بطارقة القبط

انستاسيوس	يونيه	٦٠٤	١٨	ديسمبر	٦١٦
اندرونيكوس	ديسمبر	٦١٦	٣	ينـاير	٦٢٣
بنيـامين	ينـاير	٦٢٣	٣	ينـاير	٦٦٢
أجاثـو	ينـاير	٦٦٢	١٣	أكتوبر	٦٨٠
حنا السمنودي	أكتوبر	٦٨٠	٢٧	نوفمبر	٦٨٩
إسحـاق	٤ ديسمبر	٦٩٠	٥	نوفمبر	٦٩٣
سيمـون	ينـاير	٦٩٤	١٨	يوليو	٧٠١

أهم المصادر العربية

ابن الأثير ـ الكامل، المطبوع بليدن سنة ١٨٦٨ ـ ١٨٧٤، لناشره C.J. Tornberg.

ابن حجر ـ الإصابة في معرفة أسماء الصحابة (أربعة أجزاء)، المطبوع سنة ١٨٥٦، لناشريه A. Spranger وآخرين.

ابن حوقل البغدادي ـ المسالك والممالك (ضمن المكتبة الجغرافية العربية)، المطبوع سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧٩، لناشره De Goeje M. J.

ابن خلدون ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (سبعة أجزاء)، المطبوع ببولاق سنة ١٢٨٣هـ.

ابن خلكان ـ وفيات الأعيان (أربعة أجزاء)، المطبوع بباريس سنة ١٨٤٢، لناشره De Slane.

ابن دقماق ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبوع ببولاق سنة ١٨٩٣، لناشره Dr. K. Vollers.

ابن رستاه (أحمد بن عمر) ـ الأعلاق النفيسة (ضمن المكتبة الجغرافية العربية)، المطبوع سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧٩، لناشره De Goeje, M. J.

ابن عبد الحكم ـ نسخة خطية بباريس . M . S .

ابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمذاني) ـ البلدان (ضمن المكتبة الجغرافية العربية) ، المطبوع سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧٩ ، لناشره De Goeje M. J.

ابن قتيبة ـ المعارف، المطبوع سنة ١٨٥٠ ، لناشره Wüstenfeld .

ابن واضح اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي (جزءان)، المطبوع سنة ١٨٨٣ ، لناشره T. Houtsma و (المكتبة الجغرافية العربية) .De Goeje, M. J .

أبو صالح ـ تاريخ أبي صالح الأرمني، المطبوع بأكسفورد سنة ١٨٩٥ ، لناشريه Etts and Bulter .

أبو الفدا ـ جغرافية أبي الفدا، ثلاثة مجلدات المطبوع بباريس الأصل سنة ١٨٤٠ ، الترجمة سنة ١٨٤٨ ، ١٨٨٣ ، لناشره J. T. Renaud.

أبو الفرج بن العبري ـ مختصر تاريخ الدول، المطبوع سنة ١٦٦٣ ، في Oxon لناشره Pococke .

تاريخ الكنائس (ثلاثة أجزاء)، المطبوع بلوفان سنة ١٨٧٢ ، لناشريه Abbe-loos et Lamy .

أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة (جزءان)، المطبوع سنة ١٨٥٥ ـ ١٨٦١ ، لناشره Juynboll et Matthes .

الإدريسي ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جغرافية بلاد النوبة، المطبوع بباريس سنة ١٦٠٩ .

الاصطخري (إبراهيم بن محمد) ـ مسالك الممالك (ضمن المكتبة الجغرافية العربية)، المطبوع سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧٩ ، لناشره .De Goeje, M. J .

البلاذري ـ فتوح البلدان، المطبوع سنة ١٨٦٦ ، لناشره .De Goeje, M. J .

ساويرس الأشموني ـ سير البطاركة بالمدينة العظمى الإسكندرية .

سعيد بن بطريق ـ (أوتيكيوس) نظم الجوهر، طبع في باريس.

السيوطي ـ حسن المحاضرة، المطبوع بمصر سنة ١٢٩٩هـ.

تاريخ الخلفاء، المطبوع بكلكتا سنة ١٨٨١ ، ترجمة H.S. Jarrett .

الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك (أربعة أجزاء) (١) المطبوع بباريس سنة ١٨٧١ ، لناشره Zotenberg (٢) في (Lugd.Bat) سنة ١٨٧٩ ـ ١٨٩٠ لناشره De Goeje .

عبد اللطيف (البغدادي) ـ أخبار مصر. الإفادة والاعتبار بذكر الخطط والآثار،

المطبوع بأكسفورد سنة ١٨٠٠، لناشره White.

القزويني - آثار البلاد وأخبار العباد، المطبوع سنة ١٨٤٨ - ١٨٤٩، لناشره Wüstenfeld.

الماوردي - الأحكام السلطانية، المطبوع سنة ١٨٥٣، لناشره M. Enger.

المرتضى - تاريخ المصريين المطبوع بلندن سنة ١٦٧٢، ترجمة J. Davies.

المسعودي - مروج الذهب، المطبوع بباريس سنة ١٨٦٣، لناشرة Barbier de Maynard.

المقريزي - الخطط (جزءان)، المطبوع ببولاق سنة ١٢٧٠هـ.

المكين - تاريخ العرب، المطبوع سنة ١٦٢٥، (Lugd Bat) لناشره T. Erpenius

ناصري خسرو - سفر نامه، المطبوع بباريس سنة ١٨٨١، لناشرها C. Schefer.

النووي - تهذيب الأسماء، المطبوع بجوتنجن سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٧، لناشرها Wüstenfeld.

الواقدي - فتوح مصر المطبوع بليدي سنة ١٩٢٥، ناشره Hamakar.

ياقوت - معجم البلدان (ستة أجزاء)، المطبوع بليبزج سنة ١٨٦٦ - ١٨٧٣، لناشرها Wüstenfeld.

أهم المصادر الإفرنجية

Amélineau, E: Vie d'un Évéque de Keft. Paris, 1887.
— Fragments Coptes, and C., in Journal Asiatique, 1888.
— Histoire du Patriarche Copte Isaac. Paris, 1890. 8 vo.
— Vie de Shenoudi in Mém. Miss Arch. Franç. t. IV. i. p. 340.
— Vie de Samuel: id., t. IV. ii. p. 774.
— Géographie de l'Egypte à Epoque Copte. Paris, 1893. and c. 8vo.
— Histoire des Monastéres de la Basse Egypte. Paris, 1894.
Ammianus Marcellinus.
Botti, G. : L'Acropole d'Alexandrie et le Sérapeum. Alexandrie, 1895. 8 vo.
— Fouilles à la Colonne Théodosienne. Alexandrie, 1897. 8 vo.
Brosset: Collection d'Historiens Arméniens. St. Pétersbourg, 1874. 2 tom. 8 vo.
Bury, Prof. J. B. : Gibbon's Decline and Fall. London, 1896, 7 vols. 8 vo.
— History of the Later Roman Empire. London, 1889. 2 vols. 8 vo.
Butcher, E.L. : Story of the Church of Egypt. London, 1897. 2 vols. 8 vo.
Butler, A. J. : Ancient Coptic Churches of Egypt. Oxford, 1884. 2 vols. 8 vo.
Cedrenus.
Champollion: L'Égypte sous les Pharaons. Paris, 1814. 2 vols. 8 vo.
Chronicon, Orientale.
Chronicon Paschale, ap. Migne, Patr. Gr. t. 92.
Crum, W.E. : Coptic Ostraka. London, 1902. 8 vo.
D'Anville: Mémoires sur l'Égypte. Paris, 1766. 4 to.
De Bock, W. : Matériaux pour servir à l'Archéologie de l'Égypte Chrétienne. St. Pétersbourg, 1901. Fol., with plates.
De Goeje, M.J. : *v.* Balâdhurî and Tabarî.

— Mémoire sur les Carmathes du Bahrain. Leyde, 1862.
— Conquête de la Syrie. Leyde, 1804.
— Bibliotheca Geographica Arabicorum. Lugd. Bat. 1870-79. 8 vo.
Diehl, C. : L'Afrique Byzantine. Paris, 1896. 8 vo.
— Justinien et la Civilisation Byzantine au VI[e] Siècle. Paris, 1901. 8 vo.
Drapeyron, L. : L'Empereur Héraclius. Paris, 1869. 8 vo.
Dulaurier: Chronologie Arménienne. Paris, 1859.
Egypt: Exploration Fund Reports.
Epiphanius: De Ponderibus et Mensuris.
Eunapius: Vita Aedesii.
Eusebius: Historia Ecclesiastica Ed. Heinechen. Leipzig, 1828. 3 vols. 8 vo.
Eutychius, Patriarcha Alexandrinus: Annales: ap. Migne, Patr. Gr.
Evetts and Butler: *v.* Abû Sâlih.
Gayet, A. : Le Costume en Égypte, Paris, 1900.
— L'Art Copte. Paris, 1902. 8 vo.
Gelzer, H. : Leontios von Neapolis Leben des Hiligen Johannes. Leipzig, 1893. 8 vo.
George of Pisidia: ap. Migne.
Gregorovius, F. : The Emperor. Hadrian: tr. M. E. Robinson. London, 1898. 8 vo.
Hamaker: Expugnatio Memphidis: *v.* Wakidî.
Holm, A. : History of Greece: tr. F. Clarke. London, 1898. 4 vols. 8 vo.
Hyvernat, H. : Actes des Martyrs de l'Égypte. Paris, 1886. Fol.
Jarrett, H. S. : History of the Caliphs: *See* Suyûtî.
Karabacek, J. : Mittheilungen aus der Sammlung der Papyrus. Erzherzog Rainer. Wein, 1887. and c. Fol.
— Papyrus Erzherzog Rainer: Führer durch die Ausstellung. Wien, 1894. 4 to.
Koelle, S.W. : Mohammed and Mohammedanism. London, 1889. 8 vo.
Kyrilolos II, Mgr. : Le Temple du Césareum, in Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie, V[e] Série, No. 6, Fév. 1900 (Le Caire).
Lane-Poole, *Prof.* S. : Art of the Saracens in Egypt. London, 1886. 8 vo.
— Egypt in the Middle Ages. London, 1901. 8 vo.
— The Story of Cairo in Mediaeval Towns' Series. London 1902.
Le Beau, C. : Histoire du Bas Empire. Ed. de Saint-Martin. Paris, 1824-38. 21 vols. 8 vo.

Le Strange, G. : Palestine under the Moslems. London, 1890. 8 vo.
Lethaby and Swainson: St. Sophia, Constantinople. London, 1894. 8 vo.
Mahaffy, *Prof.* J.P. : Empire of the Ptolemies. London, 1895.
Malan, S.C. : Original Documents of the Coptic Church. London, 1874. 8 vo.
Matter, M. : Histoire de l'École d'Alexandrie. Paris, 1840. 2 vols. 8 vo.
Michel Le Grand: Chronique, Ed. V. Langlois. Paris, 1866. 4 to.
Michelle Syrien: Chronique. Ed. J. B. Chabot. Paris, 1899, and c. 4to.
Michelle, R. L. : Egyptian Calendar. London, 1900. 8 vo.
Milne, J. G. : Egypt, under Roman, Rule. London, 1898. 8 vo.
Moschus, John: Pratum Spirituale. Ap. Migne, Patr. Gr.
Murtadi: Egyptian History. Tr. J. Davies. London, 1672. 12 mo.
Neroutson Bey: L'Ancienne Alexandrie. Paris, 1888. 8 vo.
Nicephorus.
Nicephorus Callistus.
Niebuhr, C. : Voyage en Arabie. Amesterdam, 1776. 4 vols. 4 to.
Nikiou, Jean De: Chronique. Ed. Zotenberg in t. XXIV of Notices et Extraits des Mss. de la Bibl. Nat., and c. Paris, 1883. 4 to.
— Also English translation lent by Dr. Charles.
Nourisson, V. : La Bibliothèque des Ptolémés. Alexandrie, 1893. 4 to.
Ockley S. : History of the Saracens. Ed. Bohn. London, 1847. 8 vo.
Orosius: Historiae.
Palestine Pilgrims Text Society's Publications.
Papyri: Corpus Papurorum Raineri. Ed. J. Krall. (Coptische Texte).
Fayûm Towns and their Papyri. Ed. Grenfell and Hunt.
The Amherst Papyri. Ed. P. E. Newberry.
Oxyrhynchus Papyri. Ed. Grenfell and Hunt.
Pereira, F. M. E. : Vida do Abba Samuel do Mosteiro do Kalamon. Lisboa, 1894. 8 vo.
— Vida do Abba Daniel do Mosteiro de Socété. Lisboa. 1897. 8 vo.
— Historia dos Martyres de Nagran. Lisboa, 1899 . 8 vo.
Quatremère, E. : Recherches sur la langue et la littérature de l'Égypte. Paris, 1808. 8 vo.
— Mémoires Géographiques et Historiques sur l'Égypte. Paris, 1811. 2 tom. 8 vo.
Renaudot: Historia Patriarcharum Alexandrinorum. Paris, 1713. 4 to.
Rufinus: Vitae Patrum.
— Historia Ecclesiastica.
Sebeos: Translation lent by Mr. Conybeare.

Severus of Ushmûnain: Brit. Mus. Ms. Or. 26, 100; Paris, Ms., and M. Simaikah. Bey's Cairo Ms.
Sharpe, S. : Egypt under the Romans. London, 1842. 8 vo.
— History of Egypt. Ed. Bohn. London, 1885. 2 vols.
Simaikah, A. : La Province Romaine de l'Égypte. Paris, 1892. 8 vo.
Socrates: Historia Ecclesiastica.
Sophronius: Opera, ap. Migne, Patr. Gr.
Sozomen: Historia Ecclesiastica.
Strzygowski, J. : Orient oder Rom. Leipzig, 1901. 8 vo.
Susemihl, F. : Geschichte der Griechischen Litteratur in der Alexandrinerzeit. Leipzig, 1891-2. 2 vols. 8 vo.
Tarikh Regum Persiae. Ed. W. Schikard. Tübingen, 1628. to.
Theodoret: Historia Ecclesiastica.
Theophanes.
Usener, H. : De Stephano Alexandrino. Bonn, 1880. 8 vo.
— Acta Martyris Anastasii. Bonn, 1894, 4 to.
Vansleb: Histoire de L'Eglise d'Alexandrie. Paris, 1677. 12 mo .
— Nouvelle Relation d'un Voyage fait en Egypte. Paris, 1698. 12 mo.
Von Gutschmid, A. : Kleine Schriften, Leipzig, 1889-94. 8 vo.
Von Ranke : Weltgeschichte. Leipzig, 1884. Several vols. 8 vo.
Weil: Geschichte der Chalifen. Mannheim, 1846. 3 vols. 8 vo.
Wright, T. : Christianity in Arabia. London, 1895. 8 vo.
Zachariah of Mitylene: Chronicle tr. Hamilton and Books. London, 1889. 8 vo.
Zoega, G. : Catalogus Codd Copticorum Mss. Romae, 1810. Fol.

تــذيــيــل
بالألفاظ والعبارات اليونانية
الواردة بهذا الكتاب وهي المشار
إليها بأرقام في أعلاها نجمة هكذا :
« ١* ، ٢* ، ٣* إلخ »

Page	No.	Greek Word
61	1	Νίκιον
87	2	σφάζεται ἀπὸ ἐναντίων
92	3	Τὸ Ἔννατον
	4	Ἔνατον
	5	Σαλαμᾶ
	6	Τὸ Πέμπτον
	7	Ὀγδωκαιέκατον
99	8	Σαρβαραζᾶς
	9	Σαρβαναζᾶς
	10	Σάρβαρος
100	11	Ρουμίαζαν
112	12	παραγενόμην ἐν Ἀλεξανδρείᾳ κατὰ τὸν καιρὸν ἐν ᾧ εἰσῆλθον οἱ Πέρσαι ἐν Αἰγύπτῳ, ἔτι ὃν των αὐτῶν ἐπὶ τὰ μέρη τῆς Νικίου καὶ Βαβυλῶνος τῆς κατ' Αἴγυπτον.
	13	ταραχὴν καὶ θόρυβον τῆς Περσικῆς ἐπιδρομῆς.
118	14	ὡς ἔμελλεν Ἀλεξάνδρεια τοῖς ἀθέοις Πέρσαις παραδίδοσθαι.
136	°15	Λειμὼν Πνευματικός (توضع قبل كلة « والأشهر عنه » من تعليق (١) صفحة ١٣٥)
	15	ὠφελείας χάριν
	16	ὁ σχολαστικός
137	17	θεωρούμενος
	18	θεωρία

Page	No.	Greek Word
137	19	διὰ τὸ εἶναι αὐτὸν πολύβιβλον ὑπὲρ πάντας τοὺς ἐν Ἀλεξανδρείᾳ ὄντας καὶ προθύμως παρασχεῖν τοῖς θέλουσιν.
144	19	χάρτης
155	20	Σαῆν—Σάϊτος—Σαλβάρας.
192	21	ΕΝ ΤΟΥΤΩΙ ΝΙΚΑ.
	22	ὅπως ὁ πείσας ἠρεμεῖν τοὺς βαρβάρους πείσῃ σὺν αὐτοῖς ἠρεμεῖν τὰς αἱρέσεις.
196	23	λυπηθέντες ἀπῆλθον πρὸς τοὺς ὁμοφύλους καὶ ὡδήγησαν αὐτοὺς ἐπὶ τὴν χώραν τῆς Γάζης στόμιον οὖσαν τῆς ἐρήμου κατὰ τὸ Σίναιον ὄρος.
198	24	ἄρας καὶ τὰ τίμια ξύλα, ἐπὶ τὴν Κωνσταντινούπολιν ἀπῄει.
	25	ξύλα «ἀπὸ Ἱεροσολύμων»
292	26	αἰκισομένῳ
314	27	χαιρεου
361	28	φοσσᾶτον
	29	φοσσᾶτον
	30	φοσσᾶτον
362	31	φοσσᾶτον
363	32	φοσσᾶτον
389	33	εἰσὶ γὰρ παράδεισοι μέσον τῆς πόλεως ἐν τοῖς οἴκοις τῶν μεγιστάνων.
400	34	ἀγνεύοντας
	35	τῷ τε Σεραπείῳ κατελυμήναντο καὶ τοῖς ἀναθήμασιν ἐπολέμησαν.... τοῦ δὲ Σεραπείου μόνον τὸ ἔδαφος οὐχ ὑφείλοντο διὰ βάρος τῶν λίθων, οὐ γὰρ ἦσαν εὐμετακίνητοι, συαχέαντες δὲ ἅπαντα καὶ συνταράξαντες κ.τ.λ.
401	36	εἰσιόντι δὲ παρ' αὐτὴν τὴν ἀκρόπολιν τέτταρσι πλευραῖς εἷς χῶρος ἴσαις διήρεται (? διήρηται) καὶ τὸ σχῆμα πλαίσιον τυγχάνει τοῦ μηχανήματος.
	37	τὸ σχῆμα τοῦ μηχανήματος

Page	No.	Greek Word
402	38	Βίος 'Αλεξάνδρου
	39	τῇ δεξιῇ χειρὶ κομίζοντα θηρίον πολύμόρφον τῇ δὲ εὐωνύμῳ σκῆπτρον κατέχοντα
403	40	παρῳκοδομῆνται δὲ σηκαὶ τῶν στοῶν ἔνδοθεν οἱ μὲν ταμεῖα γέγενημένοι ταῖς βίβλοις, τοῖς φιλοπονοῦσιν ἀνεῳγμένοι φιλοσοφεῖν καὶ πόλιν ἅπασαν εἰς ἐξρυσίαν τῆς σοφίας 'ἐπαίροντες' οἱ δὲ τοὺς πάλαι τιμᾶν ἱδρύμενοι θεούς.
404	41	τὸ μὲν οὖν Σεράπιον.
	42	ᾧδε ἦλω καὶ μετ' οὐ πολὺ εἰς ἐκκλησίαν μετεσκευά σθη 'Αρκαδίου τοῦ βασιλέως ἐπώνυμον Σεράπιον
	43	μετεσκευάσθη
422	44	τὸν γραμματικὸν Ιωάννην ὃς ἐπεκλήθη Φιλόπονος
423	45	ἀκμάσαντα ἐπὶ τῆς παρούσης ἡγεμονίας
425	46	περικοπτόμενος τὸν στόλον ἠναγκάσθη διὰ πυρὸς ἀπώσασθαι τὸν κίνδυνον ὃ καὶ τὴν μεγάλην βιβλιοθήκην ἐκ τῶν νεωρίων ἐπινεμόμενον διέφθειρεν.
	47	τάς τε ἀποθήκας καὶ τοῦ σίτου καὶ τῶν βίβλων— πλείστων δὴ καὶ ἀρίστων, ὥς φασι, γενομένων— καθῆναι
426	48	ἀποθήκη τῶν βίβλων.
	49	βιβλιοθήκη
433	50	αὐλὴ δὲ κατὰ μέσον περίστυλος
	51	αὐλή
	52	παρῳκοδόμηνται δὲ σηκὶ τῶν στοῶν ἔνδοθεν κτλ.
	53	Σαράπιδι καὶ τοῖς συννάοις θεοῖς ὑπὲρ σωτηρίας αὐτοκράτορος Καίσαρος Τραιάνου 'Αδριανοῦ Σεγαστοῦ
	54	ἐκ βάθρων ἀνέσπασε τὰ τῶν εἰδώλων τεμένη.

Page	No.	Greek Word
434	55	τῶν πανταχοῦ γῆς, καθὰ φασί τινες, μέγιστός τε οὗτος καὶ κάλλιστος
	56	λύεσθαι τοὺς ἐν Ἀλεξανδρείᾳ ναοὺς, ἀνακαθαιρει μὲν τὸ Μιθραῖον καταστρέφει δὲ τὸ Σαραπεῖον
	57	τὸ Διανύσου ἱερὸν εἰς ἐκκλησίαν μετεσκεύαζε.
	58	τοῦ ναοῦ τούτου καθαιρουμένου
436	59	Ἰσβίανος
437	60	ἐν παλαιαῖς βιβλιοθήκαις
	61	ἐν τῇ μεγάλῃ βιβλιοθήκῃ
522	62	
	63	ἐνδοξότατος
	64	μεγαυχὴς
534	65	Παρκάβιος
	66	καύχον
	67	καύχιον
535	68	καύχον
	69	καύχιον
537	°70	Παρκάβιος
538	70	μεγαυχὴς
	71	καύχον
	72	καύχιον
	73	καυκίον
	74	καυκίοθ
	75	καυκίον
539	76	καύχον
	77	καύχιον
	78	ἐκ τοῦ Καυκάσου—Καυκάσιος
	79	
540	80	καῦκος
	81	καύχα
	82	ὁ καύχιος
	83	ὁ καύχιος

Page	No.	Greek Word
540	84	ὁ ἀσεβής
	85	ὁ καύχιος
	86	ὁ Καυχάσιος
	87	ὁ Κολχικὸς
	88	Κόλχιος
541	89	ὁ καύχιος


هذه السلسلة تضم :
١- فتح العرب لمصر
٢- تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى
٣- الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على
٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى
٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل
٦- تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر
٧- ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا
٨- تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا (مجلدان)
MADBOULI BOOKSHOP
مكتبة مدبولى
6 Talat Harb SQ. Tel: 5756421
٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٥٧٥٦٤٢١